عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

الجزء الاول

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

يشتمل على بيان واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع اطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية مع تراجم العبقريين وارباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور الى الآن.

الجزء الاول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من أخبارهم طرف

المعري

مكتبة الشركة الجزائرية ـ الجزائر
مرازقة وبوداود وشركاهما
منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت

طبعة ثانية جديدة
منقحة ومزيدة
١٣٨٤هـ . ١٩٦٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك

اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد

كما جعلتها على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد

تقديم

رب أعني ...

أما بعد فباسم الحرية المقدس أتقدم ملبياً اخواني حفظهم الله تعالى الذين هم كثيراً ما اسمعوني الحاحهم المؤكد في وضع كتاب موضح لتاريخ الوطن الجزائري الكريم جامع للحقائق التاريخية مجردة آتٍ بذكر تفاصيل الوقائع معللة باسبابها ونتائجها منذ اقدم العصور الى الآن ... مع اشتراطهم عليّ بأن يكون ذلك في اسلوب سهل وتعبير حر ونظام عصري وطريقة واضحة ! ... ولعمري ان البعض من هذا في موضوع واسع كهذا لينوء بالعصبة اولى القوة فكيف بهذا العاجز الضعيف ! ... فاعتذرت للرفقة الكرام بشتى المعاذير فلم يقبلوا ، وشرحت لهم ضعفي وقصوري امام كل هذه القيود والظروف الضيقة فلم ينصفوا ، بل انهم ثبتوا مصممين على رأيهم راسخين فيه رسوخاً لا يغيره تنقل الزمان وتلونه ، ولا علل الدهر وحوادثه ... بل ما زادهم ذلك الا صلابة في التمسك برأيهم وحدة فيه ، ولسانهم الناطق يقول : لا ملجأ ولا منجى لك منه ولا سبيل الا اليه . فلله الامر من قبل ومن بعد ! ... واخيراً رضخت لطلبهم واسعفتهم في اقتراحهم « مكره اخاك لا بطل » بوضع هذا السفر المتواضع ، مقتصراً فيه على ذكر الاهم فالاهم من حوادث التاريخ الجزائري الماجد ، محكماً فيه الروح العلمية والامانة التاريخية المحضة ،

متجرداً ما استطعت من كل تحمس او انفعال كيفما كان نوعه او تعدد مثاره . جامعاً فيه ما لا يسع الانسان جهله . ولا يحسن – بالجزائري على الاخص – اغفاله ، مكتفياً في بعض المواضع بالاشارة الخاطفة الى ابرز الوقائع واهمها وذلك لضيق المجال عن التفصيل او لقلة فائدته ؛ مع الالماع الى سير العمران والحضارة الجزائرية وسيرة مشاهير الوطنيين من عباقرة الجزائر في مختلف العصور والاحقاب .

اذ دراسة التاريخ تعتبر اعظم درس ممتع لتتبع احوال الماضي في خدمة المستقبل ، فهي تعطينا امثلة واقعية تطبيقية عن سير جميع شخصيات الماضي ، وحتى الاخطاء التي ارتكبها الاشرار من الاسلاف تعطينا هي كذلك دروساً نقية عميقة البحث تبعث فينا داعي العبرة فنتجنب الوقوع في مثل تلك الاخطاء حاضراً ومستقبلاً ، والتاريخ يعيد نفسه كما قيل .

وقد مضى ولله الحمد الزمن الذي كان فيه الملوك والافراد يملكون زمام الشعوب ويفرضون سيطرتهم عليها كيفما شاءوا وشاءت لهم اهواؤهم واصبحنا بفضل الله علينا في زمن اضحت فيه السلطة بيد الشعوب فهي وحدها التي تحكم نفسها بنفسها وتقرر مصيرها ، كما ان التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واضحة جلية عن سير المدنية والثقافة التي مر بها هذا الوطن خلال العصور ، فهو نعم الاستاذ في تنمية الافكار وتوسيعها ، وحبذا الملقن والواعظ لبث الاخلاق الفاضلة ونشرها بين الناس وتثبيتها :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ونزهته جهد المستطاع عن كل تعقيد وابهام ، سالكاً فيه مسلكاً سهلا بسيطاً لا يحتاج فيه المتعلم الناشىء ولا القارىء العادي الى كدح ذهن ولا جهد فكر ولا اعنات روية . ولا ادعي الفضل في ذلك ، حيث اني لم اجىء فيه بشيء جديد او مبتكر حديث وانما هو جمع وتدوين لما كنت سطرته لنفسي وجمعته من تاريخ وطني العزيز المشتت هنا وهناك ! ... مع تنسيق نصوصه الوثيقة ووضعها حسب نظامها الطبيعي من فجر التاريخ الى الآن . وتعمدت الايجاز في القسم الاول الخاص

بما قبل الاسلام لعدم تعلق الغرض الشديد به اليوم ، واسهبت مشبعاً البحث في العصور الاسلامية اسهاباً يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده وتمجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير ، مع نفخ روح القومية فيه ، واعداده لوصل حاضره بماضيه ، حتى تتكامل فيه اركان الحياة الاربعة : المحافظة على شخصيته وميزته ، وتقديس اسلافه الامجاد ، والتمسك بدينه ، والعمل على الاشادة بوطنه ...

واعتقد انني بذلك خلصت تاريخنا الماجد من ان يبقى مكتوباً عرضاً ضمن تاريخ الامم والشعوب والاقطار المستعمرة ، او ان يكون كفصل ملحق بكتاب مبعثر مشوه العرض ، ارجو ذلك ان شاء الله .

وليس لأحد بعد الله عز وجل علي في ذلك فضل او منة الا ما انا مدين به للكتب ومؤلفيها الاعلام وهم الذين ذكرتهم منوهاً باسمائهم في صدر هذا الكتاب وهوامشه ، او ما انا مقر به لربة البيت والعفاف الجليلة الكريمة قرينتي وشريكة حياتي ورفيقتي في السير بهذا العمل المتواضع المنعمة المبرورة : ام غالب « ميمي خداوج » – سقى الله ضريحها – من المؤازرة العظيمة فيما كانت تمدني به من تحقيقات تاريخية وبحوث نفيسة تستخلصها من مطالعاتها المستمرة وقراءاتها المتتابعة لكتب الافرنج الباحثين في موضوع تاريخ الجزائر ، فكانت رحمها الله تلخصها وتترجمها الى العربية طيلة ايام اعدادنا لهذا التأليف وجمع شتاته من اوله الى آخره .

فكانت وهي بمشاركتها هذه مبتهجة مسرورة من غير ان تبالي بما تتجشمه من اتعاب ومشاق بالاضافة الى نشاطها الدائم المستمر في القيام بما يتطلبه البيت من الواجبات الضرورية والمصالح الكمالية ايضاً ، فكان من الواجب الحتم عليّ نحوها – وقد اصطفاها الله اليوم لجواره واختار لها ما عنده – ان انوه باسمها شاكراً لمساعيها الجليلة ، وممجداً لمآثرها الحميدة .

وما اغفلت ذلك – يعلم الله – في الطبعة الاولى لهذا الكتاب تهاوناً بشأنها او غمطاً لحقها الطبيعي او هاضماً لعملها الجبار وفضلها المتزايد في تكوين هذا الكتاب كلا والله ! ... وانما وقع ذلك منها عن تواضع

وخبيل وتنازل عن حقها ـ اكرم الله مثواها ـ فتراني انا برغماً على مواطأتها على ذلك ! ...

واليوم !! ... اليوم وقد ودعتنا الى دار البقاء منصرفة الى جوار ربها[1] وجب علي اظهار ما كان لهذه السيدة المغفور لها من المشاركة الفعالة في اقامة صرح القومية الجزائرية بتغذية (هذا التاريخ) بما زودتنا به من العلم وبما كانت تبذل في اخراجه من جهد وتضحية بالغة ـ طيب الله ثراها ـ ؛ وكل ذلك كان منها ابتغاء مرضاة الله وخدمة العلم والعروبة والاسلام .

وها انا اثبت اسمها الكريم هنا ـ تغمدها الله برحمته ـ أداء لأمانة التاريخ ، وقياماً بحرمة الصنعة ، وتخليداً وتسجيلاً لذكراها الطيبة العبقة واعترافاً بالجميل عن غير محاباة ولا تزكية .

برد الله ضريحك يا ام غالب واسكنك فسيح جنته ، فانك والله وان كنت غائبة عن عيني ـ وفي عالم الخلود فلا تزالي ماثلة في صدري ، مصورة في فكري ، وممثلة لناظري ، فلا اسلو عنك ولا انساك بصالح الدعاء ابداً ، واني استغفر لك ما دمت حياً الى ان التحق بك !! ... ثم يستغفر لنا ويدعو لنا من بقي بعدنا ، ان الله واسع المغفرة .

وها نحن اليوم بفضل الله وحسن عونه نقدم لهواة التاريخ ورواد العلم والمعرفة هذه الطبعة الموسعة الجديدة من كتابنا هذا ـ تاريخ الجزائر العام ـ مختالة في بردها القشيب كاملة غير منقوصة ، بل مزيدة غير معقوصة ، متمشياً فيها على نسق ما عهده القراء مني في النشرة الاولى لهذا الكتاب من وضوح في التعبير ، وسهولة في الاسلوب ، واطراد في الفصول ، وانتظام في العرض ، واستيعاب في الجمع ، واحكام في

---

(١) اختطفتها المنون فجأة اثر استحمام ببيتها عشية يوم الاثنين ١١ شوال ١٣٨٣ هـ = ٢٤ فبفري ١٩٦٤ ، ورمسها رحمها الله بتربة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الصوفي الازهري ـ بناحية الحامة ـ الجزائر .

الوضع ، وصراحة في الحكم ، متحاشياً كل الحيـــاز او امتياز مستمداً العون والتوفيق من الباري عز وجل انه هو العليم الخبير ذو القوة المتين . محتسباً فيما تكبدته في تحريره من المشاق ، وما اضمت في جمع حقائقه وتأليفه من واجبات النفس والاهل والاعلاق ! ...

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

شاكراً للسادة المقترحين حسن ظنهم وثقتهم بي راجياً من الباري عز وجل ان يحقق آمالهم وظنهم في هذا الكتاب ويفيض عليه من رضاه ، انه على ما يشاء قدير نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

تحريراً في الجزائر ١٠ شعبان ١٣٨٣ هـ
ربض العين الزرقاء فاتح جانفي يناير ١٩٦٤ م

رفع الكتاب

باسمك اللهم اتشرف برفع كتابي هذا واهدائه الى مقام رفعة حامل قبس الهداية الاسلامية الى هذه الديار ، ومنقذها من وصمة الكفر والعار ، والمعلي فيها كلمة الله ، والمجاهد في سبيل الله ، الى فاتح افريقية ، وقاهر القوات الرومانية ، وكاسر عادية البيزنطية ، الى مزلزل اقدام القياصرة ، وهازم جحافل جيوش الاباطرة وملوك البرابرة ، الى روح ذلك البطل الخالد والامير الفاتح المعظم ، مفخرة الجزائر ، ودرة تاج تاريخ مجدها في الحاضر والغابر ، سيد الشهداء :

« عقبة بن نافع الفهري »

رضي الله تعالى عنه

الى هذه الشخصية التاريخية العظيمة ، والى تلك الارواح الجريئة الجبارة : ارواح اولئك الشهداء الفاتحين ابطال التاريخ الجزائري الماجد ، اقدم هذا السفر المتواضع من « **تاريخ الجزائر العام** » قاصداً بذلك لفت نظر شباب الجزائر الناهض وتوجيهه الى دراسة تاريخه الحافل الجزل لينشأ على تقدير أعمال اسلافه ، والتأسي بعظمائه الكرام . وان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .

المؤلف

أهم مصادر الكتاب ومراجعه

اتحاف ملوك الزمان (معرب)	خليفة محمود	طبع بولاق	١٢٦٢
اخبار ملوك بني عبيد	محمد بن حماد	طبع الجزائر	١٣٤٦
الازهار الرياضية	سليمان الباروني	طبع مصر بدون تاريخ	
الاستقصـــاء	احمد الناصري	طبع مصر	١٣١٢
الاسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي	طبع مصر ١٩٣٤ — ١٩٣٦	
اعلام الاعلام	لسان الدين بن الخطيب	مخطوط	
افريقيا الشمالية ...	م. م. المشرقي	طبع رباط	١٩٥٠
الانيس المطرب	ابن ابي زرع	طبع اوبسالا النرويج	١٨٦٦
بغيـــة الرواد	يحي بن خلدون	طبع الجزائر	١٣٢٢
البيـــان المغرب	ابن عذارى	طبع ليدن	١٨٨١
البستـــان	ابن ابو مريم	طبع الجزائر	١٩٠٨
تاريخ الاستعمارين	امين سعيد	طبع مصر	١٩٣٦
تاريخ افريقية والمغرب قبل الاسلام	... ?	طبع باريس	١٢٨٠
تاريخ بلد قسنطينة	احمد ابن العطار	مخطوط	
تاريخ الجزائر	محمد مبارك الميلي	طبع قسنطينة	١٣٥٠
تاريخ الدولتين	محمد الزركشي	طبع تونس	١٢٨٩
تاريخ الدولة العثمانية	محمد فريد	طبع مصر	١٨٩٦
تاريخ اللغات السامية	اسرائيل ولفنسون	طبع مصر	١٩٢٩
تحفة الزائر	محمد ابن الامير عبد القادر	طبع الاسكندرية	١٩٠٣
تعريف الخلف برجال السلف	ابو القاسم الحفناوي	طبع الجزائر	١٩٠٦
تعاليق الامير شكيب ارسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامي		طبع مصر	١٣٥٢

عقـــايد	ابن رجب جاويش التركي	مخطوط	
التكملة لكتاب الصلة	ابن الابار	طبع مجريط	١٨٨٦
التهذيب في اصول التعريب	الدكتور احمد بك عيسى	طبع مصر	١٣٤٢
حياة لاموريسير (معرب)	سليم خطار الدحداح	طبع جونية	١٨٩٦
خلاصة تاريخ المغرب	محمد وهبي	طبع تيطوان	١٩٤٤
خلاصة تاريخ العرب (معرب)	سيديو	طبع مصر	١٣٠٩
خلاصة تاريخ تونس	ح. ح. عبد الوهاب	طبع تونس	١٣٤٤
الديباج المذهب	ابن فرحون	طبع القاهرة	١٣٣٩
الذخيرة السنية	نشر م. ابن ابي شنب	طبع الجزائر	١٩٢٠
ذكرى العاقل	الامير عبد القادر	طبع ؟	؟
الرحلة القمرية	ابن زرقة	مخطوط	
رقم الحلل	لسان الدين ابن الخطيب	طبع تونس	١٣١٦
الزهرة النائرة	محمد الغساني	مخطوط	
شرح عبد الرحمن الجامعي على ارجوزة الحلفاوي في تاريخ فتح وهران		مخطوط	
الشرق الاسلامي	حسين مؤنس	طبع مصر	١٩٣٨
صفوة الاعتبار	محمد بيرم الخامس	طبع مصر	١٣٠٢
الضوء اللامع	شمس الدين السخاوي	طبع مصر	١٣٥٣
العبـــر ...	عبد الرحمن بن خلدون	طبع بولاق	١٢٨٤
عجائب الاسفار	محمد بوراس	مخطوط	
علم التاريخ (معرب)	عبد الحميد العبادي	طبع مصر	١٩٣٧
عنوان الدراية	احمد الغبريني	طبع الجزائر	١٩١٠
غزوات عروج	نشر عبد القادر نور الدين	طبع مصر	١٩٣٤
فتح العرب للمغرب	حسين مؤنس	طبع القاهرة	١٩٤٧
فتوح افريقية	ابن عبد الحكم	طبع الجزائر	١٩٤٢
قرطاجنة في اربعة عصور	احمد توفيق المدني	طبع تونس	١٩٢٥
القصص المعرب	محمد بوراس	مخطوط	
الكامل	عز الدين ابن الاثير	طبع مصر	١٣٠٣
كتاب الجزائر	احمد توفيق المدني	طبع الجزائر	١٣٥٠
كشف البضائع	محمد العنابي	مخطوط	
المؤنس	ابن ابي دينار	طبع تونس	١٣٠٠
محمد عثمان باشا	احمد توفيق المدني	طبع الجزائر	١٩٥٦

المسالك والممالك	عبد الله البكري	طبع الجزائر	١٩١١
المعجب	عبد الواحد المراكشي	طبع ليدن	١٨٨١
معجم الادباء	ياقوت الحموي	طبع مصر	١٣٥٧
معجم البلدان	ياقوت الحموي	طبع ليبسيك	١٨٦٦
المغرب الجاهلي	التهامي الوزاني	طبع تطوان	١٣٦٦
موجز التاريخ العام للجزائر	عثمان الكعاك	طبع تونس	١٣٤٤
نزهة المشتاق	الشريف الادريسي	طبع ليدن	١٨٦٤
نيل الابتهاج ...	احمد بابا التنبكتي	طبع القاهرة	١٣٢٩
وفيات الاعيان	ابن خلكان	طبع بولاق	١٢٩٩

Les origines Berbères — Louis Rinn — Alger, 1889.

Histoires d'Algérie — S. Gsell, Marçais, G. Yver — Paris, 1929.

Histoire de l'Algérie — E. Cat — Paris, 1929.

La question Algérienne — N. d'Orient, M. Lœw — Paris, 1936.

Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger — Joachim de Gonzalez — Alger, 1886.

Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger — M. Walsin Esterhasy — paris, 1840.

Les civilisations de l'Afrique du Nord — V. Piquet — Paris, 1917.

Histoire de l'Algérie — G. Esquer — Paris, 1950.

Histoire d'Alger — De Grammont — Paris, 1887.

Histoire de Constantine sous les Beys — E. Vayssettes — Constantine, 1869.

Histoire de l'Afrique du Nord — ch. André Julien — Paris, 1931.

طائفة من آراء مشاهير علماء الشرق والغرب في التاريخ

أهمية التاريخ في نظر العلماء والفلاسفة

علماء العرب :

التاريخ للزمان مرآة ، وتراجم العلماء للمشاركة والمشاهدة مرقاة ، وأخبار الماضين لمن عاقه الهموم ملهاة ، وقد أفاد التاريخ حزماً وعزماً ، وموعظة وعلماً ، وهمة تذهب هماً ، وبياناً يزيل وهناً ووهماً ، وصبراً يبعث التأسي بمن مضى ، واحتشاماً يوجب الرضى بما خفي وجلا من القضاء . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب » . **الصلاح الصفدي**

لم استعن على دفع كذب الكذابين بشيء مثل التاريخ .

حسان بن يزيد

اذكر من مضى واعتبر بمن خلا ، تزل غرتك . وتزد بصيرتك .

ابو منصور الثعالبي

الجاهل بالتاريخ راكب عمياء ، وخابط خبط عشواء ، ينسب الى من تقدم اخبار من تأخر ، ويعكس ذلك ولا يتدبر . **احمد بابا التنبكتي**

لا حياة لامة إلا بإحياء ماضيها . **الدكتور حسين هيكل**

لا مراء في ان التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية حتى ليصح القول بأن الوطن هو تاريخ الوطن .

عبد الرحمن صدقي

جاء في الحكمة اليونانية ان في تعليم التاريخ تعليم للفلسفة بالامثلة .

.....

انه لا يتصور على وجه الكرة وجود امة تشعر بذاتها ، وتعرف نفسها قائمة بنفسها إلا اذا كانت حافظة لتاريخها ، واعية لماضيها ، متذكرة لاوليائها ومبادئها ، مقيدة لوقائعها ، مسلسلة لانسابها ، خازنة لآدابها مما لا يقوم به إلا علم التاريخ الذي هو الوصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف .

الامير شكيب ارسلان

ان علم تواريخ العالم ووقائعه هو علم المعاد الروحاني فانه يحضر ما مضى من العالم وحوادثه ويعيده لك في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

ابن القيم الجوزية

واخدع الاحياء ما شئت فلن تجد التـــاريخ في المنخدعين

أحمد شوقي

التاريخ من أعظم العلوم أدباً ، وأعذبها منبعاً ، وأهناها مشرباً ، وأنورها مطلعاً ، وأحلاها في القلوب موقعاً ، لم تزل محاسنه تروق ، وفوائده تفوق ، وفرائده تشوق ، به تعرف أخبار من سلف من العرب والعجم ، وأحاديث ذوي المراتب والهمم ، وتستفاد منه محاسن الاعيان ، وتفهم مواقف الشجعان ، ومقاتل الفرسان ، وأوقات مواليدهم ، ومدد أعمالهم ، ومواضع منازلهم ، ومعاهد ديارهم ، وسيرة الكرماء في كل وقت ، ومن اختص بفيض هباته بالهيبة وغيره بالمقت ، وكل عالم وعمن أخذ فنون علمه ، وكل أديب ومحاسن نثره وبديع نظمه ، والنظر في السنة الشريفة وأسماء رجالها ، ومراتب رواتها ، وطبقات فرسان مجالها ، حتى كأن الواقف عليه قد أدرك كلًا منهم في عصره ومصره ، ونظره في ساحة ميدانه ومشيد قصره ؛ ورأى الآية وأصبح للعلوم من أفواههم متلقياً ، وعلم

من كان بجده وهزله الى ورود العلياء مرتقياً ، أو كأنه قد شاهد كسرى في ايوانه ، وهو يقص الرؤيا على موبذانه ، وعاصر سيف بن ذي يزن في اوانه ، وجالس ابن أبي الصلت ينشده على قصر غمدانه ، وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السابقة ، وأنباء القرون الخالية ، ما فيه عبرة لذوي البصائر ، واستعداد ليوم تبلى فيه السرائر ، وقد اختار الله لنا ان نكون آخر الامم ، واطلعنا على أخبار من تقدم ، لنتعظ بما جرى على القرون الخالية ، وتعيها اذن واعية .

ابن شاكر الكتبي

لا تستطيع الامم ان تنهض نهضة صحيحة إلا اذا فهمت ماضيها أحسن فهم واتخذت منه في حاضرها قنطرة الى المستقبل .

من تقرير اللجنة الثقافية لجامعة العربية

ان الامة التي يستهين أبناؤها بماضيها ، ويزهدون في أخبارها ، لا يؤمن حاضرها من استخفافهم ، ولا تصان كرامتها من استهتارهم ، كما لا تسلم نفوسهم من الهوان ، اذ لا مناعة لعصبيتهم القومية ، ولا عصمة لعزتهم الوطنية ، ان حياة الامة هي سلسلة متصلة ووحدة لا تتجزأ ، فمن لا يعتز بماضيها ، لا يصلح ان يرعى زمام حاضرها .

من كلمة الامير **جعفر الحسني**
مندوب سورية في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان من لا ماضي له لا حاضر له ، ومن لا حاضر له لا مستقبل له .

من خطاب **احمد فخري**
مندوب اليمن في مؤتمر الآثار في البلاد العربية

ان للتاريخ أثراً كبيراً في الثقافة العامة ، فهو سجل الايام من سياسة وعمران وفن وأدب .

مجلة الهلال (دسمبر ١٩٣٠)

عليكم بمطالعة التواريخ فانها تلقح عقلاً جديداً .

من وصية **ابي حيان لاولاده**

علم الملوك النسب والخبر ، ودرس كتب الحروب والسير .

حكمة عربية

التاريخ أعمار لا يدركها الفناء ! ...

.....

التاريخ معاد معنوي يعيد الاعصار وقد سلفت ، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غراً ، ويلقي من قبله من الامم وهلم جراً ، فهم لديه أحياء وقد تضمنتهم بطون القبور ، وعنه غيب وقد جعلتهم الاخبار في عداد الحضور . ولولا التاريخ لجهلت الانساب ، ونسيت الاحساب ، ولم يعلم الانسان ان أصله من تراب ، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها ، وعمي على الاواخر حال قدمائها ، ولم يحط علماً بما تداولته الارض من حوادث سمائها ولمكان العناية به لم يخل من كتاب من كتب الله المنزلة ، فمنها ما أتى بأخباره المجملة ، ومنها ما أتى بأخباره المفصلة ، وقد ورد في التوراة مفرداً في سفر من أسفارها وتضمن تفصيل أحوال الامم السالفة ومدد أعمارها . وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه ، والكتاب وضبطه ، تصرف الى التاريخ جل دواعيها ، وتجعل لها أول حظ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتعتاض برقم صدورها ، عن رقم سطورها ، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها ، وايام فضائلها . وهل الانسان إلا ما أسسه ذكره وبناه ؟ ! ... وهل البقاء لصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه ؟ ! ...

عز الدين ابن الاثير

علماء الغرب :

اذا تأملنا قصر حياة الانسان ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زمننا ، فلا شك اننا نشعر بأننا كنا نبقى اطفالاً في ادراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذي يرجع بخبرتنا الى جميع العصور الماضية ، والى اقدم الامم الخالية ، ويجعلها تمدنا باسباب التقدم في الحكمة كما لو كانت تحت نظرنا واسماعنا . ان الرجل المطلع على التاريخ ليمكن ان يقال عنه

من بعض الوجوه انه يعيش منذ بداية العالم وانه دائم الاستعداد من كل مملكة يمر بها مدداً يضيفه الى المدخر المخزون من معارفه .

دافيد هيوم
فيلسوف ومؤرخ واقتصادي بريطاني

... وان امة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائحها لتورثها لخلفها لآيلة حتماً الى احط انواع الهمجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران .
الدكتور ولفنسن
أستاذ اللغات السامية بجامعة مصر

... وما التاريخ قديمه وحديثه الا بمثابة نظارات ينظر بواسطتها الى النفس البشرية والى العقل البشري تتبعاً لخطواتها في مضمار الحياة ... وان المؤرخ هو الذي يلمس بيدي عقله قروح الانسانية ويعرف مواطن علاتها ، لانه يقرأ في كتاب الحياة فصولاً متنوعة تشمل جميع اطوارها وادوارها : وهو نفسه صحافي الازمنة الغابرة ، ومعلم الازمنة الحاضرة .
وليم كاتسفليس

التاريخ مشكاة الحقيقة ، وشاهد الماضي ، ورائد المستقبل . **سيسرون**
خطيب سياسي روماني

ان دارسة التاريخ تنشط الفكر وتثقفه وتساعد بطرق شتى .
الاستاذ الى

لقد بان لي ان دراسة التاريخ دون سواها اصلح الدراسات لتعويد الانسان الفضائل الخاصة والعامة . **الفيوكونت بولنجبرك**
سياسي وفيلسوف انكليزي

ان التاريخ حري بان يكسبنا تصوراً صحيحاً لما هو عارض موقوت ، بالقياس الى ما هو ابدي باق في حياة الانسان . **الرئيس كيرك**
استاذ الفلسفة الاخلاقية بجامعة جلاسكو

من المحقق ان العلم بالتاريخ من حيث هو بجمع الحوادث وملاكها

لا يستغني عنه من يريد تكوين تصور كامل متزن العالم بوجه عام ، ان التاريخ هو وحده القادر على ان يضع ظواهر الحاضر في وضعها الصحيح ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يجلو لعين الباحث ميدان الحياة كاملاً غير منقوص ، والتاريخ هو وحده القادر على ان يمكن الظاعن الذي يقضي يوم راحته تحت خيمة هذا الوجود الخفية من ان يطلع على غرائب ما يحيط به من مظاهر الابدية . **هرنشو**

استاذ التاريخ بجامعة لندن

ان التاريخ مدرسة السياسة ، وبدون مقدار يسير منه على اقل تقدير لا يمكن الانسان ان يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية ، وبدون حظ موفور منه لا يمكنه ان يصدر حكماً معقولاً في اي شأن من شؤونها ، ان التاريخ دراسة هامة لكل مدني ، بل هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع . **جوهي سيلي**

مؤرخ انكليزي

ان حوادث التاريخ هي مصدر الاستنباط والاستنتاج الذي يعتمد عليه العالم الاجتماعي . **اوغيوست كوميط**

فيلسوف فرنسي

ان الشعب الذي يريد الرقي يجب عليه ان لا يقطع الصلة التي تربطه بماضيه ، اي يجب ان يحترم تقاليده ويراعيها .

الدكتور غوستاف لوبون

من رسالة له خاصة كاتب بها الاديب المصري توفيق يزدي

اذا اردنا ان ندرك معنى الامة الحقيقي ينبغي ان نمتد بها في الماضي وفي المستقبل معاً ، واشد الفريقين قوة هم الاموات لانهم هم الاكثرون عدداً وهم المؤثرون في عالم الحركات اللاتنبهية الذي يخضع لسلطانه العقل والاخلاق في جميع المظاهر . فالامة مسيرة بتأثير امواتها اكثر مما هي مسيرة بتأثير احيائها ، والاولون هم وحدهم الذين كونوها وهم الذين اوجدوا ما في الاحياء من الافكار والمشاعر قرناً بعد قرن ، واليهم ترجع اسباب

حركة اهل العصر ، لان هؤلاء لا يخضعون لمزاج اسلافهم المادي وحده بل هم متأثرون ايضاً بما كان لآبائهم من المشاعر والافكار . والحاصل ان الاحياء هم الاموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات .

الدكتور غوستاف لوبون

من كتابه : سر تطور الامم

... فالامم نتيجة ماض طويل ومحصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير ، وماضي الامم يفسر حاضرها .

الدكتور غوستاف لوبون

من كتابه : حضارة العرب

مَاهوالتَّاريخ ؟..

التاريخ في اللغة بالهمز وبدونه والتوريخ كذلك بالواو معناه : الوقت ، وهو لفظ عربي صميم . اما ماهيته وتعريفه بالحد الاصطلاحي : فهو علم تعرف به احوال الماضين من الامم الخالية من حيث معيشتهم ، وسيرتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، ونظمهم ، وسياستهم ، واعتقادهم ، وآدابهم ، حتى يتم بذلك معرفة اسباب الرقي والانحطاط في كل امة وجيل . فهو يتطلب الاحاطة بتطور الانسان في المجتمع خلال جميع العصور وفي سائر البلاد . ومادته اي العناصر الوجودية الضرورية التي يتكون منها كثيرة متنوعة اهمها الآثار القديمة من الابنية والهياكل والاحجار المنقوشة والمسكوكات المضروبة والملابس والازياء والادوات المنزلية وغيرها من كل ما هو من نوعها مثل التقاليد والعادات والاخبار والحوادث المروية والدواوين المجموعة والوثائق الخطية وكل ما تناقله الخلف عن السلف مشافهة او مشاهدة مع حسن نظر وتثبت كما قال ابن خلدون : يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط ، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها

على اصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروا بعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط .

وليس التاريخ ايضاً مجرد سرد حوادث الحروب ووقائع الامم ، او التعرض لذكر اخبار الملوك والوزراء والكبراء وتعداد الغرائب والعجائب مما يندهش له السوقة وأشباههم من الناس ، ولا هو كذلك محض سرد حكايات عن تقلبات الدهر وتطوراته التي تعتري كل احد في حياته العادية او ما يتبع ذلك عادة من التألم لفجائع الزمن وجرائم الحدثان ؛ كلا !.. فان هذا كله من شأن الاخبار والاخباريين وشتان ما بين الاخباري والمؤرخ ؛ فان المؤرخ يفيدنا بأحوال المجتمع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعته من التقلبات مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف تغلبات البشر بعضهم على بعض . وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ويصل لنا الحاضر بالماضي ، وكلما كانت صلة الحاضر بالماضي قوية ووثيقة كلما كان اساس مستقبل الوطن راسخاً وثابتاً . وما عدا الحقيقة علامتنا ابن خلدون حيث قال كلمته المختصرة الجامعة في الموضوع : هو تعليل الكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ؛ واما الاخباري فقاص .

العرب والتاريخ

انه مما كاد ان يتفق عليه العلماء قديماً وحديثاً امتياز الامة العربية واختصاصها بهذا العلم وانها مفطورة عليه مشغوفة به وانها جبلت على ذلك بحسب موقع بلادها الجغرافي ومواطنها التي نشأت فيها ، فلا يتوصل الى خبر من أخبار العجم أو العرب إلا بالعرب ومنهم ، وذلك على ما حكاه

أبو محمد بن الحائك الهمداني صاحب كتاب الاكليل : من ان كل من سكن بمكة من العماليق وجرهم وآل السميدع بن هوبة وخزاعة ، أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الاعاجم من عهد أسعد الى كرب وبختنصر حووا علم الاعاجم وأخبارهم وايام حمير ومسيرها في البلاد ، وعنهم سار أكثر ما رواه عبيد بن شرية ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي . وكذلك من وقع بالشام من مشائخ غسان خبير بأخبار الروم وبني اسرائيل واليونان . ومن وقع بالبحرين من تنوخ واياد فعنه أتت أخبار طسم وجديس . ومن وقع من ولد نصر من الازد بعمان فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند وشيء من أخبار فارس . ومن وقع بجبل طيء فعنه أتت أخبار اذينة والجرامقة . ومن سكن باليمن فانه علم أخبار الامم جميعاً لانه كان في دار مملكة حمير وفي ظل الملوك السيارة الى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ولم يكن ملك منهم يغز إلا وعرف البلاد وأهلها . والعرب أصحاب حفظة ورواية لخفة الكلام ورقة ألسنتهم .

ماذا يشترط في المؤرخ ؟ ...

يحتاج صاحب فن التاريخ الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال . والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منه والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادي ظهورها ، وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل حادث واقفاً على أصل كل خبر ، وحينئذ يعرض خبره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه .

المقدمة

فيما يتعلق بالتاريخ

قرار المؤتمر الثقافي العربي الاول
لجامعة الدول العربية

المنعقد ببيت مري - لبنان - ٩/٩/ ١٩٤٧ م

وافق عليه المؤتمر في جلسة الثلاثاء ٩ سبتمبر ١٩٤٧
ووافق عليه مجلس الجامعة العربية في جلسته المنعقدة
يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٨

يرى المؤتمر :

أولاً : ان يكون محور دراسة التاريخ في المرحلة الابتدائية تاريخ القطر الخاص الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بدراسة الصلات بين هذا القطر وبين البلاد العربية قبل الاسلام وبعده .

ويتم هذا الغرض بدراسة القصص المشوقة وتراجم أبطال التاريخ القومي وتراجم أبطال العرب ممن تجاوز اثرهم حدود بلادهم .

وينبغي الاشارة في ثنايا قصص الابطال الى الحياة الاجتماعية في مختلف العصور ، مع الموازنة بين الحياة الماضية والحياة الحاضرة التي تقع تحت حس التلميذ ، والعناية بالحياة المعيشية لطبقات الشعب .

على انه في السنة الاخيرة من المرحلة الابتدائية يجوز ان يدرس التاريخ على صورة منظمة مع مراعاة تيسيره ليلائم عقلية الاطفال ومدى خبراتهم .

ثانياً : ان يكون محور دراسة التاريخ العربي في التعليم الثانوي النواحي الاجتماعية والوصفية ، مع بيان اثر الشخصيات الفذة والاحداث والوقائع اللازمة لتصوير الحقائق وتبيينها في الاذهان ، وتقصي مظاهر التطور والنضج التام .

ثالثاً : ان يشمل القدر المشترك من التاريخ العربي الذي يدرس في المدارس الثانوية في جميع البلاد العربية ما يأتي :

(ا) تاريخ العرب قبل الاسلام .

(ب) تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى الفتح العثماني .

(ج) النهضة العربية الحديثة .

اما الجزء الواقع بين الفتح العثماني والنهضة العربية الحديثة فيدخل ضمن المنهج الخاص الذي تضعه الهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة . ويترك توزيع هذا المنهج على الفرق للهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة منها .

رابعاً : ان يعنى في المرحلة الثانوية من التاريخ العالمي بالقدر اللازم لمساعدة الناشىء على فهم مكانة بلاده والدول العربية بين دول العالم ومشاكل المدنية الحديثة .

خامساً : انه ينبغي ان يدرس التاريخ دراسة علمية ، ويناقش مناقشة قائمة على منطق انساني عادل .

سادساً : انه يستحسن ان تكون طريقة تدريس التاريخ اساساً للتدرج من القديم الى الحديث ، ولا مانع من التحلل من ذلك عند الاقتضاء .

سابعاً : ان يدرس تاريخ العرب على حسب الدول والعصور المتتابعة وفقاً للطريقة التقليدية .

ثامناً : ان يدرس تاريخ الشعوب العربية بعد سقوط بغداد على

اساس تاريخ الدولة الخاص مع الاشارة الى تاريخ الدول العربية الاخرى وبيان ما بينها من العلاقات .

تاسعاً : ان يدرس تاريخ الحضارة العربية متصلاً بالتاريخ العربي العام ، بمعنى انه بعد الانتهاء من العرض العام لكل عصر يدرس الطالب حضارة هذا العصر .

(كصنيعنا في كتابنا هذا)

عاشراً : انه ينبغي للاستفادة من دراسة التاريخ العربي في تقوية الروح العربية الحقة الاهتمام بالنواحي الآتية :

١ ـ بيان اثر امم الشرق الادنى وفضلها في بناء صرح المدنية القديمة ، ومقدار تأثر اليونان والرومان بحضارات الشرق القديم في الشام وفلسطين ومصر وغيرها .

٢ ـ تتبع الصلات السلالية والتجارية والثقافية بين امم الشرق الادنى ، تلك الصلات التي وجدت قبل الاسلام ثم جاء الاسلام فدعمها وزاد في اواصرها .

٣ ـ ابراز الاحداث العظيمة والمواقف الحاسمة لنواحي البطولة في العصور العربية الزاهرة ودراسة الاسباب والنتائج في تفصيل يتضح منه اثر الحياة الشعبية والروح العربية في ارتقاء الدولة او الدول العربية وهبوطها .

كما ان المؤتمر يرى ابراز الاشتراك التاريخي والاتصال الجغرافي التام بين البلاد العربية في قارتي آسيا وافريقيا ، اذ كانت هذه البلاد في العصور القديمة مرتبطة باوثق الصلات ، ثم كانت خلال حقبة طويلة من الزمن وحدة سياسية تضمها امبراطورية عربية عظيمة كما ظلت في العصور المتأخرة مرتبطة بعضها مع بعض بروابط متينة . وان الحضارة العربية احتفظت بكيانها وطابعها ووحدتها على مر العصور .

حادي عشر : ان من الوسائل التي تساعد على تنمية الروح العربية وتحقيق الاغراض المقصودة من تدريس التاريخ بالبلاد العربية ما يأتي :

١ ـ تأسيس الجمعيات التاريخية لتبادل الآراء والكشوف والبحوث .

٢ ـ تنظيم رحلات الاساتذة والطلبة بين البلدان العربية .

٣ ـ عقد مؤتمرات دورية للدراسات التاريخية من وقت لآخر في عواصم البلاد العربية .

٤ ـ الاهتمام بالحفائر الاثرية وانشاء المتاحف التاريخية والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربي ، مثل الروايات التاريخية والقصص التاريخية واللوحات الفنية والافلام .

٥ ـ العناية بالتقاليد المحلية والازياء الخاصة والاغاني الشعبية مع تهذيبها وما يتفق مع المدنية الحديثة والروح العربية .

٦ ـ العمل على تخليد ذكرى عظماء الشرق العربي واحداثه التاريخية بطرق مختلفة ، كاقامة التماثيل ، واطلاق اسمائهم على الشوارع والميادين ، وتسمية كراسي الاستاذية في الجامعات بأسماء النابغين منهم في مجال البحث العلمي ، الى غير ذلك من الوسائل التي تبرز المثل العليا التي ينبغي ان يتجه نحوها شباب العرب ، فيعتزوا بتراثهم الاجتماعي ، ويشعروا نحو هؤلاء العظماء بالجميل ، فيعملوا على المحافظة على هذا الميراث ، بل وعلى الاستزادة منه .

أشهر سني ابتداء التاريخ

كان الناس في القديم يؤرخون بأشهر الوقائع واعظم الحوادث التي يندر وقوعها متكررة وتجددها في كل مرة الى ان وجد التاريخ في القرن الاربعين قبل الميلاد ، فقد أرخ قوم بعصر ظهور آدم عليه السلام كما هو في زعم اليهود الى الآن وتاريخهم هذا يتقدم الميلاد باحدى وستين وسبعمائة وثلاثة آلاف سنة ، وهو تاريخ ابتداء العالم في نظرهم ؟ ... وفي ذلك من الخلاف بين علماء هذا الشأن ما فيه ؛ ومنهم من اخذ يؤرخ من حادثة طوفان نوح عليه السلام ، وقد كان بينه وبين الهجرة نحو اربع وسبعين وتسعمائة وثلاثة آلاف سنة على ما في ذلك من الخلاف ايضاً بين المؤرخين وعلماء الهيئة والفلك . وهناك من ارخ منذ تبلبل الالسنة – كما يقولون – وذلك حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد ، ومنهم من ارخ بعهد الخليل عليه السلام اي منذ ثلاث وتسعين وثمانمائة والفي سنة قبل الهجرة ، كما ارخوا كذلك بتأسيس الكعبة ورفع قواعدها في ذلك العهد ، وأرخت جماعة بوفاة موسى نبي بني اسرائيل ، اي قبل الهجرة بأربعين وثلاثمائة والفي سنة ، ومنهم من ارخ بعمارة بيت المقدس – قبل الهجرة بثمانمائة والف سنة – كما ارخوا بخرابه ايضاً سنة خمسين وثلاثمائة والف قبل الهجرة ، وارخ قوم بتملك بختنصر سنة ١٣٦٩ قبل الهجرة ، وبغلبة الاسكندر على دارا ملك الفرس سنة ٩٣٤ قبل الهجرة ، وبغلبة اغسطس على قلوبطرة الملكة المصرية سنة ٦٥٢ قبل الهجرة ، وبميلاد

المسيح كما هو معلوم[1] ، وبخراب بيت المقدس الثاني سنة ٧٠ للميلاد .

واشهر التواريخ خمسة : تاريخ العرب ، وتاريخ القبط ، وتاريخ الروم ، وتاريخ الفرس ، وتاريخ اليهود ؛ فالتاريخ العربي هو تاريخ الهجرة ، الذي وضعه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية ، الموافقة ليوم ١٦ جوليط سنة ٦٢٢ م ، واما القبطي فانه يبتدأ من السنة التي تغلب فيها « دقطليانوس » الانطاكي احد ملوك القبط على مصر ، وهو يزيد على تاريخ الهجرة بنحو ٣٠٠ سنة شمسية . والتاريخ الرومي هو المستعمل اليوم بيننـــا في معرفة فصول السنة والانقلابات وغيرها من التغيرات الجوية واحوال الطقس التي تنبني عليها اعمال الفلاحة والزراعة الخ ... وهذا هو التاريخ المعروف عندنا باسم : العجمي ، ومبدؤه كان من السنة التي مات فيها الاسكندر الكبير — ذو القرنين المقدوني — وهي السنة السابعة من تملكه ، وهو يزيد على تاريخ القبط ٥٩٠ سنة . واما التاريخ الفارسي فانه يبتدأ عندهم بأيام القائم من ملوكهم ، وكان آخر ملك اسس تاريخهم عليه وهو يزدجرد بن شهريار ابن برويز كسرى انوشروان المتولي سنة ١١ للهجرة ، وللفرس تاريخ آخر جديد يسمى بتاريـخ الجلالي نسبة الى جلال الدين شاه ومبداه عاشر رمضان سنة ٤٧١ هجرية على المعتقد .

والذي اعتمدته انا في ضبط الوقائع والحوادث بهذا الكتاب هو تاريـخ الهجرة مع مقابلته بما يوافقه من التاريـخ الميلادى ، وهما اللذان جرى العمل بهما في توقيت الحوادث بجميـع انحاء العالم المتمدن اليوم .

---

(١) وقد كان وضع العمل به ابتداء من سنة ٥٣٦ م بمعرفة « يوليسيوس » احد القسس ببعض اديرة رومة ؛ وقد خطأوا هذا القس في حسابه حيث كان مبدأ التاريخ المسيحي عنده متأخرا بنحو خمس سنوات على ما حققه مهرة المؤرخين ، فان تاريخ الميلاد كان يوم ٥ ديسمبر سنة ست قبل التاريخ الميلادي المعمول به اليوم .

جغرافية القطر الجزائري

الجزائر اسم عربي صميم لعاصمة الوطن وام القطر[1] ولم يكن ليطلق هذا الاسم على الاقليم كله إلا منذ العصر التركي فقط ، (القرن العاشر الهجري) ــ السادس عشر الميلادي ــ أما قبل ذلك فقد كان يعرف عند العرب بالمغرب الاوسط ، ذلك لتوسطه بين المغربين ، الاقصى والادنى : مراكش وتونس :

أما موقع هذا الوطن الطبيعي فهو عبارة عن قطعة من الارض هي واسطة عقد الشمال الافريقي ، وان شئت فقل هو قلب الدنيا .

---

(١) كانت هذه المدينة في الزمن الغابر قرية حقيرة لا شأن لها وتسمى في لسان البربر « آرغل » اي المكان المستور العميق ، وورد في اساطير اليونان ان هرقل الجبي استقر فيها مع اصحابه العشرين فعرفت بهم : ــ ايكسوسي — Eixoci بمعنى مدينة العشرين ؟ ... ولقد اصبح اليوم هذا القول تجاه التحقيق التاريخي ضعيفاً . ولما جاء عهد القرطاجنيين وتأسس بها مرساها التجاري حرف اسمها هكذا : ايكوسيم Ikosim ومعناه الجزائر او جزيرة الشوك ، او جزيرة الطيور غير الطاهرة ، ثم خربها الفاندال على عهدم ... وبقيت كذلك الى ان جدد الروم بناءها وحرفوا اسمها الى اللاطينية هكذا : ايكوسيوم Icosiom ، وفي القرن الثاني للهجرة سكنت بها القبيلة البربرية « مزغنان » بفتح الميم او « مزغناي » او « مزغني » ... وهي بطن من بطون صنهاجة ، ومعنى « مز » بنو ، كلفظة « مس » بكسر الميم المستعملة الى الآن او هي نفسها ؟ ... ويومئذ اشتهرت المدينة باسم قلعة بني مزغني ، او « جزائر بني مزغني » ، ولم تزل هذه القبيلة موجودة الى يومنا هذا تسكن على نحو ٨٠ كيلومترا شرقي العاصمة في ناحية « Palestro » على مقربة من طريق السكة الحديدية ، ولقد كان وضع مدينة الجزائر هذه يومئذ على

وليست هنالك حدود طبيعية تفصله عن القطرين الشقيقين : تونس ومراكش سوى خطوط اعتبارية وضعتها يد السياسة مراعاة لاختلاف مصالح ادارة الحكومات التي توالت على هذه الاقطار الثلاثة ، الا حده الشمالي فقط فانه هذا البحر الابيض المتوسط ، وهو يمتد تبعاً للسياسة ايضاً من القالة شرقاً الى جامع الغزوات غرباً ؛ ويبلغ طول هذا الشاطىء ١٢٠٠ كيلو متر . ومن ناحية الجنوب هذه الصحراء الكبرى التي تعتبر الحد الفاصل بينه وبين افريقيا الغربية ، حيث يمتد الخط من اقصى جنوب طرابلس شرقاً الى جهة وادي (ريودي اورو) غرباً اما الخط الغربي — ولا اقول الحد — فهو يمتد من وادي ملوية شمالاً منحدراً الى منطقتي الفيقيق وبوذنيب مع دائرة كولومب بشار والقنادسة جنوباً ، والخط الشرقي ينحدر من القالة شمالاً الى بئر الهاوية وشط الغرسة جنوباً ، ثم يمتد — نظرياً — الى قرب مدينة غدامس عند بئر الرمان ؛ فطول القطر الجزائري كله اذا يقع ما بين درجة ٦ شرقي

شكل مداشر حسب عادة البربر من احصاص ونحوها ، وبها سوق يأتي اليه اهل متيجة وغيرهم كغبرينة وكريطة ومليكش والثعالبة الخ ... وفي اواسط القرن الرابع الهجري ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م — مصرها الامير بلكين (بضم الباء واللام وتشديد الحرف الثالث الذي ينطبق به مكسوراً بين الجيم والكاف) بأمر والده عاهل صنهاجة : زيري بن مناد الصنهاجي .

وان السبب في تسميتها بالجزائر كما حرره شيخنا الدكتور محمد بن ابي شنب رحمه الله يعود الى وضعيتها الطبيعية ، حيث انه كان هناك تجاه هذه المدينة امام المرسى القديم صخور اربعة متجاورة تشبه الجزر ، منها الصخرة او الجزيرة الكبرى المعروفة باسم (سطفلة) ، وذكرها ابن حوقل فقال : هي في البحر على رمية سهم منها — اي من الجزائر — تحاذيها ، فاذا نزل بهم عدو لجأوا اليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه . وهي التي بنى عليها الاسبان حصنهم (البنيونش) Penon سنة ٩١٥ هـ — ١٥١٠ م — ولقد هدم هذا الحصن الاسباني على يد الاتراك سنة ٩٣٦ هـ — ١٥٣٠ — كما سيأتي تفصيله ومنها صخرة الجلنة المشهورة . ثم كان ردم ما بين تلك الجزر الاربعة وضمها الى بعضها باشارة المهندس موسى الاندلسي واشرافه على ذلك بنفسه .

ويومئذ اتصلت هذه الجزر بالمدينة بواسطة رصيف طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً وعلوه اربعة امتار ، وفي منتهى هذا الرصيف يوجد مركز اقامة امير البحر كما هو عليه الحال الى الآن . وبذلك دعيت هذه البلدة في القديم بمدينة الجزائر .

الى درجة ٤ غربي من خط الزوال ، وعرضه من الشمال الى الجنوب ما بين درجتي ٣٧ شمالاً و ٣١ جنوباً من خط الاستواء . وذلك عبارة عن مساحة ٢،١٩٥،٠٩٨ كيلو متراً مربعاً .

ولقد قسمت السياسة هذا الوطن في القديم الى ثلاثة اجزاء — اعتبارية — : نوميديا وهو الجزء الشرقي الجزائري ، وموريطانيا جزؤه الغربي ، وجيتوليا اي ناحية الجنوب . او ما كان كذلك من تقسيمه الى قسمين : التل والصحراء ، وذلك باعتبار جبال الاطلس الصحراوي الفاصلة بينهما .

ولست في حاجة الى بسط القول بالتعرض الى ذكر تفاصيل جغرافية هذا القطر الاقتصادية والسياسية وتدقيق البحث فيها من الناحية الطبيعية الخ ... فان ذلك ليس من مباحث هذا الكتاب ، وكيفما كان الحال فاني لا احب ان امر عن هذا المبحث دون ذكر شيء من خصائص القطر الجزائري وميزاته التي خصه الله بها ومنحته الطبيعة اياها : فالارض الجزائرية تشتمل على جبال وانجاد وسهول وتل وصحراء ؛ فمن جبالها تكونت هاتان السلسلتان المتوازيتان الشمالية والجنوبية ، الآخذتان من الغرب الى الشرق فالاولى تعرف باسم الاطلس التلي ، كما عرفت الثانية باسم الاطلس الصحراوي . وان اقصى نقطة تبلغها الشمالية في العلو هي بوسط جبل جرجرة حيث تبلغ قمة « لالاخديجة » ٢٣٠٨ أمتار ؛ اما الثانية فهي اضخم واروع من الاولى واعلى نقطة فيها هي بناحية « الشلية » بجبال اوراس حيث تبلغ قمتها ٢٣٢٧ متراً . ومن هذه الجبال ما هو مكسو بجمال الطبيعة كالغابات الكثيفة والاودية المتدفقة والجداول والانهار والعيون الجارية المتفجرة وفيها من المناظر البديعة ما يستوقف النظر ويروع البصر وفيها من الاشجار المثمرة المختلفة الانواع وغير المثمرة كثير ومن النباتات النجمية المتنوعة ايضاً ما يملأ وصفه المجلدات ؛ ومنها ما كسته الطبيعة بجلالها : جبال جرداء ملساء لا يروعك منها الا ضخامتها وعظمتها الصخرية ، وفي كلها توجد حيوانات وحشية وداجنة وطيور مختلفة الاشكال والالوان لا يأتي عليها الحصر .

وان احسن بقاع الجزائر وأخصبها واغناها هي ناحية التل والساحل فقيها من الغلال وانواع الحبوب ما جعلها تدعى في القديم (خزينة رومة) ، وان اهم هذه النواحي للفلاحة والحرث هي ناحية سهول متيجة وبونة (عنابة) وشلف بوهران ، فبها كانت الجزائر ولم تزل غنية بمنتوجاتها الزراعية من ثمار وخضر وبقول وحبوب وفواكه مما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين ! ... والطقس فيها معتدل جيدة الماء والهواء .

اما منطقة الصحراء فمناخها كبجملة الصحاري تكاد تكون منعدمة الثمار الا ما قيل منها وندر في بعض الواحات او ما خصتها الطبيعة به من انواع النخيل والتمر اللذيذ وفيها كذلك من الماشية ما تعد به من اكبر مواد الجزائر واثراها وخاصة الغنم .

اما المعادن او قل كنوز الجزائر وركازها ــ فان القطر غني بما اودعه الله فيه من غالب انواع المواد المعدنية الثمينة حيث تبلغ ١٤٨ منجماً منتشرة بكامل انحاء الوطن الجزائري ، منها ٢٦ منجماً في ولاية الجزائر ، و ٩٦ بولاية قسنطينة و ١٥ بولاية وهران منها ١١ شرع في استثمارها حديثاً .

والجزائر مليئة بكل امكانات التصنيع ، اذ حبتها الطبيعة بارض غنية بمختلف انواع المصادر وبطاقة كهربائية هائلة شاملة يسهل توليدها من المساقط المائية العديدة الى جانب ما تزخر به الصحراء من البترول وان اهم ما فيها من المعادن : الحديد والنحاس والرصاص والزنك والقصدير والفضة والكروم والمرمر والزرنيخ والكلس والجير والكبريت والملح والجص والمانكانيس والسماد ــ الفوسفاط ــ والزئبق والفحم الحجري وحجر الكحل والنفط ــ البطرول ــ ؛ وبخار الغاز الطبيعي ويذكر انه اكتشف بها حديثاً « اليورانيوم » والذهب والالماس ولم يزل المرجان يلتقط من السواحل الشرقية حيث يصدر الى اوربا وغيرها ؛ وان في الجزائر من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ! ... ورغم كل هذه الثروة الطائلة والمواهب الطبيعية التي امتازت بها الجزائر عن غيرها من

الاقطار فان سياسة الاستعمار الخبيثة قد حالت بين ذلك كله وبين ابناء البلاد فتركتهم فقراء مساكين غيرى ذي متربة ! ... وما ذلك الا عن اغراض سياسية تافهة ومزاحمة اقتصادية أساسها الجشع والطمع .

واني لاذكر يوماً من ايام اشتداد الحرب العالمية (١٩٣٩ — ٤٥ م) جرت لي فيه محادثة بيني وبين شخصية سياسية فرنسية مسؤولة جمع بيني وبينها مجلس من المجالس التي كان الفرنسيون يبذلون فيها جهودهم بوسائل متنوعة لخلق الفرص واصطناع المناسبات كي يجتمعوا بشخصيات اسلامية اهلية يتظاهرون لهم فيها بحب التقرب منهم وربط الصلة بهم ويدجلون عليهم بما شاؤوا من معسول الوعود الكاذبة وزخرف القول غروراً — كسباً للوقت — وكان مما طرقناه في ذلك المجلس التعرض للحالة الراهنة يومئذ وما تقاسيه الجزائر من الحصار المضروب عليها اقتصادياً كما هو سياسي ايضاً ، وما يتكبده الاهالي بالخصوص من الفقر الى الحاجيات والضروريات ! ... مع ان القطر الجزائري بحمد الله غني بما اودع الله في تربته الطيبة من المناجم والمعادن والكنوز ، فسألته بهذه المناسبة قائلاً : هل يوجد في ابناء الجزائر اليوم بجميع سكانها من اهالي وغيرهم بقطع النظر عن الجنس ، من توجد فيه قابلية او استعداد للعمل على انشاء شركات صناعية ومعامل فنية تستخرج بها ثروة البلاد ؟ ... فقال نعم ، فقلت له حينئذ : لماذا لم تعمل الحكومة على استثمار هذه الكنوز بتوجيه الرعية الى استعمال مواهبها في استخراج هذا الثراء للناس ؟ ... وفي ذلك ما لا يخفى من الخير ... فأطرق برأسه لحظة ثم قال لي : اين انت من التنافس الدولي والتزاحم الاستعماري ! ... فقلت ماذا ؟ ... قال يزدحم علينا الاجانب ؛ فقلت او لمجرد هذا التوجس نسعى في اضاعة ثروة البلاد وامانة العباد ونرضى بالحرمان والفقر لانفسنا ونحن على اديم هذه الارض الزكية .

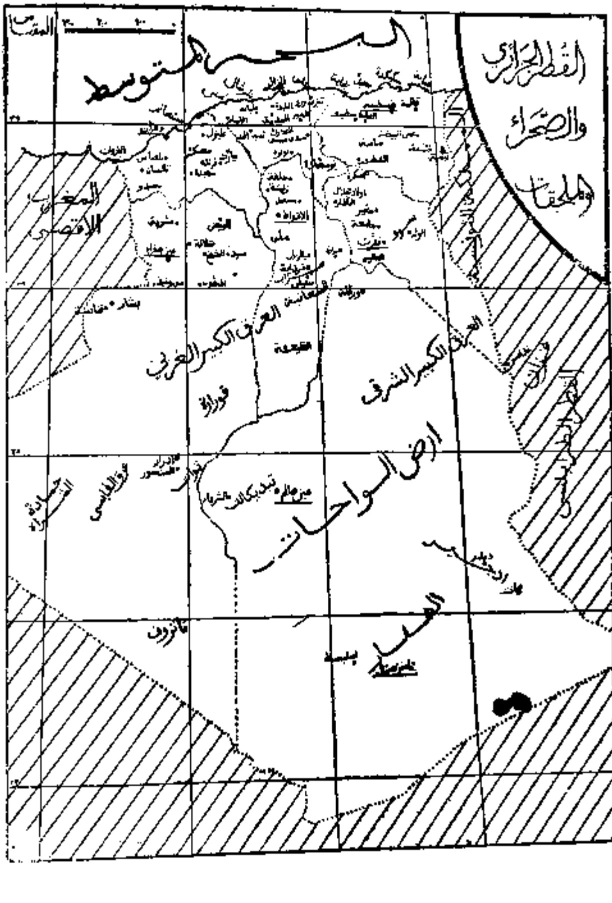
كالعير في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول ! ...

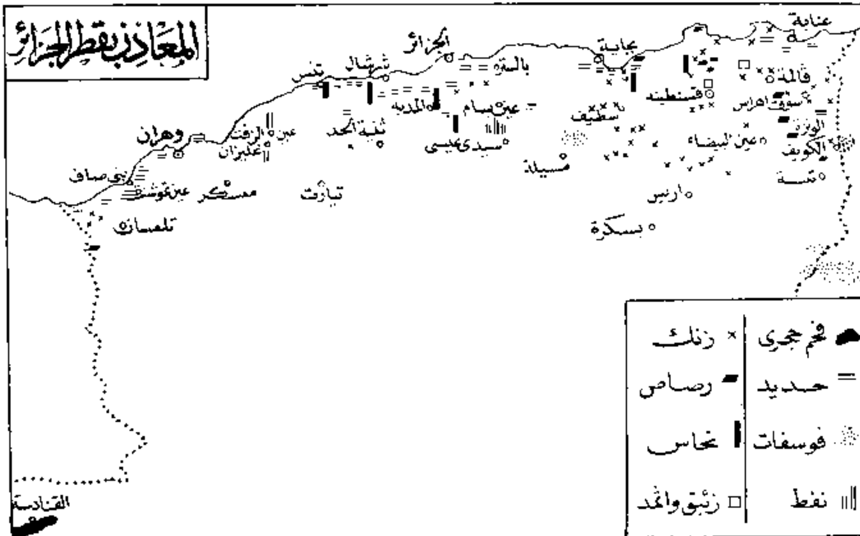
فسكت وسكت ... والآن وقد استدارت الايام وانتهت الحرب وانقشع ما كان حائلاً سياسياً بين الامم من الاوهام والحواجز فانكشفت الحقائق

لدى جميع الناس واخذ كل صنف في دراسة احوال العالم الحاضرة على ضوء العلم والمنطق والعقل فانعقدت في شتى المواطن عدة اجتماعات علمية وسياسية واقتصادية لبحث عن اصلاح الحالة الراهنة التي اصبح عليها العالم اليوم للانتفاع بما فيه ، وكان من حظ الجزائر ان تمدد بها عقد مؤتمرات دولية تاريخية وجيولوجية اكتشفت بها عدة نواح مجهولة من تاريخ هذا الوطن وما اودع الله فيه من الخصائص والميزات التي كانت مغفلة مهملة ، وذلك ما كان يخشاه امثال هذه الشخصية الفرنسية المتحدث عنها .

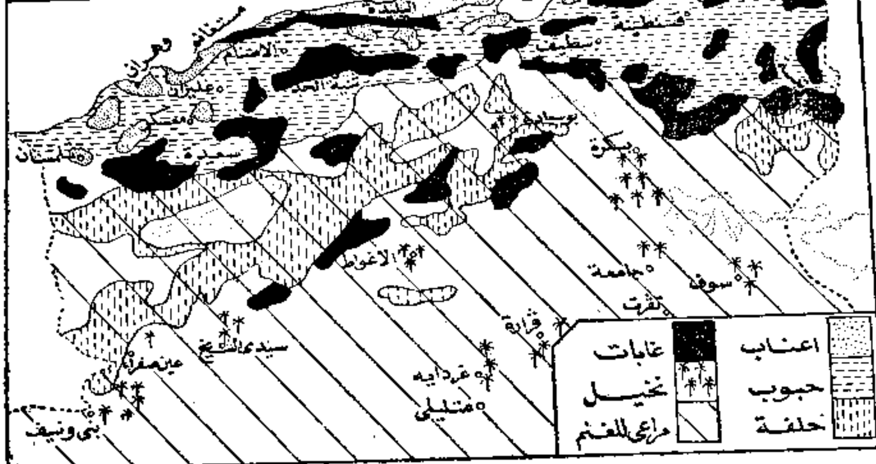
كما يوجد بالجزائر ايضاً حمامات معدنية منتشرة في نواحي كثيرة من هذا القطر ماؤها ساخن يعالج بها امراض الاعصاب وغيرها مما يستعصي على نطاسي الاطباء ... فلم يبق لك الآن ايها الجزائري الغيور الا الاقدام بشجاعتك المعهودة في التاريخ لاستثمار كنوز بلادك حسبما اوجبه عليك دينك وضميرك وقوميتك .

اما عدد السكان فيه فانه حسب الاحصاء الاخير (١٩٤٨ م) بلغ الى ٩٠١١٣٢٨ نسمة منهم ٨٠٤٥٣٣٦ اهالي مسلمون والباقي نصارى بما فيهم من يهود واسبان وطاليان الذين شملتهم الجنسية الفرنسية . والواقع انه يفوق ذلك بكثير .


القطر الجزائري والصحراء والملحقات
البحر المتوسط
المغرب الأقصى
العرق الكبير الغربي
العرق الكبير الشرقي
قورارة
أرض الواحات


المعادن بقطر الجزائر
عنابة
قالمة
سوق اهراس
الونزة
الكويف
تبسة
قسنطينة
بجاية
سطيف
عين البيضاء
مسيلة
بسكرة
باتنة
الجزائر
شرشال
تنس
المدية
عين بسام
سيدي عيسى
ثنية الحد
تيارت
وهران
عين الرف
عين عكبران
بني صاف
عين تموشنت
معسكر
تلمسان
القنادسة
فحم حجري
حديد
فوسفات
نفط
زنك
رصاص
نحاس
زئبق والمد

خارطة
الجزائر الفلاحية



الجزائر العتيقة

ماقبل التاريخ

تعاقب على هذا الوطن الجزائري بعد العصر الحجري وقبل الفتح الاسلامي خمس امم عظيمة : البربر وهم السكان القدماء الاصليون ، والفنيقيون ، ثم الرومان ، فالفندال فالروم – البزنطيون – ؛ وهذا ما نسميه بالجزائر العتيقة ، وتاريخ هذا العصر يشمل تاريخ الشمال الافريقي كله وما الجزائر الا جزء من الجزيرة المغربية وهي كلها متشابهة جغرافياً وتاريخياً فهي وحدة لا تتجزأ رغم جميع الاعتبارات السياسية ، فان تاريخ هذا الشمال الافريقي متماسك الحلقات لم ينفصل عن بعضه الا في ظروف استثنائية وملابسات خاصة .

اما قبل ذلك ، فهو ما يعبر عنه لدى علماء التاريخ بعصر البليستوسين pleistocene ويسمى بعصر الجليد ايضاً ، ثم يأتي بعده العصر الحجري ذلك لان النوع البشري عموماً كان اذ ذاك يستعمل الحجارة في كل ما يحتاج اليه من الادوات كالمقاطع والمدى والفؤوس والجفان وغيرها ؛ وينقسم هذا العصر الى ثلاثة اقسام :

الدور الاول – عصر الحجارة القديم الذي كان فيه الانسان اشبه شيء بالوحوش ، حديث عهد بالطبيعة ، جاهلاً بطرق الانتفاع بها ، سادلاً عليه جلود الحيوانات متدفئاً باهابها ، يسكن الجبال والكهوف والمغارات ويأكل مما تنبته الارض عفواً وما عليها من خشاش وحيوانات وحشرات . وهو في كل ذلك يستعمل الحجارة .

الدور الثاني – عصر الحجارة الاوسط ، وفيه تقدم النوع البشري الى غير الحجارة ايضاً ، فأخذ يستعمل عظام الحيوانات من نوع الوعول والطيور والفيلة والكركدن وبيض النعام ، فاتخذ منها الاوعية والابر والسكاكين والمساحي وهذبت فيه الادوات الحجرية نوعاً ما ، وانتقلت السكنى من المغارات الى الاكواخ المستديرة والمربعة ؛ وعني الانسان في هذا الدور بالمدافن فكانت القبور فيه على شكل الهرم مبنية بالحجارة. ولقد كشف العلماء عن آثار من الاحجار المنحوتة ترجع الى هذا الدور في نواحي تلمسان ووهران وبير العتير جنوب تبسة وسطيف والقليعة بالجنوب الجزائري .

الدور الثالث – اتقن فيه الانسان صناعة الحجارة فاتخذ منها الارحاء للطحن وادوات النقش وصنع السهام ، ورسم عليها بالحجارة المحددة الرسوم العجيبة الشكل ؛ وفي هذا العصر اخترعت الكتابة « الهيروغليفية » – اي التصويرية – ، وفيه عرف الانسان الحياكة والنسج وايقاد النار وصنع الاواني الطينية للطبخ واتخذ الاوعية من الخشب والحلى والاصداف والمحاور وانياب الخنزير والحصى المثقوب وغطى رأسه بالريش . وكل ذلك بلغنا بواسطة ما عثر عليه علماء الآثار من هذه الاثاث بنواحي القطر كله . وخصوصاً ما كان منها بمدينة « باليكاو » ونواحي سطيف ومعسكر وعين مليلة والعين البيضاء ووهران والجزائر « العاصمة » وسعيدة وتبسة الخ ... وان اهم ما اكتشف من هذه الآثار هو صور منقوشة على الصخور وبعض الادوات الحديدية ، وقد اجتمعت منها كمية لا بأس بها يوجد بعضها بدار الآثار بالعاصمة وفي غيرها كذلك من متاحف القطر الجزائري وغيره مما كان موضع اعجاب ارباب الفنون والصناعات اليوم .

ولقد ذهب العلماء في تقدير الزمن الذي يرجع اليه تاريخ هذه الآثار مذاهب شتى فبلغ به بعضهم الى ستة او عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ؟ ... وهو تاريخ الحضارة البشرية .

ثم يأتي بعد ذلك العصر المعدني الذي اول ما عرف فيه الانسان

النحاس والقصدير والبرونز ثم الحديد ... ومنه انتقل الى ما يعبر عنه بعصور التاريخ حيث استعمل فيها الوثائق المكتوبة وهم يقدرون ما قبل التاريخ بنحو مابة وخمسين الف سنة .

قدماء الجزائر ، لغتهم ، ديانتهم

لا يخفى وان هذه المجموعة البشرية ترجع في نسبها حسب التقاليد المتواترة والنظرية الدينية الى آدم ونوح عليهما السلام ، وان الناس جميعاً هم من ابناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث فنهم وعنهم تفرع هذا الجنس البشري القائم يومئذ ـ وجعلنا ذريته هم الباقين ـ وذكروا ان ليافث ولداً ـ هو قطوبال ـ اليه يرجع نسب القدماء من سكان الشمال الافريقي ، وقيل هم من السلالة الحامية ؟ ... ونرى ابن خلدون نفسه يشك كثيراً في صحة هذا التقسيم الثلاثي المترتب على ابناء نوح الثلاثة [1] على ان علماء العصر قد خالفوا هذه النظرية تماماً وانكروا هذه العقيدة الشائعة وعدلوا عن هذا التقسيم الثلاثي القديم الى جعل الناس ثلاث طبقات : طبقة العصر الحجري ، وطبقة العصر الحديدي ، وطبقة عصر سكب الرمل ، وان تاريخ العصر الحجري وحده يرجع الى ما قبل اليوم بنحو ١٢٠٠٠ سنة ، وانه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو ١٠٠٠٠٠ سنة ، ويبلغ بعضهم الى ٢٤٠٠٠٠ سنة ؟ ... ولا يخفى ان التاريخ الديني الذي يقول به النصارى واليهود لا يزيد على ان عمر البشرية خمسة او سبعة آلاف سنة ؟ ... كما ان هؤلاء العلماء رجعوا في تقسيم اصول البشر اليوم الى مقاييس الجسم وشكل الرأس فقسموا الناس على حسب اختلاف مظاهرهم الطبيعية وتباين سحناتهم الى اربعة اشكال : الشكل القوقاسي وهم سكان اوروبا وآسيا الغربية وشطوط البحر المتوسط ؛ والشكل المغولي وهم سكان آسيا وامريكا من السلالة الصفراء ؛ والشكل الزنجي ؛ والشكل الامريكي القديم ؛ وجاؤوا في تعليلهم لهذا

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٣٥٤ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

التباين بين الاشكال بالعوامل الطبيعية والتغيرات الجوية واختلاف البيئة الجغرافية وتغير الطقس والهواء والماء والغذاء[1]. اما نظرية تقسيم البشرية الى فصيلة السامية والحامية والآرية فهي عائدة الى المغزى اللغوي لا غير، اذ انهم يعنون به الآن الامم التي تتكلم لغات متقاربة تجمعها رابطة السامية او الحامية او الآرية فهو تفصيل لغوي نشأ عن علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر لبيان الاختلاف الموجود بين اللغات لا بين الشعوب ثم جعل العلماء هذه الانساب اللغوية انساباً للامم التي تتكلم بها.

واما عن تاريخ اقدم سكان الجزائر او قل – شمال افريقية – (من غير البربر) فقد تضاربت اقوال المورخين في ذلك؛ يقال انهم مجموع طوائف ومزيج سلائل تجمعت من الطارئين على هذا الشمال الافريقي من مختلف الاوطان في غابر الازمان فتكونت منهم وحدة قومية وعنصر ممتاز هو العنصر الافريقي وعرف هؤلاء من بين الامم بالافارقة، ومنهم كانت تلك الجاليات المؤلفة من الميد والارمن والفرس الذين نص عليهم المؤرخ اليوناني «سلسطس» في كتابه (حروب يوغورطة) قال ان هؤلاء جاؤوا مع «هيركوليس» هرقل احـــد ملوك إيجا – بجزر اليونان – كجند مستأجر لغزو «ايبريا» – اسبانيا – ولما هلك هرقل طرد هؤلاء الجند من اسبانيا فتفرقوا على البلاد المجاورة؛ فعبر الميد والارمن يومئذ بحر الزقاق الى شمال المغرب واختلطوا بسكانه من اللوبيين واندمجوا فيهم. واما الفرس فانهم ابحروا كذلك في طلب زملائهم فحولت الرياح شراع سفنهم الى المحيط الاطلسي فأرسوا على شواطىء الجنوب المغربي فوجدوا هنالك قوماً من (الجتبولة) على بساطتهم الطبيعية فاندمجوا فيهم واختلطوا معهم بالمصاهرة كما اندمج الميد والارمن باللوبيين فتكون من هذا الاندماج ما تولد عنهم من هذا الجيل[2] يؤيد ذلك ما جاء في الجغرافية الافريقية

(١) انظر تعليقات الامير شكيب ارسلان على تاريخ ابن خلدون ص ٤٥ والتي تليها ط مصر ١٩٣٦ م.

(٢) موجز الكماك ص ٢٨ ودائرة المعارف للبستاني ج ٤ مادة افريقية.

القديمة من ان الفاروسيين – الفرس – استعمروا هذه الارض منذ عصر متوغل في القدم واختلطوا بسكانها واشتهروا فيها يومئذ باسم « نوميدا » او « توماد » ومعناه بلغتهم الرمل وهو ما يطلق على سكان شرقي الجزائر ؛ كما اننا نجد اسم « سوس » او « سوسة » بمراكش وتونس هو كذلك عند الفرس (سوسانة) او (شوشانة) يطلق على ناحية بالساحل الشرقي من الخليج الفارسي و (باجة) من بلاد اصبهان كما هي بافريقيا والاندلس ايضاً الخ ... فما معنى هذا الاتفاق ؟ فهل هو من قبيل القضايا الاتفاقية والمصادفة فقط ؟ ام ماذا ؟ ...

على أن المتفق عليه لدى المحققين من علماء التاريخ والآثار والجغرافية جميعاً ان سكان الشمال الافريقي القدماء هم من سلالة الجنس الابيض واضع اساس المدنيات القديمة ، ويرى هؤلاء العلماء ان اول ما وجد الانسان وجد بشمال افريقية فهو المهد الاول للجنس الابيض ، ومنه هاجر الى اوروبا وايدوا نظريتهم هذه بما دلت عليه الاكتشافات الحفرية الحديثة التي اجراها العلماء ومنهم العالم الاثري « ارامبورغ » فانهم اكتشفوا بناحية مدينة « معسكر » من القطر الجزائري هيكلا عظمياً يرجع تاريخه الى نحو ٥٠٠ الف سنة ، كما ان هذا العالم نفسه ظفر في بحوثه وحفرياته الاثرية بنفس هذه الناحية بهيكل عظمي آخر متحجر يرجع تاريخه حسب ما دل عليه الفحص العلمي الدقيق الى نحو نصف مليون سنة قبل اليوم .

ولم يسمع او يعرف في تاريخ البحوث الاثرية انهم ظفروا بهيكل متوغل في غضون تاريخ الزمن الغابر وخفايا العصور الماضية والقرون الخالية مثل هذا .

وقد اصبح الهيكل الثاني هذا يعرف في مصطلح علماء الآثار وتاريخ البشرية اليوم باسم « اطلانثوروبوس موريطانيكوس » ومعناه الانسان الاول الاطلنطي المووريطاني ، وكلا الهيكلين قريب من صاحبه زماناً ومكاناً . كما انهم وجدوا حول الهيكل « الاطلانثوروبوس » هذا عدة ادوات وآلات منزلية هي من حجارة متحجرة مختلفة الشكل : فؤوس

وسكاكين وغيرها هي من اقدم ما اكتشف من هذا النوع في هذا العالم ، وذلك ما يدلنا على تقدم ذكاء الانسان الاول في اختراع ضرورياته الحاجية المتعلقة بحياته اليومية – ولاسيما فيما يخص عبقرية الانسان الجزائري الاول – وهذا ما دعا العالم البحاثة (ارامبورغ) الى نشر نظريته المدعمة بالدلائل والبراهين الصحيحة القائلة بان ارض افريقيا الشمالية او قل بلاد الجزائر هي مهد العنصر البشري المتحضر .

اما عن لغتهم ولهجاتهم فلم يحدثنا التاريخ عنها بشيء ؛ ولا يبعد ان تكون اخت لغة قدماء المصريين والليبيين ، وخصوصاً اذا ما اعتمدنا مقالة من يقول ان قدماء المصريين هم من سلالة سكان الجزائر ومراكش ؟

واما دياناتهم فهي مؤسسة على عبادة مظاهر الطبيعة من الاجرام العلوية العظيمة كالشمس والقمر ، وبعض الحيوانات كالقرد والتيس والافعى ، وقد وجد الباحثون في جبل بني راشد – قسنطينة – تمثال تيس على رأسه هالة تمثل دائرة الشمس يدعونه « آتون » .

واذا حاولنا معرفة ما يسمى بالحضارة او المدنية الراهنة يومئذ فاننا نجد القوم متأثرين بالحضارة « الايجية » حسبما يدل عليه تقارب اللغة القديمة والخط ووحدة الشكل في البناء وصناعة الخزافة . ويقال ان سكان المغرب اخذوا عن الايجيين زراعة التين والزيتون والكرم ، وبفضل هؤلاء ايضاً راجت بالمغرب صناعة التعدين والتصوير على الخزف . ويظن ان ذلك كان حوالي الالف الثالثة قبل الميلاد . ولا يخفى ان هؤلاء الايجيين ينتسبون الى شعب ابيض ممتاز بصفاء الذهن والذكاء المفرط . كما يؤكد العلماء ان اصل هذا الشعب ايضاً من شمال افريقية ومنه ما نراه من بقية العنصر الاشقر في بعض النواحي من هذا الوطن الكبير (المغرب العربي) .

البربر

ان اول ما عرف التاريخ المسجل من سكان هذا الوطن انما عرف « البربر » وهم مجموع سكان الشمال الافريقي من حدود واحة « سيوة » المتاخمة للبلاد المصرية شرقاً الى ساحل البحر المحيط الاطلسي غرباً والى ضفة وادي النيجر جنوباً في حين انه لم يكن ليعرف في تاريخ السلائل او السلالات البشرية عامة ان هناك جيلاً من الناس يعرف هكذا باسم البربر ، وانما هو لفظ وضعي يراد به عند اليونان « صوت الالثغ » او هو كل انسان اجنبي عنهم لا يتكلم بلغتهم ، ومن ثمة اطلقه اليونان انفسهم على سكان هذا الوطن وعلى غيرهم ممن هو ليس يونانياً كأمة الطاليان فانها كانت تسمى عندهم « برباريا » . وقد نهج الطليان انفسهم كذلك منهج اليونان في هذه النسبة فانهم اطلقوا اسم البربري على كل من ليس يونانياً ولا ايطالياً او لم يكن خاضعاً لسلطانهم ، وجعلوا اسم « روماني » خاصاً بمن شمله نفوذهم الايطالي ومن ذلك الوقت عرفت جميع البلاد التي خرجت عن طاعة الرومان باسم « بارباريكوم » اي بلاد البربر ، ومنها مدينة « بربرة » بالصومال الانكليزي ، وقبيلة « برباريسي » او « بربارجيا » بجزيرة سردانيا كما عرفت سواحل المانيا وما على ضفاف نهر الدانوب باسم « برباريا » واطلقوا ايضاً اسم « البحر البربري » على البحر المحيط الهندي لانفصاله عن بلادهم الرومانية وهكذا عمت البربرية عندهم كل ما ليس رومانياً او يونانياً ؛ ثم جاء دور العرب في شمال افريقية

فحافظوا على هذه التسمية ولم يشاؤوا تغييرها لذيوعها واشتهارها يومئذ . على ان « هيرودوتس » المؤرخ اليوناني الكبير الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد كان يسمي هذه الارض باسم لوبيا او ليبيا ، ويدعو اهلها باللوبيين او الليبيين .

والاسم الوحيد الذي اراه ينبغي ان يطلق على سكان هذا الوطن هو الجنس المغربي نظراً الى موقع بلاده وموطنه الوالد .

على ان هؤلاء البربر وان اختلف الناس في اصل نشأتهم فهم ساميون من ابناء مازيغ بن كنعان ، فهم « الامازيغ » كما جاء في تصريحهم امام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب اليه الوفد بعد فتح مصر ، فانتسبوا امامه الى مازيغ ، وانهم اصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب « البحر الاحمر » والبحر المحيط ولم يقولوا له انهم « بربر » .

وفي رسالة العالم الفيلسوف المترهب القديس (اوغسطين) بعث بها الى اهل رومة قال فيها : اذا سألتم سكان البوادي عندنا – نوميدية الشرقية بولاية بونة من القطر الجزائري – قالوا نحن كنمانيين وقد كانوا ينطقون بهذه الكلمة محرفة اذ انهم كانوا يتلفظون بها بدون حرف الحلق الذي هو العين [1] ؛ ولا تزال الى اليوم لغتهم تعرف « بتامازغت » وان موطنهم الاصلي هو جزيرة العرب ولقد حاول بعض المؤرخين ان يلحقوا نسبهم ببر بن قيس بن عيلان ، فان صح ذلك فهو من باب الاتفاق [2] ويقول بروكلمن المستشرق الالماني الكبير : ان اليهود هم الذين عملوا على اقصاء الكنعانيين عن جدول بني سام والحاقهم بجدول آل حام الذي كان بزعمهم عاقاً لوالده وما ذاك الا عن حقد وعداوة كانت بينهما نشأت عنهـــا حروب واحن . ويزعم العالم دوبرا Duprat ان البربر هم من جنس آري هاجر من نواحي الكنج بالهند ! ...

---

(١) راجع كتاب الريفية الشمالية لمؤلفه « غوتي » Goutier ص ١٣٩ ط Payet باريس ١٩٤٢ م .

(٢) راجع ابن خلدون ج ١ ص ١٨ و ٦ ص ٨٩ وما يليها ...

وعلى كل فان من يطلع على تاريخ البربر يرى ، انهم امة عظيمة لها حضارتها ومدنيتها المثلى ، نشأت على عز الجانب واباية الضيم والدفاع عن الشرف مع ما كان لها من الملك والدولة وكثرة عددها ؛ انتقلت الى افريقية [1] من آسيا – جنوب فلسطين – عن طريق مصر حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م. ثم تتابعت الجاليات الكنعانية الى هذا الوطن في فترات مختلفة ودفعات متفرقة . كان منها هؤلاء الكنعانيون الذين اخرجوا من ديارهم بفلسطين حين تغلب عليهم العبريون فاجلوهم الى المغرب حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م. كما ذكرنا ؛ ويقول يوسف بن عبد البر القرطبي ان هذه الجالية الكنعانية نزلت اولاً بأرض مصر فمنعت من المكث بها وتصلب في وجهها يومئذ الفراعنة فواصلت السير الى ارض المغرب ؛ وهي تتألف من عدة عناصر منهم اليقشانيون [2] والعماليق [3] وغيرهم . وفي سنة ١٠٩٥ ق. م. تولى عرش العبرانيين الملك طالوت (شاوول) الذي باركه النبي صموئيل ، حيث كان اول ملك لبني اسرائيل بعد عصر القضاة ، فحارب

---

(١) لا زال اصل هذه الكلمة غامضاً ، وان كل ما قيل في شرح معناها او اشتقاق اصل مادتها فانما هو على سبيل الظن والتخمين فقط ؛ انظر ابن خلدون ج ١ ص ٧٨ وفتوح افريقية ص ٤٤ والمؤنس ص ١٤ والمسالك ص ٢١ والفتح العربي للمغرب ص ١ . وقال ابو الريحان البيروني : ان اهل مصر يسمون ما عن يمينهم اذا استقبلوا الجنوب : بلاد المغرب ، وانما سميت افريقية لما انها فرقت بين مصر والمغرب (معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١ ص ٣٢٤ ط ليزيج ١٨٦٦ م) . وعندي ان اقرب ما قيل فيها الى الصواب هو قول من قال ان « افرى » كلمة اطلقها الفينيقيون قديماً على اهل البلاد الاصليين الذين كانوا يسكنون المغرب من حدود مصر الى المحيط ومن ثمة سميت هذه المنطقة « آفريكان » اي بلاد الافرى ... ويقال انها كانت قبل ذلك تعرف باسم « ليبيا » .

(٢) يقول ابن خلدون ج ١ ص ٥٨ ط مصر ١٩٣٦ م ان ابرهيم الخليل عليه السلام تزوج بعد سارة بقنطورة بنت يقطان الكنعانية فولدت له ستة اولاد منهم يقشان فكان من نسله جيل البربر كما حقق ذلك الطبري الى المتقدمين وابراهيم سامي من المتأخرين وهو ما اتفق عليه علماء الانساب .

(٣) هم اولاد عمليق بن لاوذ بن سام موطنهم الصحراء التي بين العراق والعقبة كانت لهم بها دولة متينة وحضارة سامية .

اهل فلسطين وتغلب عليهم وأجلى فريقاً منهم ، فلما تولى بعده الملك النبي داود عليه السلام اخرج من بقي من الكنعانيين من ارض سنمار فكانت هجرتهم ايضاً الى هذه الديار سنة ١٠٥٥ ق. م. وما عدا الصواب الحسن الوزان حيث قسم سكان افريقية الى اربعة اقسام : عنصر افريقي اصلي ، وعنصر فينيقي ، وعنصر عبري ، وعنصر لاتيني .

أوصاف بربر الجزائر وأخلاقهم

يمتاز البربري الاهلي الجزائري عن عموم البربر بانه مستطيل الدماغ معتدل القامة والوجه ، بارز الخدين ، غير ناتيء العينين ، اسودهما متوسط العرض ، واسع الفم ، عريض الصدر والاكتاف ، ضيق الخصر ، اسود الشعر ، اسمر البشرة قوي البنية . وهناك صنف اشقر ازرق العينين مع رقة في الانف والشفتين مسطح الجبهة ، وهذا الصنف هو اقدم العنصر البربري بهذه البلاد وتوجد منه قلة بجبال جرجرة والاوراس وريف المغرب الاقصى .

والبربري خلق حراً فخوراً معتزاً بعشيرته متعصباً لقبيله وقومه ، ولعل ذلك الافراط في التعصب والغرام بحب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية ، الامر الذي دفع به الى الانانية والمنافسة الى حد المعاداة وهي التي بلغت به الى تشتت الشمل اليوم وافتراق الكلمة واختلاف النزاعات ؛ وهو مع ذلك نشأ حربياً شجاعاً الى حد الجرأة شرساً يبلغ احياناً الى حد الوحشية ، حاذقاً ، ذكي المشاعر منتقماً من عدوه شفوقاً بالضعفاء والمساكين محباً للعمل دؤوباً عليه ، عدواً للبطالة مكتفياً بالقليل المتواضع من بسيط المعيشة ، تاجراً كنازاً ، محافظاً على جميع ميزاته وخصائصه كما هو عليه حاله الى الآن .

ويحدثنا الدكتور غوستاف لوبون عن المرأة البربرية فيقول : والمرأة البربرية على جانب عظيم من الحمية ، فهي تحارب احياناً بجانب زوجها ، فخلد « هوميروس » ذكرها حين قص علينا خبر تلك الملكة والقسوة

المترجلات اللائي فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى ، ومن النساء البربريات من جلسن على عرش الملك [1] .

وتكاد تكون هذه الصفات عامة في جميع البربر ، واعظم دليل على ما ذكرنا هو ما حاولته الدول المستعمرة التي توالت على هذا الوطن منذ قرون من العهد الفينيقي والروماني الى يوم الناس هذا من عجزها عن تغيير مجرى حياة الاهلي في جميع الميادين ، في لغته او عاداته الخ ...

قال لوبون : استولت شعوب كثيرة على شمال افريقية فكانت لها آثار فيها ، فلكها القرطاجنيون والرومان والواندال والقوط والبيزنطيون قبل العرب ، ولم يتبدل اهالي شمال افريقية مع كثرة فتوح الاجانب لها ، واولئك الاهالي هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الاقل [2] . اقول بل وفي داخلها ايضاً .

وكل ذلك لا يمنعنا من ملاحظة ومراعاة تلك الحقيقة الناصعة التي نطق بهـــا التاريخ على لسان موسى بن نصير حينا سئل من طرف الخلافة الاموية عن البربر ، فقال يخاطب سليمان بن عبد الملك : يا امير المؤمنين هم اشبه الناس بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة وبادية ، غير انهم اغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد [3] ! ويشهد الله انه لصادق فيما قال ، وما كان تصديقي اياه الا عن تجربة واختبار طويل ودراسة عميقة لنفسية هذا الشعب في جميع مواقفه قديماً وحديثاً وما حملني على اثبات هذه الشهادة وتسليمها الا الاعتراف بالحقيقة رجاء تلافي هذه المنة الشنيعة وعملاً بالحكمة السائرة : من كتم داءه قتله .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٠٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

(٢) حضارة العرب ص ٣٠١ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

(٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥٨ ط مصر ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م . وتحفة الانفس لابن هذيل الاندلسي ص ٧١ ط باريس ١٩٣٦ م . وكتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٠٨ ط القاهرة ١٩٤٨ م . وتاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ٨٦ ط تونس ١٩٦٣ م .

وقد يكون ما سماه ابن نصير غدراً هو ليس بغدر ولا خديعة وانما هو مظهر من مظاهر الغريزة التي جبل عليها هذا الجيل وما تركز في جبلته وطبيعته من شدة العصبية وقوة الشكيمة مع ما فيه من التحذر من الكيد والتوجس من الغير مهما كان شأنه ، فكان ذلك في نظر موسى غدراً وما هو بغدر ، وربما كفانا مؤونة شرح هذا المعنى ما علق به ابن ابي الضياف على كلمة المعز الفاطمي التي اوصى بها خليفته على افريقية « بلكين ابن زيري » الصنهاجي حين مغادرته المغرب الى مصر ، اذ كان فيما اوصاه به قوله : « لا ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ... » قال ابن ابي الضياف : وهذه الوصاية منه معقولة المعنى ، لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعتهم من الدعة ... واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية البغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم ، والشر يدفع بمثله اذا اعياك غيره فالقتل انفى للقتل.

وهكذا نجد ابن ابي الضياف يتمادى في تعليل احداث التاريخ ونشوء حوادثه بما اوتيه من علم وتجربة وخبرة باحوال الشعوب فتراه يربط الاسباب بالمسببات فيذكر لنا الوقائع مرتبطة بموجبات حدوثها وما يحيط بها من عوامل وظروف ، فهو بعد ذلك لا يزال يعطينا ويفيدنا بمزيد الشرح والبيان عن هذه الغريزة الموجودة في البربر ، ويذكر من شأنهم أنهم لا يسكنون الا لمن كان من جلدتهم ، فانه بعد ما ذكر مواطاة الافارقة ومساندتهم لابراهيم بن الاغلب على توليه الحكم بافريقية وعزل محمد ابن مقاتل العكي جاء بتعليل لهذا الحادث السياسي الخطير فقال ...: (وهذا امر طبيعي في البشر ـ خصوصاً اهل افريقية ـ فان نفوسهم تسكن لواحد منهم نشأ في ارضهم ولو من الموالي اذ مولى القوم منهم ما لا تسكن لمثل عمر ابن عبد العزيز الاتم من غير ارضهم)[1] .

وقد كان ابراهيم هذا معروفاً عند البربر من قبل بولايته السابقة على مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري .

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٠٣ – ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

ويا ترى ما هو مصدر هذا الطبع الخلقي في البربر ؟ ... وكيف نشأت فيهم هذه السجية الراسخة ؟ ... هل كان ذلك عن وراثة دموية فطرية حدثت تلقائياً هكذا في هذا العنصر من البشر ؟ ... ام ان ذلك هو من خصائصه النفسية وغرائزه الثابتة في عرقه ؟ ... ام هي البيئة الطبيعية والجنس ؟ ... ام هي الظروف السياسية والعوامل الاقتصادية التي احاطت به في حياته التي مرت به ومر بها ؟ ... ام هناك ملابسات وتأثرات واسباب اخرى وتعليلات اضطرارية وعوامل اكتنفته من الخارج فكانت موجباً جبرياً لاكتسابه بهذه الظاهرة ؟ ... لا ادري والله ؟ ...

وهذا ما اترك البحث فيه لغيري من ذوي الاختصاص والتضلع في علم النفس وتحليل اخلاق الشعوب والى جهابذة علم « البيولجيا » الباحثين في نظريتي الجنس والعرق المتعمقين في دراسة نمو الدنيا وتكوين الانواع .

المواطن البربرية في الجزائر

ان الامة البربرية - كما علمت - قد عمرت هذا الشمال الافريقي من حدود آخر الايالة المصرية الى المحيط الاطلنطيكي من ناحية الصحراء بارض السودان ؛ وانه لمن العسير جداً تتبع جميع هذه القبائل وما تفرع منها من بطون وافخاذ بما لا يأتي عليه حصر ولا عد ... وانما نذكر منها بعض مشاهير هذه العشائر التي سكنت ارض الجزائر واتخذتها موطناً لها من قديم الزمن مع الالماع الى اماكنها ومراكز وجودها بهذا الوطن .

هناك جذمان عظيمان يجتمع عندهما كل ما تفرق من الفروع البربرية المنتشرة في هذا الشمال الافريقي كله من اقصاه الى اقصاه وهذان الجذمان هما مادغيس الملقب بالابتر ، والمنتسبون اليه هم البتر ، وقسم ينتسب الى برنس بن بر ، فسموا بالبرانس ؛ وكل من مادغيس وبرنس اخوان لاب واحد هو برمن ولد مازيغ ابن كنعان . والبربر في انفسهم ينقسمون الى طائفتين اثنتين ، وهما طائفة البربر الحضر الذين يسكنون

النواحي الشمالية والسفوح المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحراء والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً والكل يرجع الى هذين الجذمين برنس ومدغيس ؛ ولقد تفرع عن الاول عشر قبائل عظيمة ، منها ثلاث سكنت بهذا القطر الجزائري الذي نؤرخه : كتامة وعجيسة ، وازداجة ولكل من هذه فروع لا يهمنا الآن شأنها .

اما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عدداً واشدهم بأساً وقوة ، وكانت تقطن الساحل البحري من بونة (عنابة) الى بجاية ، وهي متوغلة في داخل الوطن الجزائري طولاً وعرضاً الى جبل اوراس ، ومن مدنها الشهيرة : جيجل ، والقل ، وسكيكدة ، ومطيف ، وقسنطينة .

واما عجيسة فهي شرقي صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة ، ولم تزل الى اليوم قرية بدوية هنالك في ارض تليلان — جبال بين قسنطينة والقل — تدعى عجيسة ، فلعل اهلها من بعض افخاذ هذه القبيلة الذين سكنوا ارض بني تليلان . واما ازداجة فهي كذلك قبيلة عظيمة تسكن في نواحي وهران .

اما الجذم الثاني — مادغيس الابتر — فتجتمع فروعه في اربع قبائل كبرى ... والتي سكنت الجزائر منها اثنتان فقط : لواته وضريسه ، اما لواته فهي قبيلة عظيمة تفرع عنها كثير من الشعوب ، وهي تنتسب الى « ليوا »[1] الاصغر ، ولها بطون سبعة كان منها بجبل اوراس وضواحي تيهرت وبجاية امة عظيمة ، ومن بطونها المشهورة اثنان : زناتة[2] وزواوة ؛

---

(١) لا يزال الى اليوم يوجد هذا الاسم في الزاب الغربي من بسكرة تسمى به قرية ليوا .

(٢) أصل الكلمة هكذا . ازيناتين ، ومعناها أبناء زناته ، وهو اسم امرأة مشتق من اوقانة بالقاف المعقودة وهو تحريف او تصحيف الكلمة « كنانا » ويرى ابن خلدون ان كلمة (زناتة) ترجع في اصلها اللغوي الى لفظة (جانا) او (شانا) التي هي اسم ابي الجيل كله ، وهو جانا بن يحي المذكور في نسبهم ، وهم اذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا (جانات) واذا ارادوا التعميم زادوا مع التاء نوناً فصار (جانانت) ، ونطقهم بهذا الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون به

فزناتة هي اكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً وهي منتشرة في نواحي تلمسان وريغة والاغواط والزاب ، وكانت مواطنها الاولى وسط المغرب الاقصى والصحراء المحيطة به من الجنوب وزواوة هي موطن بلاد القبائل الآن .

ويذكر ابن خلدون سكان المغرب الاوسط وهم اهل الجزائر فيقول : (... واما المغرب الاوسط فهو في الاغلب ديار زناتة ... حتى انه ينتسب اليهم ويعرف بهم ، فيقال وطن زناتة ، كان لمغراوة وبني يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة . ثم صار من بعدهم لبني ومانو وبني يلومي . ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين ، وقاعدته لهذا العهد — القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي — : تلمسان ، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية وما يليها الى بجاية ، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ... واما بلاد بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة وهي اليوم ديار العرب الا ممتنع الجبال وفيها بقاياهم[1] .

أهم مراكز البربر بالجزائر

ان من اشهر المدن والعواصم التي سكنها البربر بهذا القطر هي عاصمة القطر وام الوطن (الجزائر) كان فيها بنو مزغني الصنهاجيون ، وجرجرة ببلاد زواوة ووارقلة — بنو ورجلان — في جنوب صحراء الجزائر ، والمنيعة او — القليعة — من واحات الجنوب الجزائري ، وندرومة ،

بين الجيم والشين واميل الى السين ويقرب للسمع منها بعض الصفير فابدلوها زايا محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين فصارت زاناث لفظاً مفرداً دالاً على الجنس ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الالف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الالسنة (ابن خلدون ج ٧ ص ٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

وتهرت وما حولها ، وتلمسان ، وما بين شرشال وتنس ، وجبال وانشريس ، ونواحي جبال عمور بعمالة وهران وبين ثنية الاحد وتيارت ، وسوق هراس بعمالة قسنطينة وجيلة وفج مزالة غرب قسنطينة ونواحي بلاد الشبكة مصاب او (مزاب) .

وان الغالب من هذه القبائل البربرية بالقطر الجزائري هو متفرع عن ثلاثة شعوب عظيمة : صناهجة ، وكتامة ، وزناتة ؛ فمن صنهاجة بعمالة الجزائر : زواوة ، وفليسة ، وبنو منكلات ، وعمور ، ومنها بعمالة قسنطينة : مزينة ، وعجيسة وبنو يفرن - الشاوية - ؛ ومن كتامة بنفس العمالة : بنوسيلين ، وقبائل بني خطاب ، وعياد ، وجلة ؛ ومن زناتة بعمالة الجزائر : ، مغراوة ومطماطة ، وسوماتة ، وبنو توجين ، وبنو مناصر ؛ ومنها بعمالة وهران : مديونة وولهاصة ، والطرارة ، وتيغرين ، وشقالة ويزناص .

المجتمع البربري

ان نظام العشيرة - او قل هو نظام الحكم عندهم فانه كان ديموقراطياً ، ليس هنالك ملك ولا سلطان ولا عرش ، تنتخب القبيلة رئيسها بنفسها وتقلده الحكم وهي تختلف وترجع اليه في المهات والملمات وكانوا يشترطون في الرئيس مزايا وفضائل يمتاز بها عن غيره ؛ ويرجع نظام الاسرة الداخلي الى المرأة فهي ربة المنزل وصاحبة النفوذ به : محترمة الجانب مسموعة الكلمة ، وكثيراً ما تنتسب القبيلة الى امرأة ، وهذه زناتة تشهد بذلك ...

وهناك كثير من الاسر البربرية المالكة اشتهرت وعرفت فيما بعد الاسلام ايضاً باسم الام كابناء (تاسرغيت) في توجين وابناء (تنابعت) في مرين وغيرهم ...

ودور الامومة كما هو معلوم هو دور طبيعي في تطور الجنس البشري ، وهو سابق على دور الابوة ، ويراد بدور الامومة ذلك الدور الذي كانت الام فيه رأس الاسرة وصاحبة الامر والنفوذ فيها ويكون

ذلك عادة في الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج لان الاب لم يكن دائم المقام في الاسرة وانما هو يخرج الى الصيد والحرب وقد يخرج ولا يعود فتقوم الام بشؤون الاولاد[1] ...

واما المسكن فانه كان ولا يزال عند بعض فقراء البادية من كوخ أو « طابية » أو بالكهوف ومنه ما هو من خيام الوبر والشعر ولم يعرف هذا فيهم إلا بعد الفتح العربي . اما ملابسهم فانها لم تزل في الجملة كما كانت من قبل من صوف : برنس وقشابة ، ومنهم من كان يستعمل اهاب الحيوان المدبوغ ويضعون على رؤوسهم « القنور » وهو لفظ قريب جداً من كلمة القنور العربية - بفتح النون وتشديد الواو - والمعنى واحد ! ... ويرجع تاريخ القنور هذا الى الالف الثالثة قبل المسيح ، وكانوا قليلًا ما يحلقون رؤوسهم ؛ وسراويلهم قصيرة ؛ وحليهم القرط والخواتم والخلاخل والاساور المتخذة من مختلف المعادن ؛ وهي مستعملة عند الرجال كما هي مستعملة عند النساء ؛ وطعامهم لحوم الحيوانات الداجنة والطيور والصيد ، ومن النبات البر والفول والكرم والزيتون ؛ واظهر الوان اطعمتهم التاريخية هو « الكسكسو » ولا يعرف عند غيرهم الى الآن ، وهم يستعملونه غالباً في العشاء .

وكانت مكاسبهم البقر والغنم ، وخيولهم تمتاز بالقصر مع سرعة العدو ؛ وهي تركب عارية لا يملك الفارس بيده سوى قضيب خفيف ؛ اما الابل فانها تعرف بهذا الوطن إلا منذ سنة ٦٦ ق . م . وكانت توجد عندهم بعض الحيوانات الضخمة مثل الفيل ووحيد القرن ثم اضمحلت وتلاشت .

قال ابن خلدون : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا

---

(١) حسين مؤنس (تاريخ التمدن الاسلامي) ج ٤ ص ٢٣ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الملس ، ومكاسبهم الشاه والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح والدواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاضعان في نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ، ولغتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم » .

« ويقال ان افريقش ابن قيس ابن صيفي من ملوك التابعية لما غزا المغرب وافريقية وقتل جرجيس وبنى المدن والامصار وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم ! ... فسموا بالبربر ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الاصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الاسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة »[1] .

وعلى هذا الاساس أطلق اليونان اسم البربر على سكان هذا الوطن كما قدمنا . ويفهم من سياق كلام ابن خلدون ان في البربر صنفين كما هو الشأن في العرب أيضاً صنفاً متحضراً وصنفاً متبدياً فحالهم كحال العرب يختلف باختلاف البيئة والموطن .

المعتقد البربري

كان للمعتقد البربري اتصال عظيم بمظاهر الطبيعة وما فيها من عظمة كالاجرام العلوية ؛ فالكواكب عندهم مقدسة كما ان الثور والكبش والتيس والافعى والبوم والحمام والسلحفاة والضفدع والقرد والهر هي عندهم رموز مؤلهة كذلك كما ان للكهوف والمغارات عندهم مقاماً رفيعاً

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ ط بولاق ١٢٧٤ هـ وحضارة العرب ص ٣١٠ ط القاهرة ١٩٤٨ م .

بسبب ما يعتقدون من حلول الارواح بها ؛ فهم يتبركون بما فيها من مياه ساخنة أو باردة ويقربون لها القرابين البشرية متوسلين اليها في قضاء حوائجهم ؛ وان من واضح الادلة على تقديس البربري للحيوان ذلك الرسم الذي عثر عليه في قرية « الزناقة » بحدود الجزائر الجنوبية ، بين بني ونيف وواحة الفيقيق من مقاطعة وهران وهو يمثل الرب آمون « عمون رع » أحد آلهة المصريين ، وهو على صورة كبش تحيط به الهالة ؛ وهذا أحد الادلة التي دلت على ثبوت احتكاك الشعب البربري بالشعب المصري منذ عصور وأجيال ، كما تشهد لنا بذلك أيضاً كلمة « نيل » نفسها فهي نسبة بربرية أسيوية لا محالة سمي بها مجرى نهر مصر المشهور ؛ وأرى كذلك ان تقديس أو احترام بعض العوام اليوم لقرون كبش الضحية والنذور والاحتفاظ بها هو من ذلك وهم يدعون ان هذه تدفع عنهم وتقيهم النظرة أو العين ، وفي الحقيقة ان ذلك يرجع الى هذه العقيدة البربرية العتيقة .

الثقافة والحضارة والعمران

قرر بعض مؤرخي الحضارة من علماء امريكا انه لا يمكن التوصل الى معرفة تاريخ الانسانية – أي بحيث نجعل منه موضوعاً مفهوماً – إلا بعد ان نولي انتباهنا العناصر التقدمية فيه أي لتطور العلوم ، فهو يقول : ان تاريخ العلم أو تاريخ المعرفة يجب ان يكون نواة لكل تاريخ الحوادث الانسانية ... ولذلك كان أهم أقسام التاريخ ثلاثة أشياء : تاريخ الدين ، وتاريخ الفن ، وتاريخ العلم ، على ان التقدم لا يكون ابداً ملموساً اكيداً الا في القسم الاخير من هذه الاقسام الثلاثة ، من اجل ذلك وجب ان يحتل تاريخ العلم المركز الاوسط في صورة مدنية [1].

انه مما لا شك فيه ان البربري فضلاً عظيماً على الافريقي وعلى المدنية الافريقية في القديم بما اخترعه من أشكال الحروف وابتكار الخط

---

(١) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ٣٧

الذي يعبّر به عما يختلج في صدره من المعاني والكلمات ، في حين ان الخط كان منعدماً والكتابة مجهولة وخاصة بهذه الاوطان . ومن تأمل الخط البربري وأشكال الكتابة وجدها تشبه كثيراً الاوضاع الكونية والكائنات الطبيعية ، فهناك من الحروف ما يشبه الشمس ومنها ما يشبه القمر والنجم والبرق الخ ... ولم تكن الحروف الاصلية لتزيد لديهم على أربعة عشر حرفاً . يسمونها « تيفيناغ » ومعناها الحروف المنزلة ولها حركات وضوابط تسمى « تيدباكين » بمعنى الدليل على العمل والتوسع ، وهم يكتبونها بحرية تامة كيفما شاء الكاتب فليكتب : من اليمين الى الشمال وبالعكس ومن أعلى الى أسفل أو بالعكس ، حسب اصطلاح القبيلة ، ولم يبقَ لهذا الخط اثر بهذا الشمال الافريقي سوى بالصحراء عند الملثمين من قبائل لمتونة المشتهرين باسم (التوارك)[١] ، فانهم لا يزالون يستعملون في مكاتبهم خط « تيفيناغ » على قلة .

ولقد نشأت لغة البربري تشبه خطه في البساطة والاوضاع الطبيعية كما هو شأن الانسان في الاول ، وهي كغيرها من سائر لغات البشر ذات لهجات وصيغ مختلفة كما هو مشاهد من أهلها الى الآن بين سكان القطر الجزائري والمراكشي فهناك لهجة خاصة بزواوة – بلاد القبائل – تختلف في بعض مظاهرها عن لغة الشاوية وبني مصاب (مزاب) وبني صالح بجبل البليدة والشلوح والتوارك الخ ... ولا يزال اسم « تماشغت » أو « تمازغت » يطلق على جميعها[٢] بمعنى اللغة المازيغية وكلها ترجع الى جذر واحد يمت بصلة الى اللغات السامية ، وهذا جدول يبين لك شكل امهات حروف لغة « تيفيناغ » مع توضيح صيغة النطق بها على سبيل التقريب ، وباضافة الخط الفينيقي .

وعثر الباحثون من علماء الآثار على نقوش مكتوبة بالخط الحميري

---

(١) قيل انهم سموا بذلك لتركهم المسيحية الى الاسلام ؟ ...

(٢) Dictionnaire Français — , Louis Rin : les origines Berbères. Alger 1889. Tamâcheque par S. Cid Kadoui. Alger 1894.

على صخور من دباغ وغود ومشهد ووادي ثقب هي قريبة الشبه جداً من نقوش الخط البربري الموجود بناحية المقار من القطر الجزائري[1] .

أبجد	تيفيناغ شكل	تيفيناغ نطق	فينيقي	أبجد	تيفيناغ شكل	تيفيناغ نطق	فينيقي
ا	•	ءَ	≮	م	⊐	بَم	٦
ب	⊟	بَب	9	ن	|	بَن	٦
ج = ز	ⵅ	بَز	^	س	⊡	بَس	ǂ
د	∩ · Λ	بَد	Δ	ع			o
ه	⁞	بَه	∃	ف	ⵊⵊ	بَف	7
و	:	بَو	Y	ص	ξ	صود	٣
ز	#	بَز	I	ق ك	·:	بَق	φ
ح			⊟ · θ	ر	□	بَر	4
ط ت ذ ظ	+	بَت	⊕	ش	Ↄ	بَش	w
ى	ξ	بَى	Z	ث	+	بَث	† · x
كـ ج	⋈	بَك	⅄	غ	⁝	بَغ	
ل	‖	بَل	6				

جدول الخط البربري تيفيناغ والفينيقي

كما ان البربري فضلاً آخر عظيماً في سبقهم الى الاطلاع على معدن النحاس واستعماله والانتفاع به . فقد اكتشف الاثريون بضواحي العاصمة بناحية « قامة القول » ـ سانت اوجين ـ عدد قطع وصفائح نحاسية وغيرها

(١) راجع صورتها في كتاب تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري ط بيروت ١٩٦٠ م .

كما وجد مثل ذلك قرب مدينة « صلداي » – بجاية – مما يدل على تيقظ البربر وميلهم الى العمل والصناعات .

ولقد عثر الباحثون من علماء الآثار الاركيولوجية في سنة ١٩٣٣ على نقوش ورسوم مختلفة متنوعة « تاسيلي » بالجنوب الشرقي من صحراء الجزائر وبالشمال الشرقي من بلاد « الهقار » فيها عدة صور للنوعين الانسان والحيوان مزوقة بألوان متناسقة عجيبة متقنة الوضع والتخطيط ، قالوا ويرجع تاريخها الى ما قبل سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة ، وان دل هذا على شيء فانه يدل على تغلغل روح الفن والتقدم الصناعي في الشعب البربري الجزائري منذ القدم ، ولا يزال علماء الآثار يتابعون خطاهم السديدة في البحث والتنقيب عن مدنية هذا الشعب في خبايا ارضه الفتية وتربته الزكية والمستقبل كشاف . (انظر الصورة ص ٦٤)

اما عن سير الادب والعلم عندهم فانني لم اقف على ادب بربري بالمعنى الصحيح ، ولعل ذلك يرجع الى اختلاف لهجاتهم وعدم ضبط قواعدها اللغوية ضبطاً محكماً او لضيق لغتهم عن التعابير الفنية ؟ ... وان كل ما ظهر الى الآن من المقطوعات الشعرية والنثرية لا يكفي عندي في الاستشهاد به على ادب امة وثقافة جيل عظيم كأمة البربر هذه .

وغاية ما بلغنا عنهم في الفن والزخرفة لم يتجاوز اشكالاً وخطوطاً هندسية مثل ما نشاهده من الوشم المزخرف على ظاهر اليد وفي الوجه والساق والذراع ، وهو يدل على تركز الروح الفنية فيهم وتغلغلها في المرأة بالخصوص مما جعلها تتحمل الم‍ه وتصبر على وخز الابر غير متبرمة ؛ وكان مما يراد بالوشم عندهم التمييز بين العشائر والقبائل حتى لا تختلط نساء الحي بغيرهن في الحروب وفي مواطن الثورات والنزاع ايضاً [1] ، ومن مظاهر الفن البربري كذلك تلك الزخارف المرسومة على منسوجاتهم واوانيهم فيما هي عليه من تناسب في الالوان واتساق في النظام . وقد

---

(١) قال ابن العربي : ورجال صقلية وافريقية يفعلونه ليدل كل واحد منهم على رجلته في حداثته ، (احكام القرآن ج ١ ص ٥٠١ ط القاهرة ١٣٧٦ ه = ١٩٥٧ م) .



صور ورسوم ملونة عثر عليها بتاسيلي – صحراء الجزائر – يرجع تاريخها الى ما قبل اليوم بنحو سبعة او ثمانية آلاف سنة

ذكر احد الباحثين في جريدة «الكوتيديان الباريسية» تحت عنوان: تاريخ الامم المغلوبة على امرها لم يكتب. قال فيه: ومن قرأ تاريخ افريقية الشمالية القديمة يعرف انه قامت حضارة زاهرة في جبال الاطلس قبل الوف من السنين للميلاد، وكان في تلك الاصقاع مدنية بربرية قوية ذات علم وفن تعب المصريون والفينيقيون في القضاء عليها!...

ورغم انتشار جنس البربر بكامل سواحل هذا البحر الابيض المتوسط فانه لم يسجل لنا التاريخ مبلغ نشاطهم في البحرية عندهم ومقدرتهم الخاصة في شؤون الملاحة؟

ومن حيث العمران نرى ابن خلدون يذكر قبائل بني «يالدس» وهم من بطون «بني ومانوا» من مشاهير قبيلة زناتة بالمغرب الاوسط فيقول: انهم هم الذين اختطوا بمواطنهم المتصلة بقبلة المغرب الاقصى والاوسط تلك القصور والاطم اتخذوا بها الجنات من النخيل والاعناب وسائر الفواكه، فنهـــا على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات — بصحراء الجزائر — وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من المشرق الى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمى «تمنطيت» وهو بلد مستبحر في العمران [1].

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٦ ط بولاق ١٢٤٨ هـ.

الدولة الفينيقية

– القرطاجنية –

٨٨٠ – ١٤٦ ق.م.

الفينيقيون امة شرقية متشعبة عن الفرع الكنعاني[١] السامي وهم ينتسبون الى وطنهم «فينيقية»[٢] بآسيا الصغرى غرب بلاد الشام الى جبال «كارليل» بين جبل لبنان والبحر وهو مكان ضيق مستطيل يبلغ طوله ٢٠٠ كيلومتراً وعرضه ٣٠ ك.م. واهم مراسيهم بيروت وطرابلس الشام وصيدا وصور سيدة البحار – لندن القديمة –.

اما لغتهم فهي من اهم اللهجات الكنعانية بعد العبرانية وهي تطابقها بأصولها السواكن مطابقة تامة؛ والفروق بينها وبين اللهجة العبرية في الحروف المتحركة اهم منها في الحروف السواكن، وكذلك النحو،

---

(١) تنقسم جموع الكنعانيين الى كتلتين عظيمتين كونت الاولى منها الممالك الكنعانية في سورية وكونت الثانية دولة الكنعانيين ومستعمراتها بجزر البحر الابيض المتوسط وفي شمال افريقية وجنوب اوروبا.

(٢) الكلمة يونانية (فنيكس) ولها معنيان: النخيل واللون الاحمر وذلك لاستعمال الفينيقيين هذا اللون في ملابسهم ورسم النخيل على نقودهم.

والفينيقيين بناء للفعل غير معروف في اللهجة العبرية ولكنه وجد بعد ذلك في اللغة العربية وهو صحة الدلالة على الازمان باستعمال فعل مساعد — هو كان — امام التام من الفعل لجعله غير تام ، واللغة الفينيقية في لهجتها تشبه لغة اهل جزيرة (مالطة) اليوم ، فان هذه ، فيما رجحه علماء اللغات ، فينيقية ايضاً ، وبذلك كان للغة اهل مالطة اهمية عظيمة من الوجهة التاريخية ، ومهما يكن من امر فاللغة الفينيقية لغة سامية هي اخت العربية وقد اقبل عليها البربر لما وجدوا فيها من القرب من لغتهم ومن الاتصال الجنسي الكنعاني بأهلها ، وقد زادت الفينيقية هذا الوطن تأكيداً للعنصرية السامية وتمهيداً للعروبة والعربية .

اتصال الفينيقيين بشمال افريقية

نشأ الفينيقيون بطبيعة بلادهم وما تقتضيه وضعيتها ومساحتها الضيقة قوماً تجاراً مولعين بالاسفار وركوب البحار فبرعوا في الملاحة حتى اصبحت لهم السيادة فيها كما هي الحال عند انكلترا وامريكا اليوم ، ولذلك دعيت عاصمتهم « صيدا » بلندن القديمة ؛ وذلك بفضل اسطولهم الضخم العتيد ، وكانت لهم مغامرات بالاقطار النائية الشاسعة لجلب ما هم في حاجة اليه مما يصلح بصناعتهم ، وللتجارة واكتساب الرزق ايضاً ، فكانوا يحملون الفضة من اسبانيا والقصدير من انكلترا وغير ذلك من المعادن والاشياء الضرورية التي لا بد لهم منها فانتقلوا بذلك في بلاد الله الى ان دخلوا مصر متعاهدين مع اهلها فأسسوا هنالك شركات تجارية وخاضوا غمار البحر (البحر الابيض المتوسط) في سبيل مقاصدهم التجارية ؛ وهكذا الى ان حلت سنة ١٥٠٠ ق . م . فظهرت هنالك سفن لبعض الامم التي كان ان اقتبست حضارتها من هؤلاء الفينيقيين فاصبحت تزاحمهم يومئذ — سنة الكون — ومن بينها امة الاغريق التي اخذت في مضايقة فينيقية وحملتها على الانتقال او بالاحرى على الاتجاه بسفنها الى بلاد المغرب .

وفي سنة ١٢١٥ ق . م . انتصر الاسرائيليون على الكنعانيين الذين

كانوا بفلسطين وارغموهم على الجلاء فانتقل بعضهم الى ارض فينيقية ومنها الى افريقية فنزلوا على اخوانهم الكنعانيين الاقدمين. وكان سلوكهم الى هذه البلاد ومجيئهم اليها على طريقين: براً وبحراً، اما طريقهم البري فكانت بواسطة برزخ السويس. وصادف ان كان المجتمع المصري يومئذ يتخبط في فوضى عامة واضطراب سياسي عظيم؛ فاهتبل المصريون هذه الفرصة وخرج الكثير منهم صحبة الفينيقيين وجاؤوا معهم الى هذه البلاد فنشأ منهم جيل خاص مختلط يعرف بالفينيقي اللوبي؛ له لغته الخاصة وخطه الخاص وهو المعروف بالمسند اللوبي. كما انهم مروا في طريقهم البحرية بايطاليا وصقلية فصحبهم يومئذ «الاترسك والاوسز» وجاء معهم آخرون من «الصيقال» سكان صقلية، كما اصطحبهم آخرون ايضاً من اوروبا مثل «اليتوبيين» الخ... وذلك ما نشاهد اثره الى الآن بين ابناء هذه البلاد من اختلاف الناس في سحنائهم وعواطفهم واجسامهم وتفكيرهم ومستوى عقولهم ايضاً!... وذلك الاختلاط نفسه هو الذي مكن من اقدام الفينيقيين - بعد ذلك - في هذا القطر الافريقي.

وتقدم القوم اولاً الى ليبية وانتشروا بكامل الساحل الافريقي فأسسوا به نحو الثلاثمائة مركز ما بين مستودع تجاري ونحو المائتي مدينة، كان منها بالقطر الجزائري مدينة ايكوسيم - الجزائر - وصلداي - بجاية - وروسكادي - سكيكدة - وهبو بتشديد الباب معناه الاب - بونة[1] - وروسجونتا - ماتيفو - وشولو - القل - ويول - شرشال - وانجيجلي - جيجل - وروسقور، وتاقسبت - وتادلس - دلس وتنس، وتيقزيرت؛ الخ... وكان من مراكزهم التجارية بداخل القطر: مدروس - مداورش - وتقاست - سوق اهراس - وتيفيست - تبسة -؛ ومنها بالساحل التونسي ايضاً سوسة وبنزرت وبالمغرب تنجيس - طنجة - وروسادير - مليلة - وجدير - اكادير - وهلم جراً... وبهذه المواطن

(١) يلاحظ ان المدينة الحالية بنيت نحو سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١م - وهي على نحو ٢ كيلومتر من موضع بونه (عنابة) القديمة.

نشروا بضاعتهم وظهرت براعتهم في صنـــاعة الخزف والطين والزجاج والمنسوجات الحمراء والاسلحة الخ ... وكان الرواج والبيع في جميع هذه البضائع والسلع وكل الصناعات بطريق المعارضة والمبادلة بمنتوجات هذه البلاد المغربية من صوف ووبر وجلد وريش النعام والانعام والعاج الخ ...

وبهذه الطريقة التجارية – والديبلوماسية ايضاً – تم لهؤلاء الوافدين الاستحواذ على اقتصاديات البلاد واتسع لهم نطاق المعاملة فاضطروا بعد ذلك الى ضرب النقود [1] فكان لهم الاستيلاء السياسي بذلك . فالفينيقيون هم الذين ابتدعوا فكرة الاستيلاء على البلاد واستعمار الاوطان بطريقة تأسيس الشركات التجارية ، وهي الطريقة نفسها التي سلكتها هولاندة وانكلترة في الهند وبلاد الشرق .

تأسيس قرطاجنة

كان لشدة توغل تاريخ قرطاجنة في القدم – حتى كاد ان يتصل بفجر التاريخ – ان احاطت به اقوال وآراء كثيرة وروايات متناقضة مضطربة ضربنا عنها صفحاً واقتصرنا على ما اتضح لدينا رجحانه حسبما رواه لنا الشاعر اللاتيني فيرجيل .

ففي سنة ٨١٤ وقيل ٨٨٠ قبل الميلاد خرجت الاميرة (جونو) – بإمالة النون الى الضم والفتح – ارملة (اسرباس) رئيس كهنة مدينة صور الفينيقية فارة من ظلم اخيها (بيغماليون) المستبد بالملك دونها والمستأثر بكنوز زوجها وتراثه ، فكرهت الاميرة المقام على الضيم هنالك وجاءت الى هذا الشمال الافريقي حيث تقدمها اليه قومهـــا الفينيقيون ، فنزلت بساحل تونس فابتاعت من ملك البلاد البربري (اياوباس) قطعة من ارض جبل (برسة) وشرعت فيمن معها من الاتباع في تأسيس المدينة المسماة

---

(١) يرجح ان اختراع العملة كان في القرن السابع ق. م. وينسب اختراعها الى ملوك (ليذا) ويقال انها اخترعت ببلاد الصين سنة ٢٣٠٠ ق. م.

باسمها : (كرت جونو) التي اصبحت معروفة فيما بعد بقرطاجنة [1] عاصمة شمال افريقيا الى الفتح الاسلامي : ويقال ان هذا المكان كان يعرف باسم (قمبي) وانه كان قبل ذلك مستعمرة انشأها اهالي صيدا الفينيقيون ايام مجدهم ؟ ... وبذلك لفتت الاميرة انظار الناس الى هذه العاصمة الجديدة فأمها الناس من كل فج عميق ، والتحق بها الكثير من سكان سواحل البحر الابيض المتوسط من اهل الشام والشمال الافريقي وغيرهم في مناسبات مختلفة ...

فعمرت المدينة واتسع بهـــا العمران والمدنية فبلغ عدد سكانها الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة وهنالك من بلغ بهم الى المليون ! ... ثم كانت بعد ذلك مركزاً لبث العمارة بكامل هذا الساحل الافريقي على سيف البحر فانشئت المدن والمرامي وكثر عددها حتى فاق المآت ... (ثم اضمحلت بعد ذلك إلا القليل) ويومئذ أصبحت قرطاجنة عاصمة الحوض الغربي وحامية حمى الفينيقيين من طرابلس الشام الى بوغاز جبل طارق . ونشأت بذلك في افريقيا دولة شرقية الاصل مغربية الموقع .

ومن الناس من يرجع بتاريخ انشاء مدينة « أوتيكة » ـ قرت عوتيقت ـ المدينة العتيقة ـ بالقرب من تونس الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويجعلها من مؤســات الفينيقيين .

نظامها الحكومي

كان من الضروري بل الواجب السياسي على هذه الدولة الناشئة بهذه

---

(١) ويقول بعض الناس ان اسم قرطاجنة محرف عن اللفظ الفينيقي « كرت حدشت » يعني القرية الحديثة وهذا عندي بعيد بالنسبة الى قواعد التعريب ، فأين لفظة ـــ جنة ـ من حدشت = او حدشت ؟ ... بل الصواب هو ما ذكرنا : كرت جونو ـ اي قرية جونو ـ وهذا اقرب الى اللفظ الحادث قرطاجنة من كرت حدشت . ويقولون ان اسم الاميرة هذه هو إليسا او « عليشه ديدو » ؟ ... وهو اسم مركب من جزئين كما ترى ، ولست مرتاباً في الجزء الثاني من هذه التسمية لكونه وصفاً يعني اللاجئة قد يصدق هذا على الاميرة ، غير اني متوقف كثيراً في الجزء الاول : اليسا ، او عليشه فمن اين لهم ذلك ؟ ...

البلاد ان تسعى في تأسيس حكومتها المركزية للمحافظة على النظام والدفاع عن شرفها وحقوقها والذود عن مراكزها ومستودعاتها الاقتصادية ومؤسساتها المنتشرة بهذا الوطن ، وقد كان ذلك بالفعل فانشأت لها نظاماً جمهورياً تحت رئاسة شيخين ينتخبهما الشعب مباشرة من أسرتين مختلفتين لمدة سنة كاملة ، احدهما للادارة العسكرية والآخر للادارة المدنية ، ويطلق على كل واحد منهما لقب « شفط » بمعنى سبط بالعبرانية ، وهو الحاكم ولم يكن لاحدهما - قانوناً - الاستقلال بالامر دون صاحبه ، فلا بد من اطلاع زميله واتفاقهما على اي موقف كان ولهما الحق في تحرير نصوص القوانين الدولية بمساعدة لجنة خاصة تعين من طرف مجلس الشيوخ ، وان جميع الولاة وممثلي الحكومة في سائر المناطق المحتلة يعينون من طبقة التجار وارباب الصناعة وقد كان هؤلاء غالباً ينظرون الى مصالحهم الشخصية ويعملون لحسابهم اكثر مما ينظرون الى مصالح الدولة العمومية وبذلك ساءت العلائق بين الحكومة والرعية فيما بعد - نظراً لسوء سلوك هؤلاء .

وكان هنالك ثلاثة مجالس : مجلس النواب وهو يحتوي على ٣٠٠ عضو ومجلس الشيوخ فيه ٢٨ عضواً ينتخبون لمدة حياتهم ؛ ومجلس القضاء المسمى عندهم بمجلس المائة والاربعة ، واعضاؤه كلهم من الطبقة الاريستوقراطية (الاشراف) وهو يستمد سلطته من ذينك المجلسين الاولين ومنهم الكثير ممن توصل الى العضوية بهذه المجالس والى مناصب الحكم بالمال والعطاء .

وبهذا النظـــام الاستشاري اشتهرت دولة قرطاجنة بكونها اول من سن في العالم نظام الحياة النيابية والحكم الجمهوري . وذلك ما حمل الفيلسوف العظيم ارسطو على ارسال شهادته بتزكية النظام الاداري القرطاجني في التاريخ حيث قال : « ان لقرطاجنة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول ، ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعته من الحكمة انها مع ما للامة عندها من السلطان لم نجدها قط بدلت شكل الحكم ولا نشبت فيها فتنة » ... ثم قال : « ان القضاء عند القرطاجنيين افضل منه عند اليونان ذلك لانهم لا يرضون له أغفال الناس ، بل يولونه احسنهم طريقة واحمدهم سيرة » .

وقد تطور هذا النظام إبان القرنين الاخيرين من حياة قرطاجنة فكان هنالك مجلس الثلاثين ومن خصائصه فرض الضرائب ، ومجلس العشرة ومن خصائصه الاشتغال بالشؤون الدينية وبنايات المعابد وتنظيمها .

واما الجيش عندهم فانه في الغالب كان من المأجورين ومرتزقة البربر وغيرهم ويبلغ عدده الى خمسين الفاً ، وقد بلغ القرطاجنيون في البحرية وحركة الاساطيل الاوج فانطلقوا يجوبون البحار ويكتشفون مجاهل المعمورة الى ان بلغوا البحر المحيط الاطلسي واوغلوا فيه حتى اطلعوا على قارة امريكا وعرفوها قبل ان يعرفها كريستوف كولومب بستة عشر قرناً ولهم فيها آثار عثر عليها الباحثون فيما بعد ، على ان سطوتهم في الحكم كانت لا تتجاوز الشواطىء والسواحل الافريقية اذ لم تكن خطتهم المرسومة لترمي الى اكثر من اخضاع ما حازوه من مرامي وموانئ هذا الوطن ، فلم يكن التوغل في داخل الوطن من شأنهم بل كانت ادارة شؤونه بيد اهله الافارقة ، وبالجملة فقد كان نظام الحكم القرطاجني على العموم متسامحاً سهلاً مع الاهالي ، فهو لا يعمل على ازالة الزعامات واماتة الرجولة وابادتها كما فعل الرومان ومن سار على شاكلتهم بعد ذلك من المستعمرين ! ... نعم كانت هناك وقائع وحروب بينهم وبين الاهالي ولكنها كانت على خلاف النزعات الاستعمارية الدينية الاخرى ؛ ورغم ذلك فالحكومة كانت تعامل رعيتها بالحسنى الا نادراً فانها تعاقب عقوبة عنيفة شاذة واما الخزينة فانها متكونة من الضرائب والمغاوم وريع المحصولات .

المعتقد القرطاجني

اشتهر الفينيقيون بميلهم الى النظر في الطبيعة وما اشتملت عليه من اسرار وغموض وما كان فيها من الغاز الحية وباقبالهم على التفكر والاجتهاد في ادراك غوامض الدين الروحية فاداهم اجتهادهم هذا وحرصهم على العبادة الى الخضوع للشمس تحت اسم « بعل » وتانيث - القمر — وقد وجدت قرية قريبة من قرطاجنة تسمى باسم هذا المعبود ، وحمون هو كذلك من

آلهتهم ايضا ، وكان يشبه غالباً بكبش او تيس أقرن ، وكانت القرابين تقدم من قرطاجنة الى الهة صيدا « عشتوت » المعروفة عند الاشوريين والبابليين باسم « عشتر » او « اشتر » وهو كوكب الزهرة المسمى Vénus ولها اسماء اخرى تقارب هذه عند الاراميين ، وهو صنم يمثل زوجة بعل المعروف عند اليمنيين باسم « عثتار » (مذكر لا مؤنث) ولهم هياكل ضخمة للعبادة وهي مستودع تماثيل آلهتهم واليها تقرب القرابين وتقدم الضحايا البشرية ايضاً ! ... وقد سرى نوع من هذه التقاليد بين الاهالي فقلدوهم فيها .

وكان الفينيقيون يعدون اعمال العهارة والفجور اعمال تيمن يتقربون بها الى اربابهم ، وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المخازي في بلاد فينقية [1] .

الوسط القرطاجني

بلغ من امتزاج الشعب المغربي بالقرطاجني ان تكونت بينهما وحدة كاملة . فاندمج الكل في الكل ، وأوثقوا روابط الاتصال هذا بالزواج بين الخاصة والعامة فكان اشراف الاهالي وامراؤهم يتزوجون من نبيلات فينيقية والعكس ، وباعتناق الاهالي لعقائد قرطاجنة والاقبال على مصنوعاتها ايضاً تأكدت العلاقة وأصبح الكل امة واحدة ، ويكفينا في ذلك حجة انتقال عرش المملكة الفينيقية من آسيا الى هذه القارة . ويمتاز الوسط القرطاجني بانهماكه في العمل والتفاني في حب الصناعة والفلاحة والاكثار من الاسفار وعقد الرحلات في سبيل التجارة ؛ وبظهور حركة التأليف ونشاطها بينهم . ونرى القرطاجني في جميع مراحله محباً للسلم عفيفاً .

الجـــالية اليهودية

كان ابتداء مقدم اليهود الى شمال افريقيا منذ سنة ٥٨٨ ق. م. اي

(١) جعفر الحسني : محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٣ ص ٥٧٦ ط دمشق ١٣٧٤ هـ. ١٩٥٤ م.

في الوقت الذي فتح فيه الملك البابلي « بختنصر »[1] Nebuchadnezzar مدينة اورشليم[1] — بيت المقدس — وشرد اليهود منها فخرجوا مضطهدين لاجئين الى ابناء عمومتهم الكنعانيين بهذا الوطن — البربر والفينيقيين — واشتهر هذا التشريد اليهودي بين المؤرخين باسم : جلاء بابل ؛ ثم كان الجلاء الثاني عندما حاول اليهود الخروج عن طاعة الرومان ، فقضى عليهم الامبراطور طيطوش بن فسباسيان سنة ٧٠ م. وشتت شملهم في العالم وخرب بيت المقدس الخراب الثاني ، فالتجأ يومئذ هؤلاء اليهود الى افريقيا ايضاً ، ثم توالت بعد ذلك الهجرة اليهودية من المشرق الى هذا الوطن في مناسبات مختلفة واوقات متفرقة وقد كانت قبيلة جراوة الخيمة بجبل اوراس ونفوسة ومديونة كلها تدين بدين اليهودية الى عهد الدولة الادريسة فاعتنقت الاسلام ، ولا ندري أكان ذلك التهود في هذه القبائل عن عقيدة وايمان ام عن تقليد ام عن وراثة جنسية سياسية ؟ ...

غوائل الغرب

كانت الناحية الشرقية من الجزائر — نوميديا — مصيليا (عمالة قسنطينة) هادئة مطمئنة تسير تحت طاعة ملكها البربري (غولا) الموالي يومئذ لقرطاجنة ، وكانت الناحية الغربية من الجزائر — موريطانيا الغربية — ومعها مراكش مصيطليا تحت نفوذ الملك البربري (صيفاقس) ؛ وقد كانت انظار رومة وقتئذ متجهة نحو هذا القطر الافريقي ، فحاولت هذه الدولة يومئذ التدخل في شؤونه بطريق التغرير والوعود الكاذبة وجاءته بداء المنافسة كما هو شأن الغرب مع الشرق الى الآن ! ... فأوهمت صيفاقس بالمساعدة على ضم نوميديا اليه ان هو عمل على انتزاعها من غولا حليف قرطاجنة ، وبذلك يتم له الاستيلاء على كامل القطر الجزائري من الشرق الى الغرب ؛ فاغتر صيفاقس بتدجيل رومة وخرج

---

(١) كان استيلاؤه على بيت المقدس وتخريبه ونهبه له في ثلاث دفعات : الاولى سنة ٦٠٦ ثم في سنة ٥٩٦ ثم في سنة ٥٨٨ قبل الميلاد.

من عاصمته صيغة – ارشقول – لمهاجمة مملكة غولا فكانت الحرب بين الفريقين سنة ٢١٢ ق . م . وكان على جيش غولا ولده ماسنيسا الذي لم يتجاوز يومئذ السابعة عشرة من عمره ، وأخيراً انهزم صيفاقس متقهقراً الى موريطانيا ، ثم أعاد الكرة ثانياً على نوميديا في السنة التالية فخاب أيضاً ، ويومئذ اتسع نطاق المملكة الجزائرية وتوحدت ادارتها تحت نفوذ الملك غولا . ثم بعد وفاته نشأت فتن ومنازعات بين ولده ماسنيسا ومزاحميه على ملك أبيه ، ومنهم عمه ؛ ولم تشأ قرطاجنة يومئذ ان تدخل في شأن هذا الخلاف ، والكن ماسنيسا غضب لذلك ، وكان يعتقد مناصرة قرطاجنة ! ... وبعد حروب سنة ٢٠٦ ق . م . اقتسم هو وعمه مملكة مصيليا وأعلن مخالفة قرطاجنة ومحالفة رومة واذ ذاك عملت قرطاجنة على استمالة خصمه صيفاقس وأخذت تغريه بشتى المغريات ومنها مصاهرته بيت الملك فأصبح صيفاقس بجانب قرطاجنة مناوئاً لماسنيسا ، وفعلاً انتصر على خصمه وشرده في الجبال وانتصب صيفاقس على عرش نوميديا واحتل سيرتا – قسنطينة – سنة ٢٠٤ ق . م . ونشر نفوذه على القطر الجزائري من أقصاه الى أقصاه . ويومئذ اختفى ماسنيسا يرقب الفرص المواتية حتى اذا تهيأت له وأحدق الخطر الروماني بقرطاجنة نهض يلتهب غيضاً على عدوه ومنافسه صيفاقس ، فانضم له يومئذ بعض اشتات من البربر ومن ورائهم رومة ، وكانت هنالك المعارك الشديدة والهزائم المريرة كاد ان يخفق فيها ماسنيسا أيضاً لولا القدر . وأخيراً دخل هذا عاصمته سيرتا منتصراً فقبض على عدوه وبعث به مكبلاً الى رومة ، يرسف في قيوده وبقي الملك صيفاقس في أسره حتى مات هنالك غيضاً وأسفاً سنة ٢٠١ ق . م . وهكذا مآل سياسة من يحتمي بالاجنبي على مواطنيه وأبناء جنسه فان هلاكه يكون على يده لا محالة وكم في التاريخ من عبر وآيات على ذلك . ولما اندحرت قرطاجنة في حروبها ضد الرومان في وقعة (جاما) سنة ٢٠٢ ق . م . اضطرت الى اداء غرامة حربية لماسنيسا والاعتراف بـه ملكاً شرعيـاً على عرش أسلافه وذلك جزاء الصابرين .

الحروب الصقلية والبونيقية

ان كل من تتبع تاريخ هذه الدولة يعلم انها ما دخلت في حرب قط ولا أعلنتها إلا مرغمة مدفوعة اليها دفعاً ، ومن ذلك ما اشتهر في التاريخ باسم الحروب الصقلية ، والحروب البونيقية [1] ، اما الاولى وقد دامت أكثر من قرنين (٥٣٦ – ٣٠٦ ق . م .) فانها كانت ضد اليونان بسبب مزاحمة هؤلاء للحكومة الفينيقية في منتوجات البلاد الخاضعة لنفوذها بصقلية ، وكان النصر فيها لقرطاجنة ؛ واما الثانية فانها كانت ضد الرومان الذين اعتدوا على سيادتها وحاولوا التدخل في شؤون الوطن والتصرف في اقتصادياته ؛ فنهضت قرطاجنة مدافعة عن شرفها فخاضت عباب هذا البحر وقطعت جبال الالب وحصرت رومة حتى كادت ان تذهب بدولة الرومان ، ويومئذ اشتد تكالب هؤلاء الاعداء وثارت ثائرة حقدهم فهاجموا قرطاجنة في ثلاث دفعات ، كانت الحملة الاولى ما بين سنة ٢٦٤ و ٢٤١ ق . م . وانتهت باستيلاء الرومان على صقلية وأهم جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت سبب هذا النزاع ، ثم كانت الحملة الثانية فيما بين سنة ٢١٩ و ٢٠٢ ق . م . خسرت فيها قرطاجنة جميع مستعمراتها في اسبانيا وبجزر هذا البحر ، وكان سبب ذلك رغبة قرطاجنة في استرجاع ما سلبته منها رومة والانتقام للشرف . اما الثالثة فانها كانت من الرومان خشية انتشار نفوذ الملك البربري الجزائري – ماسنيسا – وحب الاستئثار بهذا القطر والقضاء على دولة الفينيقيين ، وقد دامت هذه الحرب الثالثة من سنة ١٤٩ الى سنة ١٤٦ ق . م . وفيها تم للرومان القضاء على دولة قرطاجنة والاستيلاء على مملكتها الافريقية ، ولقد رد المؤرخون جميع أسباب الانهزام التي لحقت قرطاجنة الى انقسام الحكومة يومئذ الى حزبين اثنين : حزب الرسماليين الذين يعملون للسلم ابتغاء الثروة وجمع المال ، وحزب المحاربين ؛ فذهبت الدولة ضحية الخلاف ! والكل راجع الى المنافسة والتزاحم وحب الاستئثار ؛ اما امنية الرومان فهي حب السيطرة والاستعمار .

---

(١) نسبة الى البونيقيين Poeni الفينيقيون في لسان الرومان .

وليس هنالك من الوقائع والحروب غير هذا سوى ما كانت تثيره قرطاجنة أحياناً من الملاحم أو المكافحة لقمع الثائرين من أبناء البلاد فان ذلك لا يعد حرباً ، أو ما ذكره احمد زكي في تاريخ الشرق ومحمد بك دياب في خلاصة تاريخ مصر من ان هناك غزواً وقع من كمبيز أو - قمباسوس - (برسب) - الفارسي (٥٢٩ - ٥٢٢ ق . م .) على بلاد المغرب بعد ما فتح مصر سنة ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع اتمام المشروع فرجع خائباً .

انشاء الممالك الوطنية بالجزائر

كان القطر الجزائري على عهد قرطاجنة مجزءاً الى جزئين شرقي وغربي ، فالشرقي منه يسمى بمملكة « المسيليان » وحدودها من وادي الرمل بعمالة قسنطينة الى الحد الغربي من القطر التونسي ، وقاعدته مدينة (بونة) - عنابة - والقسم الغربي وهو من مملكة « المسيليان » ما بين وادي الرمل والملوية وقاعدته سيرطة - أو (قرتة) بمعنى القرية وهي قسنطينة ؛ وجميع سكان هاتين المملكتين يعرفون في التاريخ باسم (النوميد) ومعناه الرعي والتنقل في سبيله ، وذلك ما يدلنا على ان سكان هذه المناطق هم رعاة قبل كل شيء وهو ما دعا بعد ذلك الى تسميتهم بالشاوية أيضاً ؛ ويومئذ لم يكن لهؤلاء الناس ملك أو نظام مملكة حتى اذا اذن ملك قرطاجنة بالذهاب وتوالت الخيبة عليها في الحروب البونيقية الثانية سنة ٢٠٢ ق . م . شرع الجزائريون بالخصوص في تأسيس ممالكهم اغتناماً لهذه الفرصة السانحة فتكونت ممالك وطنية نظامية تحميها قوة الرومان الجائرة .

فكان أول ملوك الجزائر في هذه الآونة (فارمينا) وكان على بلاد نوميديا شرقي مقاطعة قسنطينة الملك (ماسنيسا) و (نرفاس) ٢٣٨ ق . م . و (صيفاقس) ٢٣٠ - ٢٠٢ ق . م . وعاصمته صيغة - ارشقول - باحواز تلمسان على ضفة البحر عند مصب نهر التافنا ، واقتصر كذلك على الملك

(غايا) ووالده (ماسنيسا) سنة ٢١٣ – ٢٠٥ ق . م . فجلس على عرش قسنطينة وصار يتنقل تارة بقرطة التي سميت فيا بعد بقسنطينة ، وتارة بحل بمدينة (صيغة) أو صاغة – ارشقول – ، والى ماسنيسا هذا يرجع الفضل في تطور اقتصاد المغرب الاوسط ونمو الفلاحة وازدهارها ونشاط الفلاحين بهذا الوطن ، ومنهم كذلك (مصيبسا) وعاصمته سرطة – قسنطينة ١٤٩ – ١١٩ ق . م . و (ماصينه) كان على ناحية سطيف ، و (عرابيون) كان على ولاية نوميديا السطيفية ، و (يوبا الاول) وعاصمته هبون – بونة – و (يوبا الثاني) ٢٥ ق . م – ٢٣ م – وقاعدته قيصرية – يول – شرشال وقد كان لبعض هؤلاء الملوك حق سك العملة باسمه وضرب النقود بعاصمته .

الثقافة والحضارة والعمران

لا نكران ! ... فان للامة الفينيقية الفضل الاوفر على العالم المتمدن أجمع ، اذ هي أول من ابتكر طريقة رسم الحروف الابجدية المنتشرة في العالم اليوم وجعلها حسب النطق بعد ما كانت مسمارية – وهيروغليفية – (تصويرية) كما انها أول من وضع نظام الاشكال الحسابية ، فجميع خطوط الامم اليوم مدينة الى الخط الفينيقي القديم ، وتلك مفخرة ممتازة يفتخر بها الجنس السامي على سواه .

واشتهر الفينيقيون ايضاً بالمحافظة التامة على مميزاتهم وخصائصهم الجنسية وكل ما يربطهم بحياتهم العامة ومعيشتهم الشرقية فلم يتأثروا بالحياة الافريقية يومئذ ولا بغيرها من تقاليد الامم الاخرى ولم يلتفتوا كذلك الحركة الفلسفية التي اشتهر بها اليونان ... فقد غلبت عليهم المادة في كل شيء ، ولا يظهر عليهم اثر التقليد الا في فن المعمار فاننا نرى فيه اثر المحاكاة نوعاً ما في بعض مظاهره بالفن اليوناني ، ويرى ذلك جلياً في المقابر والمعابد وفي اواني الطين والجوهرات .

ولقد برع الفينيقيون في شتى فنون الصناعة كصنع العاج والدباغة والحياكة والنجارة واستخراج العطور والمواد الدهنية وصنع الفخار والخزف

والزجاج والبلور الملون والنقش على الصخور والخشب وتعدين المعادن وصنع الفؤوس والمطارق والسكاكين والمقصات والنسج بكيفية ممتازة لا تزال الى اليوم تستعمل في بعض جزر الارخبيل من سواحل اليونان التي كانوا يجلبون منها المتدم . كما اشتهروا كذلك في البحرية بسفنهم العجيبة واتقان بناية الموانى والمرافق بها ، فقد كانت مرسى قرطاجنة تسع نحو ٢٢٠ مركباً حربياً . كما كانت لهم القدم الراسخة في التجارة والفلاحة ، فعنوا كثيراً بغراسة انواع النخيل والزيتون والرمان والتين والارز والجوز ، وقلدهم في ذلك الافارقة والرومان ايضاً فترجموا كتاب (ماقون Magon) القرطاجني في الفلاحة وانتفعوا به كثيراً ، وكثرت يومئذ المؤسسات والمباني العظيمة والاجنة والقصور والملاعب ونفقت على عهدهم سوق العلم والادب ؛ كما انهم انشأوا طرقاً واسعة تربط ما بين اطراف افريقية الشمالية والوسطى فكانت القوافل مثل السفن ايضاً غادية رائحة ببضائعها ، فنفقت التجارة بين الاقطار ، وكان لامراء البلاد قوافل وشركات خاصة ، فانتشر بذلك العمران والمدنية القرطاجنية في كامل الساحل الافريقي بل تخطياه الى الضفة الاخرى من جزر هذا البحر وسواحله فازدهرت الحياة العامة على ضفاف هذا الحوض وكانت لهم السيادة المطلقة فيه على غيرهم سواء من جاورهم من الامم الاخرى او من بعد عنهم .

وجاءت امة الرومان بعدهم فقضت بدافع الحقد والضغينة على جميع هذه المدنية الزاهرة واتعبت نفسها في ذلك فأضاعت جميع الآثار التي كانت تدل ببهجتها على ما للقرطاجنيين من الرقي والتقدم في الحضارة ! ... وكل ما عثر عليه الباحثون اليوم من آثار هذه الامة هو لا يتجاوز بعض نقوش ورسوم لا تزيد فائدتها عن دراسة الازياء او لغة القوم ولهجة التخاطب بينهم ، او بعض قطع خزفية ضئيلة ، والى هؤلاء الفينيقيين يرجع الفضل في تطور هذه البلاد واخذها بأسباب المدنية من جديد في الحرب والسلم .

انهيار الجزائر الفينيقية

لا نطيل على القارىء بتحليل المواقف الحربية وذكر تفاصيل الوقائع

والملاحم التي قضت بسقوط قرطاجنة وانتصار رومة عليها فان ذلك يعود الى دراسة تاريخ الجندية والحروب ، وهو موضوع مستقل افردناه بالتأليف ، وانما يهمنا منه مواضع العبرة واسباب ذلك ؛ وهو مــــا يجده القارىء مسطراً امامه في هذا الباب .

ان اهم الاسباب الاساسية التي يرجع اليها سقوط هذه الدولة وتغلب الرومان عليها ، تنحصر في اربع نقط : اولاً — تنافس الاحزاب السياسية وانقسامها على نفسها الى ثلاثة اقسام ؛ ثانياً — اندفاع الدولة وراء التقدم المادي واهمال الجانب الروحي بالمرة ، ولا يخفى ما للروح من الاثر والتأثير في كل شيء ... ؛ وثالثاً — عدم شعور الجند بالمسؤولية العظمى في هذه الجبهة حيث انه اجنبي عن الوطن لا غيرة له وطنية ولا حمية وانما هو يسعى وراء الدرهم والمغنم ، فهو اخلاط من المتطوعين والمرتزقين فلا اخلاص له ولا وفاء ؛ والرابعة — وهي الحالقة سوء سلوك الحكومة بالرعية فكلما زادتها الايام اقبالاً إلا وامعنت في الظلم والجور ، وذلك مؤذن بالزوال لا محالة ...

ويومئذ ظهر شبح رومة بمظهر المنقذ الاعظم وتظاهرت امام البربر بالعطف والرحمة والعدل فانخدع لها الناس وانجذبوا اليها ، فاستعملت رومة حينئذ قاعدة الاستعمار العامة : فرق تسد ! ... وسعت في توسيع شقة الخلاف بين الراعي والرعية واوقعت بينهما العداوة والبغضاء ثم تقدمت الى ملوك البربر انفسهم ففرقتهم عن بعضهم — وهي في كل ذلك متظاهرة بالعمل على نصر المظلوم والانتصار من الظالم — فاشتد بذلك تصلب قرطاجنة وزادت في قساوتها وكان ذلك سبباً في انفجار الحروب البونيقية تلك الحروب الطاحنة الهوجاء ... وما كانت رومة لتقوى على مقاومة قرطاجنة لولا انضمام البربر اليها ونقمتهم على عدوتها وطموحهم الى الاستقلال والحرية فاغتنم الرومان كل هذه الفرص المواتية وضربوا طبولهم على هذه النغمة فالتهب الشعب البربري حماساً ونهض يومئذ ملك سيرته — قسنطينة — (ماسنيسا) وفي عمره وقتئذ ٨٨ سنة فانضم بقومه الى الجيوش الرومانية الجـــاثمة حول العاصمة (قرطاجنة)

وحاصروها مدة سنة كاملة فقطعوا عنها الميرة وكانت هنالك الغارة الشعواء وتكرر الهجوم من الرومان والبربر على المدن والعواصم فخربت البلاد وهدمت الاسوار وسبي النساء والذراري وتشتت شمل احزاب قرطاجنة وتمزق القوم شر ممزق فتبددوا في البلاد وقتلوا تقتيلاً ، ويومئذ اظهر النساء القرطاجنيات من البسالة والبطولة النادرة والشجاعة في ميدان المقاومة ما يذكرن به فيشكرن وضفرن شعورهن حبالاً مفتولة تبرعن بها على سفن المقاومة لاستعمالها في مكان الحبال المنعدمة يومئذ ! ... فقاومت قرطاجنة برجالها ونسائها الى الرمق الاخير وليس هنالك ما يقيها شر سقطتها او من يأخذ بيدها ، وتلك هي نتيجة ما زرعته يدها في قلوب الاهالي من دواعي السخط والحقد عليها ، فأحل بها الدهر بأسه وصب عليها الشعب نقمه ، وسقطت بيد الرومان سنة - ١٤٦ ق . م . - وفي ذلك كان فناء أمة كاملة وتلاشى اسمها من الوجود واصبحت احدوثة سائرة ، وعظة زاجرة ، وتم هذا النضال بين قرطاجنة الفينيقية وبين الرومان الذي هو في الحقيقة والواقع نضال بين العنصرين : السامي والآري . وقضت صروف الدهر وطوارقه بانهزام العنصر السامي الى مدة قرون في هذه القارة الافريقية الى عهد الفتح العربي فتجدد له حينئذ نشاطه تحت لواء الاسلام ، وليعتبر القارىء البصير بأن انهزام قرطاجنة لم يكن - في الحقيقة - عن قصور او تقصير منها في الدفاع عن نفسها وانما هو اثر لذلك الاستعلاء والتجبر والمعاملة السيئة التي سلكتها مع الرعية فأحدث فيها نفوراً وانزعاجاً ، سنة الله في كونه ولن نجد لسنة الله تبديلاً . وبسقوط هذه الدولة تحولت زعامة العالم من يد شمال افريقية الى جنوب اوروبا وتعطل بذلك سير التمدن بضعة قرون .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

	المملكة	تاريخ التولية
زمفاس	نوميديا الوسطى	٢٣٨ ق . م .
صيفاقس	نوميديا الشرقية	٢٣٠ — ٢٠٢ ق . م .
غولا بن زمفاس	نوميديا الوسطى	٢٠١ ق . م .
مصينسا	نوميديا الوسطى	٢٢٧ — ١٤٩ ق . م .
مصيصا وغولوصا ومناص بعل	نوميديا الشرقية	٢٤٩ ق . م .
ماصنيسا	نوميديا الشرقية والغربية	٢٠٦ ق . م .
فارمينا	نوميديا الشرقية	٣٠١
اصالس بن زمفاس		؟ . . .
لكوميس		؟ . . .
غايا	نوميديا الشرقية	
دلقاص	نوميديا الشرقية	
قابوصا	نوميديا الشرقية	
لاقوماز	نوميديا الشرقية	

من مشاهير الجزائر

مصينسا

٢٢٧ ـ ١٤٩ ق . م

مصينسا او ماسنيسا ، هو من اشهر ملوك البربر الجزائريين البارزين ، ومن اعظم زعمائهم على الاطلاق ؛ ابوه (غولا) ملك نوميديا وعاصمته سيرته قسنطينة .

نشأ مصينسا هذا محباً لوطنه غيوراً عليه مدافعاً عنه ، وقد شارك في محاربة خصم والده ومنافسه الملك (صيفاقس) اكبر رئيس عرفه التاريخ بنوميديا الغربية وسنه حينذاك لم يتجاوز ١٧ سنة . ومن ذلك الحين تألق نجمه في السماء بين ابطال التاريخ الجزائري فخلف اباه بعد وفاته على العرش وكان في اول امره موالياً للفنيقيين ، ولما رأى من قرطاجنة تهاونها بشأنه وعدم مبالاتها بحقوقه الشرقية في الولاية على عرش ابيه حتى كاد الاجانب ان يستولوا عليه ايام خروجه غازياً مدافعاً عن حياض قرطاجنة ، غضب لذلك وعاد من فوره مطالباً بملك ابيه الضائع واحتمل في ذلك مشاقاً عظيمة واهوالاً شديدة وكان ذلك سبباً في خروجه عن طاعة قرطاجنة واعلانه باستقلال الجزائر وتحرر الوطن من اغلال قرطاجنة . وكان يحضر المعارك الحربية ويقودها بنفسه رغم تقدمه في السن ، واستمر على الكفاح ضد الاستبداد الفنيقي حتى ظفر بالنصر واستقل بعرش الجزائر سنة ١٥٨ ق . م . ودانت له البلاد الى الحدود التونسية .

وكان مصينسا هذا حريصاً على ربط صلته بالرومان واليونان ابتغاء وصوله الى غايته التي يرمي اليها من القضاء على نير قرطاجنة فكان ما اراد . والى هذا الملك البربري يعود الفضل في اختراع لغة (ليبية) على نمط الحروف الهجائية الفينيقية حيث عمل على تركيب الجهاز الابجدي البونيقي على الرموز الصوتية القديمة التي كانت مستعملة عند الليبين . وهو الذي عمل على استقرار البدو في نواحيهم بالبادية واتخاذ الزراعة حرفة لهم بدل الرعي ، وجعلها عمدة الحضارة القديمة ، كما انه عني كثيراً بالاقتصاد والتجارة . وكان من تيقظه الحربي وشدة حذره انشاؤه لاسطول ضخم وجيش منظم ، وضرب السكة باسمه وكثيراً ما عمل على توحيد الشمال الافريقي وجمعه على دولة واحدة وابعاد الاجنبي عنه ، وبالجملة فلقد اجمع اهل التـــاريخ على مدحه والثناء على اخلاقه وسجاياه . توفي سنة ١٤٩ ق . م . عن سن عالية تنيف على المائة عام ودفن في قبره المعروف به الى الآن بالخروب على ١٦ كيلومتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة .

جدول تاريخي

تاريخ الحوادث	اهم الاحداث في العهد الفينيقي
٨٨٠ ق . م .	مقدم الاميرة « جونو »[١] وتأسيس قرطاجنة
٥٨٨ ق . م .	الهجرة اليهودية الى افريقية
٥٣٦ – ٣٠٦ ق . م .	حروب صقلية
٢٦٤ – ١٤٦ ق . م .	الحروب البونيقية وسقوط قرطاجنة
١٥٨ ق . م .	استقلال الملك البربري الجزائري مصينسا
١٤٩ ق . م .	وفاة مصينسا

(١) من المحتمل جداً ان يكون اسم الاميرة هذا عائداً الى اسم الالهة « جونون » ربة الفينيقيين ومعبودتهم ؟ ... وقد يكون كذلك اسم المدينة (قرطاجنة) مضافاً الى نفس هذه الربة « جونون » ؟ ... انظر صفحة ٦٠ من الكتاب .

الدَّولة الرومانيَّة

١٤٦ ق . م ـ ٤٣١ م

الرومان امة آرية متكونة من شعوب وامم مختلفة ، منها امة الغال والاتروسك والاغريق واللطين ... ومسكنها ارض ايطاليا بجبالها وسهولها ؛ وهي منسوبة ، حسبما يؤثر ، الى باني رومة ومؤسسها « رومولوس » حفيد « بوروكاش » ملك اللاطين ، وكان تاريخ بناء هذه العاصمة التاريخية سنة ٧٥٤ ق . م . وظلت كذلك عاصمة لهذه الدولة طيلة عشرة قرون ونصف ففتحت العالم المعمور يومئذ كله .

نظامها الحكومي

استمرت رومة على حكمها الامبراطوري بمرافقة مجلس الشيوخ الذي كان يحتوي اولاً على مائة عضو ثم زيد فيه بعد ذلك ؛ الى ان انقلب الحكم جمهورياً سنة ٥٠٩ ق . م فكان عدد اعضاء مجلسها حينئذ يفوق الثلاثمائة عضو ينتخبون لمدة حياتهم ، ومن بين هؤلاء ينتخب عضوان بارزان هما اللذان يباشران اعمال الحكومة العليا ورئاسة الدين لمدة سنة ويلقب كل منهما بلقب قنصل ولا يكون الا من طبقة الاشراف ؛ وقد كان لرومة على هذا العهد ولايتان بافريقية وخمس بآسيا وعشر باوروبا ، وبقي الامر على ذلك الى سنة ٣١ ق . م حيث تغلب الامبراطور

اغسطس اوكتافيوس على منافسه انطونيوس وتبوا عرش رومة واصبح يومئذ صاحب الامر والنهي ، فسعى في تغيير نظام الحكم الجمهوري واعاد البلاد الى نظامها الامبراطوري السابق وفوض الاعمال لولاة اتخذهم في البلاد . ويومئذ سقطت الجمهورية الرومانية وعادت السلطة الاستبدادية تحت نفوذ الاباطرة من ملوك الرومان ؛ وقد كانت حالة ابن البلاد الاهلي المستعمر على عهد هذه الجمهورية اتعس منها على عهد الامبراطورية .

وكانت العاصمة الاولى الرومانية بافريقية (عوتيقة) ثم انتقل منها حاكم الامبراطور الى (جنونيا) التي هي قرطاجنة ، والـ « بروقنصل » — الحاكم — النظر المطلق في كلتا السلطتين : العسكرية والمدنية ، ولكل من هاتين الناحيتين منظمة ادارية يديرها موظفون تحت اشراف رئيس . وتستمر ولاية « البروقنصل » الى تمام السنة من ولايته ، ثم انه اذا احسن السير والتدبير في سياسته يعين للمرة الثانية والثالثة وهكذا . ويتقاضى هؤلاء الموظفون مرتباتهم بما يستخلص من الشعب من ضرائب فادحة على اختلاف انواعها ومقاديرها ، من ذكور الامة واناثها . وتستخلص هذه المغارم والجبايات بواسطة الاعيان فهم الذين يدفعون اولاً من عندهم للخزينة ما تلزمهم به الحكومة ثم هم يتولون الاستخلاص من الرعية من غير مرحمة ولا شفقة ... وقد كان مرتب « البروقنصل » لا يقل عن مليون « سيسترس » سنوياً ، والسيسترس هو عبارة عن قطعة من فضة رومانية ، ولنائب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتب يقدر بنحو اربعين الف فرنك . وهو يحمل لقب « البروقيراطور » وعاصمته (سيزاريا) — شرشال — .

اما عدد الجند فانه كان لا يزيد في جميعه او مجموعه عن خمسة عشر الفاً ، وهو عدد ضئيل كما رأيت بالنسبة الى سعة المساحة التي يسيطر عليها الروماني ، وهذا يدلنا بلا شك على كمال نجاح الحكومة وتوفقها في السياسة ودهائها الديبلوماسي الذي تمكنت به من التحكم في البلاد . ثم ان هذا الجند في نفسه مختلط ، ففيه البربري والروماني والاسباني وغيرهم

من الجند المستأجر ، ولقد تزايد فيه عدد البربر حتى كان له التفوق على الجيش بتمامه . وكانت مراكزه بالجزائر مدينة تبسة ولمبيس ؛ فلحامية تبسة مراقبة البر وقنصلية – تونس – ونوميديا – اعمال قسنطينة ، وهي نفسها التي نقلت بعد ذلك الى لمبيس ، وهنا حامية اخرى لمراقبة موريطانيا الشرقية – مقاطعة الجزائر ووهران – يبلغ عددها ١٥٠٠٠ عسكري ولنوميديا ٥٠٠٠ وحامية بقرطاجنة يبلغ عددها الالف .

والاسطول الروماني امتاز بسطوته الجبارة على هذا البحر ، وكان مقره بالجزائر مدينة شرشال ، وبتونس : قرطاجنة . أما الخزينة فهي دائماً مستمدة من اموال الشعب من مغارم وضرائب متنوعة ؛ والرعية تحت رحمة القوانين الاستثنائية اذ ليس لها حق الروماني مطلقاً ! ... فالناس في نظر القانون الروماني طبقتان : احرار وعبيد ؛ وقد حدث مرة ان الامبراطور البربري سبتموس سويرس اصدر امره سنة ٢١٦ م بمساواة الرعية في نظر القانون وان اختلفت اجناسها وحالاتها السياسية وبقطع النظر عن كل اعتبار ، ومنح البربر حريتهم الشخصية فما كاد الامر هذا يتصل بهذه الديار حتى سعى المستعمرون في عرقلته ، وبالفعل رفض ولم ينفذ ... فالاستعمار ايها القارىء الكريم كما انت تراه اليوم بعينك وتلمسه بيدك هوهو ! ... فكم اشاع الاستعمار وتغنى بصدور قوانين عادلة تشتمل رعاياه بالجزائر ، ولكنها عند التطبيق يأخذ الولاة ومن بيدهم تسيير دفة المستعمرة في تأويلها وشرحها محرفة حسبما تقتضيه قواعد الاستعمار العامة من بقاء ابن البلاد دائماً تحت الضغط الشديد وبالجملة فلقد بقي الاهلي طيلة الاحتلال الروماني في شقاء وعناء . وجاء في دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ما يلي مترجماً :

« ... » وماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال ؟ ... كانت عين الوحشية والقوة مرتبة في صور قوانين ، اما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص .

اما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لا يرى فيها الا شرها مفرطاً للمال وحقداً على الاجنبي وضياعاً لاحساس الشفقة الانسانية. اما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اعمال السوط والسيف في العالم والحكم على اسرى الحرب بالتعذيب او بالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر.

وضعية شمال افريقية على عهد الرومان

لقد كانت هذه الجزيرة المغربية او قل افريقية الصغرى كما يعبر عنها بعض اهل الجغرافية من المعاصرين جزءاً واحداً في جميع اعتباراتها السياسية وفي جميع نظمها الداخلية والخارجية كما هي عليه حالتها الطبيعية وشكلها الجغرافي، الى ان جاء دور الرومان هذا فقسموها الى ثلاث مقاطعات: افريكا، ونوميديا، وموريطانيا، وهي تقريباً هذه الاوطان الثلاثة التي يشملها اسم المغرب العربي اليوم: تونس والجزائر ومراكش، وكان يطلق عليها جميعها ايضاً اسم موريطانيا ما عدا طرابلس. وسنة ٢٧ ق.م اندمجت نوميديا في افريكا القديمة وصار الحد من الوادي الكبير قرب جيجل الى برقة، وفي سنة ٢٠٠ م سمى الجميع باسم نوميديا القسنطينية تمييزاً لها عن نوميديا الجديدة.

وفي عهد الامبراطور كلوديو جزئت موريطانيا هذه ايضاً الى ناحيتين اثنتين: موريطانيا الطنجية - مراكش - نسبة الى عاصمتها يومئذ طنجة، وموريطانيا القيصرية وهي تشمل ارض الجزائر وتونس؛ ثم كان في سنة ٤٠ م تقسيم موريطانيا القيصرية الى قسمين: موريطانيا السطيفانية نسبة الى مدينة سطيف او سطيفى، - وهي ارض الجزائر - وبقيت الاخرى باسمها القديم، وهي من وادي مولوية الى البحر المحيط الاطلسي.

ثم في سنة ٢٩٧ م ارتأت الحكومة تغيير هذه الوضعية لشمال افريقية واصبحت الجزائر مقسمة الى ثلاث ولايات:

١ - نوميديا العسكرية، وهي بلاد نوميديا الجنوبية وعاصمتها لمبز.

٢ – نوميديا السطيفية من (امساقة) الى (صلدوي) – بجاية – .

٣ – موريطانيا القيصريه من صلدوي الى نهر ملوية .

واما ما كان فان النفوذ الروماني لم يشمل جميع بلاد هذا الشمال الافريقي ، بل كان مقتصراً على الساحل بما فيه من مدن وعواصم وقرى مركزية ذات شأن اقتصادي . ولقد ضبط الرومان ذلك بخط « الليميس » وهو عبارة عن طريق معبدة هائلة او خندق عميق او سلسلة تكنات لسكنى الجند المحارب محافظة منهم على الامن ؛ وكان هذا الخط يذهب من طرابلس الى جنوب مدينة الرباط ، ولا تزال منه بقية بمراكش ؛ وجعل الباقي من تراب هذا الشمال تحت الحماية السياسية العامة ، وبذلك استمر سكان شواهق الجبال والتخوم محافظين على استقلالهم ؛ وكان هؤلاء دائماً هم مبعث الثورات ضد النفوذ الروماني ونواة للحرية والاستقلال .

الرومان بالجزائر

كان ابتداء علاقة الرومان بالقطر الجزائري منذ سنة ٢١٣ ق . م . وامتدت اليه يدهم فتصرفوا فيه منذ سنة ١٠٤ ق . م ووضعوا قدمهم بنوميديا سنة ٤٦ ق . م – ٤٢ م ، ولم يكن للرومان ان يستولوا على بلاد القبائل الا بعد سنة ٢٩٧ وجعلوا عاصمتها بلدة جمعة صهريج . وكثيراً ما تغير نظام الجزائر الاداري فقسمت وجزئت الى اوضاع واشكال مختلفة ؛ فقد كانت مجزاة الى اربع ولايات او مقاطعات : ولاية ندرومة ، وقسنطينة ، وسطيف ، وشرشال ، وفي سنة ٣٧ م جعلت ناحية نوميديا وحدة ادارية تحت اشراف ضابط عسكري في رتبة عضو بمجلس الشيوخ وهو تحت طاعة الامبراطور نفسه .

ولقد كان من النظم المتبعة في العواصم والمدن انتخاب المجالس البلدية لكل ولاية وان لهذا المجلس النظر في مصالح منطقته كما هو الشأن المتعارف اليوم في البلديات ، وان اوسع بلدية كانت بالقطر

الجزائري في هذا العصر هي بلدية بونة – عنابة – فان نفوذها الاداري يمتد غرباً نحو ثلاثين كيلو متراً وشرقاً نحو ٥٠ ك.م كما انه لا ينبغي ان ننسى نظام المدن الخمس : قسنطينة ، وميلة ، وسكيكدة ، والقل ، وجميلة وما الحق بها من المدن والقرى وما كانت عليه من الحرية والاستقلال الداخلي وما بلغته الرعية في ظلها من الرفاهية والبذخ ؛ وبالجملة فان خط حدود الجزائر الرومانية يمر بجنوب اوراس والشاطئ الايمن لوادي جدي[1] ثم يصعد على حدود الشمال الغربي فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير فيضم الحضنة من جهتها الغربية ثم يتجه نحو سور الغزلان ويمر ببوغار وتيهرت وفرندة ، ويمتد الخط غرباً الى تلمسان ولالامغنية وبالجملة فانه لم يكن للرومان بالجزائر سوى التلول ، اما الصحراء فانهم لم يطرقوها الا من ناحية اوراس .

المعتقد الروماني

كان الرومان صابئة يعبدون الاوثان والتماثيل التي تصنع كالجواهر العلوية والاجرام السماوية ، ويعبدون النار والموتى من اسلافهم ويجعلون ذلك كله في زعمهم وساطة بين العلة الاولى والخليقة . وقد كان لهم آلهة متعددة فللحروب اله ، وللسلم اله ، وللمطر اله[2] وهلم جراً ... واشتهر من بين هذه الآلهة الوثن المعروف باسم (جوبيتير) فهو اله

---

(١) وادي جدي او وادي (شدي) هو كما ذكره ابن خلدون بقبلة الزاب ينبعث أصله من جبل راشد قبلة المغرب الاوسط ويمر الى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب الى ان يصب في سبخة نفز او ناس بلاد الجريد (العبر ج ٦ ص ٣٩٠ ط بولاق عن ٥١٣٨) .

(٢) ان فكرة تعدد الآلهة هي عقيدة اشورية قديمة اخذها حكماء اليونان عن هؤلاء واذاعوها بين قومهم احتيالاً منهم على الطغاة من ملوكهم المستبدين وبها توصلوا الى منازعتهم الملك ومشاركتهم في سلطتهم المطلقة فصح لهم بذلك مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد والوحدانية ، وهكذا فعل عقلاء الرومان بعدهم ، ولا تزال هذا الاصل القديم في العقائد هو القاعدة السياسية العامة في توزيع الادارة بالحكومات وتنوع السلط الملكية والجمهورية ايضاً .

الآلهة ، له حق النظارة على جميع اربابهم ، وله الحق كذلك في الترجيح عند اختلافهم ؛ وكم يجعلون له صوراً واشكالاً متنوعة تميزه عن غيره من آلهتهم . وهم الى ذلك يقدسون الامبراطور تقديساً كبيراً ومنهم من كان يتمثل معبوده في الديدان فيطعمونها الفول الاسود ، وغايتهم من العبادة كلها الفوز بالانتصار في المعارك والحروب ودرء المصائب عنهم . وقد اندمجت هذه العقائد بغيرها من عقائد البربر واسبغت عليها البربرية طابعها الخاص .

الحيـاة الرومانية

كانت معيشة الروماني او حياته البدائية بسيطة لا رفاهية فيها ولا نعيم ، فهو يستعمل الخشن في ملابسه ، وليس له من الثياب سوى قميص سابغ بأكمام وتارة بغير اكمام ، وسراويل ، وينتعل خفاً غليظاً . وكان للخاصة قمصان ذوات حواش حمر ، ولطبقة الاحرار منهم حلل من الملف الابيض ، ويمتاز القضاة بالخفاف الحمر ، وكان للنساء ولوع ومبالغة في ضروب الزينة والتجمل بأنواع الحلي ؛ اما المسكن فانه كان قبل استعمالهم الحجارة من خشب لا نافذة فيه لجهلهم بصناعة الزجاج يومئذ ؛ وكانت الانهج والسكك وممرات الطرق ضيقة عديمة النظافة لا ضوء فيها ليلاً ، وكل ذلك لم يمنع تقدمهم في الحضارة بعد ذلك ورقيهم المادي والادبي فكانت هنالك المسارح والمعابد والهياكل الضخمة الخ ... وهم اخذوا ذلك عن الاغريق وقرطاجنة وغيرهما ممن جعلتهم الاقدار تحت سلطتهم وشملهم نفوذهم الامبراطوري . واشتهروا بعد ذلك بنظامهم القضائي الذي لا تزال الامم الراقية اليوم تستمد منه روح التشريع . اما لغتهم فهي لغة اللطين وادبهم هو وليد الادب الاغريقي .

الجزائر والرومان

كان لسوء سلوك الرومان مع الاهالي وفساد سيرتهم وضغطهم على حرية الافكار تأثير عظيم على احرار الجزائر واباة الضيم منهم ، فعصفت

برؤوسهم نخوة الشهامة الوطنية وثارت بهم حمية الانفة فنهضوا نهضة رجل واحد بزعامة القائد البطل يوغورطة واندلع لسان الثورة ضد الطغيان الروماني سنة ١١٠ ق.م. ويومئذ اخذ القائد المذكور في توحيد الطوائف البربرية وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الروماني . فكانت ثورة عنيفة وحرباً عواناً تصارع فيها الحق والباطل وكانت الغلبة في جانب الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، وانتصر يوغورطة على الرومان في المعركة المشهورة باسم وقعة « سوتول » بالقرب من مدينة قالمة .

وتكرر على رومة الانهزام في عدة وقائع ، وتبوأ يوغورطة عرش سيرتا – قسنطينة سنة ١١٢ ق.م. واعلن استقلال الجزائر التام ؛ وحينئذ لجأت رومة الى الخادعة والمراوغة وتفننت في انواع المكر والدهاء واستعانت في ذلك ببعض الخونة الانذال من رؤوس البربر مثل يوبا الثاني وبوكوس – ملك موريطانيا – فتمهدت لها السبيل يومئذ باضطراب حبل الاهالي واختلافهم على بعضهم وفعلاً تغلب بوكوس على يوغورطة – وهو صهره – والد زوجته ، فقبض عليه واسلمه الى الرومان سنة ١٠٦ ق.م. فذهب به هؤلاء الى سجن رومة فمات به في اليوم السابع من شهر جانفي سنة ١٠٤ ق.م. وحينئذ اضاف الرومان منطقة نوميديا الغربية – عمالة الجزائر ووهران – الى الملك بوكوس مكافأة له على نصره لهم ضد صهره وزيد في مملكته جميع التراب الذي بين ملوية وبجاية . وبهذه السياسة او قل الدسيسة انتصر الرومان بالجزائر وانكسر جند المقاومة الاهلي بين قوتين عظيمتين : قوة جيش العدو المهاجم الذي كان يبلغ ٣٤٠٠٠ محارباً ، وقوة الخصوم الداخلية والمنازعات التي كان من رؤسائها بوكوس . ويومئذ تمكن الرومان من الجزائر بعد محاولة دامت اكثر من ٨٨ سنة .

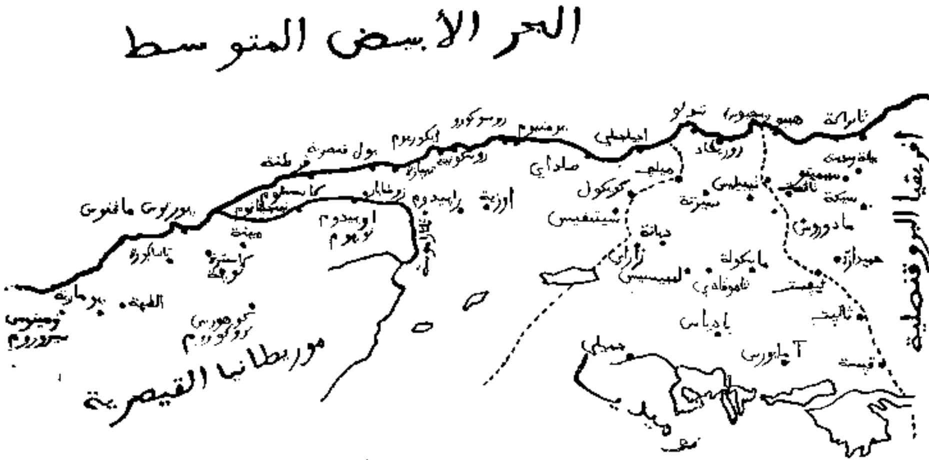
وكان يومئذ من بقايا ملوك الجزائر الاحرار الملك قودا : اخ يوغورطة ، وبعد وفاته اقتسم ولداه هيامسال ويارباس مملكته فحاز الاول جميع التراب الذي بين وادي الرمل وتونس وامتلك الثاني الناحية الغربية الى حدود بجاية ثم كان بينهما من الخلاف والشقاق ما ادى الى قتل يارباس واستقلال اخيه بمملكته .

وان من أشهر الوقائع والفتن بهذا العصر هي حوادث ثورة القائد البربري طاكفاريناس سنة ١٧ م فلقد عمت هذه الثورة السهل والجبل واتت بذلك على الاخضر واليابس فانتصر فيها اولاً هذا القائد عدة انتصارات وقضى على القوات الرومانية في عدة مواقف وحاربهم في مختلف الجهات ، ثم بعد مقاومة طويلة دامت نحو سبع سنين انهزم هذا القائد البطل ومات قتيلًا بمكان يقال له (اوزية) - صور الغزلان - ولم تقف حوادث المقاومة الشعبية عند هذا الحد بل استمرت وتكررت من الجزائريين الى نهاية الاستعمار الروماني ، ولذلك لم يتمكن الرومان من بسط نفوذهم على جميع القطر الجزائري فخرجت عنهم جبال وانشريس واوراس وصحراء عمالة الجزائر ووهران وسلمت من نيرهم كذلك جبال جرجرة وزواوة فاحتفظت جميع هذه الاوطان باستقلالها الى سنة ٢٩٧ م حيث انتصر على بعض الجهات منها بوقلطناس الروماني ؛ وبهذه المناسبة احدثت الادارة الرومانية تغييراً في تخطيط الحدود الجزائرية وجعلت الناحية التي بين دلس ووادي الرمل شبه وطن مستقل تحت اسم (موريطاني سيطيفيان) وقاعدتها مدينة سطيف .

وان هذه الاماكن التي خرجت عن طاعة الرومان هي التي كانت النواة في تحرير الوطن وانقاذه من سيادة الاجنبي عليه ، وهؤلاء هم الذين اوقعوا بالرومان في حوادث سنة ٢٦٥ م بنواحي ميلة وجبال اوراس وفي مجموعة الجبال التي بين قسنطينة وسطيف ثم اوقدوا نار الفتنة على الرومان بعامة الوطن في مدة لا تزيد عن تسع سنين (٢٨٨ - ٢٩٧ م) وكانت حوادث جرجرة هي ابشع الحوادث ضد الاستعمار الروماني .

تأسيس مدينة قسنطينة

لقد كان المكان الذي هي عليه مدينة قسنطينة يدعى من قبل قرطة ، او سيرطة ، وقد اتفق ان الامبراطور « ديوكليطيان » خلع نفسه ونزل عن عرش رومة سنة ٣٠٥ م فنهضت جماعة مطالبة بالعرش ، وكان من بينها الزارع اليكساندر ، فبايعه الجند المقيم بنوميديا - القطر الجزائري -



خريطة الجزائر على عهد الرومان

فزحف اليه خصمه ماكصانص احد المطالبين بالملك ايضاً فانهزم امامه اليكساندر ملتجئاً الى سيرطة فحاصرها خصمه المذكور وضايق اهلها وشدد عليهم الخناق حتى استولى عليها ماكصانص وقتل اليكساندر وهدمت المدينة سنة ٣١١ م وكثير غيرها من البلاد الجزائرية التي بويع فيها اليكساندر ؛ ويومئذ نشأ الخلاف والنزاع على الملك بين ماكصانص وقسطنطين فانتصر الثاني واستقل بالملك ومات خصمه في الحرب فجاء يومئذ قسطنطين الى افريقية سنة ٣٢٥ م وعمل على تطمين خاطر الشعب وتهدئة روعه ، واصلح ما دمرته الحرب وخربته يد الخلاف ويومئذ شرع في ترميم مدينة سيرطة وبنائها من جديد وسماها باسمه قسطنطينة — قسنطينة — ويقال ان هنالك نواحي من المدينة بنيت على حنايا مستحكمة ؟ ...

المسيحية بالجزائر

كان مولد المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته في السنة الثالثة والاربعين من ولاية الامبراطور اغسطس ببيت لحم في فلسطين ... وخلاصة تعاليمه ، عليه الصلاة والسلام ، ترمي الى بث الرحمة في القلوب وربط صلة المودة والمحبة بين الناس ونشر السلام والاخاء . قد لاقى اتباع هذا الدين الكريم من رؤساء الوثنية وممن يعتقدون العصمة في شخص الامبراطور وينزهونه عن عوارض البشرية من الاضطهاد ما لاقوا ! ... وذلك محافظة من هؤلاء السادة على نفوذهم السياسي ودفاعاً عن مقاصدهم الشخصية الانتفاعية فلقد اصاب المؤمنين يومئذ من الوثنيين في سبيل تبليغ الدعوة الوان من التنكيل والتعذيب ! ... وسارت قافلة المسيحية تبشر بهذا الدين في جميع الجهات التي وطئتها اقدامها ، ومنها هذا الوطن الجزائري [1]

---

(١) ان الذي بشر من الحواريين بافريقية هو فيلبش ، وان الذي جاء الى ارض البربر وبرقة هو شمعون القانوي ، وان الذي ارسل الى الحبشة وارض السودان هو متى المشار ، ويكاد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الديانة المسيحية ان يجمعوا على ان الذي تولى التبشير بها بالديار المصرية هو المرسل « مرقس » وهو عربي صميم من يهود القيروان اعتنق الديانة المسيحية عند ظهور المسيح وبشر بها هناك ثم عاد الى تونس

فطالما بحث اهله عما يخلصهم من الاضطهاد الروماني فبادروا حينئذ الى اعتناق هذا الدين الجديد تخلصاً من نير استعباد الوثنية والوثنيين ...

وبقي امر هذا الدين بين اتباعه وخصومهم في مد وجزر ؛ حتى استتب الامر الى الامبراطور قسطنطين واستولى على عرش رومة سنة ٣١٢ م فاعتنق المسيحية واعلى من شأنها في البلاد وجعلها دين الحكومة الرسمي وامر ببناء المعابد والكنائس في انحاء الامبراطورية الرومانية واعلن برفض دين الصابئة ، واصدر مرسوماً اطلق عليه الناس يومئذ اسم (مرسوم ميلان) يمنح به الحرية المطلقة في الاعتقاد ؛ ولقد عاشت هذه الحرية مدة حكم قسطنطين الى حد ما . وذلك عندما كان هذا الامبراطور في نفس الوقت حامياً للمسيحيين وقساً ووثنياً في آن واحد ... ولكن الرومان بعد ذلك عندما اصبحوا كلهم يدينون بالمسيحية في القرن الرابع لم يلبثوا ان الغوا تلك الحرية الممنوحة على عهد قسطنطين واحدثوا قوانين صارمة للضرب بها على ايدي الوثنيين والمارقين (وهم في نظرهم القوم الذين لا يرون ما تراه السلطة القائمة يومئذ من رأي) .

واذا كان اليهود الاسعدون حظاً من الوثنيين قد احتفظوا بحقوقهم الدينية في مزاولة عباداتهم ، فانه قد حظر عليهم ان يتزوجوا المسيحيات او يفتحوا معابد جديدة لهم ومن خالف هذا حكم عليه بالاعدام ، كما قد حظر عليهم ايضاً تهويد المسيحي والا عوقبوا بنفس العقوبة ؛ ورغم هذه المحاولات والتشديدات كلها فانه قد دخل على الدين المسيحي من عوائد الوثنية وغيرها ما امتزج به في اغلب مظاهره ، وحدث القول بالتثليث

وصاحب الرسل « بولس » ثم « بطرس » ثم بعد مقتل بولس ، وقد جاء مصر من طريق الصحراء الغربية وبدأ يبث دعوته في الصعيد ثم انتقل الى الاسكندرية حيث انشأ مدرسة دينية ، ولم ينقطع عن التردد بين الاسكندرية ومسقط رأسه بالقيروان الى ان توفي عام ٦٨ م ودفن بالاسكندرية التي اصبحت لذلك مقر كرسي بابا الكرازة المرقسية نسبة اليه وكانت كنيسة الاسكندرية تعارض الكنيسة الرومانية (محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ١٣٥ — ١٣٦ ط القاهرة) . وتمتاز الاسر والعائلات البربرية القديمة التي اعتنق آباؤها هذا الدين برسم شكل صليب بين اعينهم كما هو عليه حالهم الى الآن .

فقبله من قبله ورفضه جمــاعة كان على رأسهم القس الراهب اريوس الاسكندراني المولود سنة ٢٧٠ م وكما اشتهر بينهم يومئذ مذهب الراهب دونا الذي دعا اليه سنة ٣٠٥ م بمدينة كازنوار – الديار السود – بالقطر الجزائري – شمال اوراس – وكان يزعم ان مذهبه هو المذهب الوحيد الذي يمثل العقيدة الصحيحة فاختلفت يومئذ كلمة اتباع المسيحية واضطربت عقيدتهم فيما بينهم . فدعا الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ديني لتقرير العقيدة الرسمية وتوحيد الكلمة بين النصارى جميعاً ، فكان يومئذ مؤتمر نيقية [1] من بلاد الروم سنة ٣٢٥ م ، وهو اول اجتماع عقده رؤساء المسيحية في العالم ، اجتمع فيه ما ينيف على ألفين وثلاثمائة رئيس ديني ، وذلك بحضر القيصر قسطنطين نفسه ، وكتبوا في ذلك وثيقة سموها بعقيدة الامانة [2] وحملوا الناس عليها اعتقاداً وعملاً .

ثم اختلفت انظار هؤلاء الرؤساء انفسهم القائمين بتسيير دفة الدين بسبب اختلاف النظريات الفلسفية الداخلية يومئذ على الدين ، وكان اول من عمل على مزج هذه الدراسات الفلسفية بالتعاليم الدينية الفيلسوف امونيوس الاسكندري Ammonius (٢٤١ م) ، فتشعبت يومئذ المذاهب وانتصبت محاكم التفتيش للحكم على اصحاب المذاهب المناقضة الاخرى وطردهم من الكنيسة وحرمانهم ؛ وافترقت النصرانية يومئذ الى فرق وشيع وطوائف كثيرة انقسمت بها الكنيسة على نفسها ، اشتهر منها اصحاب هذه المذاهب الاربعة : الملكانية Melchites نسبة الى ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها ، وهو مذهب البابا برومة وجمهور الملوك ورؤساء النصارى وعامتهم ، واليعقوبية Monophysites اصحاب يعقوب البرذعاني راهب القسطنطينية ، وهو مذهب غالب الارمن والاقباط وجميع الحبشة والنوبة ، والنسطورية اصحاب نسطوريوس بطريرك

---

(١) هي مدينة (ازنيق) من بلاد الاناضول وموقعها على بحر مرمرة ، كانت هي العاصمة الثانية لمملكة الروم وتسمى Nicaea .

(٢) انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٦٣ ط مصر سنة ١٣٢٠ هـ وابن خلدون ج ١ ص ٢٢١ ط مصر سنة ١٣٥٥ هـ .

القسطنطينية (٤٢٨ م) المتوفى سنة ٤٥٠ م ، وهو المذهب الغالب على نصارى الموصل والعراق وفارس وخراسان ؛ والمارونية نسبة الى الراهب مارون (٤٣٣ م) ومذهبه قريب من المذاهب الثلاثة المتقدمة بل هو قريب الشبه من المذهب الكاثوليكي . ولقد نشأ عن ظهور هذه المذاهب تنافس بين اهلها ومشاحنات ومجادلات دينية واضطهادات نشأت عنها مذاهب اخرى الى هلم جرا ... وعن هذا السبب نفسه نشأت الفرق والطوائف الاسلامية بعد ذلك وكثر النقاش والجدل الديني الفلسفي واختلفت المذاهب الاعتقادية في علم الكلام ، والتاريخ يعيد نفسه ...

وكان حظ الجزائر من هذه المذاهب المسيحية هو مذهب دونتوس اسقف الديار السود (كازا نوار) - شمال اوراس - ٣٠٥ م فقد اخذ هذا المذهب ينتشر بسرعة في كامل القطر الجزائري رغم مقاومة السلطة له . وذلك لما احتوى عليه من مبادىء التحرير . وقد كثر اتباعه حتى كادوا في سنة ٣٣٠ م ان يستحوذوا على اكثر كنائس افريقية ، فقد بلغ عدد المراكز المسيحية بها سنة ٤١١ م سبعة وثمانين ومائة كنيسة ، منها ٨٧ دوناتية والبقية موزعة وموقوفة على مختلف المذاهب الاخرى ؛ ثم ان اهل هذا المذهب نفسه انشقوا الى طائفتين اثنتين كانت احداهما مقيمة بمدينة تيمقادي . ويعتبر هذا المذهب بحسب مبادئه الاعتقادية ثائراً على نظام الحكم السائد يومئذ على هذه الديار ، وطالما اصدرت الحكومة أوامرها الصارمة على اتباعه فلم يحفلوا لها ؛ وما تمذهب الجزائريون بهذا المذهب الدنتوسي إلا لما احتوت عليه تعاليمه من الثورة على قواعد الحكم ؛ وذلك لما انهم كانوا يرون فيه خلاصهم من اسر الاستعباد والاستعمار ؛ وهذا هو الغرض والسر فيما نراه اليوم وقبل اليوم من تدخل الحكومات الاستعمارية في شؤون الاديان والمعتقدات ووضع يدها على العناصر الحيوية منها مثل ما شاهدناه نحن في بلادنا الجزائرية من فرنسا ؛ وذلك لما تتوجسه هذه الدول المستبدة من النهضة الدينية التحريرية .

ما فتئت الديانة المسيحية تنتشر لتأخذ مكانها – على مذهب دونا – بهذه البلاد حتى اخذ اتباع هذا المذهب الديني الوطني في مطاردة اهل المذاهب الاخرى ، فنشأت عن ذلك فتن واهوال ، ادت الى خلع طاعة الرومان ونبذ سلطانهم ؛ وتعددت الوقائع يومئذ ، فانتهز المناوئون للدولة فرصة هذا النزاع واخذوا في عقد اجتماعاتهم بمدينة تيمقادي وغيرها للنظر والتدبير في احداث انقلاب سياسي عام ، وهم في كل ذلك يتظاهرون بالبحث والنقاش الديني ، وقد كان على رأس هذه الحركة الثورية الرئيس الوطني فيرموس بن الملك البربري نوبيل ، احد زعماء زواوة وجرجرة ؛ فانحاز اليه اتباع مذهب الدوناتيست واندلع يومئذ لهيب الثورة الوطنية التحريرية في البلاد ٣٧١ م وكان يبلغ عدد جنود فيرموس نحو العشرين الفاً جاءت كلها محاصرة للعاصمة يول القيصرية – شرشال – وشددت عليها الخناق حتى فتحتها واحرقتها واستولت على مدينة الجزائر Icosium ونادت باسم فيرموس ملكاً على البلاد ؛ وكانت قبل ذلك وقائع وثورات بنوميدية وموريطانية الشرقية دامت نحو عشر سنوات (٢٥٣ – ٢٦٢ م) منها ما وقع من اهالي قبائل « البابار » القاطنة بمرتفعات (بابور) بين سكيكدة وقسنطينة الثائرين تحت قيادة اربعة زعماء نوميديين اتحدوا في كفاحهم مع قبائل الحلف الخامي : وهي خمس قبائل متحالفة تقيم بين بجاية شرقاً ومدينة دلس غرباً وجبال جرجرة جنوباً والبحر الابيض المتوسط شمالاً ، وانضم اليهم القائد (فاراكس) مع جنوده الابطال القادمين من مرتفعات ناحية (بلعباس) وزحف هؤلاء المتحالفون بكليتهم على نوميدية وغزو أراضيها وأخذوا معهم عدداً كبيراً من الاسرى ، حتى ان القديس (سيبريانوس) كان مضطراً الى جمع مبلغ كبير من المال لافتداء النصارى وعلى الاخص العذارى اللائي كان يخاف عليهن من الاغتصاب .

واستمرت المعارك والثورات بنواحي سور الغزلان (٢٥٥) ميلادية

وناحية (لاموريسيلير) سنة ٢٥٧ م وفي حدود موريطانية الشرقية حيث قتل (فاراكس) سنة ٢٥٩ م ولم تخمد نار الفتنة الا في سنة ٢٦٢ م .

وفيا بين سنتي ٢٨٩ - ٢٩٨ م نشأت ثورات اخرى بالقبائل دامت هي بدورها ايضاً عشر سنوات وكانت الاضطرابات في هذه المرة اشد وأقوى من التي مرت قبلها . فلقد امتدت الحرب هذه المرة الى الجنوب وشملت جبال الحضنة وهدم الثوار صور « جواب » وكادوا يحتلون مدينة بجاية (صلدوي) . ولما عجز الامبراطور (ديوكليسيانوس) عن اخماد هذه الفتن استعان بالقيصر (ماكسيميانوس) الملقب بهرقل ، فقدم هذا الى افريقية ليقود حملة اضطهادية قبل الحاف الحامي[1] . ويومئذ جاءت الحامية الرومانية بقيادة ثاودوسيوس الروماني فنزلت بمرسى جيجل - ٣٧٣ - فانضم اليها - طوعاً او كرهاً - جيلدون اخو فيرموس فكانت الدائرة على فيرموس بنواحي سطيف ، وقضى القوم على هذه النهضة التحريرية وانعقد الصلح بين الرومان وفيرموس على هذه الشروط :

أ - تنازل فيرموس عن ملكه .

ب - منح مدينة الجزائر القائد الروماني ثاودوسيوس .

ج - اداء اموال طائلة لهذا القائد ايضاً .

د - وضع رجال من الوطنيين رهناً تحت رقابة الرومان .

وحينئذ أضاف الرومان امارة افريقية بمقاربها الثلاث الى جيلدون مكافأة له على انتصاره لرومة وخيانته لاخيه ! ... وصاهره الامبراطور ايضاً في بنته ، وفي هذه الآونة اختفى فيرموس بنواحي الشرق الجزائري ريثما سنحت له فرصة النهوض الى المقاومة مرة اخرى ففعل فأخفق ؛ ولكنه لم ييأس فأعاد الكرة على العدو للمرة الثالثة وجاء يومئذ بعدد اوفر من الجند قضى بهم على قوة ثاودوسيوس الرومانية ، فانهزم القائد

---

(١) راجع احمد صفر : مدينة المغرب العربي في التاريخ ص ٣٧٣ ط تونس ١٩٥٩ م .

الروماني هذا الى ناحية عيون بسام وسعى هنالك في ارتشاء ملك قليسة – ايفهاسن – للقبض على فيرموس ، ولما شعر فيرموس بضعفه امام جميع هذه القوات المحيطة به وادرك انه يروم امراً معضلاً لا تصل اليه مقدرته انتحر خنقاً سنة ٣٧٥ م ، ولم يظفر ايفهاسن إلا بجثته فوجهها على بعير الى قائد القوات الرومانية .

وفي سنة ٣٩٥ م ثارت في نفس جيلدون عوامل الغيرة الوطنية وعصفت في رأسه حفيظة الانتقام لاخيه فيرموس المنتحر من اجل الرومان ، فنهض مطالباً باستقلال ارض الجزائر عن الرومان ، فرماه هؤلاء بأخيه مسيزل الذي كان ملتجئاً عندهم في رومة منذ انتحار اخيه فيرموس ، وجاء مسيزل لمقاتلة اخيه جيلدون . وكانت المعارك بينهم بين مدينة اميدرة – حيدرة وتيفيست – تبسة – فانهزم جيلدون وفر هارباً نحو البحر فركب متوجهاً الى القسطنطينية ، وكان البحر يومئذ مضطرباً فرمى بمركبه على شاطىء طبرقة فحطمه ووقع جيلدون في قبضة والي المدينة فسجنه وهنالك انتحر جيلدون سنة ٣٩٨ م بعد ما ملك ١٢ عاماً وكانت عاقبته مثل عاقبة اخيه فيرموس . واخيراً كان جزاء اخيه مسيزل جزاء سنمار فألقاه الرومان انفسهم في لجة نهر مخافة تأسيه واقتدائه بأخويه : فيرموس وجيلدون في بث روح الثورة الوطنية في البلاد ، وهكذا شأن الاستعمار في سياسته مع المستعمرين : مغالطات وتخدير وتغرير ثم الإجهاز ! ...

المجتمع الجزائري

لقد ذهب المؤرخون في تقرير عدد سكان شمـــال افريقية على عهد الرومان الى نحو سبعة ملايين ، واذا نظرنا الى عدد الرومان بالنسبة الى هذا القدر وجدنا ما يقرب من نحو الثلث منه طاليان وهم بالجزائر والمغرب الاقصى اقل منهم في تونس وطرابلس ؛ وان اغلب الرومان الذين وجدوا بالجزائر كان مجيئهم على عهد الاباطرة : نربا ٩٦ – ٩٨ ق م . اسبسيان ٦٩ – ٧٩ م . وقلوديوس ٤١ – ٥٤ م . واوكتافيوس اغسطس

٢٧ ق م - ١٤ م . وكانت المدن التي نزلتها هذه الامة من الجزائر : قرطنة : تنس - واجلجي : جيجل - وصلداي : بجاية - وروسقونيا : مطيفو - وزكبار : مليانة - وتيوسكوت : تكلات - ثم توالت الجاليات والافواج بعد ذلك ، فمنهم من نزل في ايدوم نفوم : وادي الدفلة - ومنهم بداوروش ، وسيطيفس : سطيف - الخ ... وان اغلب من وجد بأرض الجزائر من هؤلاء الرومان انما هم من ابناء الجند .

ولقد كان الباعث الاول لمجيء هذه الجاليات الى هذا الوطن هو كثرة العاطلين يومئذ بروما واشتداد الازمة عليهم هنالك بداعي الفاقة والحاجة ؛ ولقد ارتفع عنهم كل ذلك بما وجدوه امامهم في هذا القطر من خصب التربة وما انفتح امامهم من الاعمال التجارية وغيرها .

وكان الناس في المعاملة امام القانون ثلاث طبقات : فالطبقة الاولى هي طبقة رجال الحكم وولاة الادارة الرومانية ، ثم تليهم طبقة بقية الامة اللاتينية جمعاء ، ثم تأتي بعدهم طبقة الشعب من جميع الاهالي الوطنيين ، وهم يعبرون عنهم بالاجانب Pérégrims ! ? ... وليس لهذه الطبقة الثالثة ادنى اعتبار ، ولقد عم هذا التقسيم البلاد نفسها فقسمتها السلطة الى مدن رومانية ، لاهلها التمتع بجميع حقوق الرومان ، فهي معفوة تماماً من جميع الضرائب ومن الانتخابات العامة ؛ ومدن بربرية ليس لها من الامتيازات الرومانية شيء ، واهلها خاضعون لسلطة رئيس بربري تحت اشراف ومراقبة رومـــة ؛ وذلك شأن الاستعمار في كل زمان ومكان .

فهو دائماً يعمل على اذلال المستعمر واهانته واحتقاره ، والا فما معنى هذه الضجة العالمية - قديماً وحديثاً - ضد الاستعمار ? ...

ورغم ما شهره التاريخ من نشر الرومان السلام مدة قرنين كاملين في جميع انحاء الامبراطورية فقد ظلت الثورات الوطنية التحريرية متوالية بهذه البلاد ؛ وأياً ما كان فان سير الحياة الاجتماعية العامة كان منحطاً عن مستواه الذي تركته عليه قرطاجنة الفينيقية .

الحيـــاة الاقتصادية

ان اقل نظرة يلقيها الانسان على سير الحياة الاقتصادية العامة بهذه البلاد يراها قائمة على كواهل ابناء الوطن بتسخير رومة لهم في اقامة جميع هذه المهارات الضخمة والمؤسسات الفخمة العظيمة ومشاركتهم الفعالة في تضخيم الخزينة ، بأداء المغـــارم الباهضة وتموين رومة بجميع الضروريات الاقتصادية من حبوب وفواكه وخضر وبقول وخمور وصوف واخشاب ورخام ومعادن وزيوت وحيوانات النقل وغيرها من المحصولات ، مع شدة العناية بجلب المياه حسبما تدل عليه آثارهم في عدة اماكن ، كل ذلك يجعلنا على ثقة من حسن حالة البلاد الاقتصادية ويسرها يومئذ ؛ ولقد عبر الرومان انفسهم على خصوبة البلاد هذه بذلك الرمز الذي رسموه على قطع النقود المضروبة بهذا الوطن ، فانها كلها كانت تحمل صورة امرأة حاملة سنبلة ، ويزيدنا تأكيداً لهذه الحقيقة التاريخية قولهم في وصف افريقية Romæ graniarum اي هي خزينة رومة ؛ وكانوا اذا ارادوا ان يصفوا شخصاً بسعة الثروة قالوا : في مخازنه قمح افريقية ؛ ويقدر العلماء مبلغ مـــا كانت تستورده رومة من افريقية من مختلف انواع صادراتها سنوياً بما يبلغ احياناً ٣٤٨٠٠٠٠ طن ؛ وقد كان لليد الاهلية العاملة في ذلك فضل عظيم ، ولا شك ان البربر قد استفادوا شيئاً ما من هذه الحركة الاقتصادية التي كانت تجري في بلادهم على مرأى ومسمع منهم مما جعل سير البلاد الاقتصادي مطرداً في سبيل الرفاهية ورخاء العيش ولكنه الفائدة الغير .

ولا ينبغي ان ننسى ازدهار التجارة على عهد تراجان وهادريان واسرة انطونينوس (٩٨ – ١٩٢ م) حيث ظل الازدهار رائد التجارة بين دنيا البحر المتوسط والبلاد المطلة على المحيط الهندي . فقد اصلح تراجان المواصلات بين البحرين الاحمر والمتوسط على عهد الامبراطورية الرومانية فصارت التجارة حرة عبر مياهه ، ولو لم يرد الفرس سريعاً على اعقابهم بعد اقتحامهم الحدود

في القرن السابع القضوا على هذه الوحدة ، ولكن انهاها العرب وتحطمت وحدة البحر المتوسط[1] .

الثقافة والحضارة والعمرات

ان من يتتبع سير الاستعمار الروماني بهذا الوطن يراه قد استعمل جميع وسائله ومجهوداته لبسط نفوذه على العنصر الاهلي مادياً وادبياً ، فقد كان التعليم اجبارياً بلغته ، ورغم ذلك فان الاهلي لم ينس لغة بلاده فلقد برع فيهما معاً ؛ قال المؤرخ م تيري : لقد كانت العلوم تدرس بمدينة مادور ؛ وحدرموت : سوسة — ولبتيس ؛ وسيرتا : قسنطينة — وحتى في داخل نوميديا ، وكانت الدراسة فيها باللاتينية انما هي لاتينية مركبة على البونيقية التي مكثت حية الى هذه الآونة ، ومن هذه المدارس التي كانت تعلم اليونانية واللاتينية والبونيقية تألف ذوق جديد مركب من كل ذلك ؛ وانما كانت تغلب عليه الصبغة البونيقية . وكانت هنالك مدارس اخرى بشرشال ومدوروش الخ ... وكلها استعملها الرومان في نشر لغتهم كما فعلوا كذلك بالمحاكم والمسارح والمنتديات الخاصة والعامة ؛ وبذلك تيسر لابناء البلاد اتقان لغة الدولة الحاكمة مع المحافظة التامة على لغتهم .

فلا جرم حينئذ اذا شاهدنا في طبقة الشعب من بلغ ارقى درجات الخطابة والكتابة وبرز في علوم الحكمة والفلسفة ؛ فهذا يوبا الثاني ملك القيصرية : شرشال — وقد دام في الحكم نحو خمسين سنة ؛ كان شغوفاً بالعلم لا يفتر عن الكتابة ، فله مؤلفات نفيسة في التاريخ والجغرافية والفلسفة والتمثيل والموسيقى وهو مشهور بتوقد الذهن والذكاء المفرط وله ولوع خاص بدرس الهندسة ووضع التصميات العمرانية وقد جلب الى عاصمته من مصر واليونان طائفة من الفنانين والكتاب والشعراء والفلاسفة ؛ وأشاد بها القصور الجميلة والهياكل الفخمة ، كما اشتهر يومئذ العالم الكبير (ابوليوس) مؤلف كتاب الحمار الذهبي وغيره .

---

(١) جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة ص ٨٦ و١٧٢ ط القاهرة ١٩٥٨ م

وانتشرت يومئذ بين الاهالي صناعة الاقمشة الغليظة واواني الطين على اختلافها ، وكانت صناعة المصابيح الزيتية بشرشال متشهرة وتجارها رائجة ، والفنون الجميلة يومئذ مزدهرة كما يشهد بذلك ما تركه الرومان بعدهم من مظاهر العظمة الماثلة المزينة بالفسيفساء وصنع التماثيل الفخمة ونقوش المرمر والرخام وزخرفة الهياكل واقامة الحنايا لجلب المياه من بعيد وحفر الآبار والسدود والصهاريج المديدة ؛ وكان منها بالجزائر سدود الحضنة وهي سدود ثلاثة بوادٍ واحد ، الكبير منها يحمل نحو ١٢٠٠٠٠٠ ليتراً ، واعظم قناة اثرية بالجزائر هي حنايا مدينة شرشال – يول القيصرية – يبلغ طولها ٢٨ كيلومتراً بواسطة جسر كبير يبلغ ارتفاعه على منفرج الوادي ٣٥ متراً ويتألف من ١٧ حنية ذات ثلاث طبقات .

وكانت مدينة قرطة : قسنطينة – تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي أوسع نطاقاً من الاولى ومساحتها تمتد غرباً الى جنان الزيتون ومقبرة السلام وبالجنوب الغربي الى قشلة باردو ، وشمالاً الى ضفة وادي الرمل الشمالية قال بارس : وذكر ابطات قديس ميلة : انه كان ملاصقاً لقرطة حارة عظيمه تدعى « موغاي » والظاهر انه المكان المعروف اليوم بسيدي مبروك . وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة ؛ الى ان قال : وبضواحيها نزلات منقطعة وقد عثر على آثار ذات بال بعضها بناحية الحامة .

وسعى القوم يومئذ في توسيع عمارة مدينة ميلة وسكيكدة والقل وجيجلة فأصبحت هذه كلها عواصم جميلة فسيحة بعدما كانت قرى صغيرة ومثلها في ذلك باغاية ؛ ومسكولة : خنشلة – ولمبيس وتيمقادي ؛ وبادي – بادس – ولقد بلغت هذه المنشآت الرومانية بافريقية الى نحو الستين مستعمرة ما بين مدن وقرى وحصون ؛ وكانت كلها على غاية الرقي في الحضارة والعمران ؛ وكان يبلغ عدد سكان البلدة الواحدة منها ما بين العشرة آلاف نفس الى نيف وثلاثين الفاً ويبلغ عدد سكان مدينة (تيفيستا) – تبسة – الى مائة الف نسمة ، وبحسب ذلك كانت تعتبر هذه المدينة

من اعظم بلاد افريقية الرومانية ازدحاماً بالسكان بعد قرطاجنة . وكان لكل بلدة منها ساحة عمومية كبرى لعقد الاجتماعات واقامة الحفلات فيها تدعى « فوروم » منها الساحة العمومية بمدينة بونة – عنابة – ويبلغ طولها ٧٦ متراً وعرضها ٣٤ متراً وهي من أروع الساحات الرومانية جمالاً . وكانوا يعتنون على الاخص بإنشاء المسارح والملاعب مثل مسرح « تيبازا » وملعب شرشال ومسرح تيمقاد وقالمة وسكيكدة بالجزائر . وهياكل العبادة والحمامات مثل حمامات لمبيز وتيمقاد وجميلة الخ ... ولا يزال البحث عليها مستمراً بين اكوام الرمال والحجارة وفي غضون التراب الى اليوم ، وان ما ظهر من ذلك حتى الآن لهو أعظم دليل على نشاط الحركة الفكرية ومظهر جلي من مظاهر الثقافة العامة التي كان عليها الرومان يومئذ بهذه البلاد .

كما عبدت الطرق الواسعة بين العواصم والبلاد الشهيرة كالتي بين قرطاجنة وتبسة ؛ وبين شرشال وقرطاجنة ؛ والتي بين بونة وطرابلس والطريق الذاهبة من تبسة الى تمقاد وطريق سطيف الى سور الغزلان التي بين ميلة وخنشلة الخ ... واقامة الجسور مثل الجسر القائم الى الآن في الطريق ما بين مدينتي القنطرة وبسكرة فهو ذو حنية طول انفراجها ١٠ امتار وعرضها ٥ امتار وبه عقود وخيوط ثلاثة ناتئة مستديرة ورسوم في شكل الورود ورأس فرس منقوش بواسطة العقد . ويكفينا شاهداً على تقدم هذا العصر ونبوغ امثال ابوليوس : اصله من مداوروش – الذي يقول فيه بيروني : هو من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره . واحسن وصف له واصدقه هو ان نقول فيه : رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة ، ومثله الفنان المهندس القسنطيني فرنطوس استاذ الامبراطور مرقس أوراليوس ٣٦٠ م ، هذا واننا اذا نظرنا جيداً في حقيقة هذه الحضارة والثقافة الرومانية وجدناها مقتبسة عن عن الاغريق والفنيقيين ؛ فهي عن تقليد محض ، ومع تقليد رومة لغيرها في المدنية فانها رفعت لواء الجندية فاحتلت به مركز قيادة العالم يومئذ واحكمت النظم السياسية والقضائية كذلك ، فهي لا تزال مجنداً للامم الراقية الى اليوم .

ويقول بعض المؤرخين ان حضارة الرومان بالجزائر كانت شبيهة بحضارة رومة ؛ وهم يستدلون على ذلك بأنه كان في زمن الامبراطور طريانس ٩٨ ق . م — ١٧ م كل من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من الحلول بافريقية وذلك لما بين المواطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية والاعتبار .

وان الذي يؤسف له هو عدم انتفاع الاهلي واستثاره كما يجب لكامل هذه الحضارة الرومانية الجبارة ! ... بل كثيراً ما رأيناه يسعى في اتلافها عن جهل ! ... وهذه خسارة كبرى خسرها الجيل البربري كما خسرها الفن المعماري التاريخي بالجزائر . وما ذاك فيما ارى إلا لاقصاء الرومان له واحتقارهم لشأنه وترفعهم عنه مثل ما هو مشاهد عند امم الاستعمار الى اليوم .

انهيار الجزائر الرومانية

كان لتلك النظم الادارية القاهرة التي فرضها الرومان على ابناء البلاد القاضية بسلب جميع حقوق الوطني الاهلي واهانته ، وتسخير مواهبه في منفعة غيره واحتقاره وفرض المغارم الباهظة عليه ، كل ذلك كان له اثره السيء في نفوس المحكومين ، فكانوا لذلك دائماً وابداً يتوقون الى الثورة ضد هذه السلطة الخانقة ، وفعلاً لقد نهض اباة الضيم من ابطال هذا الشعب الجريء واعلنوها حرباً عواناً في وجه هؤلاء الطغاة المتسلطين ، ونادوا باستقلال بلادهم عن الرومان ... فتعددت الثورات وكثرت الاضطرابات الداخلية مما دعا عتاة الرومان الى المبالغة في الاستبداد والاستعباد وظهرت الانانية والتنافس بين الحكام وتدهورت اخلاق الولاة فبطروا منهمكين في ملذاتهم ، واخلد الرؤساء الى الراحة والتنعم مقبلين على الملاعب والمسارح مدبرين عما يتطلبه الموقف من الحزم والعدل وشدة الشكيمة . فتفكك نظام المجتمع وعدم انسجامه بين طبقات الشعب وفقد تماسكه فتدخل يومئذ الجند واغلبه اجنبي مستأجر فاستحوذ على تسيير دفة المملكة الافريقية فعمل فيها برأيه ! ...

واشتد يومئذ النزاع المذهبي الديني الذي شرحنا أسبابه ونتائجه فيما سبق ، فزاد بذلك اختلال نظام المجتمع الروماني بافريقية وبغيرها أيضاً ، وأخذت الدسائس السياسية تلعب دورها بين رومة وقرطاجنة فساءت العلائق بين القائد الروماني (الكونت بونيفاس) وبين حكومته فسعى به اعداؤه لدى الامبراطورة (بلاسيدية) فعزلته سنة ٤٢٧ م . ولكن القائد لم يبال بأمر الملكة واستمر في مكانه الى ان هاجمته رومة زاحفة على هذه المملكة سنة ٤٢٩ م . فصد الكونت لرد حملات رومة عن هذا الوطن وانتصر عليها في ثلاث دفعات ؛ ولما شعر بضعفه امام الزحف الروماني استجاش بأصهاره الفاندال على ان يقاسمهم ملك هذا الوطن ويتنازل لهم تماماً عن جميع غرب المملكة الرومانية بهذه الديار ، فاجتاز حينئذ الفاندال بوغاز جبل طارق يقودهم رئيسهم (جنسريق)[1] وهم في نحو ٨٠٠٠٠ نفس فنزلوا بموريطانيا في شهر ماي ٤٢٩ م . واكتسحوها الى الساحل الجزائري فاحتلوا منه مدينة الغزوات Ad Fratres ، ويومئذ انقسم جند الاحتلال الى فئتين فئة منه اختصت بادارة الشؤون الحربية وهي خمسون الفاً ، واشتغل الباقي بالشؤون المدنية ؛ واذا ذكرنا المدنية هنا فانما هي مدنية فاندالية ! ...

ولما رأى الكونت بونيفاس سوء سلوكهم المتوحش ندم على ما صدر منه من الغدر بحكومته في سبيل اشباع نهمته وتنجيز غرضه الشخصي فسعى بكل جهوده في طلب العفو من الامبراطورة بواسطة القديس اوغسطين ، فعفت عنه وانقلب هو يومئذ على الفندال وحاربهم في نواحي قالمة من الوطن الجزائري فانهزم واندحر امام قوات الفاندال التي وجد فيها البربر منيتهم المنشودة في القضاء على الاستعمار الروماني والتشفي منه . ففر بونيفاس منهزماً الى هيبونة - عنابة - حيث يقيم هنالك الوطني الحر والفيلسوف العالم القديس اوغسطين فانضم اليه الكونت مدافعاً عن الوطن .

ويومئذ رأى امبراطور بزنطة شبح الخطر يتهدد الامبراطورية الرومانية

(١) ينطق به الجرمان هكذا : جوزريش ، ومعناه امير الروح .

في الشرق وفي الغرب فبعث مـــن حينه بالحامية لانقاذ موقف رومة الحرج امام حملة الفاندال ، فنشبت الحرب من جديد وانهزم فيها الروم البيزنطيون ايضاً ، واحتل الفاندال مدينة بونة آخر معقل للرومان بالجزائر (ديسمبر ٤٣١ م) وعاث الفاندال في هذه البلدة المنكوبة بما شاؤوا من انواع الهدم والنهب والتخريب ولم يبقَ فيها شيء إلا انوا عليه سوى دار القديس ومكتبته !... وسقطت الجزائر يومئذ بيد الفاندال وتم استيلاؤهم على القطر الجزائري بقسميه : نوميديا وموريطانيا ، وذلك على عهد الامبراطور « ولنتينيانس الثالث » وبذلك ارتفع نير الاستعمار الروماني عن الجزائر بعدما اناخ بكلكله واثقاله عليها مدة ٣٨٠ سنة . وهكذا الدنيا دواليك ، ولكل بداية نهاية .

ولما تحقق الرومان خطورة موقف منطقة افريكا – المملكة التونسية – امام احتلال الفاندال بادروا بعقد معاهدة مع هؤلاء مدة ثلاثين سنة اعترف لهم الرومان فيها بالاستيلاء على القطر الجزائري والمغرب ما عدا ولاية تونس ؛ وان لا يعتدي على حدود هذه الولاية ، وأمضى جنسريق هذه المعاهدة ، وقدّم ولده هنريق رهناً للرومان وتحمل مع ذلك ضريبة سنوية يؤديها لرومة ، وتم عقد الصلح بينهم على ذلك سنة ٤٣٥ م . وجلس جنسريق على ولاية المغربين الاوسط والاقصى متخذاً لكرسيه مدينة هبونة : عنابة ثم انتقل منها بعد ذلك الى مدينة صلداي : بجاية – واستمر في خطته السياسية على وفق ما قررته بنود المعاهدة الى ان اطمأن له الامبراطور واذن لهنريق بالعودة الى والده ...

وبعدها بقليل طمح الفاندال الى ضم بقية مملكة افريقية لسلطانهم فانقضوا على عاصمة قرطاجنة فهدموا اسوارها وكسروا حصونها وفتحوها عنوة يوم ١٩ اكتوبر ٤٣٩ م وطردوا منها الرومان فكان ذلك آخر عهدهم بافريقية بعدما استعمروها مدة ٥٧٦ سنة ؛ غير ان الجشع الفاندالي والجنون الاستعماري لم يكن ليعرف في تاريخه حداً ولا نهاية !... فانهم بعدما قضوا على مملكة الرومان بافريقية توجهوا تواً الى رومة نفسها

فأحاطوا بها وفتحوها عنوة ايضاً سنة ٤٥٥ م وانزلوها عن حصانتها ومناعتها منذ ١٢٢٩ سنة ثم عادوا بعد ذلك الى المغرب يجرون وراءهم ذخائر رومة ونفائس مقتنياتها الثمينة فملأوا بها خزائنهم بافريقية ، ويومئذ انقطعت آمال الرومان ومطامعهم تجاه هذا الوطن ، ولم تتمكن لهم العودة اليه بعد ذلك إلا في القرن العشرين م. حيث استولى أحفادهم الطليان على جزء منه : طرابلس ، وذلك ما ينيف على ثلاثين سنة ، فدحره الحلفاء ...

واستقر الفاندال بافريقية متخذين قرطاجنة عاصمة لهم ؛ ومحوا كل اثر كان للرومان بها غير اطلال دوارس بقيت هنا وهناك متفرقة في انحاء هذا الشمال .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشتهر من ولاة الجزائر في هذا العصر الرئيس « كوموديوس » زعيم اتحـــاد المدن الثلاث : ميلوم : ميلة – وروسقاد : سكيكدة – وشولو : القل – وهو آخر من تولى رئاسة هذه الجمهورية الصغيرة وكان مقره بلده ميلة ؛ والرئيس الروماني « ستيوس » كان على هذه الولاية قبل انفصال المدن الثلاث عن قرطة : قسنطينة – وكويكلوم : جميلة – اي حينما كانت جمهورية هذه المدن الخمس في اوجها . وقد كانت ولاية ستيوس هذا سنة ٤٦ ق م واطلق الرومان على هذه الولاية اسم « مستعمرة ستيوس » ، ومات هذا القائد الروماني قتيلاً على يد البطل الجزائري « عرابيون » وقد كان جانب من نوميديا تحت ولاية « سالوست » ، كما تولاها ايضاً « سكستوس » نائب اكتافيوس ، ثم عزل نفسه وجعل مكانه « فانغو » وتولى هو على البروقنصلية ، وكما اشتهر ايام الرومان بالجزائر الزعيم « اغماسن » رئيس قبيلة جزائرية كانت تسكن بجنوب جرجرة ، ولهذا الرئيس الجزائري مواقف شريفة سلكها مع البطل فيرموس في ثورته على الرومان بجبال جرجرة سنة ٣٧٢ م حسبما مرت الاشارة اليه ،

وكان من الزعماء ايضاً « طاكفريناس » الذي اعلن الثورة على الرومان سنة ١٧ م . وقد انضم اليه يومئذ بربر جبال اوراس وأمده زعماء الصحراء بالفرسان ... ومن ولاة نوميديا الرومانيين : القنصل « كلبرنيوس باسطيـــا » سنة ١١٠ ق م و « سثيميوس البينيوس » سنة ١١٠ ق م و « كبسيليوس ميتيليوس » سنة ١٠٩ ق م و « كايوس ماريوس » سنة ١٠٧ ق م والكل يعرف بلقب « الآغا » (Legatus — Legat) ومحل اقامتهم كانت تارة بتبسة ولمباز من المدن الجزائرية ، او بمدينة حيدرة (Ammædara) من المدن التونسية .

وكان ممن اشتهر في ميدان العلم والعرفان يومئذ القديس الفيلسوف « اوغسطين » زعيم النهضة الدينية والسياسية ايضاً ببونة ، ومثله « دونتوس » اسقف مدينة باغاية وهو مؤسس مذهب الدوناتيست ، والعلامة المتفنن الذائع الصيت « فرنطوس » القسنطيني الاصل واستاذ الامبراطور مرقس اوراليوس — ٢٦٠ م — وكان مبرزاً في الفنون الهندسية ، وكذلك العالم « ابوليوس » من اهل مدينة مداووروش ، قال عنه بيروني : انه من اكمل الرجال واعظمهم فائدة في عصره ، واحسن ما يطلق عليه من الاوصاف ان يقال فيه انه رجل مبتكر مؤسس لمبادىء كثيرة . وكذلك الاسقف المصلح « ابطات » راهب مدينة ميلة فان له من التآليف الهامة كثير ، ومن اهمها تاريخ مذهب « دنتوس » . واسقف قالمة القس « بوسديوس » مؤرخ حياة اوغسطين الخ ...

ولا ينبغي ان ننسى او نغفل التنويه بتلك العلماء او عالم الملوك « يوبا الثاني » وقد تقدمت الاشارة اليه من قبل فانه كان ملكاً جليل القدر عظيماً ، ولد سنة ٥٠ ق م وتوفي سنة ٣٣ م وهو صاحب الهيكل العظيم والضريح المشهور شرقي مدينة شرشال المعروف اليوم بقبر الرومية وهي زوجته « كليوباطرة سيليني » ابنة كليوباطرة ملكة مصر المشهورة ، توفيت قبل زوجها يوبا المذكور بثمانية عشر سنة ، ويقال انه دفن الى جانبها هنالك . واشتهر يوبا بالعلم والادب والفن ، وذكره قدماء المؤرخين فقالوا

انه كان مشهوراً بتآليفه وتصانيفه وأعماله الفكرية المفيدة اكثر من اشتهاره بالملك ، ومن تآليفه كتابه في الليبقيات (Les libyca) اخرجه في ثلاثة اجزاء وهو يشتمل على مواد كثيرة وعلوم شتى تتعلق بافريقية من جغرافيا وتاريخ وأساطير ميثولوجية وطبيعيات الخ ... وكتاب حول جزيرة العرب وآخر في تاريخ الرومان ، وله كتب كثيرة في فنون الرسم والتشخيص والموسيقى واللغات واللهجات ، وكانت له مكتبة ضخمة حوت كثيراً من نفائس الكتب ، وقد جمع حوله نخبة من المؤلفين والنساخ يؤلفون وينسخون له الكتب ، كما انه عني كثيراً بتنظيم البعثات العلمية فبعث بطائفة منها الى البحث والتعرف الى اهل منبع النيل ، ومنها من توجهت الى البحث عن الجزائر الخالدات ، ومن المؤسف والمؤلم ايضاً انه لم يبلغنا من الآثار العلمية التي لهذا الملك الجزائري العالم شيء سوى ما حدثنا عنه المؤرخون او حكوه عنه . وقد كان للجزائر مثل هؤلاء ممن ذكرنا كثير فحق لها ان تفتخر بهم في جميع اطوار تاريخها وحياتها العامة .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

	المملكة	تاريخ الولاية من — الى
يوغورطة	نوميديا الشرقية	١١٨ — ١٠٤ ق . م
آذربعل	نوميديا الغربية	١١٨ — ١١٣ ق . م
بوكوس الاول	نوميديا الغربية	١٠٤ — ٨٠ ق . م
حصال الثاني	نوميديا الغربية	١٠٢ — ٥٠ ق . م
بارباس	نوميديا الوسطى والشرقية	١٠٢ — ٨١ ق . م
ماصيلطا	نوميديا الغربية	٨٨ — ٨١ ق . م
حيرباص	كامل نوميديا	٨١ — ٥٠ ق . م
يوبا الاول	نوميديا الشرقية والوسطى	٥٠ — ٤٦ ق . م
مازاناسيس	نوميديا الغربية	٥٠ — ٤٦ ق . م
بوكوس الثاني	موريطانيا الشرقية	٨٠ — ٤٠ ق . م
عرابيون	نوميديا الغربية	٤٤ — ؟ ... ق . م
بوكوس الثالث [1]	جميع موريطانيا	٤٤ — ٣٣ ق . م
يوبا الثاني	موريطانيا الشرقية	٢٥ ق . م — ٢٣ م
بطليموس	موريطانيا الشرقية	٢٣ — ٤٠ م
فيرموس	موريطانيا القيصرية	٣٧١ — ؟ ... م
نوبال	القبائل الخمس [2]	؟ ... — ٣٧٠ م

(١) هو آخر من تملك من الجزائريين على موريطانيا الشرقية ، وبعد وفاته الحقها الرومان بمستعمراتهم .

(٢) هي ميلوم : ميله — وروسقاد : سكيكدة — وشولو : القل وكويكلوم : جميلة — وقرطة — قسنطينة .

أباطرة الدولة الرومانية

دور الامبراطورية الاعلى

		تاريخ الولاية من — الى
أولاً — العائلة اليوليوسية :	اكتافيوس	٢٧ ق ٠ م — ١٤ م
	طيبريوس	١٤ — ٣٧ م
	غانيس	٣٧ — ٤١ م
	قلوديس	٤١ — ٥٤ م
	نيرون	٥٤ — ٦٨ م
	غلبان	٦٨ — ٦٩ م
	اتون	٦٩ — ٦٩ م
	ويتليوس	٦٩ — ٦٩ م
ثانياً — العائلة الفلافية :	وسبسيان	٦٩ — ٧٩ م
	طيطش	٧٩ — ٨١ م
	دومتيان	٨١ — ٩٦ م
	نربا	٩٦ — ٩٨ م
ثالثاً — العائلة الانطونية :	طريانس	٩٨ — ١١٧ م
	اندريانوس	١١٧ — ١٣٨ م
	انطونيوس	١٣٨ — ١٦١ م
	اورالیانس	١٦١ — ١٧٨ م

	تاريخ الولاية من – الى	
كمودة	١٧٨ — ١٩٢	م
برطانوس	١٩٢ — ؟ ...	م
بوليانوس	... ؟ — ١٩٣	م

أباطرة القرن الثالث

سبتيم سيفير	١٩٣ — ٢١١	م
اقطونيس	٢١١ — ٢١٧	م
مقرين	٢١٧ — ٢١٨	م
انطونين	٢١٨ — ٢٢٢	م
اسكندروس	٢٢٢ — ٢٣٥	م

عصر الفوضى العسكرية

مكسمنس	٢٣٥ — ٢٣٨	م
عرديانوس	٢٣٨ — ٢٤٤	م
فليبس [١]	٢٤٤ — ٢٤٩	م
دقيانوس	٢٤٩ — ٢٥١	م
اورليوس	؟ ... — ٢٦٠	م
غلينوس	٢٦٠ — ٢٦٨	م

(١) لقد بلغ من نفوذ العرب وتأثيرهم العظيم في الحروب التي كانت قائمة بين الرومان والفرس ان تبوأ عرش رومة هذا الامبراطور « فيليبس » او « فيليبوس » وهو المسمى عند ابن خلدون باسم فلفش بن اورليان وهو من عرب غسان ، تولى الملك كقيصر على مملكة رومة خمس سنوات (٢٤٤ — ٢٤٩ م) وهو الذي اقام احتفال ذكرى مرور الف سنة على بناء مدينة رومة (النهج القديم ص ٥٢٤ ومعجم لاروس ص ١٦٠٦) .

	تاريخ الولاية	
	من — الى	
قلوديس الثاني	٢٦٨ — ٢٧٠	م
اورليانس	٢٧٠ — ٢٧٤	م
تاكيتس	٢٧٤ — ٢٧٦	م
بروبش	٢٧٦ — ٢٨٢	م

دور الامبراطورية الاسفل

ديوقلطيانوس	٢٨٤ — ٣٠٥	م
غلاريس	٣٠٥ — ٣١١	م
قسطنطين	٣١٢ — ٣٣٧	م
قسطوس	٣٣٧ — ٣٥٠	م
قسطنطيوس	٣٥٠ — ٣٦٠	م
بوليانوش	٣٦٠ — ٣٦٣	م
يوبنيانوس	٣٦٣ — ٣٦٤	م
واليطينوس	٣٦٤ — ٣٧٥	م
واليس	٣٧٥ — ٣٧٨	م
غراطيانس	٣٧٨ — ٣٨٣	م
تاداسيوس	٣٩٢ — ٣٩٥	م
هنوريوس	٣٩٥ — ٤٢٣	م
ولنتيانس الثالث [١]	٤٢٤ — ٤٥٤	م

(١) انتصب تحت كفالة والدته الامبراطورة « بلاسيدية » اخت هنوريوس السابق المتوفاة سنة ٤٥٠ م .

من مشاهير الجزائر

ابوليوس الماضوري
القرن الثاني للميلاد

هو كاتب افريقي نوميدي عاش في القرن الثاني للميلاد . ولد بمدينة ماضور المعروفة اليوم باسم « مداوورش » بشرق عمالة قسنطينة – جنوبي سوق اهراس – سنة ١٢٥ م ، وقد كانت ماضور هذه في ذلك العهد الروماني مركزاً بلدياً به مدارس لنشر التعليم والثقافة الاولية ، ولم يكد يبلغ آبولي (Apulée) او ابوليوس الثلاثين من عمره حتى ذاع صيته . وقد رحل الى قرطاجنة التي كانت عاصمة العلم في افريقية ، ثم الى آثينا ، فروما وعاد الى ماضور برتبة محام ، وتولى مع والده بعض المسؤوليات البلدية . لكن جو القرية كان يخنقه ، فشد عصا الترحال من جديد وسافر الى الاسكندرية ماراً بقرطاجنة وطرابلس ، ولم يعد من هذه الرحلة الا بعد سنتين ، وبعد مغامرات زادت في اتساع علمه وعبقرية فكره .

وكان على الرغم من اقبـــاله على متع الحياة يجد الوقت للكتابة والتأليف ، ومن كتبه المعروفة والمقروءة حتى اليوم كتابه الشهير الحمار الذهبي (L'Ane d'or) او المسوخ (Les Métamorphoses) ويصح ان نقول فيه التطورات ، وهو من اعجب الكتب في الادب اللاتيني اخرجه مؤلفه في احد عشر جزءاً صور فيه الحياة المغربية تصويراً دقيقاً كله الوان جذابة وحقائق لاذعة ، وكتاب (Les florides) وكتاب (L'Hermagoras)

و (L'Apologie) وله عدة رسائل في موضوعات شتى ، من فلسفة ، وتاريخ ، وشعر ، ونقد ، وحساب ، وطب ، ونجوم ، وما وراء الطبيعة ، وحتى السحر الذي اشتهر به . وقد شبهه بعض النقاد لسعة علمه بالكاتب الملك النوميدي (يوبا الثاني) . وقد درس كل علم وفن ولم تكن مادة ما فوق طاقة فكره . وقد كان هو يفخر بانه كرع من كل معين ، وكان لا يدين بدين ، بل كان كاهناً لكل دين . ولم تكن المسيحية في القرن الثاني قد انتشرت في افريقية حتى يعتنقها كما اعتنقها بعد ذلك غيره من الافريقيين ، رغم مزاحمة الملل والنحل الوثنية للعقيدة السماوية .

وقد بلغ آبولي اوج المجد فنصبت له التماثيل في قرطاجنة وطرابلس ومسقط رأسه ماضور « مداوروش » الا ان الخلود الحقيقي ناله بكتبه وما تركه من اثر عميق في ميدان الفكر والآداب ، وهو الكاتب الخطير الذي حاول جميـــع الكتاب الافارقة بعده ان يبلغوا درجته وشأوه ومنهم تورتوليان (Tertullien) والقديس اوغسطين الذي وجد فيه اول استاذ له ، الا ان القديس اعتنق المسيحية بعد حرب عنيفة بينه وبين نفسه ، وبعد ان محص جميع العقائد المعروفة في عهده ، وقد كتب القديس اوغسطين مائتين وثلاثين سنة بعد آبولي ، كان يملك نفوذاً غير طبيعي لاتساع معلوماته وكان الوثنيون يتخذونه نبياً [1] .

القديس اوغسطين

٣٥٤ ــ ٤٣٠ م

لقد ولد هذا القديس الجزائري العظيم يوم ١٣ نوفمبر سنة ٣٥٤ م ببلدة « تاجيستة » سوق هراس على نحو مائة كيلومتراً جنوب مدينة بونة ــ عنابة ــ من ام مسيحية وأب وثني لم يعتنق المسيحية الا في اواخر

(١) هنا الجزائر ٤٢ ــ ١٩٥٦ م .

عمره . نشأ « اوغسطين » وتعلم بمدينة مداوروش شرقي عمالة قسنطينة ، وقد شب غير متقيد بالدين ولا بقيود العفة واخذ يتنقل في البلاد فدخل قرطاجنة وجال في مدن ايطاليا وهنالك تعمق في الدرس فأحاطت به ظروف كان فيهـــا مانويا ينتقد العقائد ، ثم وقع تحت تأثير مذهب الشكاك ، وفي رومة تمكن من دراسة آراء شيشرون ، وتفهم المذهب الافلاطوني الجديد الذي قربه مراحل الى العقيدة المسيحية ولم يتأثر بها ، وتحول في مدينة ميلاي على كرمي تدريس البلاغة ، ثم انه كان يرى غيره يتأثر بالدين المسيحي فيخجل من نفسه لانه يتعلم ويدرس الفلسفة ويزعم انه يحتقر الماديات . وفي ذات يوم دعاه ضميره وناداه وجدانه الى الايمان والتدين الصحيح فعاد من ايطاليا الى الجزائر سنة ٣٨٨ م واتخذ بلده تاجيستة ديراً للتعبد والدرس ، ومنذ ذلك الحين مست السكينة قلب اوغسطين فانزوى بديره يدرس ويتعبد على مذهب الارثوذكس ـ السلفيين ـ وقد تخرج على يده عدد وافر من علماء اللاهوت واصبح ديره كعبة علم وفلسفة ودين ، واضحى القديس بتآليفه ودروسه وشهرته ومكانته من اعلام الفكر البشري ومن اكبر رجال الكنيسة . فعين على رأس اسقفية بونة سنة ٣٩١ م ويومئذ تصدى لقمع المخالفين والمناوئين لمذهبه الارثوذكسي فكتب عدة تآليف نفيسة تناهز المائتين مصنف كتبها كلها باللاتينية ، منها « اعترافاتي » (Mes confessions) حيث قص حياته بامانة ونزاهة فلم يخف حتى عيوبه وما وقع فيه من اخطاء الشباب ، وقد كتب هذا الاثر الثمين ما بين سنة ٣٩٧ و ٣٩٨ م بينما بدا كتابه الآخر « مدينة الاله » (La cité de Dieu) ذكر فيه مزية وفضل الحياة الاخرى عن الحياة الدنيا ، وضعه سنة ٤١٣ م وفرغ منه سنة ٤٢٦ م . وكان يعد في زمانه اخطب خطباء عصره واكثرهم تأثيراً في مستمعيه قوياً في الحجاج والجدل والمناظرة ، فحارب بكل ما اوتيه من قوة بقلمه ولسانه جميع المذاهب التي من شأنها ان تقف حجر عثرة في تقدم الديانة المسيحية ، فكان يمثل القمة التي انتهت اليها الحياة الفكرية في افريقية المسيحية في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس الميلادي ، وبلغ من تأثيره في الاوساط

العلمية ان نسمي العصر الذي كان يعيش فيه القديس بالعصر الاوغسطيني كما اشتهرت تعاليمه بالمدرسة الاوغسطينية ، وظلت آثاره الخالدة المرجع الوحيد للتدريس في جامعات القرون الوسطى الى ما بعد النهضة ، وما من رجل فكر الا وكرع من منهله الفياض واستمد من معينه الصافي .

وليس القديس اوغسطين هو العبقري الوحيد الذي عرفته الجزائر او بالاحرى افريقية المسيحية في التاريخ القديم . بل عرفت قبله مفكرين وكتاباً عديدين مسيحيين وغير مسيحيين مثل آبولي (Apulée) وافرنطون (Afranton) وترتوليان (Tertullien) وسبريان (Cyprien) ودونا (Donat) وغيرهم ، نعم وبفضله اصبحت مدينة بونة كعبة طلاب العلم اللاهوتي فكانت من اهم المراكز العلمية والدينية بالجزائر فالتفت اليها الانظار ، وفيها انعقدت مجامع المطارنة الشهيرة التي كانت سنة ٣٩٣ و٣٩٥ و٤٢٦ م .

ولاوغسطين هذا موقف سياسي شريف يدل على تضحيته ووفائه لقومه ووطنه ، تلك هي مواقفه الشهيرة تجاه المعتدين من الفاندال على الوطن الجزائري فانه بمجرد ما بلغه سعي اعداء القائد الروماني العام والكونت بونيفاس » به الى رومة سنة ٤٤٧ م وعزله من منصبه ، نهض القديس مدافعاً عنه امام الامبراطورة « بلاسيدية » وعمل جهده على تحسين العلائق بين الطرفين فتأثرت الامبراطورة لكلام القديس وعدلت عن رأيها في عزل الكونت . وكان اوغسطين ايام حوادث الهجوم الفاندالي على الوطن يقاوم ويحارب بنفسه ، فقد دافع الفاندال عن وطنه دفاع الابطال ، فانه لما انكسر الكونت بونيفاس منهزماً الى بونة نهض القديس بأعباء المقاومة والخلص في دفاعه حتى النهاية وقد امكنته الفرص مراراً من الفرار بنفسه امام همجية الفاندال الوحشية ولكنه ابى ... ووقف في صف المحاربين الاحرار مدة اربعة عشر شهراً صابراً لحوادث التدمير والتخريب الى ان ادركه حامه فمات مكافحاً شهيد الوطنية والعقيدة يوم ٢٩ اوط سنة ٤٣٠ م وبموته سقطت الجزائر بيد الفاندال ، فكان اوغسطين بحق احد زعماء الفكر بالجزائر ومن عباقرة الوطنيين الاحرار .

جـــدول تاريخي

١٤٦ ق.م ـ ٤٣١ م

تاريخ الحوادث	اهم الاحداث بالجزائر على عهد الرومان
١٤٦ ق.م	استيلاء الرومان على افريكا – ولاية تونس .
١١٠ «	ثورة الملك يوغورطة عدو الرومان اللدود ودفاع الاحرار الجزائريين تحت لوائه .
٤٦ «	استعمار ولاية نوميديا : عمالة قسنطينة .
٢٤٤ – ٢٧٠ م	ثورة الرئيس « ارادبون » بالساحل الجزائري .
٢٩٧ م	سقوط ناحية جرجرة بيد الرومان وتوزع السلطة بينهم .
٢٨٨ – ٢٩٧ م	اندفاع الثورات التحريرية في وجه الرومان .
٤٠٠ م	تأسيس مدينتي جميلة وتيمقادي على يد الجالية الرومانية وانتشار مذهب الدوناتيست بالجزائر .
٤٣١ م	انهيار الجزائر الرومانية على يد الفاندال .

الدولة الفاندالية

٤٣١ ـ ٥٣٤ م

اصل الفاندال

الفاندال شعب قديم من شعوب امة القوط الغربية التي سكنت شمال نهر الدانوب ، وموطنهم – في القرن الثالث قبل الميلاد – بشمال جيرمانيا ما بين وادي فيستول ونهر اوضير L'Oder et la Vistule على سواحل بحر البلطيق ؛ منحدرون من السلالة الصقلبية – السلافية – ولقد امتد هذا الشعب وانتشر في جنوب المانيا ، ومنها تدفق على العالم الغربي – في القرن الخامس والسادس الميلادي – فاستولى حينئذ على ارض الغول la Gaulle – فرنسا – واتصل بجبال الشنايا – البيرينات – pyrénnées ثم انحدر الى اسبانيا فاحتلها سنة ٤٠٩ م ونزل بجنوبها فسكن نواحي غرناطة وجيان وهنالك اشتهر اسمه بها ونسبت اليه فصارت تدعى تلك الناحية « فاندلوسيا » ومنها جاء اسم الاندلس بعد ذلك على عهد العرب الفاتحين .

ونظراً لخصوبة موقع بلاد الشمال الافريقي ويسر الحياة الاقتصادية به تسلط عليه هؤلاء الفاندال بمساعدة اهله فكانت تلك السرعة العجيبة منهم في الاستيلاء على هذا الوطن واسسوا به يومئذ دولتهم الملكية سنة ٤٣١ م ، ثم استولوا على البروقنصلية – ولاية تونس – واحتلوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م .

نظامها الحكومي

هذه اول دولة ملكية وراثية تأسست بأرض افريقية توارث عرشها ستة ملوك من آل « جنسريق »، وكانت اول عاصمة لهم بهذا الوطن مدينة بونة – عنابة – ٤٣١ م ثم انتقلوا الى مدينة صلداي – بجاية – الى ان فتحوا قرطاجنة سنة ٤٣٩ م فانتقلوا اليها سنة ٤٥٥ م .

ونظراً لما كان عليه الفاندال من البعد عن مسايرة المدنية والحضارة فانهم تركوا ما كان من النظم الادارية بهذه البلاد على حاله من قبل ولم يحدثوا فيها اي تغيير سوى فرض سلطانهم على الاهالي واستبدادهم في توزيع اراضي الوطن الخصبة على الخاصة من الاسرة المالكة وارباب الدولة ورؤسائها الممتازين . وما تركته الدولة يومئذ من التراب تحت تصرف اهله انما كان في مقابلة ضرائب واتاوات باهضة ! .. وكأن ما سنه المستعمرون بعد ذلك من قانون expropriation منتزع من هذا ؟ ! ... وذلك ما دعا الكثير من الرومان وحملهم على الهجرة الى بيزنطة .

نعم كان سعي الفاندال مع الاهالي اولا سعيا فيه نوع من اللين والسهولة فخفضوا لهم مبلغ الضرائب التي كانت عليهم ، ولكن ذلك فعلوه استمالة لقلوب القوم ليستعينوا بهم على اعدائهم الرومان ، وفعلاً نجحت سياستهم في ذلك وانقاد لهم رؤساء البربر ومدوا لهم يد المساعدة بقصد التشفي من اعدائهم الرومان الذين ارهقوهم مدة قرون ! ... وتطلعا منهم كذلك الى التحرر من نير الاستعمار ... فدخل الكثير منهم في نظام الجيش الفاندالي الذي كان يبلغ يومئذ نحو الثمانين فرقة بما فيها من جنود البحرية ، ولم يكن الجند الفاندالي ليحسن حرب المشاة والمقاتلة على الاقدام بل كان لا يرى في حروبه كلها الا فارساً مغواراً يحمل معه السيف والرمح وكان اغلب هذه الفرق موزعاً على حفظ الامن وحراسة البلاد . وقد عمل الفاندال على استمالة اليهود اليهم وتقريبهم منهم للاستعانة بهم في الاقتصاديات استدراراً لخيرات البلاد . وكان للاسطول الفاندالي السيادة على غربي حوض هذا البحر الابيض المتوسط . ولهذه الدولة نقود مسكوكة مضروبة باسمها .

حدود الجزائر الفاندالية

كان لمجرد استيلاء الفاندال على القطر الافريقي هذا ان شرعوا في تقسيمه الى ست مناطق مختلفة في الاعتبار والمساحة ؛ ثلاث منها هي بالمملكة التونسية اليوم ، والمقاطعة الرابعة هي عبارة عن منطقة نوميديا — عمالة قسنطينة — والخامسة عمل تبسة ، وهم بهاتين الولايتين اقلية بالنسبة الى المقاطعات الاربع الاخرى ؛ والسادسة هي عبارة عن ارض المغرب الاقصى .

معتقد الفاندال

كانت الامة الفاندالية وثنية تعبد « دونار » الرعد ، و « تيو » الحسام ، وتخضع للشمس والقمر وغيرهما من الاجرام العلوية ؛ وتضيف الى ذلك آلهة اخرى من معبودات الوثنية : ومنهم من تمسح على مذهب اريوس Arius الاسكندري وهو مذهب الحكومة ، ولم يلبث الفاندال ان اقبلوا فأنشؤوا يضطهدون الدوناتيين وغيرهم من اهل المذاهب المسيحية الاخرى ووافقهم على ذلك اليهود ايضاً . وذلك ما حمل رجال الكنيسة الارثوذكسية على التضرع الى امبراطور بيزنطة في انشاء حملة على افريقية . ولم يشمل اضطهادهم الديني هذا اهالي الجزائر لقلة من كان فيها على هذا المذهب ، والذي كان يجلس على كرسي اسقفية الجزائر القس فيكتور Victor الذي اشترك في مجمع قرطاجنة المنعقد بامر الملك هونريك Huneric الفاندالي سنة ٤٨٤ م .

البربر والفاندال

ان المتأمل جيداً في موقف البربر وحركاتهم تجاه الفاندال يجدهم غير خاضعين تمام الخضوع لهذه السلطة القاسية التي تسلطت على بلادهم ، بل استمروا متحصنين بمراكزهم الجبلية الشاهقة ، عاملين على استقلالهم وانتظامهم بها ، وقد استعادوا بفضل خطتهم هذه ما انتزعته السلطة الرومانية منهم ، وكل ما ظهر منهم من مساعدة الفاندال على احتلال البلاد انما كان وراءه حب الانتقام والتشفي من أعدائهم الرومان كما قلنا ، وهم في ذلك

يتأهبون دوماً للفرص ويتحفزون للوثوب نحو الاستقلال ، فكانت لهم هذه الظاهرة أول خطوة سياسية خطاها البربر في سبيل تحرير بلادهم ، ولو انهم في الظاهر استبدلوا استعماراً باستعمار ... وفعلاً لقد استرد البربر سلطتهم شيئاً فشيئاً حتى كاد ان يتحقق لديهم غرضهم المنشود لولا ان فاجأتهم القوات البيزنطية بهاجمتها .

حركة الجزائر التحريرية

كان لوفاة الملك الفاندالي « جنسريق » سنة ٤٧٧ م اثر كبير في تغيير السياسة الفاندالية بهذه البلاد ، فقد ساء سلوك خلفائه من بعده ، ولم يحسنوا صنعاً في تدبير شؤون المملكة وتسيير نظام الجيش والجندية ، فظهر بذلك انحلال عظيم في الحكومة في حين ان العالم كان متجهاً نحو تاريخ جديد ، وحياة جديدة : ذلك هو عصر ابتداء تاريخ القرون الوسطى ؛ ففي نفس الوقت تحرك البربر منتهزين فرصة ضعف السلطة الفاندالية ونهضوا لاستعادة مجدهم الضائع وأعلنوا الثورة على الفاندال سنة ٤٨٠ م واندلع لهيبها من جبل أوراس وجبل راشد غرباً الى طرابلس شرقاً ، وفي تلك الآونة حطم الفاندال مدينة الجزائر بعدما قضوا على سكانها فأفنوهم ، واستمرت الوقائع والمعارك ما بين مد وجزر الى سنة ٤٨٣ م فانتصر البربر على اعدائهم وتحررت نواحي مدينة تيمقادي وباغاية وتفيست — تبسة — وغيرها بغالب الوطن الجزائري ، وبقيت مدينة سيرته — قسنطينة — محافظة على سيادتها كما كانت من قبل ، اذ لم يقوَ الفاندال على فتحها ، وبذلك كان الاستعمار الفاندالي لم يشمل جميع البلاد ، وانما كان محله السواحل فقط .

الثقافة والحضارة والعمران

اني بكل اسى لا استطيع ان اتحدث الى قارىء الكتاب بشيء جديد مما يتضمنه عنوان هذا الفصل ! ... واني أصارح حضرة المطالع

بأنه لا يستفيد من مطالعة هذا الفصل أكثر مما وسعه علمه من قبل ...
اذ لم يظفر التاريخ في دراسة هذا العصر بما يسمى هنالك علماً أو أدباً أو فناً، ولا لغة كذلك ولا أثراً معمارياً يصلح لان يكون مادة للاستنتاجات والدراسة والبحث، وان كل ما فاز به التاريخ في هذا الميدان هو بعض قطع من نقود: فضة وبرونز مضروبة باسم ملوك هذه الدولة، وعليها نقوش رمزية؛ أو كلمات وألفاظ استخرجها علماء اللغات من لهجات القوم الذين مازجوا هذا العصر أو خالطوا أهله، وهذا كما رأيت لا يسمن ولا يغني من جوع! ... وما اشتهرت به هذه الدولة إلا انها أمة تخريب وتحطيم والخلال في الاخلاق وذلك ما جعل لاسمها معنى مرادفاً للهدم والنقض، فقالوا Vandalisme . وأننا اذا نظرنا الى بعض أقوال مؤرخي ذلك العصر ممن كتب عن مشاهدة وعيان أمثال المؤرخ البيزنطي المشهور «بروكوب»، أصابنا ذهول عظيم. فان هذا لما نزل بافريقية سنة ٥٣٣م صحبة القائد البيزنطي الفاتح «بليزاريوس» بصفته كاتبه الخاص عجب مما وجده بها من العمران ونشاط التجارة ونفاق الاسواق وخصوبة الفلاحة؛ وانه بعدما غاب عنها ثم عاد اليها بعد عشرين سنة — من استقرار الروم بها — وجدها على خلاف ذلك! ... فمن الصادق يا ترى؟ ... ونرى التاريخ كذلك يحط من قيمة الفاندال تجاه التعليم أيضاً، فيقول انهم كانوا يعدونه جريمة ينكل بصاحبها؛ وهم يعللون ذلك بعفاء آثارهم ومحو لغتهم اذ لم تكن لغتهم مستعملة إلا في التخاطب كلغة عامية لا تصلح للتعبير عن المعاني الدقيقة؛ ولم يبقَ هنالك سوى اللغة اللاتينية وهي لغة الدولة الذاهبة.

وان عدد امة الفاندال بهذه الديار كان لا يتجاوز المائتي الف نسمة وانهم كانوا يضبطون الحوادث والوقائع التاريخية بعدد ايام ملوكهم.

وهكذا مر الفاندال ببلادنا بدون ان يكون لهم فيها اي اثر يذكر سوى ما وصمهم به التاريخ الذي كتبه عنهم اعداؤهم الرومان والبيزنطيون وعليه سار الباحثون الى اليوم.

انهيار الجزائر القاندالية

من المعلوم بداهة ان امة مثل هذه منحطة في اخلاقها ساقطة في نظمها العسكرية والمدنية لا تعمر كثيراً ؛ فلقد امضى القاندال معظم حياتهم بافريقية منهمكين في انواع من العيث والفساد منغمسين في احضان الخلاعة وسوء السيرة ، معرضين عن حياة الجد والحزم غير مبالين بما تتطلبه سياسة الامم من العدالة والاستقامة ، ذلك ما كان باعثاً للاهالي على اثارة الحروب ضد هذه الادارة الغاشمة ومقاومة هذه الفوضى السائدة في الاخلاق وفي الحكم ، وفعلاً نشبت الثورات بين الراعي والرعية ، وكانت المقاومة الشعبية عنيفة فسقطت امامها الحكومة منهزمة وامرزت بعض النواحي من الجزائر على استقلالها مثل اوراس ؛ ويومئذ توحش القائد القاندالي « جاليار » واستعمل في مواقفه الحربية جميع وسائل القهر والارهاب وتجرأ على مقام ملكه « هلدريق »[1] فعزله عن عرشه سنة ٥٣١ م وجلس هو مكانه ، ويومئذ استنجد هلدريق بقيصر الروم في بيزنطة « يوستنيانوس » ، فصادف ذلك هوى من نفس القيصر حيث انفتحت له طريق الانتقام ممن سلبوا مملكة دولة الرومان الغربية بافريقية ؛ واخذت الدسائس تحوم حول دولة القاندال المحتضرة ودبرت في ذلك خطط املتها عليهم دواعي الاقتصاص والثأر من القاندال وملكهم الجديد جاليار وبلغوا بدهائهم السياسي ان شغلوا الدولة عن نفسها باثارة العصبية المذهبية والخلافات الدينية حتى فوجئت بالاسطول البيزنطي في خمسمائة قطعة حربية تحمل ١٥٠٠٠ نسمة ، وهم على ثلاثة اصناف ، نصفهم مشاة ، وخمسة آلاف فارس ، والباقي بحارة ، ولباسهم يومئذ درع سابغ على الصدر يبلغ الساقين وخوذة على الرأس ، وسلاحهم السيف والرمح والسهام .

تحركت هذه الحملة البيزنطية العتيدة من بيزنطة – القسطنطينية – يوم ٢٢ جوان ٥٣٣ م اي قبل الهجرة بـ ٨٩ سنة ؛ ودولة القاندال يومئذ

(١) وعلى عهده كان ابتداء اطلاق اسم « الموروس » على السكان الاصليين لشمال غرب افريقية وهم المعروفون اليوم باسم الموريطانيين .

مشتغلة بغزوة بحرية حيث كان اسطولها محاصراً لجزيرة سردانيا ، فأرست هذه الحملة بمياه صقلية ، ثم انتقلت الى مرسى قابس ، واتفق ان كان اهل صقلية وقابس ثائرين على الفاندال ، فكانت فرصة سانحة للروم البيزنطيين على مواصلة الغزو ، وليس للفاندال يومئذ ما يضمن لهم الانتصار بسبب ان قوتهم الحربية مشتتة في البلاد والاكثرية منها في الغزو مع تعذر تجنيد الاهالي لعدم اتصالهم بهم وانحلال الروابط بينهم وحلول العداوة والبغضاء مكانها ، فكانت هذه الظروف كلها مساعدة للغزو البيزنطي على استمراره في الفتح ، وقد جاء ذلك مصرحاً به على لسان قائد الحملة البيزنطية «بليزاريوس» فقال : لست اعتد بعدد جندي ولا بشجاعتهم اكثر من اعتدادي بحب الاهلين وعطفهم علينا وكرههم للفاندال .

واحتدمت الحرب بين الفريقين بنواحي تونس فانتصر البيزنطيون على الفاندال ، واحتل القائد بليزاريوس عاصمة قرطاجنة في شهر اوت من نفس السنة ، وفر منها جاليار ملتجئاً الى جبل «تاووريت» من جبال زواوة وبقي هنالك معتصماً بالشماف والشواهق الى ان احاط به الروم وضربوا عليه الحصار مدة ثلاثة اشهر ، ثم كانت المعركة الاخيرة بينهم يوم ١٣ سبتمبر بقرية «اريانة» - تونس - انكسر فيها الفاندال شر انكسار ، وقد حاول جاليار الفرار امام العدو للمرة الثانية ذاهباً الى «فاندالوسيا» فلم يفلح بل وقع اسيراً في قبضة الروم ، فحملوه الى بيزنطة واتموا بعده عملية الفتح بتطهير التراب الافريقي من كل اثر فاندالي ؛ فخلص الوطن يومئذ - ديسمبر ٥٣٤ م - للروم البيزنطيين ، وكان بذلك القضاء النهائي على دولة الفاندال في العالم ، وذلك بعدما عاشت ١٠٣ سنة بهذا الوطن الافريقي .

ملوك الفاندال بافريقية

جنسريق	٤٢٩ – ٤٧٧ م
هونديق	٤٧٧ – ٤٨٤ م
غونداموند	٤٨٤ – ٤٩٦ م
ثراسيموند	٤٩٦ – ٥٢٣ م
هيلدريق	٥٢٣ – ٥٣١ م
جاليمار	٥٣١ – ٥٣٤ م

جـدول تاريخي

٤٣١ ـ ٥٣٤ م

تاريخ الحوادث		أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفاندال
٤٣١	م	انتصاب دولة الفاندال بالجزائر .
٤٣٥	م	انعقاد الصلح بين الفاندال والروم .
٤٣٩	م	الاستيلاء على قرطاجنة .
٤٧٧	م	وفاة الملك الفاندالي « جنسريق » وتغير السياسة بوفاته .
٤٨٠	م	نشوب ثورات البربر ضد المحتلين .
٤٨٣	م	انتصار البربر وتحرير بعض النواحي الجزائرية .
٥٣١	م	سقوط الملك « هلدريق » وانتصاب « جاليار » مكانه .
٥٣٣	م	غزوة الاسطول البيزنطي لافريقية .
٥٣٤	م	انهيار مملكة الفاندال وسقوط دولتهم .

الدولة البيزنطية

٥٣٤ ــ ٦٤٧ م

لقد بلغ من اتساع رقعة مملكة رومة بما فتحته من البلاد في الشرق وفي الغرب وانتشار سلطانها بمنتأى بعيد عنها كان ان فكر الامبراطور « دقلطيانوس » ــ ٢٩٦ م ــ في توزيع سلطنته على مركزين : احدهما حيث هو بالغرب ، والثاني بالمشرق ليكون له معقلاً حصيناً هناك ، وجعل مقر ذلك مدينة « نيقوميد » ــ ازمير ــ بالاناضول ــ فكانت هذه يومئذ عاصمة الرومان الشرقية ، وكانت مدينة ميلانو بالغرب هي عاصمة المملكة بقسميها ، واستقر الامر على ذلك الى عهد الامبراطور (قسطنطين) الكبير ، فانه ادرك ذهاب هيبة رومة وضعف نفوذها بسبب ما لحقها اخيراً من الفوضى والاضطرابات في كلتا السلطتين المدنية والعسكرية ، وتحقق لديه بانها لا تصلح الآن مقر الرئاسة الامبراطورية العظيمة المترامية الاطراف ، فحول حينئذ مقر حكومته الى المشرق سنة ٣٣٠ م واتخذ عاصمته هنالك مدينة (بيزنطة) [١] وجددها ونسبها اليه ــ القسطنطينية ــ وهيأ لها كل مقومات العواصم الرومانية حتى لقد نقل اليها عدداً من سكان رومة واعضاء مجلس الشيوخ فنشأ عن ذلك للمملكة الرومانية يومئذ عاصمتان شرقية وغربية ،

---

(١) نسبة الى مؤسسها الاول « بيزاس » رئيس الماغريين ١٢٠٠ ق.م. وقيل بنيت سنة ٦٥٨ ق.م. وعلى انقاضها بنى قسطنطين الاول عاصمته .

والى الشرقية (بيزنطة) تنسب هذه الدولة التي نؤرخ استيلاءها على الجزائر .

وفي سنة ٣٩٥ ، توفي الامبراطور (طيودوس) وكان قد اوصى بتقسيم المملكة بين ولديه ؛ فجعل المملكة الشرقية لولده (اركادبوس) وعاصمتها بيزنطة ؛ والغربية لاخيه (اونوريوس) فنفذت الوصية على ما هي عليه ، وبذلك اصبح ملك الرومان منقسماً الى دولتين كل واحدة منها مستقلة عن اختها ، وقد قدر لمملكة بيزنطة ان ترث عرش رومة الى الفتح التركي العثماني (٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ هـ — ٢٩ مايو ١٤٥٣ م) واضحت هذه عاصمة الخلافة الاسلامية الى حين .

ولما كان اهل هذه المملكة الشرقية الحديثة مزيجاً من الرومان واللطين واليونان وهم الافرنج ، تسموا فيما اصطلح عليه المؤرخون العرب باسم (الروم) تغليباً لجنسية الامبراطور وتمييزاً لهم عن دولة الرومان الغربية ، فهم الروم البيزنطيون .

نظامها الحكومي

لم تكد بشائر الفتح البيزنطي ترد على الامبراطور « جستنيان » حتى اسرع الى جعل افريقية ولاية من ولايات الدولة الكبرى ، واقام على حكومتها عاملًا مدنياً لا عسكرياً كما كانت على عهد الرومان من قبل ، فكانت بذلك افريقية مثل بيزنطة يحكمها مدير او عامل يتمتع بنفوذ واسع ، ومقره مدينة قرطاجنة البالغة من الحضارة والعمران مبلغ مدينة القسطنطينية يومئذ ، ولم يتحول هذا النظام الا في سنة ٥٨٧ م حيث استطاع « جناريوس » اخماد ثورة البربر فكان بهذا اول حاكم عام عسكري لقب بالبطريق ؛ وكان يبلغ مرتب الحاكم العام سنوياً الى ما ينيف على ٠٠٠ ١١٠ فرنكاً تقريباً ؛ وعنده تجتمع جميع السلط على اختلافها ووراءه جيش من الموظفين منتشر على كامل البلاد والعواصم والقرى واكثره مختص بالتحصيل وجمع المال حيث ان الحكومة البيزنطية ترتكز في سياستها على نهب المال ، وقد كان مبلغ ما تنفقه السلطة على هؤلاء الموظفين ٧٣٧ ٢٩٩ ١٠ ،

من الفرنكات (بتقدير ما قبل الحرب العالمية الاولى) وهذا غير ما يرسل الى الامبراطور نفسه من الاموال وما يجمع من القمح وما يدفع جمالات لرؤساء البربر ، ثم ما يتبع ذلك من نفقات الدولة ... وللحكومة جند ممتزج من الاهالي والبيزنطيين وفيهم الماجور وكلهم تحت تصرف رئاسة القائد العام المدعو : اكسارك .

حدود الجزائر البيزنطي

لا تتجاوز مملكة البيزنطيين بافريقية عن ان تكون جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر الى جبل اوراس ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة ، اما في الجنوب فانه لا يتمدى نصف امتداد افريقية الرومانية .

وكانت البلاد منقسمة الى سبعة اقسام ادارية ، ثلاثة منها بالقطر الجزائري :

١) نوميديا وقاعدتها قسنطينة .

٢) القيصرية الشرقية ، او موريطانيا السطيفية ومركزها مدينة سطيف .

٣) القيصرية الغربية او موريطانيا القيصرية ومركزها قيصرية : شرشال ويحكم هذه الاقسام عمال ، ثم تليها اربعة مناطق تشتمل على بقية مملكة القطرين الشقيقين : تونس والمغرب الاقصى ، على ان نفوذ البيزنطيين بالمغرب كان ضئيلا هنالك لا يتعدى المنطقة الشمالية منه وقاعدتهم فيه مدينة سبتة .

وفي ايام الامبراطور « موريس » (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ضمت موريطانيا السطيفية الى ما بقي من موريطانيا القيصرية ، فتكونت منها معاً ولاية واحدة ، كما حدث تغيير آخر في بقية املاك البيزنطيين ...

استيلاء الروم على الجزائر

تقدم وصف حملة البيزنطيين على حكومة الفاندال بافريقية ، وكيف كان استيلاؤهم على ولاية تونس اولاً (صيف سنة ٥٣٣ م) ولما رسخت

قدمهم بها تقدموا في الفتح غرباً الى ولاية الجزائر ؛ ففتحوا هبونة : عنابة ؛ وسيرتا او قرطة : قسنطينة سنة ٥٣٩ م وقالمة وناحية الحضنة ونواحي سطيف واوراس وزابي : المسيلة ، وبلغوا الى قيصرية : شرشال وقرطنة : تنس وجيجل وبجاية وما اتصل بهذه البلاد من السواحل الجزائرية ، وهنالك ابتنى الروم سلسلة من الاستحكامات والحصون والرباطات التي تفصل القسم الساحلي الذي يظهر فيه الحكم البيزنطي واضحاً جلياً عن القسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومية البيزنطية بينه وبينها ؛ فكان اقصى ما بلغ اتساع هذه الحدود التحصينية : سهل مجردة وهضبة الاوراس ؛ ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسة ومسكولا : خنشلة وتيمقادي ، ولمبيس ، وطبنة ، والمسيلة ، اما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة الساحل لا تكاد تتعدى ارباض المواني من امثال تيفش : تيبازا ، وقيصرية : شرشال ، وتنس ، ووهران .

الحياة الاجتماعية

رحم الله من قال : ان السياسة لا وجه لها ؛ ... ذلك ان الروم لما نزلوا اول مرة بأرض افريقية استعملوا انواعاً واساليب من الدهاء الديبلوماسي في استرضاء الاهالي فلم تلبث سياستهم هذه ان كسبت ود هؤلاء البيزنطة فاستفادت ما ارادته منهم من طاعة وجنود ، وذلك لثقة البربر بالروم ظناً منهم ان خلاصهم من فوضى الفاندال يكون على ايدي هؤلاء البيزنطيين ، وما انفك الاهالي في غمرتهم هذه لاهين حتى فاجأتهم « اندبجينة سوداء » من بيزنطة بما لا يتفق وطبيعة البلاد ، فكانت هذه قوانين جور فاصلة بين الحاكم والمحكوم لا وجه فيها للاتصال بين الشعبين ؛ فكان طبيعياً وجديراً ان تضع الامة هذه الاثقال عنها وتبتعد عن الحكومة التي لم تحسن وضع نظام ينسجم مع طبيعة البلاد ، ويومئذ تسارع الروم اليهم يعاملونهم معاملة العبيد ويرغمونهم على الطاعة ، وكأنهم بذلك اوروا نار الفتنة واذكوا لهيب الشحناء في قلوب الرعية ، فبدأ النزاع الذي اصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمد اوارها بين الروم

واهل البلاد ، واستعمل الروم يومئذ الشدة والعنف في معاملة الرعية والقوا بينهم العداوة والبغضاء بقصد التفرقة ، وارهقوهم بالضرائب والاتاوات الفادحة وحملوهم في ذلك مشاق عظيمة مما جعل الناس يومئذ يعلنون كراهيتهم وحقدهم على الحكومة باعلان الثورة والعصيان في وجه الحكام وفيهم من هاجر وترك موطنه وبلاده ، ومنهم – من شدة الفقر والحاجة – من اضطر الى اللصوصية وقطع الطرق . وقد أجمع المؤرخون على ان سياسة البيزنطيين بافريقية كانت سياسة شنعاء خرقاء ! ... فهي لا تبعد كثيراً عن سياسة الفاندال ان لم تكن من متمماتها . ولقد كان لهذه المعاملة العنيفة أثر بعيد في مستقبل الحكم البيزنطي بهذه البلاد .

الحالة الدينية

لقد جرى مجرى الامثال السائرة عند جميع الامم قولهم في تشبيه النزاع والخلاف الفارغ مهما كان نوعه بمنازعات بيزنطة الدينية ، نعم هو كذلك ! ... فما جر بيزنطة الى حتفها إلا هذه الخلافات والمناقشات الدينية الفارغة ، فقد كان مما عملت عليه هنا بافريقية – كما فعلته ببقية امبراطوريتها أيضاً بالمشرق – ان سعت في اذكاء الخلاف الديني واثارة النقاش بين الناس في ذلك وبعث التعصب المذهبي من مرقده ، وذلك يوم ان اعلن الامبراطور جستينيان وجوب اعتناق المذهب الكاثوليكي والغاء غيره – ٥٣٥ م – وكان الجزائريون يومئذ على المذهب الارثوذكسي – السلفي – والمسيحية يومئذ بالجزائر منتشرة كثيراً بنواحي نوميديا وبجهات وادي شلف وتلمسان والاوراس وفي الزاب ، وأخذت هذه الجهات يومئذ تهتز وتضطرب لهذه المناقشات والمشاحنات الدينية واتسعت شقة الخلاف بين سائر الاوساط وكان هنالك الجدل العنيف بين الطوائف المسيحية وأرباب المذاهب ، وما برحوا كذلك ان فاجأهم صدور قانون من هرقل الاول سنة ٦٣١ م يعلن فيه بتعاليم جديدة ينبغي اتخاذها كمذهب آخر جديد ، فقابلته الرعية بالرفض ، وهنالك من حمله ذلك على اتخاذ الوثنية ديناً وحدثت يومئذ انقسامات دينية واختلاف كبير بين

الكنيسة الشرقية والغربية وأخذت الحكومة في اضطهاد المخالفين لها وخاصة اليهود انتقاماً منهم حيث أعانوا الفاندال على مقاومة مذهب الروم فيما سبق ، وكثر يومئذ الخلاف والمشاغبات الدينية بما عرف في التاريخ باسم المناقشات البيزنطية .

وكان لهذه المناقشات والانقسامات الدينية تأثير شديد في سياسة الدولة لاختلاط السياسة عندهم حتى آل ذلك أحياناً الى خروج امم بأسرها من حوزة الروم الى غيرهم كما حصل للارمن ، فانهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح كما هو مذهب اليعاقبة — ومنهم الارمن — وقرر القول بطبيعتين ومشيئتين وجعل الامبراطور يشدد النكر على مخالفي قرار المجمع فأفضى الحال بالارمن الى تسليم بلادهم الى الفرس ، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له على فتحه للسبب نفسه [1] .

نعم ، وان دل هذا الجدل والنقاش الديني المتصل الذي سبب الانقسام في الكنائس الشرقية على شيء فانه دل على نعمة كانت خفية ، وتلك هي : ذلك الاندفاع وتوقان النفوس الذي كان ولا يزال يحمل الناس على دراسة الفلاسفة الاغريق دراسة متواصلة وبخاصة (ارسطو) الذي اتخذ منطقه اساساً للجدل الديني .

ثورات البربر التحريرية

كان بعد سفر الحاكم العام البيزنطي (بيليسير) الى بيزنطة اضطراب عظيم في القطر الافريقي كله ، وخاصة منه بالجزائر ، فقد ساء سلوك الولاة والعمال فيها بعد سفر الحاكم المذكور ، وانتشر الظلم والطغيان من الحكام الذين خلفوا بيليسير على رأس الادارة الافريقية وتفننوا في تنويع العذاب المنصب على الاهالي وغيرهم من سكان هذه البلاد ، وهم في ذلك

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٥٥ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

يتسترون بالدفاع عن العقيدة والدين ، وبا ما أكثر المغرضين في كل زمان ـ الذين اتخذوا هذه المظاهر الدينية لاشباع نهمهم والتوصل الى غايتهم التي لا تعدو ان تكون أنانية محضة أو آراء وخصومات لقصد سياسي تافه هو بعيد كل البعد عن التدين والعقيدة ! ...

ويومئذ انفجرت الثورة العامة من ملوك البربر المستقلين المنتشرين في انحاء الجزائر وغيرها من شمال افريقية . وكانت هنالك حروب ووقائع متسلسلة اضطرت القوات البيزنطية الى التسليم والخضوع للاهلين وتحررت يومئذ مراكز كثيرة من القطر الجزائري كانت تحت نفوذ الروم ، وكان من أبرز الشخصيات الجزائرية التي قاومت الاستعمار البيزنطي يومئذ الزعيم (يابداس) رئيس قبائل جبل أوراس ، بمساعدة الرئيس « كوتسينا وأورتاياس » وقد اجتمع حولهم يومئذ أربعون الف مقاتل وسار الكل تحت زعـــامة يابداس فغزوا نوميديا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا البلاد وخربوها ... وفيها كان خراب مدينة تيمقادي ، ويومئذ انهزم البيزنطيون والتجأوا الى انشاء خط ثان من الحصون المتماسكة المتصلة اتقاء هجمات البربر على قلاعهم وحصونهم الداخلية ، وكان من أهمها حصون قسنطينة وقالمة ، وكان اعتماد الروم في اقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائماً من قبل من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد . ولقد أوجز المؤرخ جوليان في وصف هذا النظام الدفاعي بقوله : انشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، اما الاولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التي كانت تستعمل دائماً ملاجىء للناس .

ورغم ذلك كله فالبربر دائماً سائرون في خطتهم هذه الى الامام فما وهنوا ولا استكانوا بل ما زادهم ذلك الا تحمساً في مقاومة الطغيان البيزنطي ، فاغاروا على الروم في جميع الجهات وتقدموا منتصرين الى ابواب قرطاجنة فضربوا عليها الحصار سنة ٥٩٧ م ثم كانت هدنة ، وما برح القوم واثقين بهدنة الروم حتى فوجئوا بغزاة تشتمل على نواحي

هضبة اوراس كلها ؛ وقتل يومئذ الزعيم يابداس (٥٤٠ م) واحتل الروم معقله (اوراسيوس) على ارتفاع ١٥٠٠ متراً واحتلوا كذلك المسيلة واخضعوا معها الزاب .

فخضع يومئذ الجزائريون الى قوات الروم الهاجمة ريثما استعدوا من جديد للقضاء على خصمهم ؛ واشتد يومئذ الخلاف وزادت الشحناء بين الفريقين وبلغ الروم في تهورهم واعاد الاهالي تورتهم فعظم الهيجان في الوطن واصبحت البلاد تموج في بحر من الفوضى وعدم النظام ، وهكذا الى الفتح العربي الاسلامي .

الثقافة والحضارة والعمران

لم ينبئنا التاريخ بذكر حالة البلاد الادبية والثقافية في العهد البيزانطي هذا ، اما فن المعمار فانه لم يكن لهم بالجزائر يومئذ سوى تشييد بعض الكنائس واقامة الاسوار حول المدن كأسوار قرطنة : تنس ، وقيصرية : شرشال ، وسطيف ، وميلة ، وتقادي ، وقصر الصبيحي ، وقالمة ، ومداوروش وتبسة ؛ ويقول المؤرخ غزال عن آثار البيزنطيين بالجزائر : وآثار هؤلاء باقية بنوميديا ما عدا التحاصين فانها تدل على بؤس شديد . وقال ميرسي : كان المؤرخ بروكوب - البيزنطي - لما نزل افريقية مع بيليسير - الفاتح البيزنطي - دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق اسواقها وسعادة فلاحتها ، ولكن بعد عشرين سنة لم يبق شيء من ذلك وعم الخراب جميع افريقية ، ويقال ان الحرب وحكومة يستنيان حلتا افريقية خسارة خمسة ملايين من الانفس ! ... ورغم ذلك ، فانه لا مانع من ان يكون هنالك بقايا معمارية خاصة بالفن البيزنطي الجميل الذي يمتاز به عصر الروم بافريقية عن بقية العصور الاخرى ، ونحن نشاهد اثره فيما اتخذه المسلمون بعد ذلك من النقوش المزخرفة من نوع القاشاني الملون بالتصاوير المرسومة الدالة على براعة الصناع الافريقيين من روم او بربر ، وقد بلغ تأثر العرب بهذا الفن الجميل ان جعلوه في مساجدهم ومعابدهم الخ ... ويذكر لنا ابن فضل الله العمري مدينة

شرشال فيصفها بقوله : انها مدينة تزيد على الوصف في اتساع الافنية ، وارتفاع الابنية ، وعظم القناطر المرفوعة ، والاقبية المعقودة ، والقواعد المشيدة ، والجدر السميكة ، بما يشهد له جوال الارض وسفار الافاق وسمار الحديث بانه لا شبيه له في تحسين بنائها وتحصين صناعتها [١] ولا شك في ان آثار مدينة شرشال هي من بقايا ما شادته دولة الرومان الدابرة ، وما حظ الروم منها الا حظ المحافظ عليها من الضياع والحامي لحماها .

ولرب قائل او متسائل يقول لنا : لماذا لا نرى للامة العربية التي فتحت هذه البلاد والدول الاسلامية التي توالت عليها ما نراه لغيرها من الآثار المعمارية الضخمة والبنايات الضخمة والهياكل العظيمة التي تركها الرومان والبيزنطيون بهذه البلاد وغيرها مما فتحوه او استولوا عليه في سالف العصور ؟ ... فنحن نجيبه بكلمة موجزة كان قد اجاب بها مصطفى الشهابي عن مثل هذا السؤال فقال : « ان السخرة التي كان يعرف بها الرومان وامثالهم من كبار الدول والامم السابقة هي ممنوعة عند اجدادنا العرب ، ولذلك لم يبنوا امثال ما يستهوينا من هذه المعابد والهياكل الضخمة التي شيدتها امم اخرى فاهلكت في بنائها الآفا مؤلفة من البشر » [٢] .

اما ثراء البلاد ونشاطها الاقتصادي فان مؤرخي شمال افريقية كادوا ان يتفقوا باجماع على ان العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزرع وافرة الثمرات ؛ ويؤكد « ديل » ان في السهول الواسعة المهجورة التي تمتد جنوبي هضبة الاوراس وفي الاقليم الجبلي الذي يتوسط سهل تونس ، في كل هذه النواحي يجد الانسان في كل خطوة آثار مدن كبيرة او صغيرة وقرى آهلة واراضي مزروعة على امتداد عظيم .

واني لا ارى في ذلك تنافراً او تناقضاً فيما قررناه من حالة البلاد

---

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ٢٤٤ ط القاهرة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م — .

(٢) محاضرات في الاستعمار ص ٣٨ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

الشقية البئيسة طيلة عهد الروم . فان ذلك يعود الى اعتبار اختلاف الاوساط وطبقات الناس ؛ فالوسط المعمر هو دائماً وابداً يستمتع بغلال البلاد وما فيها من مرافق ثقافية او معمارية او اقتصادية او غيرها ، والمستعمرون هم الاهلون وهم دائماً كذلك في ضنك وضيق وجهل مطبق وفقر مدقع ؛ فالجزائر مثلاً اليوم ، من يراها عند المعمرين يراها جنة عدن علية ، ومن ينظر الى اهلها يراهم في جحيم وسعير ، وكذلك حال افريقية على عهد البيزنطيين ، ومنهاج الاستعمار دائماً هو واحد . وبالجملة فان كلا من الفينيقيين والقرطاجانيين واليونان انشأ مستعمرات في هذه البلاد الا ان ذلك لم يؤثر من سكانها اجمعين .

انهيار الجزائر البيزنطية

كلما تدبر الانسان في الاسباب والنتائج التي ادت بالجزائر بل بافريقية البيزنطية الى السقوط والانهيار الا ووجدها ترجع الى سوء الادارة ونظام الحكم الجائر ، وعدم حسن السياسة مع الاهالي باحتقارهم ومعاملتهم معاملة العبيد ، وكثرة الحروب والثورات والفتن والاهوال الناشئة عن ذلك مع التعصبات المذهبية والخصام الديني ، وضعف السلطة الرومية بابتعادها عن الجزائر مع بعد مركز الحكومة العليا عن افريقية ، ومشاغبة الجند الذي لم يكن يتصل بجراياته ، واشتغال الاباطرة بانفسهم في قصف ولهو مع ما كانوا في حاجة اليه من الاستعداد لحرب الفرس ، وتدخل قساوسة رومة يومئذ في الحكم وتسلطهم على الحكام وغير ذلك مما دعا الى ضعف سلطان بيزنطة في هذه البلاد شيئاً فشيئاً ، فأخذت الحكومة تنسحب من الشمال حتى لم يبق من املاكها آخر الامر الا ساحل ضيق ، واحتل البربر ما خلا ذلك من البلاد والحصون ، ويومئذ افترقت الكلمة وظهر الانحلال التام في الادارة والاخلاق وضعفت الحكومة عن القيادة بفتور همم القادة وقلة خبرتهم واغترار بعضهم بنفسه كما وقع للبطريق جريجوريوس الثاني ، او « جرجير » كما يسميه العرب ، فانه عمل على انفصال افريقية عن بيزنطة بقطع العلائق بينه وبين الامبراطورية الشرقية وتحصن بعاصمته « سبيطلة »

بالجنوب الغربي من ولاية تونس واعلن ثورته على الحاكم العسكري الذي كان يشاركه في الحكم (٦٠٧ م) وحينئذ اندلع لهيب نار الخلاف والفوضى واشتبكت الثورات في انحاء المغارب الثلاث واستمر الحال على هذا الى ان اذن نور الاسلام بالشروق فسطع نوره بالمشرق وتمهدت السبيل للعرب الفاتحين ففتحوا افريقية سنة ٢٧ هـ - ٦٤٧ م - وقضوا على تلك الاضطرابات كلها وقتل جرجير في حديث طويل سأحدثك عنه في محله قريباً ، وبموته انقرضت دولة البيزنطيين من افريقية بعد ما قضت بها ١١٣ سنة .

ولاة الجزائر وزعماؤها

لم يشتهر - فيما نعلم - من ولاة الجزائر وزعمائها في هذا العصر الا كولمبوس اسقف نوميدية ، الذي كان له اثر فعال في انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية ، والرئيسان : كوتسينا واوتياس المساعدان للزعيم يابداس في حروبه وثورته على الروم بهضبة اوراس « وماسوناس » الذي كان سلطانه يشمل كل منطقة وهران ، وامتد نفوذه الى الاوراس و « كسيلة » الاوربي الذي سنحدثك عنه فيما يأتي ، و « الكاهنة » الشهيرة التي كان لها من الاثر في مقاومة العرب الفاتحين ما ستقف عليه بنفسك .

مشاهير ملوك الوطن الجزائري

	المملكة
اورثينة	سنط الحضنة
مصيناس [1]	موريطانيا
انطالاس	قبائل الولايات الداخلية
ماسونا ماستيجاس	موريطانيا بأقسامها
قزطيناس [2]	شرقي اوراس
ارثياس	غربي اوراس
ايدباس	اوراس
بيداس	اوراس
ايعبدة [3]	اوراس
افسدياس	اوراس

---

(١) يلقب بلك القبائل الموريطانية والرومان وهذا ما يدلنا على امكانية التعايش بين العنصرين .

(٢) قتله الروم غدراً سنة ٥٦٣ م .

(٣) اعظم ملوك الجزائر .

أباطرة الدولة البيزنطية

	تاريخ الولاية
جستنيان	٥٢٧ — ٥٦٦ م
جستين الثاني	٥٦٦ — ٥٧٨
تيبريوس الثاني	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوكاس	٦٠٢ — ٦١٠
هرقل الاول	٦١٠ — ٦٤١
هرقل الثاني	٦٤١
هرقل الصغير (هرقلوناس)	٦٤١
قنسطنط الثاني	٦٤١ — ٦٦٨

من مشاهير الجزائر

بيداس

هو أشهر ملوك الجزائر وزعمائها المستقلين بجبل اوراس ، قاوم الاستعمار البيزنطي بكل جهوده وآذاهم بأسه وبلغ من الدهاء والسياسة ان وحّد كلمة البربر وجمع شملهم وخاض بهم المعارك ضد الروم . ولقد احيط به ووقع في الحصر مراراً ولكنه نجا وتخلص من العدو في كثير من الوقائع .

جدول تاريخي

٥٣٤ ــ ٦٤٧ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد البيزنطيين
٥٣٥ م	الاستيلاء البيزنطي على افريقية وتحتم اعتناق المذهب الكاثوليكي .
٥٣٩ م	الاستيلاء على ولاية الجزائر .
٥٤٠ م	سقوط الزعيم الجزائري « يابداس » في ميدان الدفاع الوطني .
٥٦٣ م	اغتيال الروم غدراً زعيم شرق الاوراس « قرطيناس » .
٥٩٧ م	حصار الاهالي لقرطاجنة ــ البيزنطية .
٦٠٨ م	انفصال « جرجير » عن بيزنطية وتحصنه بمدينة « سبيطلة » .
٦٣١ م	تعاليم هرقل الدينية الجديدة .
٦٤٣ م	فتح العرب المسلمين لافريقية ــ ٢٢ هجرية .

الجزائر العربيّة المسلمة

الأمة العربية

العرب جيل من الناس يسكن الجزيرة او شبه الجزيرة الواقعة بالجنوب الغربي من قارة آسيا ، تحدها شمالاً فلسطين وبلاد الشام ، وجنوباً البحر المحيط الهندي وخليج عدن ، وشرقاً الحيرة والخليج الفارسي ، وغرباً بحر القلزم – البحر الاحمر ؛ وهم من اقدم الامم وجوداً واعرقها اصولاً واكثرها في ادوار التاريخ ذكراً ؛ فهم امة سامية سكنت في اول امرها ارض العربات او العربة ، في تهامة – غرب الجزيرة – انحدرت اليها من وادي الفرات او ما بين النهرين ... واليها نسبت وبها عرفت [1] ، ثم تفرقت هذه الامة في الجزيرة وتفرعت الى ثلاث طبقات وهي : العرب البائدة ، والعاربة ، والمستعربة ، فالبائدة بادت واندثرت وهم قوم عاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة ومن جاورهم من سكان الاحقاف ، والطبقة الثانية هم بنو قحطان في اليمن ، واشتهرت منهم دولتان : سبأ وحمير ؛ والطبقة الثالثة هم العدنانيون بنو اسماعيل نشأوا بمكة والحجاز ثم انتشروا ببادية الجزيرة .

ولغتهم هي من اغنى اللغات واغزرها مادة والفاظاً واوسعها تعبيراً

(١) لقد ذهب العلماء في اصل اشتقاق كلمة « العرب » مذاهب شتى ، والذي رجحه المتأخرون منهم انها مشتقة من كلمة (اورى) الشمرية ، ومعناها سكان الخيام او الرحل ، وذلك لما بينها وبين كلمة (عبر) من الاتصال الوثيق ثم اصبحت الكلمة هذه في عهد البابليين والاشوريين بمعنى : مدينة .

واعرقها في القدم واوسعها لهجة ، فهي نقاوة لغات الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة من عهد بعيد وخلاصة ما تكلم به الساميون ، وهي تمتاز كذلك عن اخواتها بكونها اقرب الى اصلها السامي من غيرها ، ذات لهجات مختلفة المظهر ، متحدة المخبر ، ولها من الخصائص والميزات اللغوية ما تفتخر به على سواها من جميع اللغات .

اخلاق العرب وعاداتهم

اشتهر العرب بالاخلاق الكريمة والسجايا الحميدة كالوفاء والاباء والشجاعة والشهامة والبطولة والكرم وقوة البأس وحفظ الجوار مع طلاقة في اللسان ، وفصاحة في البيان ، وفيهم من خرج عن هذه الصفات شذوذاً ... وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ ، او فرس تنتج ، ولا يفتخرون الا بالسيف والضيف والبلاغة ، ولم تكن الكتابة منتشرة فيهم ، بل كانوا يعتمدون الحفظ في كل شيء ، وقد جاء الاسلام وليس يكتب فيهم الا بضعة عشر شخصاً ؛ وعلومهم النسب والاخبار والشعر والكهانة ؛ ولهم دراية بالانواء والنجوم اكتسبوها بتجاربهم وممارستهم للاسفار ؛ وليست لهم مدنية مادية كمدنية مصر وبابل واشور اذ اكثرهم يعيش عيشة التجوع ، وربما كانت لهم في القديم حضارة ومدنية بلغوا فيها شأواً عظيماً .

المجتمع العربي

الامة العربية كما عرفها التاريخ امة بدوية رحالة ، غير ان ما في لغتها من الالفاظ والكلمات والمواد والاوزان المتعددة الدالة على المعاني الاقتصادية والصناعية والسياسية والاجتماعية والعمرانية كل ذلك يدلنا على مبلغ الرقي العقلي والمادي عند العرب وان كانوا لا يألفون الحياة الحضرية ولا يأنسون بالمقام والاستقرار في مكان ، ذلك لتشبعهم بالحرية وبغضهم للقيود مهما كان نوعها : فكثرت فيهم الاسفار والانتقالات والغزو والمغامرات طلباً للمعاش وترفعاً عن المقام على الذل والهوان ؛ ولهم عناية

واهتمام بتربية المواشي والانعام ، ولمعاملاتهم مع الاجانب كالفرس والروم والحبشة والهند صبغة تجارية خاصة ، وهم دائماً في طليعة المحافظين على شرف العائلة وعز القبيلة واحترام الشخصية .

المعتقد العربي

لم يكن للعرب في جاهليتها دين مقرر يدينون به جميعاً ، بل كان شأن العقيدة عندهم فوضى ، فمنهم من كان على ملة ابراهيم ، ومنهم من كان يعبد الاصنام والاوثان والنصب والحيوان ، ومنهم من كان على الفطرة ، ومنهم من كان من اهل الكتاب الى ايام البعثة .

اعقل الامم ؟ ...

لقد أحرز العرب على مكانة سامية في ميدان النشاط العقلي ، وفي صفاء النفس ولطافة الحس ما جعل الاجانب عنهم والدخلاء فيهم يشهدون لهم بذلك ؛ فقد روى شبيب بن شبة — وهو المؤرخ الحجة — عن ابن المقفع[1] قال : كنا في مجلس عظيم فوفد علينا ابن المقفع ، وكان من اشراف الفرس وحكمائهم ، فقال لنا : من اعقل الامم ؟ ... فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى اصله ، فقلنا : الفرس ، قال ليسوا هناك ، ملكوا كثيراً من الارض وحووا عظيماً من الملك ، فما استنبطوا بعقولهم شيئاً ! ... فقلنا : الروم . فقال اصحاب صنعة ، فقلنا : الصين ، فقال اصحاب طرفة ، فقلنا : الهند ، فقال اصحاب فلسفة ، فقلنا : السودان ، فقال شر خلق الله ! ... فقلنا : الخزر ، فقال نعم سائمة ! ... فقلنا : فمن ؟ ... قال : العرب . فضحكنا ! ... فقال ما اردت موافقتكم ، ولكن اذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من

---

(١) هو اول من عني في الاسلام بترجمة كتب المنطق ، ومن اشهر ائمة الكتاب في العصر العباسي الاول ، اصله فارسي ولد في العراق . ونشأ مجوسياً واسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح ؛ كانت وفاته سنة ١٤٢ هـ — ٧٥٩ م

المعرفة ؛ ان العرب حكت على غير مثال ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، رفعتهم عقولهم وأعزتهم هممهم حتى قالوا اكرم الفخر وبلغوا اشرف الذكر ، فلما شرفهم الله بالرسول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وهم على هذه الاخلاق الجميلة ، والفضائل الجليلة ، تنافسوا في زيادة الفضائل ، وتسابقوا الى نيل العلوم والمعارف ، فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه الاوائل وآثروا الآثار العظيمة في اقرب مدة من بناء المدائن وعمل القناطر وفتح الخلجان ، فقد اجرى موسى بن نصير البحر اثني عشر ميلاً الى دار الصناعة بتونس ، وصنع مائة مركب وغزا صقلية واخذها ، ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم في مدة سنة ، وجرت فيه السفن من خلافة عمر بن الخطاب الى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، احتفره من الخليج الذي في ناحية الفسطاط ، وقال له خليج امير المؤمنين وساقه الى القلزم ثم ضيعه الولاة وترك وغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه الى ذنب التمساح ؛ وتيسر لهم من التصنيف في انواع العلوم ما لم يتيسر لاحد قبلهم . ولقد صدق من قال : ان هذا التاريخ على طوله وفضوله لم يسجل من الامم التي بلغت رسالات الله بالخير والجمال والحق الا اربعاً : العبران في الدين والسلم ، واليونان في الفن والعلم ، والرومان في النظام والحكم ، والعرب في كل اولئك جميعاً .

ويصف بعض المؤرخين الامريكيين العرب فيقول : « انهم هم الذين سبق لهم ان قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانساني طول الفي سنة على الاقل في ايام اليونان ، في العصور الوسطى ، لمدة اربعة قرون تقريباً ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من ان تقود العالم ثانية في المستقبل القريب او البعيد[١] .

ويحكي المؤرخ سيديو عن هيمبولد (Hamboldat) انه قال : ان العرب

(١) الدولة العربية الكبرى لمحمود كامل ص ١٨

خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطىء الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا ، وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم اثرت في الدنيا تأثيراً لا يشتبه بغيره ...

ثم قال : وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا - ونحن نعترف به - : اساتذتنا ومعلمونا [1] . ويقول سيديو ايضاً : ان الكنوز الادبية العظيمة التي اوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلاً على نشاطهم الفكري وتؤيد الرأي القـــائل بان العرب هم اساتذتنا في كل شيء ، اذ انهم زودونا بمواد جليلة في تاريخ العصور الوسطى ، وباسفار مجيدة في التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفناً معمارياً آية في الروعة والجمال ، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات [2] .

ويذكر الدكتور غوستاف لوبون شأن الحضارة الاسلامية فيقول : انه كان لها تأثير عظيم في العالم ، وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوروبة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وأئمة ستة قرون ... وظلت الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات اوروبا خمسة او ستة قرون ، فاذا كانت هناك امة نقر باننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الامة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم ان يعترف للعرب بجميل صنعهم في انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً ابدياً . قال مسيو ليبري : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبة الحديثة في الآداب عدة قرون [3] .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي ج ٢ ص ١٥٨ ط دمشق ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م

(٢) مختصر تاريخ العرب لسيد امير علي ، تعريب رياض رأفت ص ٣٩٥ ط القاهرة ١٩٣٨ م

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٢١ - ٥٣٠ - ٦٧٧ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

ظهور الاسلام

قضت حكمة الباري جل جلاله بانقضاء ايام الفوضى والجور المخيمين على العالم يومئذ ، وبانقشاع غشاوة الجهل الضاربة اطنابها على الناس . كي يسود العدل ويظهر العلم ؛ فانبثق نور النبوة والوحي على رأس القرن السابع الميلادي ، فارسل الى رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ؛ وهو عليه الصلاة والسلام من جنس العرب يعرفون نسبه وفضله وصدقه وامانته وعفافه ، فدعاهم الى عبادة الله وحده ، وخلع ما كان يعبد آباؤهم من الحجارة والاوثان ، وأمرهم بالصدق والوفاء والعفاف وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم وسفك الدماء ونهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وقول الزور ، واكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات ، وجاءهم بقواعد الاسلام الخمس وشريعة كلها عدل وسداد ؛ فانجذبت اليه النفوس الطاهرة فآمنت به وصدقته .

جاء عن « بوسورت سميث » مؤلف كتاب « حياة محمد » باللغة الانكليزية ، قال : ان من حسن الحظ الوحيد في التاريخ دون غيره ان محمداً اسس في وقت واحد ثلاثة اشياء هي من اعظم الامور وجليل الاعمال : فانه مؤسس لامة وامبراطورية وديانة ، مع انه امي وقلما كان يقدر ان يقرأ او يكتب ، فمع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد . وقال الدكتور غوستاف لوبون : « ان محمداً اصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك فضل محمد على العرب عظيم ... واذا ما قيست قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمد من اعظم من عرفهم التاريخ ... والتعصب الديني هو الذي اعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد[1] .

(١) حضارة العرب ص ١٤

لا يخفى ما كانت عليه دولتا الفرس والروم قبل الاسلام من النزاع والتطاحن في الحروب واستعمال العرب وتسخيرهم في حروبهم ، وكلتا الدولتين كانت تستعمل في مصلحتها ما يليها ويجاورها من الامة العربية ، وقد فاتها ان الالحاح على القريسة قد يخلق منها مفترساً ، وكذلك كان الامر فكان استمرار هذه الحروب سبباً قوياً في ضعف الحكومتين معاً ، وتمهيداً للعرب في انشاء دولتهم وتدريبهم على النظم الحربية والتراتيب العسكرية ، وذلك ما ساعدهم فيما بعد وفي أجل قريب على فتوحاتهم المترامية الاطراف وبسط نفوذهم على القارات الثلاث : آسيا وافريقية واوروبا . وقضوا بالفعل على هاتين الدولتين العظيمتين في الشرق وفي الغرب : فارس والروم ، فاستبدل الله منهما هذه الامة العربية المسلمة ؛ وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ... ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

ووصف عالم الماني ميزة المسلمين في فتوحاتهم فقال : « ... ينبغي لكل مسلم ان يعد نفسه مسؤولاً شخصياً عن المحيط الذي يحيط به وكل ما يقع حوله ، ومأمور بالجهاد لاقامة الحق ومحق الباطل في كل وقت وفي كل جهة ، فان القرآن يقول : « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذا هو المبرر الخلقي للحركة الاسلامية الجهادية والفتوح الاسلامية الاولى . والاستعمار الاسلامي ، فالاسلام استعماري ان كان لا بد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الاثرة الاقتصادية القومية في شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الاولين الى الجهاد طمع في خفض العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه

الا بناء اطار عالمي لاحسن ما يمكن للانسان من ارتقاء روحي[١].

ثم ان هؤلاء العرب الفاتحين لم يكونوا في فتوحاتهم هذه خدمة لجنس او رسلًا لشعب او وطن هو من دون الاوطان الاخرى يسعون لرفاهيته او يتخصصون لخدمة مصالحه وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الاوطان، لم يخلقوا الا ليكونوا حكاماً ولم تخلق الا لتكون محكومة لهم، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون النـــاس من حكم الروم والفرس الى حكم العرب والى حكمهم انفسهم، انما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً الى عبادة الله وحده، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزد جرد: « الله ابعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ».

فها نحن نرى الامم وجميع الشعوب عند هؤلاء سواء والناس عندهم سواسية فكلهم كما قال نبي الاسلام: كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على اسود، ولا لأصفر على احمر ... الا بالتقوى. وليس منا من دعا الى عصبية او مات على عصبية او قاتل عصبية. يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير.

وبعد ما فتح الله على نبيه الجزيرة ونشر عليها بنوده والويته وتم فتح العراق والشام والموصل وفارس على عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق (ض) ثم كان تمام فتح العراقين ومصر وطرابلس الغرب (لوبيا) على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ض) وامتلك المسلمون اهم مراكز الدنيا يومئذ في اقل من نصف قرن، فاتخذوا من مصر بالاخص مركزاً لتتبع الفتح بشمال افريقية.

Islam At the cross By Mohammad Asad (Lopold weiss (١) fifth Editions p. 29

العرب في شمال أفريقية

قبل ان نخوض في تفاصيل الفتح العربي الاسلامي ، وجب علينا تأدية لامانة التاريخ ان نلقي بنظرة تمهيدية خاطفة الى ما اشيع من تلك النظرية المتعلقة بتاريخ العرب القديم القائلة باتصال هؤلاء بشمال افريقية ، منذ احقاب طوال ، كما قد كنا اشرنا الى ذلك في اوائل الكتاب ، ولما جاء دور العرب الآن كان حقاً علينا ان نحقق المقام بما نستطيع مما اتصلنا به من المصادر التاريخية ، وذلك ما يدفعنا الى العودة بالقارىء الكريم الى دراسة موجزة عن تاريخ العرب بشمال افريقية قديماً .

دولة حمير وسبأ بالمغرب ؟!!

ان موطن هذه الدولة العربية كما هو معلوم باليمن ، تلك البلاد التي اشتهرت عند الرومان باسم البلاد السعيدة ، كما هي معروفة عند اهلها باليمن الخضراء ، وذلك لما بلغته هذه المملكة من التفوق العجيب في الحضارة والخصب ... وان ملوك هذه الدولة مشهورون في التاريخ باسم الاقيال والاذواء او التبابعة ، وفي كتب التاريخ خلط كبير بين ملوك سبأ وحمير . وفي عددهم وسنيهم ايضاً ، وشيب تاريخهم بكثير من الخرافات ! ...

وأياً ما كان فان اول من تلك من ولد قحطان : هو حمير بن سبأ وقد توارث بنوه الملك من بعده حتى صار الى الحارث الرايش الذي يرجع تاريخ حكمه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وقد اجتمع له ملك اليمن كله ، وهو تبع الاول بلغ في غزواته الى الهند ثم غزا بعدها الترك في اذربيجان ، وكان الرابع من هؤلاء التبابعة هو افريقش بن

أبرهة ، او افريقش ذو القرنين المسمى بالصعب وهو الذي يقال عنه انه غزا بلاد المغرب كما عند ابن خلدون ، قال : واتفق المؤرخون على غزو افريقش بن قيس بن صيفي من التبابعة الى المغرب كما ذكرنا في اخبار الروم [1] ... ويقول ايضاً : وسار افريقش بن شمر الى افريقية بالبربر وكنعان فملكها [2] . وان المعروف من تاريخ افريقش هذا انه تملك مدة عشرين سنة (٣٠٠ – ٣٢٠ م) . ويذكر – ابن خلدون – ايضاً انه وصل ملك هذه الدولة العربية بالمغرب الى طنجة ؟ ... ونقل عن ابن الكلبي ان حمير ، ابا القبائل اليمنية ، ملك المغرب مائة سنة ؟ ... وان صنهاجة وكتامة من حمير ، ثم اننا نرى هذا المؤرخ نفسه في مكان آخر من تاريخه يحكم بتزييف كل هذه الروايات ، فانظر الى قوله في المقدمة : ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة – مثله ! . في اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب ، انهم كانوا يغزون من قرارهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب ... ثم انه هو نفسه يعود الى الموضوع هذا في صلب تاريخه كمستدرك او ناقض لما زيفه هنا فيقول عن هؤلاء التبابعة : وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة [3] ... رباه ما هذا الاضطراب ؟ ! ... وفي كتاب المعارف لابن قتيبة الذي قال عنه (وستنفيلد) : انه من اقدم الكتب التاريخية المحضة التي بقيت الى الآن من مؤلفات العرب ، ما يثبت ذلك ويؤيده ، قال : ان ياسر بن عمرو ملك اليمن (٣٥٠ – ٣٧٥ م) الملقب بياسر انعم لانعامه عليهم ، لما سار غازياً نحو المغرب بلغ وادياً يقال له وادي الرمل فلما انتهى اليه لم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل ، وعبر بعض اصحابه فلم يرجعوا فامر بنصب صنم من نحاس على صخرة في شفير الوادي وكتب على صدره

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٥١ وج ٦ ص ١٠٦ والمقدمة ص ٧١ ط بولاق ١٧٤ م .

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٨٨ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٦ – ٧ وج ١ من تاريخه ص ٧٧ – ٧٨ – ٧٩ – ٨٨ – ١٣٢ وج ٦ ص ٩٦ – ٩٧ – ١٠٦ – ١٠٧ .

بالخط المسند : هذا الصنم لياسر انعم الحميري ، ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلفن احد ذلك فيعطب . ورجع[1] ، ولقد اثبت ابن خلدون نفسه ما نقلناه عن ابن قتيبة (ج ١ ص ٧٩) ومثله ابن الاثير في كامله (ج ١ ص ١٥٦) او بعد هذه النصوص كلها يصبح تاريخ العرب القديم بشمال افريقية قضية ملفاة ؟ ! .. ولاسيا اذا صح وان الاحباش سكان (اثيوبيا) بافريقية انهم انتقلوا اليها من جزيرة العرب او من جنوبها فان ذلك مما يزيدنا تأكيداً ويكون لنا كبرهان ساطع على ثبوت الاتصال الوثيق بين سكان افريقية والجزيرة العربية منذ القديم .

وسواء اصح خبر اتصال هؤلاء العرب التابعة بشمال افريقية ام لم يصح ، فانه قد ثبت يقيناً بان ملوك الرعاة – الفراعنة – المعروفين باسم (الشاسو) او – الهكسوس – وهم من العرب كما لا يخفى ، اتصلوا بمصر من برزخ السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح . واستمر سلطانهم على الديار المصرية الى سنة ١٥٨٠ ق . م . وامتد نفوذهم الى ارض افريقية بدون ان تكون لهم فيها دولة منظمة ، ولذلك لم يكن لهم بها ذكر يحفل بتدوينه المؤرخون . وهكذا يبدو الاثر السامي واضحاً بمصر على عهد الاسرة الفرعونية الرابعة ونقل (يوسيفوس) فلافيوس وهو احد المعتمدين من مؤرخي اليهود الاقدمين (٣٧ – ١٠٠ م) : ان (افرون) بن مدين بن ابراهيم الخليل – بين اوائل القرن ١٨ واواخر ١٩ ق م . – جرد حملة على لوبيا واحتلها ، وان ابناء ابنائه اقاموا هنالك وسموا الارض باسم افريقيا ، ولقد اثبتت البحوث والكشوف العصرية الحديثة بان ابراهيم – الخليل – كان سامياً عربياً ، وانه كان يتكلم العربية ، وهي طبعاً غير العربية التي نعرفها اليوم او نكتبها ونتخاطب بها ، ولا هي كذلك التي بالشعر الجاهلي[2] . وهل هي الكلدانية ؟ .

كما انه قد صح في التاريخ بان الساميين جاؤوا الى افريقية من جزيرة

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٣ ط مصر ١٣٥٣ هـ – ١٩٣٤ م .

(٢) ارجع ايضاً الى ص ٤٨ من الكتاب .

العرب في ثلاث دفعات ، وكان مجيئهم اليها في كل مرة من طريقين : شمالية عن طريق برزخ السويس ومصر ، وجنوبية عن طريق باب المندب ، وكانت الدفعة الاولى في زمن قديم جداً لا يعرف مبدؤه ، فاختلطوا باهل البلاد الاصليين وامتزجوا بهم ، فتولدت منهم امم هي الامة المصرية القديمة ، وقبائل البربر في المغرب ... والمرة الثانية كانت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً ، او في عصور اخرى ترجع الى ما بين القرن العاشر والقرن الاول قبل الميلاد ؟ . وهؤلاء العرب هم الذين اتوا بالجمال معهم الى هذه البلاد اذ لم يكن الجمل معروفاً بها قبل هذا التاريخ ، كما انهم جاؤوا قبل ذلك بالخيل ؛ اما المرة الثالثة فهي التي كانت في قصة الهجرة الاولى الى الحبشة في صدر الاسلام .

ولقد اكتشف الدكتور (استانلي تيمبور) على مقربة من نهر (زمبر) في مقاطعة (رودسيا) من جنوب افريقية آثاراً منقوشة عليها رسوم مكتوبة استدل بها الدكتور على ان العرب قد استثمروا هنالك مناجم الذهب التي كان استثمرها أسلافهم « عرب اليمن » قبل ذلك بعهد طويل . وكما ظفر الحفريون بنقوش حميرية ببعض قرى افريقية . فكل ذلك يجعلنا نحتفل لخبر هؤلاء العرب من التبابعة الحميريين في شمال افريقية ، وقد يكون الضريح الموجود الى اليوم بالجنوب الغربي من بسكرة المنسوب الى خالد بن سنان العبسي[1] هو لاحد أعضاء هذه الجاليات العربية القديمة التي ارتادت هذه الاوطان ، هذا ان لم يكن قبراً لاحد المبشرين بالمسيحية ممن ذكرنا أسماءهم في صفحة ٨٦ من كتابنا هذا ؛ أو قد يكون كذلك لاحد رجال الكنيسة وأعيان مذاهبها الشهيرة ؟ ... والمستقبل كشاف .

---

(١) راجع الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٦ ، ونهاية الادب للنويري ج ١ ص ١٠٦ — ١١٠ ، والجمهرة لابن حزم ص ٢٤٠ ، والكامل لابن الاثير ج ١ ص ٢٧٠ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٩٣ ، وعيون الاخبار للصديقي (مخطوط) ورقة ١٣ ، ومحاضرات الادباء للاصفهاني ج ٢ ص ٢٧٨ ، والاصابة لابن حجر ج ١ ص ٤٤٦ ، والمؤنس لابن ابي دينار ص ١٧ ، ورحلة العياشي ج ٢ ص ٢١٤ ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٣٥ ط مصر ١٣٠٣ هـ .

فتح أفريقية

٢٢ هـ – ٦٤٣ م

افريقية – المغرب

اتسع مدلول لفظ افريقية على عهد البيزنطيين فشمل كل ما دخل تحت نفوذهم من هذه القارة : من برقة الى طنجة ؛ وبهذا المعنى استعمله العرب في أول الامر ؛ ثم بعد ذلك أخذ لفظ افريقية يضيق شيئاً فشيئاً وبدأ لفظ المغرب في الظهور ، فاقتصر اسم افريقية على ما يلي مصر غرباً الى بجاية من مقاطعة قسنطينة – الجزائر – ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل فيه بعضهم الاندلس ؛ ولا شك ان لفظ المغرب حسب مدلول معناه هو ما يقابل الشرق ، ولهذا أدخل فيه بعضهم مصر والاندلس ، وقصره آخرون على المغرب العربي الحالي وهو الاقليم الذي يلي مصر غرباً حتى المحيط ، ثم هم يقسمونه أجزاءاً بحسب الحكومات والولايات كبرقة وطرابلس وافريقية – تونس – والمغرب الاوسط – الجزائر – والمغرب الاقصى والسوس .

مقدمات الفتح

كان من الطبيعي المعقول ان يتابع العرب فتوحاتهم بشمال افريقية بعدما فتحوا مصر والشام وغيرهما من ممتلكات امبراطورية بيزنطة ،

والجزائر يومئذ هي ضمن هذه الامبراطورية التي غزاها العرب في الشرق ، فكان لزاماً على الدولة العربية الناشئة ومن واجبها السياسي ان تستمر على خطتها في الفتح وتتابع ممالك الدولة المغزوة حيثما انتشرت في الارض وانبسط سلطانها في المعمورة ، وذلك توطيداً للامبراطورية الاسلامية الناشئة يومئذ في الشرق ، واتماماً لسلسلة الفتوحات العربية ، فقد كتب على العرب الفاتحين ان يصطدموا بالروم في المغرب كما اصطدموا بهم في الشرق .

من المعقول جداً ان يفكر فاتح مصر عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، في متابعة الفتح والاستيلاء على هذا الشمال الافريقي ، بعد فراغه من الاستيلاء على القطر المصري وتمام جلاء الروم عنه ؛ ولا شك انه بلغته اخباره واتصل بها وهو يومئذ على فتح مصر ، فعرف انه من بلاد الروم البيزنطيين وان لهم فيه منعة وعزة ، وانه جزء من مصر ، وكان اهل برقة وطرابلس اذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع اهل مصر ، حتى ان بعض قبائلها كان معدوداً من قبطها . وكانت الطرق بينهما مطروقة مأنوسة ، فلما فرغ عمرو من فتح الاسكندرية وجد الطريق الى برقة سهلة ميسورة ؛ فخشي من وثبة تكون من الروم يهاجمون بها مصر ، او تدبير يحكمه روم بيزنطة بها ، فبعث اولاً بالطلائع تستطلع له احوال البلاد ، وبعد ان اتصل بالمعلومات الكافية سار هو بنفسه فغزا برقة وطرابلس ثم صبرة او — سبرت Sabrata — ففتحها عنوة سنة ٢٢ هـ — ٦٤٣ م ؛ ومن هناك بعث ابن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يستأذنه في فتح افريقية فأوقفه عمر ونهاه عن التمادي في الفتح قائلاً له في كتابه الذي ارسله اليه : انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة (الغادرة) مغدور بها ، وذلك لأن اهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً [١] ، وكان ملك الاندلس صالحهم ثم غدر بهم ؛ لا يغزوها احد ما بقيت ، او قال : لا اوجه اليها احداً

---

(١) وكأن كلمة موسى بن نصير التي تقدمت في صفحة ٥٥ من الكتاب مقتبسة من هذا ، او هي من قبيل توارد الخواطر ؟ ... فانظرها هناك .

ما مقلت عيني الماء . ويبدو من كلام الخليفة انه كان على خبرة تامة واطلاع واسع على احوال الممالك وخاصة افريقية فانه كان على بصيرة منها ومن تاريخها وطبيعة اهلها فعرف انها ليست مأمونة الجانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة ، فعجل بايقاف عمرو .

ونستطيع ان نفهم كلمة عمرو هذه بوضوح تام ونشرحها على ضوء النظرية التي اشار بها ابن خلدون حينما تعرض للكلام عن عصيان البربر وانتقاضهم على العرب وقرر ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة ... ثم قال : والسبب في ذلك هو اختلاف الآراء والاهواء ، وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة . ثم يستشهد ابن خلدون على استنتاجه هذا بما حدث في افريقية والمغرب من احداث وما وقع فيها من فتن وثورات فيقول : « وانظر ما وقع من ذلك في افريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد ، فان ساكني هذه الاوطان من البربر اهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيئاً ، وعاودوا بعد ذلك الى الثورة والردة مرة بعد اخرى وعظم الاثخان من المسلمين فيهم ، ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة ...

وهذا معنى ما ينقل عن عمر من ان افريقية مفرقة لقلوب اهلها ، اشارة منه الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحامية لهم على عدم الاذعان والانقياد ...

والبربر قبائلهم بالمغرب اكثر من ان تحصى ، وكلهم بادية اهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال امر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب »[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٠ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

ورغم ذلك كله فان عصبيتهم هذه لم تكن مانعة من تبكيرهم بالاسلام كما ستعرفه .

ولا شك ان عمراً رأى من قوات جريجوريوس المتحصنة المعدة لدفع العرب ومقاومتهم ما يحتاج معها الى المدد ، ولما اتصل بكلمة الخليفة خشي من الهزيمة اذ ليس لديه من قوة الجيش ما يكفي لمهاجمة البربر والروم في بلادهم فلم يجد عمرو اذاً بداً من الانسحاب والتراجع ، فطوى كشحه وانصرف عائداً الى مصر بعد ان صالح اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار ، وقد الحقت هذه الناحية بولاية مصر فاعتبرت جزءاً منها يحكمها عامل مصري ، يجبي خراجها ويقود جندها .

حملة ابن ابي سرح

لقد اصبح عبدالله بن سعد بن ابي سرح عاملاً على مصر منذ سنة ٢٥ هـ — ٦٤٦ م . وما كاد يستتب له الامر حتى فاتح الخليفة يومئذ عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، يخبره بقرب الروم من حوز المسلمين ويستأذنه في غزو افريقية ؛ وبعد ما تدبر الخليفة في الامر كتب الى عبدالله سنة ٢٧ ، ويقال سنة ٢٨ او سنة ٢٩ هجرية ، يأمره بغزوها ؛ وتقاطر المسلمون من مختلف القبائل على الخليفة يريدون المشاركة في هذا الفتح وعلى رأس كل قوم نفر من كبرائهم ، وكان جيش هذه الحملة يتجمع بـ « الجرف » ، وهو مكان يبعد عن المدينة المنورة بثلاثة اميال ، والخليفة نفسه لا ينى ان يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على الخيل ، وفرق السلاح وامر للناس بأعطياتهم ؛ واندمج في سلك الغزوة نفر غير قليل من مشاهير الصحابة واولادهم ، وقد عرف هذا الجيش بجيش العبادلة . ولما أكتمل القوم خطب فيهم الخليفة مرغباً لهم في الجهاد ، قائلاً : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم الى ان تقدموا على عبدالله بن سعد فيكون الامر اليه ، واستودعتكم الله . فارتحل الجيش من المدينة في المحرم سنة ٢٧ هـ — اكتوبر ٦٤٧ م .

ولما صار الجيش الى عبدالله بن سعد واتصل بقوات الخليفة أخذ عدته وجمع أمره واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وبعث أمامه بالطلائع ، ثم فصل عن مصر وخرج بنفسه الفتح في عشرين الف جندي ما بين عرب من الجزيرة وقبط من مصر وبربر من افريقية ؛ وسار حتى بلغ قمونية أو قمودة (ولعلها كابوت فادا Caput vada الميناء البيزنطي المعروف) وهنـــاك استقر وبدأت المفاوضات بينه وبين البطريق [1] جريجوريوس (جرجير) حاكم افريقية وأمبراطورها المستبد ، المتربص يومئذ بمدينة سبيطلة ـ على مائة وخمسين ميلاً جنوب قرطاجنة ـ وهناك عرض عليه عبدالله الاسلام أو الجزية وطالت المفاوضات ١٣ يوماً [2] وكانت المناوشات طوال هذه المدة تدور بين القوم بفتور ؛ وجرجير يومئذ مصر على الرفض ، وكأن المسلمين يومئذ أدركهم شيء من الفتور فمالوا الى طلب الامداد من الشرق ؛ فجاءتهم بعثة عبدالله بن الزبير فهللوا لها وكبروا وتحمسوا لمقاتلة الروم فتقدموا من قمونية الى حيث البطريق جرجير رابضاً في مائة وعشرين الف مقاتل ؛ ويقول الباجي : في مائتي الف مقاتل [3] ؟ ... فدارت المعركة بين الطرفين على مقربة من حصن عقوبة ـ فحص متسع ، بينه وبين دار الملك : سبيطلة ٣٦ كيلومتراً ـ فانهزم الروم شر هزيمة وقتل فيها جرجير ، فأقام الافارقة عليهم مكانه « جناحة Ghenaha » فهو الذي عقد الصلح مع العرب بعد ذلك ، فأصبحت ولاية افريقية يومئذ تحت نفوذ العرب وانتشر الفاتحون بكامل الولاية يغنمون وينهبون وانحاز أغلب المنهزمين الى الشرق في حصن الجم (العجم ـ الاعاجم) فأحاط به العرب وحاصروه بمن فيه ففتحوه ، وفي تاريخ الخميس قال : ان فتوحات عبدالله بن سعد بن أبي

---

(١) لقب مدني سياسي Patrice, Patrique, وهو غير البطريك Patriarche المختص برؤساء الدين .

(٢) وفيها تلقب عبدالله بن عباس رضي الله عنه بحبر العرب من طرف جرجير ، حيث قال لعبدالله : ما ينبغي الا ان تكون حبر العرب .

(٣) يقدر الرواة ان عدد سكان شمال افريقية يومئذ نحو ١٩ مليوناً ؟ ...

سرح بلغت الى الجزائر التي في بحر بلاد المغرب [1]. ويومئذ لجأ رؤساء البربر الى طلب الصلح من ابن أبي سرح وتعاهدوا معه على ان ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ يقدره البعض بمليونين وخمسمائة الف دينار، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قنطار من الذهب [2] ويروى مائة الف رطل ذهب ؟... وزاد على ذلك ابن أبي سرح فاشترط عليهم بأن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الترداد رد عليهم، فوقع الاتفاق على ذلك، واقتسمت الغنائم بين الغزاة، فأصاب كل فارس ثلاثة آلاف مثقال - دينار - والراجل منهم الف وعاد البشير (عبدالله بن الزبير) الى المدينة ليقص خبر الفتح على منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكتب ابن أبي سرح الى نائبه بمصر يأمره بانفاذ المراكب اليه ليحمل عليها الغنائم وانتقال المسلمين خشية انقلاب الروم عليه، فكان الامر كذالك، وعاد ابن أبي سرح الى مصر من غير ان يولي على افريقية أحداً ولم يتخذ بها معسكراً، ولقد دامت هذه الغارة خمسة عشر شهراً، ثم كانت بعدها الاحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب اغتيال الخليفة عثمان، فتأخر اتمام الفتح الى ايام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

ينتقد بعض المؤرخين عودة عبدالله بن سعد هذه وانفصاله عن افريقية بعدما انتصر ذلك الانتصار الباهر على الروم وفاز المسلمون بمغانم كثيرة !... وقد رد بعضهم أسباب هذه العودة الى أحداث اضطرت قائد الحملة الى التعجيل بالمسلمين قبل انقلاب الروم عليهم فيسلبوهم ما غنموا، وقد لاحت له مخايل المقاومة التي أبداها أهل الساحل يومئذ، وخصوصاً اذا لاحظنا كذلك ما كان من التوتر بين قادة الجيش العربي مع ضعف الجند أمام قوات الروم والبربر المتكاثر وانقطاع العرب عن المدد، مع اضطراب

---

(١) تاريخ الخميس للدياربكري ج ٢ ص ٢٩٧ ط القاهرة ١٣٠٢ ه.

(٢) حاول ياقوت تقدير القنطار فقال انه يبلغ ثمانية آلاف وأربعمائة دينار وهو عدد تقريبي وقدر « دوسلان » الدينار في ذلك العصر بعشرة فرنكات.

حبل الخلافة بالمشرق . فاذا لاحظنا ذلك كله فلا نستبعد هذه العجلة في رجوع القائد بحملته الى مركز ولايته بمصر . ولو ساعدت الظروف بيزنطة وكانت على شيء من القوات لاستعادت البلاد في هذه الفترة ، ولكنها كانت تعاني ما تعانيه نفس الدولة الاسلامية الناشئة من الضعف واضطراب الحال .

اضطراب افريقية

ما كاد يتصل الامبراطور البيزنطي بخبر انعقاد الصلح على الصفة المتقدمة مع العرب وبما نال العرب من مال ونشب حتى ثارت ثائرته واستشرف هو أيضاً الى مثل ذلك أو أكثر ، فأسرع الى تعبئة بعثة عسكرية الى افريقية وجعل قيادتها لاحد بطارقته ، فجاءت الحملة وأظهرت رغائب الامبراطور ومطالبه الفادحة وأرغمت الشعب على ذلك ، فثار الافارقة لهذا واشتد الهيجان وكانت بين الفريقين حوادث دامية وأخيراً تغلب البطريق على حاكم افريقية - خليفة جرجير - فعزله وجلس هو مكانه ؛ ويومئذ انسل هذا الحاكم المعزول الى الشرق ملتجئاً الى الخليفة الاموي معاوية بن أبي سفيان فعرضه على عودة العرب الى افريقية على ان يكون هو دليلهم على عورات القوم ، وما شعر الخليفة بالامر حتى فاجأهم اسطول بيزنطة مهاجماً الاسكندرية فكانت هنالك واقعة ذات الصواري المشهورة ٣١ هـ - ٦٥١ م انهزم فيها الروم أيضاً .

حملة معاوية بن خديج[1]

يذكر كثير من المؤرخين ان في اثناء هذه الفترة التي أعقبت رجوع عبدالله بن سعد والتي دامت نحو السبعة عشر سنة هناك من اتصل من زعماء البربر بالعرب في المشرق يحثونهم على العودة الى افريقية واستئناف الفتح تخلصاً من الارهاق والاضطراب الذي حصل لهم ، وهذا صحيح

---

(١) ضبطه صاحب معالم الايمان ج ١ ص ١١٣ ط تونس ١٣٢٠ هـ فقال : خديج بضم الخاء المعجمة وفتح الدال من خديج ...

تؤيده المعاملة الحسنة التي كان يجدها الجيش الفاتح من الاهالي ، وقصة الحاكم المعزول .

أصدر أمره الخليفة بغزو افريقية الى عامله على مصر وكان يومئذ معاوية بن خديج ؛ فخرج الجيش الاسلامي سنة ٤٥ هـ - ٦٦٦ م في عشرة آلاف مجاهد ، وفيهم الكثير من أعيان الصحابة من المهاجرين والانصار ، وجاء معهم يومئذ حاكم افريقية المخلوع وهو الذي كان عند الخليفة يحثه على الغزو ومات في الطريق وسار ابن خديج في طريقه الى افريقية ففتح بعض مواطنها مثل بنزرت وجلولاء وجربة وسوسة ؛ ثم عاد من غير سبب معقول ودون أن يخلف أي أثر يذكر ؟ ...

حملة عقبة بن نافع الاولى

لقد سبق لعقبة ان عرفته افريقية وعرفها فارسها منذ كان مع عمرو بن العاص في فتوحاته وبعوثه الاولى فأقام بها أميراً على ما فتح منها ، ومتجولاً مغيراً تارة ودارساً ومبشراً ونذيراً تارة أخرى ، ولبث مقيماً بالنواحي حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان على ولايتها هذه المرة سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م فسار اليها على رأس عشرة آلاف جندي وانضم اليه من كان أسلم من أهل البلاد . ففتح بهم أماكن أغلبها بولاية تونس وكان سيره هذا بالداخل متجنباً السواحل لما فيها من الحصون والمحارس البيزنطية .

ويشهد التاريخ لحملة عقبة هذه بأنها حملة موفقة جديرة بأن تعد فتحاً حقيقياً لافريقية ، كما انه هو أحق وأجدر بلقب الفاتح من غيره ممن سبقه ، وذلك لما فكر فيه عقبة يومئذ وأهمه من اقامة مدينة للمسلمين في افريقية اذ قال : ان افريقية اذا دخلها إمام تحرموا بالاسلام فاذا خرج منها رجع من كان أسلم بها وارتد الى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عز الاسلام الى (أول) الدهر . وبذلك وضع عقبة الحجر الاساسي لابتناء

افريقية الاسلامية فأنشأ مدينة « القيروان » . فلعمري انه قد وفق في ذلك الى شيء لم يوفق اليه غيره من الفاتحين السابقين وهو أمر ضروري في انشاء الممالك واتخاذ الحصون بها .

كان الجند قبل حملة عقبة هذه يخرج من مصر مغيراً على ما يستطيع من بلاد افريقية ثم يعود الى مصر او برقة بالغنائم او من غير غنائم دون ان يخلف في البلاد اثراً ودون ان يكون في غاراته معنى الفتح ! ... فاصبحت افريقية بصنيع عقبة مقراً يقيم به المسلمون مطمئنين فيه دون ان يعودوا الى مصر بعد كل غزوة ؛ وكأن افريقية بذلك استقلت بعض الشيء – رغم تبعيتها لمصر – فأصبحت ولاية اسلامية ثانية ، وهذه هي الخطوة الاولى نحو ظهور ولاية افريقية اسلامية بهذه البلاد .

ثم ان حسن اختيار عقبة لموقع مدينة القيروان كان في غاية الاحكام الحربي اذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضوع مركزاً لاعماله – كما قال المؤرخ كودل – : يستطيع ان يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر ، واذا اراد ان يطاردهم الى هضابهم وجد الطريق مفتحة امامه ، اذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول الى اعالي الهضاب ، عن طريق وادي زرود ووادي مرجلل ومسلك جبل بارجوه ومن اعالي الهضاب كان يستطيع الاشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها اذا كانت لديه القوة الكافية لذلك . ولقد لاحظ عقبة نفسه هذه الملاحظة الحربية لتحصين مركز القيادة الاسلامية هذا بقوله لاصحابه المؤسسين الفاتحين : اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها صاحب البحر اجعلوا بينها وبين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة ، واحاط عقبة المدينة بسور يبلغ دوره اثني عشر ميلاً ؛ وبعد ان مكث عقبة بافريقية ما يقرب من خمس سنوات استخلف بابي المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد (والي مصر) ولا نعلم عن اسباب هذا الاستخلاف او العزل شيئاً ؟ ... والظاهر انه كان بسعي من مسلمة .

فتح المغرب الاوسط - الجزائر -

انتصب مسلمة بن مخلد على ولاية افريقية وتحتها يومئذ مدينة مصر ، وقد جمع له الخليفة في ولايته هذه ما بين مصر وافريقية والمغرب والصلاة ، فشق عليه القيام بجميع هذه الاعمال الهامة كلها ، فبعث بمولاه ابي المهاجر دينار الى المغرب وقال : ان ابا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ، ولا كبير ميل ، فنحن نحب ان نكافئه . فلم يلبث دينار ان اصبح اميراً على افريقية سنة ٥٥ هـ واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تنتهي سنة ٦٢ هـ (٦٧٤ - ٦٨٢ م) .

خرج عقبة من افريقية مهاناً من طرف ابي المهاجر فذهب الى الخليفة بالشام يشكو اليه حاله ، فما زاده معاوية على ان قال له : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الامام المظلوم [1] وتقديمه اياه وقيامه بدمه وبذله مهجته وقد رددتك الى عملك » ؟ ... ولكن مسلمة يأبى ذلك ! ... فالى ما بعد وفاته ...

اتصل ابو المهاجر بافريقية واسس بها مركزاً هو غير قيروان عقبة ولكنه بجانبه على مسافة ميلين « تيكروان » وسار في خطته غرباً الى المغرب الاوسط او بلاد الجزائر ، حيث يخيم ملك البربر « كسيلة » بجبال اوراس ، فاتخذ مسلكه الى هنالك بوابة بسكرة المنخفضة التي تمثل فجوة في الاطلس فتمكن من الانتصار على اعمال قسنطينة سنة ٥٩ هـ - ٦٧٨ م وجعل مركز قيادته العليا مدينة ميلة فابتنى بها دار الامارة وجعلها ملاصقة للجامع كما شاهدها البكري بنفسه ومكث الامير بها سنتين ، وقد حظيت الجزائر بذلك - طيلة هذه المدة - بشرف امارة افريقية الاسلامية ، وبذلك كان ابو المهاجر اول امير مسلم وطئت خيله المغرب الاوسط ، واول من حمل الاسلام الى هذه الديار الجزائرية ؛ ومنها تقدم في فتوحه الى احواز تلمسان فقضى بها زمناً طويلاً احتقر

---

(١) يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه .

فيه آباراً لجنده تسمت باسمه « عيون أبي المهاجر » وهنالك ظفر بخصمه كسيلة فحمل عليه حملة شديدة وعرض عليه الاسلام فاعتصم به ، وحينئذ خلى عنه الامير وأبقاه معه ، ثم كان بعد ذلك حصار الروم بقرطاجنة فتنزلوا له عن شبه الجزيرة « شريك » .

اتفق المؤرخون لاعمال أبي المهاجر في الفتوح بأنها كانت على جانب عظيم من الاهمية والخطورة ، فانه أول من جعل غايته الاخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والاسلام فيها ، فهو لم يعاهد الروم على ان ينصرف على قرطاجنة كما فعل غيره لقاء فدية من المال وانما طلب اليهم ان يتنازلوا له عن جزء من البلاد لانه لم يطلب الغنم والعودة ، وانما كان يرغب في اتمام فتح البلاد ، وان سياسته كانت ترمي الى تقريب البربر وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة .

حملة عقبة بن نافع الثانية

قضت حكمة الباري ان يبقى وعد معاوية لعقبة معلقاً حتى بعد وفاة الخليفة نفسه ووفاة والي مصر مسلمة بن مخلد أيضاً . وما كان لعقبة أن ييأس من مجيء ساعة ينفذ فيها وعد معاوية ، وقد حان الوقت الآن فرجع عقبة الى عمله بأمر صدر من اليزيد بن معاوية وقد مات المعارض – مسلمة – فبدأ عمله بافريقية سنة ٦٢ هـ – ٦٨٢ م وان أول ما قام به من الاعمال هو الاعتناء بمؤسسة القيروان فأعاد عمرانها واقتص من مهينه أبي المهاجر فأوثقه بالحديد ، ويقال انه وجد بخزينته مائة الف دينار ، وأخذه معه هو وكسيلة (الملك البربري) وتوجه بها في خمسة عشر الفاً من جنوده الى فتح البلاد وتدويخ أهلها ، فتتبع طريق السهل وتجنب المسير على الهضبة الوعرة ففتح في طريقه مدينة « باغاية » – شرق جبل اوراس قرب خنشلة – وذلك حيث تحصن له البربر والروم لمقاومته ، فقاتلهم قتالاً شديداً وغنم منهم خيلاً لم يرَ أصلب منها ولا أسرع فهي من نتاج خيل اوراس ، ومنها توجه الى مدينة

لميس – لمبز ذلك الحصن البيزنطي المعروف وكانت المقاتلة هنالك أشد وأعظم وأصاب بها مغانم كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل الى الزاب وأحاط بعاصمته يومئذ « ازبة » على مرحلة شرق المسيلة وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، وهنالك احتشد له جيش العدو فقاتلهم بها قتالاً عنيفاً وما زال بهم حتى بدد شملهم فأطاعوه ، ومنها توجه الى « تيهرت » وكان بها حصن بيزنطي قديم اقتتل فيه العرب والروم والبربر فلم يكن لهذين طاقة بالعرب إلا ان الامر اشتد على المسلمين أكثر من ذي قبل لقلتهم أمام جيوش العدو الجرارة ، ومن هناك انحدر عقبة من الهضبة الى السهل الساحلي وسار الى المغرب الاقصى وعرج في طريقه على تلمسان ودخل طنجة ففتحها واحتل مدن المغرب وتقدم الى التخوم حتى بلغ المحيط الاطلسي وكان بصحبته أبو المهاجر ، وقد حكى هذا عن أميره فقال : فبلغ عقبة بن نافع في غزواته الى السوس الادنى والسوس الاقصى والبحر المحيط وأدخل فيه فرسه حتى بلغ الماء لبب فرسه وشهر سيفه ورفع بصره الى السماء وهو يقول بأعلى صوته : يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك !...

واقعة تهودة

عاد عقبة أدراجه بعد ان اعترضه البحر عن التقدم في الغزو والفتح راجعاً الى القيروان ، وكان معه أسيره كسيلة فصحبه في مهانة وذل . وعلم به أبو المهاجر المكبل يومئذ بالحديد فنهى عقبة عن إهانة الملك البربري قائلا له : « ما هذا الذي صنعت ؟... كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يتألف جبابرة العرب كالاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن ، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه !... توثق من الرجل فاني أخاف فتكه ! » فلم يلتفت عقبة لنصيحة دينار واستمر على اهانة كسيلة ، واستطاع هذا ان يفر دون ان يشعر به عقبة وقد عرف الطريق الذي يسلكه عقبة في

مسيره الى القيروان من قوله الجند قبل ذلك : امر الى مدينة تهودة والى مدينة بادس اعرف ما يكفيهما من العدة والجيوش — وكانا في ذلك الوقت من اعظم بلاد الجزائر — فاعترضه هنالك كسيلة في قومه وقد نكثوا عهدهم ، واستمر عقبة متوجهاً الى القيروان وقد دبرت له مكيدة اخرى في طريقه حينما كان سائراً الى المغرب الاقصى فكان هناك من تعقبه يردم الابار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة ويضلل عليه الطريق ؛ وما بلغ عقبة مدينة طبنة : بريكة حتى اطمأن على نفسه فأذن لبعض الفرق من الجند بالتقدم امامه والسبق الى دار الامارة : القيروان ، ولم يبقَ مع عقبة يومئذ من الجند سوى نحو ثلاثمائة فقط ؛ وكان فيما حضر مع عقبة من بربر الجزائر في هذا الفتح وانتهى معه الى البحر المحيط بالسوس : قبيل بني عبد الواد ومنهم ملوك تلمسان فيما بعد — فانهم أبلوا في هذه الغزوة البلاء الحسن فدعا لهم عقبة واذن في رجوعهم قبل استتمام الزحف[1] . وحينئذ اسرع اليه البربر والروم وقد سنحت لهم الفرصة يومئذ لقتاله وظهر كسيلة على رأس الجند المحارب .

ويذكر ابن الاثير ان ابا المهاجر حين رأى تحفز كسيلة ومسيره نحو المسلمين قال لعقبة : « عاجله قبل ان يقوى جمعه » ثم يقول « فزحف عقبة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه » ولقد سئل كسيلة من طرف قومه عن انحرافه عن طريق عقبة فقيل له لم تنتحى من بين يديه ونحن في خمسة آلاف ؟ فقال « انكم كل يوم في زيادة وهم في نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه فاذا طلب افريقية زحفت اليه » ولما رأى ذلك ابو المهاجر تمثل بقول ابي محجن الثقفي :

كفى حزناً ان ترتدي الخيل بالقنا   واترك مشدوداً عـلـيَّ وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد واغلقت   مصارع من دوني تصم المناديا

وحينئذ ادرك عقبة خطأه في سياسته مع العاهل البربري كسيلة ولات

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ

حين مناص ! .. فأسرع الى ابي المهاجر فأطلقه وقال له « الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وانا اغتنم الشهادة » فأنف دينار من قول عقبة واجابه بقوله : وانا ايضاً اغتنم الشهادة ! . ووقفا جنباً لجنب مستبسلين في كفاح العدو وترجل القوم وكسروا جفان سيوفهم ونزل الصبر واستلحم عقبة واصحابه ، رضي الله عنهم ، ولم يفلت منهم احد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد وفيهم ابو المهاجر (تركه) اصحابه في اعتقاله فأبلى ، رضي الله عنه ، في ذلك اليوم البلاء الحسن واجداث الصحابة رضي الله عنهم اولئك الشهداء عقبة واصحابه بمكانهم ذلك من ارض الزاب لهذا العهد (بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة - الجزائر -) وقد جعل على قبر عقبة اسنمة ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة بل هو اشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ احد مد احدهم ولا نصيفه [1] ، وكان استشهادهم رضي الله عنهم سنة ٦٣ ﻫ — ٦٨٢ م .

ويرى بعض المحققين من علماء الآثار وتحف الفن ان باب مسجد سيدي عقبة القائم اليوم بنفس الضريح هو من صنع عهد عاهل الدولة الزيرية الامير المعز بن باديس الصنهاجي ، وذلك اعتماداً منهم على ما دلت عليه قواعد هذا الفن ودلائله المتركزة على قرائن الاحوال والاستنتاجات الفنية [2] .

غلك كسيلة

بعدما انتصر كسيلة على الفاتح العربي عقبة في واقعة تهودة المشهورة ،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ و ج ٦ ص ١٤٦ و ١٤٧ والمغرب للبكري ص ٧٤ ط الجزائر ١٩١١ م والاستبصار ص ٤ ط فينا ١٨٥٢ م وانظر ابن الاثير والنويري ايضاً .

(٢) Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman - Alger 1957 — p. 151

ذهب تواً الى مركز القيادة العربية وعاصمة الاسلام الجديدة بافريقية : القيروان ، وكان بها يومئذ زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة ؛ فاعتزم هذا اولاً على المقاومة ثم عدل عنها نزولاً عند رأي الجماعة وتدبير اولى الشورى ؛ فانتقل منها سنة ٦٥ هـ – ٦٨٤ م مرتحلاً الى برقة . وترك افريقية ناراً تلظى ، ففشت الردة وكثرت المنازعات والمشاغبات السياسية وبقي الامر على ذلك الى اتمام الفتح على عهد حسان ابن النعمان .

وبخروج زهير من القيروان خرجت افريقية عن ايدي المسلمين ووقعت بيد كسيلة البربري النصراني ، فلبث فيها ملكاً طيلة هذه الفترة التي بين استشهاد عقبة وعودة زهير بن قيس البلوى ، اي مدة اربع سنوات ، مما دعا العرب الى فتحها من جديد والزحف اليها سنة ٦٩ هـ – ٦٨٨ م .

أمراء افريقية وحكامها

	تاريخ التولية
عمرو بن العاص	٢٢ هـ — ٦٤٣ م
عبدالله بن سعد بن ابي سرح	٢٧ هـ — ٦٤٨ م
معاوية بن خديج الكندي	٤٥ هـ — ٦٦٥ م
عقبة بن نافع الفهري	٤٩ هـ — ٦٧٠ م
ابو المهاجر دينار	٥٥ هـ — ٦٧٥ م
عقبة بن نافع (للمرة الثانية)	٦٢ هـ — ٦٨٢ م

الخلفاء

	تاريخ الولاية	
عمر بن الخطاب	١٣ – ٢٣ هـ	٦٣٤ – ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٢٣ – ٣٥ هـ	٦٤٤ – ٦٥٦ م
علي بن ابي طالب	٣٥ – ٤٠ هـ	٦٥٦ – ٦٦١ م
معاوية بن ابي سفيان	٤٠ – ٦٠ هـ	٦٦١ – ٦٨٠ م
يزيد بن معاوية	٦٠ – ٦٣ هـ	٦٨٠ – ٦٨٣ م
معاوية الثاني	٦٣ – ٦٣ هـ	٦٨٣ – ٦٨٣ م

جدول تاريخي

٢١ ـ ٦٣ هـ

٦٤٢ ـ ٦٨٢ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفتح الاسلامي
٢١ هـ = ٦٤٢ م	طليعة عقبة بن نافع الفهري بافريقية ، في شهر ذي القعدة ـ سبتمبر .
٢٢ هـ = ٦٤٣ م	مسير عمرو بن العاص الى برقة وفتحها وفتح فزان .
٢٣ هـ «	فتح طرابلس وصبرة ـ بعث ودان ـ عود عمرو من افريقية .
٢٧ هـ = ٦٤٧ م	حملة عبدالله بن سعد بن ابي سرح على افريقية .
٢٨ هـ «	موقعة سبيطلة .
٤١ هـ = ٦٦٣ م	بعث عقبة التمهيدي الى الصحراء .
٤٥ هـ = ٦٦٥ م	حملة معاوية بن حديج على افريقية .
٤٩ هـ = ٧٦٩ م	حملة عقبة بن نافع الاولى على افريقية .
٥٠ هـ = ٦٧٠ م	اختطاط القيروان .
٥٥ هـ = ٦٧٤ م	ولاية ابي المهاجر دينار على افريقية وفتح المغرب الاوسط : الجزائر .
٥٩ هـ = ٦٧٨ م	حصار ابي المهاجر لقرطاجنة .
٦٢ هـ = ٦٨٢ م	بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية ، وحملته الكبرى على الشمال الافريقي كله .
٦٣ هـ «	موقعة تهودة واستشهاد عقبة ـ انتصاب كسيلة على عرش القيروان .

مُواصَلة الفَتْح

حملة زهير بن قيس البلوي

اذا كان اولو الامر في الدولة الاسلامية مخيرين فيما مضى بين ان يواصلوا الفتوح او ينصرفوا عنها ، واذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت الى الآن رهناً برغبة الخليفة او الحاكم عامل مصر ، فقد اصبحت اعادة ما كان قد تم فتحه الى الطاعة ، واتمام فتح بقية البلاد كما قال الاستاذ حسين مونس : ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم بل للمغرب واهله كذلك ؛ فلقد ظل رجال الامبراطورية البيزنطية بعد استشهاد عقبة يحتلون الولاية القنصلية احتلالاً قوياً والشريط الساحلي من الولاية الداخلية والجزء الاكبر من نوميديا ، وظل الروم على اتصال بالملك البربري كسيلة وقد عاد اليهم نشاطه لاستعادة مملكتهم بهذه البلاد فتنبه لذلك كله الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ورغم ما كان يحيط به في الشرط من ثورة ابن الزبير واضطرابات الشيعة فلقد امر بتولية زهير بن قيس البلوي اميراً على افريقية ، سنة ٦٩ هـ – ٦٨٨ م وبعث اليه بأربعة آلاف جندي عربي انضمت الى جيوش زهير التي تبلغ الالفين من البربر ؛ وكان زهير بعد منصرفه من القيروان مقيماً ببرقة فسار على طريق الساحل حتى افضى الى جوار القيروان وعسكر بجوارها ؛ وما كاد كسيلة يتصل بخبر حملة زهير هذه حتى جمع اليه قومه وحشد البربر والروم واحضر اشراف اصحابه وقال : « قد رايت

ان ارحل (من القيروان) الى ممش[1] فانزلها فان بالقيروان خلقا كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قاتلنا زهيراً ان يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فاذا نزلنا ممش امناهم وقاتلنا زهيراً فان ظفرنا بهم تبعناهم الى طرابلس وقطعنا اثرهم من افريقية وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه الى ذلك ورحل الى « ممش » وخرج زهير زاحفاً بجنوده الى ممش ، فكانت هناك المعركة الحاسمة التي انجلت عن قتل كسيلة في اصحابه وفرار من بقي منهم معتصماً بالجبال فادركهم جيش العرب فقتلوهم ، وبعدما جال زهير في ارجاء اعمال القيروان ورأى ان مهمته قد انتهت بأخذ الثأر من قاتل عقبة وتخليص المسلمين من عدوهم ولى مسرعاً الى برقة قائلاً : اني ما قدمت الا للجهاد وأخاف على نفسي ان تميل بي الى الدنيا فأهلك . ولست ارضى بالدنيا لاجل ملكها ورغد عيشها ؛ وتنازل عن ولايته عن طواعية من نفسه ولكن الروم اغتنموا خلو البلاد من امير وتوغل المسلمين في النواحي الغربية بجهات ملوية فبادروا الى استمداد قيصر القسطنطينية فأمدهم بأسطول ضخم عرجوا به على برقة فأبصرهم زهير هنالك بأيديهم الاسرى من المسلمين ، فأقام على محاربتهم حتى استشهد هو واصحابه في حومة الوغى رحمهم الله .

حملة حسان بن النعمان

كانت مقامة زهير بافريقية متجهة في الغالب الى ناحية بربر الشمال ، وهم أقوى عناصر المقاومة يومئذ ، وهم الذين اسقطوا عقبة في الميدان ، ولكنه مع ذلك اغفل ناحية الروم ، وهم عنصر المقاومة الثاني ، فلم يحفل لهم لان ريحهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ولم يكن يتوقع ان يستيقظ الروم مرة اخرى كما قال حسين مؤنس ويعودوا الى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التي استشهد فيها ببرقة ، لهذا كان مقتله

(١) ممش او ممس Mamma مدينة بيزنطية حصينة قديمة تقع بجنوب القيروان كانت من محارس الرباط الثاني الكبرى

متبهاً خلفه من بعده الى انه لا يتم هذا الفتح الا اذا عمل على استئصال العنصر البيزنطي من البلاد ومن هنا كان على الفاتح الجديد ان يتوجه بهمته نحو الروم .

يذكر المؤرخون من العرب لحلة حسان هذه عدة تواريخ فهم مختلفون فيها ما بين سنة ٧٣ الى سنة ٧٩ هـ على ان الراجح من تلك الروايات كلها هو سنة ٧٦ هـ ٦٩٥ م حسبا يؤيد ذلك مؤرخو الروم ايضاً فهم متفقون على ان حسان هاجم قرطاجنة هجومه الاول في هذه السنة .

سار حسان مسرعاً الى افريقية بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان وكان عدد جيشه اربعين الفاً وهو اعظم عدد عرفته افريقية لجيش العرب منذ ابتداء الفتح ، ولم يشهد الافارقة جيشاً اسلامياً عظيماً قبل هذا ، فاجتاز برقة وطرابلس وهناك وجد نفراً من المسلمين — ما بين عرب وبربر — فأخذهم معه وسار اولاً الى القيروان ومنها حمل على قرطاجنة اذ لم تزل يومئذ بيد الروم لم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية حيث كانت الامداد تأتيها بسرعة ، فحاصرها حسان مرتين فاستغاث الروم بملك اسبانيا القوطي [1] الذي ازعجه اقتراب العرب من بلاده ، فرجع اليهم حسان للمرة الثالثة فقضى عليهم القضاء الاخير وامر بهدم المدينة وتخريبها حتى لا يبقى للروم ولا للبربر مطمع في التستر بجدرانها وحصونها ، وبذلك قضى على آخر معقل للروم بهذه البلاد ثم عاد الى القيروان ، وانطلق الروم على وجوههم ملتجئين مشردين في البلاد فدخلوا بونة — من القطر الجزائري — وغيرها مما وراء البحر كصقلية وسردانيا والاندلس ...

يوم البـــلاء ! ...

اطلق المؤرخون هذا الوصف على ذلك اليوم الذي التقى فيه حسان

---

(١) القوط هم قوم من الشعوب البربرية الجرمانية التي هبطت من شمال اوروبا في اوائل القرن الخامس الميلادي فقوضت صرح الامبراطورية الرومانية وكان من نصيبها اسبانيا .

بالـكاهنة وما كان اطلاق . المؤرخين ذلك من تلقاء انفسهم ، كلا ، وانما هي تسمية اتصلت بهذا اليوم منذ جريان تلك الحوادث الهـائلة فيه : حوادث الكاهنة وحسان ، وذلك – لا شك – لهول الموقف وما لحق الناس يومئذ من الفزع الاكبر ! ...

ما كادت الكاهنة تتحقق من اتصال العرب بالجزائر ، وما كادت تتسامع بسير حسان اليها حتى رحلت مـن الجبل – الاوراس – في عدد لا يحصى من قومها جراوة ، وجراوة هذه هي احدى قبائل البتر الحضر المقيمين في الاوراس ، فحطت رحالها عند باغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح الاوراس قرب خنشلة ، تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وهي لا شك تقصد من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلية في الاوراس لكي تستمد منها العون او تطلب النجاة فيها اذا دارت الدائرة عليها ، وكان لمجرد وصولها الى باغاية ان امرت بهدم اسوارها وحصونها خشية من تحصن العرب بها ، ولو انها استبقتها لقومها لكان اولى بها في سياستها الحربية من ذلك التحطيم ، فقد ظهر منها بذلك انها لا تحسن الخطط الحربية ، ثم سارت من هنالك الى مدينة (سكتانة) (مسكيانة) على مرحلة من باغاية ومجانة بعمالة قسنطينة .

وسار حسان من القيروان حتى دخل تبسة ومنها اتجه نحو الشمال الشرقي في واد كثير النهيرات والاخوار والزروع حتى ادرك وادي نيني وهو الذي سماه ابن عذارى بوادي سكتانة ، ويسميه ابن خلدون مسكيانة ، اي بين عين البيضاء وتبسة . ويقول ياقوت ان نيني واد شهير في طرف افريقية ، وهناك عسكر حسان ، وجعل ينتظر الكاهنة ، وكانت المعركة خسارة على العرب وهم بعد مجهودون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها فانهزموا انهزاماً شنيعاً واسرت منهم الكاهنة ثمانين رجلاً ، ثم اطلقتهم الا واحداً خالد بن يزيد القيسي وقيل العبسي فتبنته لما رأته عليه من الجمال والشجاعة ، ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراس بل تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت ادراجها .

حسان ببرقة

تقهقر حسان الى برقة ، وبنى هناك قصوراً سميت بقصور حسان ، ومنها كتب الى الخليفة يعرض حاله عليه ويبسط له ما حدث ، ومما جاء في رسالته هذه قوله : ان امم الغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية ، كلما بدت امة خلفتها امم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم ... فعاد اليه الجواب من امير المؤمنين بأمره بالاقامة حيث وافاه الجواب . فذلك ما حمل حسان على المكث يومئذ ببرقة ثلاث سنوات وبضع شهور » وملكت الكاهنة افريقية كلها واساءت السيرة في قومها وعسفتهم وظلمتهم » .

الكاهنة في تحطيم وتخريب البلاد

يبدو أن الكاهنة لم تدرك تطور سياسة الفتح بعد مقتل عقبة وبعد قيام مدينة القيروان ، فانها كانت ترى ان العرب لا يزالون يريدون من الفتوح الا امراً واحداً : الاموال والغنائم والاسلاب فقط ، وقد فاتها انهم اليوم غيرهم بالامس وان خطتهم السياسية في الفتح تغيرت منذ انشأ عقبة القيروان وسقط بنفسه شهيداً في الميدان ، فانهم اصبحوا لا يريدون من مغازيهم الا استكمال الفتح بادخال الاسلام على اهل البلاد ، ولكن الكاهنة لم تشعر بذلك كله رغم كهانتها ! ... فلما رأت ابطاء العرب عنها قالت للبربر ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي ، فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون وذلك ما يسمى بسياسة الارض المحترقة La Terre Brulée مثل ما فعلت روسيا في حوادث نابوليون (١٨١٢ م) ... وقد كانت افريقية على ما يروى ظلًا واحداً من طرابلس الى طنجة مسيرة الفي ميل في مثله ، كلها مدائن منتظمة وقرى متصلة حتى انه لم يكن في اقليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً منها ؟ ...

اتمام الفتح

لقد اثار صنيع الكاهنة هذا احقاد الكثيرين من اهل البلاد وأدركوا انها سياسة خرقاء ، فمنهم من أظهر الاعتراض فأرهقته ، ومنهم من سالم على مضض ، وعم الاستياء البلاد ، الامر الذي بلغ ببعضهم ان سعى في استقدام حسان منتصراً له ، وجاءت الحامية من دار الخلافة سنة ٨١ هـ — ٧٠٠ م فكاتب حسان يومئذ خالد بن يزيد في ذلك ، فأجابه في ظهر الكتاب : « ان البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطو المراحل وجد في المسير » . مما يدل على ان خالداً بقي عند الكاهنة عيناً على البربر ويومئذ سار حسان قاصداً معقل الكاهنة بالاوراس ، فلما قرب من البلاد لقيه جمع من أهلها يستغيثون به ضد الكاهنة فقدموا اليه الاموال والطاعة ، فسره ذلك ، وكانت له هذه أول خطوة في تحقق النجاح من غزوته .

ولما رأت الكاهنة ما أصبح عليه أهل البلاد من النفور عنها والاقبال على الفاتحين العرب ، تحققت الخيبة وتوقعت السقوط بيد حسان فاستنكفت ان تسلم نفسها ووجدت ذلك عاراً عليها فاستأمنت لولديها من حسان بواسطة خالد وأخذت هي في اعداد ملجأ لها بجبل اوراس ، وهناك كانت المقاتلة بين الفريقين في جيوش عظيمة من كلا الطرفين ، فانتصرت يومئذ الجيوش العربية وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بسر تتحصن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالارض فمضت تريد جبال اوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، ونزل الموضع الذي قتلت فيه ، ويقول ابن خلدون : انها قتلت بمكان البئر المعروف بها لهذا العهد بجبل اوراس واستأمن اليه البربر على الاسلام والطاعة ، وعلى ان يكون منهم اثنا عشر الفاً مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم ، وعقد للاكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل اوراس [1] وكان الفراغ من وقائع الكاهنة في رمضان سنة ٨٢ هـ (اكتوبر ٧٠١ م) .

---

(١) معالم الايمان ج ١ ص ٦٠ — ٦١ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ .

وكثيراً ما رأينا علماء الغرب المفكرين وكبار الكتاب منهم يأسفون جد الاسف على عدم متابعة الفتح الاسلامي وعدم تيسره العرب في اوروبا، نظراً لما جاء به هؤلاء الفاتحون من الرقي والحضارة، فهذا الدكتور غوستاف لوبون يقول: «... يروى ان موسى بن نصير فكر بعد فتح اسبانية في العودة الى بلاد الغول - فرنسا - والمانيا وفي الاستيلاء على القسطنطينية وفي اخضاع العالم القديم لاحكام القرآن، وانه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى امر الخليفة اياه بان يعود الى دمشق، فلو وفق موسى بن نصير لذلك لجعل اوروبا مسلمة ولحقق للامم المتمدنة وحدتها الدينية ولانقذ على ما يحتمل اوروبا من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه اسبانيا بفضل العرب». وانصت الى «كلود فارير» الاديب والكاتب الفرنسي الكبير وهو احد اعضاء مجمع الاكاديمي بباريس كيف لم يخف حزنه وجزعه الشديد من الهزيمة التي اصابت العرب في وقعة «بواتيي» بارض فرنسا، وهي الوقعة المشهورة ببلاط الشهداء، فاسمع اليه اذ يقول: «في سنة ٧٣٢ هـ - ١١١٤ م حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى، وكان منها ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية ان لم نقل اكثر - طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على عهد النهضة (لارونيصانص)... هذه الفاجعة هي التي اريد ان امقت حتى ذكرها، واعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بلدة (بواتيي) - قريباً من بلدة (تور) في مقاطعة (شامبانيا) اولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارلونجي (شارل مارتل) على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة فانهزموا راجعين ادراجهم، في ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء... ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو انقذها الاسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح؟... وهكذا نجد مثله الاديب (هانري شامبوت) مدير مجلة (ريفو باري لميتي) يكشف لنا عن ندامة التاريخ وامتعاضه الشديد لهذه النتيجة الحاصلة

للعرب في اوروبا في هذه الوقعة فيقول : « ولولا انتصار جيش شارل مارتل المسيحي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما اصيبت بفضائعها ... ولولا ذلك لما تاخر سير المدنية ثمانية قرون [1] ! ...

المجتمع الجزائري

كان سكان الجزائر كغيرهم من بقية سكان اقطار المغرب — على عهد الفتح الاسلامي — ثلاث طوائف : البربر ، والبيزنطيون ، والافارقة ، فالبربر سكان البلاد الاصليون والغالبية العظمى بها ، وهم ينقسمون بصفة عامة الى قسمين كبيرين : الاول البربر المستقرون وهم سكان السهول الساحلية وبعض الاراضي الصالحة للزراعة في الداخل المتسمون بالبربر البرانس ، وقد اطلق عليهم الرومان اسم الموريطانيين كما اطلقوا على اسم بلادهم موريطانيا القيصرية — اي القطر الجزائري — ، والقسم الثاني البربر الراحل ، وهم الذين يسكنون البوادي والجبال ويعيشون عيشة قريبة مما كان عليه العرب الجاهليون ويسمون البربر البتر ، وهم الذين اطلق عليهم الرومان اسم النوميديين اي سكان نوميديا وهي جبال الاطلس الوسطى . والطائفة الثانية وهم البيزنطيون وكانوا يومئذ حكام البلاد وسادتها امتد سلطانهم على افريقية — تونس — وربما شمل بعض اجزاء من سواحل المغربين — الاوسط والاقصى — وكان عددهم قليلا ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من التحضر والمدنية ، وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان مركزهم الرئيسي ميناء قرطاجنة ، اما الطائفة الثالثة وهم الافارقة وهم جماعات من اهل البلاد خالطت البيزنطيين والرومان قبلهم واخذت حضارتهم ولغتهم ودينهم وربما تزاوجت معهم ، وكانوا قلة في البلاد ولكنهم كانوا

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٢٢ وقصة الادب في الاندلس لمحمد عبد منعم خفاجي ج ١٠ ص ١١ ـ ٢٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م

يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشؤون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم في تاريخ البلاد قبل الاسلام[1] .

تبكير البربر بالاسلام والعروبة

يبدو من دراسة تاريخ الفتح العربي للمغرب ان هناك طوائف وقبائل كثيرة من البربر أقبلت على اعتناق الاسلام من أول وهلة بدون عناء كبير ولا مشقة ، وان أغلب هذه القبائل هي من فصيلة البتر كقبيلة زناتة وبرغواطه ونفوسة ولواته وهوارة الخ ... وأكثرهم من أهل الجنوب ، وذلك لشدة الشبه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية ، سواء ذلك في حياتهم البسيطة الساذجة أم في أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم السياسية ، وقد لاحظ البربر في المسلمين الفاتحين الاستقامة والعدل والمساواة ، فرأوا فيهم المنقذ الوحيد مما هم فيه من الميز العنصري والجور السياسي والاضطهاد الديني والفوضى الشاملة ، ومصداق ذلك ما لقيه العرب في البربر من النصرة والنجدة في حوادث كسيلة بتهودة والكاهنة بالاوراس ، فان الذي حمى الاسرى المسلمين عند استشهاد عقبة ، هو ابن مصاد صاحب قفصة والذي تقدم في طليعة جيش حسان الذي أرسله على الكاهنة هو هلال بن ثروال اللواتي مع محمد بن أبي بكر في جماعة من البتر ؛ والذي وفد على الخليفة عثمان بن عفان وأسلم على يديه منذ الساعة الاولى هو رئيس مغراوة وسائر زناتة : الملك صولات بن وزمار ، واسلام كسيلة ملك أوروبة بجبال الاوراس لاول ملاقاته مع أبي المهاجر ، وكاد الاسلام يومئذ يعم افريقية أجمع لولا تلك الاساءة التي أساءها عقبة لكسيلة التي انتجت قتله ووقف معها سير الفتح العربي اياماً ... واسلام ولدي الكاهنة الخ ... وضرورة ان اسلام هؤلاء الرؤساء والملوك : ابن مصاد ، وصولات ، وكسيلة تبعه اسلام قومهم معهم اذ الناس على دين ملوكهم ؛ وللبلاذري رواية في ذلك تؤيد لنا

(١) تعاليق حسين مؤنس على تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٩ ط القاهرة ١٩٥٨ م

هذا التبكير في البربر للاسلام منذ ايام الفتح الاولى ؛ قال : ان عمرو بن العاص ارسل الى عمر بن الخطاب كتاباً يعلمه فيه انه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة اسلم كلهم » (فتوح البلدان ص ٢٢٤) فكل ذلك وغيره يجعلنا على يقين من اقبال البربر على الاسلام من اول مرة ؛ وهذا لا يمنع ما رواه ابن خلدون عن محمد بن ابي زيد من ارتداد البربر عن الاسلام اثني عشرة مرة ؛ وانهم لم يستقروا على الاسلام الا في عهد موسى بن نصير وقيل بعد ، اجل قد يكون ذلك صحيحاً بالاضافة الى الفترات التي تخللت ايام الفتح والاضطرابات التي كانت تحدث اثناء ذلك مما لا يخلو منه عصر من عصور الغزوات والحروب ؛ مع خلو الوطن يومئذ من مرشد او أمير ، فكثيراً ما رأينا الغزاة الفاتحين يعودون الى اوطانهم بسرعة بدون ان يبقى في البلاد احد منهم ! ... ولا ننس بعد المسافة بين افريقية وبلاد الاسلام ؛ ولا ننكر كذلك ما كان يصيب البربر احياناً من بعض الولاة من العسف والارهاق ؛ فسواء أكان البربر أم غيرهم على هذه الحال فانهم — حتماً — يرتدون ، ولكن ذلك كله لم يؤثر في البربر من ناحية الدين ؛ بل كانت اغلب ثوراتهم سياسية اكثر منها دينية . اما المسيحية فقد تضاءل شأنها حتى كاد امرها ان يذهب . واما عن التبكير بالعروبة وتأثير العرب العظيم في البربر فاننا لا نستطيع ان نأتي ببرهان اوضح مما ظهر من معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفزي في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ للعظة والاعتبار ؛ هي خطبته امام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الاندلس[1] .

ويكشف لنا غوستاف لوبون عن اعجابه البالغ من تعرب البربر وتعريب لغتهم البربرية فيقول : « وتعريب البربرية كما تعرب البربر اتقسم مع ذلك ، فيتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل

---

(١) انظرها في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٧ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م ووفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٩٩ هـ .

الكبرى – الزواوية بالجزائر – من كلمات عربية ، فأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة اخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يكتب مثله لأية امة اخرى ، ومن هذه الامم الاغريق والرومان الذين دام سلطانهم في شمال افريقية دوام سلطان العرب من غير ان يتفق للغتهم اي اثر في اللغة البربرية »[1] .

وتوضح اسباب هذا التعرب والتعريب وتشرح السر المكتوم في ذلك مجلد الدكتور « فيليب حتي » يقول : ان سواد البربر الذين كانوا يسكنون بعيداً عن الشاطىء لم يتأثروا بالحضارة الرومانية او البيزنطية لانها حضارة غريبة عن اولئك الافريقيين الرحل ، وان الاسلام قد امتاز بطبائع اجتذاب البربر ، وان العرب وثقوا صلاتهم بأبناء عمومتهم فتحققت معجزة الاسلام في استعراب اللغة البربرية وتحويل البربر الى دين الاسلام وان دم العرب وجد مجاري بشرية « Ethnic » جديدة صالحة لتغذيته كما وجدت اللغة العربية حقلاً واسعاً للامتداد وتمكين الاسلام من قواعد جديدة تعينه على الصعود الى سيادة العالم[2] .

وكان مما عمل على تثبيت قدم العروبة في البربر ما انتشر بينهم من طوائف الجند العربي واختلاطهم بالوافدين عليهم من عرب المدينة وعرب الشام لغزو الاندلس ، وما بثه الامراء في القبائل من معلمي القرآن والفقه . فقد حكى الدباغ في معالمه عن غياث بن شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد ارخاها من خلفه[3] . فاذا علمنا ان سفيان بن وهب هذا دخل افريقية سنة ٧٨ هـ عرفنا ان الكتاتيب كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان ؛ ولا ننس

---

(١) حضارة العرب ص ٣٠٥ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م

(٢) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ص ١٣٨ – ١٤٤ ودائرة المعارف الاسلامية مادة : بربر

(٣) معالم الايمان ج ١ ص ١٢٠ ط تونس ١٣٢٠ هـ

كذلك ما كان للبعثة العلمية التي بعث بها عمر بن عبد العزيز الى افريقية من الاثر الحسن في نشر العروبة وخدمة الاسلام بين البربر. قال بيروني: احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في دياناتهم وعاداتهم واخلاقهم؛ ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفنيقيين متقاربون في اللغة، ومتحدرون في الاصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع.

وقد سار استعراب البربر قدماً خطوات جبارة وتم الاستعراب هذا فيما بعد في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بقدوم بني هلال، ولذلك فان المتوفرين على دراسة تاريخ البربر يقرون انهم ما زالت سلالتهم هي العنصر الغالب في شمال افريقية ولكنهم تغيروا تغييراً عظيماً لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم في اغلب الاحيان، فهم لم يعودوا يذكرون شيئاً عن اصلهم الحقيقي او لغتهم او عاداتهم.

ومهما كان الامر فقد لاقى العرب الامرين في فتح بلاد البربر واعترتهم في ذلك مصاعب ومشاكل عديدة لا نظير لها فيما فتحوا من سائر الاقطار، فلم يتورع البربر عن مقاتلة العرب والاستبسال في مقاومتهم ولقد استردوا استقلالهم مرات، وخاض العرب معهم معارك هائلة، ولم يقدر لهؤلاء الفاتحين تمام الانتصار والسيادة على شمال افريقية الا بعد نصف قرن من تاريخ الفتح.

النظام والادارة

قضى المغرب مدة وجيزة من الزمن تابعاً في ادارته لولاية مصر الى ان تولاه معاوية بن حديج فأصبح ولاية مستقلة ملحقة رأساً بدار الخلافة.

وفي ولاية حسان بن النعمان اختطت الخطط والتراتيب والنظم السياسية والادارية، فهو الذي دون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من اقام معهم على دين النصرانية، فكأن العرب اعتبروا الاراضي التي كانت للروم فتحت عنوة فاستحلوها واعتبروا اهلها

ومن وجدوه عليها موالي لهم يتصرفون في شؤونهم كما يريدون ؛ في حين اعتبروا الاراضي التي كانت للبربر مفتوحة صلحاً فتركوها في ايدي اصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر انفسهم احراراً لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ؛ فكان حسان يعاملهم على قاعدة المساواة التامة ليس هناك شعب حاكم وآخر محكوم فالكل امام القانون الاسلامي سواء ؛ فالاحكام تجري بينهم بالعدل والاحسان ، ويظهر ان منصب القضاء كان للخليفة وحده فهو الذي يعين القاضي كما ثبت عن عمر بن عبد العزيز فانه هو الذي اختار لقضاء افريقية عبد الله بن المغيرة بن بردة الكناني .

ولم يقتصر حسان في نظام الجندية على الجيش العربي فقط ، بل اشترك فيه البربر ايضاً ، فضم اليه منهم اثني عشر الفاً واتخذ منهم طائفة بمثابة الحرس المتنقل تتجول في اقطار المغرب لبسط الامن العام ، على انهم لا يفارقونه جميعاً في مواطن الجهاد ، وكانت لهم ارزاق ومنح غير ما يصيبونه في الحروب ؛ وكان الوالي يومئذ مكلفاً باعطاء الجند والعمال من مال الجباية وما يفيئه الله عليه من الغنائم ، وتؤكد التواريخ العربية على ان ولدي الكاهنة نالا الولاية على قومهما في ادارة حسان بعد اسلامهما ، فكان احدهما رئيساً مدنياً على قبيلة جراوة والآخر على الجيش ، وبذلك وضع حسان اساس الحكومة الاسلامية بهذه البلاد وجعل خططها الفرعية للبربر ، كما اشتغل بانشاء ميناء بحري جديد تشرف منه ولاية المغرب على البحر الابيض المتوسط فاختط مرسى تونس واستخدم الاهالي في صناعة الخشب لانشاء المراكب ، وجاء بألف عائلة مصرية تحسن الصناعات فأسكنها هنالك واسس لهم دار الصناعة بتونس فكانت هذه اول دار اسست للصناعة في الاسلام ؛ وفيها صنع بعد ذلك بأمر موسى بن نصير مائة مركب ؛ وظلت العملة الرومية رائجة بين المتعاملين في افريقية الى ان ضرب موسى بن نصير نقوده بها سنة ٩٢ هـ – ٧١٠ م وبهذا كانت السياسة الاسلامية في افريقية اساساً لهذا التطور العظيم في تاريخ هذه البلاد ، فلم تعد شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما يلي ذلك « اهال » متوحشون على درجة

يسيرة جداً من الرقي ، وانما اصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوي متحضر ينشىء الدولة ويساهم في العلم والحضارة الانسانية بنصيب مشكور [1].

رفاهية افريقية

اننا اذا نظرنا الى ما قيل عن افريقية وبلاد المغرب كلها يومئذ من انها كانت ظلًا واحداً من برقة الى طانجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة ، وما قيل ايضاً عن قرى الزاب وحده من انها كانت تبلغ ثلاثمائة وستين قرية كلها آهلة عامرة ؛ والى ما صالح عليه الولاة اهل البلاد من تلك الاموال الطائلة والقناطر المقنطرة مــن الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث [2] وما ظفر به الغزاة من عظم الغنيمة ، والى مسبى طبنة — بريكة — الذي بلغ عشرين الفاً يوم فتحها موسى بن نصير وما استصحبه معهم القادة والامراء الى الخلفاء من الهدايا والتحف النفيسة ... جزمنا بخصب هذه البلاد ورفاهيتها وسعة رزقها ...

فلقد اهدى حسان الى امير مصر وهو يومئذ عبد العزيز بن مروان مائتي جارية من ابناء ملوك الروم والبربر وجمالاً وخيلًا وامتعة ووصائف ووصفان . وذهب الى الخليفة الوليد بشيء كثير من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت فاستعظمه الوليد وعجب من امره ؛ وقد بلغ سهم الفارس يومئذ ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الفاً الخ ...

وروى مالك — الامام — عن يحيى بن سعيد عامل عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية قال :

« بعثني عمر على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم

---

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٧٨ .

(٢) يذكر انه لما اصاب عبدالله بن سعد بن ابي سرح من تلك الاموال الطائلة التي صالح عليها اهل المغرب ؛ كان هنالك من العرب من اظهر العجب والدهش من كثرة هذا المال ووفرة الغنيمة ! ... وحينئذ تقدم اليه اهلي يحمل في يده زيتونة ، يرمز بذلك الى انهم حصلوا على هذه الثروة من فلاحة الزيتون .

فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، فقد اغنى عمر بن عبد العزيز النــــاس » .

فكل هذه دلائل ناطقة على عظمة ثروة البلاد ويسارها ، وليس من التناقض ما قدمه عبد الرحمن بن حبيب للخليفة العباسي المنصور بعد ذلك من هدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب اليوم بلاد اسلامية لا سبي فيها ؛ فلعل ذلك كان في ظروف خاصة احاطت بالبلاد لقحط او جدب او لنظرة سياسية هنالك ؟ ...

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر ولاة الجزائر وزعمائها في هذا العصر زعيم مغراوة ورئيسها العظيم صولات بن وزمار بن صقلاب ، وقبيلته من اشهر القبائل البربرية العتيدة المتفرعة من زناتة ، وموطنها بشمال وانشريس ووادي شلف الى البحر ، وينتهي شرقاً الى وادي السيت قرب متيجة ، وغرباً الى البطحاء بناحية نهر مينة من عمالة الجزائر ، ومن بلادها بالجزائر : الاغواط والحضنة وريغة .

وفد هذا الرئيس الجزائري الجليل على الخليفة عثمان بن عفان واسلم على يده وقيل كانت وفادته على الخليفة صحبة عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وعقد له الخليفة على قومه وابقاه رئيساً عليهم ؛ قال ابن خلدون : فاختص صولات وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان واهل بيته من بني امية ، وكانوا خالصة لهم دون غيرهم من سائر قريش ، وذلك ما كان سبباً في مظاهرة هذه القبيلة للدعوة المروانية بالاندلس بعد ذلك ، رعياً لهذا الولاء .

استمر صولات على رئاسته الى وفاته فورثها عنه ولده حفص فكان من اعظم ملوك زناته ، ثم خلفه من بعده ابنه خزر فاشتهر ملك مغراوة على عهده وعرف بعد ذلك ملوكهم ببني خزر الى ان قضى عليهم المرابطون سنة ٤٧٣ هـ — ١٠٨٠ م . ومن مشاهير رجال صنهاجة يومئذ ميسون بن جميل بن أخت طارق بن زياد النفزاوي صاحب فتح الاندلس .

ملوك الوطن الجزائري

ستورديد ــ كسيلة

لم اقف في هذا الدور من تاريخ الجزائر على كثير من اسماء الملوك سوى اربعة : صولاة ملك مغراوة ، والكاهنة ملكة جراوة ؛ وستورديد ، وكسيلة [١] ؛ يقول ابن خلدون : وكانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، اوربة واهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة البتر وكان التقدم لعهد الفتح لاوربة هؤلاء بما كانوا اكثر عدداً واشد بأساً وقوة ، وكان اميرهم بين يدي الفتح : ستورديد ابن رومي أو زوغي ؟ ... بن بارزت بن برزيات ؛ ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة وادرك الفتح الاسلامي ومات سنة احدى وسبعين هجرية [٢] وولي عليهم كسيلة بن لمرم وفي الاستبصار : أقدم اولمزم ، اولزم ؟ ... الاوربي فكان اميراً على

(١) ضبطه ابن الاثير بفتح الكاف وكسر السين المهملة ، انظر اسد الغابة ج ٣ ص ٣٢١ ط القاهرة ١٢٨٠ هـ .

(٢) يذهب فورناي Fournel الى ان ابن خلدون اراد ان يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ الناسخ ورسمه ٧١ هـ ، ورجحه حسين مؤنس فقال : وهذا تعليل مقبول لان الحوادث تستقيم به .

البرانس كلهم[1] وكلاهما كان على دين النصرانية فأسلما لاول الفتح ثم ارتدا عند ولاية ابي المهاجر واجتمع اليهما البرانس ، وزحف اليهم ابو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فاسلم واستبقاه ثم جاء عقبة بعد ابي المهاجر فنكبه غيضاً على صحابته لابي المهاجر ، ثم استفتح حصون الفرنجة ... وقفل راجعاً وكسيلة اثناء هذا كله في اعتقاله يجمعه معه في عسكره سائر غزواته ، فلما قفل من السوس سرح العساكر الى القيروان حتى بقي في خف من الجنود ، وتراسل كسيلة وقومه فارسلوا له شهودا او انتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك افريقية خمس سنين ونزل القيروان واعطى الامان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب اهل الذراري والاثقال وعظم سلطانه على البربر[2] .

وذهب ماسكري الى ان كسيلة كان واسع الملك ، وان ملكه امتد الى الاوراس والى ما يليها غرباً ؛ باضافة الجزء الجنوبي من قسنطينة والجانب الاكبر من تونس ومعلوم ان مركز قوته الحربية ايام الفتح كان المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ؛ وكانت وفاته في واقعة ممس Memsa — جنوب القيروان قتله زهير بن قيس البلوى سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م ? ...

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ — ١٠٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

	تاريخ التولية
زهير بن قيس البلوى	٦٩ هـ – ٦٨٨ م
حسان بن النعمان	٧٣ هـ – ٦٩٢ م
موسى بن نصير [١]	٨٦ هـ – ٧٠٥ م

(١) وهو الذي تم على يده فتح بلاد هوارة وكتامة وصنهاجة ومجانة من بلاد الجزائر وغيرها من بلاد المغرب والاندلس .

الخلفاء الامويون

	تاريخ التولية
مروان بن الحكم	٦٤ ﻫ — ٦٧٣ م
عبد الملك بن مروان	٦٥ ﻫ — ٦٨٥ م
الوليد بن عبد الملك	٨٦ ﻫ — ٧٠٥ م

من مشاهير الجزائر

الكاهنة

٨٢ هـ — ٧٠١ م

هي ملكة بربرية اسمها دهيا بنت ثابت بن تيفان ، كانت زوجاً لرجل من رؤساء قبيلة جراوة احدى قبائل البتر العظيمة المقيمة بجبل « اوراس » جنوب قسنطينة ، وينتهي نسب هذه الملكة الى جد هذه القبيلة المسماة باسمه « جراو » وقد كانت الكثرة والرئاسة في هذا القبيل قبل الاسلام . كانت هذه المرأة البربرية الزعيمة مقيمة بعاصمتها « تيسدروس » قرب خنشلة ولها ابنان احدهما بربري والآخر يوناني كما حدثنا بذلك ابن عذاري [١] ، وكانت تدعي الاطلاع على أحوال الغيب والتكهن للناس فعرفت بذلك في قومها واشتهرت يومئذ بلقب « الكاهنة » ويقال انه كان لها صنم عظيم من الخشب يحمل بين يديها على جمل ، وهناك من المؤرخين من يقول انها كانت على دين اليهودية ؟ ... واستبدت بالملك بعد زوجها فتملكت كما يقول ابن خلدون خمساً وعشرين سنة ، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة ، ويقال ان قتل عقبة كان بايعاز وتدبير منها . وهي التي هزمت حسان بن النعمان في غزواته الاولى فتقهقر الى برقة ، وأسرت طائفة من جنده فتبنت منهم خالد بن يزيد القيسي وأطلقت البقية وحملت يومئذ

---

(١) انظر البيان المغرب ج ١ ص ٢١

على تخريب افريقية وهدم البلاد والحصون تثبيطاً لعزائم العرب عن الفتح حتى لا يجدون ملجأ او مدخلاً ، لعلهم اليه يرجعون ؟ ... ولكن العرب استمروا رابضين بطرابلس ينتظرون المدد من دار الخلافة حتى جاءتهم النجدة فحملوا على البلاد فاقتحموها واشتد الخناق يومئذ على الكاهنة وانفت ان تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت ان يأسرها العرب فيحملونها معهم سبية الى دمشق ففضلت ان تستأمن لولديها عند حسان وان تظل هي – ومن بقي على الولاء لها – على حرب العرب فاستقدمت خالد بن يزيد وقالت له انا كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم فأوصيك بأخويك هذين خيراً فقال خالد : اني أخاف ان كان ما تقولين حقاً ! ان لا يستبقيا ؟ ... قالت بلى : ويكون احدهما عند العرب أعظم شأناً من اليوم ، فانطلق فخذ لهما أماناً ، وانطلق خالد الى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أماناً ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم الاكبر من ابني الكاهنة وقربه [1] . وتقول المصادر انها اطلعت بطريق الكهانة على انها مقتولة فأخبرت خالداً بذلك ، فقال لها : اذاً فارحلي وخلي البلاد ! ... فقالت : وكيف أفر وأنا ملكة ؟ ... والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومي عاراً الى آخر الدهر . ولا عجب في هذا الموقف الحازم الذي أخذته الكاهنة على نفسها وظهرت به في ميدان الكفاح والبطولة والدفاع عن الوطن فانها الملكة وهي التي تعرف حق المعرفة تاريخ المرأة البربرية ومواقفها الحاسمة في التاريخ ، وقد رأينا ما أحرزته البطلة البربرية « سيرة » من الانتصار حينا وقفت في وجه الكونت « تيدوس » الروماني بعد وفاة أخيها « فيرموس » ملك موريطانيا القيصرية وما باء به هذا القائد الروماني من الخيبة والهزيمة الشنعاء التي حصلت له بالقرب من ناحية « أورزيا » سور الغزلان سنة ٣٧٥ م . وهكذا استمرت هذه الملكة الصنديدة الجزائرية على كفاحها حتى دخل عليها حسان الحصن ففرت أمامه الى حيث أدركها حسان

---

(١) راجع فتوح افريقية ص ٢٠١ والبيان المغرب ج ١ ص ٢٢ و ٢٣

فقتلها بمكان السر المعروف بجبل اوراس عند بئر المطر التي سميت بعد ذلك ببئر الكاهنة ويقال انها قتلت بطبرقة ؟... بحدود الجزائر الشمالية الشرقية ؛ وذلك في رمضان سنة ٨٢ هـ - ٧٠١ م وبموتها تم فتح العرب المغرب - وخاصة الجزائر - وقد كان فتحاً لا كالفتوح السياسية والانتصارات الحربية العامة بل هو فتح من فتوح الحضارة الشرقية بما فيها من مادة وروح ؛ ذلك لان الاسلام ليس هو مجموعة من طقوس أو عبادات وقرب يتقرب بها الانسان الى مولاه فحسب انما هو فوق ذلك مجموع من قواعد ونظم سياسية واجتماعية يستطيع الناس ان يعيشوا بمقتضاها ؛ فالمؤمن لا يجد في الاسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل وسبيلاً العيش في الدنيا سيداً أيضاً .

وفي تحقيق ما ذهبنا اليه من هذا المعنى يقرر الدكتور غوستاف لوبون ويقول : « ... فاذا حدث ان اعتنق بعض اقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ... فالحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم[1] » . ويقول المؤرخ (فون جوت شميت) : ان الاقبال الهام على اعتناق دين جديد على اثر فتح أجنبي أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الاسلام يقف وحيداً في هذا الفوز .

---

(١) حضارة العرب ص ١٥

جـدول تاريخي

٦٩ ـ ٨٢ هـ

٦٨٨ ـ ٧٠١ م

تاريخ الحوادث	أهم الاحداث بالجزائر على عهد الفتح الاسلامي
٦٥ هـ = ٦٨٤ م	انسحاب زهير بن قيس الى برقة واخلاء افريقية .
٦٩ هـ = ٦٨٨ م	انتصار زهير بن قيس في حملته على كسيلة وقتله .
٧٠ هـ = ٦٨٩ م	وقعة ممس بجنوب القيروان .
٧١ هـ = ٦٩٠ م	مقتل زهير في برقة .
٧٦ هـ = ٦٩٥ م	مسير حسان بن النعمان الى افريقية وانتصاره على الروم بقرطاجنة .
٧٧ هـ = ٦٩٦ م	واقعة نيني ـ وادي مسكيانة ـ وارتداد حسان عن افريقية .
٨٠ هـ = ٦٩٩ م	الكاهنة تخرب افريقية .
٨١ هـ = ٧٠٠ م	مسير حسان الثاني الى افريقية .
٨٢ هـ = ٧٠١ م	انتصار حسان على الكاهنة وقتلها (رمضان ـ اكتوبر) .

الخوارج بأفريقية

١٢٢ ـــ ١٥٧ هـ

٧٤٠ ـــ ٧٧٤ م

الخوارج في التاريخ اسم لطائفة او طوائف كانت بايعت علي بن ابي طالب بالخلافة ثم خرجت عنه ونقضت بيعتها في قضية التحكيم المشهورة ؛ وهي في مبايعتها هذه كانت ترمي الى غرضين : فمنها من بايع الامام لكونه يراه احق بذلك من غيره يومئذ ، ومنهم من تقدم الى ذلك اعتزازاً به وبغضاً للعثمانيين الامويين ؛ وكثيراً ما سمع هذا الفريق الثاني من الخليفة الامين منصباً على قتلة عثمان وحزبه لهم ؛ فكان ذلك من بواعث الحذر عند هؤلاء خشية اتفاق الكلمة بين الحزبين فعملوا جهدهم على توسيع شقة الخلاف بين معاوية وعلي، رضي الله عنهما ، وكان ذلك سبباً في موقعة الجمل المشهورة (١٠ جمادى الثانية ٣٦ هـ ـــ ديسامبر ٦٥٦ م) وهم الذين ايضاً حملوا علياً على قبول التحكيم والنزول عنده (الجمعة ١٠ صفر ٣٧ هـ ٢٩ جوليط ٦٥٧ م) ثم عملوا على نقض ذلك وحاولوا علياً في رفضه ودعوه الى اعلان ذلك بنفسه فامتنع كرم الله وجهه من مجاراتهم على هذا التلاعب الذي لم يظهر له وجه معقول ، وحينئذ سخط عليه القوم واعلنوا خروجهم عن طاعته والانعزال عن الجماعة ، ثم عاد فريق منهم الى الطاعة واصر آخرون على الخلاف والمعصية ، وغادر الفريق الثاني الكوفة وهي يومئذ مركز الخلافة العلوية وسكن بظاهر قرية قريبة منها تعرف بحروراء ؛ وكل ذلك وعلي يعمل على رفع الخلاف وجمع الشمل فبعث

اليهم رسله بذلك فقتلوهم وتجاهروا بالعصيان ، وبعدما انذر الخليفة واعذر حمل على اهل النهروان فأتى عليهم قتلاً ؛ ويومئذ تكونت بذرة الخارجية في الاسلام واصبحت بعد ذلك فكرة مستقلة ومبدأ سياسياً خاصاً ، ثم تطورت الى عقيدة دينية وطريقة متبعة ، ثم كانت مذهباً مدوناً باصوله وفروعه عقيدة وفقها ؛ ثم نشأت عنه فرق كثيرة بلغت الى حد العشرين فرقة وكلها تنطوي تحت اسم الخوارج ؛ والى اتجاه هؤلاء الخوارج وتعاليمهم السياسية يرجع السبب الاكبر في ثورات البربر التي عمت المغرب العربي يومئذ او كادت .

الحركات الخارجية بالمغرب

كانت منازعات الاحزاب السياسية بالمشرق على اشدها طوال العصر الاموي ، وعصفت برجال الدولة تارات العصبية ، فكثر الاضطهاد وتعددت الخصومات ، وكان للامويين طائفة عظيمة من الاعداء السياسيين لا يكفون عن الشغب ولا يكف الامويون عن تعقبهم بالاذى ، فكثر فرار هؤلاء من البلاد والتماسهم الامان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحي التي كثر التماس هؤلاء الفارين للامان فيها لاتساعها وتشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوي على السخط على العمال لما يصيبها من الاذى على ايديهم فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لانهم واياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجاؤهم الى قبائله [1] .

ولقد حاول البربر التماس سناد لهم يتقون به السلطة العربية فلم يجدوا لهم خيراً من الاخذ بدعوة الخوارج التي ينص دستورها على عدم اشتراط القرشية في الخلافة ، وبقوا ينتظرون الفرصة لذلك حتى سنحت لهم على عهد امير افريقية عبد الله بن الحبحاب الذي كان وقتئذ مهتماً ومشتغلاً بتجهيز جيش الفتح الى صقلية ؛ فاندفع البربر يومئذ نحو تكوين

---

(١) انظر فتح العرب للمغرب ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

دولة لهم مستقلة عن الحكومة المركزية ، فانتحلوا مذهب الصفرية والاباضية [1] من الخوارج وترقبوا خروج الجيش العربي وسنوح الفرصة فاتفق يوماً ان شخص الجند الى مدينة ضبنه عاصمة الزاب (غربي اوراس) ، فنهض البربر في نحو الاربعين الفاً من الصفرية وخمسة وعشرين الفاً من الاباضية ملتفين حول رئيسهم ميسرة المطغري [2] الصفري الخارجي ، واوقدوا ثوراتهم بالمغرب الاقصى فاحتلوا طنجة وعزلوا عنها عاملها يومئذ عمر بن عبدالله المرادي وبايعوا بها صاحبهم ميسرة خليفة سنة ١٢٢ هـ — ٧٤٠ م فكان هذا اول من دعي باسم الخلافة بالمغرب من البربر ثم انقلبوا عليه فقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ؛ فقام هذا بشأنهم وزحف بهم فيما بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وجاءت عساكر الامير ابن الحبحاب لرد هجمات البربر والتقى الجمعان بوادي شلف فانهزم فيها الجند العربي وقتل قائده يومئذ خالد بن حبيب وهي الواقعة المشهورة بواقعة الاشراف (١١٤ هـ — ٧٣٢ م) .

وفي سنة ١٢٣ هـ — ٧٤١ م تذمرت الرعية من عسف الامير كلثوم بن عياض حيث كان يعاملها معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بجميع الواجبات ، مؤتسياً في ذلك بسابقه :

---

(١) كلاهما من اشهر واكبر فرق الخوارج الستة ، فالصفرية هم اتباع زياد بن الاصفر ، وقيل يعقوب بن ليقس الصفوي نسبة الى صناعة الصفر — النحاس — ، وقيل هم اتباع عبدالله بن صفار السعدي وهو احد بني مقاعس الحارث بن عمرو ، وقيل عبدالله بن صفار من بني صويمر بن مقاعس ؛ وزعم بعضهم ان الصفرية بكسر الصاد؟ ... ويقال لهم الزيادية والنكارية . والاباضية هم اتباع عبدالله بن اباض — بكسر الهمزة — المقاعسي التميمي العربي وكان من غلاة الحكمية ، توفي بجبل نفوسة كما ذكره ابن حوقل سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٨ م . ويقال انهم ينتسبون الى اباض — بضم الهمزة — وهي قرية بالعرض من ارض اليمامة لم يرَ اطول من نخلها ، نزل بها نجدة بن عامر الخارجي وتسمى بأمير المؤمنين .

(٢) ويقال ايضاً المدغري بالدال لا بالطاء نسبة الى المداغر الذين هم بأزاء تدرومة . وأما « مطغرة » هكذا بالطاء فهو اسم لمكانين او هما قبيلات اثنان أحدهما بعمل « تازا » والآخر من عمل « تلمسان » .

يزيد بن أبي مسلم ، وهو نفس عمل الحجاج بأهل العراق ، ويومئذ اشتكت الرعية امرها الى حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع المقيم يومئذ بتلمسان ، فكاتب هذا الى كلثوم ينهاه عن ذلك ويتهدده ، فبعث كلثوم بالاعتذار الى حبيب تصنعاً ؛ ثم زحف بجنوده على تلمسان فقاتل حبيباً ... وهكذا وجد رسل الخوارج المقبلون من المشرق واكثرهم من المنهزمين في حروب العصيات امام المروانيين ، مرتعاً خصباً لبذر تعاليمهم حيث كانت النفوس مستعدة للثورة ، فحرضوا البربر على الخروج عن الخليفة الاموي وحركوهم لرفع راية العصيان ، حتى اذا تقدم البربر الى الخليفة بالشكوى فلم يستجب لهم ولم يسمح لهم حتى بالمثول امامه ، فاندلعت بافريقية حينئذ نيران الثورة من كل جهة ، وتوالت بعد ذلك الفتن وبقيادة هؤلاء الخوارج فدخلوا القيروان مراراً ؛ وهكذا حتى جاء حنظلة بن صفوان اميراً على افريقية سنة ١٢٤ هـ — ٧٤٢ م فحارب الخوارج واجلاهم وشرد جموعهم في مقتلة عظيمة بلغ عدد القتلى بها ١٨٠،٠٠٠ قتيل ، قيل انه ما علم في الارض مقتلة كانت اعظم منها ، وانتشرت الفوضى والاضرابات فعمت المغرب كله من اقصاه الى اقصاه .

ويومئذ ظهر الفهريون احفاد عقبة بن نافع على مسرح تاريخ المغرب منهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي غزا تلمسان سنة ١٣٥ هـ — ٧٥٢ م وظفر بالبربر ودوخ افريقية كلها وذلل من بها من القبائل البربرية ؛ واستبد هؤلاء الفهريون بالادارة فانكشف ضعفهم وظهر عجزهم امام الخوارج الذين تنطرسوا على الحكومة العربية الى ان جهز لهم الخليفة ابو جعفر المنصور جيشاً يشتمل على خمسين الف جندي موزعاً تحت رعاية ثمانية وعشرين رجلاً من خيرة القادة والرؤساء والكل تحت امرة واشراف القائد الاعلى محمد بن الاشعث امير مصر : فجاءت الجنود الى افريقية صيف سنة ١٤٤ هـ — ٧٦١ م فقضت اولاً على ربيع الثوار بطرابلس ومات يومئذ قائد الثوار ابو الخطاب بن السمح الاباضي في شهر صفر — ماي — ، فظن ابن الاشعث بذلك انه قد قضى على الفتنة بقتل ابي الخطاب ، وان الخوارج سينتهون عن خطتهم ويعودون الى الطاعة ، وسرعان ما

علم ان هناك ستة عشر الف ثائر تنتظر امر رئيسها ابي هريرة الزناتي ، فتقدم الى هؤلاء فقاتلهم في شهر ربيع الاول ، صيف سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م وتغلب عليهم فدخل القيروان عاصمة الامارة فجدد سورها وانه في سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م وما كاد يستقر على عرشها حتى نهض بعض النداد والشراد الى مقاومة جيش الامارة العربية تحت قيادة احد منهم يدعى هاشم بن الشاحج فهزموا جند الامير وتفرقوا في البلاد وذهب رئيسهم الى تاهرت وقد كان معه من الاتباع نحو العشرين الفاً ، ومنها ذهب الى تهودة بالزاب الجزائري وهنالك قهرتهم الجنود العربية فاندحروا منهزمين ، وما كاد الامير يستريح من هذه الفتنة القائمة حتى فاجأه ثائر آخر من الجند يدعى عيسى بن عجلان الخراساني ومعه طائفة من القادة العصاة فشنوا على الامارة العربية حرباً عواناً اعجزت ابن الاشعث عن المقاومة حيث تكاثرت ضده الوقائع والفتن ، وكان هو في اقلية من الحامية والعساكر بسبب كثرة من مات منهم في تلك الحروب ، وحينئذ خرج ابن الاشعث من المغرب عائداً الى ولايته ومنصبه بمصر ؛ وكان على ولاية الزاب يومئذ الاغلب بن سالم التميمي فعينه الخليفة اميراً على افريقية ؛ فخرج يومئذ من دار عمالته طبنة ، وذهب الى القيروان ، وذلك في اواخر جمادى الثانية سنة ١٤٨ هـ - جوليط ٧٦٥ م وخلفه على الزاب يومئذ عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي المعروف بهزار مرد وبأبي الدوانق بجدد مدينة طبنة (١٥١ هـ - ٧٦٨ م) .

ثورة ابي قرة بتلمسان

اتفق ان قبائل من البربر منهم مغيلة وبنو يفرن قد نقضوا بيعتهم ونهضوا بنواحي تلمسان فخرجوا عن الطاعة وبايعوا صاحبهم زعيم زناتة ابا قرة اليفرني او المغيلي أصح الصفري [1] بايعوه بالخلافة سنة ١٤٨ هـ - ٧٥٧ م وثارت الحرب ضد الحكومة العربية فنهض اليهم الامير الاغلب

---

(١) وهو الذي نزل عليه صقر قريش عبد الرحمن الداخل مقدمه من الشرق واختفى عنده .

بن سالم فشتت شملهم من غير قتال ، ثم كانت الهزائم والحروب بينهم سجالاً ، ومات الاغلب فيها في شهر شعبان سنة ١٥٠ هـ - سبطمبر ٧٦٧ م . فخلفه على الامارة ايضاً عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزار مرد والمشهور بأبي الدوانق . وكانت بداية تاريخ امارته في صفر ١٥١ هـ - فيفري ٧٦٨ م . وبعد ثلاث سنوات وأشهر من امارته أمر من طرف الخلافة بالمسير الى مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري لتجديد بنائها وترميمها ؛ وقد بلغ سببها يومئذ عشرين الفاً ، فخرج عمر من القيروان واستخلف عليها حبيب بن حبيب المهلبي . وبينا الامير منكباً على عمله في تعمير طبنة اذ انتفض عليه المغرب كله وجاءته الجموع الثائرة من كل جانب فاحاطت بالزاب وخاصة حيث الامير بطبنة ؛ وبلغ عدد جند الثورة يومئذ واحداً وسبعين الفاً ، فكان مع ابي قرة منهم اربعون الفاً ، ومع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر الفاً ، ومع عاصم السدراتي ستة آلاف ، ومع المسعود الزناتي عشرة آلاف فارس ، وغيرهم من الاتباع كثير ، ولما تحقق الامير منهم الخطر عزم على محاربتهم والخروج اليهم بنفسه فمنعه الخاصة من اهل مشورته وقالوا له : اخرج منا من اردت الى عدوك ولا تبرح مكانك من طبنة ، فانك ان اصبت تلف المغرب وفسد ، وحينئذ لجأ الى الحيلة والدهاء واهتدى الى انقاذ الموقف بتقديم الاموال والحلل الفاخرة والهدايا الثمينة الى كل من ابي قرة واخيه فصانعهما بذلك ، فعملا حينئذ على سحب الجنود من يومها ، ثم لحقتهم جيوش الامير بتهودة فقضت على فئة عبد الرحمن بن رستم وهزمته الى تيهرت .

ويومئذ اخذ امر الخوارج في الضعف والانحلال واستمرت الوقائع تتكرر وتتجدد بين الخوارج والحكومة العربية ما بين مد وجزر الى ان قضى عليهم الامير يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٥٧ هـ - ٧٧٤ م فاستكانوا حينئذ للغلب واطاعوا الدين ؛ وقد بلغت وقائعهم نحو ثلاثمائة وخمس وسبعين وقعة في مدة لا تزيد عن خمس وثلاثين سنة ؛ ويذكر عن المنصور العباسي انه انفق في محاربة الخوارج بأفريقية ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهماً وذلك لسنة واحدة فقط (١٥٤ هـ = ٧٧١ م) وكل هذه الوقائع نشأت كما ذكرنا آنفاً مما

جبلت عليه اخلاق البربر وما تركز في غريزتهم من حب الحرية الى حد الفوضى وكراهية السلطة عليهم كيفما كان نوعها ، وما تهدف اليه عقيدة الخوارج من وجوب القيام على الحكومات الوراثية ، وكان الحافز الاكبر في ذلك ما كان عليه بعض ولاة المغرب يومئذ من العسف والجور ، فهذا ما دفع باهل المغرب الى احضان الدعوة الخارجية .

امارات الخوارج بالجزائر

كانت الحركة الخارجية بالمغرب عاملا قوياً في استقلال بعض القبائل الجزائرية تحت امارات اباضية ، فمنها امارة بني مسرة وهم فخذ من زناته ، وعاصمتهم « ارزكا » بنواحي سعيدة بعمالة وهران على ثلاث مراحل بجنوب تيهرت ورئيسهم عبد الرحمن بن اودموت بن سنان ثم تنقلت الرئاسة في منيه من بعده . وامارة بني دمر بنواحي قصر البخاري من عمالة الجزائر وعاصمتهم فيها « تيمطلاس » ورئيسهم مصادف بن جرتيل ، كان بين حصنه وبلد متيجة مسير ثلاثة ايام مما يلي البحر ، وامارة هوارة بنواحي وادي شلف حوالي نهر مينة شرقاً ومدينة سيق غرباً من عمالة وهران ، وعاصمتها « قلعة مغيلة دلول » على مسافة يومين من مستغانم — بتقديرهم وهو ما يبلغ نحو المائة كيلومتراً ؟ — ، وكانت رئاسة هؤلاء لرجل يقال له ابن مسالة الاباضي ، وهو مخالف للائمة الرستميين بتيهرت . ويذكر ابن خلدون ان الصفرية وهم من الخوارج ، هم الذين اختطوا مدينة « سجلماسة) تافيلالت سنة ١٤٠ هـ = ٧٥٧ م وانها فلاريب بانها كانت ضمن هذه الامارات .

المذاهب والعقائد

لا نشك ونحن في هذا الدور الاول من تاريخ الفتح الاسلامي للمغرب ، بأن المغرب يومئذ كان في تدينه بالاسلام متمسكاً به على طريق المذهبية او الدعوة السياسية في عقيدته او في عبادته ومعاملاته كلا ، بل نراه بعيداً عن ذلك كله حيث لم تكن حينئذ مدارس او آراء لهذه المذاهب مدروسة منظمة ولا مناهجها وقواعدها معروفة والكثير

منها كان منعدماً لم يكتب له وجود بعد ، فكانت العقيدة والعبادة والمعاملة وكل ما جاء به الصحابة والتابعون معهم لفتح هذه البلاد هو ما تلقنوه وسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حفظوه عن بعضهم بعض ممن شاهده منه من الاصحاب : من قول أو عمل أو تقرير ، ولم يكن معهم من تفسير القرآن الكريم إلا ما وعوه في صدورهم أو جمعوا عليه وعاء قلوبهم من تفسير الرسول أو فهم صحيح أوتيه أولو الفطنة والذكاء منهم من كثرة مداولتهم لاسلوب القرآن الكريم وملازمتهم للسنة وتفهمهم لكلام العرب أو ما ارتسم على صفحة قلوبهم من عمل أكابر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فالعقيدة الاسلامية والقيام بجميع الواجبات الدينية كان سائراً على الطريقة السلفية لاشائبة فيه لمنهج خاص او منحى من المناحي المختلفة التي انتهجها او انشطر للاخذ بها اهل المذاهب الاسلامية فيما بعد ، ويدل على ذلك من الشواهد كثيرة ومنها هذه البعثة العلمية المباركة المختارة من التابعين التي بعث بهم عمر بن عبد العزيز الى المغرب لتثقيف اهله بالثقافة الدينية وتلقين البربر قواعد هذا الدين كما جاء بها صاحبه صلى الله عليه وسلم ، فهي كما تراها ليلها كنهارها خالصة من كل شائبة تركيب او تعقيد او اشارة الى رأي او مبدإ خاص :

حدث عبد الاعلى بن عقبة المقري فقال : لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة ، جمع حنظلة علماء افريقية ، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليفقهوا اهلها في الدين ، منهم سعد بن مسعود وحبان بن ابي جبلة وطلق بن حابان وغيرهم فكتبوا له هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها وهي :

بإسم الله الرحمن الرحيم

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنجة

اما بعد فان اهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قالوا : انه يرجع جميع ما انزل الله عزوجل الى عشر آيات: آمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومتشابهة ، وحلال ،

وحرام ، وامثال . فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكرة ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال امر ان يوتى ، وحرام امر ان يجتنب ، وامثال واعظة . فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة واقذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ، ونية صالحة ، فقد افلح وانجح وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [1] .

وعن معاوية الصمادحي عن عبد الرحمن بن زياد قال : ان الخمر كانت عند اهل افريقية حلالا حتى بعث عمر بن عبد العزيز هؤلاء الفقهاء فعرفوا انها حرمت ، ثم ايضاً لما دخلت المسودة يعني الجند فشا ذكرها انها حرام [2] .

هكذا كان اهل هذا العصر في تدينهم بالاسلام من غير التفات الى راي او مذهب خاص . اذ لم تكن المذاهب اذ ذاك – بمعناها الاصطلاحي – معروفة ولا موجودة .

اللهم الا ما يذكر عن بعض من جره دعاة الاعتزال الى عقائدهم ، وهؤلاء لم يكن لهم كبير شان في اجراء قواعد هذا الدين بين الناس ، فقد روي عن واصل بن عطاء راس المعتزلة (٨٠ – ٨١ /هـ = ٧٠٠ – ٧٩٧ م) انه بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير ، وفي ذلك يقول صفوان الانصاري يمدح واصلا .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم تهكم جبار ولا كيد ماكر

اما عن شان الاديان الاخرى فقد تضاءل شانها امام الاسلام .

---

(١) رياض النفوس لابي بكر عبد الله المالكي ج ١ ص ٦٧ ط القاهرة ١٩٥١ م

(٢) طبقات علماء افريقية لابي العرب ج ١ ص ٢٠ – ٢١ ط باريس ١٩١٥ م

المجتمع المغربي

ان اعظم واجل مظهر برزت به افريقية العربية المسلمة في هذا العصر هو اتجاه شمالها الى الشرق في اقتباس حضارته ومدنيته ؛ فالى مركز الوحي كان اتجاهه في تصحيح عقائده وعباداته ؛ والى عواصم الشرق اللامعة كان اتجاهه في ثقافته العلمية الفنية ، لو لا ما نشأ يومئذ عن بعض الواردين عليه من المشرق من دعاة الحزبية والطائفية والسياسة المفرقة فحاد عن جادة الاسلام حتى كاد يكون ان لا اسلام ! ... فنشأت عن ذلك تلك الفتن والاضطرابات التي شملت المغرب العربي كله وكانت منها تلك الوقائع التي فصلناها فيما تقدم وكلها نشأت عن سوء التوجيه في نشر تعاليم الاسلام مع ما يمازجها من النزعات السياسية والمذهبية . وقد نشأ عن ذلك نفور في النفوس من اهل التأويل والاحتكام الى العقل من المشارقة ، فابتعدوا لذلك عن مذهب ابي حنيفة الذي اشتهر اهله بالرأي والقياس وتركوا فقهه ونبذوا عقائد المعتزلة نتيجة لما اصاب بلادهم وما تعرضت له من المتاعب بسبب اصحاب الآراء والتأويلات من دعاة الاراء والمتطرفة وتمسكوا بالكتاب والسنة تمسكاً شديداً حتى انهم رفضوا القياس والاجماع ؛ واقبلوا يومئذ على الاخذ بما جاءهم به من حضر مجالس مالك بن انس بالمدينة ممن قصد الحجاز من طلبة العلم الافارقة حيث علموا فيه التزام القرآن والحديث والابتعاد عن التأويل والقول بالرأي مع الاقتصاد في القياس ما امكن وان كان جل اعتماد امراء افريقية من العرب في هذه الفترة الى آخر عهد الاغالبة على العراقيين من فقهاء المذهب الحنفي ، وبذلك انقسم اهل المغرب الى قسمين ، فالحكام كانوا على مذهب اهل العراق ، والافريقيون وزعماؤهم من الفقهاء كانوا مالكية ، وقد شعر الحكام والامراء بهذه المعارضة القوية الخطرة التي يتزعمها اولئك الفقهاء . فبطشوا ببعضهم وقتلوا البعض الآخر ، فزاد ذلك من تقدير الناس اياهم ، ولم يصبحوا مجرد فقهاء ذوي دين وخلق متينين فحسب ؛ بل شهداء لقوا الاذى والحتوف ايضاً في سبيل العقيدة الصحيحة وفي سبيل الضعفاء والمظلومين من اهل البلاد ، وانتقلوا – بهذه الصفة المزدوجة – الى مقام الاولياء ، وارتبط في اذهان

الناس معنى الولي بصورة الزعيم القومي ، وهكذا نرى مبادىء العقيدة التي اشتهر بها اهل المغرب في الاولياء والصالحين ، ونستطيع ان نفسر تفاني المغاربة في سبيل الصالحين وكبار الفقهاء ، ذلك لان الولاية ارتبطت في اذهانهم بمعنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من الحكام الاجانب ، ومن هنا نضع ايدينا على عصب ثان من اعصاب التاريخ المغربي الاسلامي ، عصب الايمان في الزهاد والاولياء الذي ما زال ينبض حتى قامت بفضله الدول المغربية الاصلية ، وغير غريب في هذه الحالة ان نجد الذين وضعوا اسس دولتي المغرب الكبيرتين ــ المرابطين والموحدين ــ كانوا من الفقهاء المالكيين على وجه التحديد [١] ، وبذلك تم تقليد المذهب المالكي وصاحبه في سيرته ، وحتى في حياته الخاصة التي كان يعيشها الامام لنفسه ، سواء ذلك في مأكله ومشربه وملبسه وفي مشيته وحديثه الخ ... وبذلك نستطيع ان نقول ان حضارة المغرب العربي وتهذيبه كانا على يدي مالك كما ان تمدن الاندلس كان على يدي زرياب .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر من عرفه التاريخ من ولاة الجزائر في صدر الاسلام الاغلب بن سالم التميمي عامل طبنة ــ عاصمة الزاب الجزائري ــ قبل ولايته الامارة ؛ كما عرفنا المهنا بن المخارق الذي استخلفه عليها ايضاً عمر بن حفص سنة ١٥٤ هـ ــ ٧٧١ م ، وعاصم السدراتي ، والمنصور الزناتي ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري والفضل بن روح قبل امارته وهو آخر المهالبة بها ، فكل هؤلاء كان على ولاية طبنة ؛ وكان على ولاية تلمسان ابو قرة اليفرني ، وموسى بن ابي خالد مولى معاوية بن حديج ، عزله ابن الحبحاب وولى مكانه حبيب بن ابي عبيدة ، وكان على ولاية وطن زناتة بهذا المغرب الاوسط عبد الجبار بن قيس المرادي ، وامير ورفجومة النفزاوية بجبل اوراس عاصم بن جميل الكاهن .

---

(١) راجع مقدمة حسين مونس لكتاب رياض النفوس ط القاهرة ١٩٥١ م .

امراء افريقية وحكامها

الامويون

	تاريخ التولية
عبد الله بن موسى بن نصير (اثناء تغيب والده بالاندلس) .	٩٥ هـ = ٧١٤ م
محمد بن يزيد ، مولى قريش[١] .	٩٦ هـ = ٧١٥ م
اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر دينار .	٩٩ هـ = ٧١٨ م
يزيد بن ابي مسلم دينار الثقفي .	١٠١ هـ = ٧٢٠ م
محمد بن اوس الانصاري .	١٠٢ هـ = ٧٢١ م
بشر بن صفوان الكلبي .	١٠٢ هـ = ٧٢١ م
عبيدة بن عبد الرحمن (بن ابي الاغر) السلمي (ربيع الاول ـ جوان)	١١٠ هـ = ٧٢٩ م
عبد الله بن الحبحاب الموصلي (ربيع الثاني ـ ماي)	١١٦ هـ = ٧٣٥ م
كلثوم بن عياض القيسي (القشيري) ؟ (رمضان ـ جوليط)	١٢٣ هـ = ٧٤١ م
حنظلة بن صفوان الكلبي (ربيع الثاني ـ فيفري)	١٢٤ هـ = ٧٤٢ م
عبد الرحمن بن حبيب الفهري .	١٢٧ هـ = ٧٤٥ م
الياس بن حبيب الفهري .	١٣٨ هـ = ٧٥٦ م

(١) كانت له عملة مضروبة باسمه .

الخلفاء الامويون

	تاريخ التولية
سليمان بن عبد الملك .	٩٦ هـ = ٧١٥ م
عمر بن عبد العزيز .	٩٩ هـ = ٧١٧ م
يزيد بن عبد الملك .	١٠١ هـ = ٧٢٠ م
هشام بن عبد الملك .	١٠٥ هـ = ٧٢٤ م
الوليد بن يزيد بن عبد الملك .	١٢٥ هـ = ٧٤٣ م
يزيد بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
ابراهيم بن الوليد .	١٢٦ هـ = ٧٤٤ م
مروان بن محمد الجعدي .	١٢٧ هـ = ٧٤٤ م

امراء افريقية وحكامها

العباسيون

تاريخ التولية

حبيب بن عبد الرحمن (رجب – ديسامبر) . ١٣٨ ﻫ = ٧٥٥ م
عاصم بن جميل الورفجومي (ثائر) (محرم – ماي) . ١٤٠ ﻫ = ٧٥٧ م
عبد الملك بن ابي الجعد اليفرني (ثائر) . ١٤٠ ﻫ = ٧٥٨ م
ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري الاباضي . ١٤١ ﻫ = ٧٥٩ م
محمد بن الاشعث الخزاعي . ١٤٣ ﻫ = ٧٦٣ م
عيسى بن يوسف (او موسى) الخراساني (ربيع الاول – افريل) ١٤٨ ﻫ = ٧٦٦ م
علي بن موسى الخراساني (ثائر) . ١٤٨ ﻫ = ٧٦٦ م
الاغلب بن سالم بن عقال التميمي (جمادى الثانية – جوليط) ١٤٨ ﻫ = ٧٦٦ م
الحسن بن حرب الكندي . ١٤٩ ﻫ = ٧٦٦ م
الاغلب (للمرة الثانية) . ١٥١ ﻫ = ٧٦٧ م

بنو المهلب

ابو جعفر عمر بن حفص هزار مراد المهلبي[1] (صفر – فيفري) ١٥١ ﻫ = ٧٦٨ م
ابو خالد يزيد[2] بن حاتم بن قبيصة بن المهلب . ١٥٤ ﻫ = ٧٧٠ م

---

(١) ضرب العملة باسمه .

(٢) استمر ابو خالد على امارته بافريقية الى ان توفي يوم ١٨ رمضان سنة ١٧٠ ﻫ = ٨ ماي ٧٨٧ م وقد ضرب العملة باسمه ، وفي عهده تأسست الدولة الرستمية بتيهرت سنة ١٦٠ ﻫ = ٧٧٦ م وهي اول دولة مسلمة مستقلة تأسست بالجزائر .

الخلفاء العباسيون

	تاريخ التولية
ابو العباس السفاح .	١٣٢ هـ = ٧٥٠ م
ابو جعفر المنصور .	١٣٦ هـ = ٧٥٤ م
المهدي بن المنصور .	١٥٨ هـ = ٧٧٥ م
الهادي بن المهدي .	١٦٩ هـ = ٧٨٥ م
هارون الرشيد .	١٧٠ هـ = ٧٨٦ م

من مشاهير الجزائر

سكو بن واسول

هو بربري من قبيلة مكناسة من اهل مواطن ملوية ، كان يعد من تابعي التابعين ، وهو جد ملوك سجلماسة من بني مدرار كان من حملة العلم الذين اخذوا عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، وناهيك بعكرمة ، فقد قيل لسعيد بن جبير هل تعلم احدا اعلم منك ؟ ... فقال : عكرمة ! وجزم ابن خلكان في تاريخه بان عكرمة من برابرة المغرب .

ابو الوليد مروان المسيلي

ترجم له ابو العرب في طبقات علماء افريقية وقال عنه انه كان ثقة مستجابا فاضلا في مثل سن سحنون بن سعد ، وكان سحنون يقول : مروان رجل صالح وهو مولى ال عمر بن حنبل : ما رايت احدا اوعى من وكيع ولا احفظ ، وكيع امام المسلمين . وكان سحنون يعرف فضله ، وحدث عن ابي الوليد هذا ولده عبد الرحمن فقال : كان ابي يعمل الطوب بيده ، فيتصدق بثلث ما يربح ، وينفق الثلث ويرد ثلثاً في الطين والتبن وفيا يصلح به عمل الطوب . قال : ولم يكن له سرير يرقد عليه ، انما كان قد نصب

طربا فعليه ينام في بيته . وكان يرمي بالتشبيه ، فقيل لسحنون ان مروان يرى التشبيه فلم يقبل ذلك وقال : مروان لا يقول الا ما روى ؛ ونمى ذلك الى الامير محمد بن الاغلب فوجه في طلبه فوافى قبل دخوله عليه خصيا بيده عود او طنبور فأخذه مروان من يده بنزع عنيف فكسره . فدخل الخصي على الامير وقال شيخ بالباب كسر من يدى كذ وكذا وخرق الخصي ثيابه لعظم ما نزل به عند نفسه ، فلما دخل مروان على الامير عاتبه فيا صنع ، فقال نعم رايت منكراً فغيرته ! ... فلم يراجعه الامير ، وسأله عن مذهبه فيا قيل له وما يدين به في ذلك ؟ .. فقرأ عليه سورة الاخلاص حتى ختمها . قال وانما شنع عليه اهل الزيغ وكان بعيداً مما قيل فيه ... قال وكان موته فيا احسب قريباً من موت سحنون [1] في حدود سنة اربعين ومائتين للهجرة .

---

(١) طبقات علماء افريقية لابي العرب ص ١١٥ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس للمالكي ج ١ ص ٣٠٢ ط القاهرة ١٩٥١

جدول تاريخي

٨٥ ــ ١٥٧ ﻫ

٧٠٤ ــ ٧٧٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وأبرز الاحداث
٨٥ ﻫ = ٧٠٤ م	عزل حسان وبدء ولاية موسى بن نصير .
٨٦ ﻫ = ٧٠٥ م	فتح زغوان .
٨٩ ﻫ = ٧٠٧ م	حملة موسى بن نصير على المغرب الاوسط : الجزائر .
٩٠ ﻫ = ٧٠٨ م	حملته على المغرب الاقصى .
١٢٢ ﻫ = ٧٤٠ م	ثورة ميسرة المطغري ــ او المدغري ــ ومبايعته بالخلافة .
١٢٣ ﻫ = ٧٤٠ م	واقعة الاشراف بنواحي وادي شلف ، ومقاتلة كلثوم بن عياض لحبيب بن عبيدة بتلمسان .
١٢٤ ﻫ = ٧٤٢ م	واقعة القرن والاصنام ، وحروب حنظلة بن صفوان مع الخوارج .
١٤٠ ﻫ = ٧٥٧ م	ثورات البربر بنواحي تلمسان ومبايعتهم لابن قرة اليفرني مؤسس مملكتهم .
١٤٤ ﻫ = ٧٦١ م	مقاتلة محمد بن الاشعث للخوارج وموت زعيمهم ابي الخطاب .
١٤٨ ﻫ = ٧٦٥ م	مقاومة الاغلب بن سالم التميمي لبرابرة تلمسان .
١٥٠ ﻫ = ٧٦٧ م	حصار البربر من الخوارج للامير ابي جعفر عمر بن حفص بمدينة طبنة .
١٥١ ﻫ = ٧٦٨ م	تعمير طبنة على يدي الامير عمر بن حفص .
١٥٧ ﻫ = ٧٧٤ م	قضاء يزيد بن حاتم على الخوارج .

الدولة الرستمية

١٦٠ ــ ٢٩٦ ﻫ

٧٧٦ - ٩٠٩ م

نشأتها

خرج ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري امام الاباضية من القيروان سنة ١٤١ ﻫ ــ ٧٥٨ م لقمع شوكة قبيلة ورفجومه المقيمة بطرابلس ، واستخلف عنه القاضي عبد الرحمن بن رستم ، وبقي ابو الخطاب هنالك الى سنة ١٤٤ ﻫ ــ ٧٦١ م حيث بعث لابن رستم ليلتحق به في وقائع الامير محمد بن الاشعث ؛ وما كاد ابن رستم يتصل في جنوده وعساكره الجرارة بأبي الخطاب حتى بلغه نعيه وانهزام جيشه ؛ وشاهد يومئذ ابن رستم في قابس حوادث ثورات الاهالي على العامل بها ؛ فما وسعه الا الرجوع الى القيروان فصادفها كذلك في ثورة عامة عارمة فتسلل منها في اهله وولده وخرج مختفياً عن الاعين الى ان حل بالمغرب الاوسط فنزل على قبيلة (لماية) بجبل منيع يسمى سوفجج . فاقتبله اهالي الجبل بما يليق به من الاكرام ، وشاع يومئذ ذكره في الآفاق فوفدت عليه وجوه الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا حينئذ في تدبير امرهم وتنظيم شؤونهم من رفع شأن الخوارج بانشاء دولة لهم ؛ وبينما

القوم يخوضون في ذلك اذ فاجأتهم جنود ابن الاشعث فأحاطت بالجبل ثم ارتدوا عنه بأمر اميرهم ؛ ويومئذ خرج ابن رستم في اصحابه يطلبون مكاناً منيعاً يتخذونه كمركز لبث دعوتهم ونشر مبادئهم بتلك النواحي ، فكان ذلك المكان بمبالة وهران على غيضة بين ثلاثة انهر عند سفح جبل جزول[1] ، هو (تيهرت) المعروفة اليوم بتاقدمت غرب المدينة الرومانية (تيارات) الحالية اي على نحو خمسة اميال منها[2] ، وكان شروعهم في ذلك سنة ١٤٨ هـ - ٧٦٥ م ؛ ثم كانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة فيه سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٦ م فكان بذلك عبد الرحمن اول مؤسس لدولة اسلامية جزائرية مستقلة ، ويبدو من عدم مقاومة الامير العباسي بالقيروان لهذه الدولة الجزائرية الناشئة ان الامارة العربية كانت ضعيفة بالمغرب العربي يومئذ ؛ كما ان اهمال الاغالبة لها هو كذلك من بواعث نشاط هذه الدولة في توطيد ملكها بهذه الديار .

ولقد نجحت هذه الدولة في تأسيس مركزها هذا فوفقت فيه غاية التوفيق فان قرب تيهرت من الصحراء يمنعها من الوقوع في يد العدو في أيام الحرب ، كما ان موقعها هذا بين جبال الاطلس الى بلاد التل الخصبة جعلها تهيمن على بلاد المغرب من جهاتها الاربع ، فلا هي متطرفة جنوباً ولا شمالاً ، ثم انها كانت حسب موقعها الجغرافي ايضاً متوسطة بين ولاية تونس والمغرب الاقصى .

نظامها الحكومي

يرتكز محور نظام الحكم بهذه الدولة على قواعد الكتاب والسنة حسب ما تؤديه قواعد اجتهاد ائمة المذهب الاباضي تحت ادارة واشراف رئيسها

---

(١) وهو جبل متصل بارض السوس ويسمى عندهم بجبل درن وهو ما يسمى في ارض الزاب الجزائري بجبل « أوراس » . انظر اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٠ ط ليدن ١٨٦٠ م .

(٢) انظر البكري ص ٦٦ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

الاعلى الملقب بالامام – اذ لا خلافة ووراثية عندهم – والامام يتعين في منصبه هذا بالانتخاب والكفاءة او العهد اليه من سلفه ؛ وله مستشارون ومحتسبون وامناء بيت المال ؛ والقاضي السلطة المطلقة في تنفيذ الاحكام الشرعية وهو في الغالب يكون من غير اهل البلد لهابة الناس ، وهناك شرطة لحماية الامن العام وجند مختلط من العرب والعجم والبربر . وماليتها متكونة بما يتجمع في خزينتها من مال الزكاة والجزية والخراج [1] مع ما كان يتجمع لديها من تبرعات خوارج المشرق ايضاً . فكانت الحكومة تنفق منها بالعدل وما فضل عنها ردته على الفقراء والمساكين ، وللحكومة سكة مضروبة باسمها اما لغتها الرسمية فهي العربية وبجانبها البربرية وكثيراً ما ترجمت اليها كتب العلم والدين والدواوين ايضاً وحتى القرآن الكريم ؛ ولقد تعاقب على ملك هذه الدولة ثمانية من الائمة .

حدود المملكة الرستمية

يحد هذه المملكة شمالاً تاول منداس الى قرب غليزان ، ويذهب الخط جنوباً من هناك الى فرندة وينعطف شرقي جبل عمور ، ومن هنالك الى وطن ميزاب والى واوجلة ، وينبعث الخط من الناحية الشرقية الى تيسمسيلت والسرسو ، ويذهب صعداً الى ثنية الاحد والى قصر البخاري مشرقاً واعالي وادي شلف : ويذهب جنوباً شرقي الاغواط الى تقرت ووادي ريغ ؛ وبالجملة فان هذه الدولة قد استولت على جميع التراب الجزائري الحاضر ما عدا ناحية الزاب شرقاً وتلمسان غرباً .

وفي كتاب البلدان لليعقوبي قال : « ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم ينسب الى تاهرت في طاعة محمد بن افلح بن عبد الرحمن بن رستم ، والحصن الذي على ساحل البحر الاعظم ترسي به مراكب تاهرت يقال

---

(١) الجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والخراج مال يؤخذ من ارض الصلح وما فتح عنوة (قهراً وقسراً) بخلاف الفيء فانه لا يؤخذ الا من ارض العنوة فقط .

له موسى فروخ . وفي سياق حديثه عن مدينة طرابلس وارض نفوسة قال : « ان بهذه الارض قوم عجم الالسن اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن امره ومنازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدون خراجاً الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فارسي »[1] الخ ...

فهذا النص يجعلنا نعتقد سعة رقعة المملكة الجزائرية وانتشار سلطان الرستميين بها الى ما وراء طرابلس الغرب شرقاً . ويذكر لنا ياقوت الحموي عاصمة الرستميين ـ تاهرت ـ فيقول انها لم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسودة اليها قط ولا دخلت في سلطان بني الاغلب .

الامام عبد الرحمن بن رستم

اصل هذا الامام فارسي وينسب الى الاسرة الملكية الكسروية ؟ ... وهو من موالي عثمان بن عفان ، بويع بالامامة سنة ١٦٠ هـ ـ ٧٧٦ م بتاهرت وكان على جانب عظيم من العلم والعمل والعدل والزهد ؛ وكانت له عناية كبرى باعلاء شأن دولته ، وله اهتمام خاص بفن المعمار ، مشتغل بشؤون الرعية والسهر على مصالحها ؛ وبلغ من زهده ان رد على اهل المشرق ما بعثوا به اليه من عشرة احمال ذهباً ، وقد سبق ان قبل منهم مثلها قبل ذلك حيث كانت الدولة في حاجة اليه ايام التأسيس ، وكانت ايامه كلها سلماً وامناً ، وله من التأليف تفسير للقرآن العظيم وديوان خطب ، ورسائل اخوانيات كاتب بها اخوانه واصدقاءه ، وكانت وفاته سنة ١٧١ هـ ـ ٧٨٧ م وقد عهد بالامر بعده الى سبعة من الاعيان

---

(١) كتاب البلدان ص ٧ و ١٤ ط ليدن ١٨٦٠ م .

منهم ولده عبد الوهاب فبايعه الناس بعده [1] .

الامام عبد الوهاب

بويع اثر وفاة والده بشهر ، وهو من اعلم علماء الاباضية في وقته ، كان متضلعاً في علوم الشريعة وله في الفقه كتاب اشتهر باسم « مسائل نفوسة » ما عدا فتاوي ورسائل في مسائل شتى . واشتهر بقوة الشكيمة والدهاء السياسي والحزم والثروة الطائلة ؛ وان اول ما قام به من الاعمال السياسية ان عمل على موادعة امير القيروان روح بن حاتم وربط صلته به ، فاطمأن الناس الى ذلك وتأكدوا من رسوخ قدم الدولة الرستمية في الملك .

ثورة ابن فندين

هو احد الرجال السبعة الذين عهد اليهم عبد الرحمن بن رستم بأمر الشورى بعده ، فطمع اولاً الى الملك وتطلع الى منصب الامامة ، وبعدما تحقق اخفاقه بمبايعة عبد الوهاب تشوف الى تبوأ المناصب الممتازة في الدولة فلم ينجح كذلك ، ويومئذ عمل على ايقاد نار الفتنة ضد الحكومة القائمة ودبر مكيدة لاغتيال الامام وجاء بشيعته من النكارية — وهم من الخوارج ايضاً — فكانت بينه وبين الحكومة وقائع عديدة سفكت فيها الدماء انهارا فاضطرت الحكومة الى مهادنته حقناً للدماء ؛ وبقي ابن فندين مع ذلك يترقب الفرصة للوثوب مرة ثانية على الدولة ؛ فاتفق يوماً ان صادف تغيب الامام عن العاصمة — تاهرت — فزحف هذا الثائر باتباعه على المدينة فكان فيها حتفه على يد افلح بن عبد الوهاب ، ويقدر عدد القتلى في هذه الواقعة باثني عشر الفاً ، فاستثار ذلك دفين حقد النكارية وكمين ضغينتهم فهاجموا العاصمة وقتلوا ميمون بن عبد الوهاب ثم انهزموا واندحروا .

---

(١) يذكر النسابون ان لعبد الرحمن بن رستم بنتا اسمها « اروى » تزوجها مدرار المنتصر صاحب سجلماسة ؛ بنى بها بعد اعتزاله الملك توفي سنة ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م .

عصيان زناتة [1]

رفضت هذه القبيلة الجزائرية مبايعة الدولة الرستمية واعلنت عصيانها سنة ١٧٣ هـ – ٧٨٩ م ومدت يدها الى دولة الادراسة القائمة يومئذ بالمغرب الاقصى وتلمسان ؛ فنهضت اليها الحكومة الجزائرية لردها الى الطاعة وسعت لديها بكل وسيلة فلم تنجح ويومئذ اعلنت الدولة الحرب في وجه القبيلة وخاصة منها بطن مغراوة وبني يفرن فلم يجد الحكومة ذلك نفعاً واستمرت زناتة على عصيانها خاضعة للادارسة الى النهاية .

ثورة بني مسالة

كانت رآسة قبيلة هوارة التي تحتل الساحل من برقة الى قابس ، لهؤلاء من بني مسالة فاتفق ان خطب احد رؤسائها يد بنت رئيس من رؤساء قبائل البربر بالجزائر بقصد الالتحام مع هذه القبيلة تعزيزاً لقبيلته ؛ فحال بينهما الامام الرستمي خشية تحزب القبيلتين ضده وعقد هذه المصاهرة لنفسه ، فغضب لذلــــك بنو مسالة فهاجوا المغرب الاوسط وحملوا على الرستميين السلاح فانتصر عليهم الامام عبد الوهاب وطاردتهم جيوشه الى ناحية تلمسان .

امتداد المملكة الرستمية

اشتد سعير التنافس بين امراء افريقية من الاغالبة ورؤساء هوارة ،

---

(١) قبيلة بربرية عريقة في القدم منتشرة في كامل الشمال الافريقي وهي تسكن على الاخص المغرب الاوسط – الجزائر – بحيث انه ينسب اليها ويعرف بها ، فيقال وطن زناتة ؛ ومنها بطن مغراوة وجراوة قوم الكاهنة ، بنو يفرن ورجله بالجنوب الجزائري ، وكانت الرآسة فيهم قبل الاسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن وموطنهما بنواحي تلمسان الى وهران وشلف شمالاً والى غريس من ناحية المعسكر جنوباً . ويقول الادريسي ان زناتة عرب صرح وانما تبربروا بالمجاورة والمخالفة للبربر من المصامدة ؟... ويؤثر عن حسان بن النعمان انه كان يقول ببربريتهم ؟... ومن زناتة بنو ورسيفن ملوك مليانة ، وبنو منديل ملوك مازونة ، وبنو خزر ملوك وهران .

فأدى ذلك الخلاف والنزاع الى اتقاد الحرب بينهما وكاد النصر ان يكون حليف الامارة الاغلبية لولا استنجاد هوارة بالدولة الرستمية واستنصارها بها ويومئذ رأى الامام عبد الوهاب ان الفرصة سنحت له لبسط نفوذه على النواحي الشرقية ففتح منها طرابلس وقابس وجزيرة جربة ؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ... وبلغ الخبر – أي خبر ثورة هوارة بطرابلس ضد الاغالبة ١٩٦ هـ – ٨١١ م – الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البرابر وجاء الى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناته وكان يقاتل من باب هوارة ثم جاءه الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على ان يكون البلد والبحر لعبدالله – والي طرابلس من قبل الاغالبة – واعمالها لعبد الوهاب ، وسار الى القيروان [1] . وقضى عبد الوهاب نحبه سنة ١٩٠ هـ – ٨٠٥ م وقيل انه عاش الى سنة ٢٠٨ هـ – ٨٢٣ م فبويع بعده لابنه افلح .

الامام افلح

هو أطول ائمة هذه الدولة مدة في الملك ، فانه بويع اثر وفاة والده عبد الوهاب سنة ١٩٠ هـ – ٨٠٥ م الى ان توفي سنة ٢٤٠ هـ – ٨٥٤ م أي مدة خمسين سنة ، وكان يسلم عليه بالخلافة كما ذكره ابن الفقيه الهمذاني [2] ، وكانت ايامه كلها ايام رغد ويسر ؛ وهو احد افذاذ ائمة الدولة البارزين والعلماء العارفين ذا أدب جم واطلاع واسع وشعر رقيق ومتانة في الدين ؛ كانت له مواقف حاسمة رد بها على ثوار جبل نفوسة ، وهو تارة يسلك معهم مسلك اللين واللطف ، وتارة يأخذهم بالشدة والعنف وكان الانتصار حليفه دائماً .

اما علاقته بالخارج ، فانه كان على صفاء واتصال ودي مع خلفاء

---

(١) العبر جزء ٤ ص ١٩٧ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) كتاب البلدان ص ٣٠ ط الجزائر ١٩٤٩ م .

الاندلس الامويين ومع السودان ايضاً تربط بينهم جميعاً أواصر التجارة ووحدة القوى أيضاً ؛ ويظهر ذلك جلياً في جفاء الامام للدولة الاغلبية المجاورة التي هي من صنائع الدولة العباسية : فانه لما بنى ابو العباس محمد بن الاغلب مدينة « العباسية » بقرب تيهرت سنة ٢٢٧هـ — ٨٤١م هدمها الامام افلح وأحرقها وكتب في ذلك الى صاحب الاندلس يتقرب اليه ، فبعث اليه هذا بمائة الف درهم ؛ فانتقم لذلك العباسيون بالقبض على ابنه أبي اليقظان حين قدم الى الحج وأودعوه السجن ببغداد ، فحزن الامام على ولده ولم يزل محزوناً مهموماً الى ان توفي سنة ٢٤٠هـ — ٨٥٤م وتولى بعده ولده الثاني أبو بكر .

الامام ابو بكر بن افلح

اشتهر الامام أبو بكر بخصال الكرم والجود ولين العريكة والتسامح وسهولة الخلق ميالاً الى الدعة والرفاهية ، تاركاً أمر ملكه وادارة شؤون دولته الى صهره ابن عرفة التيهرتي الذي أصبح بسعاية من الوشاة والحسدة ينافس الامام في ملكه فحصلت بينهما من ذلك وحشة أدت الى اغتيال ابن عرفة واضطراب حبل الحكومة بقيام اصحابه على الامام واستمرت الفتن بتيهرت الى ان عاد أبو اليقظان من الشرق واستلم زمام الدولة من أخيه فقهر الثائرين وقضى على الخصوم فسكنت البلاد مدة ثم نشأت حركات ثورية أيضاً من الاعاجم المزاحمين لآل ابن رستم في الرئاسة ، انتصر فيها هؤلاء مراراً على الحكومة كما أذاقهم الجند بأسه أيضاً في كثير من مواقف القتال ، وعمت الفتنة اباضية جبل نفوسة فانضم اليهم أبو اليقظان وتعددت المعارك بين الطائفتين وكان النصر فيها سجالاً ، ولم يزل شأن أبي بكر يضعف أمام خصومه وأعدائه حتى لاذ بالفرار بعد عامين من ولايته فقط ، واحتل المدينة محمد بن مسالة الهواري فقبض على دفة الحكم وأجلى عن المدينة من كان فيها من أهل لواتة ثم أجمع الناس على مبايعة أبي اليقظان .

الامام أبو اليقظان

هو محمد بن افلح بويع بحصن لواتة على قرب من تاسلونت حيث تنفجر عيون نهر مينة الجاري قبلة تيهرت ، وكانت مبايعته اثر خروج أخيه الامام أبي بكر سنة ٢٤١ هـ – ٨٥٥ م . وقد حفظ لنا التاريخ من صفاته الخلقية انه كان ربعة ابيض الرأس واللحية ؛ ومن الخليقة انه كان ذا علم وورع متعففاً ناسكاً زاهداً فان كل ما وجد في تركته بعد موته هو سبعة عشر ديناراً فقط ! ... وقد سبقت منا الاشارة الى حجه ايام ولاية والده افلح وقبض العباسيين عليه الى خلافة المتوكل حيث رفع عنه القبض فعاد الى الجزائر ، فوافاها ثائرة على اخيه فحاول القبض على زمام الدولة فلم ينجح واستمرت حوادث اصحاب ابن عرفة والمنافسين من الاعاجم حتى انضم ابو اليقظان الى اباضية نفوسة فاعانوه على القضاء على الثورة وفتح تيهرت صلحاً واستقر بها اماماً مطاعاً الى وفاته سنة ٢٨١ هـ – ٨٩٤ م عن سن تناهز المائة سنة قضى منها زهاء اربعين سنة في الولاية .

مجاعة ووباء ! ...

اشتد القحط بالناس وعمت المجاعة جميع بلاد المغرب والاندلس من سنة ٢٥٣ الى ٢٦٥ هـ (٨٦٧ - ٨٧٨ م ثم اعقب ذلك وباء وموت مئات سنة ٢٨٥ هـ – ٨٩٨ م وقد عم ذلك بلاد مصر والحجاز ايضاً .

ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر

ظهرت هذه الدعوة الشيعية بالجزائر لاول مرة في وادي الرمل (سوق حمار) بنواحي قسنطينة ومرماجنة (ما بين مجانة وسبيبة) وكان ظهورها على يدي رجلين كلاهما جاء من الشرق سنة ٢٧٩ هـ – ٨٩٢ م موفداً من طرف جعفر الصادق لبث الدعاية ضد الخلافة العباسية القائمة يومئذ ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس والمغرب ، ونشر مبادىء الشيعة التي ترمي الى

اقامة الخلافة الاسلامية في آل البيت ، فقاما بهذه الاوساط المغربية يعملان على تنفيذ خطتهما الى وفاتها فخلفهما من بعد ابو عبدالله الشيعي بكتامة ، وهو الذي قضى على مملكة الاغالبة شرقاً وبني رستم غرباً .

الامام أبو حاتم

هو يوسف بن أبي اليقظان جاءته البيعة اثر وفاة والده سنة ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م وهو متغيب بجيشه في حماية القوافل فعاد الى العاصمة مسرعاً لتحمل اعباء المملكة وكان رجلاً وسيماً حيياً كريم السجايا والاخلاق مدرباً على ادارة شؤون الدولة وتنظيم شأن الحكومة ، وبعد سنة من ولايته خرج عليه عمه يعقوب بن افلح وكان بكره الاباضية مع شذوذ فيه وجمع حوله طائفة من أهل تيهرت ومشيختها فأقصاهم الامام عن العاصمة ثم عادوا فاقتحموها عليه وأثاروا بها فتنتهم ؛ ويومئذ خرج أبو حاتم عن عاصمته فاجتمع اليه انصاره فزحف بهم الى العاصمة وضرب عليها الحصار مشدداً عليها الخناق الى ان اضطر اهلها الى طلب الكف عنهم والمهادنة ، فكف عنهم الامام على ان يسلموا اليه رؤساءهم وكبارءهم ، فأبوا ، وحينئذ عادت الحرب الى ما كانت عليه من قبل وبايعوا عمه يعقوب بن افلح .

الامام يعقوب بن افلح

بويع وهو بأرض زواغة غربي طرابلس ، فأسرع من حينه الى العاصمة تيهرت فقاتل بها أبا حاتم ودامت الحال على ذلك مدة أربع سنوات الى ان سعى ذوو الوجاهة والفضل في الصلح بين الطرفين فانتشر السلم بالمملكة أربعة أشهر . وفي اثنائها عمل أبو حاتم على استمالة القلوب اليه واكتساب مودة القوم فمالت اليه الرعية وانقلبت على عمه يعقوب فخلعته ، فذهب حينئذ الى حيث كان بجهات طرابلس ، وطال به أجله الى ان شاهد سقوط تيهرت بيد الشيعة العبيدين ، فارتحل اثرها الى بني وارجلان

– وارقلة – وهنالك عرضت عليه البيعة فأبى لما عليه من ضعف الرستميين أمام الشيعة وقال يومئذ كلمته المشهورة التي أرسلها مثلا : لا يستتر الجمل بالغنم !... ومات هنالك .

عودة أبي حاتم

تصدى ابو حاتم في هذه المرة الى قمع الفتن وتسكين الثوار ورفع شأن العلماء على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم والعناية باصلاح البلاد ونشر العدل والامن بين الناس ، فجاءته وفود الخطباء والشعراء فائقة بين يديه تعدد اياديه وتنشر مناقبه ، واخيراً ائتمر عليه منافسوه من بني عمه واخوته فقتلوه غيلة سنة ٢٩٤ هـ – ٩٠٦ م وقيل بعد سنتين من هذا التاريخ ؟ ... وفر حينئذ ابو سليمان بن يعقوب بن عم ابن حاتم الى ورجلان ، وبايعوا اخاه اليقظان .

الامام اليقظان

هو ابن اليقظان محمد تولى الامامة وايام دولته ذاهبة والحكومة مضطربة ، فعاش مهدد الجانب مختل النظام ولم تطل ايامه حتى دخل عليه ابو عبد الله الشيعي فقتله في خاصته وجماعة من اهل بيته في شوال سنة ٢٩٦ هـ = جوان ٩٠٩ م وذلك بايعاز ومؤامرة من وجوه الرعية .

المذاهب والعقائد

كان اهل المغرب العربي في صدر الاسلام يسيرون في عقائدهم وعباداتهم حسبما يرشد اليه الكتاب والسنة وما ورد في ذلك من الآثار عن السلف الصالح من غير انتماء الى اهل مذهب او طائفة او فرقة او نحلة الى ان قدم عليه جماعة من المشرق ممن تشبعوا بآراء اهل العراق فكانوا يرون راي ابي حنيفة واصحابه مثل عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي واسد بن الفرات قاضي افريقية فنشروا مذهب الكوفيين بافريقية وهكذا

الى ان تولى سحنون بن سعد القضاء فنشر مذهب مالك ؛ وكان الخوارج يومئذ بمن وفدوا على المغرب مختلفين فنشروا هم كذلك عقائدهم ومذاهبهم من نكارية وصفرية واباضية الخ ... وكان ابن رستم مؤسس هذه الدولة على مذهب الاباضية [1] فوضع قواعد دولته على اسس مذهبه الخارجي وكان مع ذلك هو وجميع من خلفه على عرش تيهرت متسامحاً مع جميع اهل المذاهب الاخرى من اهل الرأي وغيرهم ، فقد كانت المناظرات والمباحثات العلمية تعقد بين ايدي الائمة للنظر والجدل في مسائل الاعتقاد وغيرها وذلك بصدر رحب . قال ابن الصغير المالكي مؤرخ هذه الدولة ... ومن اتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة ، وكذلك من اتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك [2] ... ورغم ذلك فانه وقع شيء من التنازع المذهبي بين النكارية والاباضية على عهد الامام عبد الوهاب وهو في حقيقة امره نزاع سياسي لا ديني سببه التهالك على الرئاسة من اصحاب المقاصد والمنافع الشخصية وهو الذي كان سبباً في فتح باب الطعن في الامام والانكار

---

(١) راجع هامش صفحة ١٧٨ عن هذا الجزء .

(٢) كان اكبر معول فقهاء الاباضية على مدونة ابن غانم وهي بربرية اللسان ثم مزجوا فقههم بالعربية ولا تزيد مسائل الخلاف بين الاباضية وغيرهم من المسلمين أهل السنة عن بضع مسائل اجتهادية ؛ أهمها مسألة الصفات فغير الاباضية يقولون انها غير الذات المقدسة وانها قديمة بقدمه عز وجل ، والاباضية يقولون بانها عين الذات . ومسألة رؤية الباري سبحانه فغير الاباضية يثبتونها كما يليق بجلاله ، وهم ينكرونها . ومسألة القرآن فغير الاباضية ينكرون خلقه ، وهم يقولون بانه مخلوق محدث . ومسألة الايمان فهو عند الاباضية لا يتم الا بالعمل ، وعند غيرهم انما هو مجرد اعتقاد يصحبه النطق . ومسألة الخلود في النار فغير الاباضية لا يقولون بخلود العصاة المؤمنين ، اما عندهم فخلدون . ومسألة الكفر فانه لا يطلق عند الاشاعرة الا على من كفر بالله او اشرك ، وعند الاباضية يطلق ايضاً على المنافق وعلى كل من كفر بالنعمة . ومسألة الشفاعة فلا ينالها عند الاباضية اصحاب الكبائر ، اما عند غيرهم فنعم . الخ ... وهناك مسائل اخرى لا تختلف كثيراً عما هو موجود ومعروف كذلك بين الاشاعرة والماتريديه من الخلافات اللفظية والاجتهادية ؛ كما ان هنالك ايضاً مسائل خلافية في الفروع الفقهية هي من قبيل ما هو مستفيض وشائع بين سائر المذاهب الاسلامية ؛ ولكل وجهة ، ولكل مجتهد أجر .

عليه ، وقد ادى ذلك الى وقائع دامية ، وهكذا حب الرئاسة مهما دخل شيئاً الا وافسده .

الثقافة والحضارة والعمران

ليست هنالك دولة من الدول الاسلامية الجزائرية كانت تداني حضارة هذه الدولة فيما بلغته من الرقي والازدهار المادي والادبي سوى حضارة الدولة الحادية التي تلألأت أنوارها بالقلعة وبجاية كما سنحدثك عنها فيما يأتي ؛ فلقد بلغت تيهرت يومئذ شأواً عظيماً من المدنية والعمران ومن توفر أسباب الحضارة والرفاهية حتى انها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق من عواصم الشرق اللامعة ، حتى انها كانت تدعى بعراق المغرب وكان بها من القصور العالية والمنازل الرفيعة والحصون الحصينة والمهارات والمساجد والمتنزهات ما يشبه منشآت هذه البلاد ، وسكن بها من أهل الكوفة والبصرة والقيروان والاندلس وبلاد العجم وغيرهم من أرباب الصناعات والحرف والفنون الجميلة عدد وافر ، وكان فيمن وفد على الجزائر يومئذ من أكابر أعيان المشرق : عبد الرحمن الداخل — صقر قريش — فلقد حل بها مستجيراً ببلاط ائمة تيهرت وملوكها الرستميين ، وتقلب بين قبائل البربر هناك الى ان استقر عند قوم من زناتة قبل انتقاله الى الاندلس[1] .

ولا ننسَ ان امه بربرية نفزية من قبيلة نفزاوة . وقد كان بالجزائر من العلماء والادباء ما يحق لها ان تفتخر بهم يومئذ على البلاد مثل : أبي الفضل احمد التاهرتي ، ومشاهير بيت آل الطبني زيادة الله ، وسعيد بن واشكل التاهرتي ، وبكر بن حماد الشاعر وغيرهم ... ويكفينا في الاستدلال على ذلك نبوغ امثال يهوذا ابن قريش التاهرتي — في القرن الرابع الهجري — فانه كان متضلعاً في كل من اللغات العربية والعبرانية

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ وج ٤ ص ٢٨ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م .

والآرامية والفارسية والبربرية ، وحاول المقاربة بين بعضها ؛ وهو الواضع لاساس النحو التنظيري ، وله في ذلك كتاب موجود بمكتبة اوكسفورد من بلاد الانكليز هو من انفس ما كتب في الموضوع . وقد كان ائمة هذه الدولة ورؤساؤها يعقدون مجالس العلم والتعليم يعلمون الناس ويلقون عليهم بأنفسهم دروساً عامة بالمساجد في فنون من العلم مختلفة ؛ وفيهم من يقول الشعر ايضاً ؛ فمن ذلك قول الامام افلح في العلم :

العلم ابقى لاهـــل العلم آثارا ... يريك اشخاصهم روحـــاً وابكارا
حي وان مات ذو علم وذو ورع ... ما مات عبد قضى من ذاك اوطارا
وذو حيـــاة على جهل ومنقصة ... كميت قد ثوى في الرمس اعصارا
لله عصبة اهـــل العلم ان لهم ... فضلاً على الناس غياباً وحضارا

وهي قصيدة طويلة تنيف على الاربعين بيتاً وكلها على هذا المنوال في مدح العلم وبيان فضله ومزايا العلماء ... ولهؤلاء الائمة والولاة عناية شديدة بجمع الكتب النادرة وجلبها من اي مكان كانت فتكونت لهم بذلك خزانة دار الامارة المشهورة بمكتبة قصبة المعصومة وكان فيها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب ما يؤسف لفقده اليوم ! ... ولقد فقدت هذه الخزانة العامرة في حوادث الاحتلال الفاطمي ، ويقال عنها انها كانت تشتمل على ثلاثمائة الف مجلد ؟ ...

وبينما الحال على ما وصفنا في الجزائر ازدهاراً اذ كان شارلمان امبراطور فرنسا الاكبر ـــ في القرن الثاني الهجري ، والثامن الميلادي ـــ يحاول ان يتعلم ويتحبب الى الآداب تحبباً ساذجاً كما يحب غير المتعلمين ان يروا احياناً السطور المكتوبة ، وكانت تشبه آداب عصره ادب صبيان المدارس وتمارينهم اليوم ، بل لم يكن في غاليا ـــ فرنسا ـــ شيء يشبه الادب ، ولقد فقد منها على عهد شارلمان وبعده بزمن طويل كل اهتمام بشيء يقال فيه الثقافة العامة .

اما عن الحياة الاقتصادية من فلاحة وتجارة وحركة الصادرات والواردات فان مملكة تيهرت كانت تعد احدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى

فهي واسعة الاخذ والعطاء فكانت الحبوب والازهار بأنواعها تزرع بأرض الجزائر والاسواق ملأى بمختلف البضائع والمصنوعات ، وكانت طرق القوافل معبدة متصلة بصحراء افريقية وبلاد السودان شرقاً وغرباً ، قال البكري : « وفيها – اي تيهرت – جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً ومشماً ويسمى بالفارس ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج ... قال : وبتيهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة ، يسمي منها اثني عشر حماماً ، وحواليها من البربر امم كثيرة ، ومدهم الذي يكتالون به خمسة اقفزة ونصف قرطبية ، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فانه قنطار عدل ، ورطل اللحم عندهم خمسة ارطال . ويغرق المقدسي في وصفها بأوصاف الحسن والكمال الى ان يقول فيها : هي بلد كبير كثير الخير ... هي بلخ المغرب ... »[1] . كما ان السفن تغدو وتروح بين بر العدوة ومرامي الجزائر مشحونة بشتى أصناف السلع ... ولقد خصت أخبار تيهرت بالتدوين ، فأفردها بالتأليف أبو عبدالله محمد بن يوسف التاريخي الاندلسي المشهور بالوراق في كتاب خاص لا ندري أين هو اليوم ؟ ! ...

انهيار الدولة الرستمية

ان أكبر عامل في سقوط هذه الدولة هو اختلاف الكلمة بين الحكومة والشعب وما انتشر عن ذلك يومئذ من الفتن والاضطرابات التي اضعفت الدولة امام رعيتها فتضعضعت بفقد جندها الحامي . واخذت احزاب الامة يومئذ في حبك المؤامرات ضد الحكومة فقتل الامام ابو حاتم ؛ وقامت « دوسرا » بنت اليقظان – الامام نفسه – تشارك في حملة ابي عبدالله الشيعي للقضاء على الدولة وقتل الامام ! ... وكانت الدعوة الشيعية يومئذ قد اطبقت البلاد وذاع خبر انتصارها على الدولة الاغلبية المجاورة فخرج

---

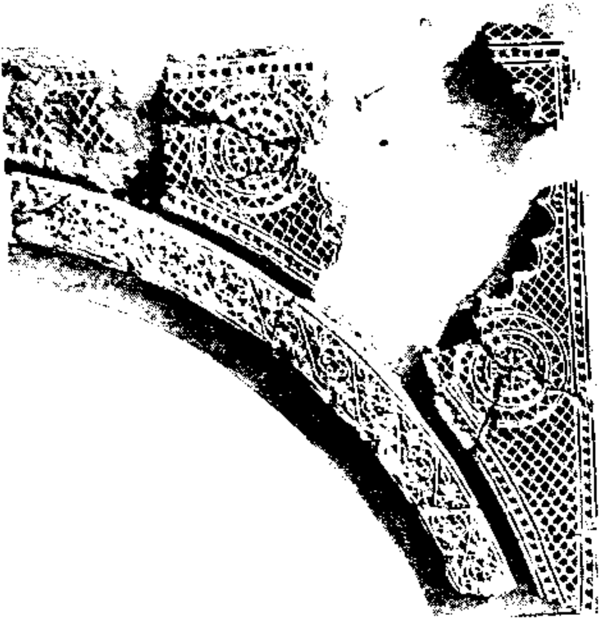
(١) المسالك والممالك للبكري ص ٦٦ – ٦٩ ط الجزائر ١٨٥٧ م ، واحسن التقاسيم للمقدسي ص ٢٢ ط الجزائر ١٩٥٠ م .

الامام اليقظان مستلماً للعيديين فقضوا عليه وعلى دولته سنة ٢٩٦هـ - ٩٠٩م فكان ذلك كله من عوامل تيسير الاستيلاء الشيعي على البلاد فسقطت بيد العيديين من غير قتال ولا حرب .

تأسيس بلاد مزاب

كان لسقوط هذه الدولة وقع عظيم في نفوس اولى الغيرة الوطنية والحماس الديني فهاجروا تيهرت الى الجنوب فمنهم من هاجر الى الجنوب الغربي ، ومنهم من هاجر مع الامام يعقوب الى نواحي وادي ميتة فأسسوا مدينة الكريمة ، ودخلوا مدينة بني وجلان - وارقلة - وهناك على بعد اربعة عشر كيلومتراً جنوباً اخذوا في تأسيس عاصمتهم الجميلة « سدراتة » المعروفة عند البربر بأسدراتن ذات المدنية العظيمة ، فأنشأوا بها قصورهم البديعة والمنازل الرفيعة واقاموا بها البساتين والمزارع والمنشآت الضخمة ونشروا فيها من الرفاهية والحضارة ما اعجب منه العلماء اليوم . ولقد شرع الباحثون من علماء الآثار والحفريات منذ ربيع سنة ١٩٥١م في الكشف عن هذه المدينة التي غطتها الرمال وتراكمت عليها الكثبان ؛ فعثروا في بحوثهم الحفرية على آثار جليله قيمة من مبان عجيبة ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية واشكال هندسية واوان متنوعة ذات اهمية كبرى في تاريخ الجزائر الحافل ولا يزال البحث وأعمال الحفر والتنقيب مستمرة حول هذه المدينة التي يبلغ طولها اكثر من كيلومترين ، وعرضها نحو كيلومتر واحد : فهي حقاً احدى ذخائر وكنوز الفن الجزائري بأتم معناه ؛ وبالمتحف الجزائري اليوم بعض تحف ثمينة وقطع نفيسة عثر عليها بهذه المدينة فهي موضوعة هناك معروضة للجمهور ، آية ناطقة بعبقرية الجزائري وتقدم الفن الاسلامي بالجزائر منذ اكثر من ألف سنة ؛ قال الشريف الادريسي عن مدينة « وارقلان » - وارقلة - هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار اغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة - هكارة ؟ - فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلدهم - عملة مسكوكة - باسم بلدهم ، وهم وهبية اباضية .

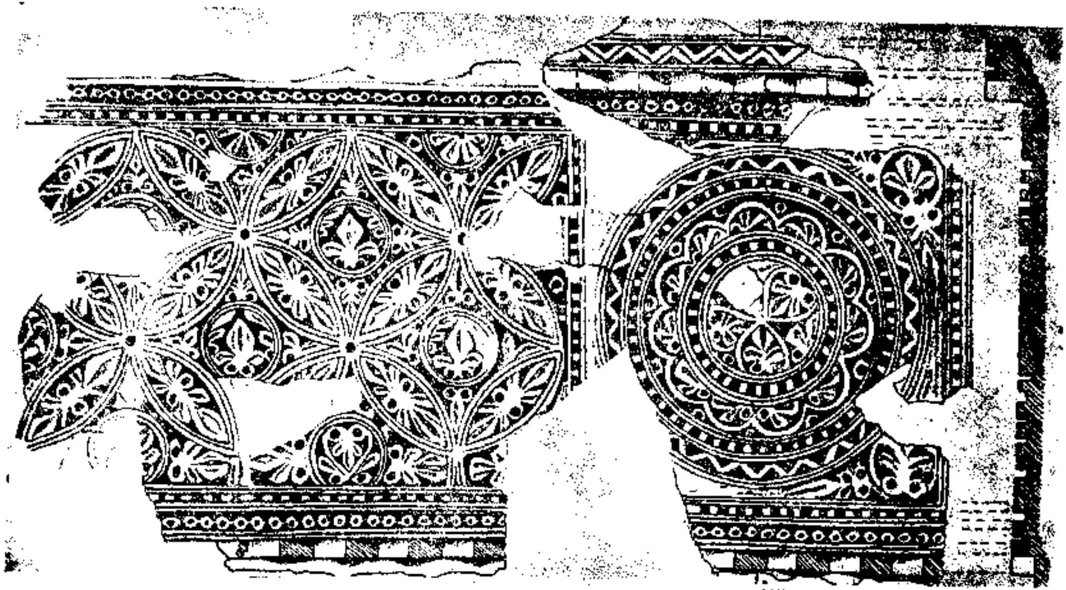
وبعد ما اظهر القوم هنالك نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي هابهم اهل



من آثار مدينة سدراته في القرن الرابع الهجري



من آثار مدينة — سدراته — : (بركة)



من آثار المدنية الجزائرية في القرن الرابع الهجري – مدينة سدراته –

وارقلة وتوجسوا منهم خيفة وخشوا منهم المنافسة والمزاحمة ؛ فأجلوهم عنها وحل محلهم الزنوج . فخرج الاباضية منها يومئذ الى جبال بني مصاب ، اومزاب بالشمال الغربي من وارقلة وجنوب مدينة الأغواط فسكنوا اولاً الخيام ثم اخذوا في تأسيس المدن والقرى ، فكان اول ما اسسوا هنالك مدينة العطف اختطها رئيسهم خليفة بن آبغور سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١م . وفي سنة ٤٣٧ هـ - ١٠٤٥م تأسست مدينة بونورة ، ثم العاصمة غرداية سنة ٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ اسسها ثلاثة من زعماء الاباضية : سليمان بن يحيي وعيسى بن علوان ، وابو جمعة ، واصبحت هذه المدينة مركزاً لتلك القصور الاباضية السبعة التي انشئت بعدها : كبني يسقن ، ومليكة ، واخيراً القرارة وبريان . ومن الاباضيين من توجه بعد الجلاء من تيهرت وسدراته الى البلاد الطرابلسية والتونسية فهم فيها الى الآن .

وذكر ابن خلدون بلاد «مزاب» هذه ورسم اسمها بصورة صاد وسطها زاي كرسم أهل المصحف لحروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف ، فان النطق بصاد فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي ودل ذلك على التوسط بين الحرفين ، قال وهو اسم للقوم الذين اختطوا هذه البلاد ونزلوها ، و (بنو مصاب) من البربر وهم فخذ من بطن بادين بن محمد من ولد زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا (من قبيل زناتة) المتشعبين الى شعوب كثيرة منهم بنو عبد الواد وبنو مرين وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال ، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد ، وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد ، وراشد هذا هو أخو بادين ... قال وسكانها - أي بلاد مصاب - لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فمن يضاف اليهم من شعوب زناتة ، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغراس وتفرق الجماعة بتفرق الرئاسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب [1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧ ط بولاق ١٣٧٤ هـ ، وتاريخه ج ٧ ص ٥٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

من اكتشافات (مارغريت فان برشم) في حفرياتها بسدراتة



اطلال دار عربية بسدراتة اكتشفت سنة ١٩٥١



تفاصيل من الزخارف الجصية اكتشفت بسدراتة سنة ١٩٥٣

كما يسكن بتلك النواحي ايضاً غير هؤلاء قوم من صنهاجة ولماية وبني فاتن وغيرهم .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان ممن حافظ التاريخ على أسمائهم من ولاة هذا العصر وزعمائه : محمد بن مسالة امير هوارة المستبد بتيهرت ايام ابي بكر بن افلح وكان يسكن مدينة الجبل ، ومحمد بن عرفة التيهرتي مفوض حكومة ابي بكر ، ويزيد بن فندين مناهض بني رستم ، وشيخ المدينة ابو مسعود ، وعبد الرحمن بن صواب النفوسي امير بيت المال ، ومحكم الهواري الاوراسي قاضي تيهرت على عهد الامام افلح ، ومثله القاضيان : ابو عبدالله محمد بن ابي الشيخ وشعيب بن مدمان ؛ ومزور بن عمران وزير الامام عبد الوهاب ، ووزكار وابرهيم بن مسكين رئيسا الشرطة على عهد الامام ابي حاتم . وابو سهل الفارسي من احفاد الامام افلح تولى خطة الترجمة بدواوين الحكومة على عهد الامامين : افلح وابي حاتم ، وله تآليف كثيرة باللغة البربرية ودواوين شعرية وكان افصح اهل زمانه بها .

ائمة الدولة الرستمية

	تاريخ التولية
الامام عبد الرحمن بن رستم	١٦٠ هـ - ٧٧٦ م
الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٧١ هـ — ٧٨٧ م
الامام افلح بن عبد الوهاب	١٩٠ هـ — ٨٠٥ م
الامام ابو بكر بن افلح	٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م
الامام ابو اليقظان بن افلح	٢٤١ هـ — ٨٥٥ م
الامام ابو حاتم بن ابي اليقظان	٢٨١ هـ — ٨٩٤ م
الامام يعقوب بن افلح	٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م
الامام اليقظان بن ابي اليقظان	٢٩٤ هـ — ٩٠٦ م

من مشاهير الجزائر

بكر بن حماد

٢٠٠ ـ ٢٩٦ هـ

٨١٦ ـ ٩٠٨ م

ابو عبد الرحمن بكر بن حماد بن صهر او سهل ؟ ... بن ابي اسماعيل الزناتي التاهرتي هو من اشهر كبار علماء الجزائر وادبائها في هذا العصر ، ولد ونشأ بتيهرت حوالي سنة ٢٠٠ هـ - ٨١٦ م فاخذ العلم والادب عن علماء بلده ثم ارتحل الى القيروان فاخذ عن امثال صاحب المدونة سحنون بن سعد ، ودخل بغداد سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م فاخذ عن ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر ، ولقي من الادباء امثال ابي تمام صاحب ديوان الحماسة ، ودعبل الخزاعي ، وعلي بن الجهم ، ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وابن الاعرابي ، والرياشي وابي حاتم السجستاني وغيرهم من فطاحل الادب العربي وشيوخ المشرق وعلمائه وكانت له مع هؤلاء مساجلات ومطارحات ادبية شعرية ونثرية ؛ واتصل بخلفاء الدولة العباسية وبملوك بلده تيهرت ، وحصلت له جوائز وصلات من الملوك والامراء ؛ قال عنه البكري انه : كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث ؛ وقال ابن عذاري : كان عالماً بالحديث وتمييز الرجال وشاعراً مفلقاً . تصدر الشيخ بجامع القيروان لاملاء الادب والعلم سنة ٢٧٤ هـ -

٨٨٧ م فارتحل اليه الكثير من اهل الاندلس للاخذ عنه والتخرج على يده، وكان منهم قاسم بن اصبغ البياني؛ وقد وقعت له مع هذا قصة حوار ادبي دار بين الشيخ وتلميذه، وتدل هذه القصة على تواضع الشيخ وتجافيه عن مقاعد الكبر ورجوعه الى الصواب، قال القرطبي :

« وذكر ابو محمد قاسم بن اصبغ قال : لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فاخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت الى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت اليه لتمام حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم، انه قدم عليه قوم من مضر مجتابي النمار، فقال : انما هو مجتابي النمار، فقلت انما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من قرات عليه بالاندلس والعراق، فقال لي. بدخولك العراق تعرضنا وتفخر علينا ! ... او نحو هذا. ثم قال لي : قم بنا الى ذلك الشيخ – لشيخ كان بالمسجد – فان له بمثل هذا علماً، فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : انما هو مجتابي النمار، كما قلت : وهم قوم كانوا يلبسون الثياب، جيوبهم امامهم، والنمار جمع نمرة. فقال بكر بن حماد واخذ بانفه : رغم انفي للحق، رغم انفي للحق، وانصرف »[1].

وكان مجلس ابن حماد حافلاً بطلبة العلم على اختلاف مذاهبهم؛ كانت عودته الى بلده تيهرت سنه ٢٩٥ هـ – ٩٠٧ م ثم كانت وفاته بقلعة ابن حمة شمال مدينة تيهرت وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ – جوان ٩٠٩ م اي في نفس السنة التي سقطت فيها الجزائر الرستمية بيد العبيدين؛ ومن شعره قوله لما عاد من العراق معتذراً للامام ابي حاتم :

ومؤنسة لي بالعراق تركتها   وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي[2] قبلها   « عزيز علينا ان نراك تسير »

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٨٧ ط القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م.

(٢) ابو نواس الشاعر العباسي المشهور.

فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال علي الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضة ولكن اتت بعد الامور امور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم ، والدائرات تدور

وله في جميع اغراض الشعر قصائد طويلة وقطع رائعة هي متفرقة في كتب الادب والتاريخ ومنها قوله في وصف طقس مدينة تاهرت الشديدة البرد شتاء :

ما أخشى البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة كفرحة الزمن بالسبت

جدول تاريخي

١٦٠ ـ ٤٠٢ هـ

٧٧٦ ـ ١٠١١ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٤٨ هـ = ٧٦٥ م	انشاء مدينة تاهرت ـ تيهرت .
١٦٠ هـ = ٧٧٦ م	مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة بتاهرت .
١٧١ هـ = ٧٨٨ م	توثيق العلائق بين الحكومة الرستمية والاغالبة وولاية الامام عبد الوهاب .
١٧٣ هـ = ٧٨٩ م	مقاومة الدولة لقبيلة زناتة الثائرة .
٢٣٩ هـ = ٨٥٣ م	تخريب مدينة العباسية واحتراقها على يد الامام افلح .
٢٤١ هـ = ٨٥٥ م	امتناع تاهرت عن ابي اليقظان .
٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م	ابتداء ذيوع الدعوة الشيعية بالجزائر والمغرب الاقصى .
٢٨٢ هـ = ٨٩٤ م	الخلاف بين ابي حاتم وعمه يعقوب .
٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م	انتشار المجاعة والوباء .
٢٩٤ هـ = ٩٠٦ م	اغتيال ابي حاتم وولاية اليقظان
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	سقوط الدولة الرستمية وقتل اليقظان .
٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م	تأسيس مدينة سدراتة وبلدة الكريمة بالجنوب الجزائري .
٤٠٢ هـ = ١٠١١ م	تأسيس بلاد مصاب ـ مزاب .

الدّولة الأدريسيّة

١٧٢ ــ ٣١١ هـ

٧٨٨ ــ ٩٢٣م

نشأتها

خرج ادريس الاكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من الشرق لما يئس من نجاح مطلب الطالبيين هنالك ونجا بنفسه من اضطهاد العباسيين الى المغرب ، وقد علم يومئذ ضعف سلطانهم به وانحراف اهله عنهم فقصده ونزل منه بمدينة « وليلى » بالمغرب الاقصى ، فصادف تعطش المغاربة الى تأسيس دولة اسلامية مستقلة عن المشرق كما فعل اهل الاندلس من قبل ، وكانوا من قبل يبحثون عن زعيم لهم ليكونوا حوله الوحدة المغربية ؛ وكان العلويون — ومنهم ادريس هذا — يرون احقيتهم في الخلافة دون العباسيين ، وذلك لانعقاد الامامة الشرعية لهم قبل اولئك [1] ويومئذ انتهز ادريس هذه الفرصة واباح بسره حول تأسيس الدولة الجديدة واظهر بالمغرب دعوة العلويين الشيعية الزيدية [2]

---

(١) بويع محمد بن عبد الله ـ النفس الزكية ـ بالخلافة في المدينة ، وهو اخو ادريس الأكبر وكان فيمن حضر البيعة يومئذ وبايعه ابو جعفر المنصور العباسي واخوه السفاح ثم نكث المنصور بيعته وقتله سنة ١٤٥ هـ ـ ٧٦٢ م

(٢) لا يزال يوجد اتباع هذه الدعوة باليمن الى اليوم ، وهم ينتسبون في دعوتهم الى زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ؛ خرج زيد على هشام بن عبد الملك بن مروان فقتله الخليفة وصلبه ١٢١ هـ — ٧٣٦ م

فبايعته حكومة المغرب البربرية غرة ربيع الاول ١٧٢ هـ - اوط ٧٨٨ م وكان على راس هذه الحكومة يومئذ اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي المعتزلى ، واطاعته معها القبائل البربرية المجاورة وخلعت طاعة العباسيين ، ويومئذ قضى ادريس على ما بقي هنالك متفرقاً بالبلاد من عقائد المجوسية واليهودية والنصرانية ومذاهب الاعتزال ووحد كلمة المغاربة حول الدولة العلوية الجديدة .

نظامها الحكومي

لا تختلف هذه الدولة في نظامها الاداري وشكلها السياسي عن نظم بقية الدول الاسلامية المعاصرة عامة ؛ سوى انها غير مركزية ، وهي جناية سياسية كانت عليها وبالا ؛ وكان أئمة هذه الدولة يرون انفسهم احق بامارة المؤمنين من غيرهم لسبق انعقادها لهم قبل سواهم من العباسيين كما ذكرنا .

قال ابن خرداذبة : وليس يسلم عليه - يعني الامام الادريسي بالخلافة ، وانما يقال « السلام عليك يا ابن رسول الله »[1] . والامام هو صاحب السكة واللواء[2] والدعاء على المنبر ؛ واقامته كانت بفاس وهناك ولاة وامراء وعمال منتشرون في انحاء المملكة ولهم فيها نوع استقلال .

الجزائر الادريسية

وبعد ما اطمأن المولى ادريس على المغرب الاقصى واذعنت له قبائله زحف في جموع مطفرة وغيرهم على المغرب الاوسط - الجزائر - لفتح الطريق الى المشرق وتوسيع مملكته المغربية ، فنزل على محمد بن خزر بن صولات المغراوي

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٠ ط الجزائر ١٩٤٩ م

(٢) كانت راية هذه الدولة بيضاء عكس المسودة من بني العباس ، وظلت كذلك الى عهد الدولة الصنهاجية فاتخذتها هذه من حرير ووشتها بالذهب ؛ واشتهر العلويون وهم الطالبيون عموما باسم المبيضة لاتخاذهم البياض شعارهم في لباسهم وراياتهم مخالفة للعباسيين اعدائهم في اتخاذ شعارهم - السواد - وذلك حزنا منهم على شهدائهم من بني هاشم ولعيا على بني امية في قتلهم

امير تلمسان فبايعه محمد في رجب سنة ١٧٢ هـ – ديسمبر ٧٨٨ م وأسلم له تدبير شؤون ولايته الجزائرية بدون محاربة ولا قتال ، ودانت له القبائل المجاورة هنالك من بني يفرن ومغراوة وجميع امهات قبائل المغربين الاقصى والأوسط وقد كان لهذه المبايعة اثر خطير في فصل الشمال الافريقي عن الخلافة العباسية وفي ظهور تلك القبيلة العتيدة زناتة على مسرح تاريخ هذا الشمال وخاصة الجزائر .

حدود الجزائر الادريسية

واذا نظرنا الى حدود الجزائر الادريسية وجدناها لا تتعدى من جهة الشمال الشرقي مدينة وهران ونهر شلف ؛ ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر الى جبال مديونة قبلي فاس ؛ وللك ان تقول انها تمتد على الساحل من الريف غرباً الى ارض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقاً ، ثم تعود بناحية تنس غرباً وجنوب شلف الى مليانة وتنتهي بتيجة .

امارة تلمسان

مكث ادريس الاول بتلمسان نحو السبعة اشهر وفيها كان تأسيس مسجده الجامع ونقش على صفح منبره هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما امر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن علي رضي الله عنهم وذلك في صفر ١٧٤ هـ. ولم يبق من اثر هذا المسجد اليوم الا اطلال من مأذنته بأكادير [١] – تلمسان القديمة – ثم عاد بعد ذلك ادريس الى عاصمته « وليلي » المعروفة اليوم بقصر فرعون [٢] وترك

(١) كلمة سامية استعملها الفينيقيون والعبرانيون بمعنى « الجدار » وهي من لغة البربر بمعنى الحصن والابار وهو المكان الذي يجمع وينخد فيه الزرع والحبوب .

(٢) هي اليوم خراب واطلال قائمة على ربوة متصلة بجبل زهرون من جهة وادي خومان ، تعرف في الخرائط باسم (Volubilis) تبعد عن الضريح الادريسي بنحو ثلاث كيلومترا وعن مدينة فاس بخمسين كيلومترا غرباً .

ابن العلاء والياً على تلمسان . وفي هذه السنة اتخذ ادريس السكة وضرب عمله بمدينة ترغة ، وفي فاتح سنة ١٩٩ هـ – ٨١٤ م احدثت طائفة الصفرية وقبائل نفزة ثورات بتلمسان عجز العامل عن اخمادها ، وهو يومئذ محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل ، فزحف اليهم ادريس الثاني من عاصمته الجديدة – فاس – فأقمع الثائرين وقضى على الفتنة ومكث هنالك بتلمسان ثلاث سنوات رسم فيها حدود مملكته وعقد فيها اتفاقية مع جيرانه الاغالبة على ان يكون نهر شلف هو الحد الفاصل بين المملكتين وتعاهدوا على السلم والموادعة . وأمر ادريس يومئذ بترميم ما بلي من المسجد الجامع الذي اشاده والده واصلح منبره ، وجدد العهد لابن عمه محمد على ولاية تلمسان ثم عاد الى فاس ؛ وبقي محمد هذا على ولايته مقيماً بعين الحوت الى وفاته بجبل وهران ، فخلفه يومئذ ابناؤه وحفدته . واستمرت هذه الولاية فيهم الى ان سقطت بيد موسى بن ابي العافية المكناسي عامل الشيعة سنة ٣١٩ هـ – ٩٣١ م ويومئذ خرج منها عاملها الادريسي الحسن بن ابي العيش وهو من اعقاب سليمان بن عبد الله الكامل ملتجئاً الى جزيرة ارشقول ؛ وانتشر الادارسة يومئذ بالمغرب العربي كله واعقبوا فيه ، ومنهم من استقل ببعض المدن الجزائرية ، فحكم بعضهم ارشقول ، وهي على خمسة عشر ميلاً شمال تلمسان ، ومنهم من سكن تنس ، ومنهم بترنانا على ثمانية اميال من تدرومة ، ومنهم بغليزان ومدكرة بنواحي مليانة ومنهم من حل بسوق ابراهيم بنواحي شهبونة والسرسو حيث مصب نهر اسلي في شلف وغيرها . وهي آخر المدن التي بايديهم وكل من هذه الاماكن والجهات كان مستقلاً بيد هؤلاء الادارسة لا ارتباط لهم مع امامة فاس الا في الدعاء على المنابر والسكة .

امارة متيجة

كانت لبني محمد بن سليمان العلوي ممالك متفرقة بالمغرب ، ومنها بالجزائر امارة متيجة هذه ، وهي ارض فسيحة كلها سهل واسع يمتد من العلمة شرقاً الى مارانكو غرباً ويحدها من جهة الشمال مدينة الجزائر ،

وجنوباً جبل بني صالح وبني ميسرة ، و « متيجة » اسم قاعدة هذه الامارة القديم ويقال لها ايضاً « قزرونة » ولعلها نفس المكان المدعو اليوم خزرونة قرب مدينة البليدة باميال . كانت هذه الولاية تحت ادارة وتصرف محمد بن جعفر عم ادريس الاول ؛ ومن نسله ابو فريك الكافر المسماة به ناحية بوفاريك الخصبة الشهيرة بسهل متيجة قرب البليدة ، فهو من ولد جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذكر ابن حزم ان نسله بمتيجة .

امارة هــــاز

هاز اسم مدينة قرب المسيلة بنواحي عين بوسيف يسكنها بنو برنان أو برنيان من زناتة وهي عاصمة البلاد التي بين البويرة وجبال جرجرة الى قصر البخاري ونواحي زاغز الشرقي ، وتشمل سهل حمزة الفسيح المنسوب الى حمزة بن الحسن بن سليمان الطالبي العلوي مؤسس مدينة البويرة ، وبه ابناؤه اصحاب هذه الديار ، ومن الاماكن والبلاد المشهورة بهذه الامارة مدينة عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى ؛ وكان خراب هذه الامارة على يد زيري بن مناد الصنهاجي حين أخذ بمبادىء الدعوة العبيدية — الفاطمية — ثم أجلب عليها بعد ذلك جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي فقضى عليها .

متنبيء تلمسان ؟ ! ...

وفي هذا العهد ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م ظهر بنواحي تلمسان رجل كان مؤذناً باحد المساجد هناك ولم يذكرنا لنا التاريخ اسمه ؟ .. فادعى النبوءة واخذ يفسر القرآن الكريم على غير وجهه ويحمله من المعاني ما يتبرأ منه الاسلام والعربية ، ونهى الناس عن خصال الفطرة قائلاً : لا تغيير لخلق الله ! ... فاجتمع عليه من الاوغاد من يصح فيهم قول القائل : انعق يا مشئت تجد انصاراً ! ولما شعر بعزم الشرطة على القبض عليه ذهب الى مرسى

هنين فركب من هناك الى الاندلس فراراً من امير تلمسان ، وهناك في الاندلس فعل مثل ذلك بحيث اخذ في نشر دعوته فاجتمع عليه الانذال والاوباش فقبض عليه الامير فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه .

اختطاط مدينتي تنس ووهران

كثيراً ما كان البحارة الاندلسيون يرتادون السواحل الجزائرية والاماكن المنيعة منها امناً من الزوابع والاضطرابات البحرية ، وللتجارة ايضاً . وكان مما اعتادوا النزول به ساحل تنس ووهران ، وخاصة في الشتاء فانهم كانوا يقصدون ساحل تنس خاصة ، ولم يكن بذلك المكان يومئذ سوى قلعة فقط . وفي ذات يوم اجتمع عليهم سكان هذه الناحية ورغبوا منهم اتخاذ هذا المكان سوقاً لتجارتهم وسمحوا لهم باقامة ما شاؤوا من البنيان في تلك البقعة ، ووعدوهم بالعون والمساعدة وحسن الجوار والعشرة ؛ فلبى هؤلاء الاندلسيون هذه الرغبة وأجابوهم الى ذلك فكان يومئذ تأسيس مدينة تنس سنة ٢٦٢ هـ — ٨٧٥ م على يد جماعة من الاندلسيين منهم ابو عائشة والصقر وصهيب والكركرني ... وسكن بها على الاخص اهل البيرة وتدمير من بلاد الساحل الاندلسي ؛ واصحاب تنس يومئذ هم ابناء ابرهيم بن محمد الحسني ، وما كاد يتم اختطاط المدينة حتى اقبل على تعميرها ايضاً سكان سوق ابراهيم في اربعمائة بيت ، فاوسع لهم اهلها واشركوهم في اموالهم وتعاونوا جميعاً على انشاء المدينة واشادة بنيانها ؛ فأصبحت اذ ذاك عاصمة من عواصم القطر الجزائري ومركزاً علمياً ثقافياً اشتهر بها جماعة من العلماء منهم ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي مفتي مدينة الزهراء بالاندلس ... ثم خربتها الفيضانات وسيول المياه الدافقة سنة نيف وعشرين وستماية .

اما وهران فانها اسست كذلك على يد جماعة من الاندلسيين كانوا تجاراً ينتجعون مرفإ المدينة الاثرية « ايفري » بمعنى الكهوف ، بمشاركة نفزة وبني مسقن ويقال لهم مسرقين وكلاهما من قبيلة زداجة الزناتية ، وبذلك المكان تأسست مدينة وهران سنة ٢٩٠هـ — ٩٠٣ م . ومن هؤلاء الاندلسيين الذين شاركوا في هذا العمل العمراني الجليل : محمد بن ابي عون

ومحمد بن عبدوس في آخرين من بحارة الاندلس فاستوطنها هؤلاء سبع سنين ثم نشب الخلاف بينهم فخربت المدينة واضرمت فيها النيران ثم انشئت من جديد كما ستقف عليه في مكانه ؛ ويذكر المشرفي في بهجة الناظر : « ان الصحيح في تأسيس هذه المدينة انما يرجع الى ما يعرف عن خزر بن حفص بن صولات المغراوي فهو الذي انشأ مدينة وهران وبناها على سيف البحر الرومي كما امره بذلك امراؤه الامويون بالاندلس حيث كان يرجع اليهم بالولاء » . واشتهر من علماء وهران غير واحد ، فنهم عبد الرحمن بن عبد الله الوهراني شيخ الحافظين الاندلسيين ابن عبد البر وابن حزم ...

المذاهب والعقائد

ما كان لهذا المغرب ان يتحد في عقيدته ومذهبه الا في عصر هذه الدولة الادريسية ؛ فانه بمجرد ما اطمأن ادريس الاول لتدعيم اركان دولته وتوطيد دعائم ملكه نهض للقضاء على ما كان بالمغرب من مختلف العقائد والاديان فقضى على بقايا اليهودية والنصرانية والمجوسية وناهض الخوارج والمعتزلة وجمع الناس على عقيدة السلف ودعاهم الى الاقتصار على مذهب الامام مالك وجاءهم بالموطأ فنشره بينهم ، ويقال ان أول من جاء بالموطأ الى المغرب هو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣ هـ — ٧٩٩ م وان روايته للموطأ مشهورة بين الموطآت توجد منها قطعة صالحة بمكتبة القيروان العتيقة [١] وكان ادريس يقول نحن احق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه ، وذلك لرواية الامام في الموطأ عن والده عبد الله الكامل ، ولما كان يراه مالك ايضاً ويفتي به من خلع الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور وصحة البيعة لمحمد النفس الزكية اخي ادريس ؛ وقد لحق مالكاً في ذلك من المحنة والاذى ما لحقه [٢] ! ... فانتشر لذلك

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٠٠ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٨٢ ط القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م وابن خلدون ج ٤ ص ٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

يومئذ المذهب المالكي بالمغربين الاقصى والاوسط كما نشره سحنون بالمغرب الادنى — تونس — فعمت المالكية المغرب الكبير مع ما في ذلك ايضاً من عقائد الزيدية والمذهب الشيعي .

الثقافة والحضارة والعمران

كان عهد الادارسة بالمغرب عهد عمارة وتأسيس وذلك ما تمتاز به الحضارة الادريسية ، فانهم كثيراً ما انشأوا مدناً مزدهرة ومبان فخمة وخاصة بالمغرب الاقصى اعظمها عاصمة فاس وسبتة ... اما في الجزائر فلم يكن لهم بها كبير اثر بسبب بعدها عن مقر الامارة ودار الملك ؛ وقد شاهدنا كيف تأسست مدينة تنس ووهران على يد الاندلسيين واكادير بتلمسان على يد ادريس الاول والبويرة على يد حمزة بن سليمان العلوي ، كما ان ابا العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان العلوي اسس مدينة جراوة سنة ٢٥٩ هـ — ٨٧٣ م وهي على مرحلة من وادي ملوية الى ناحية تلمسان ؛ وقد دعيت بهذا الاسم لكثرة من سكن بها يومئذ من اهل قبيلة جراوة ، وهي منعدمة اليوم ويذكر اليعقوبي مدينة تلمسان فيقول : « عليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة ايضاً ، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة »[1] . كما يمتاز هذا العصر — في اوله — بانتشار الرخاء وخفض العيش وكثرة الخصب حتى بيع وسق القمح بدرهمين وثلاثة دراهم ووسق الشعير بنصف ذلك ، والكبش بدرهم ونصف ، والبقرة باربعة دراهم ، وخمسة وعشرون رطلا من العسل بدرهم واحد ، واما الفواكه والخضر والبقول والقطنية فلا سوم لها بحيث لا تباع ولا تشرى وليأخذ منها من شاء ما شاء ، ولقد دام هذا الرخاء واليسر عشرات السنين الى توالي ايام القحط والاوبئة الفتاكة ٢٥٣ — ٢٦٥ هـ ٨٦٧ — ٨٧٨ م فتغيرت الاحوال حينئذ وارتفعت الاسعار الى حد الشطط .

اما عن الحياة الثقافية والحركة العلمية فلا نعلم عنها يومئذ الا هذه

---

(١) كتاب البلدان ص ١٧ ط ليدن ١٨٦٠ م .

المؤسسة العلمية الضخمة التي احدثت بفاس : جامعة القرويين ٢٤٥ هـ – ٨٥٩ م التي هي اقدم الجامعات – بعد جامعة الزيتونة بتونس[1] – فكثر وفود العلماء عليها من كل ناحية وصوب ؛ وخاصة من اهل القيروان والاندلس .

اما عن الجزائر فقد حدثنا التاريخ عن عدة شخصيات لامعة جزائرية كان يشار لها بالبنان امثال الفضل بن سلمة البجائي وابي بكر بن يحيي الوهراني وغيرهما من مشاهير علماء الجزائر في التاريخ .

انهيار الجزائر الادريسية

اول ما يلاحظه طالب التاريخ في سقوط هذه الدولة هو انقسامها اولاً على نفسها ، فانه لما توفي ادريس الثاني وتولى مكانه ولده محمد قسم بلاد المغرب بين ابنائه واخوته وبني عمه وهم كثيرون ، فاقطعهم البلاد وجعل منهم في كل بلدة او ناحية اميراً مستقلاً لا يشاركه الامام الا في الدعاء له على المنبر فقط ! ... فكان هنالك من خرج عن طاعة الامام وبايع الامويين كأهل تيهرت وسجلماسة وذلك رغبة او طمعاً في نيل رتبة منهم او رهبة لقرب بلاده من ولايتهم . وهكذا تقطعت اوصال الحكومة الادريسية وتبعثرت وحدتها فتمرد الامراء والعمال وانحاز كل الى عمله ؛ وقد اكتنف الدولة يومئذ مطامع دولتين عظيمتين : الدولة الاموية بالاندلس ودولة العبيديين الفاطمية بتونس . ثم ان الحكومة نفسها لم تكن لتعتني بالشعب المغربي العناية اللازمة التي تتطلبها الظروف المكتنفة بها من حيث السياسة الخارجية ؛ مع شراسة اخلاق البربر ووضعيتهم الشاذة ؛ بل تركتهم على فطرتهم وطبيعتهم الفوضوية ينهضون مع كل ناعق ويتبعون كل ناعر ، حتى اذا صاح بهم داعي الشيعة العبيدي فسقطت فاس عاصمة الدولة بيده بسرعة ثم انتهت بالقبض على آخر

---

(١) تظافرت الروايات على ان المؤسس لهذا الجامع هو الامير عبد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ وتم تأسيسه سنة ١٤١ هـ (٧٣٢ – ٧٥٨ م) واما جامع القرويين فالفضل عائد في تأسيسه لامرأة بربرية من هوارة كانت تسمى بام البنين فاطمة بنت محمد الفهري .

ملوكها الامام الحسن الحجام[1] سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م وتأخرت قليلاً بعدها امارات الجزائر الى ان جاء دورها فسقطت سقوط اوراق الخريف الواحدة تلو الاخرى ؛ فأولها سقوطاً جراوة وكانت تحت الحسن بن ابي العيش عيد بني محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل فتغلب عليها موسى بن ابي العافية عامل العبيديين سنة ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م فانتقل اهلها يومئذ الى جزائر ملوية ومنها الى مدينة ارشقول ؛ فتعقبهم ابن ابي العافية واخلى منهم البلاد واستولى على جميع ملكهم سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م ، ثم رفض موسى التشيع واتصل بعبد الرحمن الناصر بالاندلس ودعا الى الخلافة الاموية . ثم كان سقوط ولاية تنس التي كان يرأسها علي بن يحيى فانتصر عليه زيري بن مناد الصنهاجي حليف العبيديين سنة ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م فلحق يومئذ علي بالخير بن خزر المغراوي صاحب وهران مستنصراً به وبعث بولديه الى الناصر الاموي بالاندلس ، ثم عاد زاحفاً على تنس فلم يظفر بها فكان ذلك آخر العهد بالدولة الادريسية بهذه الديار وقد عمرت بالجزائر مائة وسبعين سنة . اما في اقصى المغرب حيث كان مركز خلافتها فقد تقدم انهيارها عن امارات الجزائر باحدى وثلاثين سنة ، ولقد نهض بعض الادارسة بعد ذلك يحاولون اعادة مجدهم فلم ينجحوا .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان محمد بن خزر المغراوي هو صاحب تلمسان قبل ولاية هذه الدولة على المغرب ، ولما احتلها ادريس الاول ولى عليها رجلاً يعرف بابن العلاء ، ثم كانت من اقطاعات سليمان بن عبد الله اخي ادريس ثم خلفه عليها ابنه محمد ، ثم احد اخوان ابناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي . ولما تولى الخلافة محمد بن ادريس الثاني جعل المغربين الاوسط والاقصى اوزاعاً بين اخوته واقاربه فكانت تلمسان واعمالها لاخيه حمزة ، ثم تولاها ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان

(١) كان ينعت بذلك لشجاعته وطعنه لاعدائه في الهاجم .

وتوارثها عنه ابناؤه من بعده الى زمن ظهور بني عبيد . وكان على امارة متيجة بنو جعفر بن حسن عم ادريس الاول ومنهم ابو فريك الكافر ، وعلى تيهرت الحسن بن محمد بن سليمان ، وعلى امارة هاز ابناه الحسن بن سليمان ، وعلى مدينة مدكرة بعيد متيجة محمد بن سليمان ثم ولده ، وعلى سوق ابراهيم ، عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان ؛ وعلى مدينة اغالتة قبل وادي ملوية غرباً : محمد بن علي بن سليمان ؛ وكان على مدينة ارشقول على ضفة نهر التافنا عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان الى وفاته سنة ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م فتولاها بعده ابنه ابراهيم المعروف بالارشقول ثم يحيى بن ابراهيم ، ثم اخوه ادريس بن ابراهيم الى ظهور الشيعة عليه سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م وتولى قضاءها يومئذ عيسى بن جنون ، وكان على مدينة جراوة - على ستة اميال من البحر وعلى مرحلة من ملوية الى ناحية تلمسان - ادريس بن ابراهيم ثم ولده الحسن . وكان للحسن هذا ولد يدعى بعبد الله الترناني لولايته على ترنانا وهي على مرحلة من تلمسان ، وكانت ولاية مازونة وتنس ومستغانم لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده ثم ليحيى بن محمد ثم لعلي بن يحيى الى ان تغلب عليه زيري بن مناد سنة ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م الى الخير بن محمد بن خزر . وجاز ابناه حمزة ويحيى الى الناصر بالاندلس فتلقاهما رحباً وتكرمة ورجع منهما يحيى الى طلب تنس فلم يظفر بها - وهكذا اقتسم الطالبيون المغرب الاوسط بينهم كما فعلوا ايضاً بالمغرب الاقصى .

قال ابن خلدون : وسليمان بن محمد بن ابراهيم من رؤساء المغرب الاوسط وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وبطوش بن حنا تش بن الحسن بن محمد بن سليمان . قال ابن حزم : وهم بالمغرب كثير جداً وكان لهم بها ممالك وقد بطل جميعها ولم يبقَ منهم بها رئيس بنواحي بجاية ، وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر الى القيروان وبقيت منهم بقايا في الجبال والاطراق معروفون هناك عند البربر [1] .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

أئمة الدولة الادريسية وخلفاؤها

	تاريخ التولية
ادريس الاول بن عبد الله الكامل	(٤ رمضان – ٥ فيفري) ١٧٢ هـ – ٧٨٩ م
ادريس الثاني بن ادريس الاول	(فاتح جمادى الثانية – ١٣ سبتمبر) ١٧٧ هـ – ٧٩٣ م
محمد بن ادريس الثاني	(ربيع الاول – ماي) ٢١٣ هـ – ٨٢٨ م
علي الاول بن محمد	(ربيع الثاني – مارس) ٢٢١ هـ – ٨٣٦ م
يحيى الاول بن محمد	(رجب – جانفي) ٢٣٤ هـ – ٨٤٩ م
يحيى الثاني بن يحيى الاول	» »
علي الثاني بن عمر	» »
يحيى الثالث بن القاسم	» »
يحيى الرابع بن ادريس	٢٩٢ هـ – ٩٠٤ م
الحسن بن محمد بن القاسم الحجام	٣١٠ هـ – ٩٢٢ م
موسى بن ابي العافية (مغتصب)	٣١٣ هـ – ٩٢٦ م
القاسم كنون بن ابراهيم بن محمد	
ابو العيش احمد بن كنون	٣٣٧ هـ – ٩٤٨ م
الحسن بن كنون	٣٤٣ هـ – ٩٥٤ م

من مشاهير الجزائر

الفضل بن سلمة البجائي

٣١٩ هـ - ٩٣١ م

الحافظ الحجة والفقيه الضليع الفضل بن سلمة بن جرير الجهني البجائي اخذ عن مشيخة بلده ثم ارتحل الى افريقية فلقي بها ابن عجلون والمغامي احمد بن سليمان ويحيى بن عمر ولازم منهم العالم حماسا ومن في طبقته من العلماء فذاع صيته يومئذ ونبه ذكره ، وارتحل اليه الناس للتلقي عنه فتخرج على يديه جم غفير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي الدقيق ، منهم ولده ابو سلمة واحمد بن سعيد بن حزم وسعيد بن عثمان ومحمد بن عبد الملك الخولاني واحمد بن خالد ، وابو العرب ومحمد بن النجار في آخرين من اهل الاندلس والقيروان ، وله من التآليف : مختصر المدونة والواضحة والموازية ، وله كتاب جمع فيه مسائل الموازية والمستخرجة . توفي رحمه الله سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م

ابو بكر يحيى الوهراني

٤٣٠ هـ - ١٠٣٩ م

المحدث الكبير ابو بكر بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يحيى القريشي الجمحي الوهراني ، روى عن الفقيه ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصيلي وابي عمر الاشبيلي وعباس بن اصبغ وابن العطار وابي نصر النحوي وآخرين ... وعنه تخرج ابو حفص عمر بن الحسن الهوزني وابو محمد بن خزرج وقال في شيخه الوهراني : كان شيخنا هذا متصرفاً في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم ، وكان علم الحديث اغلب عليه ، توفي حدود سنة ثلاثين او احدى وثلاثين واربعمائة هجرية - ١٠٣٩ م .

جدول تاريخي

١٧٢ _ ٣٧٥ هـ

٧٨٩ _ ٩٨٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٧٢ هـ = ٧٨٩ م	تأسيس الدولة الادريسية ومبايعة ادريس الاول بالامامة (٤ رمضان ــ ٥ فبفري) .
١٧٣ هـ = ٧٩٠ م	اذعان تلسان للادراسة (رجب ــ ديسمبر) .
١٧٤ هـ = ٧٩٠ م	تأسيس المسجد الجامع بأكادير ــ تلسان ــ (صفر ــ جوان)
١٩٢ هـ = ٨٠٧ م	تأسيس مدينة فاس .
١٩٩ هـ = ٨١٤ م	قضاء ادريس الثاني على ثورة الصفرية ونفزة بتلسان .
٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م	تأسيس جامعة القرويين بفاس (فاتح رمضان ــ ٣٠ نوفمبر)
٢٥٩ هـ = ٨٧٣ م	تأسيس مدينة جراوة قرب تلسان ــ لا وجود لها اليوم .
٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م	تأسيس مدينة تنس .
٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م	تأسيس مدينة وهران .
٣١٧ هـ = ٩٢٩ م	انتصار ابن ابي العافية على امارات الادراسة بالجزائر والمغرب الاقصى .
٣١٩ هـ = ٩٣١ م	سقوط ولاية تلسان بيد الشيعة العبيديين .
٣٤٢ هـ = ٩٥٣ م	قضاء زيري بن مناد ــ عامل صنهاجة وحليف العبيديين ــ على امارة تنس .
٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م	نهاية عصر الادراسة بالمغرب الاقصى .

الدّولة الأغلبيّة

١٨٤ ــ ٢٩٦ هـ

٨٠٠ ــ ٩٠٩ م

نشأتها

كانت ولاية افريقية الشمالية بأواخر القرن الثاني الهجري تحت امرة محمد بن مقاتل العكي ــ رضيع هرون الرشيد ــ فهو الذي كان يومئذ اميراً بالقيروان وبيده زمام هذه الولاية العربية بافريقية وكان لسوء سلوكه مع الرعية وحيفه واستبداده وجوره ان كرهه الناس وثاروا ضده سنة ١٨٣ هـ ــ ٧٩٩ م ومعهم يومئذ عامل تونس تمام بن تميم ، فانهزم ابن مقاتل وحاول الفرار من الثائرين الى دار الامارة بالقيروان ، فحال الناس بينه وبينها فعرج يومئذ على مدينة طبنة عاصمة الزاب الجزائري مستنجداً بعاملها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي فأخذ بيده العامل وخرج معه الى قمع هؤلاء الناقمين فهزمهم وكسر من شوكتهم ، وعاد الامير منتصراً الى مركزه بالقيروان ، ولكن الرعية بقيت على كراهيتها له وعملت على خلعه بمداخلة ابراهيم بن الاغلب وحثه على توليه الامارة ؛ فكاتب ابراهيم الخليفة في ذلك ملتزماً له بدفع اربعين الف دينار سنوياً الى دار الخلافة ببغداد واسقاط ما كانت تتقاضاه هذه الامارة من النفقات : (مائة الف دينار) من خزينة الدولة العباسية لتنفق بمصالح افريقية وان يتولى ابراهيم قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق منها في مصالح الدولة بالمغرب

ما يشاء ولا يكون مطالاً لهم اللافة العباسية الا بما تعهد به للخزينة وهذا ما يسمى بتضمين الخراج او تقبيله . فاستشار يومئذ الخليفة رجال السلك السياسي في ذلك فاستصوبه اهل الرأي منهم واشاروا عليه بقبوله نظراً لثقل كاهل الدولة العباسية الناشئة بولاياتها المترامية الاطراف من الهند والصين شرقاً الى المغرب الاقصى وبلاد الاندلس غرباً ؛ ودفعاً للدعوة العلوية التي اقامها لنفسه المولى ادريس بن عبدالله بالمغرب ؛ وحينئذ اصدر هرون الرشيد امره في اواسط جمادى الثانية ١٨٤ ه – جوان ٨٠٠ م بعزل محمد بن مقاتل العكي عن ولاية افريقية وتولية ابراهيم بن الاغلب عليها وجعلها وراثية في عقبه ومنحه شبه استقلال داخلي ؛ وهذا ما يسمى في اصطلاح الادارة ونظام الحكم العباسي بأمره التوفيض او الاستكفاء وهي الامارة العامة . وهو يرمي بذلك الى تمكين المغرب من الدفاع عن حوزة الخلافة العباسية امام الدولتين الناشئتين بالمغرب : دولة العلويين – الادريسية – القائمة يومئذ بالمغرب الاقصى ، ودولة الامويين بالاندلس ، ومن هنا ابتدأ استقلال افريقية الذاتي ، فكانت بذلك ولاية المغرب هي اول من استقل بالحكم من الولايات العباسية في العالم الاسلامي يومئذ وكان مما ساعد الاغالبة على الاقدام على هذه الخطة هو بعد موقع البلاد عن دار الخلافة العباسية ومساندة البربر لهم على ذلك في اول الامر .

نظامها الحكومي

الحكومة الاغلبية حرة في داخليتها تابعة اسماً للخلافة العباسية في ظاهرها يدير امورها اميرها او الملك [1] المقيم بالقيروان فهو صاحب النفوذ الاعلى على جميع المملكة الممتدة من طرابلس الى الحضنة والزاب الجزائري ؛ ويعاضده في ذلك وزيراه فيها المتصرفان في انواع مصالح الدولة الاربعة : البحرية ، والحربية ، والمالية ، والبريد ، ولكل من هذه النواحي الاربع

---

(١) كان لقب الملك غالباً عند ولاة الأطراف والعمال بالدولة العباسية . راجع ابن خلدون ج ١ ص ٦٢ ط القاهرة ١٣٥٥ ه – ١٩٣٦ م .

رئيس مفوض مسؤول عن ادارة كل واحدة منها ولكل ادارة كتاب ، وفوق ذلك كله منصب الحجابة ، فالحاجب عندهم بمنزلة مدير التشريفات اليوم ، واما الجند فأنه يشتمل على اربعة فيالق ، وكل فيلق منها مختص بطبقة او صنف من الناس ؛ وهم ما بين عرب وعجم وبربر وعبيد سود ؛ والكل مأجور ، وهم ينقسمون حسب اعمالهم الى ثلاثة اقسام : الحرس الملكي ، والجيش البري والجيش البحري ، وسلاحهم جميعاً السيوف والرماح والحراب والاقواس والدروع والدرق وما كان مستعملاً كذلك يومئذ من بعض الآلات وادوات الحرب مثل المنجنيق والكبش والدبابة الخ ... ويرجع امر الجيش كله الى تصرف مصلحة الجيش العامة وقيادة الحرب العليا ؛ وللحكومة الاغلبية اسطول ضخم عتيد توصلت به الى الاستيلاء على سواحل مملكة فرنسا وايطاليا وجزائر كورسيكا ومردانيا وصقلية ، وهو يشتمل على عدة قطع فيها اشكال وانواع من هيآت السفن البحرية ؛ من اغربة وشواني وطردات وحراقات الخ ... قال ابن خلدون : وكان ولاة افريقية من الاغالبة ومن قبلهم ايضاً يردون عساكر المسلمين واساطيلهم من العدوة حتى غلبوا – الافرنج – على الجزر البحرية ونازلوهم في بسائط عدوتهم [1] . قال ابن حمديس الصقلي السرقوسي يمدح ابا يحيى الحسن بن علي بن يحيى :

انشأت شواني طائرة ... وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها ... في شم شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت ... لعدو محرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه ... ماء وبه تذكي السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا ... من هلك عداتك ما ضمنا

ولقد خلد تاريخ الاسطول الاغلبي ذكراً حسنا وصفحة ماجدة في تاريخ البحرية العربية الافريقية مما يبعث المغربي على المفاخرة والمباهاة به . ومنذ يومئذ اصبحت دولة المغرب الاسلامي دولة بحرية .

(١) العبر ج ٤ ص ٢٠٠ – ٢٠٥ و ج ٦ ص ٢٩٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

واما القضاء فانه كان اولاً من خصوصيات الخليفة فهو الذي يبعث برسم ولاية القضاء لمن يستحقه من صدور العلماء وأئمة الفقه والتشريع ، والقاضي التفويض في اصدار احكامه في جميع الحوادث والقضايا التي من شأنها ان ترفع الى القضاة من احكام الدماء او غيرها من المعاملات ، وله أن ينيب عنه من يتولى الحسبة والشرطة وغيرها من المناصب التي تعينه على فصل النوازل والقضايا اليومية التي تجري بالقرى والاسواق . ولهذه الدولة عملتها الخاصة وسكتها المضروبة باسم ملوكها ، ومصدرها الخراج والجباية ، ولها علاقات ودية وتجارية مع دول اوروبا المجاورة لها .

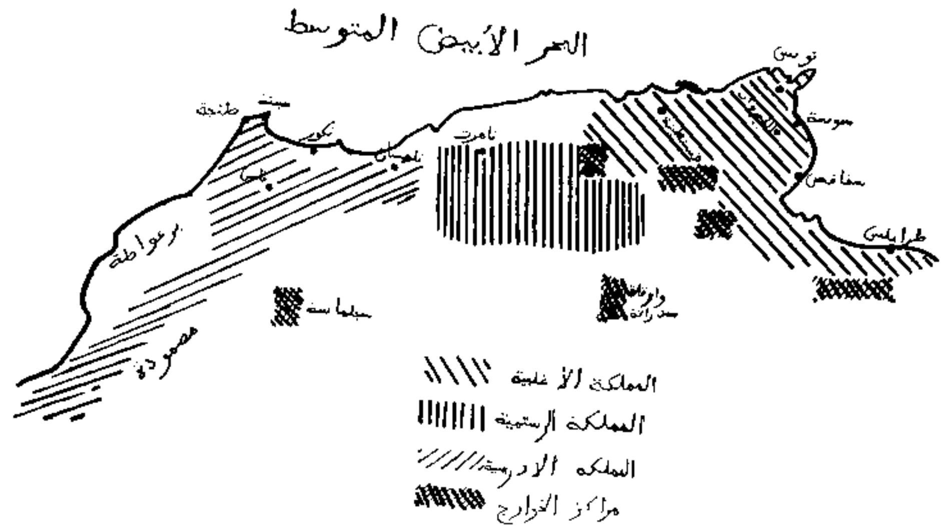
وفيما يرجع الى مبلغ جباية هذه البلاد فالمنقول عن قائمة ابن خلدون انه كان يبلغ على عهد الخليفة المأمون الى ۱۳۰۰۰۰۰۰ درهماً و ۱۲۰ بساطاً ، وخراج الفدان الواحد كان يبلغ ۱۸ ديناراً ؛ ولا يستبعد ان يستمر الاغالبة على تسديد هذا المبلغ الى ايام المأمون ، ذلك لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون المغرب او بالاحرى افريقية من مملكتهم أيام الاغالبة وكانوا يعينون الولاة عليهم من بغداد باعتبار ان الاغالبة تحت هؤلاء الولاة[1] .

حدود الجزائر الاغلبية

كان المغرب العربي منذ عهد الفتح الاسلامي الى انتصاب هذه الدولة منقسماً الى خمسة اعمال : طرابلس ونواحيها الى حدود برقة ؛ وقسطيلة وهي بلاد الجريد اليوم وعاصمتها مدينة توزر ؛ وتونس وما حولها من شمال القطر التونسي ؛ وبلاد السوس او المغرب الاقصى وعاصمته يومئذ مدينة طنجة ؛ والخامس من هذه الاعمال هو بلاد الزاب الجزائري وقاعدته مدينة طبنة — شرقي الحضنة — وتارة بسكرة ويمتد الى جنوب عمالة قسنطينة ؛ وكانت الحدود الاغلبية بهذا القسم تمتد من سكيكدة شرقاً الى وطن زواوة غرباً ، ومن ميلة وسطيف شمالاً الى شط الجريد جنوباً ،

---

(۱) مقدمة ابن خلدون ص ۸۸ ط بولاق ۱۲۷٤ هـ — تاريخ التمدن الاسلامي ج ۲ ص ٥٥ — ٩٠ ط القاهرة ١٩٥٨ م .



المغرب العربي في القرن الثاني والثالث الهجري – اوائل التاسع الميلادي –
(نقل وتعريب غالب الجيلالي ابن المؤلف عن تاريخ افريقية الشمالية لاندري جوليان)

ويصح ان نقول هي عمالة قسنطينة بحدودها المعروفة اليوم مع شيء قليل من التغيير ، وذكر اليعقوبي مدينة اربة فقال هي آخر مدن الزاب بما يلي المغرب في آخر عمل بني الاغلب ، ولم يتجاوزها المسودة . يعني بني العباس . ولكل من هذه الاعمال عامل يتصرف في دائرته الخاصة به تحت سلطة دار الامارة العليا بالقيروان . والباقي من ارض الجزائر موزع بين دولة الرستميين شرقاً ودولة الادراسة غرباً . وقدرت مساحة القطر الجزائري يومئذ بـ ١٨٤٥٠٠ ميلاً .

اهم الاحداث الجزائرية

ليس هنالك ما يهم ذكره في تاريخ الجزائر في هذا العصر سوى بعض الوقائع والاضطرابات التي حدثت بالزاب ، واغلبها يرجع الى نفور الشعب الجزائري من سوء معاملة السلطة الحاكمة المتمثل في ظلم بعض ولاتها وجورهم . وقد قام بعملية القمع والزجر يومئذ ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب فقضى على اهل الزاب قاطبة كبيراً وصغيراً وحملهم على العجل – عربات النقل – فألقاهم في الحفر سنة ٢٦٨ هـ – ٧٨١ م كما اوقع ايضاً بأهل بلد بلزمة – على مسافة ٢٧ كيلو متراً في الشمال الغربي من مدينة باتنة – سنة ٢٨٠ هـ – ٨٩٣ م . وقام بمثل ذلك ابو العباس ابن ابراهيم الاغلبي سنة ٢٨٦ هـ – ٨٩٩ م فاوقع بني باطيط ببسكرة فقاتلهم وشردهم في البلاد ؛ ثم كان منه بعض اصلاح لما جرته هذه الوقائع من التخريب والتدمير . وعاد ابو عبد الله الاغلبي بأمر والده ابراهيم بن احمد الى اهل الزاب فحمل عليهم في جيش عظيم سنة ٢٨٨ هـ – ٩٠١ م . ثم كان استيلاء محمد بن خزر الزناتي وتغلبه على الزاب سنة ٣١٩ هـ – ٩٣١ م فسقطت بسكرة بيده . وذلك كله يعود الى انزعاج الاهالي من جور الحكومة وشططها في المغرم وتأبيها عن طبقات الشعب المغربي . ويمكن ان يلاحظ كذلك ما حدث يومئذ ٢٥٣ – ٢٦٥ هـ (٨٦٧ – ٨٧٨ م) من القحط والجدب الشديد الذي عم المغرب والاندلس وما

اعقبه ايضاً من المجاعة الكبرى التي حملت الناس على اكل بعضهم بعضاً ؟ ! ... فاذا استحضرنا كل ذلك علمنا اسباب الاضطراب الواقع يومئذ بالجزائر ايام بني الاغلب .

ظهور ابي عبد الله الشيعي

لقد كان جميع ما تقدم ذكره من الظروف القاسية التي احاطت بالشعب الجزائري وما كان من تعسف بعض امراء بني الاغلب فرصة سانحة لظهور دعاة الشيعة في الجزائر وانتشار مبادىء دعوتهم بها ، والتبشير بقرب انهيار ملك الاغالبة وظهور المهدي المنتظر وقيام حكومة عادلة تحت طاعته وامره ، فكان ظهور هذه الدعوة الشيعية اولاً بوادي الرمل (سوق حمار) بنواحي قسنطينة ، ومرماجنة – ما بين مجانة وسبيبة – سنة ٢٧٩ هـ – ٨٩٢ م ، ثم كان ظهور داعي الدعاة الاكبر ومعتمد المهدي العبيدي بهذه البلاد ابي عبد الله الشيعي الصنعاني ، فظهر بارض فرجيوة من بلاد كتامة [١] منتصف شهر ربيع الاول سنة ٢٨٠ هـ – اوائل جوان ٨٩٣ م ، وقد سبق له التعرف ببعض رؤساء هذه القبيلة العتيدة في الحج ، فنزل عليهم ضيفاً مكرماً واخذ في نشر دعوته بينهم عشر سنين الى ان افتضح امره للامير ابراهيم الاغلبي الاصغر ، فبعث الى عامله على الزاب موسى بن العباس يستطلعه خبر ابي عبد الله الشيعي ، فهون هذا عليه الامر واجابه بان الرجل بعيد عن مظان التهم ! ؟ ... وانه رجل دين وتقشف لا غير ، فلم يقنع الامير الاغلبي بجواب عامله ولم يطمئن لتعليله هذا فبعث من يكفيه مؤونة الشيعي بمخالطته والاتصال به حتى يقف على حقيقة امره بنفسه فكان الامر كذلك ، وبعد ما اتضح امر الشيعي وانكشف حاله خاطبه الامير بواسطة رسوله هذا قائلاً

---

(١) هي من أشهر القبائل الجزائرية الكبرى ، تسكن الغوص والسهول والجبال فيما بين قسنطينة وبجاية ، يوجد منها بعض البطون بجبال اوراس ، وهي من اشد القبائل بأساً واطولها باعاً في الملك ؛ ولها افخاذ وبطون منتشرة بالمغرب الاوسط .

له : ما حملك على التعرض لسخطي والوثوب على ملكي وافساد رعيتي والخروج علي ؟... فان كنت تبغي عرضاً من عرض الدنيا فانك تجده عندي ، وان كان قصدك غير ذلك فلقد علمت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك . وانما اردت الاعذار اليك ، وهذا اول كلامي لك وآخره فانظر في يومك لغدك !... فاجاب الشيعي رسول الامير بقوله : قد قلت فاسمع وبلغت فابلغ ، اما ما ذكرت من التهديد فما انا ممن يروع بالايعاد ؛ واما تخويفك اياي برجال دولتك ابناء حطام الدنيا فاني في انصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة انصار الظالمين مع قول الله عز وجل (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) واما اطماعه لي في دنياه فلست من اهل الطمع فيما عنده ، انما بعثت رسولاً لامر حُمّ وقرب وانجاز وعد من الله سبق والله لا يخلف الميعاد ، هذا جواب ما جئت به . وما كاد ينتشر تصريح الشيعي هذا بين الاوساط الاغلبية حتى تآمروا على قتله والفتك بــــه لولا ان فرقتهم السياسة ، فخلص يومئذ داعي الشيعة الى غرضه ونجح ...

محـــاربة الشيعي

وبعد ما تحقق الاغالبة الخطر في جانب هذا الداعي الشيعي الكبير وادركوا ان ملكهم مهدد بالزوال عزموا على مقاتلته . فخرج اليه ابو عبد الله الاحول بن الامير الاغلبي سنة ٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م فنازله بنواحي طبنة ، على نحو اربع كيلومترات من شمال بريكة ، وكان النصر بينهما سجالاً ...

زحف الشيعي على عمالة قسنطينة

وفي نفس التاريخ غزا ابراهيم الاصغر جزيرة صقلية وخلف ابنه ابا العباس وصياً على العرش واوصاه بمراقبة موقف الشيعة من المملكة والدفاع عن الحوزة وكان من المقدر ان توفي الامير الاغلبي في غزوته هذه سنة

٢٨٩ هـ – ٩٠٢ م) ودفن بصقلية . فخلفه ولده ابو العباس على امارة افريقية ، فسكن الشيعة يومئذ الى ان تهيأت لهم الفرصة باشتغال الامير ابي العباس بولده ابي مضر والي صقلية حيث انكر عليه والده اشياء فعزله وادخله السجن سنة ٢٩٠ هـ – ٩٠٣ م) فاغتاظ لذلك ابو مضر وعمل الحيلة للتخلص من السجن والقضاء على والده فقتله وجلس على عرش الاغالبة بالقيروان ليلة الاربعاء ٢٩ شعبان ٢٩٠ هـ – فاتح جوليت ٩٠٣ م واعمل السيف في جميع من كان مظنة الخروج عليه من اهله واقاربه وبني عمه ويومئذ اندفعت الشيعة لاختلاس الفرصة من بين هذه الظروف والزوابع الحرجة القائمة يومئذ في بيت الملك فزحف ابو عبد الله الشيعي على بلاد كتامة فاحتلها ودخـــل ميلة وباغاية وسطيف وبلغت جيوشه الى مجانة فاصبحت جميعها تحت طاعته وامره .

منازلة كتامة

استمرت الوقائع والحروب بـــين جموع الشيعة والاغالبة بنواحي كينونة ؟ ... وكان النصر فيها للشيعة ، ويومئذ حشد زيادة الله الثالث جموعه وفيالقه وجمعهم كلهم تحت قيادة حاجبه أبي المقارع ومعه شبيب القمودي وخفاجة العبسي بماضدانه وخرجت الكتائب سنة ٢٩٣ هـ – ٩٠٥ م) لمقاتلة كتامة المهالة يومئذ للعدو فكانت هنالك وقائع حربية هائلة قتل فيها عدد عظيم من الطرفين وكان ذلك مقدمة لانهيار قوى الاغالبة وضعفها بالمغربين : الجزائر وتونس .

المذاهب والعقائد

لا يخفى ما كان للقاضي قضاة الخلافة العباسية ابي يوسف صاحب ابي حنيفة من نفوذ الكلمة والسطوة والمشورة عند خلفاء بغداد والمقام السامي الذي كان يحتله بين رجال البلاط العباسي وخاصة الخليفة الرشيد نفسه المسيطر على جميع الولايات الاسلامية يومئذ ، وما الامارة الاغلبية الا

صنيعته ، فكان من الطبيعي ان تأخذ هذه الامارة بتقاليد دار الخلافة فتقلدها فيما تدين به من المذاهب والعقائد وخاصة في تشريع الاحكام والقوانين التي يجري عليها نظام الحكم في البلاد ؛ فكانت الدولة الاغلبية بذلك حنفية ؛ ثم انه لا يخفى كذلك ما كان يتمتع به تلامذة المدرسة المالكية من الجاه والحرمة والتقدير عند الشعب خاصة ، مثل أبي القاسم الزواوي تلميذ الامام مالك ، وأسد بن الفرات وسحنون بن سعد ، وما قام به ادريس بن عبدالله الكامل بالمغرب الاقصى من نشر المذهب المالكي وأخذ الامة المغربية به ، وما كان كذلك ليحيى الليثي من الحظوة والسلطان لدى خلفاء بني أمية بالاندلس الخ ... فكل ذلك كان عاملاً قوياً في نشر المذهب المالكي . بالمغرب ، فاجتمع يومئذ بالمغرب المذهبان الحنفي والمالكي وقد عرف الناس مع ذلك مذهب الشافعي وداود ولكنه بقلة ، وفي ذلك يقول عياض في مقدمة كتابه المدارك :

وأما افريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى ان دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يفشوا الى ان جاء سحنون فغلب في ايامه- وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا (٤٧٦ — ٥٤٤ هـ) وكان بالقيروان قوم قلة في القديم اخذوا بمذهب الشافعي ، ودخلها شيء من مذهب داود (الظاهري) ولكن الغالب عليها اذ ذاك مذهب المدينة والكوفة . وروى ابن البزاز الكردي في تاريخه بسنده عن عبدالله بن عبيدالله قال : رأيت أبي يناظر في المسجد الحرام رجلاً غريباً في المسائل الدقاق وحوله جماعة ، فقال له ابي من أين أنت ؟ ... قال : من طنجة أقصى بلاد المغرب ليس وراءه اسلام ، من مكة على رأس الف وخمسمائة فرسخ أو أكثر ، قال : وكيف وقعت هذه الدقائق عندكم ؟ ... قال : وقعت عندنا كتب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وقد تذكر عندنا أقاويل الامام مالك والاوزاعي ،

وفتوانا على رأي أبي حنيفة[1] وطالما شاهدنا الخلاف قائماً بين اتباع المذهبين المالكي والحنفي وكثيراً ما تفاقم الخلاف والجدل بين الحاكم والمحكوم حتى بالغ الولاة في البطش بمخالفيهم الى حد القتل في بعض الاحيان ، ولكن المالكية تصلبوا في التمسك بموقفهم الى النهاية . ولقد استمر مذهب أهل العراق سائداً بالمغرب بجانب المذهب المالكي الى أواخر القرن الثالث الهجري حيث أفل نجمه الى العهد التركي في القرن العاشر الهجري فأخذ به بعض أهل الحواضر الجزائرية أي حيث يغلب وجود الاتراك .

وكانت العقائد ومباحث أصول الدين بعيدة عن الآراء الفلسفية والمذاهب الاعتزالية فالايمان البسيط الواضح عندهم كاف في صحة عقيدة المسلم ، وكيف يستطيع أهل الجدل الديني التظاهر بعقيدتهم أو المناظرة في علم الكلام في دولة منع قاضي قضاتها الصلاة خلف المتكلمين الذين يجادلون في الصفات ؟ ! ...

الثقافة والحضارة والعمران

يمتاز عصر الاغالبة هذا بكثرة عقد الرحلات في طلب العلم . وكتب التراجم حافلة بذكر اسماء العلماء من أهل المغرب الذين أخذوا علمهم عن مالك وابن القاسم ومحمد بن الحسن وسفيان بن عيينه واضرابهم من ائمة المشرق ؛ وشاع يومئذ بين الناس التعليم العام والخاص في المساجد والكتاتيب وغيرها وعلى الخصوص علم الفقه والتشريع ، ولقد خصص الخليفة المنصور (الجزائر) بعثة من الفقهاء فجاءت الى هنا واستقرت بمدينة مرسى الخرز — القالة — وكان مما انيط بهذه البعثة علاوة على ما عهد اليها من نشر الاحكام الشرعية بين الناس انها تتولى جباية أموال الزكاة ، وما فعل ذلك المنصور الا خدمة للدين ، وذلك لعلمه بشدة حاجة الناس اليه

---

(١) مناقب الامام الاعظم لابن البزاز الكردي ج ٢ ص ١٠٥ ط حيدر آباد الدكن ١٣٢١ هـ .

يومئذ حيث انهم لا يزالون حديثو عهد بنظام الاسلام وقوانينه التشريعية. فكثير من الجزائريين اشتهروا بالتفوق الادبي وحازوا علـــى الرئاسة في العلم ببلادهم وفي غيرها كذلك، مثل محمد بن حسين الطبني واسحاق المشوني وأحمد بن علي الباغائي وأبي القاسم يوسف البكري وأبي الفضل عطية الطبني وهو القائل:

قالوا التحى وانكسفت شمسه ... ومـــا دروا عذر عذاريه
مرآة خديه جلاهـــا الصبى ... فـلاح فيهـــا في صدغيـه

كما انتشرت يومئذ بالمغرب علوم الحكمة والفلسفة والطب على يد العـالم الحكيم ابي يعقوب اسحاق بن عمران البغدادي فقد استدعاه الامير زيادة الله الثالث لمعالجته حين اصيب بمرض اعجز الاطباء علاجه، فجاء هذا الى القيروان ومعه ابو الحسن بن حاتم؛ وكان ابو يعقوب هذا ماهراً حاذقاً في صناعة تأليف الادوية المركبة والبسيطة بصيراً بتفرقة العلل واسع الاطلاع عـــلى علوم الفلسفة جيد القريحة، فاستوطن القيروان سنة ٢٩٣ هـ - ٩٠٥م وبها الف كتبه ونشر علمه وعنه اخذ المغاربة الطب والفلسفة؛ ولا ننس كذلك فضل علي بن نافع الملقب بزرياب وما جاء به من علم وادب وفن الى بلاد المغرب ايام مكثه بالقيروان في طريقه الى الاندلس؛ وكان مما زان هذا العصر ايضاً نبوغ احمد بن الجزار صاحب كتاب «زاد المسافر» الجامع للمعلومات الطبية المتعارفة في وقته واليه يرجع الفضل في انتشار هذه العلوم بأوروبا ابان القرون الوسطى كما اعترف بذلك كبار دكاترة الغرب انفسهم. وتعتبر اعمال هؤلاء جميعاً النواة الاولى لتأسيس دار الحكمة في القيروان.

وذكر ابن جلجل في طبقات الاطباء: انه لم يكن في الاندلس لغاية عهد اميرها عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٧ - ٢٣٨ هـ) الا اطباء نصارى يعتمدون في علمهم ودراستهم على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الابريشم ومعناه المجموع او الجامع.

ثم يذكر ابن جلجل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) والامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فيقول : انه برع بعض الاطباء على عهد هذين الاميرين ولكن لم تعرف لهم مؤلفات ، اما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) فظهر بعض الاطباء الذين بدأوا بتأليف الكتب [١] ...

واذا كان شأن الطب والاطباء المسلمين يومئذ هكذا بالاندلس والدولة الاموية قائمة هنـــاك مستكملة لقواعد الخلافة والملك ، صحيحة الدعائم ، والحضارة الاسلامية آخذة في الاندفاع نحو التقدم والرقي ، فكيف يكون حال المغرب العربي وهو كما علمت احدث عهداً بالحضارة الاسلامية والثقافة العربية بالنسبة الى الاندلس ؟ ... فلا شك انه كان متخلفاً ، ولا ننس ان اقليم الاندلس هو مما كان يعد مع الاقطار المغربية .

ويرجع الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (دراسات عن العصر العباسي الاول) ان يكون مصدر قصة الساعة المهداة من طرف الخليفة هارون الرشيد الى شرلمان هو ان نفراً من تجار المغرب ارادوا ان تكون لهم حظوة عند ملك فرنسا لتيسير اعمالهم التجارية فزعموا انهم رسل الخليفة وحملوا اليه الهدايا ومنها هذه الساعة الدقاقة [٢] ؟ ...

ثم ان هذه الدولة عرفت كيف تستثمر خلاصة حضارات من تقدمها من الدول العظيمة الكبرى التي حكمت هذه البلاد مثل دولة الفنيقيين والرومان ، فانها انتفعت بما احدثه هؤلاء من سبل وجهازات للري ، واستفادت كذلك بما جاء به الاعاجم من صناعات النسج والطرز وبما خلفه الكنعانيون من اساليب التجارة في البر والبحر والزراعة وغيرها من

---

(١) طبقات الاطباء والحكماء لابن جلجل الاندلسي ص ٩٢ ط القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) راجـــع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢١٦ وج ٥ ص ١٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

صناعة البناء[1] فأحدثت المساجد والاسوار والقصور والمنائر[2] قال ابن خلدون : ولما توفي ابو العباس محمد ابن ابي عقال سنة اثنتين وسبعين ولي مكانه ابنه ابو ابراهيم احمد فأحسن السيرة واكثر العطاء للجند وكان مولعاً بالعمارة فبنى بافريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ... وذكر ابا الغرانيق محمد فقال عنه : انه بنى حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشرة يوماً من برقة الى جهة المغرب وهي الآن معروفة[3] . وتمهدت الطرق وعبدت السبل

---

(١) جاء في كتاب التاريخ العام للعالمين : لافيس ورامبو ، ان انكلترا الانكلوساكسونية في القرن السابع الميلادي الى ما بعد العاشر كانت فقيرة في ارضها منقطعة الصلة بغير بلادها ، معبة وحشية تبني البيوت بحجر غير نحيت وتشيدها من تراب مدقوق وتجعلها في وطأ من الارض ... ولم يكن الناس احسن مسكناً وامناً من الحيوانات ، وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وقد اعترف المنصفون من علماء اوروبا بان كل ما كان بعد ذلك من اشراق وفن وجمال في حضارة اوروبا ورقيها المادي والادبي انما كان مطلعه شمال افريقية في عهدها العربي الاسلامي وذلك لان المدنية الغربية تكونت بعد فتح العرب للاندلس وجنوب فرنسا وصقلية وسواحل ايطاليا وسائر جزر البحر الابيض المتوسط ، وكل هذه الفتوحات ما عدا جزيرة قبرص صدرت عن شمال افريقية كما تشهد لهم بذلك آثارهم الباقية بعضها الى اليوم .

(٢) هي مواقد بنيت على رؤوس الجبال العالية بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ، ويقال لها ايضاً القباب والمناور او المناظير ، يقام فيها حراس يستعملون المرايا لارسال العلائم بالنهار عندما يرون حدوث شيء مهم بجهتهم ؛ ويوقدون النيران بالليل ، وهكذا يفعل الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الى ان يصل الخبر الى المدينة او الثغر او المسلحة في زمن قليل فقد كانت الرسائل تصل من سبتة الى الاسكندرية بواسطتها في مدة اقل من اربع ساعات ، وقد كان بالمغرب يومئذ نحو العشرة آلاف منار ، وكلها كانت مبنية بالحجارة والكلس وعليها ابواب من حديد ولم تكن هذه المنائر معروفة عند المسلمين الا في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل . قال ابن خلدون في سياق حديثه عن ولاية ابراهيم — الاصغر — ابن احمد ... وبناء الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في سواحل سبتة للنذير بالعدو فيصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة ، وبناء سورة سوسة ... وفي سنة احدى وثمانين انتقل الى سكنى تونس واتخذ بها القصور (ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١ .

واست المدن مثل العباسية بالجزائر قرب تاهرت ٢٢٧ هـ - ٨٤١ م ، احرقها افلح بن عبد الوهاب ابن رستم وكتب بذلك يتقرب لصاحب الاندلس فبعث اليه هذا بمائة الف درهم[1] كما است هذه الدولة وغيرها بولاية تونس وكان السفر مأموناً والاميال معلمة ممسوحة ؛ فان طول المسافة من القيروان الى السوس الادنى على المحيط الاطلسي يبلغ الفين ومائة وخمسين ميلاً ، وكان على طول مسافة الساحل المغربي حصون ومحارس ومخافر لجند الحماية ، وكانت الصناعات مثل الحدادة والنجارة والنقش والحياكة والتعدين منتشرة في انحاء المملكة فانهم كانوا يستخرجون من معادن مجانة ومناجم بونة وغيرهما انواع الحديد والرصاص والفضة والكحل ، ومن مرسى الخرز - القالة - انواع اللؤلؤ والمرجان ونشطت الحركة التجارية في الموانئ فكانت متصلة بالمواصم الاوروباوية مما لم يتفق لغير هذه الدولة ممن حكم هذه البلاد من قبل وقد ذكرنا فيما سبق مبلغ بلغ خراج الفدان[2] الواحد على عهد ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً ، وكان مبلغ خراج ارض افريقية وجبايتها في اوائل القرن الثالث ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهماً و ١٢٠ بساطاً وكل ذلك يدلنا على سعة ثروة البلاد ورفاهيتها .

وقال علي بن الفتح المعروف بالمطوق : أهدى زيادة الله بن عبد الله بن الاغلب صاحب المغرب الى المكتفي بالله في سنة احدى وتسعين ومائتين (٩٠٣ م) هدايا لها قدر جليل ، فيها مائة خادم ، ومائة جارية ومائة فرس ، ومائتا لبد مغربية وتركش (الكنانة او الجعبة يوضع فيها النشاب) وطيب وزرافة وبقر وحشية ومائة الف دينار كل دينار عشرة دنانير ؛ قال وقرأت ديناراً من تلك الدنانير فاذا عليه مكتوب في الجانب الاول :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) مساحة من الارض تقدر بـ ٤٢٠٠ متراً مربعاً .

يا سائراً نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخليفة سله

وفي الجانب الآخر :

ما ان يرى لك بالخلاف منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن طرق الهدى واضله

قال وكان تحت هذه الابيات احرف لم اقف عليها .

وحين هرب زيادة الله بن الاغلب من القيروان حين دخلها ابو عبد الله داعية المهدي فر سنة ست وتسعين ومائتين (٩٠٩ م) متوجهاً الى مصر خرج معه بالف خادم دفع الى كل واحد منهم الف دينار سوى ما كان في خزائنه من الاموال والجواهر والاثاث المحمول والمتروك ، وضل عنده من ماله ثلاثون حملا دنانير خالفته الى ناحية تونس ، وانتهبت من امواله امثال ما خرج معه [١] .

انهيار الدولة الاغلبية

ان أهم ما أضر بهذه الدولة وكان سبباً مباشراً في سقوطها هو معاملتها القاسية للشعب وأخذها له بالعنف والتضييق عليه في ضرب المغارم والاتاوات الباهضة واثارة مشاعره بالعصبية العربية والتعصب المذهبي مع اتخاذ الجند المأجور الذي لا يتحرك إلا عن طمع وجشع فلا حمية دينية تبعثه ولا حفيظة أو حماسة وطنية تجرؤه انما هو أجير ، ومتى اجارك أجير ؟ ... ويلاحظ على الدولة في قصر نفوذها واكتفائها في حكم المغرب الاوسط ببسط يدها على قسم من نوميديا الشرقية فقط ؛ مع سوء سلوكها مع أهل الزاب وبلزمة من ايقاعها بهم واهلاكهم سنة ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م كل ذلك مما زاد في نفور الرعية وهيجان كتامة والتغالي في تصلبها وتمسكها بالدعوة

---

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ٣٧ — ٢٢٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

الشيعية ؛ ويشرح لنا العالم الانكليزي (نيلكسون) أسباب هذا التدهور الذي لحق دولة الاغالبة بالمغرب ونجاح الدعوة الشيعية وانتصارها عليها هناك بما كانت عليها دولة العباسيين المهيمنة على العالم الاسلامي من الضعف الذي لحقها في جميع أقطار البلاد الاسلامية التي زال عنها نفوذ بغداد الفعلي ، وبما كان عليه البربر واشتهروا به من حب القتال وما تعودوه من شظف العيش وما فطروا عليه من عدم الخلاد للنظام ، كانوا متأهبين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلوا عليه من اقدام على المخاطرة وركوب متن الاهوال ، زد على ذلك ان عمل الشراهة الذي فطر البربر على ارضائه وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة - كل ذلك جعلهم أسلس قياداً الى أبي عبدالله الشيعي فتمكن من الوصول الى أغراضه من اثار حميتهم واعجابهم بآل علي والمهدي[1].
ثم كان القضاء المبرم الذي قضى به زيادة الله الثالث على دولته بالدمار وهو الموقف الشنيع الذي وقفه تجاه والده وغالب رجال البيت الاغلبي من القضاء عليهم باراقة دمهم جميعاً ظلماً وعدواناً وكأنه في ذلك كان مقتدياً بسلفه ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، أضف الى ذلك وهتكه لحرمات الملك بتهتكه في الخلاعة والانهماك في الشهوات حينما كان الشيعة يتقدمون سراعاً في مواقفهم الحربية منتصرين على خصومهم ، فكان هذا كله فرصة لابي عبدالله الشيعي لاذاعته في القوم فكرة التحرر والاستقلال عن الدولة العباسية وانتظار المهدي المنتظر وبثه فيهم مذهب الاسماعيلية فتغلغلت فيهم عقائد الشيعة وتجمع الناس حول الداعي أبي عبدالله وكانت هنالك حروب خرج لها زيادة الله الثالث في ثمانين الف مقاتل ، فالتقى الجمعان بنواحي الاربس - قرية بنواحي الكاف بتونس - وهنالك دارت بينهم رحى الحرب فكانت هذه الوقعة هي المعركة الفاصلة في مستقبل البلاد فانهزم الاغالبة فيها شر هزيمة وخرج زيادة الله هارباً من رقادة[2] مصحوباً بأهله

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم ص ٤٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) مدينة أسسها ابراهيم الاصغر سنة ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م تبعد عن القيروان بثمانية اميال جنوباً وهي اليوم اطلال .

وذويه ليلة الاثنين ٢٦ جمادي الثانية ٢٩٦ هـ - مارس ٩٠٩ م ، وذهب بعدها الى بيت المقدس وسقطت مملكة الاغالبة بما فيها - الجزائر - بيد الشيعة . فكانت مدة حكمهم ١١١ سنة وثلاثة اشهر .

ولاة الجزائر وزعماؤها

لم تكن سلطة الاغالبة في الوطن الجزائري لتتعدى حدود عمالة قسنطينة كما ذكرنا ، وكانت عاصمة الجزائر الاغلبية يومئذ هي مدينة طبنة على نحو اربع كيلو مترات شمال بريكة وقد تولاها لهذا العهد الاغلب بن تميم ، ثم المخارق بن غفار الطائي ، ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب بن ابي صفرة ثم ابراهيم بن الاغلب ثم عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزارمرد ، وكان من ولاتها ايضاً منصور الترمذي فانتفض يوماً على زيادة الله الاول وسار الى تونس فملكها سنة ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م ؛ ولما فتح الشيعة طبنة كان بها يومئذ امير مسالة : الفتح بن يحيى فقتله الشيعي ؛ وكان على بلد ميلة رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد فقتله الشيعي ايضاً وولى مكانه ماكون بن ضبارة ؛ وكانت ولاية سطيف لبني اسد بن خزيمة وآخرهم علي بن جعفر بن عسكوجة واخوه ابو حبيب ، وكانت ولاية بلزمة في بني تميم ومواليهم وكانت ولاية المسيلة وميلة لموسى بن العباس فقتله الشيعي في غزوه لهاته المدينة . وكان من امراء كتامة لهذا العهد عروبة بن يوسف ؛ وعلى باغاية هرون الطبني ؛ وكان على الزاب سالم بن غلبون فقتله الاغالبة مع ولده ازهر بسبب ثورتها عليهم سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٧ م . وكان من ولاة الزاب ايضاً احمد بن سوادة المتوفي سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م .

وذكر بعض مؤرخي المغرب ان مناد بن منقوش والد زيري عاهل صنهاجة ، امتلك جانباً من افريقية والمغرب الاوسط - الجزائر - مقيماً لدعوة بني العباس وراجعاً الى امر الاغالبة .

امراء الدولة الاغلبية

		تاريخ التولية
ابراهيم بن الاغلب	جمادى الثانية ـ جوان	١٨٤ ﻫ = ٨٠٠ م
ابو العباس عبد الله الاول	صفر ـ اكتوبر	١٩٧ ﻫ = ٨١٢ م
زيادة الله الاول	ذو الحجة ـ جوان	٢٠١ ﻫ = ٨١٧ م
ابو عقال الاغلب	١٤ رجب ـ ١١ جوان	٢٢٣ ﻫ = ٨٣٨ م
ابو العباس محمد الاول	٢٢ ربيع الثاني ـ ١٨ فيفري	٢٢٦ ﻫ = ٨٤١ م
ابو ابراهيم احمد	٢ محرم ـ ١١ ماي	٢٤٢ ﻫ = ٨٥٦ م
زيادة الله الثاني	١٣ ذي الحجة ـ ٢٨ ديسمبر	٢٤٩ ﻫ = ٨٦٣ م
ابو الغرانيق محمد الثاني	٢٠ ذي القعدة ـ ٢٣ ديسمبر	٢٥٠ ﻫ = ٨٦٤ م
ابراهيم الاصغر	٦ جمادى الاولى ـ ١٦ فيفري	٢٦١ ﻫ = ٨٧٥ م
ابو العباس عبد الله الثاني	شعبان ـ جوليط	٢٨٩ ﻫ = ٩٠٢ م
زيادة الله الثالث	رمضان ـ جوليط	٢٩٠ ﻫ = ٩٠٢ م

من مشاهير الجزائر

اسحاق الملشوني

أواسط القرن الثالث الهجري
(اواسط التاسع الميلادي)

هو شيخ امراء بني الاغلب ونديم بلاطهم اسحاق بن ابي عبد الله عبد الملك الملشوني نسبة الى ملشون قرية من قرى بسكرة قرب تهودة وهي يومئذ حاضرة العلم ؛ كان اسحاق هذا عالماً ثقة مؤرخاً ثبتاً ذا دراية ومعرفة واسعة بفن التاريخ والمحاضرات ، كان يحمل عنه وعن ابيه العلم ، اخذ عن والده وعن مشائخ بلده ، كما جالس الامام سحنون بالقيروان واخذ كل منهما عن صاحبه قال ابو العرب كان ابو القاسم بن شبلون الفقيه رضي الله عنه يروي فيما كان يرويه ان سحنون بن سعد دخل على محمد بن الاغلب الامير اول يوم من شهر رمضان فألفى الامير خالياً ، فقال له : اراك ايها الامير خالياً ، فقال نعم ، انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأين انت ايها الامير من اسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الامم السالفة والاعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الاغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الاغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان ؛ قال ابو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروي البريء من الاخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشوني انه قال : لم يدخل افريقية نبي قط ، واول من

دخلها بالايمان بعض حواريي عيسى بن مريم عليه السلام[1] فأين زعم القائلين بوجود قبر النبي خالد بن سنان بالقطر الجزائري ودفنه حيث الضريح المنسوب اليه المشهور قرب بسكرة ؟ ...

نعم روى ابو العرب في طبقاته والمالكي في رياضه كلاهما عن قاضي افريقية الثقة عبد الرحمن بن زياد بن انعم المتوفي سنة ١٦١ ﻫ - ٧٧٧ م . انه قال : كنت امشي وانا غلام مع عمي بقرطاجنة فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية : « انا عبد الله بن الاراشي رسول رسول الله صالح بعثني الى اهل هذه القرية ادعوهم الى الله ، اتيتهم ضحى ، فقتلوني ظلماً حسيبهم الله » وقيل ان شعيبا هو الذي بعث عبد الله ابن الاراشي . والاراش فخذ من بلي[2] ولم نعثر على اي رواية صحيحة تثبت لنا صحة نسبة القبر الى خالد بن سنان العبسي[3] .

محمد بن حسين الطبني

٣٩٤ ﻫ _ ١٠٠٤ م

الاديب الكبير والشاعر المفلق ابو عبد الله محمد بن حسين بن محمد الطبني نسبة الى طبنة عاصمة الزاب الجزائري ولد بها سنة ثلاثمائة او ٣٠٣ ﻫ ؟ ... وصفه ابن بشكوال بسمة العلم والتبحر في الادب وقال : انه لم يصل الى الاندلس اشعر منه ، وكان اتصاله بالاندلس سنة ٣٢٥ ﻫ وكانت وفاته منسلخ شهر ذي الحجة سنة ٣٩٤ ﻫ - اكتوبر ١٠٠٤ م وشاهد جنازته المظفر عبد الملك بن ابي عامر في اهل دولته وصلى عليه ابن فطيس رحمهم الله جميعاً .

---

(١) طبقات علماء افريقية ص ٨ ط باريس ١٩١٥ م .

(٢) طبقات علماء افريقية ص ٧ ط باريس ١٩١٥ م ورياض النفوس ص ٥ ط القاهرة ١٩٥١ م .

(٣) راجع ص ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ من كتابنا هذا .

جـدول تاريخي

١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ

٨٠٠ ـ ٩٠٩ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
١٨٤ هـ = ٨٠٠ م	تأسيس الدولة الاغلبية (جمادي الثانية ـ جوان)
٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م	استيلاء منصور الترمذي ـ والى طبة ـ على تونس
٢٢٧ هـ = ٨٤١ م	انشاء مدينة العباسية ـ قرب تيهرت ـ قضى عليها الرستميون
٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م	اشتداد ازمة القحط بالمغرب العربي كله ، وقد دام سنوات
٢٦٨ هـ = ٨٨١ م	فتك ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب بأهل الزاب .
٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م	ظهور الدعوة الشيعية بنواحي قسنطينة .
٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م	ظهور ابي عبد الله الشيعي بأرض فرجيوة من بلاد كتامة
٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م	مقاتلة الحكومة لبني بلطيط ببسكرة .
٢٨٨ هـ = ٩٠١ م	مقاتلة اهل الزاب .
٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م	منازلة الدولة لابي عبد الله الشيعي بنواحي طبنه .
٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م	سقوط بلاد كتامة وميلة وباغاية وسطيف ومجانة بيد الداعية الشيعي .
٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م	انتقام الدولة من كتامة .
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	انهيار الدولة الاغلبية ووقوعها بيد الشيعة (٢٦ جمادي الاولى مارس) .

الدّولة العبيديّة «الفاطميّة»

٢٩٦ ـ ٣٦١ هـ

٩٠٩ ـ ٩٧٢ م

نشأتها

تنتسب هذه الدولة ـ حسب اسمها ـ الى عبيد الله المهدي الشيعي مؤسس الخلافة العبيدية بالمغرب ، وجد الخلفاء الفاطميين [١] بالمشرق ؛ فهو عبيد الله ابن احمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ على ما في هذا النسب من جدل وخلاف ؟ ! ... ولد عبيد الله بالسلمية من بلاد الشام وقيل ببغداد سنة ٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣ م ؛ وبنى خطته السياسية على فكرة القول بالامام المهدي المنتظر وما يحيط بها من غموض وخفاء ، وكثيراً ما استعملت هذه الفكرة في انشاء دول وعصبيات سياسية لترويج دعوتها والقضاء على غيرها ؛ وهي فكرة شيعية محضة .

والشيعة لقب اصطلاحي خاص باحدى الفرق الاسلامية التي ترتكز في دعوتها السياسية والاجتماعية والدينية ايضاً على تفضيل آل البيت ولا سيما منهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقالوا بتقدمه على غيره من

(١) تسموا بذلك تعريضاً بالعباسيين ؛ فقد يقول هؤلاء انهم ابناء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم والكنهم لا يتطاولون الى الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبوة ذاته ، وليس هو كالانتماء الى الاعمام ...

الصحابة ؛ وانه الوصي على الخلافة وانها مستمرة في عقبه الى النهاية ، وان الخلفاء من نسله معصومون الخ ... وكان من فرق الشيعة المشهورة طائفة الاسماعيلية الملقبة بالباطنية ذات البدع الشنيعة في الاسلام ، القائلة بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، مع انه مات قبل والده ! ... وذلك توصلاً منهم الى انتقالها في عقبه المنحدر منه عبيد الله المهدي مؤسس هذه الدولة ؛ ولا تزال طائفة الاسماعيلية هذه قائمة الى اليوم في بلاد العجم والهند والشام يرأسها اليوم « آغاخان » الزعيم الديني الهندي المشهور .

في الوقت الذي كان عبيد الله المهدي مضطهداً من طرف العباسيين بالمشرق مختفياً عن اعين الناس مطارداً ؛ كان داعيته الاكبر ابو عبد الله الصنعاني الشيعي بالمغرب يعمل على توطيد الدعوة الشيعية وتركيز الخلافة وتهيئتها لسيده المهدي ؛ فمكث بني كتامة بجبل أوراس عشر سنين ولما اطمأن بنجاحه في الدعوة بعث الى عبيد الله يستقدمه — وهو يومئذ مختفياً بمصر فخرج المهدي مع ولده ابي القاسم وابي العباس احمد اخ الصنعاني فارتحلوا جميعاً في زي التجار وجاؤوا الى المغرب فاختفوا بطرابلس فمكث بها ابو العباس وارتحل عنها المهدي وولده الى قسنطينة ثم الى سجلماسة — تافيلالت — وهناك وقعا معاً في قبضة صاحبها اليسع بن ميمون المنتصر من بني مدرار عامل بني العباس ؛ وسريعاً ما اتصل الخبر بالصنعاني فاستقدم اخاه من طرابلس فخلفه على ولاية رقادة وخرج يجر وراءه جيشاً اضطرب له المغرب الاوسط ، فقضى على دولة بني رستم وامتلك تاهرت وانتهى بجيشه ناحية المغرب الاقصى فاستولى في طريقه على عدة مراكز وتابع سيره الى سجلماسة فشن عليها الغارة وقضى على عاملها اليسع من بني مدرار وخلص الى المهدي وولده فانقذهما من الاسر ورجع بهما الى رقادة ، فدخلها المهدي راكباً على فرس ورد وعليه ثوب خز ادكن وعمامة مثله منتعلاً نعلاً عربية وخلفه ولده ابو القاسم مرتدياً ثوب خز خلوقي وعمامة مثله وتحته فرس اشقر ؛ متقدماً امامهما الصنعاني على فرس كميت وعليه ثوب توني ، وظاهرة كتان وعمامة ومنديل اسكندراني وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه والناس بين

يديه يبلمون وهو يقول : هذا مولاكم حتى انزله الخيم برقادة ، وهناك كانت البيعة له بأمير المؤمنين وذلك يوم الجمعة ٢١ ربيع الثاني ٢٩٧ هـ ـ ٩ جانفي ٩١٠ م فأشبه في ذلك سلفه عبد الرحمن الداخل ، غير ان المهدي يمتاز عن صاحبه بانه كان بذلك اول من اعلن مزاحمة الخليفة العباسي في لقبه ؛ والواقع ان عبيد الله الشيعي لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في (رقادة) حتى كان قد زال ملك بني الأغلب من افريقية ، وملك بني مدرار من سجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت . ولقد اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف ايضاً باليقظة واصالة الرأي والعلم مع سعة الحيلة ورباطة الجأش وشدة الحزم فأعانته صفاته الخلقية هذه وما اعتمده في دعوته من الوسائل الدبلوماسية التي لم يسبق اليها سابق ولم يهتد اليها احد قبله على انشاء دولته التي اقامها بين اكثر من ست دول اسلامية وغيرها كلها تحاربها وتخشى عاقبتها .

نظامها الحكومي

قامت هذه الدولة الشيعية على كاهل فن التخذيل او كما يسمى في العصر الحديث « الطابور الخامس » فكانت لذلك اعظم واجل رتبة بها هي وظيفة داعي الدعاة ، لا يفضلها الا مقام قاضي القضاة او الخليفة نفسه الذي يعتقدون فيه العصمة ، ولم يكن لهذه الدولة في أول أمرها بالمغرب وزراء الا بعد انتقالها الى مصر في عهد الخليفة العزيز بالله ، وهناك خطة صاحب المظلة [1] يختار لها فارس يحاذي الملك في سيره من حيث كانت الشمس ، ولا يعلم احد من الملوك اتخذ هذه المظلة المكللة قبل بني عبيد ، وفي ذلك يقول ابن هانيء الاندلسي من قصيدة يمدح بها الخليفة المعز العبيدي :

---

(١) وصفها القلقشندي في صبحه (ج ٤ ص ٧ ـ ٨) بانها قبة من حرير اصفر مزركش بالذهب ، على اعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في العيدين .

وعلى امير المؤمنين غمامة | نشأت تظلل تاجه تظليلاً
نهضت بثقل الدرع ضوعف نسجه | وجرت عليه عسجداً محلولاً

وفي القصر منشؤون وكتاب لا يقل مرتب احدهم عن ثلاثين ديناراً لكل شهر ولرئيسهم مائة وخمسون ديناراً ، ولجلب الخراج والجباية والمغرم وقبض الزكاة موظفون آخرون . والنظر في الجرائم والجنح واقامة الحدود راجع الى صاحب الشرطة ، ووظيفة الحسبة مندرجة تحت رعاية القاضي فهو الذي يولي عليها من شاء . والعمل بالبلاد اناس هم غالباً من سكان البلاد الوطنيين واكثر الجند متجمع من قبيلة كتامة الشديدة البأس ، وكان ابو عبد الله الصنعاني اذ اراد ان يركب للحرب نادى مناديه : يا خيل الله اركبوا ، وكتب على افخاذ الخيل « الملك لله » وعلى السلاح « عدة الله » وعلى الراية البيضاء « سيهزم الجمع ويولون الادبار » ؟ وقد يكون على الويتهم احياناً أهلة من ذهب في كل منها صورة سبع ، وكان منقوشاً على خاتمه الذي يختم به السجلات « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » . وللاسطول العبيدي ميزانية ضخمة من خراج الاقطاعات الموقوفة عليه ولرؤساء المراكب مرتبات تبلغ العشرين ديناراً في كل شهر ؛ قال ابن خلدون : وكان لكل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر امر جريه بالريح او بالمجاذيف وامر ارسائه في مرفئه ، فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله ، وانجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى طبقات اهل مملكته ، يرجعون اليه كلهم ثم يسرحهم لوجههم وينتظر أيابهم بالفتح والغنيمة [1] وتمتاز هذه الدولة العربية الناشئة بالمغرب بالمحافظة على عاطفة الاهالي سكان البلاد الاصليين فأشركتهم في الادارة باسنادها مشيخة النواحي وادارة البريد وحماية الفرسان اليهم ؛ ثم كان لهم التقدم في المناصب والرتب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

على غيرهم اثر الفتح الفاطمي بالمشرق . فقد رأيت كيف كان تاسيس هذه الدولة بالمغرب امراً مشتركاً بين العرب والبربر كما كان الشأن في انشاء الخلافة العباسية بالمشرق بين العرب والفرس . وللدولة بعد ذلك عملتها وسكتها المضروبة باسمها منقوش فيها « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق اعداء الله » وهي مستقلة استقلالاً تاماً لا يسيطر عليها فيه احد ، وبقيام هذه الدولة في المغرب كان في العالم الاسلامي يومئذ ثلاث خلافات : خلافة العباسيين ببغداد ، وخلافة الامويين بالاندلس ، ثم هذه الخلافة العبيدية بالمغرب .

حدود الجزائر العبيدية

لأول مرة في تاريخ المغرب العربي اتحدت افريقية الشمالية تحت لواء دولة اسلامية واحدة ، وقد كان بالوطن الجزائري يومئذ اربع ولايات : ولاية المسيلة وهي تشتمل على مواطن زناتة بالزاب والحضنة ومواطن عجيسة ما بين سطيف وقلعة بني حماد ؛ وولاية باغاية المشتملة على وطن كتامة من نواحي عنابة وقالمة الى نواحي سطيف وجيجل ، وولاية اشير المحتوية على مواطن صنهاجة وما يجاورها من زواوة وزناتة ، وولاية تاهرت المشتملة على مواطن مغراوة ما بين مليانة ومازونة ، ويفرن وغالب زناتة .

فتح عمالة الجزائر الشرقية

كان ابتداء ظهور الدعوة الشيعية بالجزائر حوالي سنة ٢٧٩ هـ – ٨٩٢ م ، بواسطة الدعاة المنبثين في الاقطار المرسلين الى المغرب من طرف جعفر الصادق ، وكان ظهورهم اول مرة بناحية قسنطينة – سوق حمار – ما بين ارض مجانة وسبيبة ثم ظهر بكتامة [1] ابو عبد الله الصنعاني ؛ المنتصر بقبائل

---

(١) اهل الجبال الواقعة ما بين مدينة القل وبجاية الى مجانة

لمصة وغسان المتحالفة معه ضد كل مماكس له في دعوته ، وهكذا استمر ابو عبد الله بذكائه وعزمه النادر في استمالة القوم اليه بدعوى التحرير من ربقة السلطة الاغلبية والانتصار للدين حتى امتلك قلوبهم واكتسب مودتهم فاجتمعوا عليه وكثر عددهم حوله فأخذ حينئذ في تأسيس مدينة بـ « ايكجان » قرب Chevreul الحالية بنواحي « فج مزالة » فجمع بها انصاره وسماها « دار الهجرة » ومنها زحف الى ميلة ففتحها سنة ٢٩٠ هـ - ٩٠٢ م . وجرت بينه وبين الاحول اخ ابي العباس الاغلبي حروب طاحنة ووقائع شديدة بنواحي سطيف وبلزمة انتصر فيها الاحول اولا ثم دارت الدائرة عليه فتغلب الشمي وفتح طبنة عاصمة الزاب - على نحو اربع كيلومترات شمال بريكة - واحتلها صلحا في آخر ذي الحجة سنة ٢٩٣ هـ - اكتوبر ٩٠٦ م تظاهر امام اهلها بالتقشف والتعصب للكتاب والسنة وانتهاج مناهج العدل والاستقامة فتمسك به القوم ورغبوا في توليه عليهم ؛ وفي شعبان سنة ٢٩٤ هـ - ماي ٩٠٧ م خرج الشيعي من طبنة في جموعة فاستولى على بلزمة وباغاية ومنها توجه الى مسكيانة وتبسة ، وهناك جاءته الوفود من اهالي مدينه سطيف مستأمنة على نفسها فأمنها بعد ما هدم المدينة ، ثم استولى بجنوده واتباعه على تيجس ومرماجنة وقسنطينة ومجانة وسائر بلاد الجزائر ونواحيها الشرقية ، ومنها اندفع الى ناحية تونس وقفصة وكان معه يومئذ ما ينيف على مائتي الف جندي ؛ وهنالك التقى بجيش الاغالبة الذي كان يبلغ نصف العدد المذكور وكانت المعارك بينهم بالاربس فانتصر عليهم الصنعاني بجيوشه واحتل القيروان في اواخر جمادى الثانية ٢٩٦ هـ - مارس ٩٠٩ م وتقدم في رجب - افريل الى رقادة دار ملك الاغالبة فتبوأها ، فكان ذلك آخر العهد بدولة بني الاغلب .

فتح عمالة الجزائر الغربية

بعد ان ظفرت الدولة العبيدية بالمملكة الشرقية من الجزائر الى تونس حولت انظارها الى امتلاك الجهة الغربية ؛ فجهزت لها جيشاً عتيداً بقيادة

عروبة بن يوسف الكتامي فاحتل مملكة الرستميين وقضى على امامة الخوارج بها لتناقض الفكرتين فيها ، وجعلت ولاية العاصمة تاهرت الى ابي حميد دواس بن صولات اللهيصي والسيد الصغير ابراهيم بن محمد المعروف بالهواري وفي سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م هجم محمد بن خزر الزناتي امير مغراوة في قبيلة على تيهرت فهزمه واليها ابو حميدة وامره في قومه بحصن ابن بجاثة - المعروف بتاهرت القديمة - ثم اجهز عليهم ونجا ابن خزر بنفسه ، وفي سنة ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م نهض التاهرتيون ضد عامل الشيعة العبيدي فخرج منها العامل ملتجئاً الى حصن ابن بجاثة واسند اهلها رآستهم الى امير مغراوة محمد بن خزر الزناتي فنزل هذا المدينة وتغلب على ارباضها : ثم جاءت الحملة الشيعية في شهر صفر ٢٩٩ هـ - سبتمبر ٩١١ م فاقتحمت مدينة تيهرت قهراً ونصبت على رأسها مصالة بن حبوس المكناسي ، واستمرت هذه الولاية في عقبه الى سنة ٣١٤ هـ - ٩٢٦ م حيث عاد اليها ابن خزر السالف الذكر وهاجمها مراراً فلم ينجح ، وقد التهبت النيران في تيهرت سنة ٣٠٥ هـ - ٩١٧ م فأحرقت اسواقها . وفي سنة ٣١٥ هـ - ٩٢٧ م تقدم ابو القاسم بن عبيد الله المهدي متوغلاً في اعمال تيهرت ففتح يومئذ بلاد هوارة ومزاتة ومطماطة .

وفي ذي الحجة سنة ٢٩٧ هـ - اوط ٩١٠ م اوعز الخليفة عبيد الله المهدي الى ابي حميد اللهيصي عامل تيهرت بحصار مدينة وهران ومقاتلة اهلها من بني مسقن الزناتين ان هم امتنعوا عن الاستسلام ، فحوصرت وهران ومنع اهلها الماء فخرج منها بنو مسقن ليلاً وتركوا اموالهم الى النهب وخربت وهران فاضرمت فيها النيران وفر عنها يومئذ مؤسسوها الاندلسيون ، محمد بن ابي عون ومحمد بن عبدوس في جماعة ... ثم ردهم اليها ابو حميد وشرعوا في تجديد المدينة في شعبان - افريل ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م فعادت ابهج مما كانت عليه من قبل وتولى عليها يومئذ محمد بن ابي عون الاندلسي فتقدم بها العمران والرقي الى منتصف جمادي الثانية سنة ٣٤٣ هـ - اكتوبر ٩٥٤ م . حيث كانت بها الوقعة المشهورة بين يعلي بن محمد بن صالح اليفرني وبين زداجة وبني مسقن - كلهم من

زناتة ومواطنهم بازاء وهران - فاحتل يعلي المدينة وعمل على خرابها والعبث والفساد فيها واوقد فيها النيران فعادت وهران الى ما كانت عليه من التدمير والخراب واخذ يعلي في نقل اهلها الى موطنه الزناتي ، وكانت الغاية من هذه الرقعة مقاومة الشيعة لا غير وبقيت وهران على ذلك مدة سنوات ثم تراجع الناس اليها وبنيت من جديد . وفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م تحرك محمد بن ابي العافية عامل العبيديين على المغرب الاقصى فجاء في جموع كثيرة فاحتل ولاية تلمسان ووهران وتنس وشرشال وقطع يومئذ دعوة الادارسة من المغرب الاوسط ؛ فخرج حينئذ اعقاب محمد بن سليمان من سائر اعمال تلمسان واخذوا بدعوة الامويين بالاندلس واجازوا اليهم ثم كان بعد ذلك من الفتن والثورات بهذا الوطن ما اخرجه مراراً عن طاعة العبيديين وادخله في طاعة الامويين تحت تصرف يعلي الافريني عامل الناصر الاموي بالمغرب ، وبقي الامر على ذلك يتأرجح بين الطائفتين ما بين مد وجزر الى ان تجرد لها القائد جوهر الصقلي سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م فاخضع جميع هذه النواحي الجزائرية نهائياً الى سلطة الدولة العبيدية وأضافها الى اعماله بالمغرب الاقصى . ثم منحتها الحكومة الى حليفها حاكم مدينة اشير مؤسسها زيري بن مناد الصنهاجي .

مؤامرة تنس

يقال ان ابا العباس احمد المعروف بالمخطوم اخ ابي عبد الله الصنعاني ندم على ما صدر منه ومن اخيه في خدمة الدولة الشيعية وتوطيد الملك وتمهيده لبني عبيد ، فكان مما رواه التاريخ عنه انه أسر لاخيه ذات يوم فقال له : تكون انت صاحب البلاد والمستقل بامورها وتسلمها الى غيرك وتبقى من جملة الاتباع ؟ ! ... فكان هذ مما حمس ابا عبد الله على ان يفرض شخصيته على الحكومة وعلى اضمار الغدر بعبيد الله المهدي وفي يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة ٢٩٧ هـ - اوط ٩١٠ م تم تدبير المؤامرة

بمدينة تنس ضد الخليفة ؛ وبيتوا على قتل المهدي فكان هناك من نمى الخبر الى الخليفة فاحترس اولاً من المتآمرين متربصاً بهم الدوائر الى ان حان الوقت فدس لابي عبد الله واخيه من قتلهما صبراً ، وذلك وقت الزوال من يوم الثلاثاء منتصف جمادي الاولى سنة ٢٩٨ هـ - ١٩ فيفري ٩١١ م وكان المباشر لقتل ابي عبد الله هو عروبة بن يوسف من وجوه كتامة ؛ ومعه اخوه حباسة ، وقيل معه جبر بن نماسب الميلي ؛ يقال انه لما حمل عروبة على الداعية الصنعاني واراد قتله ، قال له لا تفعل يا بني ! ... فأجابه هذا : ان الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتلك . وقتل معهما جماعة من شيوخ كتامة ممن تمالؤوا على ذلك ، واظهر الخليفة الرضى عن غيرهم ممن ظن فيهم الظنون وكانوا عنده من المشبوهين ، فجعل يفرقهم في المناصب النائية وكأنه يفعل ذلك تكرماً منه ومجازاة لهم وانهم محل ثقته وهو في الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة .

مناهضة الشيعة بالجزائر

اشتد غضب كتامة على الخليفة حين اوقع ببعض الذوات من رؤسائهم — الذين شاركوا في المؤامرة — فأزمعوا على الانتقام واصروا على الخلاف فكثرت الحوادث والوقائع والحروب ضد الشيعة ؛ وفي سنة ٢٩٩ هـ — ٩١١ م اقتطع الزاب عن العبيديين فقويت شوكة اعدائهم به ؛ فنهض اليهم يومئذ ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي فأخضعهم واحتل مدينة قسنطينة واعمالها ؛ وفي سنة ٣١٥ — ٩٢٧ م غزت قبيلة زناتة بلاد كتامة بدعوى مناهضة الشيعة المحتلين لتلك البلاد ، فكانت الحرب بينهم شديدة انهزمت فيها زناتة ، فانتهزها يومئذ الامويون فرصة فمدوا ايديهم للاخذ بضبع زناتة فبايعوا رئيساً يومئذ محمد بن خزر سنة ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م واذعن للخلافة الاموية وحمل على ناحية التل فاستولى على مدينة وهران وتنس وشلف ثم اخفق في الاخير .

مقتل عامل اوراس

لقد بالغ ابو معلوم فلحون الكتامي عامل اوراس في مطالبة رعيته بدفع المبالغ الباهضة من المغرم وكلفها من الكلف ما لا تطيقه ، فأظهرت له الرعية الطاعة والامتثال متربصة به حتى ظن انه نجح في خطته واطمأن فانقض عليه يوماً اهل الجبل فقتلوه ومن معه من الحامية والجند ٣١٠ هـ — ٩٢٢ م ؛ فكانت هذه الحادثة من متمهات حوادث مناهضة الشيعة بالجزائر .

مقتل عامل تاهرت

كثيراً ما خرجت ولاية تاهرت عن طاعة العبيديين ، وتولاها رؤساء زناتة تلك القبيلة التي لم تكن لتذعن لهذه الدولة الشيعية طيلة ولايتها على المغرب ؛ وكثيراً ما نشأت بينهما حروب دامية ، منها هذه الحرب التي خرج فيها مصالة ابن حبوس عامل تاهرت مهاجماً لقبيلة زناتة المنشقة ، وقد استولى في طريقه على النواحي ؛ وفيها كان حتفه يوم الجمعة ٣٠ شعبان سنة ٣١٢ هـ — ١٩ جانفي ٩٢٥ م وانهزم يومئذ حزب الشيعة ، ولم تكد تنقطع الوقائع بين زناتة والشيعة ومن والاها من قبائل صنهاجة وكتامة مدة نحو خمسين سنة .

انشاء مدينة المسيلة

بعدما انتهى الخليفة ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي من جولته في انحاء الوطن للقضاء على الثورات القائمة ضده تقدم يومئذ لبلاد مطماطة وهوارة ونواحي تاهرت ففتحها نهائياً واوغل في التخوم الى ما وراءها فكسر من شوكة المعارضين هنالك ، وفي منصرفه الى قاعدته مر في طريقه على وادي سهر فأعجب بهذا المكان الذي كان يسكنه يومئذ بنو ملكان من بطون هوارة ، فأمر بنقلهم الى فج القيروان ، واخذ رمحه فاختط به في ذلك المكان مدينة المسيلة وهو راكب على فرسه ؛ وقد كان ذلك اليوم الاحد ٩ صفر سنة ٣١٥ هـ — ابريل ٩٢٧ م وعهد بالقيام على بنائها

والوقوف على تحصينها وتحسينها الى احد قادته المشهورين ابي الحسن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي [1] وجعلها سداً منيعاً بينه وبين عادية زناتة ، ولما تم بناؤها نسبها الخليفة الى نفسه ودعاها باسمه « المحمدية » ونقلت ادارة الزاب اليها من طبنة ، فأصبحت المسيلة – المحمدية – هي عاصمة الزاب يومئذ وبلغت من الحضارة والعمران الغاية القصوى ، فقد كان بها من القصور والمنشآت المعمارية من حمامات ومنتزهات ومساجد الخ ... ما يحق للجزائر ان تفخر به على غيرها في ذلك العصر ؛ وقصدها يومئذ العلماء والادباء فجاؤوها من كل جهة وصوب وجعلت ولايتها لمؤسسها علي بن حمدون الى ان هلك في حرب ايوب بن يزيد الخارجي سنة ٣٣٤ هـ – ٩٤٦ م فخلفه عليها ابنه جعفر ممدوح ابن هاني ، وبقي في ولايته الى ان نافسته صنهاجة ونشأت الحرب بينهما فقتل فيها زيري بن مناد الصنهاجي وذهب فيها ضحية عثرة فرسه ، فقام ابنه بلكين منتقماً لوالده وظهر على جعفر فخرج منها حينئذ يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ هـ – ١٥ جوليط ٩٧١ م . وذهب الى قرطبة فكان هو واخوه يحيى في جانب المنصور بن ابي عامر على اعدائه وقتل جعفر هنالك وفر يحيى الى مصر ، فأضاف المعز العبيدي ولاية المسيلة يومئذ الى بلكين الصنهاجي فعمت ولايته حينئذ كلا من اعمال الجزائر الثلاثة : المسيلة وتاهرت واشير .

انشاء مدينة اشير

هي مدينة بالجنوب الشرقي من البرواقية قرب « ثلاثاء الدوائر » لا تزال اطلالها باقية الى اليوم عند الكاف الاخضر على المنحدر الجنوبي الشرقي لجبال تيطرى وهي تبعد بنحو ٢٥٠٠ متراً الى الشمال الغربي من (بنية) او منزل (بنت السلطان) وهي المدينة التي اقيمت مكان أشير ، وقد تهدمت هذه كذلك ايضاً . انشأها زيري بن مناد رئيس

---

(١) هو الذي خرب مدينة أدنة – على مرحلة شرق المسيلة – وامر باسقاطها عند رجوع ميسور الفتى من المغرب سنة ٣٢٤ هـ – ٩٣٥ م .

صنهاجة وأميرها سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م وجعلها مركزاً حربياً لمجاورة بلاد زناتة الممتنعة عن طاعة العبيديين المغيرة على ثغورهم ، جلب اليها البنائين والصناع من المسيلة وطبنة فاحكموا وضعها واشادوا بناءها حتى قيل انه ليس في هذه الاقطار احصن ولا احسن منها ولا احكم ؛ ووصف يحيى ابن خلدون الحصن الذي بناه زيري ابن مناد الصنهاجي على جبل تيطرى حيث كانت توجد مدينة اشير فقال : معقل تيطرى المشهور الحصانة الآخذ من الصحراء والتل المزاحم بمناكبه السحاب ؛ ... ووصف صاحب العبر هذا الجبل او المكان الذي اقيمت عليه مدينة اشير فقال ... الذي كانت فيه المدينة الكبيرة ... وذكرها صاحب الاستبصار فقال : ليس في تلك الاقطار احسن منها[1]. وبعد ان رأى الخليفة المنصور شدة نكاية مؤسسها في العدو - ابي يزيد - بقلعة كتامة واخلاصه في نصرة الدولة وصله بتحف وهدايا نفيسة وعقد له على قومه وعلى تيهرت واعمالها واذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة اشير فاستبحر بها العمران وقصدها العلماء والتجار من القاصية وكانت بها سوق تباع فيها كل لطيفة وظريفة ، وضرب بها العبيديون عملتهم ، ثم جاء بلكين ولد المؤسس فابتنى سورها سنة ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م وبقيت المدينة حرماً آمناً الى ما بعد سنـــة ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م حيث خربها يوسف بن حماد الصنهاجي ، ثم تراجع اليها الناس بعد سنة خمس وخمسين واربعمائة - ١٠٦٣ م فعادت الى ما كانت عليه .

ثورة ابي يزيد الخارجي

كان ابو يزيد هذا رجلاً مشهوراً بالتقشف يركب الحمار ويلبس الخشن من الصوف متسماً بالسنة آخذاً نفسه بالحسبة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويعلم الصبيان القرآن ويؤدبهم ، واسمه ابو يزيد مخلد بن كيداد

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ص ١٨٥ ط الجزائر ١٣٢٢ هـ والعبر ج ٦ ص ٦٤ ط بولاق ١٢٨٤ هـ والاستبصار ص ٥٨ - ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ م .

المشتهر بصاحب الحمار ومذهبه النكارية من فرق الخوارج، متعصباً لمذهبه وهو من أهل جبل اوراس ففي سنة ٣٣٢ هـ – ٩٤٣ م بايعه اهل الجبل على الثورة في وجه الشيعة وتلقب بشيخ المؤمنين وعمره يومئذ ستون سنة فخرج معه الكثير من خوارج زناتة ومشيخة المالكية أيضاً وكلهم يدعو الى مبايعة الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي صاحب قرطبة، وذلك توصلاً منهم الى نبذ الدعوة الشيعية وتحرير البلاد من سلطة بني عبيد، فخرج ابو يزيد من اوراس على رأس هذه الجموع ناشراً ألويته الصفر فاحتل من بلاد الجزائر مدينة تبسة ومجانة وبجاية وغالب مدن القطر الجزائري الشرقية وحاصر قسنطينة وبلغ في سيره الى القيروان ثم الى تونس فاحتلها وحاصر المهدية دار ملك العبيديين ثمانية عشر شهراً حتى كاد الخليفة المنصور العبيدي – وهو يومئذ بها – ان يفتم وييأس لولا انه عمل الحيلة في التخلص بنفسه منها وذهب الى بسكرة ثم الى مقره من بلاد الزاب الجزائري، ومن هناك كاتب رئيس صنهاجة زيري بن مناد مستنجداً به على أبي يزيد وأهدى اليه في ذلك أموالاً كثيرة وحللاً وتحفاً نفيسة كما استعان أيضاً بصاحب المسيلة علي بن حمدون، فلبى كل منهما دعوة المنصور وخرجت الجحافل فأحاطت بأبي يزيد – وهو يومئذ محاصر للمهدية – فأفرج عنها في صفر سنة ٣٣٤ هـ – سبطمبر ٩٤٥ م وفي اثناء ذلك نهض شاب بجبل اوراس متزعماً حركة اخرى ضد الشيعة أيضاً فقبض عليه صاحب المسيلة وجاء به مصفداً الى الامير فأمر بجلده معه وصلبه اينما حل وارتحل فكان يظهره للناس مصلوباً ارهاباً لهم وظل ابو زيد يتنقل في العواصم والبلاد الجزائرية والخليفة المنصور في اثره الى ان بلغ باغاية فامتنع عنه أهلها ومنعوه من الدخول اليها فضرب عليها الحصار ونزل المنصور يومئذ بطبنة وفي تلك الاثناء فسدت سيرة أبي يزيد وساء سلوكه فاختلفت عليه زناتة وانقلبت ضده، فجاءت رسل محمد بن خزر الزناتي أمير مغراوة الى الخليفة تستأمن للقبيلة فأمنهم الخليفة مشترطاً عليهم تسليم أبي يزيد، فانطلقوا جميعاً خلفه وكانت له معهم وقائع وايام مشهورة بأسمائها في التاريخ كوقعة يوم الرؤوس بفحص باتنة، ووقعة

الحريق بجبل كيانة ـ قلعة بني حماد ـ حيث أحاط العبيديون بالقلعة ، وبعد حرب ضروس قبض الخصوم على أبي زيد مثخناً بالجراح بجبل معديد أو المعاضيد كما هو معروف به اليوم بشمال الحضنة في المحرم ٣٣٦ هـ - جوليت ٩٤٧ م فأمر الخليفة باسعافه فغلب عليه نزف الدم فمات يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم ؛ فمثل الخصماء بجثته وعبثوا بها ... ويومئذ نهض أبناء أبي يزيد الثلاثة : الفضل وأيوب ويزيد في قومهم منادين باستمرار الثورة على العبيديين والمطالبة بدم أبيهم فانتشبت الحرب من جديد وتقدم الفضل على رأس جيوشه فحاصر طبنة وبسكرة وباغاية وكاد لهيب الفتنة يعم الاوراس لولا ان قتل الفضل غدراً في شهر ذي القعدة من سنته ـ ماي ، جوان ـ وقتل أخوه أيوب بعده ٣٤١ هـ - ٩٥٢ م وزحف بعدهما يزيد الى باغاية فانهزم عنها ولم تخمد أوار الثورة بأوراس الى ان جهز لها الخليفة رئيس صنهاجة بلكين بن زيري الصنهاجي فقضى على الثائرين هنالك وانتهت يومئذ حركات الخوارج بالمغرب ، واسندت ولاية باغاية الى قيصر الصقلي مولى المعز العبيدي وبقي في منصبه هذا الى ان ظهر منه ما استوجب قتله فقتله سيده سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م .

اصطدام الدعوة الشيعية بالاموية في الجزائر

كان المغرب العربي في اوائل القرن الرابع الهجري محط انظار الدعاة السياسيين من الامويين والشيعة ، يزدحمون عليه ويتسابقون بينهم في مد ايديهم اليه ؛ فانه بعد ما تمكن العبيديون من دولة الادارسة والاغالبة بالمغرب وبلغت دولتهم الى شواطي المحيط وسبتة واخذت تهدد الاندلس ، وكان الثوار في الاندلس يومئذ يفاوضون العبيديين ويتآمرون معهم على الدعوة لهم ؛ أسرع عبد الرحمن الناصر الخليفة الاموي الى دفع هذا الخطر عن دولته فنزل بساحل افريقية وفتح مليلة سنة ٣١٤ هـ - ٩٢٤ م وبث دعاته هنالك فاخترقوا المغرب الى بلاد الجزائر فلبام صاحب ارشقول ـ

فرضة تلسان وهي على مسافة عشرين ميلًا منها – وهو يومئذ ادريس بن ابراهيم ، واقتفى اثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جرواة ، وموسى بن ابي العافية صاحب المغرب الاقصى ، ومحمد بن خزر المغراوي عاهل زناتة ، فنشبت يومئذ حروب بين الشيعة ودعاة الاموية في هذه الامارات المذكورة فانهزم فيها هؤلاء وخضعوا للشيعة ؛ ثم عادت زناتة الى الدعوة الاموية لما كان للامويين عليها من الولاء من عهد هجرة أميرها صولات بن وزمار الى الخليفة عثمان بن عفان بالمدينة المنورة ، فاتحد أميرها الخير بن خزر وحميد بن يصل على رفض دعوة العبيديين فحوصرت يومئذ تيهرت واحتلت وهران وأقيمت بها دعوة الامويين سنة ٣٣٣ هـ – ٩٤٥ م واخذت البيعة للخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله صاحب قرطبة ، وكان العبيديون يومئذ في شغل عن هذا مهتمين بحروب أبي يزيد الخارجي ، وبعدما قضوا عليها عمدوا الى القضاء على الدعوة الاموية القائمة بالمغرب ، فخرج المنصور بنفسه سنة ٣٣٦ هـ – ٩٤٧ م ونزل بسوق حمزة – قرب البويرة من عمالة الجزائر – ومعه زيري الصنهاجي في جموعه وهناك أخذ الخليفة في حشد الجنود وجمع العساكر مندفعاً نحو تيهرت ، فأخرج حميد عنها وعقد المنصور عليها ليعلى بن محمد اليفرني كما انه عقد لزيري بن مناد الصنهاجي على قومه وسائر بلاد صنهاجة .

وفي سنة ٣٤١ هـ – ٩٥٢ م أعاد الناس الدعوة الى الامويين بالمغرب الاوسط ، تقدم على الناصر الاموي بقرطبة في ذلك قاضي وهران أحمد بن أبي عون في وجوه أهل البلد وأعيان الوطن ، فتجهز لهم جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي وخرج لقتالهم سنة ٣٤٧ هـ – ٩٥٨ م فاعترضه يعلى بن محمد اليفرني في جيوش عظيمة على مقربة من تيهرت ، وكانت هنالك مقتلة شديدة بين الطائفتين ، فعمد يومئذ جوهر الى بذل الاموال وتوزيعها بين رؤساء كتامة على ان يفتكوا بيعلى ويعفوا اثره . فجاؤوه برأسه وهزم يومئذ بنو يفرن قوم يعلى وانتصر العبيديون ثم كانت فترة قصيرة سكنت فيها الجزائر الى ان غزا ابن خزر الزناتي مدينة

باغاية سنة ٣٥٨هـ – ٩٦٨م وأعلن عصيان الشيعة ، ودعا للناصر الاموي أيضاً وامتدت الفتنة الى الزاب وواد ريغ ووارقلة – بالقاف المعقودة – ويومئذ خرج المعز الفاطمي لقتالهم جميعاً فشتت جموعهم وأعاد الدعوة الشيعة ، وفر ابن خزر مختفياً حيث لم يظهر له اثر ، فاجتهد المعز في القبض عليه فلم ينجح ، ويومئذ انتدب له بلكين الصنهاجي وأوغل في البلاد باحثاً عنه أيضاً بالسهول والنجاد مقتفياً اثره فلم يظفر به ، وبعد مضي سنة من الحادثة أقبل ابن خزر بنفسه فدخل على الخليفة المعز بدار الخلافة « المنصورية » (ربيع الثاني ٣٥٩هـ – فيفري ٩٧٠م) ، مستأمناً على نفسه فأمنه وعفا عنه وأبقاه هنالك حتى قضى بالقيروان وقد أناف على مئة سنة ؛ ويومئذ تلاشت أطماع الامويين في المغرب .

حروب صنهاجة وزناتة

ولما هلك محمد بن خزر الزناتي خلفه على رئاسة القبيلة ولده الخير متمسكاً بدعوة الامويين الى وفاته ، ثم قام بعده ولده محمد مستمسكاً بحزب والده السياسي ، وكان متجبراً عاتياً ، فاثار العبيديون عليه قبيلة صنهاجة الموالية لهم وكان على رأسها بلكين بن زيري فنشبت الحرب القبيلتين سنة ٣٦٠هـ – ٩٧٠م وكاد ان يؤسر فيها رئيس زناتة لولا انه عرف كيف ينجو بنفسه من ذل الاسر فانتحر ، وقتل يومئذ سبعة عشر اميراً من صنهاجة . ثم نهض الخير بن محمد الزناتي فقام مكان والده المنتحر متزعماً قبيلة زناتة فقاتل صنهاجة حتى وقع اميرها زيري عن فرسه فصرع ؛ ولقد استمرت المناوشات بين هاتين القبيلتين نحو نصف قرن ، وكلها كانت ناشئة عما تكنه زناتة في نفسها من اثر الحرمان مما كانت ترجوه من خلفاء الشيعة من الرئاسة والتزعم على المغرب الاوسط المعروفة به وقد فاز بذلك خصماؤها الصنهاجيون وكتامة .

انشاء مدينة أفكان

هي على نحو الخمسة والعشرين كيلومتراً بالجنوب الغربي من معسكر

المعروف مكانها اليوم باسم أفكان بتشديد الكاف ، من مواطن جبل بني راشد وهو احد جبال درن المعروف بالاطلس ، وقاعدته مدينة الراشدية - معسكر - كان مركز هذه المدينة اولاً سوقاً لزناتة ؛ فدمها رئيسها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني واسس بهذا المكان مدينة عظيمة سنة ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م واتخذها مركزاً لرئاسته فارتحل اليها الناس يومئذ من تيهرت ووهران ومعسكر وغيرها من بلاد الجزائر فانتشر بها العمران واسس بها مسجداً جامعاً وارحاء وحمامات الخ ... ثم كان خرابها على يد القائد العبيدي جوهر الصقلي في حوادث ثورات زناتة على الشيعة سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م .

قال الادريسي وأفكان هذه مدينة كانت لها ارحاء وحمامات وقصور وفواكه كثيرة وكان عليها سور تراب لكنه الآن تهدم وبقي أثره ، وواديها يشقها نصفين ويمضي منها الى تاهرت [1] .

مهاجمة الاندلسيين للجزائر

لقد علمنا بما تقدم مبلغ الخلاف والنزاع الذي كان ناشئاً عن تنافس الشيعة والامويين بالمغرب ، ويومئذ أمر المعز اسطوله الرابض بصقلية ان يهجم ويغزو سواحل الاندلس ؛ فخرج الاسطول سنة ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م غازياً سواحل المرية فعاث فيها وغنم وسبى ثم عاد الى مقره ، ويومئذ خرج الاسطول الاموي منتقماً لدولته فحل بسواحل افريقية فأخفق ، ثم عاد فكرر الهجوم في سبعين مركباً وحل بمرسى الخرز - القالة - شرقي بونة فأحرقها وكانت بها يومئذ مصانع السفن وأساطيل الدولة .

حركات الاسطول

لم يسمح التاريخ - في هذا العصر الذي نؤرخه - لاي دولة مطلقاً

---

(١) نزهة المشتاق ص ٨٢ - ٨٣ ط ليدن ١٨٦٤ م وابن حوقل ج ١ ص ٨٩ ط ليدن ١٩٣٨ م .

ان تفتخر بالتفوق البحري بهذا البحر المتوسط والانفراد بالسيادة العالمية فيه غير هذه الدولة المغربية الاسلامية ، فقد كان سلطانها به مرهوباً وجانبها مرموقاً ما بين بوغاز طارق الى بيروت فجميع مدنه الساحلية ومراسيه وجزره المنقطعة مثل كورسيكا وسردانية وصقلية الخ ... كلها كانت بيد هؤلاء العبيديين الذين عنوا كثيراً بتقدم الحركة البحرية وصناعة السفن ، فقد بلغ عدد ربابنة البحر في هذه الدولة الى خمسة آلاف ربان[1] وكانت مدينة بونة - عنابة - ومرسى الخرز - القالة - بالجزائر كلاهما مركزاً هاماً لصنع المراكب البحرية ، ومقراً عاماً للاسطول الذي بلغ المائتي مركب علاوة على مرفإ المهدية بتونس الذي كان يسع مائة سفين ، فمن هذه الامكنة كانت تصدر البعثات البحرية لغزو بلاد الروم وفتح ما ولاها من بلاد ضفاف البحر الابيض المتوسط ، كما انها كانت تغدو وتروح كذلك فيه مواخر للتجارة واستخراج معادنه وكنوزه من صدف وخرز وودع ومرجان وفصوص الحجارة الخ ... ولعظم صولة العرب البحرية وشدة شكيمتهم به انحاز الافرنج بمراكبهم يومئذ الى الجانب الشمالي الشرقي منه فتراهم لا يمدونه أبداً فلم يكن لاوروبا سلطان على هذا البحر خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - اذ كان لا بد لمن يريد منهم قضاء مأرب فيه ان يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وغيتة وأمالفي[2] قال ابن خلدون :

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر - الابيض المتوسط - من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج . وكان

---

(١) رئيس الملاحين .

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٦٦ ط القاهرة ١٩٥١ م .

أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية الى جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ... وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته ، وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تظهر للنصرانية فيه الواح[1] فاسمع الآن الى قول شاهد عيان وهو شاعر الدولة أبو القاسم بن هاني يصف اسطول المعز بقصيدة تدل على مقدار ما وصلت اليه قوة هذه الدولة البحرية العظيمة :

اما والجواري المنشآت التي سرت	لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها	ولكنَّ من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب	مسومة تحدو بها وجنود
اطال لها ان الملائك خلقها	فمن وقفت خلف الصفوف ردود
وان الرياح الذاريات كتائب	وان النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها	تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره	له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنه	بعزمك بأس او لكفك جود
انافت بـه اعلامها وسما لها	بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى شاهق وهو كوكب	وليس من الصفاح وهو صلود
من الراسيات الشم لولا انتقالها	فمنها قنان شمخ وريود
مـن الطير الا انهن جوارح	فليس لها الا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى	فليس لها يوم اللقاء خمود

(١) المقدمة ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

اذا زفرت غيظاً ترامت بمارج كما شبَّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق وافواههن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنها دماء تلاقتها ملاحف سود
يشب لآل الجاثليق سعيرها وما هي من آل الطريد بعيد
تعانق موج البحر حتى كأنه سليط له فيه الذبال عتيد
ترى الماء فيه وهو قان خضابه كما باشرت درع الخلوق جلود
وغير المذاكي نجرها غير انها مسومة تحت الفوارس قود
فليس لها الا الرياح اعنة وليس لها الا الحباب كديد
ترى كل قود التليل كما انثنت سوالف غيد اعرضت وخدود
رحيبة مد الباع وهي نتيجة بغير شوى ، عذراء وهي ولود
تكبرن عن نقع يثار كأنها موال وجرد الصافنات عبيد
لها من شفوف العبقري ملابس مفوفة فيها النضار جسيد
كما اشتملت فوق الارائك خرد او التفعت فوق المنابر صيد
لبوس تكف الموج وهو عطامط وتدرأ بأس اليم وهو شديد
فمنه دروع فوقها وجواشن ومنها خفاتين لها وبرود

ويقول Adam Mez مؤرخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ان في سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيدالله المهدي الفاطمي ان تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة ، وان تنهبها ، وان تفعل مثل هذا بمدينة بيزا في عامي ١٠١١ - ١٠١٤ م مع ان اسطول الفاطميين كان في ذلك الحين اقل كفاية من اسطول الشام ... وكانت مراكب العرب تقطع البحر الابيض عرضاً في سنة وثلاثين يوماً من مبدئه في الغرب الى آخره حيث انطاكية [١] .

المذاهب والعقائد

نشأت دولة العبيديين بالمغرب ونشأ معها فيه مذهب التشيع بعقائده

(١) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ٢١٤ .

وقواعده ، وهو مذهب آل البيت النبوي المطهر كمذهب جعفر الصادق وزيد بن حسن واسماعيل بن جعفر الصادق سابع الائمة الاثني عشر ؛ وان اشهر فرق الشيعة اثنان : الامامية والزيدية ، ولكل منها طوائف وفروع ؛ منها مذهب الاسماعيلية المتفرع عن الامامية وهو مذهب الدولة الرسمي ؛ غير انه مدخول بعقائد الروافض المقتبسة من الماجوسية والمانوية والمزدكية والدهرية ؛ وفي المذهب كثير من الافكار الشرقية التي حلت مكان الافكار الاسلامية المحضة ؛ بل يرى بعضهم ان الاصل في عقائد الشيعة الباطنية انها منبعثة عن مبدإ سياسي محض وما هو الا امتداد لما بيته خصماء الاسلام من الكيد له المتدرج تحت الصراع القائم يومئذ بين الموالي والعرب . ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم بل تراهم يأخذون بمذهب اهل الاعتزال في ذلك .

كان اول من نشر الافكار الشيعية بالجزائر منيب بن سليمان المكنامي نزل بأعمال تيهرت ونواحي وانشريس فنشرها هنالك بين العامة ، ثم جاء بعده السفياني والحلواني [1] فنشرها ايضاً ما بين اهالي مرماجة من بلاد مجانة وسوق حمار بنواحي قسنطينة ، وهكذا استمرت الدعوة الشيعية في سيرها سراً حتى جاء ابو عبد الله الصنعاني فأفشاها بهذه الاوطان ثم تعين الاخذ بها ايام ابي عبد الله المهدي ، قال ابن خلدون : وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن اقوالهم وهي كلها أصول واهية . وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلم نعرف شيئاً من مذهبهم ولا نرى كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم ، فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة بالمغرب والمشرق واليمن والخوارج

---

(١) ذكر ابن الأثير والمقريزي ان ابا عبد الله جعفر الصادق – الامام السادس – بعث بهذين الداعيين الى المغرب سنة ١٤٥ هـ – ٧٦٣ م وقال لهما : ان المغرب ارض بور لم تحرث قط فاذهبا فاحرثاها حتى يجيء صاحب البذر . والفترة التي بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول ابي عبد الله الشيعي الى هذه البلاد : ١٤٣ سنة .

كذلك ولكل منهم كتب وتاليف وآراء في الفقه غريبة[1] وكان مما احدثه الصنعاني هذا ان قطع صلاة التراويح في شهر رمضان وامر بصيام يومين قبله ، وقنت في صلاة الجمعة وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة ، واسقط من اذان صلاة الصبح : « الصلاة خير من النوم » وزاد « حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر » وكان نص الاذان طول مدة بني عبيد بعد التكبير والتشهدين : « حي على الصلاة وحي على الفلاح » مرتين « حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر » مرتين مرتين « لا اله الا الله » مرة . ثم يقول : المؤذن احياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ؛ جامع شمل الاسلام والمسلمين ؛ واعز بسلطانك جانب الموحدين ؛ واباد بسيوفك كافة الملحدين ؛ وصلى الله عليك وعلى آبائك الطاهرين ؛ وابنائك الاكرمين ؛ صلاة دائمة الى يوم الدين ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين[2] ومن فقه الشيعة انهم لا يقنتون الا في الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ولا يجيزون القصر في الصلاة للمسافر الا لمن كان قاصداً الحرمين الشريفين او الى الكوفة وكربلاء ، والخمر عندهم طاهر ، وهم لا يجتنبون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق لها بالثوب وشهر رمضان هو دائماً وابداً عندهم شهر كامل ولا يتوقف الافطار والصوم على الرؤية والزكاة عندهم لا تجب في أموال التجار بل يدفع التاجر الشيعي خمس ايراده الى الامام ، ونكاح المتعة عندهم مباح ، وليس عندهم في المواريث عول ولا تعصيب ، وخلصوا من العول بادخال النقص على بعض اصحاب الفروض فالقرابة عندهم مقدمون على العصبة ولعلهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس رضي الله عنهما ، ولا يرث الجد عند وجود ابن الابن فالاجداد والاخوة والاخوات عندهم في الدرجة الثانية بعد الابناء ، فالبنت اذا انفردت وليس معها احد من الابوين فانها تحوز المال كله نصفه بالفرض ونصفه بالرد ، وبذلك لا يشارك

---

(١) المقدمة ص ٢١٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) اخبار ملوك بني عبيد الله لابن حماد ص ١٥ — ١٦ ط الجزائر ١٣٤٦ هـ .

فاطمة عليها السلام احد في ميراثها من ابيها صلى الله عليه وسلم ، ولا يرث مع أم احد من الاخوة والاخوات ، ومع قولهم بان قاعدة الميراث عندهم هي تقديم الاقربة فانهم يقدمون ابن العم الشقيق على العم للأب مع ان العم اقرب من ابن العم . وهم لا يقولون بالقياس فاصبح لهم بذلك فقه يتفق ويختلف مع فقه اهل السنة وجميع شرائع القرآن لها عندهم معنيان ظاهر وباطن ، والعارف هو الذي يطلع على المعنى الباطن ويتخلص من الظاهر ، وكثيراً ما عقدت مجالس المناظرة والمساجلة بين شيوخ المذهب المالكي مذهب البلاد القديم ، وبين رؤساء وزعماء المذهب الشيعي الجديد وكانت هنالك المساجلات والمجادلات بين فقهاء المذهبين طالما افحم فيها فقهاء الشيعة بالحجة وقاطع البرهان ، وجرت هنالك محن ورزايا لمشيخة المالكية وعظمت فيها الحوادث والوقائع استشهد فيها عدد عظيم من العلماء والعباد ، ولم ينج احد من اهل المذاهب الاخرى يومئذ الا الحنفة لموافقتهم للشيعة في مسألة التفضيل فكان فيهم القضاة والرآسة [1] ولا تزال من هذه الفئة طائفة من الناس منبثة في انحاء بلاد الهند في كشمير وبومباي وجزيرة سرنديب – سيلان – وبالافغان والباكستان الغربي واليمن وشرقي افريقية وسوريا . وعددهم ينيف على مليونين نسمة ، ورئيسهم الحالي هو الامير كريم خان بن الامير علي خان النجل الاكبر لزعيمهم الروحي المشهور « آغاخان » المتوفي سنة ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م ويعد الامير كريم اليوم هو الامام الثاني والاربعون من أئمتهم وهو يحمل لقب جده « آغاخان » .

والملاحظ ان مذهب الشيعة لم ينتشر هنا بارض المغرب على طريق الارغام او العنف والاكراه كلا ، وانما اعتنقه من اعتنقه عن طواعية وموافقة وذلك ما نستنتجه من حديث اربين الاخوين زعيمي الشيعة بالمغرب : ابي عبد الله واخيه العباس ، قال النويري « انه لما وصل ابو العباس الشيعي الى ارض المغرب اراد ان ينفي عن القيروان من يخالف

---

(١) مقدمة كتاب المدارك ص ٢٦ ط بالرباط ١٩١٠ م .

مذهبه ، فقال له اخوه ابو عبد الله : ان دولتنا دولة حجة وبيان وليست بدولة قهر واستطالة فاترك الناس على مذاهبهم » .

واذن فليس بعجيب اذا لم نرَ البربر يتعمقون في دراسة المذهب الاسماعيلي وتفهم تعاليمه التي تحتاج الى اعمال فكر وروية ودراسة فلسفية عميقة ، وعذرهم في ذلك واضح اذ هم قوم سذج وليس لهم في ذلك الوقت من الاستعداد الكافي لفهم مذهب الشيعة الاسماعيلي بدرجاته المختلفة والمتدرجة في الصعوبة ما كان لغيرهم من اتباع هذا المذهب بفارس ومصر ، وانما كان اعتناق البربر لاول وهلة لهذا المذهب هو بباعث العداء لاغالبة الذين طالما اضطهدوهم وضيقوا عليهم الخناق ومن هناك لم يكن ما يساعد على رسوخ هذا المذهب في نفوس البربر مما أدى به الى الزوال من بلاد المغرب حيث لم يبق له الآن بقية أثر[1] وبقي المذهب الملكي راكداً بهذه الديار نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضية على عهد باديس عامل صنهاجة ؛ فبعثه من مرقده وبقي اهالي هوارة من بني كملان ومكناسة وسكان مدينة باغاية وفحصها من قبائل مزانة وضريسة من قلاع جبل اوراس على مذهب الاباضية .

الثقافة والحضارة والعمران

لم تطل اقامة الدولة العبيدية بهذه البلاد حتى تتمكن من بسط حضارتها بهذا الاقطار ، ومع ذلك فقد نهجت في سيرها نهج الدول المثقفة التي تسعى لتوطيد ملكها وتثبيت حكمها باساليب الحكمة والعدل وهي في ذلك تنافس دولة العباسيين بالمشرق والامويين بالمغرب . ويبدو ان الدولة العبيدية عملت على نشر الثقافة الاسلامية وخدمة العلم بمختلف الالسن

---

(١) نهاية الارب للنويري ج ٦ ورقة ٢١ مخطوط بدار الكتب المصرية وتاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابرهيم ص ٤٩ — ٥١ — ٥٢ ط القاهرة ١٩٥٨م وتاريخ التشريع الاسلامي للخضري ص ٣٤٠ ط القاهرة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤م وتاريخ التربية الاسلامية للدكتور احمد شلبي ط بيروت ١٩٥٤ م .

واللغات ، فقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة ملكية يصرح فيها الخليفة المعز بأن دعاته منتشرون في الاقاليم يدعون الى الدولة ويبشرون بأبابها وينشرون علمها وينذرون بأسها بتصاريف اللغات واختلاف الالسن [1] وهو نفسه كان يحسن لغات جميع الامم التي تتصل بالخلافة العبيدية كالبربرية والرومية والايطالية والنوبية علاوة على توسعه في علوم العربية . ومما يدلنا على انتشار الروح العلمية يومئذ كثرة حلق الجدل والبحث بين علماء الشيعة ومعارضيهم من أهل المذاهب الاخرى فكان ذلك اول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها الممتزجة بعقائد الشيعة ، وانشاء المصانع الحربية لصنع السلاح والاساطيل كمصنع بونة والمهدية ، وصناعة تعدين الحديد التي كانت من اشهر خصوصيات افريقية الشمالية ومصنع الزجاج الصافي وتفاصيل الصوف بطرة (اوطرا) من بلاد نفزاوة ؛ ويدل على ذلك نسج ذلك البساط العجيب الذي امر بصنعه المعز من حرير ازرق ملون مطعم بالذهب فيه صورة الاقاليم والبحار والانهار والجبال والطرق وفيه صورة الحرمين الشريفين مكتوبة اسماؤها عليها وفيه هذه العبارة التالية : « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ ه » . وكانت النفقة عليه اثنين وعشرين الف ديناراً ، وهذا نهاية التفوق الصناعي في فن الزخرفة ، ويوم ان توجه المعز للرحيل الى الديار المصرية حمل معه من بلاد المغرب والاندلس صناع التصاوير وكل نوابغ الفنون الجميلة وكان فيهم رجال من القبيلة الجزائرية الكبرى (كتامة) يسمون المزوقين كانوا يزوقون الجدران بألوان متعددة من الاصباغ ، اذا نظرت اليها من ناحية كانت صورة تغاير الحقيقة وكذلك اذا نظرت اليها من ناحية اخرى ، وكان اول من افاد عواميهم زوجته السيدة « تغريد » فانها شيدت لنفسها مسجداً جميلاً بالقارفة واستأجرتهم للعمل فيه وكان رئيس الجماعة رجلاً يعرف باسم « الكتامي » صنع صورة ليوسف عليه السلام وهو في الجب عريان والجب كله اسود ، فكانت هذه الصورة اول أثر للتصوير الفاطمي في صدر الاسلام قرأنا عنه ولكننا مع كثير من الاسف فقدنا أثره . ومما

---

(١) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٥٨ .

اثبته التاريخ ايضاً لهذا الخليفة العبيدي من ابتكار واختراع ، انه هو الذي امر بصنع قلم الحبر Stylographe على هذا الشكل ، والوضع المعروف به اليوم : فلقد ورد في كتاب الخصائص والمسامرات قال عند كلامه عن الامام المعز مخترع هذا القلم وقد وصف صنعته قال : ثم مرت بضعة ايام حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب فأودعه المداد وكتب به وزاد شيء من المداد عن مقدار الحاجة فأمر باصلاحه فاذا هو يقلب باليد ويميل الى كل ناحية ثم اذا رفعه عن الكتاب امسك المداد فرأيت صنعة عجيبة لم اكن احلم اني أرى مثلها . وتقدمت اقتصاديات البلاد تقدماً باهراً ، فقد بلغ ثمن بيع وقر جمل من التمر بدرهمين ، وكانت القوافل تخترق الصحراء تحمل التمر في الغالب وتعود بسبائك الذهب وسبي العبيد اذ كان شمال افريقية في القرن الرابع مثل مصر وجنوب جزيرة العرب من اكبر اسواق الرقيق الاسود كما ان صناعة تجفيف السمك والتجارة فيه كانت رائجة بالمغرب ايضاً ، مثل استخراج المرجان بمرسى الخرز وسبتة ؛ فقد كان يعمل في ذلك ما يزيد على الخمسين قارباً ، وفي كل قارب نحو العشرين عاملاً ، وكان اكثر ما يحمل الى بلاد غانة والسودان ، كما انتشرت خدمة القطن ايضاً فكانت بذلك ثروة البلاد واسعة ، قال ابن حوقل انه دخل القيروان من مال المغرب سنة ٣٦٠ هـ ــ ٩٧٠ م فوق سبع مائة الف دينار وهذا من اعظم ما يسجل في تاريخ دخل الدول في القديم . وكان من آثار الدولة المعمارية بالجزائر مدينة المسيلة واشير وبونة الحديثة (٣٥٠ هـ ــ ٩٦١ م) ودار الهجرة ــ المدرسة الآن ــ وهي ذات حضارة ومدنية عجيبة ، بله ما اقامته في الاقطار الشقيقة مثل طرابلس وتونس والمغرب الاقصى من المنشئات والمؤسسات المتنوعة الكثيرة .

ويحدثنا اهل الجغرافية ومؤرخو القرن الرابع بانه لم يكن في المغرب من الفواحش وتعاطي الامور المنكرة والفسق مثل ما هو موجود اذ ذاك بالمشرق[1] ؛ وكان الزواج بينهم مقصورا على الواحدة ولم يفش التعدد

---

(١) ابن حوقل ج ١ ط ليدن ١٩٣٨ م .

امتثالا وطاعة الخليفة المعز ، فانه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلا لهم يوماً : « واقبلوا بعد الاعمال على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فينغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا ابدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة[1] .

ومن مبرات الفاطميين بالمغرب ما حكاه ابو جعفر الجزار عن احداث سنة ٣٤٠ هـ ٩٥١ م ، قال انه في هذه السنة امر الخليفة المنصور اسماعيل بن القائم بامر الله الفاطمي ان يكتب له اولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة والعبيد والجند وضعفاء الناس من اهل القيروان وغيرها ، ليختنوا ويحسن اليهم بالكسى والصلات فبلغوا اكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ في ختانهم ، وعمل ولائم واطعم خاصة الناس وعامتهم ، واعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد الى مائة درهم واقل من ذلك ، فكان يختن في كل يوم من خمسمائة الى الف وثلاثمائة ، فاقام على هذا سبعة عشر يوما ، قال أبو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من اهل الخدمة انه احصى ما انفق في هذا الختان فكان مائتي الف دينار ، وحدث في البلد عند ذلك من الانفاق واللهو ما لم ير مثله[2] .

وفي سنة ٣٥١ هـ – ٩٦٣ م قام حفيده المعز لدين الله بأعظم من ذلك يوم اعذار بنيه الامراء : عبد الله ونزار وعقيل اذ كاتب عماله وولاته من لدى برقة وعمالها الى اقاصي سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته مملكته الى جزيرة صقلية وما ولاها من حضر وبدو وبحر وبر وسهل وجبل بطهور من وجد من اولاد سائر الخلق غير مطهر حرهم وعبدهم وابيضهم واسودهم وذيهم وشرفهم وملّيهم وذميهم الذين حوتهم المملكة لمدة شهر واحد ، وتوعد على كراهية ذلك ، وامرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم وما يصلح احوالهم من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير

---

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢

(٢) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥١

ذلك بمقدار رتبهم واحوالهم ، وكان من جملة المنفق في ذلك ما حمل الى جزيرة صقلية وحدها من المال سوى الخلع والثياب خمسون حملا من الدنانير والحلي عشرة الاف دينار ــ ومثل ذلك الى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على اهل عمله ، وكان المعز ربما طهر في اليوم الواحد من ايام الشهر بجزيرته اثني عشر الف صبي وفوقها ودونها . كان وزن خرق الاكياس المفرغة فيما انفق في هذا الاعذار مائة وسبعين قنطاراً بالبغدادي [1] .

فتح مصر وانتقال الخلافة الفاطمية اليها

طالما رأينا نشوب الخلاف واحتدام اوار النزاع بين الحكومة العبيدية الشيعية وبين الرعية السنية ، وطالما اختلفت وجهة النظر بين الراعي والرعية وتباينت الافكار بينهما ، وكانت هنالك مواقف حرجة ادت الى المقاطعة والنفور بين الطرفين فكان ولا بد للدولة من التفكير والبحث عن بلاد اخرى تبث فيها دعوتها ؛ فحول الخليفة الفاطمي يومئذ نظره الى غير المغرب وعزم على الانتقال الى المشرق والقضاء على الخلافة العباسية هنالك وقد حاولت الدولة ذلك مرتين من قبل فلم تنجح فكان من المصادفة هذه المرة اضطراب الحال بمصر لوفاة صاحبها كافور الاخشيدي وقد كان الدعاة بها من قبل يعملون على تمهيد الفتح الفاطمي فكانت المراسلة والمكاتبة بينهم وبين المعز دائمة دائبة وكانوا مما يرمزون به في مكاتبتهم للخليفة بالمغرب قولهم ؛ « اذا زال الحجر الاسود ملكت الدنيا » وهم يعنون بذلك كافوراً لسواده ؛ وقد كان من مقاصد الخليفة العبيدي واغراضه السياسية التوصل الى الانتفاع بثراء البلاد المصرية الواسع حيث كانت اسواقها مستودعاً عاماً لتجارة اوربا مع الهند وبلاد العرب قبل اكتشاف ممر رأس الرجاء الصالح فكانت جميع سلع اسواق الشرق تمر مضطرة من طريق الاسكندرية الى الغرب [2] . فلما توفي كافور واضطربت المملكة

---

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ١٢٤ ط الكويت ١٩٥٩ م .

(٢) تاريخ حضارة العرب ص ٢٧٨ ط القاهرة ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م .

المصرية بما وقع فيها من الغلاء والوباء انتهز المعز الفرصة وامر قائده جوهر بن عبد الله الصقلي بغزو المشرق على ان تكون البداءة بمصر ، فخرج القائد من رقادة يوم السبت ١٤ ربيع الاول ٣٥٨ ﻫ – ٧ فيفري ٩٦٩ م ومعه من الجند اكثر من مائة الف فارس ، ومن الاموال ما يزيد على الف ومائتي صندوق يحتوي على نحو ثلاثة وعشرين مليون ديناراً ؛ وهو مبلغ عظيم يدلنا على سعة مداخيل ميزانية الدولة وما تجمع لديها من الثروة الطائلة باشتطاطها في جمع المال ؛ وكان معه كذلك من السلاح والخيل والعدد الجم الكثير ؛ وما كان يبلغ خبر تجهيز جيش الفتح هذا الى مصر حتى تفرق عنها اهلها وتركوها نهباً للغالب ، فاحتلها جوهر يوم الثلاثاء ١٨ شعبان – ٨ جوليط من نفس التاريخ ، وخطب فيها يوم الجمعة ٢٠ منه – ١٠ جوليط باسم مولاه وسيده المعز لدين الله ، ثم اختط مدينة القاهرة المعزية وبعث ببشارة الفتح الى الخليفة بالمغرب فسر لها سروراً بليغاً ، وعزز البعثة يومئذ ببعوث اخرى فتحت الشام واحتلت الرملة ودمشق . وبعد رسوخ قدم الخلافة الشيعية بمصر والشام والحجاز وانتظام احوال الدولة بها انتقل اليها المعز فخرج من عاصمته المنصورية – صبرة – في ابهة الملك وعظمة السلطان يوم الاثنين ٢٢ شوال ٣٦١ ﻫ – اوت ٩٧٢ م فنزل اولاً جزيرة سردانية ريثما التحقت به الجموع التي صحبته الى المشرق ، وبها عقد العهد لبلكين الصنهاجي على ولاية المغرب العربي ، ثم اخذ يتنقل ويطوف بالبلاد فيقيم اياماً في بعضها ثم يجد السير الى ان عبر النيل ودخل القاهرة يوم الثلاثاء ٥ رمضان ٣٦٢ ﻫ ٩ جوان ٩٧٣ م .

وكان فيما استصحبه معه المعز من الذخائر والاموال الى القاهرة الفا جمل من ابل زناته جاءه بها بلكين بن زيري عامل صنهاجة فحمل عليها جميع ما كان له بالقصور من الذخائر والاموال وسبك الدنانير على شكل الطواحين بجعل على كل جمل قطعتين في وسط كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة الى الاخرى فاستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون في الطريق لرؤية بيت المال المحمول ، وكان فيما نقله الخليفة الفاطمي معه الى القاهرة ،

يومئذ توابيت آبائه واجداده فدفنهم في قصره [1] .

شدة شكيمة كتامة واباؤها الضيم

كان لشريف الطبع الذي جبل عليه أهل كتامة كما جبل عليه بقية البربر كافة من إبائهم الضيم وعلو الهمة وعزة النفس انه لما اخذ المعز الفاطمي في تجهيز جوهر بالعساكر لفتح الديار المصرية وتهيأ للسير اليها بعث صاحب سره « خفيف الصقلي » الى شيوخ كتامة يقول لهم : « يا اخواننا قد رأينا ان ننفذ رجالاً الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم في بلادهم ، فاذا احتجنا اليهم انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغت ذلك : قل لمولانا والله لا فعلنا هذا ابداً ... كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديماً بالاسلام وحديثاً معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب ؟ ... فعاد خفيف الى المعز بذلك فأمر باحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال لهم : ما هذا الجواب الذي صدر عنكم ؟ ... فقالوا : هذا جواب جماعتنا ، ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا . فقام المعز في ركابه وقال : بارك الله فيكم فهكذا اريد ان تكونوا ، وانما اردت ان اختبركم فانظر كيف انتم بعدي اذا سرنا عنكم الى مصر هل تقبلون هذا وتفعلونه وتدخلون تحته بمن يرومه منكم ؛ والآن سررتموني بارك الله فيكم [2] .

وقد انقرض اهل هذا القبيل – كتامة – ولم يبق كما قال الادريسي –

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ ه – اتعاظ الحنفاء للمقريزي ص ١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ ه – ١٩٤٨ م – تاريخ الاسحاقي ص ١١١ ط القاهرة ١٣١٠ ه

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢ ط بولاق ١٨٧٠ ه واتعاظ الحنفاء ص ١٤٠ ط مصر ١٩٤٨ م .

أواسط القرن السادس الهجري - الا نحو اربعة آلاف رجل وكانوا من قبل ذلك عدداً كثيراً وقبائل وشعوباً [1].

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان القطر الجزائري يومئذ مجزءاً الى اربع ولايات ؛ ولاية المسيلة ، وباغاية ، وأشير ، وتيهرت ؛ فأما ولاية المسيلة فانها كانت لعلي بن حمدوي المعروف بابن الاندلسية الى ان انتقل ولده جعفر الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧١ م . فأضافها يومئذ المعز الى بني زيري رؤساء صنهاجة ؛ واما ولاية باغاية فقد تولاها كنون وعروبة بن يوسف الكتامي المقتول في ثورة ٣٠٢ هـ - ٩١٤ م وأبو معلوم فلحون الكتامي المقتول سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م وقيصر الصقلي المقتول ايضاً سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م . واما ولاية اشير فانها كانت في بني زيري الصنهاجيين الى نهاية ايامهم . اما ولاية تيهرت فقد تولاها على عهد الفواطم جماعة ، عرفنا منهم أبا حميد دواس اللهيصي ولاه عليها أبو عبدالله الصنعاني حين توجه منها الى سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م ومات أبو حميد قتيلاً مصروفاً عنها ، ثم تولاها مصالة بن حبوس المكناسي سنة ٢٩٩ هـ - ٩١١ م الى ان قتله محمد بن خزر الزناتي في شعبان سنة ٣١٢ هـ - نوفمبر ٩٢٤ م فوليها بعد اخوه يصل بن حبوس الى ان توفي سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م . فوليها يومئذ أبو مالك بن يغمراسن [2] بن أبي شحمة - بضم الشين وسكون الحاء وفتحها - اللهيصي الى ان ناهضه اهل البلاد فخرج منها مطروداً سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م . وولوا عليهم أبا القاسم الاحدب بن مصالة بن حبوس فحاربهم ميسور الخصي عند منصرفه من المغرب سنة ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م فظفر بالبلاد وقتل أبا القاسم وولى عليها داود بن ابراهيم العجيسي فأقام بها داود الى ان اخرجه منها حميد بن يصل في جمادى الثانية سنة ٣٣٣ هـ -

---

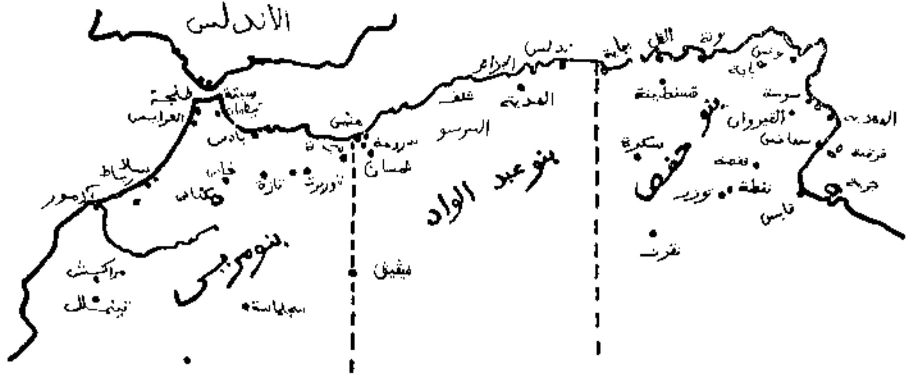
(١) نزهة المشتاق ص ٩٩ ط ليدن ١٨٦٤ م .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الياء والغين وكسرها ، وفتح السين وكسرها .

جانفي ٩٤٥ م . وأقام بها الدعوة الاموية الى ان اقتحم عليه المدينة الخليفة اسماعيل المنصور سنة ٣٣٦ هـ – ٩٤٧ م وعقد لميسور عليها ؛ فخرج منها حميد الى الاندلس ، وسار ميسور في الرعية بالظلم والجور فنهضت الرعية في وجهه وأضرمت البلاد عليه ناراً واستدعت محمد بن خزر الزناتي مفوضة اليه أمر المدينة ، فكر محمد بقومه على تيهرت ومعه ولده الخير وأظهر الانتصار لميسور حتى وقع بين يديه فغدر به وأسره واحتلت زناتة المدينة ؛ ثم اضطرب أمر هذه الولاية فتغلب عليها يعلى بن محمد اليفرني الزناتي ودعا فيها الى الاموية ورفض التشيع ، الى ان كانت حملة جوهر الصقلي الكبرى سنة ٣٤٩ هـ – ٩٦٠ م فزحف على المغرب العربي كله واحتل تيهرت وقتل يعلى وأسندت رئاسة هذه الولاية الى زيري الصنهاجي ؛ ويذكر لنا التاريخ ان رئاسة مدينة الجزائر يومئذ كانت لحمزة بن ابراهيم ، وعمالة بسكرة لزيدان الخصي ، وقيادة الجيش لموسى بن محمد الكتامي ورئاسة البحر ليعقوب الكتامي ، وكان من ولاة ميلة ماكنون بن ضبارة ولاه عليها أبو عبدالله الصنعاني ، ورئاسة قبيلة يفرن لحمد بن صالح المقتول على يد عبدالله بن بكار اليفرني ، ولم يكن هذا الرئيس اليفرني خاضعاً لدعوة العبيديين .

الخلفاء العبيديون بالمغرب

	تاريخ التولية
عبيد الله المهدي	٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م
ابو القاسم محمد بن عبيد الله (القائم بأمر الله)	٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م
الطاهر اسماعيل المنصور بن القائم	٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م
ابو تميم معد المعز لدين الله بن المنصور	٣٤١ هـ = ٩٥٢ م



خريطة المغرب الاسلامي

من مشاهير الجزائر

جعفر بن علي
٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م

ابو علي جعفر بن علي بن احمد بن حمدون المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة وامير الزاب ؛ قال ابن خلكان : كان سمحاً كثير العطاء مؤثراً لاهل العلم ؛ تولى امارة المسيلة بعد وفاة والده سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م . في وقعة ايوب بن ابي يزيد الخارجي . قال ابن حماد : ووصلت هذه المدينة — المسيلة — من العمارة والحضارة ، وملك علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى الى الغاية القصوى والامد الاقصى ؛ وقال البكري في وصف المسيلة : وللمدينة اسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر .

ولما تمكن زيري بن مناد الصنهاجي من ولاية اشير وامارة صنهاجة زاحم جعفراً في خدمة الدولة ونافسه في التقرب من الخليفة العبيدي وسما به في الرتب وتاخه في العمالة ، وكان للدولة صاغية اليه والى ابنه بلكين فاخذا يرميان جعفراً بالميل الى زناتة حتى اوغرا عليه صدر المعز بن المنصور ، فلما اعتزم الخليفة على الرحيل الى مصر اشيع عنه انه مستخلف بلكين ، فعظم على جعفر ان يبقى تحت ولاية منافسه ، ثم ان المعز ارسل اليه احد مواليه يستقدمه ويطمعه في خلافته ، فقويت

استرابه وغادر المسيلة في اوليائه بني برزال ، ولحق بزناتة سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م فجهز المعز زيري صاحب صنهاجة اثره فكانت حرب صرع فيها زيري واحتز رأسه فذهب به وفد من وجوه زناتة برأسهم يحيي بن علي اخو جعفر ؛ الى المستنصر الاموي بالاندلس فقام يومئذ بلكين مقام والده فقاتل زناتة وثأر لابيه منها واستظهر على جعفر ، فلحق جعفر بأخيه يحيى وبقيا هنالك مرموقين بعين التجلة والاحترام الى ان حدث في السياسة الاندلسية ما دعا المنصور بن ابي عامر الى الاستعانة بجعفر وشيعته بني برزال من زناتة على مزاحميه من رجال الدولة ، فلما قضى عليهم خشي جعفراً ايضاً فقتله سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م وفر يحيي الى مصر فنزل على العزيز بن المعز الى ان مات [1] ولقد ام جعفراً بالمسيلة الشاعر العظيم ابو القاسم محمد بن هانيء فمدحه بقصائد بليغة منها قوله :

المدنفان من البرية كلها جسمي بابلي وطرف احور
والمشرقات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

وقوله من اخرى :

ابني العوالي السمهرية والموا ضي المشرفية والعديد الاكثر
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبع في حمير

قال ابن معصوم : يحكي انه انشد هذه القصيدة وممدوحه راكب في جيشه ، فلما بلغ ذينك البيتين ترجل العسكر كله ، ولم يبق احد راكباً سوى الممدوح . فلم يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره .

ويقول في مقطوعة له اخرى في مدح جعفر ايضاً :

ألا ايها الوادي المقدس بالندى واهل الندى قلبي اليك مشوق

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤ وابن خلكان ج ١ ص ١٤٠ وتاريخ الميلي ج ٢ ص ٩٦ واخبار ملوك بني عبيد ص ١٣ .

ويا ايها القصر المنيف قبابه على الزاب[1] لا يسدد اليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده بقيت لجمع المجد وهو تزيق
على ملك الزاب السلام مردداً وريحان مسك بالسلام فتيق

جعفر بن فلاح الكتامي

٣٦٠ هـ – ٩٧١ م

القائد الجزائري العظيم رئيس اركان حروب العبيديين وفتوحاتهم بالمشرق ابو علي جعفر بن فلاح الكتامي نسبة الى كتامة تلك القبيلة العتيدة الكبرى بالجزائر التي قامت على سواعدها الدعوة الشيعية بالمغرب ؛ اشتهر جعفر بقوة البأس وشدة الشكيمة والبطولة في الحرب ، ولما اجمع الخليفة المعز على فتح المشرق بعث به مع القائد جوهر على رأس الجيش الفاتح ، فذهبا معاً الى مصر وفتحاها وتولى جعفر وحده فتح بلاد الشام فدخل الرملة عنوة في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ – اكتوبر ٩٦٩ م . وقضى على حكومة ابن طغج ، واحتل ايضاً طبرية ثم قصد عاصمة الامويين – دمشق – فاحتلها في شهر المحرم سنة ٣٥٩ هـ – نوفمبر ٩٦٩ م وحدث بها يومئذ اضطراب وفتن من اهلها فأقمهم صاحب الشرطة ثم سعى اهلها في الصلح فصالحهم جعفر واستقام له الملك بها ، وبعدها نزل الى الدكة فوق نهر يزيد بظاهر دمشق فابتنى بها قصره العجيب

---

(١) قال السلفي سمعت الأمم المتورقي يقول : الزاب الكبير منه بسكرة وتوزر وقسنطينة وطولة ونفصة ونقزاوة ونقطة وبادس ، قال والزاب ايضا كورة صغيرة يقال لها ريغ ، وهي كلمة بربرية معناها السبخة والنسبة اليها ريغي ، والزاب ايضاً كورة عظيمة ونهر جرار بارض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواسطة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها (انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٩٠٣ ط ليبزيج ١٨٦٧ م) : وارى ان تسمية هذا الموطن بالزاب يعود الى اسم قصبته او قد عاصمته في القديم « زابي » وهي مدينة المسيلة – المحمدية – .

ومكث هنالك الى ان زحف القرامطة على الشام تحت راية رئيسهم الحسن بن احمد القرمطي المعروف بالاعصم ، فخرج اليهم جعفر وهو يومئذ عليل فانتصر عليهم ، ثم وقع تخاذل في جيش جعفر فظفر بهم القرمطي وقتل جعفر في جماعة من اصحابه يوم الخميس ٦ ذي القعدة سنة ٣٦٠ ﻫ - ٣١ اوط ٩٧١ م . قال ابن خلكان : وكان جعفر رئيساً جليل القدر ممدوحاً وفيه يقول ابو القاسم محمد بن هانيء الاندلسي الشاعر المشهور .

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأى بصري

وكان فيما تولى امارة دمشق بعده من الجزائريين : ابناءه الثلاثة سلمان وعلي وابرهيم ، وكذلك القائد غوصلت المعروف بطزملت او طمزان البربري الاسود .

كما اشتهر من اهل مدينة الجزائر في هذا العصر ابو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الفرج الجزائري المصري ، يروى عن ابن قديد ، توفي في ذي القعدة سنة ٣٦٨ ﻫ - جوان ٩٧٩ م .

جـدول تاريخي

٢٩٦ ــ ٣٦١ هـ

٩٠٩ ــ ٩٧٢ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م	تأسيس الدولة العبيدية .
٢٩٧ هـ = ٩١٠ م	مبايعة عبيدالله المهدي بالخلافة .
٢٩٨ هـ = ٩١٠ م	هيجان الشعب الجزائري ضد الشيعة وقتل الداعية الصنعاني .
٢٩٩ هـ = ٩١١ م	الحملة الشيعية الكبرى على المغرب الاوسط .
٣١٠ هـ = ٩٢٢ م	مقتل ابي معلوم فلحون عامل اوراس .
٣١٢ هـ = ٩٢٤ م	مقتل مصالة بن حبوس عامل تيهرت .
٣١٤ هـ = ٩٢٦ م	ابتداء ظهور الدعوة الاموية بالمغرب العربي .
٣١٥ هـ = ٩٢٧ م	انشاء مدينة المسيلة .
٣٢٤ هـ = ٩٣٦ م	انشاء مدينة آشير .
٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م	القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي صاحب الحمار .
٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م	انشاء مدينة افكان .
٣٤٥ هـ = ٩٥٦ م	هجوم اسطول الامويين بالاندلس على مرسى الخرز ــ القالة ــ وطبرقة .
٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م	اعادة ظهور الدعوة الاموية بالجزائر وفتح البلاد المصرية .
٣٦١ هـ = ٩٧٢ م	انتقال الخلافة الشيعية الى مصر .

الدّولة الزيريّة «الصّنهاجيّة»

٣٦١ ـ ٤٠٥ هـ

٩٧٢ ـ ١٠١٤ م

نشأتها

تنتسب هذه الدولة الجزائرية لحماً ودماً الى عاهل صنهاجة وزعيمها الاكبر زيري بن مناد الصنهاجي منشيء مدينة اشير بجبل تيطري – شرقي قصر البخاري – او البوغاري نسبة الى بوغار اسم لذلك المكان.

وصنهاجة – بضم الصاد وكسرها – علم يطلق على وطن وقبيلة، اما الوطن فهو قطعة من ارض الجزائر ما بين زواوة شرقاً وزناتة غرباً، ويمتد على الساحل البحري من مدينة الجزائر الى تنس، يحده وطن الحضنة والمسيلة والمدية ومليانة. واما القبيلة فانها راجعة بنسبها الى جذمين: قار وحزمار ابني صنهاج. من قبائل البرانس، وهي ذات بطون وافخاذ منتشرة بكامل هذا الشمال الافريقي فلا يكاد يخلو منها مكان. وعدها الهمداني صاحب الاكليل وغيره من المحققين فخذاً من قبائل حمير العربية، وليس لها في البربرية سوى النسبة العرفية.

كانت هذه القبيلة مرغمة على الخضوع للخلافة العباسية والاذعان للامارة الاغلبية، وذلك لكونها علوية بالولاء. فلما استتب الامر لدولة بني عبيد العلوية بهذه البلاد انقلبت على العباسيين فكانت بجانب الفاطميين، فاستمان

بها هؤلاء على محاربة اعدائهم زناتة احلاف الامويين ومواليهم ، فكانت هنالك حروب واهوال عظيمة بين هذين القبيلتين وكلها ترجع الى هذا الاختلاف السياسي في المبدإ والتزاحم على الرئاسة ايضاً ، وقد ألمنا فيما تقدم الى ما كان من حوادث الشيعة والامويين بالمغرب ، وما كان لزيري الصنهاجي من اليد البيضاء في القضاء على ثورة ابي يزيد الخارجي سنة ٣٣٥ هـ – ٩٤٦ م وموقفه في فتح المغرب الاقصى سنة ٣٤٧ هـ – ٩٥٨ م ومقاومة كل ناهض ضد بني عبيد الخ ... فأحرزت صنهاجة بذلك مقاماً رفيعاً ومكاناً سامياً لدى الدولة الفاطمية وعلا شأن رؤساءها عند الخلفاء فبالغ هؤلاء الملوك والخلفاء في اكرام رؤساء صنهاجة وتقديرهم ؛ واطلق الخليفة يد زيري في قومه وعلى كل مكان تغلب عليه او احتله بأي صفة كانت ، وولاه امر تاهرت وباغاية فأمنت دولة العبيديين يومئذ من اخطار سكان هذه النواحي من بني يفرن الزناتيين ؛ فملك زيري يومئذ البلاد وضرب العملة باسمه .

ولما عزم المعز بن المنصور العبيدي على الانتقال الى مصر دعا جعفر بن علي بن حمدون امير ولاية المسيلة والزاب ليعهد اليه بأمر افريقية ، فاستراب جعفر من ذلك لما علمه من سعاية منافسة زيري الصنهاجي لدى البلاط الفاطمي وامتنع ، فأكد المعز دعوته هذه بارسال بعض مواليه الى جعفر ، فخشي جعفر مغبتها وخرج عن ولايته معتصماً بمغراوة وقام هنالك مع الخير بن محمد الزناتي بالدعوة الاموية ؛ فنشبت الحرب حينئذ بين زناتة وصنهاجة ، وفيها كان مقتل زيري الصنهاجي عرضاً [1] في رمضان ٣٦٠ هـ – جوان ٩٧٠ م وذلك بعد ما تملك بهذه الديار ستاً وعشرين سنة ويومئذ علم الخليفة الفاطمي انه لا احق ولا اجدر بالولاية من هذه القبيلة الصنهاجية المتفانية في نصرة الدولة الشيعية وتوطيد اركان ملكها بالمغرب ؛ فكان لها من الجزاء مثل ما كان لانصار الخلافة العباسية من الفرس حينما ظاهروهم على قهر اعدائهم الامويين .

(١) احتزت مغراوة رأسة وبعثت به الى الحاكم المستنصر الاموي بالاندلس ؛ ولما تغلب زاوي ابن زيري الصنهاجي على قرطبة سنة ٤١٠ هـ – ١٠١٩ م نقل رأس والده من هنالك الى الجزائر فضمه الى الجسد فدفنه معه .

كيف استخلف بلكين على المغرب

قال المقريزي : ولما عزم المعز على المسير الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب فوقع اختياره على ابي محمد جعفر ابن علي امير المسيلة فاستدعاه وامرّ اليه انه يريد استخلافه بالمغرب ، فقال جعفر : « تترك معي أحد اولادك واخوتك جالساً في القصر وانا ادبر ولا تسألني عن شيء من الاموال لأن ما اجبيه يكون بازاء ما انفقه ، واذا اردت امراً فعلته ولم انتظر ورود امرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي » .

فغضب المعز وقال : « يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت ان تجعل لي فيه شريكاً في امري ، واستبددت بالاعمال والاموال دوني ، قم فقد اخطأت حظك وما اصبت رشدك » ، فخرج جعفر .

ثم استدعى بعده بلكين بن زيري الصنهاجي وقال له : « تأهب لخلافة المغرب » ، فاكبر ذلك بلكين وقال له : « يا مولانا انت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وانا صنهاجي بربري ؟ » قتلتني يا مولانا بلا سيف ولا رمح » ، فلم يزل به حتى اجاب وقال : « يا مولانا بشريطة ان تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تثق به ، وتجعلني انا قائماً بين ايديهم فمن استعصى عليهم أمروني به حتى اعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم وانا خادم بين يديك » فحسن هذا عند المعز وشكره ، فلما انصرف قال له عم ابيه ابو طالب احمد ابن عبيد الله المهدي : « يا مولانا اوتثق بهذا القول من يوسف وانه يفي بما ذكره ؟ ... فقال المعز : « يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ واعلم يا عم ان الامر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، فاذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا اولا احسن واجود عند ذوي العقول وهو نهاية ما يفعله من ترك دباره[1] .

---

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ ط بولاق ١٢٧٠ ه واتعاظ الحنفاء ص ١٤٨ — ١٣٣ ط القاهرة ١٣٦٧ — ١٩٤٨ م .

ويومئذ اصطفت الدولة العبيدية آل زيري وعهدت بالامارة والوصاية على المغرب العربي لبلكين بن زيري مستثنية طرابلس وقبيلة كتامة الموالية.

وفي ذلك يقول ابن خلكان والمقريزي معه ايضاً : « وخرج المعز من المغرب - يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة وخرج من المنصورية ومعه بلكين - واسمه يوسف - الى سردانية من بلاد افريقية فـلم اليه افريقية والمغرب يوم الاربعاء لتسع بقين من ذي الحجة وامر سائر الناس له بالسمع والطاعة وفوض اليه امور البلاد ما خلا جزيرة صقلية فانه ترك امرها للحسن بن علي بن ابي الحسين ، وطرابلس واعمالها ، وقال له : ان نسيت ما اوصيناك به فلا تنسى ثلاثه اشياء ، اياك ان ترفع الجباية عن اهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ولا تول احداً من اخوتك وبني عمك فانهم يرون انهم احق بهذا الأمر منك ، وافعل مع اهل الحضر خيرا ، وفارقه »[1].

قال ابن ابي الضياف : وهذه الوصية منه معقولة المعنى لان اهل البوادي لولا الجباية ما عمروا ارضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعهم من الدعة ، وارزاقهم في ظل رماحهم وليلجئهم بذلك الى الابنية من القرى والمدن ، وهو انما اوصاه بعدم المسامحة في الجباية التي هي من الاموال لا بالظلم والاخذ الوبيل ، واما البربر فان سيوفهم لم تزل بادية البغي والقتل لكثرة قبائلهم وعصائبهم والشر يدفع بمثله اذا اعياك غيره فالقتل انفي القتل ، واما تقديم اخوته وبنيه فقد ذكر سببه . واما وصايته بالمدن فلتكثر في الوجود[2] .

حدود الجزائر الزيرية

كان بالجزائر على عهد الفاطميين اربع ولايات : اشير ، وتاهرت ، والمسيلة ،

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ - ج ٢ ص ١٣٤ ط بولاق ١٢٩٩ هـ واتعاظ الحنفاء ص ١٤٤ ط القاهرة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م .

(٢) اتحاف اهل الزمان ١ ص ١٣٦ ط تونس ١٩٦٣ م

وباغاية ؛ وفي ايام الدولة الزيرية هذه ضمت الولايات الاربع الى بعضها فأضيفت اعمال باغاية والقسم الشمالي من ولاية المسيلة الى اشير ، وجعل القسم الجنوبي من ولاية المسيلة الى تاهرت ، فأصبحت الجزائر ذات ولايتين عظيمتين ، هما ولاية تاهرت واشير .

الامير بلكين بن زيري

تولى الامارة على افريقية الشمالية بعهد من الخليفة المعز الفاطمي يوم الاربعاء ٢٢ ذي الحجة ٣٦١ هـ - ٤ اكتوبر ٩٧٢ م ولقبه بسيف الدولة وكناه بأبي الفتوح وسماه بيوسف وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الاعمال وأمر الناس بالسمع والطاعة له وأوصاه بأمور كثيرة مؤكداً عليه في المحافظة عليها وخاصة منها أمور أربعة قائلا له : ان نسيت ما أوصيتك به فلا تنسَ أربعة أشياء : اياك ان ترفع الجباية عن أهل البادية ، والسيف عن البربر ، ولا تولِّ أحداً من اخوتك وبني عمك ، فانهم يرون انهم أحق بهذا الامر منك ، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً . ولعل الشيعة كانت شائعة بين أهل الحضر خلافاً لاهل البادية ؟

كان بلكين في أول أمره والياً على مدينة الجزائر ايام امارة والده زيري على صنهاجة ؛ ثم خلفه في امارته هذه قبل ان يتولى ولاية افريقية ، واشتهر يومئذ فيها بالثبات ومضاء العزم والشجاعة النادرة مع حدة الذهن وتوقد القريحة ؛ ولقد استطاع هو وحده ان يحقق تدريجياً وحدة الشمال الافريقي على نحو لم يوفق اليه حكام المغرب العربي قبله ؛ فضرب العملة باسمه وبعث بالعمال والجباة الى الآفاق واستعد للطوارىء ؛ وبجلوس بلكين على عرش افريقية انتهى عهد العرب بالملك والدولة بهذا المغرب الاسلامي واستقل البربر بأمر وطنهم تحت لواء الاسلام تتداوله قبائلهم طائفة بعد اخرى وجيلاً بعد جيل تارة يدعون الى الامويين خلفاء الاندلس وتارة الى بني هاشم العباسيين الى ان استقلوا بالدعوة لانفسهم الى زمن الاتراك بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب .

مناجزة صاحب المسيلة

كان من الطبيعي ان يستمر جعفر بن علي صاحب ولاية المسيلة والزاب على عصيانه للشيعة وعلى مقاومة مزاحميه الصنهاجيين ، فكانت يومئذ حركة بلكين الى المغرب الاوسط وهي اول حركاته الى الجزائر بعد الامارة فقضى على قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت ملجأ لخصمه جعفر صاحب المسيلة وشتت شمل المحاربين فاستأصل شأفتهم وفتح معاقل بلاد زناتة وسبى الذراري والاموال ؛ فانهزم جعفر وكسرت شوكته ففر الى الاندلس يوم ١٨ رمضان ٣٦٠ هـ – ١٥ جوليط ٩٧١ م والمعز الفاطمي لا زال يومئذ بالمغرب ، وتقدم بلكين يخوض غمار البلاد الجزائرية شرقاً وغرباً الى ان بلغ سجلماسة – تافيلالت – فأخضعها واوغل في بلاد المغرب الاقصى الى ان بلغ حصن تيطوان وهو في ذلك لا يعترضه حصن او اي معترض كان الا وحطمه ؛ وهو الذي قضى من قبل على حركة محمد بن الحسن بن خزر المغراوي في قيامه ضد الشيعة وافضى به الى الانتحار .

زحف بلكين الى المغرب الاوسط

كان الداعي الاول الى خروج بلكين وزحفه على الجزائر هذه المرة ٣٦٣ هـ – ٩٧٤ م هو عصيان اهل باغاية وتمردهم على عاملهم وانتصارهم عليه وشاركهم في ذلك ايضاً اهل شرقي جبل اوراس تمرداً على السلطة القائمة مع الشيعة ، ثم انتشرت الفوضى والاضطرابات فعمت القطر الجزائري فكانت هنالك ثورة بتاهرت خرج منها العامل مطروداً ، واخرى بأعمال تلمسان حيث نزلت عليها زناتة الاموية مناهضة للشيعة ، فخف يومئذ بلكين الى منازلة هؤلاء الثوار وحاصر تلمسان وقضى على حركة زناتة بها ونقل اهلها الى اشير ، وانتصر على تيهرت ايضاً فبطش بأهلها وخرب المدينة ، ويومئذ اسرع اليه بالطاعة الثائرون من اهل شرقي جبل اوراس وباغاية وجاؤوه مستأمنين خاضعين فأمنهم وعفا عنهم

واجلاهم عن بلادهم بعد ما خربها وهدم سورها ، فذهب الكثير منهم ملتجئاً الى المغرب الاقصى معتصماً بجباله وصحاريه ، ويومئذ عمل بلكين على تغيير حدود المناطق والولايات الجزائرية فحذف ولاية المسيلة بالكلية واضاف ناحيتها الجنوبية الى تيهرت وضم ناحيتها الشمالية الى اشير : وجعلها ولايتين اثنتين : ولاية بآشير واخرى بتاهرت .

اجلاء زناتة ووفاة بلكين

اعاد بلكين زحفه على زناتة سنة ٣٦٩ هـ - ٩٨٠ م فقضى عليها وابعدها عن المغرب الاوسط فأقفره منها واحلها ما بين ملوية وطنجة وتقدم بزحفه الى سجلماسة فاحتلها واستولى على مدينة فاس ، وبينما هو سائر في فتوحاته بالمغرب الاقصى اذ جاءه كتاب من الخليفة الفاطمي ينهاه عن التقدم والسير في طريق الفتح بأقصى المغرب فرجع ، وفي اثناء ذلك تغلب خزرون بن فلفول المغراوي الزناتي على سجلماسة فعاد اليها بلكين سنة ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فهزمه وامره واستعاد سجلماسة الى طاعته ، وفي طريقه الى اشير ادركه حمامه فمات بمكان يقال له واركلان او - واركش ؟ - بين تلمسان وسجلماسة ، وذلك يوم الاحد ٢٢ ذي الحجة ٢٧ ماي من هذه السنة .

الامير المنصور بن بلكين

كان المنصور يوم وفاة والده مقيماً بدار ولايته : اشير وقد عهد اليه والده بالامارة بعده فبويع بها يوم وفاة والده سنة ، ٣٧٣ هـ - ٩٨٤ م فوفدت اليه العمال بهداياهم ، فأجزل اكرامهم ، وخرج لبيعته العلماء والقضاة والاعيان من القيروان فوصلوا اليه بأشير وهو خارج البلد ، فبايعوه واكرم نزلهم ، وفي اليوم الثاني احتفل لملاقاتهم في ديوانه ، واظهر من شارات الملك وفخامته ما اعجبوا به وقال لهم : يعز عليّ تعبكم في هذا الزمان مع ان سروري باجتماعكم عندي ، فاجتماعي بكم احب اليّ من الدنيا » .

وامر لهم بعشرة آلاف دينار وزعت عليهم [1] . وكان المنصور رجلاً شجاعاً عادلاً ذكياً جواداً حازماً صارماً في الحق عطوفاً شفوقاً بالرعية عفيفاً عن الدماء سائراً سنن ابيه ، واليك نتفاً من خطاب العرش يوم تولى الامارة على المغرب فيها اجمال لخطته السياسية وبرنامجه الحكومي فقال : ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالسيف قهراً ، وانا لا آخذ احداً الا بالاحسان ، ولا اشكر على هذا الملك الا الله تعالى ، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لاني ورثته عن آبائي واجدادي وورثوه عن آبائهم واجدادهم حمير [2] . وقال يوم ان انكر عليه اعيان دولته مصاهرته وعقده لاحد ابنائه على بنت سعيد بن خزرون سيد زناتة — المعادية — : كان ابي وجدي يستتبعان زناتة بالسيف ، اما انا فمن رماني برمح رميته بكيس حتى تكون مودته طبعاً واختياراً ! ... على هذه الاسس السياسية الرشيدة بنى المنصور قواعد ملكه وقاد امته الى المجد ، فكان يعامل جميع رؤساء القبائل والعشائر بكل مكرمة واحسان ، ويحادثهم بحديث كله لطف وود واخاء متناسياً كل سخيمة وحقد . وكانت اقامة المنصور تارة بالمنصورية — هي مدينة صبرة القريبة من القيروان — وتارة بأشير ، فتراه متنقلاً بينهما متصلاً بجميع المملكة ، وله سكة باسمه تضرب بها العملة مثل ابيه من قبل .

ثورة ابي الفهم الكتامي

لقد كان لقبيلة كتامة كما علمت يد في اشادة ملك الفاطميين بالمغرب وكان مما اجازهم به العبيديون على ذلك ان رفعوا عنهم يد الامارة الصنهاجية واوصوها بهم خيراً ؛ فكانت كتامة مستقلة عن دولة صنهاجة لا طاعة لهذه عليها : غير ان ذلك لم يكن في نظر كتامة كافياً في مكافاتها عما قامت به تجاه العبيديين في دور التكوين ؛ بل كانت ترجو ان تكون

---

(١) ابن ابي الضياف ج ١ ص ١٣٢ ط تونس ١٩٦٣ م .

(٢) راجع نسب الاسرة الزيرية في وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢١ .

خليفتها على المغرب لما تراه هي في نفسها من الجدارة والاستحقاق والتقدم على غيرها في هذا الامر ؛ فلما رأت ذلك كله بيد صنهاجة نهضت بقيادة ابي الفهم حسن بن نصر الكتامي الخراساني واظهرت العداوة والبغضاء لصنهاجة ؛ وخرج ابو الفهم للقتال فضرب سكته ونشر بنوده وجمع حوله من الجند والعسكر ما كثر به جمعه ، فاستأذن الامير المنصور في قتال كتامة بكتاب وجهه الى الخليفة الفاطمي بمصر ، فجاءه الجواب بواسطة رجلين بعث بهما الخليفة الى المنصور ؛ يأمره بعدم التعرض لكتامة حيث لا سلطان له عليها ثم اراد الرجلان الالتحاق بكتامة حسب مأموريتهما فسجنهما المنصور وحال بينهما وبين كتامة .

القضاء على شوكة كتامة

يبدو من جواب الخليفة للمنصور حول قبيل كتامة ان الدولة الفاطمية كانت مستشعرة عظمة صنهاجة وانها كانت تخشى استفحال امرها وتضخم سلطانها فتركت بجانبها قبيلة كتامة مستقلة عنها استعداداً للطوارىء فهي من نوع سياسة التفرقة التي ساد بها اليوم الغرب على الشرق ، وما يدرينا ان ثورة كتامة كانت بتالؤ وايعاز من الشرق ? ... والا فما معنى اعتراض الخلافة الفاطمية على المنصور في محاربة هؤلاء ? ... وما معنى محاولة الرجلين المبعوثين من الشرق الى المنصور الاتصال بكتامة ? ... ولكن ذلك كله لم يحل بين المنصور وبين ما بينه من عزمة في مقاتلة هذه القبيلة المحاربة ، فنزل بالشمال الغربي من قسنطينة محاصراً مدينة ميلة في شوال سنة ٣٧٨ هـ - جانفي ٩٨٩م ونشر هنالك أعلامه الكبيرة الموشاة وقرع بها الطبول إيذاناً بمحاربة كتامة ، فخرج اليه العجائز والصبيان متضرعين باكين متوسلين اليه في ترك الحرب والبقاء عليهم فرق لحالهم وبكى لذلك المنظر الحزين ورجع عن ميلة بعد تخريب أسوارها ونقل أهلها الى باغاية شرقي اوراس ، وفي طريق هؤلاء الى باغاية لقيهم ماكسن بن زيري الصنهاجي - عم المنصور - فجردهم مما كان معهم من المال والنشب .

ثم جعل المنصور لا يمر في طريقه على مدينة او قرية من بلاد كتامة الا ويأمر بتحطيمها ، حتى بلغ الى مدينة سطيف وهي يومئذ مركز عز كتامة فحصل بينه وبين ابي الفهم قتال عنيف انهزم فيه ابو الفهم وفر الى جبل هنالك يعصمه من الموت او القتل ، فكان مثل ولد نوح في ذلك ! ... فأدركه المنصور فقتله فاستكانت يومئذ كتامة لصنهاجة واذعنت لطاعتها واحدث المنصور اذ ذاك منصب خليفة عنه بيلة وآخر بسطيف واذن بالافراج عن مبعوثي الخليفة فلحقا بالبلاط الفاطمي وحدثا هنالك بما رأيا من جراءة المنصور وانتصاراته فجاءت الهدايا من القصر الى المنصور توددا وتقديرا لمركزه السياسي الذي احرزه بشجاعته واقدامه .

ثورة ابي البهار بتاهرت

ما كادت تنتهي حوادث كتامة حتى ظهرت علائم الخلاف والشقاق من والى تيهرت ابي البهار بن زيري الصنهاجي عم المنصور ؛ فغلب على وهران وشلف وكثير من بلاد الزاب فبرز اليه المنصور سنة ٣٧٩ هـ - ٩٨٩ م ففر ابو البهار من تيهرت واختفى بالمغرب الاقصى ، ودخل عسكر المنصور المدينة فأكثر بها النهب والقتل يومئذ ثم خرج منها بأمر من الامير وامن المنصور اهل تيهرت على انفسهم ونصب عليها اخاه يطوفت وانتقل منها الى قاعدته الجزائرية « اشير » فعقد لاخيه حماد عليها ثم عاد الى المنصورية . وفي سنة ٣٨٣ هـ - ٩٩٢ م ظهر ابو البهار بالقيروان بعد اختفائه بالمغرب فوفد على المنصور معاتباً فعفا عنه واكرمه وانزله احسن منزل ثم اعاده الى ولايته على تيهرت .

اقامة الدعوة الاموية بالجزائر

كان لسقوط مدينة فاس بيد زيري بن عطية من بني خزر المغراويين سنة ٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م اثر ظاهر في انتشار الدعوة الاموية بالمغرب من جديد وتسربها الى الجزائر وكان يومئذ على ولاية تاهرت ابو البهار عم المنصور

فرفض دعوة العبيديين ودعا الى الخلافة الاموية القائمة يومئذ بالاندلس وخالف على ابن اخيه للمرة الثانية وتغلب على مدينة تلمسان ووهران وشلف وجبال وانشريس وشرشال وكثير من بلاد الزاب وغيرها من النواحي الشرقية بالجزائر ايضاً وبعث ببيعته الى المؤيد الاموي وحاجبه المنصور بن ابي عامر بالاندلس ، فكتب اليه هذا بالعهد على ما بيده من البلاد مع هدايا وخلع واربعين الف دينار ، فقبض ابو البهار ذلك ومكث يدعو الى الاموية مدة شهرين ثم خلعهم وعاد الى العبيديين ، فغضب لذلك المنصور بن ابي عامر فكتب بعهده على بلاد المغرب الى زيري بن عطية وامره بمقاتلة المخالفين ؛ فبرز ابن عطية في عدد لا يحصى من قبائل زناتة وغيرهما متوجهاً من فاس الى قتال والى تاهرت ، فخرج يومئذ ابو البهار من ولايته ملتحقاً بابن اخيه الامير المنصور الصنهاجي ، فاحتل زيري المغراوي مدينة تلمسان واستولى على جميع اعمال ابي البهار بالجزائر ؛ ثم كانت هنالك مقاومة لدعوة زيري الاموية من قبل بعض الولاة الصنهاجيين فسكنت ريحه هنيهة ، وأخيراً تحرك زيري القضاء على هؤلاء المخالفين فتم له النصر على القطر الجزائري سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م وأقام به دعوة الامويين الى وفاته سنة ٣٩١ هـ — ١٠٠٠ م فانحاشت الدعوة اذ ذاك الى المغرب الاقصى .

انشاء مدينة وجدة

ولما تمكن زيري بن عطية المغراوي الزناتي من ملك المغربين الاوسط والاقصى وصفا له الجو وخلا عن المنازع والمزاحم رغب في تأسيس عاصمة له تكون واسطة عقد مملكته ، فاختار موقع مدينة وجدة ، واخذ في تأسيس المدينة وشرع في بنائها في شهر رجب سنة ٣٨٤ — اوط ٩٩٤ م فشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها وانتقل اليها بأهله وحشمه وحمل اليها جميع امواله وذخائره وجعلها عاصمة الامارة الزناتية التابعة للخلافة الاموية بقرطبة ، ثم آلت هذه الامارة بعده الى ابناء عمومته ، وكان آخر الامراء فيهم معنصر بن المعز المغراوي الذي قتله المرابطون

وقضوا على امارته سنة ٤٦٢ هـ – ١٠٦٩ م ثم وقع تجديد هذه المدينة بامر السلطان ابن يعقوب يوسف المريني سنة ٦٩٧ هـ – ١٢٩٨ م .

استئصال كتامة

كأن كتامة لم تكتف بما تلقته من النكبات في حوادث ابي الفهم الماضية ، فتمردت هذه المرة عن دفع الجباية وامتنعت من الرضوخ للدولة ، فقامت خلف رجل ينتسب للقائم العبيدي اسمه ابو الفرج فضرب السكة باسمه واتخذ البنود والطبول وجرت بينه وبين عاملي المنصور الصنهاجي على ميلة وسطيف حوادث كبرى وحروب عظيمة هي اشد واعظم من وقائع ابي الفهم السالفة ، فبرز لها يومئذ المنصور سنة ٣٨٠ هـ – ٩٩٠ م فظفر بابي الفرج فقتله وشحن جميع ارض كتامة وبلادها بالجند والحامية وبث العساكر في الثكنات بجميع النواحي والجهات حتى لا يستطيع احد منهم ان ينهض او يتحرك ، وبعث بالولاة والعمال الى سائر الاعمال فقضى بذلك على كتامة .

الامير باديس بن المنصور

توفي المنصور يوم الخميس ٣ ربيع الاول ٣٨٦ هـ – ٢٦ مارس ٩٩٦ م فبويع ولده باديس الذي كان حائزاً على سجل ولاية عهد ابيه من العزيز الفاطمي منذ سنة ٣٨١ هـ – ٩٩١ م ، وبعد مبايعته بالامارة اتصل بموافقة الحاكم الفاطمي في السنة التالية ولقبه بنصير الدولة ، وكان مولد باديس بمدينة اشير – بالجزائر – ليلة الاحد ١٣ ربيع الاول ٣٧٤ – ١٤ اوط ٩٨٤ ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازم الرأي شديد البأس ، وكان يعتم بالحمرة وفيه يقول الشاعر :

تجلو عمامته الحمراء غرته ‍ ‍ ‍ ‍ كانه قمر في حمرة الشفق

رئاسة ولاية الجزائر

كان اول ما قام به باديس من الاعمال الادارية ان خالف وصية المعز العبيدي لجده بلكين حين قال له : لا تولّ احداً من اخوتك وبنيك لانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك وقد كان الامر كما قال كما سنشرحه لك فيما يلي ، فعقد لعمه حماد بن بلكين على جميع ولاية الجزائر الشرقية واقطعه مقاطعة آشير وامده بالخيل والسلاح وعدد الحرب اتقاء لطوارىء القبيلة المعادية زناتة ، وجعل ولاية تاهرت وجميع ارض الجزائر الغربية لعمه ايضاً يطوفت بن بلكين وجعل كل منهما لقب نائب باديس ، وكثيراً ما كان الاخوان يطوفت وحماد وعمهما ابو البهار يتداولون عمل اشير .

فوز الامويين بالجزائر

حاولت قبيلة زناتة افتكاك بعض الاعمال الجزائرية من يد صنهاجة فاظهرت الخلاف على باديس ، وعملت على مناهضته ، فانتهزها يومئذ زيري ابن عطية فرصة ودعا لمبايعة المؤيد الاموي بالاندلس فبايعته زناتة ، فزحف يومئذ زيري بجموعه على ولايتي تلمسان وتيهرت فاستولى عليهما سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م فنهض اليه باديس من مركزه ومر في طريقه بطبنة فاستجاش بصاحبها فلفول بن عم زيري بن عطية المغراوي فامتنع وانقلب على باديس ؛ واندلع لهيب الثورة يومئذ ضد صنهاجة وامتد شررها من طبنة الى تيجس من أعمال قسنطينة وحاصر فلفول مدينة باغاية سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩ م . واحتلها ثم انهزم عنها فلحقته جنود صنهاجة وطاردته من مرماجنة أيضاً فلحق بالجبال ، وهنالك اتصل فلفول بخصوم باديس ومزاحميه من آل زيري الصنهاجي فنزلوا تبسة فحمل عليهم باديس وأجلاهم عنها . ويومئذ حدثت وحشة بين الامير زيري بن عطية الزناتي وبين الوزير المنصور بن أبي عامر حاجب الخلافة الاموية بالاندلس فأعلن الوزير الحرب على عدوه الزناتي وكان ميدانها المغرب الاقصى واندلع لهيبها الى المغرب الاوسط فسقطت أعمال تاهرت وتلمسان بيد الحاجب الاموي .

خيبة زناتة في حملتها على تيهرت

هاجمت هذه القبيلة على اعمال تيهرت سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٨ م ، وكادت ان تنتصر عليها فكتب عاملها يطوفت بن المنصور الى باديس مستمداً ومستنصراً ، فجهز اليه الامير جيشاً عرمرماً وجعله تحت قيادة كاتبه محمد بن أبي العرب وخرج القوم من دار الامارة في منتصف صفر - فيفري - من هذه السنة قاصدين تيهرت ، فمروا في طريقهم على آشير مستعينين بجندية حماد بن بلكين فانضم اليهم حماد بجنوده والتحق الجميع بعسكر يطوفت وزحف الجيش الصنهاجي من هنالك نحو أماكن العدو فالتقى الفريقان غرة جمادى الاولى - ٢٠ افريل - بوادي ميناس - على مرحلتين من مدينة تاهرت - فانتصرت زناتة وانهزمت جنود صنهاجة الى آشير تاركة خلفها جميع معداتها الحربية وأموالها نهباً للعدو ، واحتلت زناتة معظم العواصم الجزائرية فنزلت تيهرت ، وتلمسان ، وشلف ، وتنس ، والمسيلة ، وجملة من بلاد الزاب ، وحاصرت آشير أيضاً ؛ وكان السبب في خذلان صنهاجة هذه المرة كراهية الجيش الحادي لاميره لقلة عطائه وحدة أخلاقه الشرسة .

وطار خبر هذه الهزيمة الشنعاء الى باديس فسخط لذلك وحمل بنفسه على مراكز العدو بتيهرت ، ففرت أمامه زناتة الى باغاية وطبنة ، واختلفت عليه من هنالك ، فتعقبها باديس بجنوده ودحرها في وقائع وحروب طاحنة .

عصيان ماكسن وزاوي

هما أخوان من أبناء زيري بن مناد الصنهاجي حاولا الخروج عن طاعة باديس وأظهرا الخلاف والمعصية في جملة أعمامه الذين لم يتح لهم التمتع بالحكم والرئاسة ؛ فعقد باديس لعمه الداهية حماد على اخضاعهم سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م . فقتل ماكسن وانحصر أخوه زاوي بجبل شنوه بناحية شرشال مستأمناً فيمن كان معه من الاتباع فاشترط عليهم حماد الجلاء عن بلاد الجزائر ، فخرج زاوي يومئذ في فئته وأبناء أخيه الى

الاندلس سنة ٣٩١ هـ - ١٠٠١ م ملتحقاً بالمنصور بن أبي عامر فأكرم المنصور وفادتهم ، ثم كان لهم بعد ذلك شأن وملك هنالك .

انبعاث الدعوة الاموية بالجزائر

كنا ألمعنا الى سقوط ولايتي تلمسان وتيهرت بيد زيري بن عطية المغراوي الزناتي القائم بدعوة الامويين بالمغرب سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م . ثم بيد المنصور بن أبي عامر الحاجب الاندلسي سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩ م . واستمرت هذه القطعة من الجزائر تحت ادارة المنصور هذا الى ان عهد بها وبعمل سجلماسة الى المعز بن زيري بن عطية سنة ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م فاستبد هذا بالمغرب الاقصى وجعل على ولايتي تلمسان وتيهرت ولده يعلى سنة ٣٩٦ هـ - ١٠٠٦ م فجدد بها الدعوة الى الخلافة الاموية ، وأورثها بنيه ، ولم يزل بعد ذلك بنو يعلى في حرب مع بني حماد الى ان تغلب عليهم أخيراً المرابطون فأجلوهم عن هذه الامارة سنة ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م .

قهر زناتة

استمرت زناتة على تمردها ضد السلطة الحاكمة فاضطرب لذلك حبل النظام بالمغرب الاوسط وقلق منه باديس ، فأوعز الى عمه حماد بالقضاء على حركة زناتة واخماد ثوراتها المتعددة ، فاقتحم حماد هذه الفرصة السانحة ليحقق أغراضه في الملك والرئاسة فاشترط على الامير انه ان نجح في زحفه على زناتة ان يوليه المغرب الاوسط ، وان له جميع ما يملكه في غزوته هذه من البلاد ، وان تكون له الحرية في اختيار مكان اقامته بالبلاد ، فوافقه باديس على ذلك ، فغزا حماد يومئذ زناتة سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م فظفر بهم واستأصل شأفتهم بحيث لم يظهر لهم بعد ذلك أي أثر في الحرب مع حماد . وما كانت ثورات زناتة في حقيقة أمرها إلا عن ضغينة وحقد لحقها من خيبتها ، اذ لم يكن لها في هذه الدولة من الحكم والرئاسة نصيب .

انشاء قلعة بني حماد

اندفع حماد بعد انتصاره على زناتة يتجول في انحاء الجزائر ثملا بنخوة الظهور والغلبة على خصومه وهو في ذلك يرتاد مكاناً حصيناً يتخذه مركزاً لسلطانه ويحتاط فيه لنفسه ، فوفق الى جبل منيع مطل على بحيرة الحضنة يعرف بجبل كياتة المسمى بجبل معديد وهو المعروف اليوم باسم « المعاضيد » وهو على نحو ٣١ كيلومتراً جنوب برج بوعريريج وعلى نحو ٢٠ كيلومتراً بالشمال الشرقي من مدينة المسيلة تحيط به سهول وبأعلاه حصن « تاقربوست » المعروف في القديم باسم قلعة أبي طويل على نحو ١٥ كيلومتراً شرقي برج الغدير ؛ وهناك شرع حماد سنة ٣٩٨ هـ — ١٠٠٧ م في وضع قلعته وتأسيس عاصمته التي قدر لها ان تكون حيناً من الدهر عاصمة القطر الجزائري ؛ وقد تم تمصيرها في عامين ، ثم أحاطها بسور من الحجارة سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م يبلغ ارتفاعه متراً واحداً ويمتد حول جبل كياتة على استدارة سبعة أميال ، وأقام حماد بها ملكاً يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال مقراً بالولاء لابن أخيه باديس بن المنصور بالقيروان والمهدية .

يقول الادريسي في وصف هذه القلعة انها من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة ؛ وكانت مقصد التجار ومحط رحالهم يأتون اليها من العراق والحجاز والشام ومصر الخ ... وأهلها في غاية الذكاء والفطنة ولهم في ذلك نوادر وأقاصيص عجيبة يرويها أهل الجغرافية والتاريخ[١] .

وفيما يعود الى أسباب خراب أمثال هذه المدينة وغيرها من العواصم والمدن التي اضمحلت وعفت وتلاشت آثارها من الوجود يقول ابن خلدون :

« ان المدن والعواصم المشيدة من طرف الدولة انما تبقى بعد ذهاب

---

(١) راجع المسالك والممالك للبكري ص ١٨٤ ونزهة المشتاق ص ٨٦ ط ليدن ١٨٦٤ .

نشئها اذا كانت لتلك المدن من الضواحي والقرى والجبال والبسائط المجاورة لها ما يمدها بالعمران فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة الذاهبة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق ... واما اذا لم تكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً او ان يبد عز ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها [1] .

بداية الخلاف بين حماد وباديس

استقر حماد بن بلكين بعاصمته الجديدة - القلعة - وصار يتنقل بينها وبين آشير يوماً هنا ويوماً هناك ، وأصبح حسب تفويض الامير صاحب النفوذ المطلق بالجزائر وأرض الزاب أيضاً وركدت ريح زناتة وتبدد شملها ؛ واشتهر ذكر حماد فطار بالبلاد صيته وعظم شأنه وكثر دخله ؛ ويومئذ عملت عوامل الحسد وحسائك الحقد والضغينة في صدور أعدائه فأخذوا في السعاية والوشاية به الى باديس وذكروا له أشياء كرهها الامير من حماد وخشي على ضياع نفوذه واستفحال أمر عمه حماد ، وبقي باديس يلتمس الفرصة ليطلع بنفسه على عمه حول الامارة والملك ؛ ففي شهر ذي الحجة ٤٠٧ هـ - ماي ١٠١٧ م جاء العهد من الخليفة الحاكم الفاطمي بولاية المعز بن باديس امارة افريقية بعد والده ، فبادر باديس الى امر حماد بالتنازل عن ولاية عمل قسنطينة وتيجس - على نحو تسعين كيلومتراً بالجنوب الشرقي من قسنطينة - للمعز ولي عهد امارة صنهاجة ، فامتعض حماد لهذا الامر وامتنع وأصر على بقائه في ولايته وجاهر برفض التشيع وقتل الروافض ؛ فنشأت عن ذلك عداوة ووحشة بين القصر وحماد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

نشوب الحرب بين حماد وباديس

ولما اتضح لباديس موقف عمه العدائي تجاه ملكه والدعوة الشيعية جهز له جيشاً وامر عليه كبير قادته هاشم بن جعفر واهب به الى ناحية الجزائر فخرجت الكتائب من القيروان فلقيها حماد بمدينة الكاف ومعه ثلاثون الف مقاتل فانهزم جيش هاشم وتقدم حماد الى تونس وباجة فاحتلها واثار أهلها ضد الشيعة ، ويومئذ زحف اليه باديس فهزمه ونكص حماد على عقبه ملتجئاً نحو آشير فتنكر له اهلها ففر الى ناحية شلف فلحقه باديس وقد امتلك في طريقه مدينة المسيلة وآشير وبلغ الى سهل السرسو فانضم اليه هناك جميع اعداء حماد وخصومه الناقمين عليه ، فاشتد ساعد باديس بأولئك فأجاز بهم وادي شلف وقضى على قوات حماد الكامنة هنالك في اوائل جمادي الاولى سنة ٤٠٧ هـ - اكتوبر ١٠١٦ م ، فانهزم حماد من مجانة الى شلف وهرب الى القلعة فتخلى عنه اصحابه وذهبوا الى الامير ، واشتغل القوم يومئذ باستفادة ما خلفه حماد وراءه من الغنائم والاموال والاثقال بما لا يحصى عداً ! ... ثم احاط الجميع بقلعة حماد فحاصروها وكادوا ان يظفروا به لولا ان فاجأهم موت باديس بالمسيلة يوم الثلاثاء ٣٠ ذي العقدة ٤٠٧ هـ - ٣٠ افريل ١٠١٧ م فرأسوا عليهم اخاه كرامة وجعلوه كقائد اعلى يرجعون اليه في تسيير هذه المعركة وكتموا موت الامير ، فحمل يومئذ كرامة على حماد في سبعة آلاف مقاتل وانفق في ذلك اموالاً طائلة ، واستعد حماد لمقاومته في الف وخمسمائة فارس فهزمه الى القيروان ومعه جثمان باديس فدفن بها وبويع لولده المعز .

الامير المعز بن باديس

سير اليه الخليفة الفاطمي تشريفاً وسجلاً لقبه فيه بشرف الدولة ، وكانت توليته الامارة يوم ٢١ ذي الحجة سنة ٤٠٧ هـ - ٢١ ماي ١٠١٧ م وسنه يومئذ ثمان سنوات واربعة اشهر ، فكفلته عمته ام ملال الى ان

بلغ سن الرشد فاشتهر بالتدين والعلم ورقة القلب والتعفف عن سفك الدماء الا ما كان في حق وكان يجيد الشعر ويحسن الالحان الموسيقية والعزف على آلة الغناء وله خبرة ودراية بالاحجار الكريمة محباً لاهل العلم والادب ومحط آمالهم ، فكان عصره اضخم واترف ملك عرفه البربر بافريقية ، فهو ثالث ملوك هذه الدولة الذين ضربت السكة بأسمائهم ، واول من اتخذ المهدية قاعدة لملكه الى ان استولى عليها الصقليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م . ولم تطل مدة احد من اهل بيته في الولاية والملك كمدته ، اذ كان فيها من اكرم اهل بيته فهو أحقهم باسم المؤسس الحقيقي لدولتهم ، اذ هو اول من اعلن انفصال المغرب عن العبيديين وخلع طاعتهم ولما بعث اليه المستنصر الفاطمي بالقاهرة يتهدده ويتوعده أجاب الرسول بقوله : قل لأميرك ان لنا ملك افريقية قبل ان يكون للعبيديين ذكر ! ... وكانت وفاته بالمهدية سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ودفن برباط المنستير وكانت ولايته تسعاً واربعين سنة .

استمرار الحرب بين حماد والمعز بن باديس

استمر كرامة بن المنصور محافظاً على عرش اخيه باديس حتى تمت المبايعة لابنه المعز ، ويومئذ تخلى كرامة عن العرش لابن اخيه وصالح حماداً على اموال قبضها والتحق بالبلاط الصنهاجي ؛ فأسرع حماد يومئذ الى تبوئة مكانه بالمغرب الاوسط ودخل المسيلة وآشير واستعد فيها للقتال ، وخرج لحصار باغاية فأجلاه عنها جيش المعز وهزمه يوم ٢٢ صفر ٤٠٨ هـ - ٢١ جوليط ١٠١٧ م فسر لذلك اهل باغاية وبعثوا بهدايا وتحف نفيسة الى المعز كان من بينها عبيد وثلاثمائة وخمسة وثلاثون برذونا مسرجة بالسروج المحلات الخ ... ثم بعد مضي شهر من وقعة باغاية كانت هنالك وقعة ثانية هي اشد واعظم من الاولى انهزم فيها حماد ؛ كذلك وتفرق عنه الجند واسر اخوه ابراهيم بما معه من العتاد ونجا حماد بنفسه ، ثم سار جند المعز الى مدينة سطيف وقصر الطير وقفل بعدها الى حضرته .

الصلح والموادعة

ولما استبان لحماد عجزه عن مداومة الحرب بعث الى المعز مستسلماً طالباً للامان فقبل منه ذلك مشترطاً عليه ارتهان ولده القائد ؛ وبعد ما استوثق حماد على ابنه بواسطة اخيه ابراهيم بعث به الى المعز ومعه هدايا نفيسة فاقتبله الامير في منتصف شعبان ٤٠٨ هـ – جانفيي ١٠١٨ واكرمه وغمره باحسانه وامضى له ما ارتضاه والده من الصلح واقطعه مدينة المسيلة وطبنة ومرمى الدجاج وسوق حمزة – برج حمزة قرب البويرة – وزواوة ومقرة واستقل والده حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب واشير وتاهرت وما سيفتحه من غيرها من بلاد الجزائر ، فكأن ذلك كان ترشيحاً من المعز لانشاء دولة بني حماد ثم عاد القائد بعد ذلك الى والده في رمضان من سنته يحمل معه صكوك السلم والاقطاع ؛

ثم كانت هنالك حوادث زناتة بالزاب فنهض اليها الجند الصنهاجي فأخمدها سنة ٤٢٩ هـ – ١٠٣٨ م بعد ما قتل فيها عدداً وافراً من الناس واحتل جميع قلاع الزاب . ثم في سنة ٤٣٢ هـ – ١٠٤١ م حدثت وحشة بين عاهل صنهاجة وحماد ، فزحف المعز الى القلعة الحادية فحاصرها مدة سنتين ثم اقلع عنها وعاد الى حاضرته ؛ فلم يختلفا بعد ذلك ؛ ويومئذ تمحض ملك الجزائر للاسرة الحمادية واستمرت الولاية فيهم زهاء قرن ونصف كما سنفصله في تاريخ دولتهم ؛ ومنذ ذلك الحين انقسمت المملكة الزيرية الصنهاجية بالمغرب الى قسمين : مملكة شرقية وقاعدتها القيراون ثم المهدية حكم فيها ابناء المعز الى ان قضى عليهم النورمان سنة ٥٤٣ هـ – ١١٤٨ م . ومملكة غربية كانت لبني حماد وقاعدتها القلعة ثم بجاية الى ان سقطت بيد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ – ١١٥٣ م كما سنذكره .

المذاهب والعقائد

كان المغرب العربي في اول عهده بالاسلام سائراً في تدينه على مذهب السلف الصالح وعقائد اهل السنة والجماعة ؛ الى ان كانت حوادث فتنة

الجمل وصفين بالمشرق فنشأت عنها احزاب وطوائف سياسية مختلفة تسربت الى المغرب فتطورت العقائد معها الى احساس سياسي وتفرقت الامة في عقائدها واتجاهها الديني الى مذاهب وطرق شتى فحدثت يومئذ مذاهب الاعتزال والخارجية واختلفت الآراء في اصول الاعتقاد ؛ وسلك الناس في عباداتهم ومعاملاتهم هذا المسلك ايضاً ، فاختلفوا الى مذاهب شتى ؛ وكان اظهر المذاهب الاسلامية يومئذ بالمغرب مذهب ابي حنيفة ومالك كما المعنا الى ذلك فيما تقدم .

وفي عهد بني عبيد الفاطميين حاولت هذه الدولة نشر مذهب الشيعة الاسماعيلي بعقائده وعباداته بين الشعب الافريقي كله ، ومحو مذاهب اهل السنة ، فكان هنالك من اخذ به ، ومنهم من رفضه ؛ وكان فقهاء المالكية على الخصوص في محنة عظيمة مع هؤلاء الروافض من الشيعة الى سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٧ م . حيث اختلف حماد بن بلكين على باديس وفسدت ذات البين بينهما فأعلن حماد رفض عقائد الروافض والغاء مذهب الشيعة والتمسك بمذهب اهل السنة ؛ فانقطعت بذلك دعوتهم بالجزائر ؛ واستمرت المعارضة المالكية تعمل في الشعب المغربي حتى تغلغل فيه الوعي السني فانتهز المعز بن باديس هذا الموقف ليتخذ منه سبيلاً الى اعلان انفصاله ايضاً عن دولة الفاطميين واستقلاله بالمغرب العربي ، فانتحل يومئذ مذهب اهل السنة وحمل الناس على مذهب الامام مالك ومنعهم من تعدد المذاهب ، فجمع الفقهاء للمناظرة بين يديه ، وكان فيهم المالكية والحنفية ، فسألهم عن موطن ابي حنيفة ، فقيل له الكوفة ، فقال ومالك ؟ ... فقالوا المدينة ، فقال عالم اهل المدينة يكفينا وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة ، وقال لا احب ان يكون في عملي مذهبان . ولم يقتصر البلاء على مذهب الشيعة فقط ، بل شمل مذهب الاحناف السنيين الذين كانوا يظلونهم برعايتهم ، وانتقل المغرب الى مذهب مالك الذي لا يزال عليه الى اليوم . واعلن المعز يومئذ انفصاله السياسي عن الفاطميين ، ولعن مذهب الروافض ، وابطل شعائرهم وقطع الخطبة باسمهم ودعا للخلافة العباسية ببغداد تثبيتاً لملكه ، فحظي منها بالتقليد والخلع فنشر الرايات السود وهدم دار الاسماعيلية وذلك

حدود سنة ٤٣٥ هـ – ١٠٤٣ م ويجعل ذلك ابن ابي الضياف سنة ٤٣١ هـ – ١٠٣٩ م فاندفع الناس حينئذ لمقاتلة الشيعة واضطهادهم ابرح قتال واشد اضطهاد ؛ فكانت هذه الحركة الدينية الفقهية بالمغرب العربي حركة قوية نشيطة اكثر ما خدمت فقه الامام مالك واستقلال البلاد .

ويحدثنا المقدسي في كتابه الجغرافي الجليل « احسن التقاسيم » ط ليدن ١٨٧٧ م الذي وضعه سنة ٣٧٥ هـ – ٩٨٥ م بعدما جال في هذه الاوطان المغربية واتصل بأهلها ، فقال « ان اهل المغرب لا يكادون يعرفون الا كتاب الله وموطأ مالك ؛ ... وانهم لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، انما هو ابو حنيفة ومالك ؛ قال « وكنت يوماً اذاكر بعضهم في مسألة ؛ فذكرت قول الشافعي ، فقال : اسكت من هو الشافعي ؟ انما كان بحران ابو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب ، افنتركهما ونشتغل بالساقية ؟ ... قال ورأيت اصحاب مالك رحمه الله يبغضون الشافعي ، قالوا اخذ العلم عن مالك ثم خالفه ؛ وما رايت فريقين احسن اتفاقاً واقل تعصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب ابي حنيفة اليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ ... قالوا : لما قدم عبد الله بن وهب من عند مالك وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف اسد بن عبد الله ان يدرس عليه لجلالته وكبر سنه ، فرحل الى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا ، فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع الى ابن وهب فقد اودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على اسد ، ثم سأل هل يعرف لمالك نظير ؟ ... فدل على محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، فرحل اليه ، واقبل محمد عليه اقبالاً لم يقبله على احد لما رأى منه من فهم وحرص ، فلما رأى محمد انه قد بلغ مراده سيبه الى المغرب ، فلما دخله اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعاً حيرتهم ، ودقائق اعجبتهم ، ومسائل ما طنت على اذن ابن وهب ففشا مذهب ابي حنيفة بالمغرب .

وفيما يرجع الى رواية القرآن الكريم وقراءاته بالمغرب فانه كان يتلى بقراءة الامام حمزة بن حبيب ، الى ان رحل ابن خيرون الاندلسي الى

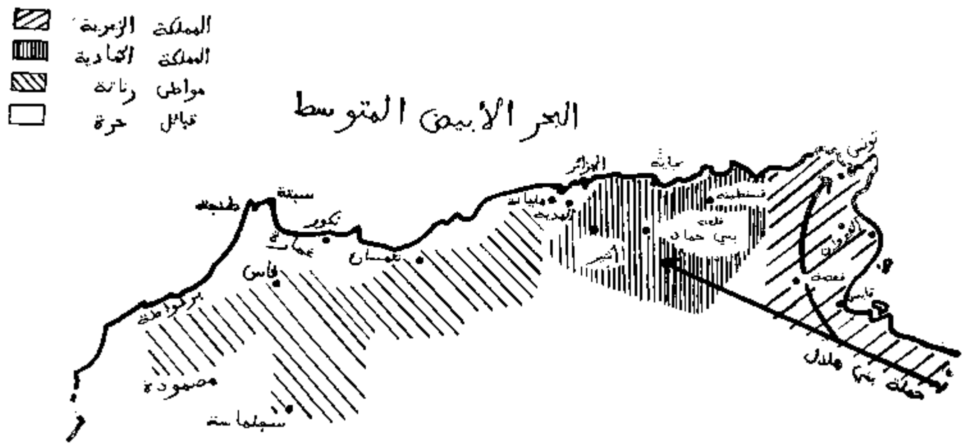
المشرق في صدر المائة الرابعة فعاد برواية قالون وورش عن نافع فانتشرت هذه القراءة ايضاً بين الناس بعد ان كان لا يقرأ بها الا الخواص .

الزحف الهلالي

تأثر الخليفة الفاطمي كثيراً لهذا الحادث الخطير وهذا الانقلاب الديني السياسي العظيم الذي وقع بافريقية ، فعظم عليه خروج المغرب عن الامبراطورية الفاطمية وانقراض دعوة الشيعة به ، فكتب المستنصر بالله العبيدي الى المعز بن باديس كتابا يتهدده فيه ويقول : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ؟ ... فأجابه المعز قائلا ؛ ان آبائي واجدادي كانوا ملوك المغرب قبل ان يملكه اسلافك ، ولهم عليهم من الخدم اعظم من التقديم ولو اخروهم لتقدموا بأسيافهم .

ويومئذ دبرت مكيدة الحملة الهلالية باشارة من اليازوري وزير المستنصر حيث كان واغر الصدر على المعز ، وكان هؤلاء الاعراب من بني هلال وبني سليم ورياح وزغبة قد اضروا بالديار المصرية واصبحوا خطراً على الدولة هناك ففتح لهم الخليفة باب الهجرة الى المغرب ورغبهم فيه بأنواع من المرغبات وعقد لرؤسائهم ورجالاتهم على امصار البلاد المغربية وثغورها وقلدهم كثيراً من الاعمال والولايات انتقاماً من دولة صنهاجة الزيرية المشاقة ؛ واذن لهؤلاء الاعراب في الانتقال الى هذا الشمال الافريقي ؛ وقال لهم : قد اعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي ذلك العبد الآبق فلا تفتقرون ؛ وترك تحقيق ذلك الى سيوفهم ورماحهم .

خرجت الحملة الهلالية الاولى من الديار المصرية سنة ٤٤٢ هـ - ١٠٥١ م في نحو الاربعمائة الف شخص ، واذ ذاك كتب اليازوري الى المعز (... اما بعد فقد ارسلنا اليك خيولاً ، وحملنا عليها رجالاً فحولاً ليقضي الله امراً كان مفعولاً) ونزل هؤلاء الاعراب بافريقية فانتشروا ببرقة ونواحي قابس وتونس ؛ فأكثروا فيها الفساد والنهب وتكررت الوقائع بينهم وبين



المغرب الاسلامي في اواسط القرن الرابع عشر الى اواسط السادس الهجري – اواسط الحادي عشر الميلادي –

الاهالي والدولة وتعددت النكبات فتخلى لهم المعز عن القيروان الى المهدية فتعقبوه اليها ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

وان ابن باديس لا حزم فارس لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنـــا هزمت له ثلاثين ألفاً ، ان ذا لنكال

وكان الملتحم بالجزائر في نواحي جبل راشد ومصاب والزاب الشرقي وفيه قتل القائد ابو سعدى خليفة الزناتي الفتري وزير بني خزر بتلمسان ؛ وكان من جملة المقلدين في هذه الحلة من طرف الفاطميين : الحسن بن سرحان فانه جاء برسم ولاية قسنطينة فاحتلها وقد شهدت البلاد في هذه الآونة من البلايا والاهوال والحروب الاليمة ما يشيب لها الاطفال ! ... وعجز عن المقاومة كل من صنهاجة وزناتة وامراء تلمسان من بني خزر وامراء القلعة من بني حماد وفاز هؤلاء الزاحفون من الاعراب الهلاليين بامتلاك اعظم الجهات بافريقية ، وذلك بسلوكهم سبيل التفرقة بين اهلها واعانة بعضهم على بعض بشتى الوسائل وكان الربع دائماً في الجانب العربي . انظر الخريطة . فكان لبني سليم نواحي المغرب الشرقية ، ولبني هلال النواحي الغربية ، ولقد احدث هذا الغزو الهلالي انقلاباً عظيماً في البلاد من حيث الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

فكان دخول بني هلال الى المغرب الاسلامي من الحوادث الفاصلة في تاريخه فقد قضوا على دولة بني زيري الصنهاجيين في تونس وعلى دولة ابناء عمومتهم بني حماد في المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ وانقطعت نتيجة لغاراتهم هذه الصلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك وجهة خاصة منفصلاً عن بقية المجموعة الاسلامية مما كان له أسوأ الاثر على مصير المغرب والاندلس ـ ايضاً ـ في اواخر العصور الوسطى [1] .

---

(١) راجع هامش تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٣٠٥ ط القاهرة ١٩٥٨ م

أهم المواطن الهلالية بالجزائر

كل ما في هذا الوطن من عرب هذه الحلة يرجع نسبهم الى اصول اربعة ، بني هلال ، بني سليم ، زغبة ، رياح ؛ وكانت مواطنهم الاصلية بالحجاز غربي نجد حول مكة والمدينة وبسائط الطائف الى جبل زغوان وبأرض تيماء من نجد والبحرين واليمن . وكان انتقالهم لمصر ايام ولاية عبيد الله بن الحبحاب عليها ، ثم انحاز الكثير منهم الى القرامطة ايام ظهورهم وتغلبهم على بلاد الشام ومصر في القرن الثالث الهجري ؛ ثم بعد الفتح الشيعي للبلاد المصرية اسكنهم الخليفة العزيز بلاد الصعيد وانزلهم بالعدوة الشرقية تجاه بحر القلزم ـ البحر الاحمر ـ فأقاموا هنالك يعيشون على البداوة والخشونة . ويجرون على طبيعتهم في السلب والنهب فحصلت منهم اضرار كثيرة بالبلاد الى سنة ٤٤٢ هـ ـ ١٠٥١ م فانتقلوا من بلاد النيل الى المغرب فسكنوه وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة انتشرت بأنحاء الشمال الافريقي وامتزجت بأهله امتزاج الماء بالماء حتى كدت لا تفرق اليوم بين العربي والهجين .

فنهم بعمالة الجزائر : قبائل الثعالبة والمعقل وهم بسهول متيجة ؛ وعبيد وعمراوة حول بلاد جرجرة ؛ واولاد ماضي وسليمان حول مدينة سور الغزلان ؛ وجندل والعطاف حول جنوب مليانة ونواحي المدية ، واولاد نائل في نواحي الصحراء ، وزغبة بين مصاب وجبل راشد .

وبعمالة وهران : بنو عامر وهم ما بين مدينتي وهران وتلمسان ، والغرابة هم بتلك النواحي ايضاً ، والجاهر قرب مستغانم ، وصهيب قرب الاصنام ، والجعافرة واولاد خالد واولاد الشريف ما بين الساحل وفرندة ومعسكر .

وبعمالة قسنطينة : الخادمة واولاد جلال ، واولاد سعيد في الهضاب العليا والصحراء ومنهم عتبة بنواحي بجاية ، ورياح بنواحي قسنطينة والمسيلة والزاب الخ ... ولقد حصلت لهؤلاء العرب رئاسة وزعامة بهذه الاوطان فاندمجوا فيها واصبحوا يدافعون عنها دفاع الاسد عن العرين .

رفاهة البلاط الصنهاجي وثراء الجزائر

لا ادل على الحقائق التاريخية ولا اثبت للصحة من ذكر الحوادث والوقائع مجردة يستنتج منها الباحث والمطلع عليها بنفسه الحكم على العصر الذي جرت فيه تلك الحوادث ؛ وها نحن نقدم له اسناداً صحيحة وافية كبرهان قاطع يوضح لنا مبلغ ما وصلت اليه هذه الدولة الزيرية من الرفاهية والبذخ وما بلغت اليه الرعية من الثراء والغنى .

قال صاحب البيان المغرب في سياق الحديث عن وقائع حماد ضد باديس سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م : ان الناس اخذوا من غنائم حماد وامواله ما لا يحصى عدداً وكثرة ، ووجد رقعتان فيها ان الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون الف دينار وسبعمائة ، ومن الورق الف الف وخمسمائة درهم ، ومن الامتعة خمسون صندوقاً ، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه .

قال ابو اسحاق وجد رجل بين يديه بغل يسوقه ، ففتشه بعض الوصفان بين ايدينا ، فوجد في حشو برذعته وصرفها ثمانية آلاف دينار ، ومثل هذا ما لا يحصى كثرة وذكروا ان اعشار بعض اعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين او ثمانية الف قفيز [١] وان مداخيل مدينة بونة عنابة - عشرون الف دينار غير جباية بيت المال [٢] واهدى المنصور بن بلكين الى الخليفة نزار العبيدي بمصر هدية قيمتها الف الف دينار .

وفي سنة ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م وقف شرف الدولة المعز بن باديس لهدية صندل والي بسكرة فعرضت عليه ، فاذا هي ثلاثمائة حصان ، ومائة فرس انثى ، وبغلات منها عشرون بالسروج المحلاة وعبيد ومائة حمل من المال ، فخلع عليه وجدد له الولاية على بسكرة ، وبلغت عطية عامل باغاية مائة حمل من المال ، واعطى باديس الى فلفول بن مسعود الزناتي صاحب طبنة ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً من الثياب وعشرة

(١) هو ما يعادل ١٢ صاعاً ويكاد يعادل ما يزيد قليلاً على ٤/١ ٦٤ رطلاً من القمح .

(٢) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

بنود مذهبة ، ومراكب بالسروج المحلاة وكانت منحة المعز بن باديس المنتصر بن خزرون الزناتي مائة الف دينار . ولما ذكر ابن خلدون رفاهية بلاط الصنهاجيين قال : انهم كانوا اذا أجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تخوتاً مملوءة والحملات جنائب عديدة [1] ... وقد لا يخلو كلام ابن خلدون هذا من مبالغة ؟ ...

وجرت بين المعز بن باديس والظاهر لإعزاز دين الله مهادات جليلة وكان فيما اهداه المعز الى الظاهر سنة عشرين وأربعمائة (١٠٣٩ م) : ثلاثة أرؤس من جياد الخيل الثمينة ، منها كميت بسرج ذهب صياغة المغرب ، وزن ذهبه قنطار ، وأشقر سرجه لؤلؤ ، وأدهم سرجه فضة بياض وزن مائة قنطار ، وثلاثة آلاف مثاقيل زعفران ، وخمسون درقة موكبية مغشاة بديباج ، وألف وخمسمائة ثوب من الوان الخز المغربي الملبس ، واربعمائة عقارة من رفيع الطالقان ، ومن الرماح الزان ما لا يعد كثرة ، ومن الصناديق والاقفاص المملوءة سيوفاً ، وغيرها مثل ذلك ، ومن الثياب الصقلي والثياب السوسي والفرخات والعمائم الصقلي عدة الوف ، وعشرون جارية لم يرَ أحسن قدوداً ووجوهاً وألواناً وأجساماً منهن ، ومعهن جارية تفوقهن مفردة حسناً وكمالاً ، وعلى نهودهن حقاق فضة ، واثنا عشر صقلبياً بيض صبيان حسان الوجوه والقدود ، وعشرون خادماً من ملاح السودان صباناً ، وفي جملة الهدية ألف قنطار شمعاً . وجلس الظاهر لاقتبال رسول المعز على السرير الكبير المذهب وقريء كتابه وعرضت عليه هديته ، وقد كان ذلك في يوم الاحد لثمان خلون من شهر شوال (٤٣٠ ه — ١٠٣٩ م) . ولقد انفذ اليه الظاهر كذلك هدية فيها من غرائب الطرف والتحف النفيسة ما لا يحد ...

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٢ م) أهداه المعز أيضاً أربعة سباع أعظم ما يكون منها وأهولها ، وعشرين كلباً سلوقية ، وعدة نمور ، وشمعاً كثيراً ، ومتاعاً جماً من ثياب خز وسوسي وصقلي ،

---

(١) المقدمة صفحة ٩٧ ط بولاق ١٢٧٤ ه .

وزعفران ، وعبيد من خدم بيض وسود ورقيق رائع وغير ذلك ؛ كما انه أهدى كذلك الى المستنصر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٥ م) هدية جليلة قومت بأربعين الف دينار ، من جملتها ورقة مكللة بالجوهر كانت للمهدي بالله بالمغرب[1] .

ويا ما اروع يوم زواج ام العلو بنت باديس بعبدالله بن حماد وما اجمل الايوان ايام ذلك العرس وما ابهى موكب زفاف العروس ! فانه لما كان يوم الاربعاء غرة شعبان ٤١٥ هـ ٨ اكتوبر ١٠٢٤ م زين الايوان المعظم للسيدة الجليلة ام العلو ، ودخل الناس خاصة وعامة فنظروا من صنوف الجواهر والاسلاك والامتعة النفيسة واواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله ولا سمع لاحد من الملوك قبله ، قال ابو اسحاق الرقيق : فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وابهتهم عظيم ما شاهدوه ، وحمل المهر في عشرة احمال على عشرة بغال ، وعلى كل حمل جارية حسناء ، وجملته مائة الف دينار عينا ؛ وذكر بعض الحذاق من التجار انه قوم ما هو لها فكان ما يزيد على الف الف دينار ، ولم ير مثل هذا لامرأة قبلها بافريقية .

وزفت العروس يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد اخيها شرف الدولة المعز ، وابيها نصير الدولة باديس ، وجدها عدة العزيز بالله ، ووجوه رجال الدولة ، فكان يوماً سارت الركبان بمحاسن آثاره وعجبت الناس لعجائب اخباره ؛ وقل مثل ذلك في مآتمهم ايضاً فانها كانت لا تقل عن افراحهم في مظاهر الابهة والبذل .

فانه لما توفيت زوجة نصير الدولة باديس سنة ٤١١ هـ ١٠٢٠ م جهزت فيما لم يذكر ان ملكاً من ملوك الارض جهز في مثله الا ما كان من ملوك الفراعنة بمصر ! ... فقد روى المؤرخون عن من حضر الجنازة ان قيمة جهاز التكفين بلغت مائة الف دينار ، من غير التابوت الذي

(١) الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير ص ٦٨ - ٧٣ - ٧٦ ط الكويت ١٩٥٩ م .

جعلت فيه فهو من عود هندي مرصع بالجواهر وصفائح الذهب وقدر مبلغ قيمة مساميره الذهبية بألفي دينار ، وجعل عليه عشرون سبحة من نفيس الجوهر ، وذبحت مائة بقرة وخمسون ناقة ، والف شاة ، وفرق على الناس عشرة آلاف دينار ! .

هذه صورة مصغرة لبلاط ملك دولة صنهاجة وما كان عليه حال الناس يومئذ من اليسر والبذخ والرفاهية سقناه كتصديق لقول ابن خلدون عن ملك هذه الدولة : كان ملكهم اضخم ملك عرف للبربر في افريقية واترفه وابذخه .

الثقافة والحضارة والعمران

من القواعد المقررة لمعرفة حيوية المجتمع وحركته الصناعية والاقتصادية ، النظر الى منشآته ومؤسساته العمرانية ، فاننا اذا نظرنا الى ذلك في هذا العصر وجدنا حركة البناء والتعمير مطردة في تاريخ هذه الدولة ، اذ ما كان انشاء مدينة آشير ٣٢٤ هـ - ٩٣٦ م الا على يد زيري بن مناد رأس الاسرة المالكة ، وقد كان فيها من الدور والقصور والمنازل والحمامات والمساجد ما حمل الكثير من السادة والاعيان والعلماء والادباء على الانتقال اليها فاستبحر عمرانها وضربت السكة بها ، وكذلك مدينة القلعة المشهورة التي وصفها صاحب « الاستبصار » بقوله « ولبني حماد بالقلعة : مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر فوضع في وسطه صهريج عظيم - يبلغ طوله ٦٧ متراً ، تلعب فيه الزوارق يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد ، وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة وفيها آثار للأوائل عجيبة [1] . ويحدثنا ابن خلدون عن العمران والحضارة بالقلعة فيقول : « وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة » وشيد - حماد من بنيانها واستكثر فيها من

---

(١) الاستبصار ص ٥٦ ط فينا ١٨٥٢ م .

المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن ، ورحل اليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق اسواق المعارف والحرف والصنائع بها[1] وقد مر بك قريباً ما حكاه الادريس عن هذه المدينة الحافلة . وكذلك مدينتا المدية ومليانة فانهما كانتا بفضل بلكين بن زيري فانه هو الذي انشأهما بأمر والده سنة ٣٥٥ هـ – ٩٦٦ م وعاصمة الجزائر كذلك سنة ٣٦٢ هـ – ٩٧٣ م . وان لم تكن هذه المدينة مجهولة من قبل اذ هي مشهورة في الماضي باسم (جزائر بني مزغني) القائمة على انقاض (ايكوسيوم) العتيقة ولكن تمصيرها كان على يد هذا الملك ، قال ابن خلدون : « وهذه المدن مليانة والمدية والجزائر ـ لهذا العهد من اعظم مدى المغرب الاوسط » وضبط لنا ابن خلدون اسم المدية فقال : هو بفتح اللام والميم وتشديد الياء وهاء النسب قال وهو حصن يسمى بأهله وهم بطن من بطون صنهاجة . وهذا من غير ما اشادته الدولة ببلاد تونس وغيرها من اسباب الحضارة والعمران . ويذكر ان من بقايا آثار هذه الدولة بالجزائر ذلك الباب الخشبي الموجود الى الآن بضريح سيدى عقبة بجوز بسكرة ، اما مهنة الزراعة والفلاحة فانها رائجة يومئذ بسبب التعامل التجاري الذي كان يجري مع الخارج فعم الرخاء وايسر الناس ، وبلغ دخل الدولة من موارد التجارة فقط نحو الستة ملايين فرنكاً ذهباً سنوياً ، وعن اقتصاديات البلاد وحركة الانتاج الزراعي والصناعي وتربية الماشية فاليك قصته كما يرويها لنا شاهد عيان معاصر لهذه الدولة التي نؤرخها وقد وطئت اقدامه هذه الارض على عهد عاهل صنهاجة « بلكين بن زيري » ، ذلك هو الرحالة الجغرافي الكبير ابن حوقل ، فأنصت اليه في حديثه عن مدينة الجزائر قال ... « وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر ايضاً وفيها اسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة واكثر اموالهم المواشي من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ .

البقر والغنم سائمة في الجبال ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويجلب الى القيروان وغيرها ».

ويذكر لنا مدينة وهران فيقول : « فيها من جميع الفواكه وفي حاضرتها دهقنة وحذق وفيهم حمية مع الغريب وهي فرضة الاندلس اليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال .

وينتقل بنا الى مدينة بونة ويذكر لنا عن اسواقها فيقول عنها : انها حسنة وان تجارتها مقصودة وارباحها متوسطة وفيها خصب ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أكثر اوقاتها كما لا قدر له ، وبها معادن حديد كثيرة الغزير الكثير ويزرع بها الكتان ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ، ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع وبها من العسل والخير والميرات ما تؤيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها ، واكثر سوائمهم البقر ولهم اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تفوته الخيل السائمة للنتاج ، ونحن نعلم ان اكثر التجار بها هم من بلاد الاندلس .

وها نحن في مرسى الخرز ، ودائماً في الاستماع الى ابن حوقل ، فهو يحدثنا الآن عن النشاط الاقتصادي البحري في هذا الميناء قائلاً : « فيه معدن المرجان ... ولا اعرف في شيء من البحار له نظيراً في الجودة ... وللتجار بها اموال كثيرة من اقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشرائه ، ويعمل بها في اكثر الاوقات في اثارة المرجان الخسون قارباً ، وما زاد على ذلك بما في القارب العشرون رجلاً الى ما زاد ونقص » .

ويتابع ابن حوقل حديثه عن اهم مراسي الجزائر فينقلنا معه الى مرسى الدجاج قائلاً : « وبها من رخص الاسعار ايضاً في الفواكه والمآكل والمطاعم والقمح والشعير والالبان والمواشي ما يعرف غيرهم ممن يجاورهم ، وبها من الاشجار والثمر والتين خاصة العظيم الجسم ما يحمل منه الى البلاد النائية

عنه ... » ويذكر مدينة « برشك » فيقول : « ان بها فواكه حسنة غزيرة وسفرجل معنق كالقرع الصغار وهو طريف واعناب والغالب على اهلها البربر ولها بادية يشتارون العسل من الشجر والاجباح لكثرة النحل بالبلد واكثر أموالهم الماشية ولهم من الزرع والحنطة والشعير مــا يزيد عن حاجاتهم » ...

ثم بعد ما ينتهي ابن حوقل من وصف مدينة « تنس » ووضعها الجغرافي ويبين لنا شكلها وهندستها ينطلق بنا الى أسواقها ويقول « ... وهي اكبر المدن التي يتعدى اليها الاندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بتاجرهم وينهضون منها الى ما سواها » ... وبها فواكه حسنة وهي من الخصب في جميع الوجوه الرفهة بأمر مستفاض وبها من الفواكه والسفرجل المعنق ما لا أزال احكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته كما يحدثنا عن المناجم ببلدة مجانة وما احتوت عليه من الخيرات فيقول : « وبها معادن حديد وفضة ومنها الحجارة المجلوبة للطاحن بجميع المغرب ... وهي كثيرة الزعفران والزرع » ولهم وادٍ غزير الماء يزرعون عليه واسواق صالحة » .

وينتقل بنا الى الحديث عن مدينة المسيلة ويذكر لنا من تاريخ انشائها وانها مما استحدثه علي بن الاندلسي كما مرت بنا الاشارة الى ذلك . ويصف لنا تدفق مياه واديها « سهر » ويتعرض لمنتوجاتها الزراعية وتربية المواشي بها ثم يقول : ولهم عليه – وادي سهر – كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفائتهم وحاجتهم » ولهم من السفرجل المعنق ما يحمل القيروان واصله من تنس ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والانعام والبقر ... » ويلاحظ على سير النشاط التجاري بمدينة تهرت بعد ان يفرق لنا بين تاهرت القديمة وتاهرت الجديدة يفيدنا بأن التجارة في المدينة الجديدة هي اكثر رواجاً من اختها القديمة ويقول : ولهم بها مياه كثيرة تدخل على اكثر دورهم واشجار وبساتين وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية » ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » . ويذكر مدينة « نقاوس »

بانها مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة ازلية ولها مياه كثيرة وأجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير .

ويجمل لنا ابن حوقل القول عن كل صادرات المغرب الاسلامي وما يحمل منه الى المشرق فيقول : « واما ما يجهز من المغرب الى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كالتي استولدهن بنو العباس وغيرهم واكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم ، كسلامة البربرية ام ابي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وقراطيس ام ابي جعفر هارون الواثق ابن المعتصم ، وقتول ام أبي منصور محمد القاهر بن المعتصم وغير من ذكرت من ملوك المشرق وامرائه . والغلمان الروقة الروم والعنبر والحرير والاكسية الصوف الرفيعة والدنية الى جباب الصوف وما يعمل منه ، والانطاع الحديد والرصاص والزئبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من ارض الصقالبة على الاندلس ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفرة والابل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص .

فاما اسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاغذية والاشربة واللحمان والادهان ولهم من جيد الفواكه والتمور والارطاب وسائر الاغذية . وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم ومكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة « ابل العرب » .

ويتعرض ابن حوقل لثروة البلاد المالية فيدرس احوالها عن كثب ويفيدنا بنتيجة درسه للاموال بالجزائر على عهده فيقول مثلاً عن مدينة تنس « ان لسلطانها وجوه من الاموال كثيرة الخراج والجوالي والصدقات والاعشار ، ومراصد على المتاجر الداخلة اليها والخارجة والصادرة والواردة ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها اموالهم جسيمة غزيرة) وعن اهل المسيلة يقول : « وعليهم صدقات وخراج يسير » .

واطال النفس قليلاً في كلامه عن النشاط المالي بالنسبة الى مدينة سجلماسة فقال : « واهلها قوم مرات مياسير ، يباينون اهل المغرب في

المنظر والخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة ، وابنيتها كأبنية الكوفة الى أبواب رفيعة على قصور مشيدة عالية ... وسكانها اهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق فهم واولادهم وتجارتهم دائرة ومفرداتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة الى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قل ما يدانيها التجار بلاد الاسلام سعة حال ، ولقد رأيت صكاً كتب بدين على محمد بن ابي سعدون من تجار « اودغشت » وشهد عليه العدول باثنين وأربعين الف دينار ... قال : وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت ولم يزل المعتز ايام ولايتها وهو اميرها يجتبيها من قوافل خارجة الى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع ويشترى من ابل وغنم وبقر الى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي افريقية وفاس والاندلس والسوس والاغمات الى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة زهاء اربع مائة الف دينار يختص بها ويعملها ، وقد ذكرت ان ارتفاع المغرب من اوله الى اخره من ثمان مائة الف دينار الى ما زاد على ذلك يسير ... قال وسائر ارباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال [1] واستمر الحال على ذلك الى ايام الزحف الهلالي حيث اشتدت الازمة بالناس ولحقهم من الضرر كثير .

وأشهر الحرف يومئذ كانت صناعة استخراج المرجان من بحر بونة ومرسى الخرز — القالة — فكان العمل في ذلك لا ينقطع ليل نهار والتجارة فيه رائجة وبالاخص ما كان يصدر منه الى الهند والصين ، كما اشتهرت يومئذ صناعة الاسلحة والادوات الحربية ، فقد كانت المصانع المغربية تنتج منها في المدة القريبة ما يعجز عنه غيرها في الزمن المديد .

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ج ١ ص ٦١ — ٧٥ — ٧٦ — ٧٧ — ٧٨ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٦ — ٩١ — ٩٣ — ٩٦ — ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ ط ليدن ١٩٣٨ م والبكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

ومما يدلك على انتشار الحرف والصناعات وانطلاق أيدي الناس فيها سرعة ضرب السكة وسهولة أمرها على كل قائم بدعوة أو ثائر على الحكومة ؛ فقد كان لابي الفهم الكتامي الثائر عملة مضروبة باسمه ؛ ولابي الفرج الثائر بميلة وسطيف كذلك ، وللخير بن محمد بن خزر المغراوي أيضاً ، وليد وابن يعلى اليفرني الخ ... فكل ذلك يدلنا على فشو الصناعات والفنون ، ويكفينا في تصور مبلغ المستوى الثقافي وانتشار العلم والادب يومئذ ، اجتماع مائة شاعر على باب المعز بن باديس ونبوغ أمثال الحكيم ابن عمرون الوهراني وابن رشيق المسيلي والداودي التلمساني الخ ...

ومن ضمن الشعراء المائة الذين كانوا يترددون على القصر ، الشاعر أبو إسحاق الرقيق القائل في وقائع شلف – بالجزائر :

لم أنس يوماً بشلف راع منظره ... وقـــد تضايق فيه ملتقى الحدق
والخيـل تعبر بالهامات خـــائضة ... من سائح الدم يجري قانيء الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقـة ... مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقـد بـدا معلما باديس مشتهرا ... كالشمس في الجو لا يخفى على الحدق
وان راحتـه لو فـــاض نائلهـا ... وبأسها في الورى اشفوا على الفرق
تجلـو عمـــامتـه الحمراء غرتـه ... كـأنه قمـر في حمـرة الشفـق
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له ... أبو مناد تبدى ، مات من فرق

ولاة الجزائر وزعماؤها

كانت رئاسة قبيلة مغراوة الزناتية لبني يعلى بن محمد النفزي ، وتوارثها كذلك بنو عطية بن عبدالله بن خزر ، وبنو فلفول بن خزر ، الى ان انتصر عليهم بلكين الصنهاجي فأخرجهم من مواطنهم هذه الى سبتة ؛ واستعمل على حروبه بني ومانو وبني يلومي ، وهما من أشد القبائل الزناتية الجزائرية شوكة وأوفرها بطوناً ، وكان على ولاية تيهرت ايام المنصور بن بلكين أخوه أبو البهار ، وعلى آشير أخوه يطوفت وتولى

يطوفت أيضاً على ولاية تيهرت ثم ابنه أيوب ، وعقد المنصور لاخيه حماد على ولاية آشير والمسيلة ؛ وزاده المعز على طبنة والزاب وتاهرت وأطلق يده في جميع ما يملكه من البلاد ؛ وكان سعيد بن خزرون والياً على طبنة سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م ثم بعده ولده فلفول ، وابن أبي حلى كذلك كان والياً بطبنة ايام باديس ، وكانت رئاسة قبيلة توجين - بنواحي شلف - لعطية بن دلفين وبدر بن اغمان بن المعتز ، وكانت طبنة والمسيلة ومقرة ومرمى الدجاج وسوق حمزة وزواوة للقائد بن حماد ومتيجة للقائد يوسف بن أبي محمد ، وولاية باغاية وبسكرة لصندل ، واعمال الزاب لابي سعيد خليفة اليفرني . وكانت مشيخة بسكرة في بني رمان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة .

أمراء الدولة الزيرية ـ الصنهاجية

	تاريخ التولية
بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي	٣٦١ هـ = ٩٧١ م
أبو الفتح المنصور بن بلكين	٣٧٣ هـ = ٩٨٤ م
أبو مناد باديس بن المنصور	٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م
المعز بن باديس	٤٠٦ هـ = ١٠١٦ م

توفي المعز سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ودفن حيث مدفن آبائه برباط المنستير - تونس .

من مشاهير الجزائر

الحسن بن رشيق

٣٨٥ ـ ٤٦٣ ه

٩٩٥ ـ ١٠٧١ م

أبو علي الحسن بن رشيق أحد أئمة الادب العربي ومفخرة من مفاخر الجزائر ، ولد بمدينة المسيلة[١] سنة ٣٨٥ ه‍ - ٩٩٥ م ونشأ بها متأدباً وتعلم صناعة الصياغة على والده وبرز في فنون الادب والفقه والحديث والتاريخ ، ولما بلغ احدى وعشرين سنة من عمره ارتحل من بلده للقاء الشيوخ بالقيروان فنزل بعاصمة الشمال الافريقي سنة ٤٠٦ ه‍ - ١٠١٥ م ولقي بها عميد علماء اللغة والادب الشيخ أبا عبدالله محمد بن جعفر القزاز ، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما من العلماء ومشيخة القيروان فلازم مجالسهم حتى اشتهر فضله وذاع صيته في الاوساط العلمية والادبية فاختاره المعز يومئذ لبلاطه وقربه اليه فكان بصحبته الى وفاته ، فالتحق ابن رشيق يومئذ بولده الامير تميم ولم يزل مقرباً لديه الى ان كانت الحملة الهلالية فانتقل المترجم الى صقلية فسكن مدينة « مازرة » الى ان وافاه أجله بها سنة ٤٦٣ ه‍ - ١٠٧١ م تاركاً وراءه ثروة أدبية ضخمة وتراثاً علمياً عظيماً .

(١) وتسمى المحمدية نسبة الى مؤسسها ابن القاسم محمد بن عبيدالله المهدي الفاطمي ، راجع تاريخ انشائها فيما قدمناه من كلامنا في تاريخ دولة بني عبيد الفاطميين .

ومن أشهر مؤلفاته كتابه الجليل « العمدة » وهو يبحث في صناعة الشعر وفنونه ونقده وعيوبه فهو أجل كتاب وضع في هذا الفن ، قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصنعة وأعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . وهو مطبوع بالقاهرة في جزئين . وله كذلك كتاب « قراضبة الذهب في نقد اشعار العرب » وكتاب « الشذوذ » في اللغة و « انموذج الزمان في شعراء القيروان » و « ميزان العمل في تاريخ الدول » و « تاريخ القيروان » و « الروضة الموشية في شعراء المهدية » ورسالة « نجيم الطلب » ورسالة « قطع الانفاس » ورسالة « رفع الاشكال » و « المساوي » في السرقات الشعرية » وشرح موطأ الامام مالك وله ديوان شعر ورسائل اخرى عديدة ، قال الصلاح الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات : وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقد ؛ ومن شعره قوله في مدح الشعر :

الشعر شيء حسن	ليس به من حرج
أقل ما فيه ذها	ب الهم عن نفسي الشجي
يحكم في لطافة	حل عقود الحجج
كم نظرة حسنها	في وجه عذر سمج
وحرفة بردها	عن قلب صب منضج
ورحمة أوقعها	في قلب قاس حرج
وشاعر مطرح	مغلق باب الفرج
قربه لسانه	من ملك متوج
فعلموا أولادكم	عقار طب المهج

واليه رحمه الله يعزى ابتكار سبعة وثلاثين نوعاً من انواع في البديع واطول مكث ابن رشيق في بلاط ملوك صنهاجة بالقيروان اشهر وعرف بين الادباء بالقيرواني والا فهو جزائري « مسيلي » ولادة ومنشأ .

أبو العباس أحمد الباغائي

٣٤٥ ـ ٤٠١ ﻫ

٩٥٦ ـ ١٠١١ م

هو أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الربعي الباغائي المقرىء ، كان من أهل العلم والفهم والذكاء ، ذكره ياقوت الحموي في معجمه فقال : كان لا نظير له في علوم القرآن على مذهب مالك ، مولده بمدينة « باغاية » سنة ٣٤٥ ﻫ ـ ٩٥٦ م ودخل الاندلس سنة ٣٧٦ ﻫ ـ ٩٨٦ م وقدم للقراء بالمسجد الجامع بقرطبة واستأذنه المنصور محمد ابن أبي عامر لابنه عبد الرحمان ثم عتب عليه فأقصاه ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية الى خطه الشورى بقرطبة مكان أبي عمر الاشبيلي الفقيه وارتحل الى المشرق فكان فيمن روى عنهم من علماء الامصار ؛ أبو الطيب بن غلبون وأبو بكر الادفوي روى عنهما بمصر .

وكانت وفاته رحمه الله لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٤٠١ ﻫ ـ ١٦ جوان ١٠١١ م .

ابن عمرون الوهراني

هو الحكيم الرياضي والعالم الثقة ابو محمد عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني احد شيوخ العلم والحكمة له رواية واسعة عن شيوخ افريقية كأبي محمد بن ابي زيد وغيره من كبار علماء عصره ، متضلعاً في علوم الحساب والطب نافذ البصر فيهما ماهراً في المعالجة ومداواة ما استعصى من العلل والامراض سافر الى الاندلس في تجارة له سنة ٤٢٩ ﻫ ـ ١٠٣٧ م فسكن اشبيلية عام السيل الكبير ، حدث عنه ابن خزرج وقال انه قارب الثمانين في عمره وترجم له ابن بشكوال ولم يذكر تاريخ وفاته .

احمد الداودي

٤٠٢ هـ ـ ١٠١١ م

هو شيخ الاسلام وامام علماء الشريعة المجتهدين الشيخ ابو جعفر احمد بن نصر الداودي التلمساني ، اصله من مدينة المسيلة وقيل من بسكرة وسكن طرابلس الغرب طلباً للعلم ثم نزل تلمسان فاقام بها الى وفاته وبها الف كتابه الذي حاز به الفضل على غيره من جميع من تقدمه او تأخر عنه من علماء الاسلام ، الا وهو شرحه لصحيح الامام البخاري المسمى بالنصيحة ، فانه اول شرح وقع لهذا الكتاب الجليل اذ لم يسبقه غيره مطلقاً الى هذا الفضل ، وله كتب جليلة اخرى في الحديث والفقه كثيرة اهمها بعد شرحه على البخاري ، كتاب النامي شرح به موطأ مالك ، وكتاب الواعي في الفقه ، والايضاح في الرد على القدرية الخ ... وله من التلاميذ والمريدين كثير منهم ابو بكر بن محمد بن ابي زيد ؛ وعبد الملك البوني وغيرهما . توفي رحمه الله بتلمسان القديمة سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م ودفن شرقي باب العقبة ، وضريحه مشهور بها ، ويقول ابو راس المعسكري ان وفاته كانت في آخر القرن الرابع ، وذكره الشريف العلمي في نوازله وقال عنه انه توفي بتلمسان سنة ٤٤٢ هـ — ١٠٥٠ م ؟ ... وعده ابن فرحون من اهل الطبقة السابعة .

جـــدول تاريخي

٣٦١ ـ ٤٤٢ هـ = ٩٧٢ ـ ١٠٥١ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٣٦١ هـ = ٩٧٢ م	تولية الامير بلكين على المغرب العربي .
٣٦٣ هـ = ٩٧٤ م	زحف بلكين على المغرب الاوسط ـ الجزائر .
٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م	القضاء على ثورة زناتة .
٣٧٣ هـ = ٩٨٤ م	وفاة بلكين وولاية ابنه المنصور .
٣٧٨ هـ = ٩٨٩ م	القضاء على ثورة أبي الفهم الكتامي وقتله .
٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م	خيبة أبي البهار في ثورته بتاهرت وولاية يطوفت عليها وحماد على آشير .
٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م	استئصال كتامة .
٣٨١ هـ = ٩٩١ م	انتصار زيري بن عطية على الجزائر وبثه للدعوة الاموية .
٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م	انشاء مدينة وجدة .
٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م	وفاة المنصور وولاية ولده باديس .
٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م	سقوط أعمال تيهرت وتلمسان بيد الحاجب الاموي .
٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م	استئصال زناتة على يد حماد .
٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م	تأسيس مدينة القلعة الحادية .
٤٠٧ هـ = ١٠١٧ م	اختلاف حماد على باديس ووفاة الامير وولاية ابنه المعز .
٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م	رد هجمات زناتة .
٤٣٢ هـ = ١٠٤١ م	حصار القلعة والافراج عنها ـ بعد سنتين ـ وانفصال مملكة الجزائر عن ولاية افريقية .
٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م	رفض الدعوة الشيعية والتمسك بمذهب الامام مالك .
٤٤٢ هـ = ١٠٥١ م	الزحف الهلالي .

الدّولة الحماديّة

٤٠٥ ـ ٥٤٧ هـ

١٠١٤ ـ ١١٥٣ م

نشأتهـا

هي ثاني دولة مسلمة جزائرية نظامية تأسست بهذه البلاد ، انشأها ذلك البطل الداهية مؤسس القلعة حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي ، فهي اخت دولة صنهاجة الشرقية غير انها كانت متقدمة عن اختها في الاستقلال ورفض التشيع والدعوة الى الخلافة العباسية ببغداد ، وذلك ما كان سبباً في نشوب ما تقدم ذكره من الحروب بين حماد وباديس ، ثم بين المعز وحماد ، كما علمته فيما ذكرناه من تاريخ دولة صنهاجة الزيرية ؛ وانتهى الامر باستقلال حماد بمملكة الجزائر سنة ٤٠٥ هـ ـ ١٠١٤ م .

كان ابتداء ظهور شخصية حماد وتألقها في عالم الحكم وميدان السياسة منذ سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م حيث ولاه الامير باديس اعمال الجزائر الشرقية واقطعه مدينة آشير ونواحيها ومنحه لقب نائب الامير بتلك النواحي ، ولقد اظهر حماد في ولايته هذه مقدرة عظيمة في السياسة والبطولة الحربية وقيادة الجيش ، وخاصة ايام ثورة الاخوين ماكسن وزاوي سنة ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠٠ م . وفي قضائه على زناتة ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٥ م فطمحت نفسه يومئذ لانشاء مملكة جزائرية مستقلة ، فأنشأ القلعة سنة ٣٩٨ هـ ـ ١٠٠٧ م واتم

تحصينها في عامين كما مر بيانه ومكث بها منازعاً لباديس في حكم الجزائر فاستحكم بينهما الشقاق الى ان اظهر حماد الانفصال عن دولة باديس ونقض البيعة سنة ٤٠٥ هـ – ١٠١٤ م واعلن سلطته على الجزائر ؛ وانقسم يومئذ بنو زيري الى فرقتين : فرقة بني حماد بالقلعة وفرقة بني باديس بالقيروان فكانت هنالك حروب وخطوب بين عاهلي صنهاجة وكان النصر فيها سجالا ثم كانت الموادعة والصلح بينه وبين المعز فتسالما مدة اربع وعشرين سنة ، ثم تغير عليه المعز سنة ٤٣٢ هـ – ١٠٤٠ م فحاصره بالقلعة ثم عدل عنه وتركه لشأنه فتفرغ يومئذ حماد لاقامة دعائم ملكه واشادة سلطانه .

يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف حماد هذا بانه كان نسيج وحده ، وفريد عصره ، وفحل قومه ، ملكاً كبيراً ، وشجاعاً ثبتاً ، وداهية حصيفاً ، وكان من اكمل الملوك ؛ قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل . وحدثوا عنه انه قال ما تداهى علي احد قط ولا خدعني الا امرأة وكماه من البربر ! ... في قصة وقعت له حكاها البكري في مسالكه [١] .

كان مقر حماد تارة بالقلعة وتارة بآشير ، ويغلب عليه المكث بالقلعة وهكذا استمر في سلطانه الى ان وافاه اجله بالقلعة وقيل بمكان اخر يقال له « تازمرت » ، وذلك في شهر رجب ، سنة ٤١٩ هـ – ١٠٢٨ م وتولى مكانه ولده القائد .

نظامها الحكومي

شكلها السياسي ملكي وادارتها حرة مستقلة تحت اشراف رئيسها الاعلى الامير او الملك كما شئت فسمه ، ولقد كان للمملكة عاصمتان ، القلعة اولاً ثم بجاية ، واعضاء الدولة يومئذ هم الوزراء والعمال المنبثون في اهم مراكز القطر الجزائري كقسنطينة وبونه – عنابة – والجزائر ، واشير ، والقلعة ،

---

(١) راجع المسالك والممالك ص ١٨٧ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

وجيجل ، ومرسى الدجاج – ما بين ازفون وبجاية – ونقاوس الخ ... ولادارة ارض الجنوب جماعة من المحنكين تتصرف فيها تحت رعاية الملك الحمادي ، وعاصمة الجنوب يومئذ مدينة بسكرة . اما الجيش فهو متجمع من جميع بلاد الجزائر ، ولقد بلغ عدد فرسان القلعة فقط ايام الناصر اثني عشرة الف فارس ، عدا المشاة . وللحكومة اسطول ضخم كله من صنع دار الصناعة ببجاية ، وخزينة الحكومة غنية بواردها من المغنم والخراج وغير ذلك من الموارد الشرعية . وقد خصصت لها ادارة خاصة ، اما النقود فانها لم تكن مسكوكة باسم هذه الدولة الا في عصر الملك المنصور بن الناصر بن علناس ، ويرجع نظام القضاء عندهم غالباً الى مقتضى سير مذهب الامام مالك ، وكانت صلاة الامير في المسجد في مقصورة خاصة على سنة الملوك وشارة السلاطين .

حدود الجزائر الحمادية

هي لا تتعدى حدود عمالتي الجزائر وقسنطينة المعهودة اليوم تقريباً وتمتد في الجنوب الى بني وارجلان – وارقلة – ويذكر المراكشي ملك بني حماد فيقول : انهم كانوا يملكون من قسنطينة المغرب الى موضع يعرف بسوسيرات بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل [1] ويقول ابن خلدون : ان حماد اقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها ، واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكاً آخر قسيما للملك آل باديس [2] ويجاورها غرباً دولة المرابطين ومواطن زناتة ، وشرقاً مملكة بني زيري الصنهاجية .

وهكذا كانت بلاد الجزائر في مستهل القرن الخامس الهجري – اوائل الحادي عشر الميلادي – مقسمة كلها بين امراء البربر .

---

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٥٧ ط ليدن ١٨٨١ م .

(٢) المقدمة ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

الامير القائد بن حماد

تولى مملكة الجزائر سنة ٤١٩ هـ – ١٠٢٨ م وكان مثل والده في الحصافة وحسن الرأي والتدبير ذا دراية بشؤون الادارة عظيم القدر محترماً في قومه استقام له الامر عندما اشتغل عنه المعز بن باديس بما دهمه من زحف الاعراب.

حملة الجنويز على بونة

اشتدت شوكة المسلمين على النصارى بسواحل هذا البحر وجزره، فاتحدت يومئذ امم النصرانية مع الجنويز وسكان بيزة من الامة الطليانية، وحملوا بتهور عنيف سنة ٤٢٥ هـ – ١٠٣٤ م على مركز الاسطول الاسلامي الجزائري ببونة فدمروا المرفأ وتركوا المدينة خراباً.

خيبة امير المغرب الاقصى في حملته على الجزائر

تحرك حمامة بن زيري المغراوي من مركز امارته بالمغرب الاقصى زاحفاً بجيوشه الجرارة الى الجزائر سنة ٤٣٠ هـ – ١٠٣٨ م فردته جيوش القائد بن حماد عن الحمى وظهرت عليه بحيلة حربية فاذعن حمامة يومئذ لبذل الطاعة والصلح.

رفض دعوة بني عبيد الشيعية

وبعد ان اطمأن القائد وزالت الوحشة وارتفعت الاحن التي كانت بينه وبين المعز، عاد الملك سنة ٤٣٢ هـ – ١٠٤١ م الى رفض الدعوة الشيعية مقلداً في ذلك والده حماداً ودعا مثل ابيه الى الخلافة العباسية، فنهض المعز الى مقاتلته فحاصره بالقلعة وأشير واطال حصاره سنتين ثم كانت هدنة.

وفي سنة ٤٣٩ هـ – ١٠٤٧ م تظاهر القائد باظهار الطاعة لبني عبيد فاكتسب بذلك مودة البلاط الفاطمي وحاز رضاء الخليفة عنه فأنعم عليه بلقب

شرف الدولة ، وكان القائد يريد بذلك تأكيد حريته واستقلال بلاده ، وان منزلته السياسية بالجزائر لا تقل رتبة عن المعز بافريقية ، ولما بلغ مبتغاه وحاز على مراده من عدوه ومنافسه انقلب على الفاطميين ونقض بيعتهم وعاد الى مبايعة الخلافة العباسية وبقي على ذلك الى وفاته في شهر رجب او ذي القعدة سنة ٤٤٦ هـ — اكتوبر ١٠٥٤ م فخلفه ولده محسن .

الامير محسن بن القائد

تسلم زمام الملك اثر وفاة والده سنة ٤٤٦ هـ — ١٠٥٤ م وكان شبيهاً به في اخلاقه وسجاياه ، غير انه كان شديداً قاسياً ، وكان فيما اوصاه به والده ان لا يخرج من القلعة ثلاث سنوات وان لا ينازع اعمامه في مناصبهم ، فخالف محسن ذلك كله ، فثار ضده عمه يوسف واستحكم الخلاف بينهما ونهضت الشحناء فقتل اربعة من عمومته ، ويومئذ ابتنى عمه يوسف قلعة بجبل منيع سماها الطيارة وزحف منها اواسط القرن الخامس الهجري فخرب مدينة آشير واستباح اموالها .

تزاحم آل حماد

حاول محسن الانتقام من عمه يوسف فجهز جيشاً لمقاتلته وجعله تحت امرة بلكين بن محمد بن حماد ، قاصداً به الغدر ايضاً فجعل في مؤازرته رجلين هما من سادة العرب موعزاً اليهما بقتله فتفطن بلكين المكيدة فعمد الى الاحسان اليهما وغمرهما باكرامه وافاض عليهما من انواع البر والجود ما حول نظرهما اليه فعدلا عن الفكرة المبيتة واخبراه بما امرَّ لهما الامير محسن فزادهما ذلك عنده شرفاً ورفعة ويومئذ تآمروا جميعاً على اغتيال الملك ورجعوا الى القلعة ولم يكن بها محسن ، ولما اتصل بخبر رجوع القوم ومعهم بلكين وكان يظن انه قد مات ؛ أخذ يسير الى القلعة فادركه بلكين وقتله في ربيع الثاني ٤٤٧ هـ — جوليبط ١٠٥٥ م واحتل المدينة ليلاً ودعا فيها لنفسه فأذعن له القوم وبايعوه .

الامير بلكين بن محمد بن حماد

اشتهر بلكين هذا بالبطولة والشهامة والنجدة والفتوح ، وكان جريئاً سفاكاً للدماء ذا ارادة وعزيمة جبارة مؤثراً العزلة والانفراد عن الناس مولعاً بالادلاج كثير الغارات ، وكان لا يخرج الا دارعاً ولكثرة غزواته ابغضته الرعية وانحرف عنه عمال بسكرة من آل رومان فنكل بهم وقتل أميرهم جعفراً سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م وعاقبهم عقوبة مؤلمة ، وجعل أمر بسكرة بيدهم لبني سندي من أهلها الى ان انقرضت دولتهم .

الزحف الى المغرب الاقصى

لقد اكثر بلكين من زحفه على المغرب الاقصى حتى استولى على عاصمته فاس في صفر ٤٥٤ هـ — فبفري ١٠٦٢ م وقاتل هنالك المصامدة وأخرج منها يوسف بن تاشفين منهزماً الى الصحراء واوغل بلكين في ديار المغرب .

اغتيال بلكين

بالغ بلكين في الغلظة والجفاء من قومه والاخافة اقرانه واقاربه وغلا في الحذر منهم فقتل وسفك دماء الكثير ممن حامت حولهم الشكوك والظنون ، وكانت من بين هؤلاء القتلى زوجته « تاضميرت » ابنة عمه واخت الناصر بن علناس ، وكان قتله لها بتهمة انها مالأت على قتل اخيه مقاتل بن محمد فحقد عليه اخوها هذا واضمر الانتقام منه وكتم غيضه الى ان واتته الفرصة يوم ان عاد بلكين من غزو المغرب الاقصى سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م فدخل عليه الناصر في مجلس انسه وطربه في جماعة من صنهاجة فقتلوه يوم الخيس منتصف شعبان — ٢٤ اوط .

الامير الناصر بن علناس

هو من اشهر ملوك هذه الدولة واعظمهم شأناً واعلاهم كعباً واثبتهم قدماً في الملك ، كان جواداً كريماً وشجاعاً كمياً ، سفاكاً للدماء وفي ايامه

استفحل ملك بني حماد وشف على غيره من ممالك الشمال الافريقي ، كان اول ما تولى الملك مقيماً بالقلعة ، ثم استوخمها وكره المقام بها فابتنى لاقامته قصوراً شاهقة خارج القلعة فسكن بها واحتفل بالمسجد الجامع فاشاده من جديد . قال ابن خلدون : وفي ايام الناصر هذا فاعتز آل حماد هؤلاء وعظم شأن ايامهم فبنى المباني العجيبة المونقة ، وشيد المدائن العظيمة ، وكان استفحال ملكهم وشفوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية [1] .

القضاء على بني رومان ببسكرة

كانت ولاية بسكرة في آل رومان يتوارثونها بينهم تحت رعاية ونفوذ الحماديين فلما قتل بلكين بن محمد اعتلاهم التطاول على الناصر بن علناس فخرجوا عن طاعته فجهز اليهم الملك وزيره خلف بن حيدرة فقضى عليهم وعلى مناصريهم بمن آزرهم في هذه الثورة واسر رؤساءهم فحملهم معه الى القلعة فصلبوا فيها جميعاً ، ويومئذ انتقلت ولاية بسكرة من بني رومان الى اسرة عروس من بني سندي وبقيت هذه الامارة فيهم الى نهاية دولة بني حماد .

وقعة سبيبة والزحف الهلالي

لم يظهر لبني هلال اثر في الجزائر الى ان حالف الملك الناصر قبيلة الاثبج الهلالية سنة ٤٥٧ هـ – ١٠٦٥ م وخرج لامتلاك تونس فيومئذ تالأ الحلفـــاء من الاثبج مع قومهم رياح وزغبة وزناتة ايضاً ضد الناصر ، وخرجت جيوش تميم بن المعز لرد الحملة الناصرية فكان هؤلاء جميعاً يداً واحدة على الناصر ، وكان اللقاء بفحص سبيبة غربي القيروان وعلى نحو الخمسين كيلومتراً جنوب الاربس فانهزم الناصر وقتل من جيشه اربعة وعشرون الفاً واستشهد اخوه القاسم ، فاضطر الى التقهقر والرجوع الى الجزائر ونجا الى قسنطينة فتبعه الهلاليون واقتحموا عليه المدينة فاستولوا

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ بولاق ١٢٨٤ هـ

عليها وعلى القلعة والمسيلة وطبنة وهم مع ذلك ينهبون ويخربون فتركوا البلاد بلاقع! والديار خراباً ! ... ثم تلاحقت طوائف الاعراب باحلافهم الهلاليين الى الجزائر من طريق سبيبة ودخلوا تبسة وانتشروا في جنوب اوراس وقرى الزاب وسلكوا طريقهم ما بين الاطلسين التلي والصحراوي حتى انتهوا الى وادي الساحل وجبال البيبان وانحدر منهم آخرون من نواحي باجة فظهروا بنواحي القالة وبونة وقسنطينة الى القل وجبال بابور ويومئذ احيطت مدينة بونة الحديثة (هي على ثلاثة اميال من القديمة) بسور ؛ وكيفما كان الامر فان اضطرار بني هلال بالجزائر لم تبلغ مبلغها بتونس وطرابلس وذلك حيث ان الجزائر لم تكن مقصودة من الحملة بالذات.

اخفاق المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر

ما كادت تلتئم جراحات حوادث سبيبة والهجوم الهلالي على الجزائر حتى فاجأهـــا المنتصر او المستنصرين خزرون الزناتي بهجومه ايضاً فخرج بقومه من طرابلس الغرب وحمل على المسيلة واشير طمعاً في استرجاع ما كان لاجداده من الملك والسلطان بالحضنة فاجلاه الناصر يومئذ الى الصحراء ثم اعاد الزناتي هجومه على القلعة الحادية واوغل بتلك النواحي فاكثر فيها الفساد ، فصالحه الناصر على تسليم مقاطعة الزاب وريغة لزناتة واوعز الى عامله على بسكرة عروس بن سندي باغتيال المنتصر فأقام العامل مأدبة في داره واستدعى اليها المنتصر وقتله بواسطة بعض الخدم عند انكبابه على الطعام وذهب برأسه الى الناصر فنصبه ببجاية ونصب الجثة بالقلعة سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م وحمل الحاديون يومئذ على امارة زناتة فقضوا عليها وقتلوا رؤساءها واحتلوا مدينة بني وارجلان - وارقلة - وحطموها.

انشاء مدينة بجاية

تشاءم الملك الناصر كثيراً لحوادث الهلاليين بتونس والجزائر وخاصة ما اصبحت عليه عواصم القطر الجزائري باعمال القلعة وقسنطينة من التدهور

والانهيار ، فكان كثير التفكير في انشاء مدينة حصينة لسلطانه ، وندم على ما فرط منه في محاربة ابن عمه تميم بن المعز الصنهاجي وهجومه على مملكته فسرعان ما اظهر رغبته في حقن الدماء وعقد الهدنة . فجاء يومئذ سفير تميم ووزيره محمد بن البعبع الى القلعة لابرام وثيقة الصلح ، وكان مروره في طريقه الى القلعة على ضيعة صغيرة كانت اصنهاجة تدعى « بجاية » وهو اسم للقبيلة البربرية التي تسكنها وهي على مقربة من مدينة « صلداي الفينيقية » فاعجب بمركزها الطبيعي الجميل وموقعها الجغرافي الحربي المنيع ، فلما اتصل بالناصر اخبره بما رآه في طريقه من حسن موقع بجاية وحصانتها من هجوم العدو وانها صالحة لان تكون عاصمة ملك بني حماد نظراً لمناعتها واهمية خليجها الفسيح الذي يسع اسطولاً ضخماً ، فخرج الناصر حينئذ بنفسه الى هذه الناحية لتحقيق ما اشار به السفير فوجد فيها ضالته المنشودة فشرع في تأسيس العاصمة الحمادية الثانية « بجاية » بذلك المكان سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٧ م ثم انتقل اليها في السنة بعدها وسماها « الناصرية » باسمه واسقط عن سكانها الجباية والخراج ، وانشأ بهـــا دارين لصناعة المراكب والسفن واساطيل القتال واقام بها من المهارات والصناعات والفنون ما جعلها قبلة اهل الشرق والغرب .

ثورة عاملي المدية والشلف

كانت ولاية أعمال المدية وشلف على عهد الناصر لرئيسين من بني منجاس فالمدية لابي الفتوح بن حنوش ، وشلف لمعنصر بن حماد فخرج الاول عن طاعة بني حماد فقتله الناصر وهجم الثاني على مدينة مليانة وقتل من بها من المشيخة والرؤساء من بني ورسيفان المغراويين ، فاستأذن يومئذ سكان مليانة في قتال معنصر فأذن لهم الناصر فقتلوه وبعثوا اليه برأسه وهو ببجاية فوضعه الى جنب المنتصر الزناتي .

امتداد المملكة الحمادية

كثر عيث الاعراب الهلاليين بنواحي تونس فاضطر أهلها الى الالتجاء

الى عاهل الدولة الحمادية بالقلعة الناصر بن علناس ، فوفد عليه سنة ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م وجوه أهل تونس وزعماؤها مذعنين اليه بالطاعة ومستغيثين به من هؤلاء الحرّاب ! ... فأقبل عليهم وأكرمهم وولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان ، وسرعان ما جاهر هذا العامل بالعصيان والاستقلال عن دولة بني حماد ، فخرج الناصر الى ولاية تونس في حلفائه العرب سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٧ م فاحتل مدينة (الاربس) وقتل عاملها ابن مكرز وأمن أهلها ثم نزل بالقيروان فمكث بها سنة كاملة وأخيراً عاد الى الجزائر مخافة اضطراب حبل الرعية وفسادها عليه ، فتأسست حينئذ دولة بني خراسان بتونس ولم يكد يمضي على انشائها مدة قرن واحد حتى قضى عليها الموحدون .

مصاهرة عاهلي صنهاجة

بعدما أتم الناصر تأسيس عاصمته الجديدة « الناصرية » - بجاية - واستقر بها واطمأن على بلاده خطب الامير تميم بن المعز ملك المهدية في بنته بلارة توثيقاً لعرى المودة والصداقة بين المملكتين المتجاورتين وتأكيداً لروابط الارشاج العائلية بين الاسرتين ، فزوجها أبوها منه سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م وجعل الناصر لها ثلاثين الف دينار صداقاً ، فلم يقبل منها الامير الا ديناراً واحداً كمهر شرعي فقط ورد الباقي على الناصر ، وسار موكب العروس من المهدية الى بجاية في ابهة وبهجة تحف به الجنود والسادة والاشراف يحملون معهم جهاز العروس الفخم من حلى وحلل ... وكان اقبال الموكب ببجاية اقبالاً باهراً ، وانزلت العروس بقصرها الخاص الذي انشأه الناصر باسمها « قصر بلارة » .

خيبة عجيسة في غزوها

عجيسة اسم لقبيلة من بربر الجزائر تسكن ما بين سطيف والقلعة ؛ كانت تترقب مقترصة غفلة الملك لاعلان ثورتها ضد السلطة الحمادية ، حتى

سنح لها ذلك يوم خروج الناصر لتفقد مملكته ؛ فوثبت على القلعة برئاسة قائدها علي بن ركلان وكان الناصر يومئذ بالمسيلة ، فانبرى الى هؤلاء الثوار فدحرهم وقضى عليهم ؛ وانتحر رئيسهم ابن ركلان .

المرابطون في الجزائر

ما كان لدولة المرابطين ان تتجاوز وتصفح عن حملة الحماديين على المغرب الاقصى سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م وما كانت لتنسى كذلك انهزام حكومة فاس يومئذ الى الصحراء فبقيت تعمل في الخفاء على الانتقام وتستعد للهجوم حتى تيسر لها ذلك في سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩ م فنهض القائد اللمتوني مزدلي بن بكلان على رأس عشرين الف مقاتل زاحفاً على المغرب الاوسط فبلغ تلمسان فعاث بنواحيها ثم عاد الى مركزه من المغرب الاقصى ولم تمض سنة بعد ذلك حتى فاجأ المرابطون مدينة تلمسان فأخرجوا منها أمراء بني خزر الزناتيين واستولوا عليها وضربوا بها العملة .

وفي سنة ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م زحف الامير يوسف بن تاشفين نحو الجزائر فابتنى محلته الشهيرة بتاقرارت في ضواحي تلمسان ليجمع فيها جنوده وعتاده ، ومنها توجه الى وهران ففتحها ثم الى تنس وجبال وانشريس وأعمال شلف متتبعاً مواطن زناتة حيثما كانوا حتى أتى على جميع أماكن مغراوة فبلغ الى جدران مدينة الجزائر ، ثم أحجم ورجع الى حضرته فدخل مراكش في ربيع الثاني ٤٧٥ هـ - سبطمبر ١٠٨٢ م فكان ملك المرابطين يومئذ بافريقية من مدينة الجزائر شرقاً الى طنجة غرباً الى آخر جبال السوس الاقصى والى جبال الذهب من بلاد السودان ، وانحازت يومئذ المملكة الحمادية بالجزائر الى الشرق .

وفاة الناصر بن علناس

كانت وفاة الناصر يوم الجمعة سابع جمادي الاول ٤٨١ هـ - فاتح شهر اوط ١٠٨٨ م وذلك بقصره خارج بجاية فحمل منه الى العاصمة

الحادية فدفن بها بعد ان قضى نحو ربع قرن على رأس المملكة الجزائرية، وكان عصره من ازهر ايام بني حماد .

الامير المنصور بن الناصر

نشأ المنصور عزيز النفس شهماً انوفاً ابياً ، محافظاً متسماً باوصاف الكمال ذا خصال شريفة اديباً كاتباً يقول الشعر ويرويه ، تولى عرش الجزائر بعد وفاة والده سنة ٤٨١ هـ — ١٠٨٨ م فساس الرعية بحكمة وحصافة ، واتم ما اختطه اسلافه من برامج العمل لخير الحكومة والشعب فاشاد المصانع والقصور واعتنى بالري والزراعة فاجرى المياه وامر بغرس البساتين والحقول ، وكان من آثاره بالقلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر الكوكب وقصر السلام ؛ وبعد انتقاله الى بجاية سنة ٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م انشأ بها قصر اللؤلؤة وقصر اميون ، وشيد جامعها الأعظم وهو مع ذلك في نفسه يميل الى التقشف والزهد يخصف نعليه تارة بيده ويرقع ثيابه بنفسه واليه يعود الفضل في تمدن مملكة بني حماد .

تمرد عامل قسنطينة

كانت ولاية قسنطينة تحت ادارة بلباز عم المنصور ، فحدثته نفسه يوماً بانتقاض العهد وخفر الذمة ؛ فرماه المنصور بقائده ابي يكنى فقبض عليه ودفعه الى القلعة اسيراً وجلس هو مكانه وجعل اخاه ويغلان على ولاية بونة — عنابة .

دلس الاندلسية

كانت ولاية المرية بالاندلس للمعتصم بن صمادح — احد ملوك الطوائف — فلما بلغه استيلاء المرابطين على اشبيلية مات غماً وترك ولده معز الدولة بن صمادح والياً على المرية فاستولى عليها المرابطون ايضاً سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م ويومئذ ارتحل بن صمادح بأهله وماله من الاندلس ملتجئاً الى

الجزائر وذلك بعد ان اوفد احمد بن عبد العزيز بن عيشون الى المنصور يخطب اليه جواره ففسح له في البلاد وخيره في اقطارها فنزل على الملك المنصور ببجاية ؛ فاقطعه احواز مدينة دلس فاصبحت هذه المدينة بعد ذلك بفضل عمل هذه الجالية الاندلسية مركزاً ثرياً ؛ فكان فيها كما يقول الادريسي : الديار والقصور والمتنزهات ؛ وبها من رخص الفواكه والاسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله ؛ كما يوجد بها الكثير من البقر والغنم ؛ وتباع جملتها بالاسعار اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير من الافاق .

ثورة أبي يكنى

هو ابو يكني بن محسن بن القائد بن حماد احد قادة المنصور وقرباه تولى على قسنطينة بعد ظفره بعم المنصور بلباز الثائر ؛ فاستبد بالامر واعلن عصيانه سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٩ م وبعث باخيه ويغلان عامل بونة الى تميم بن المعز امير المهدية يستجيشه في مقابلة تسليم ولاية بونة ؛ فاستجاب له تميم وبعث معه ولده ابا الفتوح واخذا معاً في استنصار المرابطين ومن حولهم من الاعراب ؛ وبينا هم جميعاً في تدبير غزو المنصور حتى فاجأتهم جيوشه فاحاطت بمدينة بونة واحدقت بها من جميع جهاتها طيلة سبعة اشهر ثم هاجمتها وقبضت على ابي الفتوح فاعتقلته بالقلعة ؛ وتقدمت الى حصار قسنطينة ففر امامها ابو يكنى الثائر مختفياً بقلعة في جبل آوراس ؛ مستخلفاً عنه صليصل بن الاحمر احد رؤساء قبيلة الاثبج العربية ؛ وسرعان ما نزل صليصل عن قسنطينة مذعناً للمنصور ثم داخله فابى تمكينه منها على مال يبذله ففعل ، وواصله باموال ولم تزل الجنود الحادية في اثر ابي يكنى حتى ظفرت به في معقله فاقتحمته عليه وقتله وجعلت ولاية قسنطينة يومئذ للحسن بن العزيز .

سقوط آشير بيد المرابطين

لم تزل دولة المرابطين تترصد غرة من حكومة بني حماد لاستكمال

الفتح بالجزائر حتى سنحت لها فرصة اشتغالها بثورة ابي بكنى وتفرق جنودها في هذا المجال فاحتل المرابطون يومئذ مواطن صنهاجة الغربية بالجزائر وتحصنوا بها فاجلاهم عنها المنصور ، ثم عقدت الهدنة والصلح بينه وبين يوسف بن تاشفين ؛

واعاد المرابطون بعد ذلك غزوهم للجزائر بقيادة محمد بن تينهار فردهم عنها عبد الله بن المنصور وكانت الوقائع حول مدينة الجزائر شديدة فحوصرت المدينة يومين ، ثم كان سقوط مدينة آشير بايديهم سنة ٤٩٥ هـ - ١١٠١ م فدمروها تدميراً وبقيت كذلك الى ان اعاد انشاءها بنو حماد .

انكسار شوكة المرابطين بتلمسان واخضاع العصاة

لم يكد يهدأ روع المنصور مما اوقع بمملكته المرابطون ، حتى خرج بنفسه لقتالهم في شوال سنة ٤٩٦ هـ - جوليط ١١٠٣ م وحمل عليهم حملة شعواء بتلمسان في عشرين الف مقاتل ، فكثر يومئذ عدد القتلى والجرحى وكسرت شوكة المرابطين فهزموا عن تلمسان الى تسالة ودخلها المنصور في جنده فعاث فيها جيشه وعظمت المحنة باهلها ، فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة المنصور ومستعتبة ، فتأثر الملك لمنظرها الحزين وانكبابها على قدميه ، فتجافى عنهم وابقى عليهم . وتم السلم بين المملكتين المتجاورتين ثم قفل المنصور عائداً الى عاصمته . فعرج على القلعة فنزل بها مثخناً في قتال زناتة بنواحي الزاب ؛ ثم انتقل الى وطن زواوة فناجز العصاة من بني عمران وبني تازروت واهل المنصورية وجمعة الصهريج والناظور . ثم لم يكن هناك من الاحداث بالجزائر ما يستحق الذكر الى وفاته سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٤ م .

الامير باديس بن المنصور

يكنى بابي معد ، تملك بعد وفاة والده في شهر ربيع الثاني ٤٩٨ هـ -

ديسمبر ١١٠٤ م ، واشتهر من بين ملوك هذه الدولة بشدة الشكيمة والبأس وسرعة الغضب والبطش وسفك الدماء ؛ ولم يصلنا عنه من الاعمال ما يستحق التدوين الا ما كان من قبيل التولية والعزل ، فانه اكثر من ذلك الى حد الاضطراب وعدم التثبت . فعزل اخاه العزيز عن ولاية الجزائر ونفاه الى جيجل وقتل وزير والده عبد الكريم بن سليمان ونكب بعامل بجاية ورمى ببعض الصالحين الى الاسود وتوعد امه بالقتل ! ... الى غير ذلك مما شاكل هذه الاعمال السوداء .

ولم تطل مدته ، اذ توفي من سنته في الثالث عشر من شهر ذي القعدة ٤٩٨ هـ ٢٧ اوط ١١٠٥ م . وتولى بعده اخوه العزيز الذي كان مغرباً بمدينة جيجل معزولاً عن ولاية الجزائر .

الامير العزيز بالله بن المنصور

كان يلقب بالميمون لولادته ليلة ولاية ابيه المنصور ٨ جمادى الاولى ٤٨١ هـ ٢ اوط ١٠٨٨ م وبويع بالملك وهو في منفاه بجيجل آخر سنة ٤٩٨ هـ - ١١٠٥ وكان اول من بايعه هو قائد الاسطول الحادي علي بن حمدون فتولى الملك يومئذ وسنه سبع عشرة سنة ، وكان حازماً ماهراً جميل الصورة عارفاً بتسيير الدول والممالك . وكان من دهائه ان تزوج من بيوتات خصمائه زناتة ومن بيت الملك بالمهدية ، فبنى ببنت ماخوخ الزناتي اولاً ، ثم ببدر الدجى بنت يحيى بن تميم ملك المهدية ، سنة ٥٠٩ هـ — ١١١٥ م فأمن لجنبه ثورات زناتة المتوالية ، وعداوة دولة صنهاجة ، وكثيراً ما كان يكاتب ملوك عصره في الآفاق متودداً ، فانتشر الامن ببلاده وساد الهدوء بين الناس ، ومن فرط شغفه بالعلم انه كان يحضر بنفسه مجالس المناظرة بين العلماء .

وعلى عهد العزيز هذا كان مقدم مهدي الموحدين من الشرق الى بجاية آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) فسعى به بعض الاقوام عند العزيز وائتمروا به فلما شعر بذلك خرج الى بني (ورياكل)

من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فاجاوره ، ونزل عليهم بملالة واقام بها اشهراً يدرس العلم ويعقد مجالس الوعظ فاجتمع اليه الناس ومالت اليه القلوب وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوا دونه الى ان رحل عنهم الى المغرب ، وفي المعجب للمراكشي قال : ان صاحب بجاية هو الذي أمره بالخروج عنها حين خاف عاديته ، قال وبضيعة (ملالة) هذه مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم (٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م) ولا ادري ابُني على عهده او كان ذلك بعده [١] .

رد عادية الاعراب عن القلعة

اغار الاعراب الهلاليون بحلفائهم على القلعة الحادية سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م فاوقعوا باهلها واكتسحوا المدينة فاهلكوها فخرج الى محاربتهم يحيى ولد العزيز ومعه القائد علي بن حمدون فنكلا بالعدو ووثبا عليه فخضع ثم عادا الى بجاية وكان مما سجله التاريخ من حوادث هذه السنة انتشار الوباء والقحط الشديد بالمغرب فبلغ ربع الدقيق بتلمسان عشرين درهما .

تمرد والي تونس

كانت ولاية تونس خاضعة لدولة بني حماد يديرها ولاة من بني خراسان ، ففي سنة ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م هلك عبد العزيز الخراساني وتولى مكانه ولده احمد فاستمر على الطاعة للدولة الى اوائل القرن السادس الهجري فاظهر شارة الملك والسلطان وخرج عن مألوف سيرة الولاة الى رفاهية الملوك والسلاطين غير مبال بالسلطة الحادية ، فنازله العزيز سنة ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م حتى عاد احمد الى الطاعة والخضوع ، ويومئذ تقدم الاسطول الحادي الى جربة فاحتلها ثم بعد ذلك بسنة كانت وفاة العزيز ٥١٥ هـ - ١١٢١ م فخلفه ولده يحيى .

---

(١) المعجب ص ١٢٩ ط ليدن ١٨٨١ م وابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

الامير يحي بن العزيز بالله

كان اول ما ضربت العملة في تاريخ هذه الدولة ان ضربت باسم هذا الملك سنة ٥٤٣ هـ – ١١٤٨ م ولم يجدنها احد قبله تأدباً مع الخلفاء العبيديين وكان مضروباً على الوجه الواحد من الدينار الذي احثه العزيز الحادي هذا ؛ ثلاثة اسطر ودائرة ، فالدئرة مكتوب فيها هذه الآية الكريمة : (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) والاسطر : الشهادتان ، وبعدها يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله الامير المنصور ، وعلى الوجه الاخر دائرة مكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام ابو عبد الله المتقي لامر الله امير المؤمنين العباسي [1] . وكان يحي فصيحاً كاتباً اديباً رصيناً مغرماً بالصيد واللهو منهمكاً في شهواته . وبه تم عقد ملوك بني حماد وانتهت دولتهم وتقلص سلطانهم .

غزو المهدية

لقد اصبحت البلاد التونسية تتساقط وتهوي مثل الشهب بايدي النورمان [2] الواحدة تلوى الاخرى ، فتحرك الامير يحي للذب عن حوزة الاسلام والمسلمين والدفاع عن جيرانه وبني عمه وجلدته فغزا البلاد بجيوش جرارة جعلها تحت قيادة ابن المهلب ، فحاصر المهدية سنة ٥٢٢ هـ – ١١٢٨ م ثم انصرف عنها من غير طائل .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٧ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

(٢) هم امة الشمال الاروبي هاجموا اوروبا الوسطى في القرن التاسع الميلادي واستولوا على قسم من شمال فرانسا الغربي لا زال ينسب اليهم الى يومنا هذا « نورماندي » ثم استولوا على جنوب ايطاليا وصقلية على الاخص ، وغزوا فيا بين القرن الثالث والخامس الهجري سواحل بلاد المغرب ، واشتهر ملوكهم رجار الثاني (روجي) فانه حمى الحضارة الاسلامية وروجالها بصقلية فازدهرت في ايامه أيما ازدهار .

الاستيلاء على تونس

كان لاعتداء النورمان واستيلائهم على اطراف المملكة التونسية تذمر عظيم لدى سكان تلك النواحي ومنهم الاعراب المهاجرون ، فاجتمع لذلك وفد من هؤلاء وجاء الى الامير يحيى بن العزيز يشكو اليه حالة البلاد مع النورمان وسوء سلوك الامير الحسن بن علي الصنهاجي ، راغباً في بسط نفوذ سلطان بني حماد على تونس ، ووعده بالمدد والمساعدة على ذلك ان هو فعل ، وقد جاء معه بابنائه كرهائن توكيداً منه والحاحاً في الطلب ؛ فصادف ذلك من يحيى هوى في نفسه فاستجاب للوفد وأمر بتعبئة الجيش من مشاة وفرسان قام عليهم كبير قادته مطرف بن علي بن حمدون واوصاهم بالتعفف عن الدماء .

خرج الجيش الحمادي من بجاية حوالي سنة (٥٢٢ - ٢٩ ﻫ) ١١٢٩ - ٣٤ م فحاصر المهدية ثم نكص عنها الى تونس فاحتلها ، وجلس على عرشها كرامة بن المنصور - عم الامير يحيى - وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز الخراساني باهله وولده الى بجاية ، وبقي كرامة بتونس والياً تحت اشراف دولة بني حماد الى وفاته بها ، فخلفه عليها اخوه ابو الفتوح بن المنصور ثم حفيده محمد فلم تحمد سيرته فعزله يحيى وولى مكانه عمه معد بن المنصور فبقي بها الى الزحف النورماني سنة ٥٤٣ ﻫ - ١١٤٨ م فخرج منها معد الى بجاية .

وقعة زويلة

اعاد الحماديون غزو المهدية سنة ٥٣٠ ﻫ - ١١٣٥ م فهاجموها براً وبحراً واقاموا حولها نيفاً وستين يوماً ، فردهم عنها الاعراب حلفاء صنهاجة وكان ميدان القتال بينهم بظاهر زويلة - من ارباض المهدية - فانتصرت يومئذ دولة صنهاجة واستولت على مركبين من الطرائد الحمادية بعد قتل رئيسها فانهزمت البقية الى الجزائر .

اعتداء النورمان على الجزائر

لقد احفظ النورمان ذلك الهجوم المتكرر من دولة بني حماد على ولايتي تونس والمهدية فانتقموا منها سنة ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م بغزو مدينة جيجل فانتهبوها وبالغوا في خرابها واحراق دورها ، وكان من بين ما افسده النورمان بها قصر النزهة الذي اشاده الملك يحي بن العزيز فوق جبل عيوف مشرفاً على المدينة تجاه البحر ، ولم ينج يومئذ من القتل والتلف بهذه المدينة سوى من اعتصم بقمم الجبال او آوى الى مكان سحيق ، ومنذ ذلك الوقت هجرت المدينة وابتنى اهلها بلدة حصينة باعلى جبل هنالك يبعد عنها بنحو ميل ، فاذا كان زمن الشتاء سكنوا الساحل واذا كان زمن الصيف وقت سفر الاسطول النورماني نقلوا امتعتهم وجملة بضائعهم الى الحصن الاعلى البعيد عن البحر .

واعاد النورمان غزو الساحل الجزائري سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م فاحتلوا في هذه المرة جيجل وبرشك وشرشال وتنس .

انهزام ملك المهدية الى الجزائر

ولما احدق الخطر باميو المهدية الحسن بن علي وشعر بالهزيمة امام النورمان وايقن بسقوط مملكته في ايديهم ارتحل عنها ودخلها العدو يوم الاثنين ١٢ صفر ٥٤٣ هـ - ٣ جوليط - ١١٤٨ م ، فرغب الحسن يومئذ في الالتحاق باهله الى الجزائر ورغب في الاتصال بابن عمه يحي بن العزيز ملك بجاية ريثما يستعد للانتقال الى مقابلة ملك الموحدين بالمغرب الاقصى وبعث ببنيه الثلاثة الى يحي ببجاية يخبره بغرضه هذا ويستأذنه في النزول عليه ؛ وجاء ابناء الحسن الى بجاية ، فاقتبلهم الوزير ميمون بن حمدون بالنيابة عن الملك واذن لهم بذلك في كتاب سطره الوزير الى ابيهم يحثه فيه على الاعراض عن رأيه في مقابلة عبد المؤمن ملك الموحدين والاقتصار في نزوله على الجزائر فقط وذلك خشية ما ينشأ عن اجتماعه بخليفة الموحدين من تدبير حول المملكة الجزائرية .

ولما اقترب الحسن من ارض الجزائر ندب اليه السلطان وزيره ميمون لاقتباله فامتنع ، وحينئذ امر اخاه القائد بن العزيز بالاستعداد الى لقائه في مشيخة البلد واعيانها وامرهم بالعدول به عن بجاية الى مدينة الجزائر فكان الامر كذلك فنزل الحسن بهذه المدينة في المحرم سنة ٥٤٤ هـ — ماي ١١٤٩ م ، وكان منزله فيها دون مقامه حيث جعل تحت الرقابة مضيقاً عليه الخناق ممنوعاً من التصرف مطلقاً ، واجريت عليه جراية طفيفة ، واستمر الحسن في معتقله هذا ، ولا نقول في موطنه الى ان دالت دولة بني حماد وسقطت بيد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ — ١٢٥٢ م .

المذاهب والعقائد

كان عصر الحماديين اظهر العصور الاسلامية في تاريخ حرية الاديان واحترام العقائد بالجزائر منذ الفتح الاسلامي الى القرن الرابع الهجري ، اذ في عهدهم تأسست اول كنيسة بالقلعة سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م يديرها قسيس من رتبة اسقف Evêque ، وفي سنة ٥٠٨ هـ — ١١١٤ م تأسست كنيسة مريم العذراء بادارة القسيس عزون المعروف عند العامة باسم الخليفة ، وقد ابتنى دار سكناه بجانب الكنيسة .

وبلغ الحماديون في التسامح الديني الى انهم كانوا لا يعترضون على المطارنة وكبار رجال النصرانية في توظيف من شاؤوا من القساوسة بمملكة الجزائر ، ففي سنة ٤٦٩ هـ — ١٠٧٦ م قدم مطران قرطاجنة قسيساً اسمه « سيرفاند » ليتولى اسقفية كنيسة بونة ، فلم يعترض عليه الناصر بل صادق على تعيينه وحمله رسالة ودية الى البابا « قريقوار السابع » وأصحبه بطائفة من الاسرى المسيحيين الذين ظفر بهم الناصر بمملكته فأعتقهم وأكد البابا في رسالته انه مها ظفر بأسرى آخرين الا وسعى في تحريرهم ، وجاءت يومئذ بعثة من رجال الكهنوت من طرف البابا الى بجاية تردد آيات الشكر والثناء معترفة بفضل الناصر ومنته على المسيحية ونقل عن الاب « مبشرن » انه قال : ان من المحزن للامم المسيحية

ان يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس المحبة بين الشعوب هو ما يجب ان يتعلمه المسيحيون عن المسلمين .

اما الرعية المسلمة فانها كانت على مذهب الامام مالك تدرس الموطأ والمدونة والتلقين لعبد الوهاب بن علي البغدادي ، وعقيدتها هي عقيدة أهل السنة والجماعة .

الا ما شذ يومئذ من سكان جبال بجاية من أهل كتامة فانهم على مذهب الشيعة يكرمون من مال الى مذهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم . كما ان أهل جبل اوراس وباغاية واحدى مدن « بتطيوس » كانوا على رأي الخوارج ويعرفون بالواصلية أباضية المذهب ، اما أهل تهودة بالجنوب الشرقي من مدينة بسكرة فهم يومئذ على ما ذهب اليه أهل العراق من الأحناف واما أهل بسكرة نفسها فيقول عنهم البكري : ان بيلدهم هذا علماً كثيراً وانهم على مذهب أهل المدينة [1] .

الثقافة والحضارة والعمران

ان من ينظر الى تاريخ الجزائر في ايام حكومة بني حماد يجده من احفل التواريخ ثقافة وحضارة وعمراناً .

فقد كانت المدارس والمعاهد العلمية والمساجد حافلة بدروس العلم والمجالس العلمية ، وكانت المنح والجوائز الدولية توزع على العباقرة وأرباب القرائح المبرزين في كل علم وفن ، على مثال ما تصنعه الدول الراقية المعاصرة اليوم ، فازدحم يومئذ على معاهدها الكثير من العلماء والحكماء والاطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية ، وأم عواصمها الكثير من جلة علماء الاندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم رغبة منهم في الاطلاع على تبحر عمرانها والاستيقاء من حضارتها كما استفادت الجزائر

(١) انظر البكري ص ٥٢ — ٧٢ — ٧٣ — ٨٢ — ١٤٤ — ١٤٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م .

منهم بدورها علمهم وثقافتهم الشرقية اللامعة ولقد بلغ من اقبال الناس على العلم يومئذ انه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف على المائة طالب ، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره ، فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لامانة العلم ، قال شارل سنيوبس في كتابه تاريخ الحضارة Histoire de la civilisation : كان أهل بيزا الايطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر فتعلموا من مصانعها صنع الشمع ، ومنها نقلوه الى بلادهم والى اوروبا ، ولا يزال مسمى الشمع عندهم بوجي Bougie وهو اسم بجاية في نطقهم الافرنجي . وبها تعلم الرياضي والمهندس الايطالي العظيم « ليونارفيوتشي » المولود حوالي سنة ٥٧١ هـ – ١١٧٥ م العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة وأدخلها الى اوروبا [١] .

ولقد عرف علماء الجزائر يومئذ منزلة الاختصاص في العلم فكانوا يجتهدون في التخصص في العلوم والتبريز فيها ، ولقد بلغ عدد المفتين في زمن واحد ببجاية تسعين مفتياً كما اشتهر فيها ابن النباش البجائي بالعلوم الفلسفية والطبيعية والحكمة والطب ، وكان يجيد المعالجة وتركيب الادوية .

واعجب من ذلك ! ان هناك من العوام واشباههم من كان يحفظ عن ظهر قلب امهات كتب الفقه والحديث كصحيح البخاري وموطأ مالك ومدونة سحنون وتلقين عبد الوهاب البغدادي ... فنشط العلماء لهذا التشجيع واقبال العامة عليهم فاكثروا من الكتابة في مختلف انواع العلوم والفنون [٢] وبفضل هذه الحركة العلمية والنشاط الادبي تقلص ظل

---

(١) ان اول من ادخل هذه الارقام العربية Les Chiffres arabes الى اوروبا هو البابا سيلفيسترا الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) تعلمها بجامع القرويين بفاس حيث تلقى معلوماته هناك .

(٢) يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : واذا رجعنا الى القرن التاسع والعاشر (اي هذا العصر الذي نؤرخه) يوم كانت المدنية الاسلامية زاهرة باهرة ، نرى ان المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد اوروبا كانت عبارة من مجموعة ابراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون ! ... وطال عهد الجهالة في اوروبا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل الى العلم الا في القرن الحادي عشر ، وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر م (السادس الهجري) .



منبر الجامع الكبير بالجزائر

اللغة البربرية الى الجبال والوهاد وانتشرت العربية في العوصم الجزائرية بين جميع طبقات الشعب [1] .

واذا نظرنا نحو الجزائر الفنية وجدناها كذلك غنية بجمال صناعاتها الفنية الرائعة وحسنها الرائق البهيج ، فلقد دلتنا النصوص التاريخية والآثار الحفرية على انتشار فن التصوير والتزويق والنحت والنقش على الجص الملون وعلى الخزف المطلي والزليج المزين بالصور والفسيفساء وصنع القوورات الزجاجية وشبهها من الاباريق البلارية وتطعيمها بالذهب وتزيينها بالخط العربي البارز الجميل ، ولا يخفى ما يتطلبه كل ذلك من الادوات والالآت المتقنة والمواد المختلفة والخيال الواسع والذوق المرهف ...

كان بالقلعة خاصة معامل لنسج الاكسية واللبابيد والسجاجيد المزخرفة ، والملابس الفاخرة ؛ فكانت عمامة الملك وحدها دون بقية لباسه تبلغ قيمتها الى ستمائة دينار فاذا وضعت على رأس صاحبها باتقان كانت كأنها تاج مذهب .

اجتهد حماد في تعمير القلعة واكثر فيها من انشاء المساجد والفنادق والاسواق ، فاستبحر بها العمران وارتحل اليها طلاب العلم وهواة الفن والتجارة من الثغور والبلاد القاصية ، واستوطنها ارباب الصنائع والحرف لنفاق اسواقهم بها ؛ فكانت الرحال تشد اليها من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب .

وفي بجاية من المصانع والمعامل كثير ، ففيها كان يصنع الاسطول وجميع المراكب البحرية ، وبها كان يصنع السلاح وعتاد الحرب واواني النحاس والذهب والفضة ...

وذكر صاحب (الاستبصار) مدينة بجاية فقال : وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون احسن منها بناء ولا

---

(١) راجع عنوان الدراية للغبريني ط الجزائر ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م .

انزل موضعاً ، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والابواب المخرمة المنحنية والمجالس المفرضة المبنية حيطانها بالرخام الابيض من اعلاها الى اسفلها قد نقشت أحسن نقش وانزلت بالذهب الأزورد وقد كتبت فيها الكتابات الحسنة وانزلت بالذهب وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من احسن القصور منزهاً وجمالاً [1] .

وكانت تقدر مساحة مدينة بجاية على هذا العهد : (١٥٠ هكتار) اي ١٥٠٠٠٠ متراً مربعاً ، وهي مجزأة الى ٢١ حياً ، مشتملة على ٧٣ مسجداً وبواجهة الجامع الاعظم سبعة عشر قوساً او رواقا ، وفيها من السكان ما يبلغ ١٥٠٠٠٠ نسمة ، وفيها من البناءات الضخمة والاستحكامات العجيبة والقصور المزخرفة والدور المرونقة ما جعلها قدوة لمنشآت النورمان بصقلية وغيرها .

وكان من بين القصور التي احتفظ لنا التاريخ باسمها وصفاتها : قصر اللؤلؤة ببجاية وهو الذي يقول فيه ابن خلدون : كان من اعجب قصور الدنيا ! ... بني حوالي سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م وموقعه كان بحذاء القشلة والمستشفى العسكري اليوم - على قمة البريجة - وقصر الحكومة بالقلعة ، وقصر النزهة الذي بناه يحيى بن العزيز بأعلى جبل عيوف بجيجل اقيم تجاه البحر والمدينة ، حطمه روجي الثاني النورماندي سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م وقصر المنار بالقلعة لا تزال تظهر منه بقايا اطلال وخرائب جدران سوره وقصر أميمون الذي بناه المنصور قريباً من ضريح سيدي التواتي ببجاية ، وقصر الكوكب بالقلعة حيث يوجد اليوم حصن « بارال » وقصر العروسين ، وقصر السلام بالقلعة وقصر الامراء وقصر بلارة زوجة الناصر ببجاية والرياض البديع غربي المدينة وهو الذي يقول في شأنه ابن خلدون « انه كان من آنق الرياض واحفلها » حطمه المرينيون سنة ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م والرياض الرفيع شرقي المدينة ، وكلها كانت آية في الفن والجمال يتألق حسنها ويتلألأ نورها ، فاسمع الى ابن حمديس كيف يصف لنا قصر المنصور ببجاية فيقول :

---

(١) الاستبصار ص ٢١ ط ليننا ١٨٥٢ م .

امير بقصر المُلكِ ناديك الذي   اضحى بمجدك بيتـه معمورا
قصرٌ لوَ انّكَ قد كحلْت بنوره   اعمى لعاد الى المقـــام بصيرا
واشتق من معنى الحيـاة نسيمه   فيكاد يحدث بالعظـــام نشورا
نسي « الصبيح » مع « المليح » بذكره   وسما ففـــاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه   مـــا كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الأُلى   رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا   لملوكهم شِبْهــاً له ونظيرا
أذكَرتَنا الفردوس حين اريتنا   غرفـاً رفعت بنـاءها وقصورا
فـالمحسنون تزيّدوا اعمـــالهم   ورجوا بذلك جنـــة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفّرت   حسنـــاتهم لذنوبهـم تكفيرا
فلـك مـن الافلاك الا انـه   حقـر البدور فـأطلعَ المنصورا
ابصرتُه فرأيت ابـــدع منظر   ثم انثنيت بنـــاظري محسورا
فظننت اني حـــالم في جنـة   لـمـــا رأيت المُلك فيه كبيرا
واذا الولائـد فتّحت ابوابـه   جعلتْ ترحب بالعفـــاة صريرا
عضّت عـــلى حلقاتهم ضراغمٌ   فغرت بهـــا افواهها تكسيرا
فكأنها لبَدت لتهصِر عندهــا   من لم يكن بدخولها مأمورا
تجري الخواطر مطلقاتٍ اعنـةً   فيه فتكبوا عن مداه قصورا
بمرخّم الساحات تحسب انــه   فُرشَ المها وتوشّح الكافورا
ومحصّبٍ بالدر تحسب تُربـــه   مسكاً تضوّع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى   صبحاً على غسق الظلام منيرا

ثم شرع في وصف بركة القصر :

وضراغمٍ سكنت عرين رئـاسة   تركت خرير المـاء فيه زئيرا
فكأنمـا غشّى النضار جسومهـا   وأذاب مـن أفواههـا البلورا
أسدٌ كأن سكونهـــا متحرك   في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكّرتْ فتكاتها فكأنمـا   أقعت عـــلى ادبارهـا لتثورا
وتخالُها والشمس تجلو لونهـــا   ناراً وألسُنَهـا اللواحسَ نورا

فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نـــار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمـــائه درعـــاً فقدر سردها تقديراً

وشرع في وصف الاشجار :

وبديعة الثمرات تعبر نحوهـــا عيناي بحرَ عجائب مسجورا
شجَرِيَّةٍ ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قـد صولجت أغصانها فكأنما قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لِوُقُعِ طيرها ان تستقل بنهضها وتطيرا
مـن كل واقعة ترى منقارها مـــاء كسلسال اللجين غزيرا
خُرسٌ تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موضع قطرها فـوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما جُعِلَتْ لها زُهر النجوم ثغورا

وهنا أخذ يصف القصر وأبوابه :

ومصفح الابواب تـبراً نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضـــار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت بـــه صناعه أقلامها فـأرتك كل طريدة تصويرا
وكـأنمـــا للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكـأنمـــا للازورد مخرّمٌ بالخط في ورق السماء سطورا
وكـأنمـــا وشّوا عليه مُلاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالكَ الارض الذي اضحى له ملكُ السماء على العُداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمّرتها وملكتَ كل رئاسة منهـــا ودمرت العدا تدميرا

وهذه مقطوعة من قصيدة له أخرى نونية تحتوي على اثنين وثلاثين بيتاً يصف فيها قصراً آخر من قصور المنصور بالناصرية — بجاية :

قصر يقصر وهو غير مقصر　　عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه مـــن درة شفافـة　　تمشي العيون بشدة اللمعان
لا يرتقي الراقي الى شرفاته　　الا بمعراج مـــن اللحظان
عرج بأرض « الناصرية » كي ترى　　شرف المكان وقدرة الامكان
في جنـــة غنـــاء فردوسية　　محفوفـــة بالروح والريحـــان
وتوقدت بالجمر مـــن نارنجها　　فكأنما خلقت مـــن النيران
وكأنهن كرات تـبر أحمر　　جعلت صوالجها مـــن القضبان

قال ابن خلدون : فاتخذ المنصور — بجاية هذه معقلاً وصيرها داراً لملكه وجدد قصورها وشيد جامعها ، وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء ، وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأنق في اختطاط المباني والمصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميمون [1] .

ولا تزال الحفريات والبحوث الاركيولوجية تجري مجراها بواسطة علماء الآثار في كل من مدينة القلعة وبجاية وآشير وهي تطلعنا في كل مرة على تحف فنية جميلة دالة على مبلغ الرقي الصناعي والفني الذي بلغته الجزائر في ذلك العصر الزاهر وما كان لها من التقدم في العلم والمدنية التي شاركت بها في سير ركب الحضارة بهذا المغرب العربي الكبير بل وفي اوروبا ايضاً ولاسيما ببلاد ايطاليا وجزرها وصقلية ومرسيليا ، وفي متاحف الجزائر وباريس نماذج من ذلك [2] . وربما كان من بقايا هذه الدولة اليوم : الجامع الكبير بمدينة قسنطينة المنقوش تاريخه بداخل محرابه هكذا : « سنة ثلاثين وأربعمائة » ، ومنبر الجامع الكبير بعاصمة الجزائر .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤ — ١٧٥ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ

(٢) راجع : — G. Marçais : Mannuel d'Art Musulman Ti P. 112 — 140 Paris 1926

وقد نقش عليه تاريخه بالخط الكوفي المشبك هكذا « سنة تسعين وأربعمائة » . وقرأها مفتي الجزائر الشيخ سعيد قدوره المتوفي سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦ م هكذا « سنة سبع واربع مائة » ؟

واغلب هذه القصور التي كانت في مناعة الحصون قضى عليها الاسبان ايام احتلالهم ببجاية كما قضوا قبلها على تراث المسلمين وبحدهم التالد بالاندلس ! ...

الحركة الاقتصادية

لا يفوتنا هنا ذكر سعة نطاق الحركة الاقتصادية بالجزائر ، فان طرق القوافل بين اقطار الشمال الافريقي وارض السودان كانت لا تخلو من السابلة غادية رائحة حاملة لانواع البضائع والسلع ، كما ان السفن كانت تجري بانهار قسنطينة وودبانها وفي حوض هذا البحر الابيض المتوسط للمواصلات والتجارة .

ويحدثنا الادريسي عن الحياة الاقتصادية بالجزائر في هذا العصر فيقول : ومدينة بجاية في وقتنا هذا (٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة والامتعة اليها براً وبحراً مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، واهلها مجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع لفلاحة انواع الاثمار والاشجار وغراسة القطن والكتان وبقية انواع المنتوجات الزراعية ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيراً والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي لان الخشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ، ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ؛ وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة كما هي كذلك بعنابة ؛ وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة [1] .

---

(١) نزهة المشتاق ص ٩٠ ط ليدن ١٨٦٤ م

ولقد عثر الاثريون من العلماء المعنيين بالحفر عن الآثار على بعض الاواني والقطع الخزفية المزخرفة الصينية الصنع وجدوها بالقلعة الحمادية ، وهذا ما يدل على سابق المعاملة في تبادل البضائع والاتصال التجاري الذي كان يجري بين الجزائر والاقطار النائية عنها كالصين . وهذه القطع موجود بعضها اليوم بمتحف « ستيفان غزال » بعاصمة الجزائر .

وكان لدول اوروبا البحرية معاهدات تجارية وقنصلية دقيقة مع بجاية ولهم بها مراكز وفنادق خاصة .

واذا ذكرنا بجاية فانما هي النسبة لكونها عاصمة المملكة يومئذ ، والا فان في القلعة وبونة وقسنطينة ووهران وتلمسان من الحركة الاقتصادية يومئذ ما يشابه الحياة في بجاية وان كانت هذه تفوقها ، فقد كان دخل مرسى الخرز — القالة — من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنوياً ، وكان مستخلص بونة عشرين الف دينار سنوياً وقس على ذلك ...

انهيار الدولة الحمادية

ان اهم الاسباب الاساسية في سقوط هذه الدولة وانتهاء ايامها هو ما لحق بها من داء الهرم وضعف العصبية القومية وتضعضع الدعائم والقوى في حروبها الداخلية وما تكبدته الحكومة من الخسائر الباهضة في الاموال والانفس ايام الحملة الهلالية ، وما كان عليه الامير يحيى بن العزيز ايضاً من الانحلال في الاخلاق والانهماك في الشهوات والاشتغال باللهو عن الملك وتواكله وسخريته برجال دولته فان مباشرة تسيير دفة الدولة كانت بيد الوزير ميمون بن حمدون الذي كان الملك كثيراً ما يقبح افعاله ويسخر منه ويستنقصه ، فكان يدعوه الشيخ الكذاب وهو مع ذلك عمدته في الادارة ! ...

امتعض الوزير ميمون يوماً مما الحقه به الملك من الخسف والهوان وابت له نفسه الابية الصبر على المذمة والاحتقار ، فخشي من ضياع نفوذه والذهاب بمجده وسمعته ، وقد راعه ايضاً ما رأى من تمالك النورمان

واحتكاكهم على المغرب الاسلامي ، فبادر الى مكاتبة خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي في شأن التملك على الجزائر ، فطار لها الخليفة فرحاً وبدت له بذلك فرصة طالما هفا اليها قلبه وارتقبها خاطره فخرج من مراكش متوجهاً نحو الجزائر سنة ٥٤٦ هـ — ١١٥١ م سالكاً في طريقه سبيل التضليل والتورية ، فاوهم الناس انه يريد الاندلس حتى نزل بغتة بجيله ورجاله بتخوم « سيوسيرات » المعروفة بفحص « سبق » وهي يومئذ حدود الجزائر الغربية ، وقد اخلاها الوزير ميمون من الجند والحامية فكانت الطريق الى الاستيلاء على مملكة بني حماد ممهدة معبدة .

اقتحم عبد المؤمن الحدود الجزائرية بدون عناء ولا مشقة حتى بلغ المدية واحتل الجزائر ففر عاملها القائد الى اخيه يحيى ملك بجاية ، واخذا معاً في الاستعداد لمقاومة غزاة الموحدين ، وما فتىء الملك الحادي يستعد للمقاومة حتى فاجأه عبد المؤمن بجيوشه على ابواب بجاية ، تاركاً مدينة الجزائر تحت امرة الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بالمهدية ، وذلك ما خشيه ملك بجاية من قبل ... وكانت هنالك فتنة وهرج ومناوشات حربية وقف فيها الوزير ميمون بجانب الموحدين فانتصر الموحدون من غير قتال كبير ، وفتح لهم ابو عبد الله بن الوزير المذكور ابواب مدينة بجاية فاحتلوها بعد يومين من الوقعة فكان دخولهم اليها في ذي القعدة ٥٤٧ هـ — فيفري ١١٥٣ م .

فخرج حينئذ يحيى بن العزيز من بجاية فركب البحر منهزماً الى بونة فنزل على عاملها اخيه الحارث بن العزيز ، فاغلظ له هذا القول وانكر عليه تسليم العاصمة الحمادية ، فاعرض عنه يحيى وعدل متوجها الى قسنطينة فنزل على اخيه ايضاً الحسن بن العزيز فاحتفى به وادناه ونزل له عن هذه الولاية اكراماً وتعظيماً له .

واستمر عبد المؤمن في سيره زاحفاً فاحتل القلعة في وقعة عظيمة ضد الاعراب قتل فيها نحو الثمانية عشر الف نسمة من اهلها ؛ وكان فيمن قتل بها يومئذ عاملها جوشن بن العزيز اخو الامير يحيى ؛ ثم كان بعدها

حصار قسنطينة وتضييق الخناق عليها حتى اضطر يحي الى النزول عن عرشه والاستسلام الى الموحدين وتقدم بنفسه الى الخليفة عبد المؤمن فبايعه مستأمناً على نفسه فأمنه واخذه معه الى المغرب الاقصى فانزله مع ابن عمه الحسن بن علي آخر ملوك صنهاجة بقصر بني عشرة في مدينة سلا. وقد حاز يحي عند الخليفة مقاماً رفيعاً ورتبة ملحوظة، وبقي هنالك محترم الجانب الى وفاته سنة ٥٥٨ هـ — ١١٦٣ م فدفن بمقابرها الجوفية — الجنوبية — مما يلي البحر. فكان هذا اخر العهد بملوك بني حماد.

واستمر الحارث بن العزيز اخو يحي على رأس ولاية بونة غير ملتفت الى سلطة الموحدين على الجزائر مستنصراً بجيش النورمان الى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ فسقطت هذه الولاية ايضاً بيد الموحدين وقتل الحارث صبراً وانتهت بذلك دولة بني حماد بالجزائر بعد ما اعمرت ١٤٢ سنة. وقد تيسر لها في هذه المدة اليسيرة من اسباب المدنية والحضارة والعلم ما لم يتيسر لغيرها من الدول في اكثر من هذا العدد من السنين. وتلك الايام نداولها بين الناس.

ولاة الجزائر وزعماؤها

تنقلت رآسة مملكة الجزائر الحادية بين مدن ثلاث: آشير ثم القلعة ثم بجاية، فبها كان مستقر ملوك هذه الدولة وأمرائها من بني حماد الصنهاجيين وكان لهؤلاء من العمال والولاة ما هو منبث في كامل اهم عواصم القطر الجزائري ومدنه المختلفة كبونة وقسنطينة وبسكرة والجزائر الخ...

فمن مشاهير رجال الحكم والوزارة في هذا العهد: خلف بن حيدرة وابو بكر بن ابي الفتوح؛ فسعت صنهاجة بخلف الى الناصر فقتله واستوزر مكانه احمد بن جعفر بن افلح، وكان عبد الكريم بن سليمان وزيراً للمنصور، وفي ايام يحي انحازت الوزارة الى بني ميمون بن حمدون، وكان اخوة الناصر وابناؤه ولاة على اعمال قسنطينة والجزائر؛ فمنهم اخوه بلباز بقسنطينة كما تولاها ايضاً الامير سبع بن العزيز اخ يحي؛

وكان عبد لله بن الناصر على الجزائر ومرسى الدجاج واخوه يوسف على آشير ، وكباب على مليانة وروماك على حمزة – نواحي قصر البخاري – كما تولاها ايضاً على عهد القائد بن حماد اخوه ويعلان ، وتولى خزر على نقاوس ، وكانت قيادة الجيش العامة على عهد حماد بن بلكين لعباد بن صادق وعبد الله بن سكر الصنهاجيين ، وكان على رأس قيادة الجيش المحاوب للعرب من رياح وزغبة سنة ٤٥٧ هـ – ١٠٦٥ م القاسم بن علناس أخ الناصر ، ورئاسة بسكرة والزاب لبني رمان ومنهم الذين افلحوا في حد الحملة الهلالية عن البلاد ، وقد ظل هؤلاء على ولايتهم لبني حماد الى نهاية دولتهم ؛ جعفر بن ابي رمان ، وقد حاول جعفر هذا ان يستبد بالامر فدفع بأهل بسكرة الى الثورة في وجه بلكين بن محمد فقمعهم ، وانكسر جعفر وحزبه وفتحت بسكرة عنوة وادخل جعفر ومن معه من المتآمرين ضد السلطة الحاكمة سجن القلعة حيث قتل هناك ثم ادال منهم الناصر ببني سندي (او هندي) ؟ وكان على ولاية المدية ايام الناصر ابو الفتوح بن حنوش من بني سنجاس ، وعلى ولاية شلف معنصر بن حماد وكلاهما قتل في ثورته على الناصر كما اسلفناه ، وكانت امرة بني توجين لمناد بن عبد الله ثم انتقلت الى آل عطية بن دقلتن بن ابي بكر المنقوشي .

وجاء يحيى بن وطاس الى الناصر موفداً من طرف اهل قسنطينة لاعلان طاعتهم فعقد الملك ليوسف بن خلوف الصنهاجي على هذه الولاية ، وعقد المنصور لابي يكنى بن محسن بن القائد بن حماد على ولاية قسنطينة واذن له في غزو عمه بلباز ، فتمكن ابو يكنى من هذه الولاية واعلن سلطته عليها سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٥ م وجعل اخاه ويغلان والياً على بونة ، ثم حدث ما اضطر ابا يكنى الى الفرار من ولايتها فتولى مكانه حليصل بن الاحمر من رجالات اثبج ، ثم كانت ولايتها للحسن بن العزيز اخ الامير يحيى .

وكانت قيادة الجيش العليا ايام يحيى بن العزيز الى الفقيه مطرف بن علي بن حمدون وطاهر بن كباب وهو الذي بعث به يحيى بن العزيز صاحب

بجاية لمناصرة تاشفين بن علي امير المرابطين في حروب تلمسان فاوقع به وبجيوشه الموحدون . ومن ولاة يحيي وعماله على الجزائر اخوته ، فالقائد كان على مدينة الجزائر والحسن على قسنطينة والحارث على بونة وجوشن على القلعة ، ومن رؤساء بجاية ومشيختها محمد بن نزال الريغي ، وكانت رئاسة صنهاجة في بني حسن ورئاسة مقرة في بني ابي والبل .

ولما احتل المستنصر الزناتي المسيلة واشير صالحه الناصر واقطعه ولاية نواحي الزاب وريغة ثم قتله غدراً .

وكانت رئاسة مغراوة في بني ورسيفان المغراويين ورئاسة زناتة الى جهة المشرق بوادي ميناس ومرات وما اليها من أسافل شلف لبني ومانو وكانت الرئاسة فيهم لبيت بني ماخوخ منهم واصهر المنصور بن الناصر الحادي الى ماخوخ في اخته فزوجها اياه فكان الهم بذلك مزيد ولاية في الدولة .

واما رئاسة ناحية العدوة الغربية من وادي شلف بالجعبات والبطحاء وسيدو وسرات وجبل هوارة وبني راشد فانها كانت لبني يلومي وهم قوم من زناتة ايضاً ، وكلتا القبيلتين : بني ومانو وبني يلومي كانتا من اوفر بطون زناتة واشدهم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الاوسط ـ الجزائر وكان من عمال بجاية على عهد باديس بن المنصور سهام ، فتكل به الامير ، وكان على مدينة الجزائر العزير فعزله باديس ونفاه الى جيجل ، وكانت امرة تلمسان ورئاستها في بني يعلي المغراوين .

اما تونس الحادية فانها كانت لكرامة عم الملك يحيي ، وبعد وفاته خلفه اخوه أبو الفتوح بن المنصور ، ثم بعده ابنه محمد فلم تحمد سيرته فعزل بعمه معد ابن المنصور ، كما تولى هذه الولاية للحماديين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان .

ملوك الدولة الحمادية

	تاريخ التولية
حماد بن بلكين بن زيري	٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م
القائد بن حماد	٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م
محسن بن القائد	٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م
الناصر بن علناس	٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م
المنصور بن الناصر	٤٨١ هـ = ١٠٨٩ م
باديس بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م
العزيز بالله بن المنصور	٤٩٨ هـ = ١١٠٥ م
يحيى بن العزيز بالله	٥١٥ هـ = ١١٢١ م

من مشاهير الجزائر

أبو القاسم يوسف البسكري

٤٠٣ ـ ٤٦٥ هـ = ١٠١٢ ـ ١٠٧٢ م

هو العلامة الامام الرحالة المقرىء الشيخ أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل الهذلي المغربي البسكري ، ولد سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ؛ أخذ العلم عن مشيخة بلده ثم ارتحل للطلب مستزيداً من العلم سنة خمس وعشرين فطوف بلاد الشرق والغرب فقرأ على المشائخ بأصبهان ، منهم الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني وغيره ودخل بغداد فقرأ بها على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي وورد نيسبور سنة ثمان وخمسين فحضر دروس أبي القاسم القشيري في الاصول وأبي بكر بن منصور وغيرهما .

انصرف الشيخ الى التضلع والاختصاص في علوم اللغة والقراءات فخاض عبابها وتعمق في استخراج اسرارها ودقائقها وأكثر من الرحلة فيها حتى قال عنه امام القراء ابن الجزري : فلا أعلم أحداً في هذه الامة رحل في القراءات رحلته ، ولا لقي من لقي من الشيوخ ، قال الامير بن ماكولا : كان أبو القاسم البسكري يدرس علم النحو ويفهم الكلام ، وكان مقدماً في علوم اللغة وعلل القراءات وله ترجيحات واختيارات وآراء فيها خاصة ، وكان الامام القشيري يراجعه في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه .

ذاع ذكر الشيخ على الافواه وقرع صيته الاسماع فاستدعاه الوزير نظام الملك سنة ثمان وخمسين وأربعمائة الى الاقراء بمدرسة نيسابور وقرره استاذاً فيها ، فمكث فيها الشيخ ناشراً علمه بها الى وفاته سنة خمس وستين وأربعمائة وقد عمي في آخر عمره رحمه الله .

وله من التآليف «كتاب الكامل في القراءات» الذي جاء فيها قوله :

فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخاً من آخر المغرب الى باب فرغانة يميناً وشمالاً جبلا وبحراً ، ولو علمت احداً تقدم علي في هذه الطريقة في جميع بلاد الاسلام لقصدته : الى ان قال : والفت هذا الكتاب فجعلته جامعاً للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتي كالوجيز والهادي ، وعلق ابن الجزري على هذا الكلام بقوله : كذا ترى همم السادات في الطلب !

أبو محمد عبد الله الاشيري

٥٦١ هـ ـ ١١٦٥ م

الامام المحدث الفقيه الاديب الشيخ ابو محمد عبدالله بن محمد الاشيري نسبة الى بلدة «آشير» بالجنوب الشرقي من مدينة البراوقية في سفح جبل تيطري من عمالة الجزائر .

كان رحمه الله امام اهل عصره في الفقه والحديث والادب ، انتقل الى الشام فسكن حلب الشهباء ففاق بها جميع علمائها كما قال ياقوت : امام اهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة وبالشام عامة ؛ يتسابق الناس الى الاخذ عنه والتشرف بالانتساب اليه ، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وآرائه .

استدعاه الوزير ابو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد الى بغداد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي لاقراء الحديث وتدريس علومه بدار السلام ـ بغداد ـ فسيره الملك اليه محفوفاً بالاجلال والاكرام : فاقرأ هنالك كتاب «الافصاح عن شرح معاني الصحاح» بحضر الوزير مؤلف الكتاب نفسه ، وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتاباً شرح بها الوزير احاديث الصحيحين .

وقد جرت للشيخ مع الوزير منافرة فتقاطعا ثم ندم الوزير على موقفه هذا تجاه الشيخ فاعتذر اليه واغدق عليه بره واحسانه ، ثم سار الشيخ

من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات رحمه الله ببقاع بعلبك سنة ٥٦١ ﻫ – ١١٦٥ م .

ابن الرمامة

٤٧٨ _ ٥٦٧ ﻫ = ١٠٨٥ _ ١١٧١ م

العلامة النظار والحكيم والفيلسوف الفقيه ابو عبد الله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة ، ولد بعاصمة الجزائر الحمادية « قلعة بني حماد » في رجب سنة ٤٧٨ ﻫ – ١٠٨٥ م روى عن ابي الفضل بن النحوي بالقلعة وتفقه به ، وعن ابي محمد المقري ببجاية ، وابي اسحاق ابراهيم بن حماد ، وعن خاله ابي الحسن علي بن طاهر بن مخشوة بمدينة الجزائر .

ارتحل الى الاندلس تاجراً وطالباً للعلم فلقي بقرطبة الفيلسوف الحكيم القاضي ابا الوليد ابن رشد وابا محمد بن عتاب وابا بحر الاسدي ؛ وابا الوليد بن طريف فاخذ عنهم ، ثم انتقل الى المغرب فنزل مدينة فاس وتولى بها خطة القضاء سنة ٥٣٦ ﻫ – ١١٤٢ م وعكف هنالك على الدرس والنظر في الاحكام فاخذ الناس عنه ، وكان يميل الى مذهب الشافعية .

له من التآليف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب وكتاب التقصي عن فوائد التقصي وكتاب التبيين في شرح التلقين الخ وبذل همته ووسعه في تحقيق كتاب البسيط للغزالي وتحرير نكته ومباحثه .

ومن اشهر من روى عنه واخذ عنه كتبه الحافظ ابو ذر الخشني وابو الحسن بن المفضل وابو القاسم بن بقي وغيرهم ، وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس يوم الاثنين ١١ رجب سنة ٥٦٧ ﻫ – ١٠ مارس ١١٧٢ م .

كما اشتهر بالجزائر يومئذ العالم ابو زكريا يحيى بن علي – بكر – الوارقلي صاحب كتاب « تاريخ أئمة الاباضية » . المتوفي رحمه الله سنة ٤٧١ ﻫ – ١٠٧٨ م . ولعل كتابه هذا هو المشهور بكتاب السير وهو جزآن يوجد ببلاد مصاب بجنوب الجزائر وبجبل نفوسة من ارض طرابلس الغرب .

جدول تاريخي

٤٠٥ ـ ٥٤٧ هـ = ١٠١٤ ـ ١١٥٣ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وابرز الاحداث
٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م	تأسيس المملكة الحمادية .
٤١١ هـ = ١٠٢٠ م	اشتداد القحط وكثرة الفناء في الناس من تاهرت الى سجلماسة .
٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م	خراب بونة على يد الجنويز .
٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م	انهزام حمامة بن زيري المغراوي عن الجزائر .
٤٣٢ هـ = ١٠٤١ م	تلاعب القائد بالدعوة الشيعية .
٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م	تشعب آل حماد وانشقاقهم على أنفسهم واغتيال الملك محسن .
٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م	نكبة ولاة بسكرة من آل رومان على يد بلكين بن محمد .
٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م	اغتيال بلكين وولاية الناصر بن علناس ؛ والاستيلاء على فاس ، وولاية آل عروس بن سندي على بسكرة .
٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م	وقعة سبيبة والزحف الهلالي على الجزائر .
٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ م	خيبة المنتصر الزناتي في هجومه على الجزائر وقتله ، وفيها كان تأسيس مدينة بجاية وثورة أهالي المهدية وشلف وفتح الاربس والقيروان .

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م	تزوج الناصر ببلارة بنت تميم ملك المهدية .
٤٧٥ هـ = ١٠٨٢ م	فتح المرابطين لاعمال تلمسان ووهران واحواز مدينة الجزائر .
٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م	وفاة الناصر بن علناس وولاية ولده المنصور .
٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م	انتقال عرش المنصور من قلعة بني حماد الى بجاية .
٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م	اقطاع مدينة دلس لمعز الدولة بن صمادح الاندلسي .
٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م	ثورة أبي يكنى بقسنطينة وقتله وسقوط آشير بيد المرابطين .
٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م	فتك المنصور بالمرابطين وعقد الهدنة بين المملكتين .
٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م	وفاة المنصور وولاية ولديه باديس ثم العزيز .
٥١٢ هـ = ١١١٨ م	خيبة الاعراب في اغارتهم على القلعة .
٥١٤ هـ = ١١٢٠ م	اذعان تونس للسلطة الحمادية واحتلال جربة .
٥١٥ هـ = ١١٢١ م	وفاة العزيز وولاية ولده يحيى .
٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م	حصار المهدية واحتلال تونس .
٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م	وقعة زويلة وحصار المهدية (مرة ثانية) .
٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م	اعتداء النورمان على جيجل واستيلاؤهم عليها .
٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م	سك النقود الحمادية ببجاية والتجاء امير المهدية الحسن بن علي الى الجزائر بعد سقوط مملكته بيد النورمان .
٥٤٧ هـ = ١١٥٣ م	نهاية دولة بني حماد .
٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م	وفاة يحيى بن العزيز آخر ملوك الدولة الحمادية .

الدولة المرابطية

٤٧٢ ـ ٥٣٩ هـ

١٠٧٩ ـ ١١٤٥ م

الرباط والمرابطة

الرباط لغة يطلق على الخمس الخيل فما فوقها وعلى المواضبة على الامر ، والمرابطة ملازمة ثغر العدو ، واصلحه ان يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . قال السهروردي في كتابه عوارف المعارف : « واصل الرباط ما تربط به الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع اهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد والمرابط يدفع عمن وراءه » .

ثم استعير الرباط الى مسكن العباد واهل الطرق الصوفية وقيل لمن يقيم بمثل هذه الربط المعدة للعبادة والطاعات مرابط لملازمة الرباط وانقطاعه فيه للعبادة وخدمة الدين فهو في ذلك المكان قائم بطاعة الله حابس نفسه عن مخالطة الناس يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد فاستحق اسم المرابط (١) .

وان كل من درس تاريخ المغرب الاسلامي في هذا العصر يعلم انه كان معرضا للغارات البحرية المفاجئة من القسطنطينية او صقلية وجنوبي ايطاليا وسردانية ، فاعتبره المسلمون لذلك ثغرا يعد الرباط فيه جهادا في سبيل الله

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٢٧ ط بولاق ١٢٧٠ هـ .

وقربة اليه ، فانشئت لذلك الرباطات والحصون بسواحل افريقية لحراسة المسلمين والتعبد لله رب العالمين ، ولقد نظم المقيمون فيها امور انفسهم تنظيماً حسناً مكنهم من القيام بواجباتهم كلها على وجه حسن ، واصبح الرباط مع الزمن نظاماً عسكرياً دينياً تحددت اصوله وقواعده شيئاً فشيئاً. وعلى هذا الاساس انشئت الرباطات والمحارس بكامل ساحل المغرب مثل رباط المنستير وسوسة وصفاقس وبنزرت وبونة وشرشال ومرسى مغيلة وارزاو ونكور ورباط الفتح الخ ...

ولقد بلغ من حماس اهل المغرب للرباط ان اصبح ذوو الحمية من اهل قبائل الصحراء يقبلون الى ساحل البحر للرباط وحراسة المسلمين ، ثم عمت هذه الحركة شيئاً فشيئاً حتى شملت روح الرباط قبائل بامرها واخذ المتشوفون للجهاد من اهل قبائل الصحراء يرابطون على احواز الصحراء لحماية ما يليهم من بلاد الاسلام من اخطار من يليهم من الجنوب ، وقامت « الربط » على حدود بلاد السودان ، وصارت هذه « الربط » الصحراوية مراكز للغزو والتوسع ونشر الاسلام في السودان وبلاد افريقية الغربية ، وما زالت هذه الحركة تقوى وتشتد حتى قامت على اساسها دول ؛ اولها دولة المرابطين هذه ثم تلاها الموحدون والحفصيون كذلك والمرينيون [1] ...

وعلى ضوء ما قدمنا نستطيع ان نفهم وضعية الخوانق والزوايا الصوفية المنتشرة في مجاهل اطراف الشمال الافريقي وتخومه ، وما كان لهذه الزوايا او - الربط - من الاثر الجليل في خدمة الاسلام واهله خدمة سياسية واجتماعية ودينية ايضاً . ولا تزال بقايا اثار الاربطة القديمة التي انشئت منذ اواخر القرن الثاني للهجرة منتشرة على طول الساحل الشمالي الجزائري من مرسى القالة على الحدود التونسية شرقاً الى مرسى الغزوات على الحدود المغربية غرباً ، ومن اشهرها بالخط البحري رباط بونه او عنابة وبه ضريح أبي مروان البوني شارح موطأ مالك ثم رباط رجال الحراء قرب عنابة ايضاً ويعرف عند الفرنسيين باسم « كاب دي قارد Coqs de garde » ورباط بجاية

(١) انظر رياض النفوس ج ١ ص ٢٥ .

الخ ... كما توجد صفوف جبلية في الجبال وصفوف صحراوية في الصحاري مما جعل الجزائر رقعة شطرنج من الأربطة [1]. وبالجملة فان الدور الرئيسي الذي قام به اهل المغرب في التاريخ العام للاسلام هو دور رباط وحماية لجناحه الغربي كله .

نشأة الدولة

تنتمي هذه الدولة الى قبيلة لمتونة احدى فصائل القبيلة البربرية الكبرى صنهاجة . واشتهرت باسم دولة الملثمين ايضاً لاتخاذ قومها الخطام شعاراً تمتاز به ما بين مختلف الامم والقبائل البربرية المنتشرة بكامل هذا الشمال الافريقي ، وهم يتلثمون بعمائمهم وفي سبب اتخاذ ذلك اللثام خلاف بين المؤرخين [2] .

كان مستقر هذه القبيلة باعماق الصحراء فيما بين بلاد البربر والسودان - السينيغال - وكان دينها المجوسية الى ما بعد فتح الاندلس فاسلمت طوائف منها وبقي الآخرون الى ما بعد المائة الثالثة ، ثم ظهر فيهم عبدالله بن ياسين الجزولي الذي جاء به الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي من سجلماسة فصار يعلمهم الدين الاسلامي ، واسس رباطه بوادي النيجير - السينيغال - فلازمه منهم جماعة عرفوا فيما بعد باسم المرابطين وهم الذين كان على يدهم تأسيس هذه الدولة سنة ٤٣٤ هـ - ١٠٤٢ م ، ففتحوا بلاد الصحراء والمغرب الاقصى وانتصروا على بلاد الاندلس ، وكان استفحال ملكهم على عهد الامير يوسف بن تاشفين عاهل لمتونة ورافع عماد الدولة المرابطية ، قال ابن خلدون : « وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقاً بالمغرب من كلمة الاسلام وتمسكوا بالسنة » .

---

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ٧٤ ط القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩١ والحلل الموشية ص ٨ وتحفة الزائر ج ١ ص ٤٠

نظامها الحكومي

نشأت هذه الدولة في اول امرها سائرة سير الاقوام المتغلبة قهراً وقسراً الى ان نشأ فيها الامير يحيى بن ابراهيم الكدالي فأخذ قومه بتعاليم الاسلام ومبادئه فنشرها بينهم بواسطة عبد الله بن ياسين فتطور يومئذ دستور الدولة واصبح يسير على مقتضى الكتاب والسنة .

وجاء يوسف بن تاشفين ٤٦٥ هـ - ١٠٧٣ م فتشدد في التمسك باهداب الاسلام مستمداً من الخليفة العباسي سلطته الروحية ، فقلده المقتدي ولاية المغرب والاندلس وكتب له تفويضاً لقبه فيه بناصر الدين وبعث اليه بالخلع والاعلام ، وكثيراً ما خرجت السفارات من المغرب الى المشرق حاملة الهدايا النفيسة الى امراء المؤمنين ، وكانت المراسلة بينهما مستمرة وتسمى يوسف يومئذ بامير المسلمين تأدباً مع الخليفة امير المؤمنين العباسي ، ثم جرى على هذا اللقب كل من تولى امر هذه الدولة الى انقراضها .

وما تسامح العباسيون مع هذه الدولة كل هذا التسامح واطاعوها في رغبتها هذه الا عن قصد ايجاد منافس بجانب الخلافتين القائمتين بالمغرب يومئذ : خلافة بني عبيد الفاطمية ، وبني امية في الاندلس فجعل الخليفة من دولة المرابطين هذه مزاحماً لها يضعف من شأنها بالمغرب .

ذاع صيت سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين في انحاء العالم الاسلامي كله فخطب له على اكثر من الفي منبر وقد اجمع المؤرخون على عدالة هذه الدولة وقيامها بحقوق الرعية والرعوية كما يوجبه الاسلام ويقتضيه فقه الامام مالك ؛ فقد كان الامراء لا يقطعون امراً دون مشورة الفقهاء فيه ؛ وكثيراً ما كان الامير يباشر بنفسه ماجريات الاحوال والمسائل العامة ؛ ولم يجر في عمل المرابطين طيلة ايامهم رسم مكس ولا ضريبة مغرم لا في الحضر ولا في البادية ؛ وانما هي اموال الزكاة والعشر والجزية والخراج واخماس المغانم ؛ وذكروا اسم الخليفة العباسي على نقودهم كرمز لطاعته .

وبلغ عدد جيش المرابطين في اوائل امرهم الى مائة الف جندي ، وهذا من غير المتطوعة من اعيان القبائل وزعمائهم الخاضعين لهذه الدولة ، وفي سنة ٤٦٤ ه — ١٠٧١ م ادخل في نظام الجندية نحو الالفي فارس من عبيد السودان ثم اضيف اليهم نحو مائتين وخمسين من علوج الاندلس ، واتخذ علي بن يوسف بن تاشفين بالمغرب جيشاً من الروم في اوائل القرن السادس الهجري الحقه بجيوش المسلمين وجعله لا يحضر في الجهاد خشية تمالؤه مع العدو ، فكان يستعين به في قتال المنشقين عن الطاعة والمتخلفين عن الدولة فقط ، ثم كانت هذه سنة متبعة قلده فيها جميع ملوك المغرب ودوله فيما بعد ، وذلك ما يشبه الفرقة الاجنبية اليوم في الجيش الفرنسي ، ولقد تعورف هذا النظام العسكري من قبل في الامم السالفة ايضاً ، فقديماً جند حنبعل قوماً من الغاليين — سكان فرانسا — ، والسويسريون انفسهم كانوا يمثلون اقدر الفرق التي ترتزق بسيوفها في ربوع اوروبا وتحارب تحت اعلام مختلف ملوكها وامرائها .

وكان مما اثبته التاريخ لهذه الدولة وسجله بمداد الفخر في ميدان الجندية انه لم يحفظ لجند المرابطين فرار من زحف قط ؛ وكان قتالهم رجالة صفوفا ، بايدي الصف الاول القنا الطوال ويحمل الصف الثاني معه المزارق ، يتقدمهم رجل يحمل بيديه الراية السوداء فلا ينفكون عن الحرب والقتال ما قامت الراية فاذا ما امالها صاحبها الى الارض جلسوا ؛ واما الاسطول فانه بلغ الى مائة قطعة حربية كانت تجول على الدوام في طول هذا البحر الابيض وعرضه مترددة على جزائر الخالدات « كناري » وكانت قيادته لبني ميمون رؤساء جزيرة قادس .

الحدود الجزائرية

يمتد ملك المرابطين من تخوم المغرب الاقصى فيتخطى حدود ملوية الى أسوار مدينة الجزائر ، فكان غرب القطر الجزائري تقريباً كله تحت نفوذ المرابطين ، غير ان ايامهم لم تطل بهذا الوطن فلم تكن سوى ٦٧ سنة .

الاستيلاء على الجزائر

كنا ألمعنا فيا تقدم الى ما كان بين دولة المرابطين وبني حماد ملوك القلعة وبجاية من التنافس والتزاحم على زعامة المغرب الاوسط وبسط نفوذهم عليه ، وكانت هنالك مهاجمات ومناوشات بين الحكومتين في كلا الطرفين : الجزائر والمغرب الاقصى كما مر تفصيله .

وفي سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩ م تحرك جيش المرابطين من مراكش بقيادة مزدلي بن بكلان اللمتوني وجاء غازياً للجزائر في نحو عشرين الف مقاتل فحل باحواز تلمسان فقاتلهم عنها عاملها يومئذ الامير العباس بن يحي من بني خزر المغراويين الى ان سقط ميتاً في الميدان ؛ فانطلق جند ابن تاشفين يعبث بتلك النواحي ثم عاد الى مصدره .

ثم في السنة الثالثة بعدها خرج الامير يوسف بن تاشفين بنفسه فغزا مملكة الجزائر وافتتح منها عدة أماكن واستولى فيها على تلمسان وقضى على من كان فيها من أمراء بني خزر - او يفرن - واختط بها محلته المشهورة « تاكرارت » تلمسان اليوم التي اتخذها مأوى له ولاشياعه ومعسكراً لجيشه ، ومنها توجه الى وهران وتنس وجبال وانشريس وأعمال شلف فقضى على ممالك زناتة ومحا آثار مغراوة من جميع المغرب الاوسط ، ودخل متبجة موغلاً في سهولها الى أسوار مدينة الجزائر ، فردته عنها حصونها ؛ فانكفأ وارتد الى عاصمته مراكش فدخلها في ربيع الثاني سنة ٤٧٥ هـ - سبتمبر ١٠٨٢ م وأصبحت أعمال الجزائر الغربية كلها بيد المرابطين .

المذاهب والعقائد

ان أهم ما ارتكزت عليه هذه الدولة في نشأتها السياسية ونهضتها القومية هو الدين ، فباسم الدين رسخت قواعدها في الملك وتمكنت جذورها من الارض ، وذلك بفضل عبدالله بن ياسين ، وعبدالله هذا مالكي المذهب ، فكانت جميع أعماله وأقواله تجري على مقتضى قواعد

الفقه المالكي الا ما شذ فيه من بعض فتاويه وتشديداته ؛ وقلده في ذلك المرابطون حكومة وشعباً ؛ وبعدما التحق المرابطون بالاندلس وجدوا هنالك مذهب مالك منتشراً بها أيضاً فتغلغلت المالكية حينئذ في الامة وأصبحت الحكومة لا تقضي أمراً الا على وفق هذا المذهب ، فحاز فقهاء المالكية بذلك تقدماً عظيماً ومنزلة رفيعة عند الامراء وغيرهم من اتباع هذه الدولة ، ونبذ الناس يومئذ النظر فيما سوى ذلك من المذاهب والاصول وبالغت الدولة في التمسك بهذا المظهر حتى كاد ان ينسى النظر في كتاب الله وسنة رسوله !... ولم يكن لاهل المذاهب الاخرى مظهر بالجزائر الا في بنطيوس من قرى بسكرة ، فانه كان بها مسجد واحد للاباضية ، وكان أهل قرية تهودة – سيدي عقبة – على مذهب أهل العراق. وقد جاء به يومئذ الى المغرب القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في اوبتهما من رحلتهما الى المشرق. وتحدث ابن خلدون عن مباحث الحنيفة في الفقه وعن مناظراتهم مع الشافعية فقال: وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاؤوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما[1].

ودان أهل ذلك الزمن بتكفير كل من ظهر عليه الخوض في شيء من علم الكلام ، وقرر الفقهاء بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين تقبيح الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيهما وكراهية السلف لهما ؛ وهجروا كل من ظهر عليه شيء من ذلك بدعوى انه بدعة وقالوا بأن الاكثار منه يؤدي الى اختلال في العقائد ووهن في الايمان وحملوا الامير علياً على نشر أوامره في البلاد بذلك وكتابته في كل وقت الى الولاة والعمال بالتشديد والتوعد لكل من يشتغل بهذا العلم أو يوجد عنده من كتبه شيء منها ، واحرقت في ذلك كتب الغزالي وهدد من وجدت عنده بسفك دمه ومصادرة أمواله... ولم يرتفع هذا الكابوس الا في عهد الموحدين فكان الامر على نقيض ذلك كله كما سنقصه عليك.

(١) المقدمة ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤ ه.

اشتد تعلق امراء هذه الدولة بعلماء الدين حتى كان بلاطهم لا يخلو من عالم او فقيه او اديب ، وكان من شغف يوسف بن تاشفين باهل العلم والفضل ان زوج ابنته بالعلامة الفيلسوف الكبير ابن باجة الاندلسي ، وفي ايامه كثر بالمغرب ذوو القرائح وارباب الحرف والصناعات والمهندسون ، وقد بلغ ذلك الغزالي فرغب في المجيء الى بلاط ابن تاشفين ، وصح منه العزم فانتقل الى الاسكندرية متوجهاً الى المغرب وبينما هو آخذ في الاستعداد للسفر اذ بلغه نعي امير المسلمين يوسف بن تاشفين فاحجم ، وكان ممن اشتهر في الجزائر يومئذ من اهل الثقافة العالية ابو عبد محمد بن سحنون الطبيب الندرومي الكومي ، نسبة الى كومية باحواز تلمسان ، والاديب الكاتب البليغ محمد بن محرز الوهراني ؛ واكثر الناس يومئذ من اشتغالهم بالتفاريع الفقهية المالكية فنفقت في ذلك الزمن سوق كتب هذا الشأن .

ولقلة مكث المرابطين بالجزائر لم يكن لهم فيها كبير أثر في فن المعمار ؛ اللهم الا ما كان من محلة تلمسان – تاجرارات – والمسجد الجامع بتلمسان انشأه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في جمادي الثانية سنة ٥٣٠ هـ – ابفريل ١١٣٦ م حسبما دل عليه ذلك النقش المزبور بقبة الجامع التي فوق المحراب ويعزى تأسيسه في أول مرة الى موسى بن نصير اقامه على الحدود بين المغربين : الاوسط والاقصى ، وهو كما يذكر صاحب كتاب الأدب المغربي (ج ١ ص ٧٢ ط بيروت ١٩٦٠ م) : يضاهي جامع القيروان ، قال : واستمر هذا المعهد يقوم بعمله الثقافي كمركز من مراكز الثقافة العربية الاسلامية في المغرب خلال القرون المتعاقبة كما انه كان عاصمة من عواصم العلم المالكي الى جانب جامع طبنة وقسنطينة وبونة ووهران وتاهرت والجزائر وكذلك القول في تأسيس الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، ومسجد الجزائر بناه على شكله وهندسة بنائه الكثير الشبه بجامع تلمسان ، وهناك من يزعم ان

تاريخ جامع الجزائر هو ما جاء منقوشاً على منبره اي سنة سبع او تسعين واربعمائة . وجامع ندرومة او ما كان من ابتداء تخطيط مدينة مستغانم حيث ابتنى فيها يوسف مركزه الحصين المشهور بمشتى غانم ؛ وهو المدعو ببرج الاكحال المنشأة حوله مدينة مستغانم ؛ كما ان مدينة هنين - مرسي تلمسان - هي من منشآت هذا العصر ؛ ولا ندري أكان ذلك على يد المرابطين ام غيرهم ؟ ... وقد ذكرها البكري والادريسي وقالا انها كانت مزدهرة الحضارة وفيها اسواق ودكاكين ذات تجارة ناشطة ؛ ومن غير بلاد الجزائر كانت للمرابطين آثار ضخمة بالمغرب الاقصى هي آية في فن المعمار لا يزال بعضها هنالك ماثلاً للعيان الى الآن ؛ وفي ايامهم ظهرت صناعة الكاغد بالمغرب .

انهيار الجزائر المرابطية

استمر غرب القطر الجزائري تحت طاعة المرابطين الى ان نشأت بجانبهم دولة الموحدين بأقصى بلاد السوس ، وبثت دعوتها على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصادف ان كان أمر المرابطين في تدهور وانحطاط بسبب ما كان قد حدث بعد موت علي بن يوسف من الفتنة بين لمتونة قبيل الامير - ومسوفة وانضمام هذه الى دولة الموحدين مع ما كانت عليه الحكومة من اختلال في شؤون الادارة وسوء سلوك الولاة وتفريطهم في ضبط امور المملكة واخلادهم الى الدعة والراحة ، فادبر الناس عنهم يوم ان احكم الموحدون خطتهم الهجومية على الجزائر بعد ما احتلوا نواحي كثيرة من اقصى المغرب فنزلوا باعلى الجبل المطل على تلمسان المعروف باسم كهف الضحاك بين الصخرين من جبل تيطري ووصلت يومئذ كتائب بني حماد برسم الامداد والاعانة فهزمهم الموحدون بضاحية العباد .

ويومئذ كتب تاشفين بن علي الى الافاق يستدعي انصاره فجاءته السرايا من سجلماسة وبجاية والتحق به ابنه ابراهيم من الاندلس ومعه من جند الروم نحو اربعة آلاف فارس فاجتمعت هذه كلها بتلمسان ،

وامر تاشفين بعرض الجيوش وسائر الوفود فعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم في الزينة حتى زعموا انهم لم يروا مثل هذا الجند المحتشد حسناً وجمالاً وعدة وكمالاً ، واصطفت العساكر من باب القرمدين الى الجهة المتصلة باصل الجبل ؛ وكان ذلك آخر جيش احتفل به المرابطون [1] ورغم ذلك كله فانه لم يغن عنهم احتفالهم ولا عددهم امام جيش الموحدين شيئاً ، فسقط تاشفين بن علي ميتاً في الوقعة واحتلت تلمسان يوم ٢٩ رمضان سنة ٥٣٩ هـ – ٢٦ مارس ١١٤٥ م وانتهى يومئذ حكم المرابطين بالجزائر بعد ما قضوا بها ٦٧ سنة وانحصر ملكهم بالمغرب الاقصى الى ٥٤١ هـ – ١١٤٧ م حيث احتل الموحدون مراكش ايضاً بعد ما مكثوا نحو ثلاثين سنة في الحرب فانهار سلطانهم عن ملك المغرب وانقضت ايامهم به .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان فيمن تولى أعمال الجزائر على عهد المرابطين محمد بن تينعمر المسوفي ولاه يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة ٤٧٥ هـ – ١٠٨٢ م ولم يزل محمد المذكور في ولايته هذه الى ان هلك في حصار مدينة الجزائر فتولى بعده أخوه تاشفين بن تينعمر فخرج هو أيضاً لحصار الجزائر ففتحها بعد قتال عنيف ، وافتتح آشير وحطمها وكانت بينه وبين ملوك بني حماد فتنة أدت الى عزله عن منصبه سنة ٤٩٧ هـ – ١١٠٣ م فتولى بعده القائد مزدلي المستشهد في بلاد الروم سنة ٥٠٨ هـ – ١٠١٤ م ثم تركها أمير المرابطين الى محمد المدعو بالشبور فبقي بها الى ان سقطت بيد الموحدين . ومنهم محمد بن يحيي بن فانو المقتول يوم ان هجم الموحدون على تلمسان .

وفي ايام تغلب ابن غانية – من اشياع المرابطين – على الموحدين واستيلائه على بعض الثغور من القطر الجزائري ، اسندت ولاية تلمسان سنة ٥٨١ هـ – ١١٨٥ م الى يحيي بن أبي طلحة ، وعمل مليانة الى بدر بن عائشة .

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠٧ – ١٠٨ .

امراء المرابطين

	تاريخ التولية
يوسف بن تاشفين	٤٦٥ هـ = ١٠٧٣ م
علي بن يوسف	٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م
تاشفين بن علي	٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م

من مشاهير الجزائر

ابو عبد الملك مروان البوني

٤٣٩ هـ ــ ١٠٤٧ م

هو العلامة الفقيه المحدث الصالح ابو عبد الملك مروان بن علي الاسدي القطان البوني ــ نسبة الى بونة ، عنابة ــ احدى حواضر القطر الجزائري الشهيرة ؛ وهو خال ابي عمر القطان الفقيه .

سكن المترجم له مدينة قرطبة وفيها روى عن ابي محمد الاصيلي والقاضي ابي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيرهما وارتحل الى المشرق فاخذ هناك عن ابي الحسن القابسي ؛ ولازم ابا جعفر احمد بن نصير الداودي خمس سنوات فاخذ عنه معظم تآليفه وما عنده من علم رواية ودراية .

وتجرد المترجم له بعد ذلك الى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فكتب شرحه المختصر لموطأ الامام مالك ؛ وقد كان معول الناس يومئذ في دراسة الموطأ على هذا الشرح وتداول بينهم بكثرة وكان ممن اخذه عنه ابو عمر بن الحذاء ؛ وقال عنه انه كان رجلا صالحاً عفيفاً عاقلا حسن اللسان والبيان لقيته رحمه الله ببونة سنة ٤٠٥ وناولني كتابه في شرح الموطأ ثم خاطبته من طليطلة فوجه الي الديوان واجازه لي ثانية وكان قد زاد فيه بعد لقائي له .

وكان ممن حدث عنه ايضاً ابو القاسم بن محمد ؛ فقال لقيته بالقيروان وشهد معنا المجالس عند اهل العلم بها ، وكان رجلاً حافظاً ناقداً في الفقه والحديث ؛ وقرأت عليه بعض تفسيره للموطأ واجاز لي سائره وسائر ما رواه . قال ابو عمر توفي ببونة ؛ وذكره الحميدي فقال : كان فقيهاً محدثاً وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ : مات قبل الاربعين واربعمائة .

الحسن بن علي التيهرتي

٥٠١ هـ – ١١٠٨ م

هو العلامة اللغوي الامام النحوي الحسن بن علي بن طريف التيهرتي تخرج على أئمة علماء الاندلس وكبار اساتذتها في القرن الرابع الهجري ، وكان فيمن اخذ عنهم الحجاج بن المأمون وابن سعدون ومروان بن عبد الملك والقاضي بن سهل وابو محمد بن قحافة وابو تمام القطبي وغيرهم . وعنه اخذ علامة المغرب ابو الفضل القاضي عياض وذكره في فهرسته واثنى عليه فقال : شيخ بلدنا في النحو مشهور بالصلاح درس عمره النحو واخذ عنه جماعة اصحابنا وجماعة شيوخنا توفي رحمه الله تاسع ذي الحجة سنة احدى وخمسمائة (٨ جوليط ١١٠٨ م) .

يوسف الورجلاني

٥٠٠ – ٥٧٠ هـ

١١٠٦ – ١١٧٤ م

هو العلامة المتبحر ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني ، ولد بمدينة ورجلان – وارقلة – بالجنوب الجزائري حوالي سنة ٥٠٠ هـ – ١١٠٦ م اخذ

العلم ببلده ثم اوغل عنها الى الاندلس طالباً الاستزادة فدخل قرطبة حاضرة العلم يومئذ فكان هنالك بين المثقفين مثالاً للنبوغ النادر والادب الجم والاطلاع الواسع والعلم الغزير حتى كان الاندلسيون مع حداثة سنة يشبهونه بالجاحظ ، ثم عاد الى وطنه وجدد منه الرحلة ايضاً الى المشرق فدخل عواصمه العلمية اللامعة وتضلع فيها بجميع ما كان متعارفاً مشهوراً في وقته من العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ، واكثر من الرحلة في سبيل العلم فتوغل في اواسط افريقية حتى بلغ الى قريب من خط الاستواء قبل ما تبجح باكتشافه الاوروبيون بقرون ! ...

ذكر ذلك بنفسه في كتابه الجليل الجامع « الدليل لاهل العقول » وهو أحد كتبه الممتعة ، طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ – ١٨٨٨ م ، ولما عاد من رحلته لازم داره ببورفلة متكباً على الدرس والتأليف مكرساً حياته لخدمة العلم ونشر الثقافة الاسلامية ، فلم يخرج من داره مدة سبعة أعوام ؛ ولم يكن يرى فيها كما قال الشماخي الا ناسخاً ، وللاقلام بارياً ، وللدواة قاعلاً ، أو للحبر طابخاً ، أو للدواوين مقابلاً ، أو للكتب مفسراً ...

وللشيخ من التآليف تفسير القرآن يقع في سبعين جزءاً ، وصف البرادي جزءاً منه فقال : رأيت منه في بلاد ريغ سفراً كبيراً لم أرَ ولا رأيت قط سفراً أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر ، فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران ... فلم أرَ ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه الخ ... يقال انه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء واحد باحدى خزائن رومة عاصمة ايطاليا ، كما ان له في التاريخ كتاب يسمى « فتوح المغرب » يوجد بخزائن المانيا ؛ وله كتاب « العدل والانصاف » في اصول الفقه يقع في ثلاثة أجزاء ؛ والقصيدة الحجازية نظم فيها رحلته العلمية الى تلك الديار تقع في ٣٥٠ بيتاً جمع فيها

كثيراً من فنون العلم ، وكتاب « مروج الذهب » في الفلسفة ترجم الى أكثر لغات أوروبا نظراً لاهميته ؛ واشتهر له في خدمة كتب الحديث « ترتيب مسند الربيع بن حبيب » وما رأيت له من كتبه المطبوعة سوى كتاب الدليل الذي جمع فيه فنوناً من الحكمة والفلسفة والالهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير الخ ... فهو أشبه بصورة مصغرة لدائرة معارف اسلامية . وتوفي رحمه الله بمسقط رأسه « وارجلان » سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م .

ح

جدول تاريخي

٤٧٢ ـ ٥٣٩ هـ = ١٠٧٩ ـ ١١٤٥ م

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م	استيلاء المرابطين على غرب القطر الجزائري .
٤٧٥ هـ = ١٠٨٢ م	عودة يوسف بن تاشفين من الجزائر الى حاضرة مراكش .
٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م	وفاة يوسف بن تاشفين .
٥٠١ هـ = ١١٠٨ م	وفاة الحسن بن علي التيهرتي شيخ القاضي عياض .
٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م	نهاية حكم المرابطين بالجزائر (٢٩ رمضان ـ ٢٦ مارس) .
٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م	وفاة يوسف الورجلاني .

المحتويات

صفحة

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

الجزء الثاني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

يشتمل على بيان واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع أطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية مع تراجم العبقريين وارباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ اقدم العصور الى الآن

الجزء الثاني

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من اخبارهم طرف

المعري

مكتبة الشركة الجزائرية ـ الجزائر
مرازقة وبوداود وشركاهما

منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت

تاريخ الجزائر

طبعة ثانية جديدة

(منقحة ومزيدة)

١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة الحفصية

٦٢٧ – ٩٤٣ هـ
١٢٢٩ – ١٥٣٦ م

نشأتها :

لقد مر بنا في الجزء الاول ان دولة الموحدين استمرت قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الافريقي طيلة مدة قرن ونصف ؛ ولقد اكتسب المغرب الاسلامي يومئذ بوحدته هذه بأساً وقوة تمكن بها من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس وخضع له كل من دول ضفاف هـذا البحر الابيض المتوسط وأممه شرقاً وغرباً ، ولم يزل الموحدون في أوج عزهم وشاهق سلطانهم الى ان تصدع شملهم في « وقعة العقاب » بالأندلس ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ؛ فاضطرب يومئذ حبل الدولة وأذنت ايامها بالذهاب ، فخرج عنها ولاة النواحي وظهر العصيان من رؤساء العشائر فاستبدوا بالادارة ونما فيهم شعور بالقوة الفردية على حين ضعفت الدولة الحاكمة ، فتفككت حينئذ وحـدة الشمال الافريقي واشرقت فيه ثلاث امارات او قل هي ثلاث دول اسلامية مغربية متزاحمة على جذب طرف حبله متنازعة نشر نفوذها على هذا القطر والاستحواذ عليه ألا وهي : دولة بني حفص ، شرقـاً ، ودولة بني مرين ، غرباً ، ودولة بني زيان بالأوسط ؛ فكلها تحاول الاستقلال به وبسط نفوذها وسلطانها عليه؛ فتحاربت بينها طيلة نحو قرن كامل ولتكافؤ القوات – او ضعفها – لم يخلص بتمامـه الى أي دولة من هذه الدول الثلاث ، وأخيراً توزعته – مرغمة – فيا بينها ؛ فكان شرقيه لبني أبي حفص وغربيه لبني مرين وواسطة عقده

ـ الجزائر – لبني زيان من بني عبـــد الواد ؛ ووقعت الجزائر مراراً في قبضة الحفصيين وبني مرين ايضاً وامتد نفوذهم اليهـا ونشروا سلطانهم على نواح منها برهة من الدهر ، فمن هم هؤلاء الحفصيون ؟

ينتسب هؤلاء الحفصيون الى رجل هو من خاصة ابن تومرت وأحـــد مريديه العشرة السـابقـــين الى مبايعته ونصرته في غربته الذين قامت على كواهلهم اركان دولة الموحدين فأحكموا قواعدها وشيدوا اركانها ؛ ذلكم هو ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي – نسبة الى قبيـــلة هنتاته من المصامدة بالمغرب الاقصى – .

برهن ابو حفص هذا على كفاءته ومقدرته السياسية والادارية في جميع الاعمال والولايات التي تولاها لدولة الموحـــدين بالمغرب الاقصى والاندلس فاستحق عن جدارة ما تبوأه من المقام السامي والاصطفاء بهذه الدولة ، وظل بمكانه هذا الى وفاته سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) فتنقلت الولاية في عقبه الى ان تولى عرش الموحدين الخليفة محـــد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن فعقد على ولاية تونس لأبي محمد بن عبدالواحد بن ابي حفص يوم ١٠ شوال سنة ٦٠٣هـ (١٠ماي١٢٠٧ م). وكان ابو محمد هذا متزوجاً بعمة الخليفة، فاستمر في ولايته على تونس الى وفـــاته سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) فورثه في امارته هذه ولده عبـــدالرحمن مستبداً بها الى ان افضت امارتها الى ابي زكريا يحيى ابن الشيخ ابي محمد بن عبدالواحد بن أبي حفص سنة ٦٢٧ هـ(١٢٢٩ م) وكان ملكاً عادلاً عالماً عاملاً أديباً ، فأعلن استقلاله عن دولة الموحـــدين رافضاً لدعوتهم واستبد بأعمال تونس والقيروان ، وخضعت له الجزائر وبويع له بكثير من بلاد الاندلس واستصرخ به آخرون ؛ ثم تداول بعده بنوه ملك المغربين: الاوسط والادنى ؛ فهكذا كان مبدأ ظهور دولة الحفصيين وفي ذلك يقول ابن خلدون في فصله انقسام الدولة « ... وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها ، ثم لما استفحل امرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية

من أعقابهم الامير ابو زكرياء يحيى ابن السلطان ابي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم ، واستحدث ملكاً ببجاية وقسنطينة وما اليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ، ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم [1] .

نظامها الحكومي :

كان بحكم استقرار رؤساء هذه الدولة في حاضرة تونس ان اتخذ ملوكها هذه المدينة عاصمة لملكتهم المغربية ؛ وحكومتها مستقلة تماماً تحت رعاية ملكها المتلقب اولاً بالامير ثم بالخليفة استئثاراً بهذا اللقب عن ملوك دولة بني عبد المؤمن الموحدية ، ثم تواضع ملوك هذه الدولة امـــام قداسة لقب الخلافة فاتخذوا اسم « السلطان » [2] شارة لهم . وولاية الملك فيهم غالباً تكون بالعهد من السلطان السابق ، وتارة تكون بالغلبة والقهر ؛ وتمتاز صكوك الاوامر السلطانية وما يصدر عن اذن الملك من رسائل ومناشير بوضع «العلامة» في اعلا الكتاب بالقلم الغليظ بعد البسملة ، وهي « الحمد لله والشكر لله » ، كما قد توضع ايضاً في ختام بعض الرسوم ، ولكتابة هذه العلامة موظف خاص بالقصر وكان فيما تولاها من المشاهير عبد الرحمن ابن خلدون وقـــد تضاف الى « القهرمان » وهو صاحب اشغال السلطان والمكلف ايضاً بضبط الحسابات وحصر الذخيرة وتموين القصر وجميع ما يحتاج اليه السلطان في نفسه من رزق وعطاء الخ .... وتجتمع جميع مصالح الحكومة واعمالها الاداريـــة في ثلاث وزارات : الجيش ، القضاء ، المال ، والجيش عندهم مختلط من العرب والبربر وغيرهم وفيه من الافرنج ايضا ؛ وقد بلغ عدد الفرسان ايام ابي زكرياء الاول

---

(١) المقدمة ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) كان اول من تلقب من ملوك الاسلام بهذا اللقب هو السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ، لقبه به الخليفة العباسي القادر بالله ٣٨١ — ٤٢٢ هـ (٩٩١ - ١٠٣٠ م) كما ان اول من خوطب بلقب « الملك » في الاسلام هو عضد الدولة بن الحسن بن بويه (٣٦٧هـ — ٩٧٧م)
وقد اقامت هذه الاسرة دولة في العراق وما يليها شرقاً وخاصة في فارس وخوزستان وكرمان والجبل وعمان .

الى سبعين الف فارس ؛ ولم يكن اهتمام هذه الدولة بإنشاء الاساطيل وتجهيزها بالشكة والسلاح بأقل من اهتمام غيرها من الدول المعاصرة لها يومئذ ، وكان مركز الاسطول الحفصي بالجزائر ميناء بونة – عنابة – وبالساحل التونسي ايضا . واما ديوان الاموال فانه منوط بصاحب الاشغال ، ولصاحب هذه الخطة النظر في مالية الدولة من دخل وخرج وهو المسؤول عن استخلاص الاموال والمحاسبة باسم الحكومة وله التفويض التام والسيطرة المطلقة على جميع من دونه مرتبة من ولاة المراتب الادارية ، ويشترط فيه ان يكون من عصبة الموحدين الاولين ، ولقد بلغت ثروة خزينة الحكومة ايام ابي زكرياء يحيى الاول نحو التسعة عشر مليون دينار [1] وهو ما يقدر بما ينيف على اربعة وثلاثين مليار فرنك ، وليس هذا المبلغ بالهين اذا قيس بضيق المملكة وبما كانت عليه خزائن الدول المعاصرة يومئذ؛واغلب موارد الخزينة الحفصية من الزكاة والخراج والجبايات ؛ واكثر عملة الدولة ونقودها مضروبة بالمدن الجزائرية كبجاية وقسطينة والجزائر وتنس ؛ وهي متنوعة الى ذهب وفضة، والى فلوس نحاسية احدثها السلطان ابو زكرياء الاول وكان لا يحصل على رآسة القلم في الدولة الا من يحسن الانشاء العربي ويجيد صناعة الكتابة والترسيل مع شرط الامانة وكتمان الاسرار ، ولم يشترطوا النسب في صاحب هذه الخطة كعادتهم في سائر الولايات والمناصب الرئيسية لقلة او فقد الاكفاء فيهم بسبب رطانة ألسنتهم وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة وجميع اعمال الدولة كانت تدون باللسان العربي المبين ، وهو ما حمل حكومة جمهورية (بيزا) الايطالية على وضع نص المعاهدة التجارية التي قدمتها للدولة الحفصية سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) باللغة العربية ويختص ؛ رئيس الشرطة من بين موظفي الحكومة بلقب «الحاكم» ؛ وهناك «المحتسب» المكلف باصلاح الهيئة الاجتماعية والمسؤول عن الاسواق والمتاجر والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

وكان مما امتازت به دولة الحفصيين ان وجد بها منصب وزير الرأي

(١) وزن الدينار ٤ قرامات و ٢٠ صانتيقرام ذهبا

والمشورة ، وهو الملقب لديهم : « شيخ الموحدين» المشرف على جميع شؤون الدولة مما قل او جل؛ واخيراً اسندت هذه الخطة الى «الحاجب» كما جعلت له وزارة الحرب ايضا ؛ وبذلك اصبحت خطة « الحجابة » هي اكبر المناصب الحكومية في هذه الدولة . [1] وكان نظام الاقطاع يومئذ معمولاً به عند كثير من الدول الاسلامية كما هو في غيرها ايضاً ؛ فانه كثيراً ما اضطرت الحكومة الحفصية عسكرياً الى اقطاع بعض جهات من ممتلكاتها الى بعض القبائل العربية المناصرة ، ثم انه لا فرق بين هذه الدولة وبين غيرها ممن تقدمها من دول المغرب الاسلامي ، فهي تسير حسب سابقاتها مستمسكة في سياستها العمومية بسنة الموحدين حتى كاد ان لا يوجد، هنالك فرق بين الحكومتين اذا استثنينا بعض الفروق الطفيفة .

حدود الجزائر الحفصية

الجزائر الحفصية هي عبارة اليوم عن مقاطعتي الجزائر وقسنطينة مع جزء من مقاطعة وهران ؛ وهي تنقسم الى اربع ولايات : ولاية بونة –عنابة – ، وولاية بجاية ، وولاية قسنطينة ، وولاية الزاب وقاعدته مدينة بسكرة وتارة مقرة من بلاد الحضنة ، ويمتد خط الجنوب الى ما وراء بلاد وارجلن – واركلة – ، وكثيراً ما راينا اختلاف عمال هذه الولايات الجزائرية على الحكومة المركزية حيث قاموا بعدة وقائع حربية حاولوا بها اخذ البيعة لانفسهم والاستبداد بالملك فتداخلت الحدود واختلفت الخطوط والتخوم المرسومة لمملكة الجزائر الحفصية .

كيف كان استيلاء الحفصيين على الجزائر

كان اول ما وقع من التراب الجزائرى بيد الحفصيين ولاية قسنطينة وبجاية

(١) قال ابن خلدون : ومعنى الحجابة – في دولنا بالمغرب – الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه في ذلك احد . ج ٧ ص ٤١٨ فهو بمنزلة كبير الامناء في الدول العربية اليوم .

فاستسلم اهلها الى السلطان ابى زكرياء الحفصى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) فأسر بنو حفص عمال هاتين المقاطعتين وذهبوا بهم الى تونس ؛ ثم في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) كان استيلاؤهم على ولايـــة الجزائر ونواحي شلف والبطحاء - البسيط الذى بين مدينة غيليزان وسهل وادي شلف - وما الى ذلك من الجهات الغربية الزناتية ؛ وقد جعل التصرف فى هذه الجهات لاقارب السلطان الحفصى وبنى عمه ؛ وفى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) جهز السلطان المستنصر اخاه عمر بن ابى زكرياء الاول للقضاء على سلطة الفقيه ابى على بن احمد المليانى المتسلط يومئذ على عمل « مليانة » فتقدم عمر المذكور صحبة « مفيدون بن فرندة » وفى ابن خلدون :دون الدريدبي هرنزهمن آل ادفونش ملوك الجلالقة . (ج ٧ ص ٦٥) النصراني والامير ابو زيد بن جامـــع الى مليانة ونصبا عليها المجانيق وضيقا عليها الحصار فأعطت المدينة مقادتها لبني حفص واستسلمت لهم يوم عيد الفطر - ٢٩ اوط - من التاريخ وفر المليانى الى المغرب الاقصى فعقد السلطان آن ذاك لاخيه عمر على ولاية بجاية مكافأة له على انتصاره وتغلبه هذا ، واستعفى عمر اخاه من هذه التولية فاعفاه .

فتح ولاية تلمسان

لقد كان لمبايعة خليفة الموحدين على السعيد من بنى عبد المؤمن بمراكش اضطراب كبير ادى الى نقض البيعة وشق العصا في كثير من ارجاء المغرب، فكانت هذه فرصة لخروج ولاة النواحي عن الخليفة ونبذ طاعته ، وكان من بينهم عبد الله بن زكرياء الهزوجى صاحب تلمسان ، فنشأ عن ذلك بينه وبين يغمراسن[1] الزيانى المتحيز يومئذ لبنى عبد المؤمن خلاف ونزاع كبير افضى الى تسلط يغمراسن على تلمسان.

وبينما الحال على ذلك اذ وفد على السلطـان ابي زكرياء الحفصي نخبة من

(١) ضبطه ابن خلدون في مواضع من تاريخه بالحركات مرة : بفتح الياء والغين وسكون الميم بعدها راء مفتوحة ثم الف بعدها سين مفتوحة فنون ساكنه ؛ ومرة بكسر الغين والسين

رؤساء بني توجين ومغراوة مستصرخين به ضد يغمراسن ؛ ولقد كان لبني توجين ملك ما بين قلعة «سعيدة» غربا الى «المدية» شرقـــا وكانت لهم قلعة اولاد سلامة [١] ومنداس [٢] ووانشريس . ولبني منديل نواحي شلف ومليانـــه وتنامي وبرشكوشرشال ومازونه . فاتخذ ابو زكرياء ذلـــك وسيلة ووصلة للقضاء على عرش الموحدين المحتضر ومن والاهم من رؤساء النواحـــي وولاة الجهات ، فنزل في شوال ٦٣٩ هـ (افريل ١٢٤٢ م) بمليانة ، ومنها راسل يغمراسن في الاذعان لطاعة الدولة الحفصية فأبى ؛ ويومئذ احاطت جيوش الحفصيين بتلمسان فضيقت حصارها وبالغت في التنكيل باهلها فخرج يغمراسن من باب العقبة لرد عادية بني حفص فانهزم ونجـــا هو بنفسه الى الصحراء ، وسقطت تلمسان بيـــد الحفصيين آخر المحرم ٦٤٠ هـ (جوليط ١٢٤٢ م) ودخلها يومئذ ابو زكرياء فرد عنها عادية جنده وكف أيديهم عن النهب والسلب. ثم ارتحل عنها لسبع عشر ليلة من نزوله بها عائداً الى حضرته بتونس بعد ان عقد لعبد القوى بن العباس أمير بني توجين على قومه واذن له في اتخـــاذ الآلة ومراسيم الملك فكان ذلك ابتداء ظهور هذا القبيل بمظهر الملك والرئاسة .

المبايعة بالخلافة

منذ نهاية القرن السادس الهجري – اواخر الثاني عشر الميلادي – والعالم الاسلامي بالمشرق والمغرب كله يتمخض في قلق واضطراب مترقباً ماعسى ان يحدث او يقع من التحولات السياسية العامة الناتجة عن اتحاد امم النصرانية في حروبها الصليبية التي كادت ان تعصف بالعالم الاسلامي اجمع ؛ وما كان كذلك من اتحاد قبائل التتر برئاسة جنكيز خان وشروعهـــا في الزحف على

---

(١) هي على ستة كيلومترات الى الجنوب الغربي من مدينة فرندة من مقاطعة وهران وفيهـــا تفرغ مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون للعلم والدرس فسكن بقصر ابي بكر بن عريف اربع سنوات وهنالك شرع في وضع تاريخه الكبير فأكمل به مقدمته العجيبة .

(٢) غربي تيارت وجنوب مدينة غيليزان - بين وانشريس وجبل كزول الواقع على عشرة كيلومترات بالجنوب الغربي من مدينة تيارت الحالية

غرب بلاد آسيا وجنوبها واحتلالهـــا لبلاد الصين سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ؛ وتصدع الاسر القابضة على زمام بقية الباقية من بعض المـــدن الاسلامية ؛ والامبراطورية السلجوقية يومئذ قد انقرضت من بلاد فارس ، ومثلها الدولة الغزنوية ايضاً بعد قضائها على الدولة الجديدة القائمـة بأفغانستان الشرقيـــة فاسقطتها من شاهق عزها حوالي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠) ؛ وانقراض عائلـــة زنكي في الموصل ، وملوك مصر والشام يومئذ في شقاق وتناحر وافتراق ؛وفي بغداد من الخلاف الطائفي والمذهبي القائم بين أهل السنة والشيعة ، بـل وبين مذاهب أهل السنة انفسهم كالخلاف والجدل الواقع ايضاً بين الحنابلة والحنفية قد بلغ اشده...وعم ذلك سائرطبقاتالشعب العراقي وارث مدنياتالعالم!.. فدعا ذلك كله الى بسط نفوذ الاجنبي ونشر سلطانه على الشرق الاسلامي ، وفعلا اكتسح التتر معالم الحضارة الاسلامية وحطم عواصم المدنية الشرقية . وكان ذلك الفتك الذريع بالانسانية الذي لم يسجل التاريخفيما عهدناه حوادث أفظع منها منذ تحدث عن البشر الى يوم الناس هـذا ـ اذا استثنينا حوادث (اتيلا) ونهاية الاندلس الاسلامية !... وسقطت بغداد قلب العالم الاسلامي النابض بيد التتر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وذهبت بذهابهـــا تلك المدنية الزاهرة المشرقة ، وسقطت الخلافة العباسية بسقوطها .

وفي المغرب الاسلامي كذلك فان سلطان الامويين بالاندلس قد انهار منذ سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١م) وتشتتت وحدتهم السياسية فتوزعهـا ملوك الطوائف بينهم ،فقام بكل ناحية منهاامير المؤمنينومنبر!..فاشتد حينئذ الشعورالاسلامي العام فأعلن حاجته الاكيدة الى زعيم ديني ورئيس سياسي تجتمع لديه جميـع السلطات المدنية والعسكرية، وكان من المقدر ان وجدت دولةالحفصيينيومئذ صلبة العصا ، قوية الاساطين ، وثيقة الاركان ، فتأكدت مبايعتها على الناس، فأطاعها اهل سبتة وفاس وطنجـــة وسجلماسة ـ تافيلالت ـ ، ومكناسة بعدما قتل اهلها عامل الموحدين عليها سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) وبعث اهلمكة بيعتهم الى السلطان المنتصر سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) وهي بانشاء عبد الحق

ابن سبعين فقرئت على الناس ، وبايع بنو مرين تقية ريثما استوثق الامر لسلطانهم يعقوب المريني فنبذوا عهد الحفصيين ؛ ودخل اهل مدينة شبيلة وغيرها من بلاد الاندلس والشام في دعوة الحفصيين ايضاً فاخترق حينئذ صيتهم البلاد وخشيتهم امم اوروبا فباتت تخطب ودهم وابرمت في ذلك معاهدات سلم بينها وبين القصر الحفصي ، منها معاهدة « فريدريك » امبراطور الالمان لمدة عشر سنوات ومعاهدة « اوهان سطوفان » ملك صقلية وهلم جرا . . . ويومئذ تلقب السلطان ابو عبد الله محمد بن السلطان ابي زكرياء يحيى الاول بأمير المؤمنين ، وتسمى بالمستنصر بالله الواثق .

تربص يغمراسن وانتصاره

لا يعزب عن القارىء الكريم ما قدمناه قريباً من حال انهزام يغمراسن الزياني عن تلمسان ايام غزو الحفصيين لها سنة ٦٤٠ ه (١٢٤٢ م) وما كان من فراره منها والتجائه الى الصحراء الخ . . . وبعدما تأكد يغمراسن من انطباق الكثير من سادة العالم الاسلامي ودوله شرقاً وغرباً على مبايعة ملك الحفصيين بالخلافة اعتصم بالدهاء والتدبير في الانتصار فبعث بوالدته – سوط النساء – الى ابي زكريا الحفصي لتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه فاقتبلها ابو زكرياء راضياً عن ولدها ، فاغتنمت الوالدة يومئذ هذه الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحاً يتضمن طلب العفو عن يغمراسن والمسامحة له بالعودة الى رئاسة قومه من بني عبد الواد تحت طاعة الخليفة ، فأمضى لها ابو زكرياء ذلك كله ، واذن في عودة يغمراسن الى امارته على شروط بينهما وتمت عقدة المبايعة على ذلك وعاد يغمراسن الى تلمسان واخذ يتصرف في أهلها واموالها وجميع مداخلها التي كانت تقدر بمائة الف دينار سنوياً : وكان السلطان الحفصي ادرك ما يكنه يغمراسن في صدره من الحقد والضغينة على ملك الحفصيين ، فأقطع القطائع حول تلمسان واحدث امارات في بني توجين ومغراوة من ارض الجزائر وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي امر قومه ووطنه وعهد اليهم جميعاً

باتخاذ الآلة والمراسيم السلطانية عن سنن يغمراسن قريبهم وجاء ببني سليم الى نواحي بونة – عنابة – فأسكنهم بهـــا الى ارض الجريد وأغدق عليهم من الاموال ما غمرهم به وجعلهم حاجزاً بينه وبين خصمائه ومنافسيه فكانوا رده المملكة وحصنها الحصين

وما لبث ابو زكرياء بعد ذلك الا قليلاً حتى فاجأه أجله وهو بمحلته في بونة فتوفى ليلة الجمعة ١٢ جمادى الثانية وقيل لسبع بقين منها سنة ٦٤٧ هـ (٢٢ سبتمبر ١٢٤٩ م) ودفن من الغد بجامع بونة ثم نقل الى قسنطينة . وكان يغمراسن قد عاد بعد الى تلمسان بموجب نصوص المعاهدة التي عقدها مع الملك الراحل ؛ ولم يبرح قومه ان اجتمعوا حوله واخذوا معــه في الانقضاض على المدن الجزائرية وغزوها فتحوها مدينة مدينة ، واقتحموا مليانة سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، ثم وقعت بلدة المدية بايديهم سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) ، وهكذا اخذ الزيانيون في امتلاك القطر الجزائري تدريجياً حتى استولوا عليه باسره كما سنذكره فيما يأتي من تاريخهم

اضطرابات وفتن

كان مما اشاعه الناس يومئذ ان الخليفة المستنصر الحفصي عازم على الفتك بابن عمه ابي القاسم بن ابي زيد لما بلغه عنه من رفض بيعته والخروج عن الطاعة ؛ وبلغت الاشاعة هـــذه الى ابي القاسم فخشي على نفسه فخرج من تونس سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) الى نواحي قسنطينة ملتحقاً بشبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة – اشياع بني بن غانية واعداء الموحدين والحفصيين – وهنالك بايعه هؤلاء القوم وبرزوا معه لغزو البلاد الجزائرية فأحدثوا بهـا اضطراباً كبيراً واضراراً عظيمة اضرت بالجميع واشتد يومئذ غضب السلطان على ابي القاسم ، فأرعد وابرق وبيت قتله ؛ فارتاع لذلك ابو القاسم وتراجع الى تلمسان متوارياً ومنها ركب بمرسى هنين الى الاندلس، ثم التحق بالمغرب الاقصى فأقام بتينملل حيث مصدر دعوة الموحدين ، ثم عاد الى تلمسان فتوفى بها

وطمع محافظ قسنطينة ابو بكر بن موسى المعروف بابن الوزير الى الخروج عن طاعة الحفصيين والاستبداد بولايته (٦٧٩ ﻫ) = (١٢٨٠ م) وكتب في ذلك الى ملك أرغون الأسباني ليسعفه باسطوله وجاءت الاساطيل الى مرسى القل فبرز لها الامير ابو فارس من بجية زاحفاً في جموعه وعساكره فاحتل مدينة ملية وصبح قسنطينة أول ربيع سنة ٦٨١ ﻫ = جوان ١٢٨٢ م فنصب عليها المجانيق وضرب عليها الحصار وقاتل اهلها يوماً او بعض يوم وتسور عليهم المقل يومئذ حاجبه محمد بن ابي بكر بن خلدون – جد المؤرخ – وقتل ابن الوزير في بطانته وأشياعه ونصبت رؤوسهم بسور البلد وتمشى الامير في سكك المدينة مسكنا ومؤنسا وامر برم ما انثلم من الاسوار وباصلاح القناطر ودخل القصر وبعث بخبر الفتح الى ابيه السلطان ابي اسحاق بتونس ثم ارتحل منها بعد ثلاثة الى بجاية .

مقاومة العصاة المنشقين

كانت حوادث ابي القاسم بن ابي زيد وحركة الدواودة من رياح ، سبباً فى خروج السلطان المستنصر الاول بنفسه من تونس سنة ٦٦٤ ﻫ (١٢٦٥م) على رأس جيش عظيم فنزل بأماكن الفتنة ومواطن الثورة بالقطر الجزائري ، وقضى على المنشقين بها ، واستمر السلطان متنقلا فى البلاد مستقصياً بذور الفتنة ومناجم الخلاف حتى نزل على الدواودة ففر رئيسهم شبل بن موسى وخرج بقومه الى القفر فاحتل السلطان يومئذ بلادهم ونزل بمدينة « المسيلة » – المحمدية – آخر مواطن رياح ، وهنالك وفد عليه محمد بن عبد القوي امير بني توجين مجدداً لطاعته ، فاكرمه السلطان واقطعه مدينة « مقرة » و « اوماش » من اعمال الزاب الجزائري وانقل كاهله بالحباء والجوائز ونفيس الهدايا ، واستمر المستنصر في زحفه على الدواودة الى ان ظفر بهم بمدينة « نقاوس » – بالقاف المعقودة – فتبدد شملهم وانتهبت اسلابهم ، وقبض

السلطان على رؤوس الفتنة فضربت اعناقهم ونقلت الى بسكرة فنصبت بها ، واما الاشلاء فانها تركت حيث قتلوا فنصبت كذلك متفرقة بالامكنة التى بويع فيها ابو القاسم بن ابى زيـد الثائر بنواحي نقاوس والمسيلة وغيرها ؛ واغذ السلطان سيره فاجتاح بقية النواحي المشاقة ، فمنحه القوم اكتـافهم مجتازين « وادي شدى » – جدى – فطاردتهم الجيوش الحفصية الى ان تجاوزت بهم مفاوز الصحراء ثم عادت مع السلطان الى تونس .

انتقاض مدينة الجزائر وفتحها

جاهر اهل مدينة الجزائر بنبذ طاعتهم ايام ان ظهر ضعف الحفصيين امام حملة زناتة عليهم حوالى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ولقد حاول الجزائريون بذلك الاستقلال بحكم بـلادهم والتوصل الى تأسيس مملكة جزائرية بحتة ؛ فهاجمهم يومئذ عامل بجاية « ابو هـلال الهنتاتى » بايعاز من السلطان واطال حصار مدينة الجزائر نحو سنة ثم عاد منهزماً الى مركزه وهلك بمعسكره ببني ورا سنة ٦٧٣ هـ (١٣٧٤ م) وبقيت مدينة الجزائر في هـذه الفترة مستقلة حرة الى ان غزتها جيوش بني حفص سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) بقيادة ابى الحسن بن ياسين ومناصرة حامية بجاية ، وخرج معها الاسطول الحفصي فحوصرت الجزائر من جميع جهاتها ودخلتها الجيوش الحفصية مثخنة فى اهلها قتلا ونهباً وسلباً ، فاستسلمت المدينة حينئذ واذعنت لطاعـة الحفصيين : واخذت مشيختها ورؤساؤها فقلوا واسروا ثم نقـلوا الى تونس مصفدين فاعتقلوا هنالك بالقصبة الى وفاة المستنصر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) فعفا عنهم يومئذ ولده الواثق .

مبايعة الجزائر لابي اسحاق الاول

كان ابو اسحاق ابراهيم بن ابى زكرياء يحيى الاول مقيماً بمدينة تلمسان ، ولما توفى اخوه المستنصر نهض مطالباً بملك اخيه مناقضاً للواثق الذي اخـذ البيعة لنفسه بعد وفاة والده ؛ وكان اول من بايعه على الملك مضيفه يغمراسن

ابن زيان صاحب تلمسان ؛ وصادف ان كان اهل بجاية منشقين على والي الاشغال عندهم فقتلوه واستدعوا ابا اسحاق يحثونه على ولاية العرش ، فانتقل اليهم أبو اسحاق ودخل بجاية آخر شهر ذي القعدة سنة ٦٧٧ هـ (افريل ١٢٧٩ م) فاجتمع عليه اهلها وبايعوه بالملك ؛ فغزا بهم قسنطينة فامتنعت عليه . وهنالك بعث الواثق جيوشه لمقاتلة عمه هذا ، وما كادت الجيوش تتصل بالزاب الجزائري حتى تقدمت بنفسها الى ابي اسحاق فبايعته بالملك وكتبت في ذلك وثيقة بعثت بها الى الواثق بتونس ، فتنازل مكرهاً عن العرش وخلع نفسه غرة ربيع الاول ٦٧٨ هـ (١٢ جوليط ١٢٧٩ م) ، فكانت الجزائر بذلك هي اول من بايع السلطان ابا اسحاق واول من اعترف له بحقه على العرش .

ظهور ابن ابي عماره الدعي

هو رجل من اهل المسيلة اسمه احمد بن مرزوق بن أبي عمارة وكان مسكن آبائه ببجاية فنشأ بها ، ولقد سولت له نفسه يوماً ان يدعي – اثماً وزوراً – انه من بيت الملك وانه من ابناء الواثق الحفصي ، وكان هنالك من الموالي من ايده في دعواه هذه ونهضوا معه ضد ابي اسحاق ابراهيم الاول فدخل الناس في طاعته وتغلب على السلطان بدهائه ومكره فامتلك نواحي طرابلس واحتل تونس واتخذ لنفسه لقب « المعتمد على الله » ، وخرج ابو اسحاق طريداً من تونس مع ولده ابي زكرياء آخر شوال ٦٨١ هـ (جانفي ١٢٨٣م) محاولاً الالتجاء الى قسنطينة فمنعه عنها واليها يومئذ عبدالله بن يوقياي الهرغي وذلك خشية خروج الأمر من يده ، فتوجه السلطان الطريد ملتجئاً الى ولده ابي فارس امير بجاية ، فاعترضه ومنعه من النزول عليه بقصره وصرفه الى مكان آخر فنزل بروض الرفيع على الضفة من وادي بجاية واجبره على التنازل له عن العرش؛ واسكنه قصر الكوكب ودعا الناس الى نفسه فبايعوه في آخر ذي القعدة وتلقب بالمعتمد على الله وجاء ابن ابي عمارة غازياً بجاية فحمل عليها في صفر سنة ٦٨٢ هـ

(ماي ١٣٨٣م) وقتل ابا فارس في اخوته،فانتقل السلطان الطريدابو اسحاق يومئذ من اعمال بجاية مع ولده ابي زكرياء متوجهـاً الى تلمسان ، واحتل ابن ابي عمارة المدينة واخذ البيعة لنفسه ، وبعث بمن ادرك ابا اسحاق بجبـل بني غبرين من ارض زواوة فرده مأسوراً الى بجاية وهنالك قتل السلطان صبرا في آخر شهر ربيع الاول سنة ٦٨٢ هـ (جوان ١٢٨٣ م) ونجا ولده ابو زكرياء الى تلمسان ؛ ثم بعد حين انكشف حال ابن ابي عمارة واقتضح للناس تزويره وتحققوا تدجيلـه وانه دعى في بيت الملك فتألبوا ضده ونقضوا بيعته فقتلوه ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وتولى الملك يومئذ المستنصر الثاني

انفصال الجزائر عن الحكومة المركزية

كان‌هنالك شخصيتان متنافستان‌بالقصر الحفصي وهما الحاجب ابوالحسن بن سيد الناس وابو عبدالله الفزازي ؛ فكلاهما كان يزاحم صاحبه في نيل الحظوة والمنزلة والمقام الرفيع عند السلطان ، ولقـــد لاحظ الحـاجب المذكور انه مغموط الجانب مهتضم المقـام عند السلطان بجانب صاحبه الفزازي ؛ فأضمر للمستنصر حسيكة وأبطن له غلا ، وكان من المقدر يومئذأن‌وجد ابو زكرياء يحي بن ابي اسحاق بن ابراهيم ـ عم المستنصر ـ بتلمسان مطالبـــاً بعرش والده ، فالتحق به ابو الحسن فبايعه واخذ له البيعة من النـاس واقام له ابهة الملك وشعار السلطنة وخرج معـه في جمع حـاشد الى اعمال قسنطينة فطافوا بتلك الولاية ، وكان اذ ذاك اهـــل بجاية في اضطراب ونزاع فلمـا رأوا ابا زكرياء بادروا الى تقديم بيعتهم اليه فاحتل ابو زكرياء يومئذ بجاية سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وبايعه اهل مدينة الجزائر والزاب واستقـل ببونة وقسنطينة وما وراءهما من البـلاد ، فرسخ يومئذ قدم ابي زكرياء بمملكة الجزائر فأورثها بنيه ، واصبحت المملكة الحفصية مجزأة الى جزئين ، قسم شرقي وعاصمتـه تونس ، وقسم غربي بالمغرب الاوسط تتزعمه حاضرتا قسنطينة وبجـــاية ، وهكذا استمر الامر بالقطر الجزائري الى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) ـ وعنـد ابن خلدون ان ذلك وقع سنة ٧٠٧ هـ ؟ .. حيث انتقض اهل مدينة‌الجزائر

يوم وفاة عاملهم بن أكازير واستبدوا بولايتهم جاعلين امرهم بيد « محمد بن علان»٧٠٦هـ(١٣٠٧م) فمكث هذا اربعة عشر عاماً حامياً للمدينة واحوازها إلى العهد الزياني ، وضلت البقية من القطر الجزائري ما بين مـد وجزر بين ملوك الحفصيين وامراء الجزائر وولاتها الى ان دعا ابو بكر خالد بن يحيى الحفصي الى نفسه سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وتلقب بالمتوكل على الله ، فخالف عليه والي بجاية عبدالرحمن بن خلوف فقتله السلطان غدراً في السنة التالية واحتل ابو بكر بجاية واذعنت تونس لطاعة ابن اللحياني وعادت الدولة الى انقسامها على نفسها ثانياً ، وهكذا الى سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م) فحاز ابو بكر ولاية تونس واعاد وحدة الدولة الى نصابها وجمع بين القطرين الشقيقين : تونس والجزائر

اعتداء الافرنج على مدينة الجزائر

بينما الامر ما ذكرنا في الجزائر اذ فاجأها الافرنج بحملة بحرية عنيفة سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) يقودها « روجي دولوريا » فحطموا مدينة « القالة» وانتهبوا اموالها وتركوها كجوف حمار ! ... ثم اعادوا عليها الكرة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) وحاصروا معها في هذه المرة مدينة بونة ايضاً ، واسروا اهلها ، فاستبسل الجيش الحفصي وشمر عن ساق الحرب فاندحر الافرنج عن الجزائر

امارة بني مزني (١) ببسكرة

كانت امارة الزاب الى هذا العهد لبني رومان البسكريين وهي من اغنى امارات الجزائر واضخمها لذلك العهد وتمتد حدودها من المسيلة ونقاوس شمالا الى واركلة – وارجلن – ووادي ريغ جنوباً ، ومن «الدوسن» غرباً الى بادس شرقاً،وتبعد مدينة بادس هذه عن بسكرة بنحو ثلاثين ومائة كيلومتر

---

(١) بفتح الميم وضمها

وتقرب من (خنقة سيدي ناجي) بنحو العشر كيلومترات.

وفي تحديد وطن الزاب هذا يقول ابن خلدون : (وهـذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جما جما ، يعرف كل واحد منهـا بالزاب ، واولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها .

استمر بنورمان على ولايتهم هذه ببسكرة ، وكان ينازعهم فيهـا شيوخ العرب من بني مزني الذين قدموا اليها ايام الحملة الهلالية فنزلوا حولهـا . الى عصر السلطان ابي اسحاق ابراهيم الاول فانتزعها من بني رومان وجعلها للفضل ابن علي بن احمد بن الحسن بن علي بن مزني، حيث قام بنصرته وتأييد دعوته أيام انتقاضه على اخيه المستنصر فشكر له السلطان موقفه هـذا وولاه إمارة الزاب هذه سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ثم كانت في عقبه ؛ وحسنت سيرة بـني مزني واحسنوا التدبير فعاشوا وعاش الناس معهم في ارغد عيش ، وهم تارة مقيمون ببسكرة وتارة بمقره من بلاد الحضنة، وكان طبيعيا ان ينشأ عن ذلك من ذوي الاخلاق السافلة والامراض النفسانية الخبيثة حسد وضغينة فاوغروا صدر السلطان على بني مزني واضرموا غيظه ، فاضطرب لذلك شأن امراء هذا البيت وانتقضت أمورهم فتذبذبوا في سيرهم وسلوكهم السياسي، واصبحوا تارة بجانب الحفصيين وتارة مع بني زيان ، واحيانا نجدهم منقادين لبني مرين ملوك المغرب الاقصى ، وكثيراً مـا اشتبه عليهم الامر فتراهم في آن واحـد يبايعون اميرا وينتقضون عليه في نفس الوقت . . وهكذا ذهب بنو مزني في تيار من عاصفة الاهواء السياسية المختلفة التي ادت بهم الى الاضمحلال ، فغزاهم السلطان ابو فارس عزوز الحفصي واقتحم مدينة بسكرة يوم السبت ١٧ جمادى الثانية ٨٠٤ هـ (٢٢ جانفي ١٤٠٢م) وقضى على هذه الاسرة بعدما امضت في حكم الزاب ما ينيف على قرن وربع ، وكان من اشهر رجالهـا : الفضل بن علي وابنه المنصور وولده عبد الواحد ويوسف ، وعلي ، وحسن ، واحمد .

واتسع نطاق ولاية الزاب هذا على عهد المنصور (٦٩٣ ﻫ - ١٢٩٤ م) وامتدت حكومته الى جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد واركلا وقرى الحضنة: مقرة ونقاوس والمسيلة ،.فعقد له السلطان على جميعها وعلى بلاد التل من ارض سد ويكش وعياض ايضاً ، ولم يزل المنصور هذا ممتنعاً سائر أيامه على الدولة والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته الى ان هلك سنة ٧٢٥ ﻫ - ١٣٢٥ م وقام بالامر بعده ولده عبد الواحد .

حزب السنة وابن مزني

كان بمدينة « طولقة » من عمل بسكرة رجل من عرب رياح اسمه «سعادة» وهو من بطن « مسلم » او « رحمان » اشتهر بين قومه وعشيرته بالعلم والصلاح آخذاً على نفسه القيام بالحسبة - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ فاجتمع عليه الناس وكثر حوله الاتباع والتحق به بعض رؤساء العرب من الدواودة كشيخ بني محمد بن مسعود ؛ واولاد سباع ، واولاد ادريس ، ورجالات العطاف وغيرهم في كثير من اتباعهم ومرؤوسيهم من المستضعفين ، وكلهم عاهد « سعادة » على التزام طريقته والاخذ بمبدأه فتشكلت يومئذ حوله هالة من الخاصة والعامة اشتهروا باسم أهل السنة » او « السنية » كما كان يدعوهم هو ، فلما استكملت هذه الجماعة قوتها واشتدت شوكتها اخذت في شن الغارات على العصاة المحاربين وقطاع الطرق المعتدين . وكان شيخهم هذا متشدداً على الولاة والحكام كثير المؤاخذة لهم على ما يأتونه من حيف اوجور ولقد بلغ عامل الزاب يوماً وهو يومئذ المنصور بن فضل بن مزني - ان زعيم أهل السنة هذا ينكر عليه اعماله وخاصة وقع الظلامات والمكس على الرعية ، فطوى على عداوته احناء صدره وعزم على الفتك به لولا تصلب حزب السنة في وجه العامل وصده عن مراده ، وكان ذلك مما زاد في انتشار صيت الشيخ سعادة وانتصار الناس له فبايعوه على اقامة السنة او الموت دونه، فاشتد من ذلك غضب ابن مزني على السنة وآذنهم بالحرب مستنفراً حلفاءه من رؤساء العشائر وولاة الحفصيين ، ومستنصراً بالامير خالد بن ابي زكرياء

الحفصي والى بجاية ، فجاءته الجنود من كل صوب ، وأوعز الى اهل طولقة بالقبض على الزعيم سعادة فامتنع عنهم ، وأخذ في تأسيس رباطه بتلك الانحاء على غرار منهاج عبدالله بن ياسين في انشاء دولة المرابطين او ابن تومرت في انشاء دولة الموحدين ؛ فكان ذلك المكان هو حصنه المنيع الذي التجأ اليه اتباعه ريثما تكاملت قوائم فزحفوا على مدينة بسكرة واحدقوا بها وحاصروها سنة ٧٠٣ه (١٣٠٣م) وقطعوا نخيلها وشددوا في التضييق على اهلها وبذلوا غاية جهدهم لفتحها فاستعصت عليهم ثم اعادوا غزوها فخابوا ورجعوا عنها مرتين ، ويومئذ ٧٠٥ ه (١٣٠٥ م) اقفل سعادة بقومه الى مشاتيهم ، فكثوا في رباطهم بزاب طولقة ريثما تهيأت لهم الاسباب فغزوا مدينة « مليلي » احدى مدن بسكرة ، فاستصرخ اهلها بابن مزني فانجدتهم عساكره المخيمة هنالك ، واشتد اوار الحرب بين طائفة السنة وجنود الامير ، فاسفرت الوقعة عن قتل الزعيم سعادة وحمل رأسه الى ابن مزني ، فاستشاط لذلك غضب اتباعه فاندفعوا في حملة عنيفة بقيادة ابي يحيى بن احمد شيخ اولاد محرز – من الدواودة – الى عاصمة الزاب – بسكرة – فشنوا غارتهم عليها وقطعوا نخيلها وحمي وطيس الحرب فعظمت الفتنة واشتد القتال ، فكان فيمن وجد قتيلا بحومة الوغى علي بن منصور بن مزني ٧١٣ ه (١٣١٣ م) واخذ بعض رؤساء قومه فاسروا وفيهم من احرق بالنار وسكنت الحرب مدة تمكن فيها السنية من نشر مبادئهم الاصلاحية تحت اشراف رئيسهم الديني الشيخ ابي عبد الله محمد بن الازرق المقري .

استمر امر السنية على ذلك وهم يترقبون الفرص ويرصدون الخلس ، الى ان جاءهم المدد من ناحية « ريغ » فاعادوا حصار بسكرة سنة ٧٤٠ ه (١٣٣٩ م) تحت زعامة علي بن احمد شيخ اولاد محمد – من الدواودة – واطالوا حصار عاصمة الزاب اشهراً واخيراً عجزوا عن اقتحامها فرجعوا الى مراكزهم ؛ ونزل الشيخ ابن الازرق مدينة بسكرة باستدعاء من صاحبها يوسف بن مزني – تفريقاً لامر السنية – وعرض عليه قضاءها فاجابه الى

ذلك ؛ وانسحب يومئذ حزب السنية من الميدان وانتثر عقده ولم يبق له ذكر الا عند من يتخذه كوسيلة للتوصل به عند العامة الى قبض الصدقات والزكاة والنذر باسم القيام بتغيير المنكر . وان « برج سعادة » المعروف الى اليوم قرب مدينـــة طولقة هو مكان الرباط الذي اسسه الزعيم « سعادة » وذلك لقول ابن خلدون : واوعز — اي ابن مزنى — الى اهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائهـــا زاوية ونزل بها هو واصحابه .... واقام المرابط سعادة بزاويته من زاب طولقة .... » ولقد بقي من عقب سعادة على عهد ابن خلدون بالزاوية المذكورة بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزنى الرعاية وتعرف لهم اعراب الفلاة من رياح حقاً في اجازة من يجيزونه من اهل السابلة (١)

الجزائر بين الحفصيين والمرينيين

ذهبت دولة الموحدين العظيمة التي كانت تعرف كيف تسوس رعاياها العرب المتهالكين على الرئاسة وتركت بعدها اضطراباً عظيماً بين تلك القبائل العربية المتشوفة الى مناصب الحكم المتفرقة يومئذ تارة هنا وتارة هناك تجري وراء كل ناعق ترى فيه نيل مرادها والحصول على اغراضها ، فطوراً نراهـا تسير في ركاب الحفصيين ، وطوراً نجدها منحازة الى بني مرين ، وتارة تكون في جانب الزيانيين ، كل ذلك تفعله لغاية واحدة هي الحصول على الرئاسة ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة . فكانت حملات الاعراب وتهجماتهم هـذه شديدة على الحفصيين ، وتعددت يومئذ الوقائع الثورية وانتشرت الفوضى وعمت الفتن لا في الجزائر فحسب بل بالمغرب الاسلامي كـــله ، وعجز الحفصيون عن رد عادية هؤلاء الاعراب فضاقوا بهم ذرعـــاً فاضطروا الى الاستنجاد بدولة بني مرين ، فجاءت هذه حامية للدولة المستنجدة فاحتلت اولا تلمسان سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠م) بدون ان تحفظ للحفصيين حرمة ، بل لم

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨ — ٣٩ .

يكتف بذلك السلطان ابو يحيى المريني فطمع في بجاية أيضاً وحاصرها سنة ٧٠١هـ (١٣٠١) .

ثم في سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) حدث من الفتن ما اضطرب لها بال السلطان الحفصي حيث ظهر في اسرته من ينازعه في الحكم مطالباً بالعرش ، مستنصراً عليه ببني عبد الواد الزيانيين ملوك تلمسان ، فاستصرخ الملك الحفصي يومئذ بالسلطان ابي سعيد المريني على ان يقاسمه ولاية تلمسان ـ ان انتصر على اهلها ـ فكان الامر كذلك واقتسمت اوطان بني عبد الوادبين بني ابي حفص وبني مرين وتم ذلك بينهما سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩م)

واخذت حينئذ مطامع المرينيين تتسع وأنظارهم تتشوف الى حيازة المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ ، وما كادت تمضي خمس سنوات حتى تحرك السلطان ابو الحسن المريني من عاصمة فاس، قاصداً غزو الجزائر ، فاقتحم تلمسان عنوة يوم ٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ (٣٠ افريل ١٣٣٧ م) وقد اربى يومئذ عدد القتلى على ثمانين الف قتيل ، ومنذ ذلك اخذ شأن المرينيين يرتفع ويعلو بالمغرب لاوسط ونفوذهم ينتشر شيئاً فشيئاً حتى عم سلطانهم القطر المغربي كله وذلك في مدة لا تزيد على عشر سنوات ، وحكموا تونس ايضاً مدة عامين ونصف ثم عادت الى اصحابها الحفصيين ، واستعاد الفضل بن يحيى الحفصي مدينة بجاية في شهر ربيع واحتل قسنطينة يوم الجمعة غرة المحرم سنة ٧٤٩هـ (فاتح افريل ١٣٤٨م)؛ وسقطت ولاية تلمسان بيد ابي عنان المريني فاحتلها سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م)وانتهى الى المدية ، ثم بعد سنتين فتحت لهم بجاية ثم قسنطينة وبونة سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٦ م)

وفي شوال ٧٦١ هـ (اوط ١٣٦٠م) ازمع الحفصيون واجمعوا امرهم على استرجاع ملكهم الضائع بالمغرب الاوسط ، فنازل ابو عبدالله الحفصي مدينة بجاية فامتنعت عليه فدأب على المكافحة وثابر على متابعة الفتح بتكراره شن الغارات عليها حتى فتحها في رمضان ٧٦٥ هـ (جوان ١٣٦٤م) ، وبعد شهرين نازل مدينة تدلس ـ دلس ـ فافتكها من يد الزيانيين ، ثم استعادها

السلطان ابو حمو الثاني كما سنذكره فيما يلي من تاريخ الدولة الزيانيـة وانزل بها حاميته وعقد السلم مع ابي عبدالله الحفصي واصهر اليه في ابنته ، ثم عاد الحفصيون فاحتلوا تلمسان مرة اخرى واستعادواليهم ملك بسكرة وقسنطينة وبايعهم اهل المدية ومليانة وتنس ، وهكذا اضحت الجزائر تنتقل بين ايدي ملوك المغرب الاسلامي يتهافتون عليها تهافت الفراش على السراج ولم يكن لهـا في هذه الاونة استقلال بالحكم الا برهة قليلة من الزمن قـام فيها بعض ولاة العواصم المستبدين فتظاهروا فيها بمظهر الملك ؛ وظلت كذلك الى ان تمحض حكمها لبني عبد الواد الزيانيين

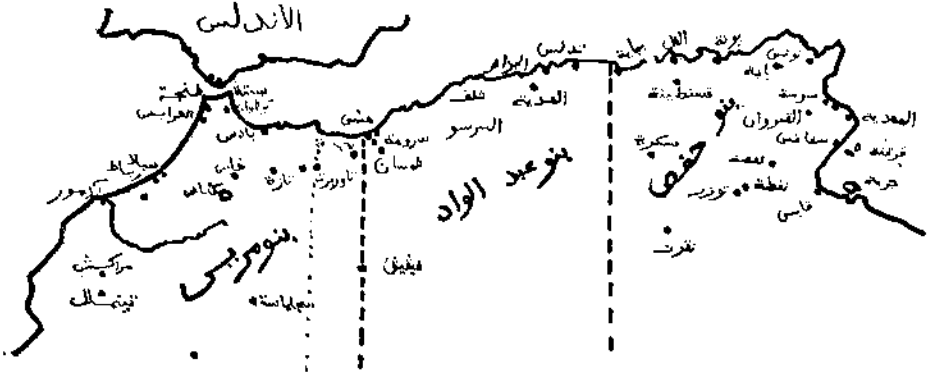
حركة السلطان الى بسكرة

لقد بلغت النخوة والتيه بعامل الزاب احمد بن مزنى الى ان استشرفت نفسه الى الامتناع من اداء واجب الخراج للدولة ورفض طاعتها محتميا بالاعراب القاطنين بضواحي الزاب والتلول . وخاصة منهم الدواودة الذين طالما اسخطوا الحكومة عليهم بأعمالهم العدائية ومواقفهم السلبية ،فتحرك السلطان ابو العباس احمد الاول الى قاعدة الزاب - بسكرة - سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) فجاءها في جيش عظيم حتى ازدحم الناس بالجند وضاقوا بهم ذرعاً ، وضرب عليها الحصار وكانت هنالك مقتلة عظيمة دامت اياماً خضع لها ابن مزني واذعن لسلطان الحفصيين فكفت عنه ايدي الجند وانكفأ عنه ابو العباس في قومه الى تونس

تنازع امراء بني ابي حفص على ولاية قسنطينة وبجاية

لم يكن حسن الوفاق قائماً بين حكام قسنطينة وبجاية ، فقـــد خضبت حروبهم المتوالية ارض الجزائر خلال القرن الثامن وطيلة سنوات من القرن التاسع الهجري

كانت ولاية قسنطينة لابي بكر بن ابي العباس احمد الحفصي ؛ فنازعه عليها ابن عمه الامير ابو عبدالله محمد بن ابي زكرياء صاحب بونة - عنابة - وحاصرها



خريطة المغرب الاسلامي منذ القرن السابع الهجري الى اواسط العاشر

سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م / فانتصر السلطان ابو فارس الحفصي لاخيه ابي بكر واوقع بابن عمه صاحب بونة ، فذهب يومئـــذ ابو عبدالله ملتجئا الى فاس مستصرخاً سلطانها المريني ومكث هنالك الى ان عقد له سلطان مرين على جيش عظيم زحف به على بجاية سنة ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م) فانتصر على صاحبها ابي يحيى فعزله وولى مكانه ولده المنصور ثم ارتحل عنها الى تونس منتقماً من سلطانهـا ابي فارس ؛ فخالفه السلطان المذكور الى بجاية فأقصى عن حكمها المنصور وجعل ولايتها لابن أخيه احمـــد بن ابي بكر ، ثم انبرى لمقاتلة ابي عبدالله فظفر به فقتله وبعث برأسه الى من نصبه على باب فاس اغاظة لمؤيده وناصره سلطان بني مرين، وتقدم الى تلمسان فاحتلها سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) ثم كانت هدنة وصلح تبودلت فيه الهـــدايا والتحف بين ملوك الحفصيين وبني مرين

ولما انتصب السلطان ابو عمرو عثمان على عرش تونس مكان اخيه المنتصر المتوفى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) قام في وجهه صاحب بجاية وهو يومئذ علي بن عبد العزيز . فامتنع عن مبايعته مدعياً انه أحق بالملك من عمه ، وقد شايعه على ذلك فقيه بجاية منصور بن علي بن عثمان ؛ فنشأت عن ذلـــك حروب وخطوب انهزم فيها صاحب بجاية وامتلكها السلطان ابو عمرو في جمادى الثانية سنة ٨٤٣هـ (نوفمبر ١٤٣٩م) فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد الاول .

مشاركة الجزائر في هزم الصليبيين

كانـ لانهزام النصارى عن انطاكية واستيلاء سلطان مصر الملك بيبرس البندقداري على بلاد سورية امتعاض شديد وغيظ عظيم اورثهم شجوا وشجنا، فقامت لديهم قيامة الاحزان وارسلوا الى البابا « كليمنضوس الرابع » يطلبون منه المساعدة والمعاونة على القتال باسم الصليب – كذباً وزوراً – ؛ فأرسل هو بدوره منشوراً الى جميع ملوك اوروبا يستنفرهم ويستفزهم الى ايقاد حرب صليبية ثامنة لأخذ ثأرهم من المسلـــين ، فكان اول من لبى نداء البابا ملك فرنسا لويس التاسع St. Louis انتقاماً لما أصابه من الهزيمة والاسر ايام حملته

على مصر (٦٤٨هـ - ١٣٥٠ م) وأخذ في تجهيز العساكر والأساطيل لذلك ، وبعد استشارة اصحابه ووقوع المداولات بينهم في تعيين اي البلاد الاسلامية التي تقصدها الحملة الصليبية وقع الاتفاق على مهاجمة تونس بدعوى ان اهـــل المغرب طالمـــا اعتدوا على بحرية فرنسا وغيرها ؛ فسارت الحملة بقيادة الملك لويس المذكور وغادرت إيغمورت في ذي القعدة ٦٦٨هـ ٤ جوليط ١٣٧٠ م ونزلت بأنقاض مدينة قرطاجنة من الساحل التونسي ، وكان عدد جيش الصليبيين زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين الفاً من الرجالة ، وبلغت اساطيلهم ثلاثمائة قطعة ما بين كبار وصغار ، فنادى حينئذ السلطان الحفصي ابو عبدالله محمد المستنصر الاول في الناس بالاستعداد والنفير العام ، وارسل الى جميـــع الممالك التابعة له - ومنها الجزائر - يطلب المدد ، فوافته الامـــداد من كل ناحية ، وجاءه ابو هـــلال عياد صاحب بجاية في جموعه وسرح اليه محمد بن عبد القوي عســكر بني توجين لنظر ابنه زيان وهم جميع سكان حفــافي وادي شلف والسرسو ، وجاءت جموع العرب وهوارة وولهاصة - سكان بسيط بونة - وسدويكش وهم سكان مواطن صنهاجة بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية - وأمده ايضاً ملوك المغرب من زناتــة واحتدمت الحرب في منتصف المحرم ٦٦٩هـ (٥ سبتمبر ١٣٧٠ م) ونشب هنالك بين الفريقين قتال عنيف مات فيه عدد عظيم من الطرفين وغدا ملك فرانسا قتيلاً ، قيل انه مات حتف أنفه ، وقيل انه اصابه سهم غرب فقتله ، وقيل اصابه مرض الوباء ، ويقال ايضاً وهو بعيد ان السلطــان بعث اليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم كان فيه مهلكه [1] فانسحب الصليبيون يومئذ عن تونس منهزمين وكفى الله المؤمنين القتال. وكانت هذه الحملة الاوروباوية هي الثامنة والأخيرة من الحملات الصليبية الشهيرة في التاريخ ، قال لوبون يصف ملوك اوروبا في هذه الحروب: « يدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على انهـم من اشد الوحوش حماقة .

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩٠ - ٢٩٤ والاخبار السنية ص ٢٦٢ - ٢٧٠ ط مصر ١٣١٢ هـ .

فكانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والاهالي العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال فيقتلون وينهبون على غير هدى – مثلما شاهدناهم بأنفسنا في حرب التحرير الجزائرية (١٩٥٤م – ١٩٦١م) – ونرى في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين تدل على توحش الصليبيين ، ونقل لوبون في ذلك امثلة وشواهد توضح لنا ذلك راجعها في كتابه « حضارة العرب ص ٤٠٠ ط القاهرة ١٣٦٤ هـ الموافق ١٩٤٥ م .

ولما ارتحل العدو عن تونس وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف الى وطنه – بالجزائر – اسنى اليه السلطان جائزته وعم الاحسان وجوه قومه وعساكره وأقطعه بلاد مغراوة واومساش من وطن الزاب واحسن منقلبه ، واتصل ملك محمد بن عبد القوى في ضواحي المغرب الاوسط ما بين وطن بني راشد الى جبال صنهاجة بنواحي المدينة وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله الى ارض الزاب ، وكان يبعد الرحلة في مشتاه فينزل الدوسن ومقرة والمسيلة [1]

مقاومة القرصنة الاروبية

لقد بلغ من عتو قراصنة الغرب ولصوصه ان اصبحوا يجوبون هذا البحر ويعترضون مراكب المسلمين فيه فيتخطفون الناس من أهل المغرب ويبيعونهم باسواق اوروبا بيع السوائم ، فكثر ما حدثنا التاريخ عن تجارة اوروبيين كانوا يستغلون حركتهم التجارية لارتكاب القرصنة ؛ فان المؤرخ المسيحي « دوماس لاطري » يقول ان في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) هجمت سفينتان من بيزا على مراكب إسلامية وأسرت ركابها وانتهكت اعراض النساء ووضعت يدها على ما صادفته من عروض ومتاع ؛ ويكفي ان نعيد للأذهان كما يقول المؤلف المذكور : آلاف المزارعين والملاكين العرب الذين اختطفوا في قابس عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وجربة عام ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) وطرابلس عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥ م) ثم بيعوا في اسواق الرقيق باوروبا .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٥٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

وكان اول من انبرى لمقاومة هذه القرصنة الاوربية ورد عاديتها عن سواحل المسلمين بالمغرب أهل بجاية فانهم قد كالوا لهؤلاء القراصنة كيلا بكيل،فاتخذوا مثلهم الاساطيل للغزو وأخذوا في الهجوم على سواحـــل الفرنج مثل جنوة والبندقية وسواحل ايطاليا واسبانيا ، فغنموا وأسروا ، وكثر يومئذ عدد الاسرى في بجاية حتى اشتد لغطهم وصخبهم بالمدينة من أثر اجترار السلاسل والاغلال ؛ ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل

ولم تعدم الانسانية بحمد الله رجالا عاملين على المحافظة على شرفها والسمو بها الى مقامها الجديرة به في هذه الحياة ؛ فلقد كان لعملية القرصنة هذه استياء عظيم في قلوب الافارقة المسلمين فعملوا على عقد معاهدات بينهم وبين دول هذا البحر من الغربيين ؛ وحرصوا على توفير الضمانات وفرض التعويضات على الخسائر التي تلحق رعايا الطرفين من جراء اعتداء القراصنة ؛ فتعهدت جميع الدول التي ابرمت تلك الوثائق بالعمل المشترك لاستئصال القرصنة ، ولقد نصت معاهدة (صبيو) في فصلها التاسع عشر على انه اذا ما اضطر الموحدون الى تجهيز مركب لمطاردة احد القراصنة الجنويين فان جمهورية جنوة يجب عليها اذ ذاك ان تجهز بدورها مركبا للمساهمة في هذه المطاردة ، وقد ادى الامر بالطرفين - استئصالا لارباح القرصنة العفنة - الى تحضير بيع الغنائم والاسرى وتسريح هؤلاء عاجلا بدون فداء ، بل قرر الجانبان معـــا اتلاف مصادرة اموال القراصنة الذين يهاجمون رعايا الدول المتحالفة ، ولكن بالرغم عن كل ذلك ظلت كل من اوروبا وافريقية تعجان بالاسرى المسلمين والمسيحيين ،ولقد وازن المؤرخ « لاطري » وقارن في كتابه المذكور بـــين فظائع القرصنة المسيحية وفظائع القرصنة الاسلامية ، فلاحظ ان المسيحيين يتحملون قسطا وافرا من النهب والتدمير الذي ارتكب باسم القرصنة البحرية والذي نسب الى المغاربة وحدهم [1] ؛ وما كان من حق المؤرخ المذكور ان ينسب هـــذا العمل الشنيع الى الاديان او يسميه بهـــا ، فالقرصنة ليست هي في شيء من

(١) رسالة المغرب عدد ١٢٦ ص ٣٩ - ٤٠ - ٤١ .

الدين ، فلا هي مسيحية ولا اسلامية ، وانما هي تطاول على الغير حبا في الاثرة والغلبة ، وقد تكون دفاعا وذبا عن الحمى وحينئذ تلحق بباب الجهاد والحرب ولكل منها حدود وقوانين .

الاسلام والنصرانية بالمغرب

جاء في المعاهدة التي ابرمها السلطان المستنصر الحفصي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) مع ملك فرنسا فيليب الجريء ، وشارل دوق انجو ، وتيبو ملك نافار: ان للرهبان والقساوسة المسيحيين الاقامة بالمملكة الحفصية تحت رعاية الدولة الاسلامية ، ولهم اتخاذ الكنائس والاديرة لاقامة شعائرهم الدينية وطقوسهم التقليدية والقاء المواعظ الخ .... كما لو انهم كانوا في ديارهم وبين اظهر قومهم ، واعطيت لهم الارض الكافية لذلك ؛ فتكاثر يومئذ عدد النصارى ببجاية وغيرها من بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ، وانتشرت معابدهم بها ، وذلك غاية في التسامح .

وفي التاريخ المذكور سقطت جزيرة « ميورقة » بيد « يعقوب » الاول ملك « اراغون » فذهب اليها الراهب الفرنسي « ريموندلول » فوجدها صالحة لبث تعاليم المسيحية ونشر مبادىء مذهبه « الفرانسيسكي » [١] فابتنى بها ديرا لاجتماع الطائفة واتخذه مركزا للتبشير بعقيدته ، وفيه اخذ في درس اللغة العربية ليستعين بها على تنصير المسلمين بالمغرب ، ولقد بلغ هذا الراهب من الجرأة والحماسة الى ان القى رحاله في تونس عاصمة المملكة الحفصية وطفق يطعن في الاسلام ويستنقص رسوله الكريم فهم بقتله المسلمون لولا ان ادركته عناية السلطان الحفصي فانتشله من ايدي الرعية وانقذه من الردى وابقاه اسيرا بتونس مدة ، ثم اطلق السلطان كبله وفك اسره فارتحل يومئذ الى مدينة الجزائر ، ومنها انتقل الى بجاية واستمر يعمل بها على خطته المعهودة في نشر دعوته التبشيرية معلنا عداوته للاسلام فقتل هنالك يوم ١٧ ربيع الاول

(١) اسمه القديس الايطالي « فرانسوا داسيز » المولود سنة ١١٨٢ م والمتوفي سنة ١٢٢٦م وكان تأسيس مذهبه هذا سنة ١٢٠٩ م .

٧١٥ هـ (٢١ جوان ١٣١٥ م) .

المعتقدات والمذاهب الدينية

ما برح المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ينظرون الى علماء الاسلام وائمة مذاهبه والمجتهدين منهم واختلاف اقوالهم وآرائهم في احكامه وشرائعه الا كنظرهم الى مذهب واحد وامام واحد ، من غير نكير ولا تعصب ولا تحيز ولا اعتراض ، فليس عندهم ترجيح لهذا عن ذاك ولا تفاضل بين امام وامام او مذهب دون مذهب فالكل على هدى من ربهم ورحمة ، والشريعة بينهم كالبحر من اي الجوانب اغترفت منه فهو واحد ، وان ما ورد عن هؤلاء الاعلام من الاختلاف في الفتوى وبعض الفروع انما كان عن اجتهاد وجد ودأب منهم رضي الله عنهم في خدمة هذا الدين الحنيف رحمة بالمسلمين ، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول : لا تقولوا اختلف العلماء في كذا وقولوا قد وسع العلماء على الامة بكذا ؛ اذ كلهم يغرفون من معين واحد ساوي كله خير وبركة ، واستمر الحال على ذلك الى ان حدث تقليد اهل المذاهب في القرن الرابع الهجري وابتدأ الجدل .

وبينما المسلمون على ذلك في تقليدهم هذا مطمئنين خاشعين الى ربهم اذ فوجئوا بحادثة وقعت بمصر ايام دولة المماليك البحرية ، اختلف فيها الملك الظاهر «بيبرس» العلائي البندقداري ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ . ١٢٦ — ١٢٧٧ م وشيخ الاسلام الوزير تاج الدين بن بنت الاعز ، فذهب كل منهما غير مذهب صاحبه، واغتنم حسدة الشيخ ومنافسوه فرصة هذا الخلاف المستحدث فزينوا للسلطان قول الحنفية في المسألة اعتراضا على الشيخ تقي الدين الذي كان يرى رأي الشافعية فيها ، وكان يومئذ لا يلي القضاء ولا يقدم للحكم بين الناس في مصر الا الشافعية ، اتباعاً لما كان عليه الايوبيون من قبل ، فتوسع السلطان الظاهر يومئذ ٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م في ديوان القضاء وجعله لاربعة فقهاء من اهل المذاهب الاربعة : شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي ، وافتى فقهاء الامصار بوجوب تقليد اصحاب هذه المذاهب خاصة وتحريم ما عداها : واقيمت لاهلها

الخوانق والزوايا والربط ، وحبست باسمها الاوقاف وعودي من تمذهب بغيرها وانكر عليه . ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة او التدريس او الامامة بالمساجد احد ما لم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب الاربعة [1] قال ابو شامة : وبه حصلت تعصبات المذاهب والفتن بين الفقهاء ولا أدري والله ما حجتهم في ايجابهم تقليد البعض من ائمة المذاهب دون البعض ، وكلهم علم وكلهم مجتهد ؟.. ولعل الائمة الذين رغبوا عن اقوالهم وعن مسائلهم الاجتهادية الشرعية هم اعلم بتلك المسائل او – ببعضها – من غيرهم ؟.. ومن يدري ؟... فرب حامل فقه هو افقه منه .

... وكان ما ارادوا وانصرف الناس يومئذ الى تقليد الائمة الاربعة واجتهدوا في استنباط الاحكام واستخراج النصوص الفقهية وتفريع المسائل الشرعية على مقتضى قواعد المذاهب الاربعة ، وتحول اليها طلاب الوظائف والمتطلعون الى نيل الجاه وحيازة المناصب البارزة في الدولة [2] وكان من المصادفة ان ظهر وقتئذ بمصر رجل زعم انه ولد الخليفة الظاهر بن الناصر العباسي ، وانه نجا بنفسه من مذبحة المغول ببغداد ، وبعد ان ثبت نسبه لدى حكومة مصر رسميا بايعه السلطان بالخلافة _ تبركا _ ولقبه « بالمستنصر بالله » او « الحاكم بأمر الله » ، فتوهم البعض من سكان الامصار والممالك الاسلامية ان ما اشتهر بمصر من وجوب الاقتصار على تقليد هذه المذاهب الاربعة خاصة انما كان صادراً عن اذن الخليفة العباسي المقيم يومئذ هناك ، فامتثلوا واطاعوا لدولة المماليك واقتصروا منذ ذلك العهد في اخذ احكامهم الشرعية عن فقهاء

---

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٤٤ ط بولاق ١٢٧٠هـ. ولقطة العجلان ص : ٢٣ ط استانبول ١٢٩٦هـ وطبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١٣٤-١٣٥ ط القاهرة ١٣٢٤هـ

(٢) كان الشيخ محمد بن الدهان البغدادي المتوفي سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م حنبليا فتشفع ، ثم تحنف حين طلب الخليفة نحويا يعلم ولده النحو ، ثم عاد الى مذهب الشافعية حين شغرت وظيفة التدريس بالنظامية وكان من شرط صاحبها ان يكون المدرس بها شافعيا ، ولم يكن عهدئذ احد اعلم بالفقه والنحو منه ، وكان الامام ابو حيان الاندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ ١٣٤٤م ظاهريا ثم تشفع حين انتقاله الى المشرق ، فتولى تدريس التفسير بالمنصوريه والاقراء بالجامع الاقمر بالقاهرة ، وكان يقول : محال ان يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه .

هذه المذاهب خاصة والغاء كل ما عداها ، ولم يشذ في ذلك سوى الزيدية في اليمن ، والشيعة بفارس والعراق ، والاباضية بعمان والمغرب فتمسك كل من هؤلاء ، بمذهبه ، وما شذ هؤلاء الطوائف الثلاث عن الامتثال لهـذا الامر الا لكونهم لا يرون صحة امامة العباسيين ولا يعترفون بخلافتهم . ومنذ يومئذ انفردت المذاهب الاربعة بالانتشار والتمكن في البلاد واخذ غيرها في الاندراس والتقلص تدريجياً الى ان اصبح الامر على مـــا هو عليه الحال الى الآن [١]

---

١) يذكر علماء الاحصاءات اكثر المذاهب ذيوعاً وانتشاراً في العالم الاسلامي اليوم هو مذهب ابي حنيفة ، فانه الغالب على بلاد الهند وان اتباعه هنالك يقدرون بنحو ٤٨ مليون مسلم، ويكثر مقلدوه ايضاً في بلاد العراق والشام والافغان والتركستان - الشرقية والغربية - والقوقاز، وهو الغالب ايضاً على الاتراك والالبانيين ، وسكان البلقان والاتحاد السوفييتي، وفي البرازيل بامريكا الجنوبية نحو الخمسة والعشرين الف مسلم حنفي ، ويقدر الجميع بنحو ١٨٠ مليوناً حنفياً . ويليه في الذيوع والانتشار مذهب الشافعية ، وهو الغالب على القطر المصري - ما عدا الصعيد فان أهله مالكية - وعلى بلاد فلسطين وبلاد الاكراد وأرمينية ، واكثر السنية من اهـــل فارس شافعية - وفيهم الحنفية - (والاغلبية عندهم شيعة) وجميع مسلمي جزيرة سرنديب - سيلان- وجزائر الفيلبين وجاوة وما جاورها من الجزر كلهم شافعية ، وكذلك اهل الهند الصينية واستراليا وأهل عسير والسنيون في اليمن وحضرموت - عدا عدن - فان فيها بعض الحنفية ، كما انه يغلب ايضاً على أهل الحجاز مع مذهب الحنابلة ، ويتبعه نحو الربع من مسلمي الشام ،ويكثر اتباعه في العراق - اعني بعد المذهب الحنفي - ويتبعه في الهند نحو المليون مسلم ، وفي تركيا نحو المليون ونصف شافعية كما انه يوجد بقلة في جهات اخرى ، ويقدر المجموع بنحو ١٠٠ مليون .

ويليه في نسبة عدد الاتباع المذهب المالكي فانه الغالب على أهل المغرب الاسلامي وارض الصعيد والسودان والكويت وقطر والبحرين ، وله اتباع ومقلدون في العراق والحجاز وفلسطين واكثر اهل السنة في الاحساء مالكية وحنابلة ، ويقدر مجموع المالكية بنحو ٧٥ مليوناً .

اما الحنابلة فانهم اظهر ما يكون بنجد والحجاز بجانب المذهب الشافعي كما هم بفلسطين ايضاً ، ونحو الربع من أهل السنة بالشام حنابلة ، ولهـــذا المذهب اتباع قليلون بقطر والبحرين من النازحين الى هذه البلاد من نجد ، ويقــدر عدد اتباع المذهب الحنبلي اليوم بنحو بضعة ملايين أو قل نحو سبعة ملايين مسلم . وفي الجزائر اليوم بجانب المالكية نحو الاربعين الف اباضي ، وباضافة ما بجربة من اباضية وهم ٢٠٠٠٠ نسمة ، وما بعمان ٥٩٧٦٠٠ نسمة ، وما بجبل نفوسة بالقطر الطرابلسي ٤٨٠٠٠ نسمة ، كان مجموع عدد الاباضية اليوم زهـــاء ٧٠٥٦٠٠ نسمة وهم في احصائية ماسينيون يبلغون المليون نسمة اما الاسماعيلية وهم بنواحي الهند والشام فانهم يعتبرون ملاحدة ويسمون باطنية ولا يعدون من جماعة المسلمين راجع .

Louis Massignon : Annuaire du monde Musulman Paris 1955

وانظر ما قدمناه من كلامنا حول حركة المذاهب الاسلامية وتطورها بالجزائر في الجزء الاول

وان هذا العمل وان كان فيه نوع من جمع كلمة المسلمين وتوحيد اتجاههم وصد لتلاعب المغرضين وارباب الدعاوى المريضة فان فيه ايضاً تضييقاً لسعة الفقه الاسلامي وتحجيراً للافكار الحرة وقتلاً للنشاط والبحث العلمي وتعطيلاً للشريعة بحمل الاكفاء من الناس على ترك الاجتهاد في تفهم الكتاب والسنة واستنباط الاحكام على ما توجبه مقتضيات الحياة وعلى ما يقتضيه تقدم العلم ورقي العقل البشري واتساع مداركه ومدارجه وما يتجدد مع الزمن من حوادث ونوازل ، وفق حاجات البلاد المختلفة وظروف الازمنة المتقلبة وربما كانت المصلحة اليوم في شيء وغدا في شيء آخر . . . وهذا معنى التفات نظر الفقهاء وعنايتهم بباب المصالح المرسلة والتي هي المصالح العامة المتجددة ، وكان عطاء ومجاهد ، ومالك لا يفتون فيما يسألون عنه من الوقائع الا إن وقعت ، ويقولون فيما لم يقع : اذا وقع ذلك فعلماء ذلك الزمان يفتونهم فيه . وفيه كذلك تسفيه لآراء المتقدمين وطعن في جميع ما ذهبوا اليه من آراء كان لا يراها اصحاب المذاهب الاربعة ، في حين انهم كلهم لا يرون فيما عالجوه من شؤون المجتمع وما بذلوه من وسع في الذب عن حوزة الدين وما انفقوه من جهود جبارة وأعمار غالية عزيزة في استنباط الاحكام والاستدلال عليها بصحيح الكتاب والسنة وتدوينها الا خدمة دين الاسلام الخالد الذي لا يسعه كل ما عرف من مذاهبه ـ جميعها ـ الى اليوم فكيف يسعه الاقتصار على هذه الاربعة فقط !... وفي ذلك ايضاً من الجمود المميت للقرائح ، والتضييع للعلم بالغاء ما احتفظ به الاوائل من اثر صحيح او اجتهاد صائب ،ورحم الله شيخ الاسلام زكرياء الانصاري حيث قال : « اياكم ان تبادروا الى الانكار على قول مجتهد او تخطئته الا بعد احاطتكم بأدلة الشريعة كلها ومعرفتكم بجميع لغات العرب التي احتوت عليها الشريعة ومعرفتكم بمعانيها وطرقها ، فاذا

اصطنتم بهـــا كما ذكرنا ولم تجدوا ذلك الامر الذي انكرتموه فحينئذ لكم الانكار والخير لكم ، واني لكم بذلك » ؟ ! ... وليس ينبغي – كما يقول ابن مسكويه – ان يتعجب الانسان من الشيء الواحد ان يكون حلالاً بحسب نظر الشافعي وحراماً بحسب نظر مالك وابي حنيفة ، فان الحلال والحرام في الاحكام والامور الشرعية ليس يجري مجرى الضدين او المتناقضين في الامور الطبيعية وما جرى مجراها [1] وبالفعل انعدم يومئذ الاجتهـــاد واغلق بابه بالمغرب الاسلامي كما ذكره العز بن عبد السلام – ٦٦٠ هـ – ١٢٦١ م – وقل انصاره بالمشرق ايضاً

ولو راجعنا رجال هذه المذاهب الاربعة انفسهم واستشرناهم فيما احدثه المحدثون حول مذاهبهم من التعصب لما وجدنا فيهم واحداً – رحمهم الله تعالى – يرى هذا التحجير او قل التضييق ! فهذا امـــام دار الهجرة مالك بن انس نراه ينهي الخليفة ابا جعفر المنصور عما وجه اليه عزيمته من حمـــل الناس على مذهبه قائلا : « لا تفعل ذلك يا امير المؤمنين ، فان الناس قـــد سبقت اليهم اقاويل ، وسمعوا احاديث ، ورووا روايات ، واخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا الله تعالى به ، فدع الناس ومـــا اختار اهل كل بلد منهم لانفسهم » ، وكذلك نجد الامام هـــذا نفسه يؤكد في دفع الخليفة هرون الرشيد عما هم به هو الآخر ايضاً من تعليق كتاب الموطأ في الكعبة وحمل الناس على ما فيه ، فقال « يا امير المؤمنين لا تفعل فان اختلاف العلماء رحمة من الله على هـــذه الامة فكل يتبع ما صح لديه عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله ، وان اصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلاد وكل مصيب » فقال له الرشيد : وفقك الله يا ابا عبدالله ! ... ولقـــد صح عن الشافعي ايضاً انه نهي الناس عن التقيد حتى بمذهبه وهـــذا احمد بن حنبل نراه ينكر ايضاً على من رآه يكتب كلامه قائلا : تكتب رأيا لعلي ارجع عنـــه أو قال الآخر : لا تقلدني ولا تقلدن مالكا ولا الاوزاعي ولا الحنفي ولا غيرهم وخذ الكلام من

---

(١) الهوامل والشوامل لابي حيان ومسكويه ص ٣٣٠ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م

حيث اخـذوا من الكتاب والسنة ، وقال ابو حنيفة يوماً للمزني : يا ابراهيم لا تقلدني فيما اقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين !... وهكذا كان منهاج جميع ائمة السلف رحمهم الله تعالى ، فلم يبلغنا عن احد منهم انه امر اصحابه بالتزام مذهبه او الاقتصار على مذهب واحد معين ، بل المنقول والمقرر عنهم جميعهم انهم كانوا يحثون اصحابهم على الاجتهاد في اخذ الاحكام من مصدر الشريعة المطهرة ، وكانوا يرون ان التقصير في هذا معصية واشراف على خطر عظيم ، ذلك لان الحوادث والوقائع في المعاملات لا تتناهى فلا بد اذاً من الاجتهاد او الاخذ بجميع مذاهب الاسلام على الاقل ، نعم انهم كانوا يعملون بفتوى بعضهم بعضاً ولكن كلهم لسان واحد يقول : اذا صح الحديث فذاك مذهبي ، فما معنى اذاً هذا التضييق ؟! ... اللهم الا ان يقال ان ذلك كان موقتاً وفي ظروف مخصوصة منعاً لتسرب التعاليم الدخيلة في الاسلام وسداً للذريعة . وهذا ما اراده ابن خلدون بقوله : « ووقف التقليد في الأنصار عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ، ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولا يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم... قال : ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده ، وقد صار اهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة »[1]

ويتصل بهذا ما يرجع الى مباحث اصول الدين وتشعب الجدل الديني في العقائد واختلاف ارباب الفرق والطوائف الاسلامية في المعتقدات وتضارب انظار ائمة مذاهب علم الكلام واهل الاعتزال كما هو السائد يومئذ بالمشرق ، فان ذلك كله لم يكن منه شيء بالمغرب ، وخاصة في الجزائر فانها بريئة من

---

(١) المقدمة ص ٢١٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

ذلك، والناس فيها على عقيدة مذهب أهل السنة والجماعة حسب اصول مذهب الاشعري وتعاليمه التي جاء بهـــا ابن تومرت من المشرق الى هـــذه الديار ، الا ما كان من جماعة الاباضية فان عقيدتهم ترمي الى الخارجية [1] .

وما كان اتحاد النـــاس هنا بالجزائر والمغرب قاطبة في عقيدتهم الاشعرية وبعـــدهم عن الآراء الاخرى الا لتمسكهم بمذهب مالك ، وفي ذلك يقول عياض : « وقد نظرنا طويلا في اخبار الفقهـــاء وقرأنا ما صنف في اخبارهم الى يومنا هذا ، فلم نر مذهباً من المذاهب غيره – يعني المالكي – اسلم – منه، فان فيهم الجهمية– والرافضة – والخوارج – والمرجئة– والشيعة – الا مذهب مالك فانا ما سمعنا ان احداً ممن قلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع فالاستمساك به نجاة ان شاء الله [2] .

وفي هـــذا العصر ايضاً اخـــذت الطرق الصوفية تنتشر باشتهار رجالها المؤســين في المشرق والمغرب، كالقادرية المنسوبة الى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة ٥٦١ هـ – ١١٦٦م والشاذلية المنسوبة الى الشيخ ابي الحسن الشاذلي المتوفي سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨م والنقشبندية المنسوبة الى الشيخ خواجة بهاءالدين نقشبند المتوفي سنة ٧٩١هـ – ١٣٨٩م والى هذه الطرق الثلاثة يرجع سند جل طرق المتصوفة المنتشرة اليوم بالمغرب الاسلامي وغيره ، وكان يومئذ حدوث وظيفة او قل منصب شيخ المشائخ بمصر ، احدثها السلطان صلاح الدين الايوبي غير ان الجزائر بقيت نازحة عن الفكرة الطرقية هذه ولم تتأثر بها بهذه الصفة التي هي عليها اليوم الا منذ العهد التركي العثماني فقط .

اجل انه لم تكن ارض الجزائر منعزلة تماماً او خلوا عن الفكرة الصوفية

---

(١) انظر الجزء الاول من الكتاب ص ١٧٨ و ٢٠١ والملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٨٠ ط مصر ١٣١٧هـ

(٢) مقدمة كتاب المدارك ص ١٩ ط باليرمو ١٩١٠م ونقل صاحب الكشكول عن الصفدي فقال : ... وغالب الشافعية اشاعرة ، والغالب في الحنفية معتزلة ، والغالب في المالكية قدرية والغالب في الحنابلة حشوية . الكشكول ص ١٨٣ ط القاهرة ١٣٠٥هـ

وطريق القوم ، الا ان علماء الشريعة بها كانوا بالمرصاد لاصحاب الشطحات والخرافات المبتدعة فلم يجرأ يومئذ احد على ادعاء الطريق ما لم يكن حقاً هو على قدم الجنيد واضرابه ، واليك صورة مصغرة عن موقف علماء الجزائرتجاه هذه الطبقة من الناس :

روى الغبريني في عنوانه عن عالم بجاية الشيخ ابي الحسن عبيد الله الازدي المتوفي بها سنة ٦٩١ ه – ١٢٩٢ م قـــال انه كان متنزهاً عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة ، ولقد مضى بسجده ابو الحسن الفقير [1] المعروف بالطيار مع صاحب له من الفقراء ، ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد ، فجلسوا من غير تحية فأمرهم بالتحية فقـــال له الطيار « ولذكر الله اكبر » وامتنع من الركوع ووقع بينه وبينهم في هذا كلام ، ولما ظهر منهم التوقف مع هذا المقال وعدم النزوع عن هذه الحال وقع العمل على نفيهم الى المغرب واخراجهم من البلد ؛ وتابع الغبريني حديثه عن امثال هؤلاء المتصوفة فقال : « والنفي في حق هؤلاء وامثالهم قليل وانما الواجب ان يعاملوا بأسوإ التمثيل وهؤلاء جملة اغبياء لا علم ولا عمل ولا تصوف ولا فهم وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون ان مبناهم على اساس [2]

الثقافة والحضارة والعمران

لم تحد هذه الدولة فيخطتها التمدنية عن ما قدمناه في تاريخ دولةالموحدين وكيف تحيد عنها وقد درجت من مهدها وتفرعت من ايكتهـــا وتغذت بلبانها ؟ .. فان معالم حضارة الحفصيين لا تزال قائمة الى اليوم وآثارهم مشاهدة باقية بدار سلطانهم ومركز حكمهم – تونس – الى الآن ؛ فهذه قلاع ومناور وثكنات ، وهذه معاهـــد وقصور ومرستانات ، وتلك مساجد ومدارس ودور كتب واسواق وحمامات ، وهي كلها تمتاز بطابعها الحفصي وشكلها

(١) هو لقب عام لاتباع طرق المتصوفة عندنا بالجزائر .

(٢) عنوان الدراية ص ٦٣ .

الاندلسي الجيل المرتكز في تخطيطه على فن المعار الصنهاجي وبنايات بني الاغلب .

ويرى ابن سعيد ان فن المعارة بتونس هو محض تقليد لمباني المغرب الاقصى القائمة يومئذ على سواعد مهندسين ومعماريين اندلسيين وهذا ما يقوله بلفظه : « ومن المعروف اليوم (٦٣٥ هـ — ١٢٣٧ م) ان هذا الازدهار وهذا الرخاء في مراكش انتقلا الى تونس فأقام سلطانها قصوراً وغرس حدائق وكروماً على الطريقة الاندلسية فاستعان في ذلك بمهندسي الاندلس وبنائيها وتجاريها ولبانيها ودهانيها وبستانييها ، فتم تشييد تلك المباني بحسب رسوم وضعها اناس من الاندلس أو صنعت تقليداً لمبان اندلسية » [1]

وهذا ما جزم به ابن خلدون وقرره في مقدمة تاريخه قائلا : « وانتقلت حضارة بني امية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد ويعود الى الموضوع نفسه في مكان آخر من المقدمة مؤكداً لهذا الرأي فيقول : « واما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدبهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من اهلها طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس ، عند جالية النصارى الى افريقية فابقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة ، وعلى كل حال فآثار الحضارة بافريقية — يعني بها تونس — اكثر منها بالمغرب وامصاره لما تداول فيها من الدول السالفة اكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد اهل مصر بكثرة المترددين بينهم » [2]

(١) الحضارة العربية ص ٦٤٨ .

(٢) المقدمة ص ٨٥ و ١٨١ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

والملحوظ على هذه الدولة انها قليلة الآثار بالجزائر وانها قصرت عنايتها العمرانية بعاصمة ملكها – تونس – دون بقية مملكتها المتسعة بالجزائر اللهم الا شيء تافه يسير كضيعة فرفار التي احدثها بالزاب الغربي السلطان ابوالعباس احمد الاول ٧٧٢ هـ - ١٣٧٠ م وتوسيع قصبة قسنطينة وجامعها الكبير سنة ٨١٦ هـ – ١٤١٣ م على عهد يحيى المنتخب ، وتأسيس مسجد واركلـه – وارجلان – (٦٣٦ هـ – ١٣٣٨ م) بالجنوب الجزائري المرسوم على مأذنته اسم الامير ابي زكرياء الاول فقط ، ولا اعلم لهذه الدولة من آثار لها بالجزائر باقية غير هذه ولعل عذرها في ذلك هو انصراف الحكومة يومئذ الى اخماد الفتن والثورات بالمغربين – الاوسط والادنى – واشتغال ولاة الامر بانقسام المملكة بين الجزائر وتونس واهتمامهم برد عادية المزاحمين لهم من بني مرين ومنافسيهم من بني زيان وشيوخ العرب ورؤساء القبائل البربرية الخ ... واياً ما كان فان فضل بني ابي حفص على فن المعمار لا ينكر .

اما عن الاقتصاد فان الجزائر كانت مزدهرة بما فيها من اسواق قائمةوتجارة رائجة في انواع الحبوب والتمور والماشية والصوف ، وخاصة بمدينة قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وارض الزاب ، وسير القوافل كان يومئذ منتظماً ما بين الجزائر والسودان ، وكذلك المواصلات بحراً ما بين المملكة الحفصية والولايات الاطالية كقطلونية وصقلية وجنوة ؛ فانه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكانت لها بهذه المدن المغربية مراكزهي بمثابة محطات ومستودعات لتبادل التجارة متبثة بكامل سواحل الشمال الافريقي كمركز بونة وبجاية والقالة فمن هـذه كانت تستورد حاجياتها الضرورية من حبوب وزيت وسمك وصوف ومرجان وانواع البسط والجلد الخ . . وذلك ما كانت الجزائر ولا تزال تغله الى الآن ، وكان مبلغ دخل الارباح التجارية لمرسى الخرز فقط ما يقدر بعشرة آلاف دينار سنوياً ، وبها كانت تصنع السفن والمراكب الحربية التي يغزى بهـا الى بلاد الروم ؛ ومستخلصي بوغة من غير جباية بيت المال عشرون الف دينار

سنويا [1]. وان المملكة الحفصية كانت بدورها كذلك تستورد من الخارج انواع الزجاج والمصوغ وادوات الحديد الصناعية الخ.. فازدادبذلك ثراء الرعية، ويمثل هذا بلغت ثروة اسرة القائد قبيل عشرين قنطاراً ذهباً ناضاً ومثلها من قيمة الجواهر والعقار والاثاث !...

ويحدثنا ابن خلدون عن المنصور بن فضل المزني – عامل الزاب – كيف حمى نفسه وانقذها من القتل على يد اميري الدواودة : علي بن احمد وسليمان بن علي بن سباع حين قبضا عليه واعتزما قتـــله ، قال فافتدى منها بخمسة قناطير من الذهب ، وكانت جباية الزاب لسنة ٧٥٨ هـ – ١٣٥٧ م على عهد يوسف بن المنصور هذا تبلغ القناطير من الذهب دفعه ببيت المال [2]

وفي الميدان العلمي نرى التعلم يومئذ منتشراً بواسطة الكتاتيب والمساجد التي هي معاهد الاســـلام العلمية منذ وضع الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حجر مسجد الاسلام بالمدينة من اول يوم الى الآن ، ويكفينا ان نعلم ان مـا ذكره ابن خلدون في مقدمته الحافلة من انواع جميع العلوم والمعارف والفنون والصناعات انما كانت كلها تدرس بالمساجد، ولقد تلقاها هو نفسه في المساجد، وكان رحمه الله يتطوع بنفسه لتثقيف طلبة العلم بالتدريس في مساجد الجزائر كما يؤخذ من سيرته في بجاية بمسجد القصبة على عهد ولايته الحجابة لامراء هذه الدولة ، تلك هي المساجد التي هدمها وخربها الاستعمار الفرنسي واخلى بقيتها من المدرسين ! ... وان حركة التأليف كانت مطردة بالجزائر كما تشهد بذلك كتب التراجم وفهارس العلماء ، فان مقدمة ابن خلدون وضعها مؤلفها بالجزائر بقلعة بني سلامة بالجنوب الغربي قرب مدينة « فرندة » من مقاطعة وهران سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وان كلا من الامام عبد الرحمن الثعالبي ، واحمد المغراوي ، واحمد بن يونس القسنطيني ، وابي العباس احمد بن ادريس البجائي، وحمزة بن محمد البجـائي ، ومحمد بن احمد الوانوغي ، ومحمد بن عبد القوي

(١) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧م

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٠٨ و ٤١١ ط بولاق ١٢٨٤هـ

البجائي ، وبنته رقية ، ومحمد التفاوسي ، ومنصور بن محمد المتناني، وناصر ابن احمد بن مزني، واسرة المشدالي في آخرين من العبقريين النبغاء الذين لا يقلون عن هؤلاء ثقافة وعلما وادبا كلهم انجبتهم الجزائر الحفصية ، واذا كان ابو علي المسيلي المعروف بأبي حامد الصغير حين يشار اليه بالتفرد في العلم يقول : ادركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون ، فما ظنك بالادباء والنحاة والمحدثين وغيرهم (١)

ويحدثنا الغبريني في عنوانه بشيء من التفصيل عن كتب الدراسة والفنون التي كانت تدرس عهدئذ بالجزائر، فهو يذكر لنا من دواوين امهات الفقه موطأ الامام مالك والتهذيب للبراذعي والجلاب والتلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي ، ومختصر بن ابي زيد ورسالته الشهيرة ، والمدونة وكتاب عبد الله بن عبد الحكم ، والتفريع لابن الجلاب ، والتبصرة للخمى ، وكتب ابن العربي والمازري والقاضي عياض . ومن كتب الفقه المالكي المتداولة يومئذ بالجزائر بل وبكامل المغرب العربي الاسلامي : كتاب ابي عمرو بن الحاجب المعروف بالمختصر الفرعي ، قال ابن خلدون: ولما جاء كتابه هذا الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا اهل بجاية لما كان كبير مشيختهم ابو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قد قرأه على اصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلاميذه ، ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية ، وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم ... (٢)

وكان في جملة من عني بشرح هذا الكتاب او التعليق عليه من علماء الجزائر: الشيخ عبد الرحمان الثعالبي وقد وقفت على نسختين مخطوطتين منه ، وعبد الرحمن ابن الامام التلمساني ومحمد بن عبد الله التلمسي ومحمد بن عبد الكريم

(١) عنوان الدراية ص ١٦ و ٣٢

(٢) المقدمة ص ٢٢٠ ط بولاق ١٢٧٤ ﻫ

المغيلي ، وكل من ابني مرزوق التلمسانيين : الجد والحفيد ، وابو العباس احمد ابن ادريس البجائي في آخرين ..... ولم يكن يومئذ بالجزائر او غيرها من بلاد المغرب من يعرف مختصر خليل حتى جاء به محمد بن الفتوح التلمساني سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) فاقبل عليه الناس وعنوا به وتناولوه بالشرح والتدريس مكتفين به عن بقية دواوين الفقه المالكي وامهاته .

وفي الاصلين كتاب الارشاد لامام الحرمين والمستصفى للغزالي ، والمعالم ، وكتاب الباقلاني وابن فورك ، والسنن للشافعي ، وكتاب الليث بن سعد البصري ، وجامع الخيرات لسفيان بن عيينة .

وفي التفسير كتاب الكشاف للزمخشري واحكام القرآن لابي الحسن علي ابن محمد الطبري ، والكشف والبيان عن تفسير القرآن لابي اسحاق احمد الثعلبي والتحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لابي العباس المهدوي ، والوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن عطية المحاربي الغرناطي .

وفي الحديث كل الصحاح – ما عدا ابن ماجة فانه لم يذكره الغبريني في برنامجه – وكتاب التمهيد لابن عبد البر القرطبي ، والمنتقى للباجسي ، والمختار الجامع بين المنتقى والاستذكار للقاضي ابي عبدالله محمد بن عبد الحق التلمساني ومسند احمد بن حنبل

واما علوم اللغة والأدب فانها كانت تدرس بالجزائر في كتاب سيبويه والايضاح لابي علي الفارسي–والجمل للزجاجي – والعقد الفريد لابن عبد ربه – وزهر الآداب للحصري – والقانون لابي موسى الجزولي–والمفصل للزمخشري – وادب الكتاب لابي محمد بن قتيبة – وامالي القالي – وديوان الحماسة لابي تمام وشعره وشعر المتنبي وأبي العلاء ومقامات الحريري – ومقصورة ابن دريد

واما التصوف فانه كان يدرس في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكي – والرسالة المنسوبة للقشيري ، وكتب ابي الفرج بن الجوزي – ورسالة فضل مكة لأبي سعيد الحسن بن ابي الحسن البصري

واما عن صناعة الطب فانها كانت - كما يقول الغبريني - اشد الصنائع ضياعا في بلادنا ذلك لانه يتعرضها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز الا عند القليل من الناس ؛ وهو يذكر لنا من كتب الطب المتداولة بينهم كتاب القانون لابن سينا وارجوزته المشهورة في الطب ، وكان ممن برع في هذه الصناعة واشتهر امره يومئــذ بالجزائر الطبيب ابن اندراس فانه كان ماهراً في علمه باحثاً مجيدا تصدر لاقراء العربية والطب ببجاية وكانت دروسه ومجالسه العلمية حافلة بأذكياء الطلبة واعيان العلماء ويجري فيها من الابحاث الدقيقة مــا يعز وجوده في بطون الكتب ، وكان ابن اندراس هذا على رأس الاطباء المختصين بقصر الامارة في بجاية وبها وضع ارجوزته في الادوية ، ثم استدعاه المستنصر الحفصي الى تونس فسلكه في طبقة اطبائه المختصين به [1] .

واما التاريخ فلقــد روى الثقات ان عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي (٦٦٤ - ٧٤٣ هـ) وضع تاريخا كبيراً يحتوي على نحو العشرين مجلداً ، قال ابن فرحون : بيض منه نصفه ذكر فيه من اول بدء الدنيــا وقصص الانبياء واخبار الامم من آدم الى زمانه [2] .

ولم يذكر لنا الغبريني عن كتب الفلسفة والمعقول شيئاً سوى علم المنطق فانه ذكر بأنه كان يدرس عندهم على طريقة الفارابي وابن سينا وغيرهما من الاقدمين وطريقة الفخر الرازي من المحدثــين والمتوسطين ، وذكر من كتب المعقول المتداولة بينهم كتاب النجاة والاشارات والتنبيهات وكلها لابن سينا . والذي يبدو من كلام المقري في ازهار الرياض وابن خلدون في مقدمته انــه لم يكن ببلاد المغرب يومئذ تحقق تام وتمكن من ناصية فنون الفلسفة والعلوم العقلية ؛ بحيث اننا لا نكاد نجد من آثارها ورسومها بالجزائر في هذا العصر الا قليلا عند امثال القاضي محمد بن ابراهيم الاصولي واضرابه ان اهلها مع قلتهم كانوا مضطهدين من قبل علماء النقل الجامدين المتزمتين [3]

(١) عنوان الدراية ص ٥ ٤-٦ ٤

(٢) الديباج المذهب ص ١٨٣ ط القاهرة ١٣٢٩ هـ

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٢٦

وقد تعدد في هذا العصر وضع الكتب في علم اسرار الحرف والطلسمات والاوفاق والسيمياء ... وكان فيمن اشتهر بالتخصص في هذا الفن من حكماء الجزائر الشيخ ابو العباس احمد بن علي البوني (٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م) فصنف كتاب شمس المعارف الكبرى طبع بمصر مراراً وكتاب الاغماط الخ ...

ويحدثنا التاريخ عن فخامة مكتبة الدولة الحفصية بما لم يعهد مثله يومئذ عند اي حكومة من الدول المعاصرة بالمغرب - ولا سيما في اوروبا - فان عدد كتب المكتبة الدولية بلغ ست وثلاثين الف مجلد ، [١] بينما كانت مكتبة باريس في مفتتح القرن الرابع عشر الميلادي لا تزيد على بضع عشرات من الكتب ، ومثلها كذلك مكتبة «اوكسفورد» Oxford من بلاد الانكليز فانها عهدئذ عبارة عن صندوق واحد فيه بضع مجلدات مجمولة تحت رحمة رئيس رهبان كنيسة مريم .

ورغم كل ما ذكرنا من تقدم الحضارة وتوفر اسباب الثقافة والمدنية في هذا العصر فقد سجل التاريخ عجز دولة الحفصيين عن وقاية المغرب من سقوطه من قمة مجده الشامخ التي تبوأها ايام دولة الموحدين ، ولكل امة اجل .

انهيار الجزائر الحفصية

لم تزل الدولة الحفصية حاكمة على القطر الجزائري الى ان دهمها الشقاء ونخر عظمها الخلاف والافتراق ، وظهر في الولاة والرؤساء حب الترف والاسراف والانهماك في الشهوات والظلم [١] ، فذهبت هيبتهم من الصدور وخلت عن توقيرهم النفوس ، فاستطار بالدولة سماع سوء وخفت نشاطها السياسي ، وشعر الاجانب بضعفها فارتاح لها اهل الحروب الصليبية فهاجمها لويس التاسع ملك فرنسا ومات هنالك بتونس كما تقدم ؛ وهاجمها ايضاً

(٢) مما يذكره التاريخ بكل اسى ان هذه الكتب التي جمعها ابو زكرياء الاول تفرقت وبيعت بسوق الكتبيين بتونس أيام حركة اللحياني الى قابس اوائل سنة ٧١٧ هـ . ١٣١٧ م . ولقد كان من حسن الجد ان عوضها الامراء بعده بمكتبات شتى .

كارلوس صاحب صقلية ؛ وذهب التيه يومئذ بالاسبان الذين انتصروا يومئذ على المسلمين بالاندلس الى غزو القطر الجزائري فاحتلوا المرسى الكبير بوهران سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) وزحفوا نحو تلمسان ومستغانم وتدلس – دلس – وبجاية واستولوا على قلعة مرسى « الجزائر » فهدموا منها منارها الذي انشأه المسلمون لمراقبة العدو وبنوا مكانه حصن « البنيون » وقد كان ذلك سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) بقيادة « الكونت دونافار » ؛ ويومئذ خرج والي الجزائر الحفصي المقيم بقسنطينة متوارياً الى قلعة بني عباس فاستقر بها الى ان ظهر الاتراك العثمانيون بتونس فقاومهم السلطان الحفصي الحسن بن محمد مستعيناً عليهم بالاسبان ؛ فتحولوا عنه الى مدينة « جيجل » بالجزائر ففتحوها سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) . وكانت ولاية بونة لاحمد بن حسن الحفصي فتزل عنها للاسبان جزاء حمايتهم ودفاعهم عن تونس ضد الاتراك . وبقي هو مقيماً بها الى ان بويع له بالملك مكان ابيه سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) فانتقل يومئذ الى تونس ، وكان ذلك آخر العهد بالدولة الحفصية بالجزائر .

وتمكن البرتغاليون يومئذ من احتلال بعض المراكز الهامة من الشمال الافريقي فأقاموا فيه محارس وحصوناً ، واضحت الاراضي الداخلية نهباً متنازعاً بين بداة الاعراب والقبائل البربرية – او قل المغربية – المستقلة التي كانت تأبى الخضوع والطاعة لنظام الدول الوطنية الحاكمة ، فضلت متحاربة

قال ابن بطوطة في رحلته « ... ثم وصلنا الى مدينة بجاية وكان اميرها اذ ذاك ابا عبدالله محمد بن سيدي الناس الحاجب وقد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من اهل الجزائر يعرف بأبي حديده ليوصلها الى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيدي الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم (١) .

---

(١) تحفة النظار ط باريس ١٨٥٣ م – ١٨٥٩ م .

متنافرة تفسح للاجنبي فرصة النصر والظفر ؛ ولم يكن كذلك حسن الوفاق قائماً بين حكام القطر الجزائري ولا سيما بين ولاة بجاية وقسنطينة ، فقد خضبت حروبهم المتوالية أرض الجزائر خلال القرن التاسع وطيلة السنين الاولى من القرن العاشر الهجريين (١٥ / ١٦ م) .

وكان ذلك كله سبباً مباشراً في تدهور الدولة الحفصية واضمحلال سلطانها وتضعضع كيانها ، فسقطت نهائياً بيد الاتراك الفاتحين يوم ٢٥ جمادى الاولى سنة ٩٨١ هـ (٢٤ سبتمبر ١٥٧٣ م) وامر آخر ملوكها محمد بن الحسن فنقل من تونس الى استانبول وبقي هنالك الى وفاته بها ، وبانتقاله انقرضت دولة الحفصيين من المغرب بعد ما حكمت ٣٥٤سنة، قضت منها بالجزائر ٣١٥ سنة.

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر ولاة الجزائر –فاتحة عهدالدولة الحفصية – الامير ابوزكرياء يحيى الاول ، حيث ولاه والده ابو محمد عبد الواحد بن ابي حفص ولاية بجاية وجعل وزارته ليحيى بن صالح بن ابراهيم ، ومشورته لابن ابي مهدي ، وجبايته لعبد الحق بن ياسين ، وعقد للعباس بن منديل على بلاده مغراوة بشلف وكانت حاضرتها مليانة ، ومنحه بها شبه استقلال وتصرف داخلي ، فاتخذ العباس ذلك ذريعة لاظهار ابهة الملك وشارة السلطان . وكان يومئذ عبد القوي بن العباس بن منكوس على ولاية توجين ، وقد تولى بجاية الامير ابو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء يحيى الاول (٦٣٣ هـ – ١٢٣٥ م) وكان لهم النظر في اعمالها ايضاً مثل مدينة الجزائر وبونة وأرض الزاب .

ولما فتح السلطان ابو زكرياء الاول مقاطعة قسنطينة سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) اقطعها لبني النعمان – هم من قبيلة هنتاتة بالمغرب الاقصى – ولم يزالوا ولاة بها يستعملون عليها من قرابتهم من شاؤوا الى ان نكبوا على يد السلطان المستنصر سنة ٦٥١ هـ – ١٢٥٣ م فتولاها يومئذ ابن كلداسن – من مشيخة الموحدين – فأقام هو بتونس واناب عنه ابو بكر بن موسى بن عيسى الكومي المعروف بابن الوزير ، فمكث هذا بقسنطينة الى ان عين من طرف

المستنصر محافظاً بها .

ولما استبد ابو علي الملياني[1] بعاصمة مغراوة ـ مليانـــة ـ سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦١ م جهز له السلطان المستنصر الاول اخاه الامير عمر فيمن معه فأخضعه وفي عودة الامير من غزاته هذه وافاه ـ وهو بطريقه الى تونس ـ عقد الولاية على بجاية جزاء بطولته وموقفه الحربي ضد الثائر الملياني المستبـــد بمغراوة ؛ فامتنع عمر من قبول هذه الولاية واستعفى اخاه السلطان منها فأعفاه وولى عليها يومئذ ابا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، فمكث بها الى وفاتـه بقرية بني ورار سنة ٦٧٣ ـ ١٢٧٤ م ، فخلفه عليهـــا ولده محمد ، فخشي السلطان استبداده فأشرك معـه في العمل ابا العلاء ادريس بن عبدالملك الغافقي وجعله على اشغال بجاية ، وكان ذلك بسعي من اخيه كاتب الدولة ابن الجبير ، فوجد محمد بن هلال في ذلك مضايقة له ، فعمــل على التخلف من ابي العلاء بقتله في أول ذي القعـدة ٦٧٧ هـ مارس ١٢٧٩ م .

ويقول الغبريني انه لما انفصل جيش بجاية مع جيش افريقية لحصار مليانة وبقيت البلاد شاغرة عاث المفسدون في الخـــارج وافسدوه وامتدت الايدي ووقع هرج عظيم ، فقام بأمر الناس قاضي بجاية وامام جامعها الاعظم الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن الغماز الانصاري ووقف خير موقف وحفر الحفير على البـلاد وشيد مـا احتاج الى التشييد من الاسوار وظهر من عقله وفضله ونبله وجده واجتهاده ما حمد به امره وجل به قدره[2] فعد بذلك من زعماء الجزائر ورؤسائها العاملين ؛ اما قسنطينة فقد كان على رأس قيادة جيوشهـا في التاريخ ـ ايام الواثق (٦٧٥ـ٧٨ هـ ـ ١٢٧٧ـ٧٩ م ـ عبـــد العزيز بن

---

(١) هو ابن أبي العباس احمد الملياني كان كبير وقته علماً وديناً ورواية وكان عالي السـند في الحديث فارتحل اليه الأعلام وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة فانتهت اليــه رئاسة بلده ـ مليانة ـ على عهد يعقوب المنصور وبنيــه (انظر ابن خلدون ج ٧ ط بولاق ١٢٨٤ م) .

(٢) عنوان الدراية ص ٧٠ .

عيسى بن داود الهنتاتي .

وفي سنة ٦٦٩ هـ ـ ١٢٧٠م ولى السلطان ابراهيم الاول ولده الاكبر ابا فارس عبد العزيز على بجاية، وجعل حجابته لمحمد بن ابي بكر بن خلدون جد المؤرخ الاقرب ، ولم تكن لتمر ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوماً على حجابة ابن خلدون هذا حتى قتل على يد ابن ابي عمارة الداعي . وفي سنة ٦٨١هـ ١٢٨٢ م قتل عامل قسنطينة ابو بكر بن الوزير اقتصاصاً منه بسبب خلع طاعته وثورته ضد الحفصيين ، وكان قتله على يد عبد العزيز الهنتاتي قائد الجيوش الاعلى بقسنطينة ؛ وجعل مكانه ابو محمد بن بوقيان الهرغي وهو الذي نصب ابا بكر بن ابي عبد الرحمن يعقوب السلمي الاندلسي على رأس الديوان بمدينة القل واستخلصه لنفسه .

وفي سنة ٦٨٤ هـ — ١٢٨٥ م عاد يحيىبن ابراهيم لامتلاك بجاية بمساعدة الدواودة ، فانتصر في حركته هذه واستقل بمملكة الجزائر وكان بذلك اول من قسم المملكة الحفصية الى شطرين « غربية وشرقية ؛ واتخذ لنفسه لقب « المنتخب لاحياء دين الله » وجعل حجابته لابي الحسن فارح بن سيد الناس الاشبيلي فلما توفي الحاجب المذكور ٦٩٠هـ ـ ١٢٩١ م خلفه ابو القاسم بن ابي جبي الاندلسي ؛ وفي سنة ٦٩٨ هـ ١٢٩٨ م عهد المنتخب لابنه خالد بولاية عهده وولاه على قسنطينة ؛ وكانت اقامة المنتخب تارة بقسنطينة وتارة ببجاية ، ولم يزل كذلك الى ان وافاه اجله ببجاية سنة ٧٠٠هـ — ١٣٠٠م . وبعد وفاته انتقل ولده خالد الى بجاية فاستوزر بها يحيى بن ابي الاعلام وجعل القيام بشؤون دولته لابي عبد الرحمن بن عمرو ، وولى قسنطينة علي ابن يوسف بن الامين الهمداني صهر الحاجب بن ابى جبى ؛ وقتل يوم ثورته على السلطان ابي البقاء بقسنطينة آخر سنة ٧٠٤ هـ — ١٣٠٥م وفي سنة ٧٠٥هـ ١٣٠٥م عزل الحاجب المذكور بتهمة موالاته لابي عصيدة خصم الامير خالد وتولى مكانه ابو عبدالرحمن يعقوب بن غمر السلمي ؛ ويومئذ غير ابنالامير

سياسته تعصباً لصهره وحول وجهته نحو ابي عصيدة فدعـا له ونادى باسمه ملكاً، فنهض الامير خالد الىقسنطينة فقتل عاملها المذكور واستعاد قسنطينة لطاعته ، وكان ابن اكمازير والياً على الجزاير فلما توفي (٧٠٦هـ - ١٣٠٧م) استبد بها ابن علمان الى سنة ٧١٣هـ -١٣١٣ م فخضع للسلطان ابي حمو الاول صاحب تلمسان .

ولما انتقل الامير ابو البقاء خالد بن يحيى الى تونس سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م عقد لعبدالرحمن بن المزوار يعقوب بن خلوف الصنهاجي على بجاية تحت رعاية واشراف الحاجب ابن غمر ، وبسعي من الحـاجب المذكور عقـد لاخيه ابي بكر بن يحيى على قسنطينة وكان قـد ولد ونشأ بهـا ؛ ولما صار الامر الى السلطان ابي بكر هذا الملقب (بالمتوكل على الله) وانتقل من قسنطينة الى تونس سنة ٧١٨هـ١٣١٨ م استقل الحاجب بن غمر بولاية قسنطينة وما والاها من التراب الجزائري ولم يكن لاسم السلطان معه ذكر الا في الخطبة والسكة فقط الى ان توفي بعد ذلك بسنة ، فولى السلطان يومئذ اعمال الجزائر لبنيه فجعل ولاية قسنطينة لابي عبدالله محمد المزداد والنـاشىء بها ؛ وبجاية لابي زكرياء يحيى؛وبونة -عنابة - للفضل؛وبعث معهم الحجاب والوزراء والقادة ؛ ثم تولى على اعمال قسنطينة الامير ابوالعباس احمد بن السلطانابي يحيى ابي بكر ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م وكان على حجابته ابو القاسم بن عبو من مشيخة الموحدين وفي سنة ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م هلك محمد بن السلطان ابي يحيى ابي بكر عامل قسنطينة . فتولى مكانه ولده ابو زيد عبد الرحمن تحت كفالة مولاهم نبيل . ولما هلك ابو زكرياء والي بجاية نجل السلطان سنـــة ٧٤٦ هـ - ١٣٤٥ م قدم البجائيون مكانه ابنه محمداً ، وكانحاجبه فارح المملوجي بن سيد الناس، واستمر ابو زيد ومحمد على ولايتها هذه الى يوم استيلاء ابي الحسن المريني على المملكة الحفصية سنة ٧٤٨ هـ - ١٣٤٦ م فشرد امراء بني ابي حفص ، ونقل محمداً الى ندرومة وعبد الرحمن واخوته الى وجدة . وابقى صهره الفضل ببونة .

وفي سنـــة ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م نهض ابو زيد عبد الرحمن بن محمد من عمله

بقسنطينة فدخل بونة مستنصراً عمه الفضل واجلب على تونس تاركاً ولايته لاخيه ابي العباس احمد . ثم بعد سنـــة وقعت ولاية قسنطينة بيد المرينيين فقبضوا عليه ونقلوه الى سبتة .

وفي سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م اقطع ابو العباس امير بجاية ولد اخيه ابا عبدالله محمداً اعمال بونة ، واشتهر من رؤساء الجنـــد ببجاية يومئذ القائد البشير وفي رمضان سنة ٧٦٥ هـ - جوان ١٣٦٤ م احتل الامير ابو عبدالله محمـــد بجاية وافتكها بعاضدة بني مرين من يدعمه ابي اسحق ابراهيم ، وكان ان استدعى لحجابته مفخرة المغرب الاسلامي عبد الرحمن بن خلدون الذي كان يومئذ بصحبة السلطان ابي فارس المريني بفاس . فبعث بأخيه يحيى بن خلدون كنائب عنه ويحافظ على الرسم الى ان عاد عبد الرحمن من الاندلس (جمادى الثانية ٧٦٦ هـ - فيبري ١٣٦٥ م) فاستقل بحمل اعباء الملك وتدبير السياسة ببجاية ، وهي رتبة قد شغلها قبله جده الادنى محمد بن خلدون على عهد ابي فارس بن أبي اسحاق . وباشر عبد الرحمن بنفسه التدريس والخطابة بجامع قصبتها نحو سنتين الى ان سعى به خصومه ومنافسوه الى السلطان ابي العباس احمد فخرج ابن خلدون من بجاية الى بسكرة بعد ما عاش في كنف الجزائر وتحت رعاية ملوكها الحفصيين نحو سنتين ، وقدّر ان وقعت بجاية بيد ابي العباس الحفصي صاحب قسنطينة وقتل ابن عمه الامير ابو عبد الله محمد ولما انتقل السلطان الى تونس ٧٧٢ هـ - ١٢٧٠ م اصطحب معه اخاه ابا زكرياء ونقله من ولاية بونة الى منصب الحجابة بتونس ، وجعل مكانه ولده محمداً ومن هنا بعث السلطان بولديه محمد وابراهيم الى الجزائر فجعل الاول على بجاية والثاني على قسنطينة ، وارسل معهما القادة والحجاب .

وفي سنة ٧٧٣ هـ - ١٣٧١ م عقد السلطان على قسنطينة للقائد بشير ، وبعد وفاته سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م جعل السلطان هذه الولاية لولده ابي اسحق ابراهيم مستقلاً بها ، وقد كان بها من قبل تحت وصاية القائد نبيل لصغره . ولما توفي الامير محمد صاحب بجاية سنة ٧٨٥ هـ - ١٣٨٣ م خلفه في منصبه ولده احمد

اما اخوه ابراهيم صاحب قسنطينة فانه توفي بعد اخيه بثماني سنوات فخلفه في ولايته كاتبه ابراهيم بن يوسف الغماري ٧٩٣ هـ – ١٣٩١ م

وبعد ان استولى السلطان عزوز الحفصي على قسنطينة واحتلها في رمضان ٧٩٨ هـ جوان ١٣٩٦ م قدم لقيادة الجند بها قائده نبلا ، وجعل على قصبتها الشيخ قاسم بن احمد بن تافراكين التينملي ، وولى اخاه زكرياء على بونة ثم نازل بعد ذلك نواحي لوراس فضل هنالك الطريق هو وجنده وكاد ان يهلك .

وفي سنة ٨١٠ هـ – ١٤٠٧ م انتصر المرينيون للامير محمد الحفصي المنهزم اليهم فأمدوه بالاسلحة والعتاد الحربي ، حتى اشتد ساعده وعظم بأسه فتقوى بذلك على فتح بجاية ، وعقد لابنه المنصور عليها ، فنهض السلطان عزوز لمقاومة الامير محمـــد الى ان ظفر به فقتله في المحرم ٨١٢ هـ – ماي ١٤٠٩ م واسر ولده المنصور وجعل ولاية بجاية لابي البقاء خالد ، ثم عزل ابو البقاء هـــذا بالمعتمد بن السلطان ابي فارس سنة ٨٢٤ هـ – ١٤٢١ م ثم عزل كذلك المعتمد سنة ٨٣٤ هـ – ١٤٣٠ م وتولى مكانه القائد ابو نعيم رضوان مملوك السلطان .

وفي هذه السنة قتل الدواودة قائد قسنطينة «جاء الخير» في معركة كانت بينهم فعقد السلطان ابو فارس لمملوكه محمود عليها ، فدخلها في ثاني عشر رجب – ثامن افريل – من سنته هذه ؛ وفي سنة ٨٣٧ هـ – ١٤٣٣ م ولى السلطان محمد المنتصر على قسنطينة أخاه اباعمر عثمان وجعل ولاية بجاية لعمه أبي الحسن علي بن عزوز ابي فارس . وفي سنة ٨٤٠ هـ – ١٤٣٦ م تنازع والي قسنطينة عثمان اخ المنتصر مع عمه علي بن عزوز صاحب بجاية على الملك فتحاربا وكان النصر بينهما سجالاً واخيراً تغلب عثمان على عمه ودخل بجاية في جمادى الثانية ٨٤٣ هـ – نوفمبر ١٤٣٩ م فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد فاغتيل هذا اوائل سنة ٨٤٦ هـ – ١٤٤٢ م وخلفـــه اخوه ابو محمد عبد الملك ؛ كما تولاها كذلك محمد بن فرج سنة خمسين . ثم في سنة ٨٥٦ هـ – ١٤٥٢ م اعتقل عبد الملك بن احمد بتونس وتولى مكانه احد موالي السلطان ، فأصبحت الجزائر يومئذ بيد الموالي ، وفي هذه السنة كانت ولاية بسكرة للقائد ابي زيد

عبد الرحمن الكلاعي .

واشتهر من رؤساء بسة في سنة ٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م محمد بن عبدون ،ومن رؤساء عرب رياح والدواودة المقيمين بضواحي قسنطينة وبجاية حوالي سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م يعقوب بن علي بن احمد المتوفي سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨٨ م وتولى مكانه ابنه محمد ؛ وفي سنة ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م عقد السلطان لولده عبد العزيز على بجاية واضاف اليه كذلك ولاية قسنطينة واعمـال بسكرة وتقرت ، وفي سنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م عقد السلطان لحفيده محمد المنصور بن محمد المسعود على ولاية قسنطينة وجعل بين يديه مزوارا القائد ابا علي منصور الصبان ، والقائد بشيرا على المدينة .

وكانت رآسة الزاب لبني رمان ثم لبني مزني ، واشتهر منهم سبعة :الفضل ابن علي وولده المنصور وابنه يوسف وعلي وحسن وأحمد فأهاج هذا التغيير بني رمان فعمدوا الى قتل الفضل بن مزني (٦٨٣ هـ - ١٢٨٤ م) والقوا بولده المنصور في السجن سبع سنين . ونصب أبو زكرياء نفسه على قسنطينة وبجاية ثم اعيدت امارة بسكرة لبني مزني ورآسة بني تليلان المعروفين باسم اولاد ثابت المقيمين بجبلهم المطل على القل شمال ميلة وقسنطينة للحسن بن ابراهيم بن ابي بكر بن ثابت ،وآخرهم علي ورئاسة قبائل سدويكش بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية هي لاولاد سواق ثم كانت لبني سيلين ، وكان من اشهر الرؤساء في اولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ، ثم ابناؤه :طلحة فيحيى فمنديل الذي عزله السلطان ابو بكر وادال من بني علاوة بني عمهم اولاد يوسف بن حمود بن سواق . ومن اشتهر من رؤساء احياء سدويكش القاطنين بجبل بابور وما اليه من نواحي بجاية : صخر بن موسى ، اختصه السلطان ابو يحيى بهذه الرآسة وكانت له مقامات في خدمته وعرف بعده بالوفاء لابنه الامير ابي حفص ، فلم يزل معه الى ان اوقـع به بنو مرين بناحية قابس فقطعه السلطان ابو الحسن المريني من خلاف ثم هلك ، فخلفه حينئذ ابنـه عبد الله وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية الى ان هلك اعوام الثمانين

فخلفه ابنه محمد [1]

وكانت رآسة وادي ريغ وتقرت وأرجلان بالجنوب الجزائري، للدواودة من بني يوسف اشتهر منهم عبيد الله بن يوسف بن عبد الله ، ثم ابناؤه داود فيوسف فمسعود ، ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد الذي تولى رئاسة قومه على عهد ابن خلدون؛وحاضرتهم يومئذمدينةتقرتوهي كما يصفها ابنخلدون : مصر مستبحر العمران بدوي الاحوال كثير المياه والنخيل ، وكان يوسفبن حسن ايضاً من بيت مشيختها فامتنع يوماً من اداء جبايته للسلطان ابي عمر وعثمان سنة ٨٥٣ هـ – ١٤٤٩ م فاقتحم عليه السلطان المدينة وامره في بنيه واهله وذويه . ورئاسة تماسين ؛ من وادي ريغ كذلك كانت لبني ابراهيم الريغيين ، ورئاسة وارقلة لابي بكر بن موسى بن سليمان من بني ابي غبول فخذ من بني وكير احدى بطون بني واركلة وكل مصر من هذه الأمصار الصحراوية التي ذكرنا كان مستبداً بأمره حرباً على جاره ... اما رئاسة وهاصة ببسيطبونة فهي لعسكر بن بطان من بني عريف ، ورئاسته لواته بنواحي بجاية كانت لولد راجح بن صواب اللواتي ، ومشيخة قبيلة بني ايراثن الزواوية كانت لبني عبد الصمد ، وقد ترأست فيهم امرأة تدعى شمس ، كان لها عشرة بنين .

ويبدو ان آخر ولاة الحفصيين بالجزائر هو الامير احمد بن الحسن ، ولي اعمال بونة ايام والده السلطان الحسن بن محمد الى ان نبذ التونسيون عهد والده وبايعوا ولده المذكور مكانه سنة ٩٤٣ هـ – ١٥٣٦ م كما تقدم الالماع الى ذلك . وآخر ولاة قسنطينة هو ابو الحسن علي بن فراح المتولي عليها ايام محمد الحسن بن محمد الخامس اما عن رئاسة البحر وقيادة الاسطول الحفصي فإني لم اقف على تسمية رجال هذا السلك سوى اثنين فقط : زيدون بن فرحون قائد اسطول بجاية ومحمد بن أبي مهدي زعيم بجاية وقائد الاسطول بها مع انه كان لهذا الاسطول حركة مستمرة بهذا البحر .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩ – ١٥١

ملوك الدولة الحفصية

	تاريخ التولية
ابو زكرياء يحيى (الاول)	٦٢٧ هـ — ١٢٢٩م
ابو عبدالله محمد (الاول) المنتصر	٦٤٧ هـ — ١٢٤٩م
ابو زكرياء يحيى (الثاني) الواثق	٦٧٥ هـ — ١٢٧٧م
ابو اسحاق ابراهيم (الاول)	٦٧٨ هـ — ١٢٧٩م
احمد بن مرزوق بن ابي عمارة (الدعى)	٦٨١ هـ — ١٢٧٣م
ابو حفص عمر (الاول) المستنصر	٦٨٣ هـ — ١٢٨٤م
ابو زكرياء يحيى المنتخب لاحياء دين الله	٦٨٣ هـ — ١٢٨٤م
ابو عبدالله (ابو عصيدة) محمد (الثاني) المنتصر	٦٩٤ هـ — ١٢٩٥م
ابو البقاء خالد الناصر (الاول) – ببجاية، ثم انفرد بالحكم	٦٩٩ هـ — ١٢٩٥م
ابو بكر (الاول) الشهيد – ببجاية ، ثم انفرد بالحكم	٧٠٩ هـ — ١٣٠٩م
ابو البقاء (الاول) الناصر	٧٠٩ هـ — ١٣٠٩م
ابو بكر (الثاني) المتوكل – بقسنطينة وبجاية –	٧١١ هـ — ١٣١١م
ابو يحيى زكرياء اللحياني	٧١٧ هـ — ١٣١٧م
ابو ضربة محمد (الثالث) المستنصر	٧١٧ هـ — ١٣١٧م
ابو يحيى ابو بكر (الثاني) المتوكل	٧١٨ هـ — ١٣١٨م
ابو حفص عمر (الثاني)	٧٤٧ هـ — ١٣٤٦م

	تاريخ التولية
ابو العباس احمد (الاول) الفضل – بقسنطينه وبجاية	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو زيد عبد الرحمن – بقسنطينة –	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو عبدالله محمد المنصور – ببجاية –	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو العباس احمد (الاول) المتوكل – ثانياً –	٧٥٠ هـ – ١٣٤٩م
ابو اسحاق ابراهيم (الثاني) المستنصر	٧٥١ هـ – ١٣٥٠م
ابو عبدالله محمد المنصور – ببجاية –	٧٦١ هـ – ١٣٦٠م
ابو البقاء خالد (الثاني)	٧٧٠ هـ – ١٣٦٨م
ابو العباس احمد (الثاني) المستنصر	٧٧٢ هـ – ١٣٧٠م
ابو فارس عبدالعزيز – عزوز – (المتوكل)	٧٩٦ هـ – ١٣٩٣م
ابو عبدالله محمد (الرابع) المنتصر	٨٣٨ هـ – ١٤٣٤م
ابو عمرو عثمان	٨٣٩ هـ – ١٤٣٥م
ابو زكرياء يحيى (الثالث)	٨٩٣ هـ – ١٤٨٨م
ابو عبدالله محمد (الخامس) المتوكل	٨٩٩ هـ – ١٤٩٣م
ابو عبدالله محمد الحسن – بن محمد الخامس -	٩٣٢ هـ – ١٥٢٥م
ابو العباس احمد (الثالث) بن الحسن	٩٤٨ هـ – ١٥٤١م

من مشاهير الجزائر

يحيى بن عبد المعطي

٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م

وهو ابو الحسين زين الدين ابو زكرياء يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الجزائري الزواوي ، منتمي اصله من قبيلة (آفراوسن) بزواوة ؛ ترجم له ابن خلكان ترجمة حافلة ، وقال انه : كان احد ائمة عصره ، مبرزاً في علوم العربية شاعراً محسنا كثير الحفظ ، وكان من جملة محفوظاته كتاب الصحاح للجوهري ، ولد ابن معطي بالجزائر سنة ٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م واخذ العلم عن مشائخ بلده وتفقه بالمذهب المالكي على الشيخ ابي موسى الجزولي ، ثم انتقل الى المشرق فتشفع ثم تحنف ، فكان في ذلك مثل ابن مالك وابي حيان حين خرجا من المغرب ، ولم يأت اولئك ببدع ، فقد رأينا كثيراً ممن غير مذهبه من العلماء الاعلام وانتقل الى مذهب آخر ، كالشيخ محمد بن الدهان النحوي كما تقدمت الاشارة اليه ، والخطيب البغدادي الحافظ المشهور فانه كان حنبليا ثم تشفع ، وابن فارس صاحب المجمل في اللغة ، كان شافعيا ثم انتقل الى مذهب مالك ، وابن دقيق العيد كان مالكيا ثم تحول الى مذهب الشافعية ، في آخرين كثيرين ...

سكن الشيخ ابن معطي دمشق فسمع بها من ابن عساكر ، واقرأ بها

النحو فانتفع به خلق كثير ، وولاه الملك المعظم مصالح الجامع ، ثم ان الملك الكامل بمصر رغب اليه في الانتقال الى القاهرة فانتقل الشيخ الى بلاد الكنانة وتصدر هنالك لاملاء الادب العربي وتدريسه بجامعها العتيق فالتف يومئذ حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه واقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وادبه فأخذوا عنه علما كثيراً وأدبا جما ، واجرى له الملك على ذلك جراية، فأكب المترجم على التدريس والتأليف فتخرج عنه عدد عظيم. وكان مما وضعه من التآليف الفيته في النحو المشهورة باسم الدرة الالفية في علم العربية وهي التي اشار اليها ابن مالك النحوي في دباجة خلاصته واثنى عليه فيها ؛ وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع وبعضها من الرجز ، طالعها :

يقول راجي ربه الغفور   يحيى بن معطي بن عبد النور

وهي مطبوعة بمصر ، وللعلماء عليها شروح كثيرة اشهرها شرح الشريشي؛ وله كتاب الفصول ، وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وحواش على اصول ابن السراج في النحو، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو ، وشرح لابيات سيبويه نظما ، كما نظم الجمهرة لابن دريد في اللغة ونظم كتاباً في العروض ، وله قصيدة في القراآت السبع وديوان خطب ، وكتاب المثلث ، وعني اخيراً بنظم كتاب الصحاح للجوهري فتوفى ولم يكمله ، ويروى له من الشعر قوله:

قالوا تلقب زين الدين فهو له   نعت جميل به قد زين الامنا
فقلت لا تعذلوه ان ذا لقب   وقف على كل نحس والدليل انا !...

ولم يزل الشيخ على حاله وخطته العلمية موفور الكرامة الى ان وافاه اجله فتوفى رحمه الله بالقاهرة سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٨ هـ — ٢٩ سبتمبر ١٢٣١م ودفن من الغد على شفير الخندق قرب تربة الامام الشافعي رضي الله عنه .

عبد الرحمن بن السطاح

٦٢٩ هـ – ١٢٣١ م

هو ابو زيد وابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر المعروف بابن السطاح اصله من مدينة الجزائر وسكن بجاية ثم انتقل في طلب العلم الى الاندلس فدخل اشبيلية واخذ بها عن ابي الحسن بن زرقون وابي بكر بن طلحة النحوي وابي عبد الرحمن بن علي بن طرفة ؛ ومنها انتقل الى مرسية فاتصل بها بابي القاسم الطرسوني فأخذ عنه مقامات الحريري وكتباً اخرى في الادب وعلم الاحكام . وهنالك اذن له المشايخ في التعليم فجلس بهـا للاقراء سنة ٦١٨هـ – ١٢٢١ م وكان يشتغل فيها بعقد الشروط وتحرير الصكوك وله في ذلك القدم الراسخة والباع الطويل فتقدم بذلك على ارباب هذا الشأن في الاندلس ، ثم عاد الى بجاية سنة ٦٢٣هـ – ١٢٢٦ م فانقطع بها لتدريس العلم محترفاً مهنة التوثيق ، فأخذ عنه جماعة منهم ابو عبدالله الصدفي ، وابو عبدالله ابن الطراز . ثم كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٢٩هـ – ١٢٣١ م

احمد بن هلال العروضي

٦٤٠هـ – ١٢٤٢ م

الاديب الكبير واللغوي الحجة ابو العباس احمد بن هلال العروضي ، من اهل مدينة الجزائر ففيها نشأ وبها تعلم وقرأ ثم انتقل الى بجاية فاجتهد في تحصيل فنون الشعر والقوافي وتخصص في فن العروض حتى اشتهر به فدعي بالعروضي ، وارتحل الى الاندلس فسكن مرسية وعنه اخذ اهلها العروض ومكث بها الى وفاته رحمه الله سنة ٦٤٠هـ – ١٢٤٢ م

عبدالله بن السكات

٦٤١ هـ — ١٢٤٣ م

هو الامام القاضي ابو محمد عبدالله بن حجاج بن عبدالله بن يوسف المعروف بابن السكات من اشهر بيوتات مدينة الجزائر العريقة في المجد الحائزة على رئاسة العلم ايضاً بها ، كان والده من قضاة العدل بهذه المدينة .

ولد مترجمنا بالجزائر في شهر صفر سنة ٥٦٢ هـ - ديسنبر ١١٦٦ م وبها نشأ وتعلم وكان من اشهر مشائخه بها والده والشيخ ابو عبدالله بن الحسن الجزائري ؛ انتقل المترجم الى الاندلس فلقي بمالقة ابا الحجاج بن الشيخ فسمع منه كتاب الاحكام لعبد الحق الاشبيلي وغيره من مؤلفات الاندلسيين الفقهية والادبية . واخذ ايضاً عن الامام ابن العربي ، وله رواية عن ابي موسى الجزولي . ثم انتقل الى بجاية فتولى قضاءها بعد تأخير ابي عبدالله محمد بن ابراهيم الاصولي المتوفي سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٦ م والمترجم له في الجزء الاول من كتابنا هـــذا صفحة ٣٩٦ وطالت مدته في القضاء وعلى طول مدته في هذه الولاية فإنه لم يتناول من مرتبه شيئاً لطعامه وانما كان ينفقه في الصدقة وصلة اهل البر، وما كان يطعم الا من شيء كان يتناوله من عقار له ببلدة الجزائر ورثه عن ابيه ، وكان مشهوراً بالعـــلم والفضل والعفاف عادلاً في احكامه مشاوراً لاهل العلم فأخذ عنه اناس ؛ وتوفى رحمه الله يوم التاسع والعشرين من شهر جمادى الاولى سنـــة ٦٤١ هـ - ١٥ نوفمبر ١٢٤٣ م وترك خمسة اولاد كل منهم ساد وحاز المراتب العليا وافاد .

محمد بن منداس

٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م

هو ابو عبدالله محمد بن قاسم بن منداس ، اصله من بلدة آشير ، وولد بمدينة

الجزائر فاتح جمادى الاولى سنة ٥٥٧ ﻫ — ١٨ افريل ١١٦٢ م وفيهـــا نشأ وترعرع وتأدب ؛ اخذ عن الشيخ ابي محمد بن عبدالله وعلي بن عتيق ، وعن نخبة من ذوي الفضل ، ولما ورد الشيخ ابو موسى الجزولي على مدينة الجزائر سنة ٥٨٠ ﻫ — ١٢٨٤ م لازمه الشيخ ابن منداس واخذ عنه علوم اللغـــة والأدب . كما انه لقي في رحلته الى قابس الشيخ ابا القاسم بن مجكان آخر من روى عن ابي عبدالله المازري ؛ ثم عاد ابن منداس الى بلده الجزائر مجتهداً في نشر فنون من العلم وخاصة علوم الحديث فكان ممن أخذ عنه ابو عبـد الله ابن الابار ، وكانت وفاته رحمه الله فاتح شهر المحرم ٦٤٣ ﻫ — ٢٩ مـــاي ١٢٤٥ م .

محمد بن الحسن القلعي

٦٧٣ ﻫ — ١٢٧٤ م

هو عميد اهل الأدب وزعيمهم بالجزائر وفحل من فحول الشعراء وامراء البيان وجهابذة العلماء المحققين الراسخين في العلم : العلامـــة الشيخ ابو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي . نسبة الى قلعة بني حماد [١] الـتي كان جده ميمون قاضياً بها .

نشأ المترجم بمدينة الجزائر فقرأ على جـــلة علمائها كالشيخ ابي عبدالله بن منداس الآنف الذكر وغيره ومنها انتقل الى بجاية فاجتهد في تحصيل العـلم والأدب بها واستوطن هنالك فتخرج على يد اساتذتها الكبار منهـــم الشيخ ابو الحسن الحرالي ، والفقيـــه ابو الحسن بن ابي نصر ، والفقيه ابو بكر بن محرز ، والفقيه ابو المطرف بن عميرة وابو زيد بن السطاح في آخرين من نخبة الادباء والعلماء .

---

(١) راجع الجزء الاول.

برع الشيخ في فنون كثيرة من العلم وخاصة الأدب فانه كان آية في تحريره غزير المادة فيه، تقرأ عليه جميع امهات كتب الأدب والشعر فيقوم على جميعها احسن قيام ، وكان يحضر مجالسه الكثير من فضلاء الطلبة ونبهائهم ، وكثيراً ما كانت تعرض عليه المسائل العويصة والمشاكل المختلفة في التفسير والحديث وغريب الشعر وغيره فيتصدى لشرحها وتحليلها بكيفية عجيبة مما لا يكاد يوجد عند غيره من العلماء بل ولا في نوادر الكتب ايضاً ؛ ومن تلامذته المشهورين ابو العباس احمد الغبريني مؤلف « عنوان الدراية » فقد لازمه اكثر من عشر سنين واستفاد منه علماً كثيراً وادباً جماً وسطر اعترافه بفضل شيخه هذا في عنوانه فقال : وهو افضل من لقيت في علم العربية لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة اعوام واستمتعت به كثيراً واستفدت منه كبيراً، قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته، وقرأت عليه جملة من الامالي وزهر الاداب ومن المقامات وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي وحضرت قراءة المفصل ؛ وكان رحمه الله محباً في التعليل ؛ وله من التآليف كتاب سماه بالموضح في علم النحو ، وحدق العيون في تنقيح القانون – لعله قانون ابى موسى الجزولي ؟ – ونشر الخفي في مشكلات ابي علي ؛ هو على الايضاح . وكان يؤثره على غيره من الكتب .

وكان قدس الله روحه سخي الدمع سريع العبرة . فيه فضل وسخاء ومروءة وانتخاء ، وكانت يده ويد الطلبة في كتبه سواء لا مزية له عليهم ، بارع الخط جيد الشعر مكثراً منه يسلك فيه طريق ابي تمام حبيب بن اوس وكان صديقه الاديب ابو عبدالله محمد بن احمد الاريسي المعروف بالجزائري شيخ كتبة الديوان ببجاية يسلك في شعره سلوك المتنبي ، وكانا يتراسلان بجيد المنثور وبديع المنظوم . فمن شعر المترجم القلعي قوله في طالع قصيدة في مدح الحضرة النبوية :

أمن أجل ان بانوا فؤادك مغرم ... وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك الا ان جسمك منجد ... وقلبك مع من سار في الركب متهم

ومن قائل في نظمه متعجبـــا	وجسم بلا قلب فكيف رأيتم؟!.
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه	فحيث ثوى المحبوب يثوي المتيم
وماضرهم لو ودعوا يوم او دعوا	فؤادي بتذكار الصبابـة يضرم
عسـاهم كما ابدوا صدوداً وجفوة	يعودون للوصل الذي كنت اعلم
واني لادعو الله دعـوة مذنب	عسى انظر البيت العتيق وألثم
فيا طول شوقي للنبي وصحبه	ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكـتم

وهي تحتوي على ثمانية عشر بيتاً . وله موشحات حسنة ؛ ولقـد شرع بنفسـه في جمع شعره وتدوينه عام ثلاثين وستمائة هجرية وعاش بعد ذلك ثلاثاً واربعين سنة فلو تم له تدوين شعره كله لكان في مجلدات كثيرة ؛ ويقـــول الغبريني انـــه كان منه بأيدي الناس كثير [١] وتوفي رحمه الله ببجاية سنة ٦٧٣ هـ – ١٢٧٤ م .

ومن شعر صديقه الاريسي الجزائري المذكور قوله في طالع مقطوعة يتحنن فيها الى ارض الحجاز :

ادرها فقد هبت نسيمة دارين	ونم بسر الروض نشر الرياحين
وقام خطيب الورق يدعو هزيله	وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين
وذكـر ايام الصبابة والصبــــا	ولذة عيش كان لي غـير ممنون
فثار كمين الوجـــد من مستقره	وبحت بـسر بـين جنبي مخزون

وكلاهما شاعر فحل مكثر ولهما في مختلف اغراض الشعر وفنونه كل ماهو حسن جيد ، وكلاهما يعد من كبار ادباء الجزائر في اواسط القرن السابع الهجري رحمهما الله .

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٩ ـ ٤٣ .

ابو زيان ناصر بن مزني

٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ م

العالم المقرىء والمؤرخ الفقيه الشيخ ناصر بن احمد بن يوسف بن منصور ابن فضل بن علي بن احمد بن حسين بن عبدالمعطي بن الحسين بن مزني الفزاري البسكري ، يكنى بابي زيان وابي علي ولد ببسكرة في المحرم سنة ٧٨١ هـ — افريل ١٣٧٩م من اسرة كريمة هي منتهى رآسة الزاب ومعقد آماله ، اذ كانت امارة بسكرة وارض الحضنة بيدها منذ تولاها جده الفضل بن علي[1].

اشتغل المترجم بالعلم اولا في بلده فأخذ القراءات عن ابي الحسن علي بن عبد الرحمن التوزري ، وكان يعظمه جداً ؛ واخذ الفقه عن الامام بن عرفة وابي فارس عبد العزيز بن يحيى الغساني البرجي، ومحمد بن علي ابراهيم الخطيب، وعيسى بن احمد الغبريني وسمع عليه الصحيح .

انتقل ابن مزني هذا الى مصر سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠م فحج في هذه السنة ونكب في كثير من ماله وكتبه في جملة ما اصاب ركب المغاربة من النهب يومئذ ؛ واتفق ان نكبت اسرته في هذه السنة ايضاً ببسكرة فعزل والده عن الامارة ونزل السلطان الحفصي ببسكرة فحطم بيت ابن مزني، فاستقر لذلك المترجم بالقاهرة وكان بها يومئذ صديق آبائه العلامة الامام عبد الرحمن بن خلدون فعطف عليه وسعى له لدى من بيده الامر حتى نزل بالشيخونية ، وبها سمع صحيح البخاري على التقي الدجوي ، ولازم الشيخ ابن حجر مدة طويلة فاستفاد كل منهما من علم صاحبه ؛ ولابن مزني هذا عناية خاصة واهتمام كبير بالتاريخ واخبار الرواة . جاعة لذلك ضابطا له مكثرا منه وقد شرع في جمع تاريخ كبير للرواة لم يجمع احد مثله . ولم يقدر له تبييضه حيث اصيب في بصره سنة ٨٢٢ هـ ١٤١٩ م وانتقل من الشيخونية الى البرقوقية وطالت علته وعاجلته المنية فتوفي رحمه الله يوم ٢٠ شعبان ٨٢٣هـ — ٣٠اوط ١٤٢٠م ولم يكمله ، يقول ابن حجر انه لو اتم كتابه المذكور في التاريخ

(1) راجع صفحة ٢٦ من هذا الجزء .

لـكان مائة مجلد! فانه جمع منه في مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت الحد ؛ ومات فتفرقت مسودته شذر مذر ، ولعل اكثرها عمل بطائن مجلدات !.. وذكره المقريزي في عقوده فقال ان صاحب الترجمة كان يتردد اليه ، وقال رحمه الله ما ذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة .

احمد بن ابي القاسم الخلوف

٨٩٩ هـ — ١٤٩٤ م

هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن ابي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف الحميري ، انتقلت اسرته من مدينة فاس الى الجزائر فسكنت مدينة قسنطينة ، وبها كان مولد مترجمنا في ثالث المحرم سنة ٨٢٩ هـ (منتصف نوفمبر ١٤٢٥ م) وذهب به والده صبيا الى مكة فجاور هنالـك اربع سنين ثم انتقل به الى بيت المقدس وبه حفظ ولده القرآن الكريم وكتبا جمة في فنون مختلفة وبما ان الوالد كان متضلعاً من فنون الادب والفقه فأخذ ولده بدراسة ما عنده من العلم ، ثم تركه يتزج بشيخة المشرق . فاتصل المترجم يومئذ بأبي القاسم النويري ولازمه فأخذ عنه الفقه وعلوم اللغة والاصول وغيرها وانتفع به ، كما انه اخذ روايته في القراءات وعلوم القرآن عن الشهاب بن رسلان والعز القدسي وماهر وغيرهم ؛ ثم انتقل الى القاهرة ؛ والظاهر ان ذلك كان بعد وفاة والده بالقدس الشريف ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م وهناك اجتمع بالعز عبد السلام البغدادي فاخذ عنه النحو والصرف والمنطق ؛ وكان ممن اخذ عنه العربية ببلاد المغرب احمد السلاوي ويقول عنه : انـه احفظ من لقيه بها .

واستقر مترجمنا بالمغرب مشتهراً بين اعيان علمائه بالادب والعلم الغزير متعاطيا لنظم الشعر الرقيق الفحل ، فاستكتبه المولى المسعود بن عثمان حفيد ابي فارس الحفصي ، وقدم الى القاهرة غير ما مرة ومنها رحلته اليها بمناسبة

حجه سنة ٨٧٧ هـ – ١٤٧٢ م فاجتمع فيهـــا بالأمام السخاوي وجرت بينهما محاورات ادبية ذكرها السخاوي في تاريخه «الضوء اللامع» وقال في وصفه : ولقيته مودعاً له وهو حسن الشكالة والأبهة ظاهر النعمة ، طلق العبارة بليغاً بارعاً في الادب ومتعلقاته ويذكر بظرف وميل الى النزة وما يلائمها ، كتب عنه غير واحد بالقاهرة والاسكندرية ومما كتب عنه من نظمه ما ضمن فيه قول ابن الاحمر صاحب الاندلس :

افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي   على اي حال كان لا بد لي منك
فأمـــا بذل وهو اليق بالهوى   وامـــا بعز وهـو اليق بالملك

فقال :

اماط الهوى عن واضحي برقع النسك   فوجدت من اهواه عن هـوة الشرك
فقلت وقـــد افتت لحاظك بالفتك   افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي
على اي حال كان لا بد لي منك

يميناً بنجم القرط منك اذا هوى   وخال على عرش بوجنتك استوى
لئن لم تفي لا بد للقلب ما نوى   فامـــا بذل وهو اليق بالهــوى
وامـــا بعز وهو اليق بالملك

ولاشتهار مترجمنـــا بجودة الشعر والكتابة عرف بين أدباء عصره بذي الصناعتين ، فهو حقاً من امراء الشعر المتفننين وفحول الادب العربي البارعين طويل النفس ضليع في فن القريض ، له ديوان شعر خاص بمدح الحضرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام توجه بمقدمة حافلة تدل على رسوخ قدمه وتمكنه من ناصية اختصاصه وتعلقه الشديد بالجناب النبوي الشريف ؛ ولقد والله ابدع في منظومه ومنثوره ايما ابداع وجاء بما لم يوفق اليه غيره من ائمة هــذا الشأن كالبوصيري واضرابه من شعراء المديح ، فان قصائده كلها عيون وكلها تتدفق سلاسة وطبعا ، وان اقصر قصيدة فيه لا تقل عن مئات الابيات .

والشعر في هذا الغرض كما لا يخفى هو من أصعب الاغراض على الشعراء ، وذلك لعلو مقامه الشريف ﷺ وتسامي منزلته التي لا تدانى ولا ترام وكل مدح او اطراء في جنابه عليه الصلاة والسلام يعد تقصيراً ، ولذلك تجنبه فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمـــام والبحتري والمتنبي وغيرهم من صاغة القريض ورواض القوافي ولله در ابن الفارض حيث يقول :

وعلى تفنن واصفيـــه بمدحـــه — يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وديوانه هذا بحمد الله هو مما ازدادت به مكتبتنا المتواضعة ، وهو بخط جميل في ست واربعين ومائتي صفحة من القطع الكبير ؛ وذكر لي ان له ديواناً مطبوعاً ببيروت سنة ١٨٧٣ م ولا ادري اهو نفس المخطوط الذي ذكرناه ام غيره حيث لم اقف عليه . واكثر اشعاره رحمه الله في مدح السلطان ابي عمرو عثمان بن ابي عبدالله الحفصي فله فيه القصائد الرنانة الشائقة .

اما تآليفه من غير الديوان المذكور فله في العروض : تحرير الميزان لتصحيح الاوزان ، وبديعية ميمية سماها مواهب البديع في علم البديع ؛ وله عليها شرح حسن ، ورجز في تصريف الاسماء والافعـــال سماه جامع الاقوال في صيغ الافعال ، وله في علم الفرائض كتاب عمدة الفائض ؛ كما يوجد له بمكتبة باريس وبرلين ولندن وبطرسبورج ديوان مخطوط مرتب على حروف الهجاء . وله موشح مستقل في مكتبة برلين ؛ وكانت وفاته رحمه الله بتونس سنـــة ٨٩٩ هـ ١٤٩٤ م ودفن هناك بتربة سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه .

جدول تاريخي

٦٢٧ – ٩٤٣ هـ (١٢٢٩ – ١٥٣٦ م)

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٦٢٧ هـ – ١٢٢٩م	تأسيس الدولة الحفصية
٦٢٨ هـ – ١٢٣٠م	اذعان مقاطعتي قسنطينة وبجاية للدولة الحفصية
٦٣٦ هـ – ١٢٣٨م	نجاح الحفصيين في فتح اعمال الجزائر الغربية
٦٤٠ هـ – ١٢٤٢م	الاستيلاء الحفصي على تلمسان
٦٤٣ هـ – ١٢٤٥م	المبايعة بالخلافة
٦٤٧ هـ – ١٢٤٩م	وفاة السلطان ابي زكرياء الاول ببونة ودفنه بجانب الشيخ ابي مروان ثم نقله الى قسنطينة حيث مدفنه الآن
٦٦١ هـ – ١٢٦٢م	حوادث ابي القاسم بن ابي زيد الحفصي بالجزائر
٦٦٤ هـ – ١٢٦٥م	حركة السلطان المستنصر الاول الى قمع المنشقين بالجزائر
٦٦٨ هـ – ١٢٦٩م	تمكن يغمراسن بن زيان من استرجاع مملكته الغربية
٦٦٩ هـ – ١٢٧٠م	مشاركة الجزائريين في دفع عادية الصليبيين عن المغرب وانتقاض اهل مدينة الجزائر وفتحها .
٦٧٧ هـ – ١٢٧٩م	ولاية ابي اسحاق الاول على بجاية ثم على عرش الملك بمبايعة الجزائريين
٦٩٢ هـ – ١٢٩٣م	ولادة السلطان ابي بكر الثاني بقسنطينة
٦٧٨ هـ – ١٢٧٩م	ولاية بني مزني امارة الزاب الجزائري
٦٨١ هـ – ١٢٨٣م	ظهور الزعيم ابن ابي عمارة الجزائري وقتله
٦٨٤ هـ – ١٢٨٥م	انفصال القطر الجزائري واستقلاله عن السلطة المركزية

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٦٨٦ ﻫ — ١٢٨٧م	اعتداء الافرنج على الساحل الجزائري
٦٩٩ ﻫ — ١٢٩٩م	ابتداء النزاع بين الحفصيين وبني مرين على الجزائر
٧٠٣ ﻫ — ١٣٠٣م	نشوب الخلاف بين طائفة «السنية» وأمير الزاب: ابن مزني
٧١٧ ﻫ — ١٣١٧م	ابطال وضع التاج عند ملوك هذه الدولة
٧٢٩ ﻫ — ١٣٢٨م	ولادة السلطان ابي العباس احمد الثاني بقسنطينة
٧٣٧ ﻫ — ١٣٣٧م	احتلال السلطان ابي الحسن المريني لتلمسان
٧٦١ ﻫ — ١٣٦٠م	استعادة الحكومة المركزية لملكة الجزائر
٧٨٦ ﻫ — ١٣٤٨م	عصيان ابن مزني – امير الزاب – وحركة السلطان اليه
٧٩٦ ﻫ — ١٣٩٤م	تنازع امراء بني ابي حفص على ولاية قسنطينة وبجاية
٨٠٤ ﻫ — ١٤٠٢م	القضاء على امارة بني مزني ببسكرة
٩١٠ ﻫ — ١٥٠٤م	ظهور القرصنة الاسبانية بالسواحل الجزائرية
٩١٦ ﻫ — ١٥١٠م	اقامة الاسبان لحصن « البنيون » بثغر مدينة الجزائر
٩١٩ ﻫ — ١٥١٣م	ظهور الاتراك العثمانيين بالميدان
٩٤٣ ﻫ — ١٥٣٦م	سقوط الجزائر الحفصية

الدولة المرينية

٦٦٨ - ٧٩٦ هـ
١٢٦٩ - ١٣٩٣ م

بنو مرين

المرينيون هم فخذ من بطون القبيلة البربرية العظيمة زناتة ؛ كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غرباً على ملوية وجنوباً الى نواحي سجلماسة - تافيلالت - وبصحراء فيقيق الى ارجاء الاغواط وربما يخطون في ضعنهم الى بلاد الزاب ؛ وهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، يضاهون في مجتمعهم امة العرب والفرس واليونان ، وان الذين تولوا الملك منهم فرعان ينتسبان الى جرثومة واحدة هـ بنو وزرير قبيل بني عبد الحق ، وبنو وطاس . ولقد ابلى قبيل بني مرين هذا في نصرة الموحدين على خصومهم بني صنهاجة وغيرهم . ثم كانت بينها ضغائن وحزازات منشأها التزاحم على الملك والتنافس على الرئاسة ولم يزل هؤلاء المرينيون يثيرون على حين ضعف دولة الموحدين فتناً وغارات بأرجاء المغرب الاقصى حتى اقتحموا تلة سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣م) واستمروا في سيرهم الى الامام منتصرين الى ان فتح اميرهم ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش يوم عاشوراء سنة ٦٦٨ هـ (٩ سبتمبر ١٢٦٩ م) فقضى بذلك على عرش الموحدين .

نظامها الحكومي

الدولة المرينية مغربية في كل شيء وهي لذلك لم تكن لتختلف اوتتخلف في خطتها السياسية بل وفي جميع نظمها الادارية والقضائية والمالية والحربية عن من تقدمها من دول الاسلام بالمغرب الا قليلا [1] فالعاصمة فاس والسلطان هو دائماً مصدر السلطة العليا ، ويلقب بأمير المسلمين تأدباً وتمييزاً له عن لقب الخليفة بالمشرق ، ولم يزل لقب « السلطان » فاشياً في ملوك المغرب الاقصى منذ تلقب به المرينيون الى اليوم ؛ وفيهم من تلقب بأمير المؤمنين واولهم ابو عنان ، والحاجب عندهم يدعونه بـ « المزوار » وهو المقدم على الجنادرة العاملين في المحافظة على الامن العام ، وله ايضاً الاختصاص بالوقوف لدى باب السلطان وحمل الناس على التزام مراتبهم ، ولاعمال الجبايات ديوان تحت ادارة متصرف من بني مرين اليه يرجع تصحيح الحسابات والمحاسبة على جميع دخل الحكومة وخرجها وهو المسؤول عن ذلك كله ، وحتى في الخراج والعطاء ، وليس هناك من يتعقبه او يراجعه في عمله الا السلطان نفسه او الوزير الذي يعتبر الرئيس الحربي الاعلى ؛ وللدولة عملة مضروبة باسم ملوكها . وخطة الكتابة منقسمة عندهم الى قسمين : قسم خاص باسرار الدولة وتسييرسياستها الداخلية والخارجية وقسم للمسائل العمومية والمكاتبات والمناشير ، وكثيراً ما تولى هذه الخطة ادباء من الاندلس بخلاف القضاء فانه دائماً مقصور على المغاربة وذلك ما يدلنا على شدة عناية اهل البلاد وتعلقهم بالفقه دون الادب وقد تكون هناك نظرة خاصة بنظام الحكم ؟.

اما نظام الحرب والجيش فإنه كان حسب ما يبدو من تواريخ المغرب والاندلس في ذلك العصر ان لكل ثمانية من الجند ناظراً يعقد له عقدة ولكل خمسة نظار عريف يعقد له بند ، وعلى كل خمسة عرفاء نقيب يعقد له لواء ، وعلى كل خمسة نقباء قائد يعقد له علم ، وعلى كل خمسة من القواد امير يعقد له راية وفي العسكر المريني كثير من مرتزقة الافرنج والعبيد ، كما انه كان لهذه

---

(١) راجع الجزء الاول من كتابنا هذا .

الدولة اسطول ضخم عظمت شوكته بهذا البحر ، لا سيما على عهد السلطان ابي الحسن المريني فانه خرج من تونس الى المغرب في ستمائة سفينة ، وذلك ما جعل المؤرخ الفرنسي « اندري جوليان » يصف هذا الملك بانه كان من اقوى الملوك واعظم السلاطين على الاطلاق في القرن الرابع عشر .

وذكر ابن خلدون ابا الحسن فقال « فان اساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم » وذكر مدينة وهران وعاملها عبوس بن سعيد فقال « . . . وقد ضبطها وثقفها وملأها قوات ورجالاً وسلاحاً وملأ مرساها اساطيل »[1] وقد سجل الشعراء انتصارات المرينيين في البحر كما انتصروا في البر فقال ابو القاسم الروحي يمدح ابا الحسن يوم ان انضم المغرب العربي تحت رايته وتوحدت سيـــاسة اقطاره الثلاثة (٧٤٨ ـ ١٣٤٧ م) من قصيدة طويلة :

تملكت شطر الارض كسبا وشطرها وارثاً فطاب الكل ارثاً ومكسب
بجيش على الالواح والمـــاء يمتطي وجيش على الضمر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى وذاك لعمر الله أغـــــــلى وأغلب
فـــلا مركب الا يزين راكباً ولا راكب الا بـه ازدان مركب

وللجند شعار يحملونه في المعترك والحرب وهو راية صغيرة من كتان ابيض ، وفي ذهابهم الى القتـــال يتقدمهم غالباً منشد يتغنى بتلحين خاص وانغام موسيقية منسجمة تدعى عندهم بـ « تاصوكايت » وهي خاصة بوقت البروز للقتال والسير الى الحرب ، وبين يديه طبل يضرب عليه منشداً اشعار الفخر والحماسة ؛ وهو تقريباً صنيع ما تفعله جنود الدول المعاصرة اليوم في خروجها للوغى ؛ وليس هناك ما تمتاز به هذه الدولة في صفة قتالها ومجالدتها العدو في الحرب عن دول المغرب يومئذ سوى انها سبقتها الى استعمال البارود وهندام النفط القاذف بحصى الحديد وقوس الزيار ، وهي قوس عظيمة النزع توقر على احد عشر بغلا .

---

(١) المقدمة ص ١٢٥ ط بولاق ١٢٧٤ ﻫ جـ ٧ ص ١١٧ من تاريخ ابن خلدون

حدود الجزائر المرينية

ان الحدود الجزائرية في ذلك العصر هي عينها المعروفة اليوم بحدودها الثلاثة : الشمالية والجنوبية والغربية ؛ الا ان الحد الشرقي منها فانه كان تارة يمتد الى تونس وتارة لا يتعدى حدود اعمال قسنطينة وبجاية (انظر الخريطة صفحة ٢٧) وكذلك الحد الغربي فانه كان ينتهي بتاوريرت كما ذكره ابن خلدون وهي اليوم داخل تراب المغرب الاقصى .

المرينيون وبنو عبد الواد

لم تكن دولة بني مرين الناشئة لترضى بمجاورة قبيل بني عبد الواد المنافس وذلك لتحققها بالمكانة التي يتبوأها هـذا القبيل في ميدان السياسة والحرب بالمغرب الاوسط ؛ فنشأت عن ذلك عداوة بين القبيلتين واحقاد كان مبعثها المنافسة على رآسة زناته والتشوف الى السلطان المطلق على المغرب الاسلامي، ومن ذلك لم تر الجزائر طيلة هذه المجاورة الحتمية مسالمة قط ! . .

الزحف على مملكة تلمسان

ولما اشرفت سفينة العواك والحرب بالاندلس على شفا المنحـدر والغرق ، وانكشف لملوك بني مرين ان ساعة انهزام دولة الاسلام هناك قد حانت او كادت ، وكان شعور الدولة المرينية بالمسؤولية العظمى الملقاة على كاهلها يومئذ قد تضاعفت بحكم انها سيدة العدوتين وانها وارثة عرش الموحدين الذين طالما خضعت لعرشهم الاندلس بما فيها من رعايا وملوك، وشريف وصعلوك، فساءها ان تقع الكارثة بالاندلس على مرأى ومسمع منها بدون ان تكون قد اتخذت لهذه الحال المتوقعة عدتها ، او تحتاط لهـا على الاقل لكيلا تتهم بين الامم بالاهمال وعدم الصلاحية للملك ، فاهتمت وقتئذ بالعمل على مزيد الاقتراب من الساحل الشرقي باتخاذ عاصمـة ثانية لها بالمغرب الاوسط ليتيسر لها الدفاع عن ارض الاندلس ، فحاولت فتح الجزائر من ناحيتها الغربية ، وبعث تلمسان فهاجمتها عدة مرات فانهزمت وكانت الغلبة دائماً حليفة ملوكها بني

زيان ، وذلك ما جعـــل السلطان ابا يوسف يعقوب المريني يتوعدهم بضرب الحصار الشديد عليهم والقضاء على امارتهم بهـــا . وفعلاً نشبت الحرب بين ابي يحيى المريني ويغمراسن الزياني بأحواز وجدة سنة ٦٤٧هـ - ١٢٥٠م وكانت الوقائع هائلة انهزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء ؛ وهذه اول حرب نظامية كانت بين بني زيان وبني مرين .

ثم تجددت المعارك بينهم بوادي تلاغ في منتصف المحرم ٦٦٦هـ (اكتوبر ١٢٦٧ م) وقد قارب السلطان ابو يوسف الفتح لولا ان هنالك عزيمة ظهرت من جانب الزيانيين فصابروا على المقاومة والدفاع عن حرمهم فمال يومئـــذ ابو يوسف الى الصلح وعاد الى فاس .

ثم انه في منتصف رجب سنة ٦٨٠هـ (فيفريي ١٢٧٢) كانت بينهما وقعة وادي ايسلي الآتي تفصيلها، فحصرت تلمسان مدة ثلاثة اشهر وثلاثة ايام وانطلقت بها ايدي الجيش المريني فعاث فيها الجند بما شاء !.. وتحطمت يومئذ مدينة وجدة ثم كف السلطان ايديهم عنها وسعى في جمع الشمل ومصالحة يغمراسن امير بني عبد الواد وتم ذلك بينهم سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) فسر لذلك سلطان مرين واظهر سروره بما تصدق به من مال كثير شكراً لله عز وجل على ذلك ثم انه في هذه السنة نفسها غزا سجلماسة ـ تافيلالت ـ فاقتحمها يوم الجمعة ٣ ربيع الاول (٦ سبتمبر) واستعمل في حصارهـا المدافع وذلك ما يدلنا على حذق المغاربة يومئذ للبارود واستعمالهم للأسلحة النارية وقتل بها سادة بـني عبد الواد وامر بصلبهم على اسوار المدينة وفيهم قائدها عبدالملك العبدالوادي.

قال ابن خلدون (ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب وانتظم امصاره ومعاقله في طاعته وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحارسهم وافتتـح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز الى العدوة وثغر المغرب سما أمله الى بلاد القبلة الجنوب - فوجه عزمـه الى افتتاح سجلماسة من ايدي بـــني عبد الوادي المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين – وستمائة (١٢٧٤م)– فنازلها وقدحشد اليها

اهل المغرب اجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة [1] ترد الافعال الى قدرة باريها، فأقام عليها حولا كاملا يغاديها القتال ويراوحها الى ان سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها فبادروا الى اقتحام البلاد فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الذرية وقتل القائدان عبد الملك ابن حنينة، نسبة الى جدته لأب وهي اخت يغمراسن بن زيان - ويغمراسن ابن حمامه ومن كان معهم من بني عبد الواد وامراء المنباة وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان ابو يوسف وتمشت طاعته في اقطاره فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته ولا جماعة تتحيز الى غير فئته ولا امل ينصرف الى سواه [2].

ثم عاد السلطان الى مراكش ؛وهذا ما حمل يغمراسن على نقض الصلح ومحاربة بني مرين في وقعة الملعب المشهورة بأحواز تلمسان سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) التي ادت الى حصار تلمسان ايضاً وانهزام بني عبد الواد ثم كانت هدنة بين السلطان يعقوب المريني وعثمان بن يغمراسن الزياني سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) .

وفي ربيع الثاني سنة ٦٨٧هـ (ماي ١٢٩٠م) عزم السلطان يوسف بن يعقوب المريني على المسير الى غزو تلمسان وفتحها بسبب ايواء صاحبها لبعض الثوار على دولة مرين ، ولقد حاول من قبل استسلام هؤلاء الثوار المشاغبين وانتزاعهم من يد بني زيان فلم يسمحوا له بذلك ؛ وحينئذ تقدم بنو مرين

---

(١) بهذا يعلم خطأ الرأي القائل بان اول استعمال للبارود كان في معركة كريسى (٧٤٧هـ - ١٣٤٦م) ونسبة اختراعه لشوارتز سنة ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م . وقد حقق المستشرق الاسباني كوندي ان اهل مراكش استقدموا الاسلحة النارية في محاربتهم لسرقوسة(٥١٢هـ - ١١١٨م) ويقول الدكتور غوستاف لوبون : ان العرب عرفوا الاسلحة النارية قبل النصارى بزمن طويل . (حضارة العرب ص ٥٧٧ ط القاهرة ١٩٤٨ م ويقرر المؤرخ الفرنسي لافالي La Vallée ويقول ان العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في أوروبا وهم الذين هدوا الاوربيين الى صناعة البارود .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٨ - ١٨٩ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

لحصار تلمسان ونصبوا عليها المجانيق واطلقت ايدي الجند فيها فعبثوا بهـا واخذوها بالنهب والتخريب ثم اقلعوا عنها ؛ وان كل ما كان بعد ذلك من عداوة او ضغينة بين بني زيان او واقعة حربية انما كان منشؤها هذه الحادثة.

وكان السبب في ذلك هو عصيان ابي عامر وخروجه عن طاعة ابيه السلطان ابي يعقوب — والتجائه الى تلمسان واحتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن، وقد كان السلطان عقد لوزيره محمد بن عطوا الجناتي على مدينة مراكش وترك معه ولده ابا عامر ، فلما عاد السلطان من حركته التي عقدها في انحـاء المغرب للتهدئة ورجع الى فاس في منتصف ربيع سنة ٦٨٦هـ — ابريل ١٢٨٧م مشتغلاً بعرسه على بنت موسى بن رحو الغرناطية ، خرج عليه ابنه ابو عامر ولحق بمراكش ودعا لنفسه أخريات شوال (٦٨٧هـ — نوفمبر ١٢٨٨م) وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطوا فقاتلهما السلطان وحاصر مراكش اياماً فاضطر الثائران الى الفرار فالتجآ الى تلمسان واحتميا بسلطانها عثمان بن يغمراسن (غرة سنة ٦٨٨هـ — جانفي ١٢٨٩م فآواهما ومهد لهما المكان ولبثا عنده اياماً ثم عطف السلطان على ابنه رحم كما عطف ابنه عليه فرضي عنه وأعاده الى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن ان يسلم اليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من اضاعة جواره واخفار ذمته واغلظ له الرسول في القول فسطا به واعتقله فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة وتحركت الاحن القديمة والنزلات المتوارثة واعتزم على تلمسان [1] .

وفي سنة (٦٩٤ هـ ١٢٩٤م) استصرخ ثابت بن منديل رئيس مغراوة بالسلطان يوسف بن يعقوب المريني مستشفعا به لدى ملك تلمسان عثمان بن يغراسن في رد هجماته وكف عادية قومه عنه ؛ فأرسل يوسف بشفاعته في ذلك الى عثمان فرفضها ؛ ويومئذ خرج يوسف لغزو تلمسان سنة (٦٩٥هـ ـ ١٢٩٥م) انتقاماً لشرفه ومر في طريقه على مدينة وجدة فحطم اسوارها وحاصر ندرومه اربعين يوما فامتنعت عنه ثم عاد الى مركزه .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

وفي السنة بعدها هاجم سلطان مرين اعمال تلمسان مشددا عليها الخناق ثم نصب عليها قوس الزيار في رجب سنة ٦٧٩هـ (افريل ١٢٩٨) وانهالت عليها جنوده فخضعت له يومئذ مدينة ندرومة ، وهنين ، ووهران ، ومزغران ؛ وفتحت مازونة ومستغانم وبرشك وونشريس ومليانه والمدية وتنس وشرشال ، والبطحاء وتدلس واستولوا على جميع ضواحي شلف كلها واذعن ابن علان صاحب مدينة الجزائر لسلطان مرين فجاء مبايعاً ؛ ومن ثمة اخذ ظل حكومة بني زيان يتقلص عن مملكة الجزائر ، واخذت البلاد الجزائرية تسقط شيئاً فشيئاً بيد دولة مرين الى ان امتلكت جميعها سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) واصبح المغرب الاوسط يدين بطاعته اليها ما عدا مدينة تلمسان فانها - في هذه المرة - لوحدها احتفظت بمركزها السياسي واستقلالها الداخلي .

ويلاحظ انه قد كان لهذه الوقائع والحروب اثر كبير في فقر جهات عديدة ونواح كثيرة من بلاد المغرب وخاصة اصقاع انفا - الدار البيضاء - واقطارها ، فأخذ حينئذ السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) في نقل عدد وافر من سكان الجزائر اليها ، وكان اغلبهم من البربر ؛ واتخذ منهم رعاة لشياه الدولة وساسة لابلها ، ومنذ يومئذ اشتهرت هذه الطائفة الجزائرية المنتقلة باسم «الشاوية» وتأكد بذلك امتزاج الشعب الجزائري بأهل المغرب الاقصى وازداد بذلك ارتباطاً وتثبيتا .

وقعة وادي ايسلي

ليس هنالك من شيء يحمل على معاداة بني مرين لبني عبد الواد الزيانيين سوى المزاحمة على الملك وحب الرآسة والاستئثار بها؛ ومن اجل ذلك مد يغمراسن يده اولا للموحدين وربط صلته بهم تفخيا لدولته وتشحيذاً لشوكته وارهابا لمنافسيه .

ويومئذ حشد السلطان ابو يوسف يعقوب المريني جنوده وخرج بنفسه محفوفاً بجيشه العظيم غازيا تلمسان غرة صفر ٦٦٩هـ (سبتمبر ١٢٨٠م) وما كاد يتصل

بتراب الجزائر ويقترب من تلمسان حتى وافاه سفير السلطان ابن الاحمر يستصرخه لنصر الاسلام وحماية المسلمين ودفع عادية العدو عنهم بالاندلس، فحال ذلك بينه وبين المسير الى تلمسان ، وجمع مشيخة الدولة وارباب الشورى يستشيرهم في الامر، فاتفقت كلمتهم جميعاً على تقديم انجاد الاندلس وحمايتها عن غزو تلمسان فعدل السلطان يومئذ عن خطته المرسومة ، وراسل صاحب تلمسان في الصلح فامتنع واكد متابعة الحرب ؛ فالتحمت المعارك الشديدة بينه وبين بني مرين بوادي ايسلي من بسائط وجدة وعلى مقربة منها ، وذلك في منتصف رجب (٦٧٠ هـ - ١٢٧٢م) فانهزم الزيانيون في هذه الوقعة شر هزيمة وفر يغمراسن عن محلته واضرمت فيها النيران وقتل ولده فارس ، وأخذ السلطان ابو يوسف يستقصي ويتتبع اثر يغمراسن في البلاد الى ان حال بينهما الظلام فأتى السلطان مدينة وجدة وأمر بهدمها فعفت آثارها .

وقعة وادي تافنة

ولما حل المرينيون بالاندلس وامتلكوا شطراً منها اخذت عقارب الحسد تدب في قلوب ملوك الاندلس من بني الاحمر وانتشر بينهم داء الاثرة فعمد سلطانهم الى يغمراسن الزياني طالباً مودته وصداقته وواصله بهدايا اندلسية فخمة واموال عظيمة على ان يشغل عنه ملوك بني مرين بمشاغبتهم واحداث مشاكل لهم بالمغرب؛ وما كاد يشيع خبر اتصال اهل الاندلس بيغمراسن حتى بادر السلطان ابو يوسف المريني الى طلب الصلح من صاحب تلمسان وكاتبه في ذلك سنة (٦٧٨هـ - ١٢٨٠ م) فتعصب يغمراسن لفكرته متصلباً في عداوته، فرابأته مرين مدة ثلاثة اشهر ثم اعادت سعيها في طلب الصلح ، فامتنع بنو زيان كذلك ولم يقبلوا في ذلك قولاً لبني مرين فتحرك هؤلاء يومئذ للقتال وكان الميدان بينهم وادي تافنة ، فانتصرت مرين على بني عبد الواد وانتهبت محلة يغمراسن فتشتتت امواله وهدمت قبابه .

تأسيس حاضرة المنصورة

لقد كان حصار السلطان ابي يعقوب المريني لمدينة تلمسان من افظع واشد

ما عرفه التاريخ في حصار مدينة ، وقد طال الحصار ثماني سنين وثلاثة اشهر واياما ، مات فيها نحو العشرين ومائة الف شخص ، واكل الناس يومئذ الجيف والكلاب والقطط والفئران واشلاء الموتى ، وبلغ ثمن الفأر عشرة دراهم [1].

وفي تلك الاثناء شرع السلطان ابو يعقوب المريني في اقامة بناء وانشاء حاضرة المنصورة على نحو اربع كيلو مترات غربي تلمسان ، وكان ذلك في فصل الشتاء من سنة ٦٩٨هـ - ١٢٩٩ م ، جعلها السلطان معتصماً لجنده المعسكر والحاصر لعاصمة بني زيان ، وسماها « الحلة المنصورة » او تلمسان الجديدة ، وكان فيما انشىء بها يومئذ قصر الملك حيال الجامع الذي تخلف منه اليوم جزء مهلهل من السور أو قل هو طلل من انقاض منارته القائمة على بابه ، ويقال انه كان بأعلاها تفافيح من الذهب الخالص يقدر ثمنها بسبعمائة دينار ، وكان حول القصر سور يفصله عن سكنى الرعية ، وحول ذلك السور ابتنيت المنازل والقصور الانيقة والحمامات العمومية والفنادق والاسواق واجريت المياه بالبساتين وانشئت بها دور الاسعاف الخ .. ثم احيطت المنصورة هذه بسور انشأته الحكومة المرينية سنة (٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) لحمايتها من الطوارىء فاصبحت بعد ذلك من اعمر الامصار الجزائرية وابدعها جمالاً ، قال ابن مرزوق الخطيب : « منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها ، ولا وصف الواصفون مثل وصفها ، واما قصرها ومسكن الإمام بها فقد رأيت كثيراً ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام والمباني القديمة في الاندلس ومراكش اجمعوا كلهم على ان الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره ، ويحق ما قالوه ، واما دار الفتح والبستنة وما اتصل بها والمشور فما اظن المعمور اشتمل على مثلها فلحا الله من خربها ، وهو يعني بذلك بني عبد الواد حينما خربوها وحطموا قصورها ودمروها سنة (٧٠٧هـ - ١٣٠٧م) انتقاماً لانفسهم من بني مرين وطمساً لمعالم الهوان والذل والخسف القائمة بارضهم وبلادهم .

---

(١) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٩٥-٩٦-٩٧ .

معركة مرسى الرؤوس

ولما طال الحصار بتلمسان واشتدت وطأته على اهلها بني عبد الواد (٦٩٨ هـ ١٢٩٩ م) استجاش السلطان عثمان بن يغمراسن الزياني بصهره ابي زكرياء الحفصي صاحب بجاية ، فبعث هذا بالنجدة اليه يقودها اخوه ابو يحيى ، وما كادت الحامية تبلغ غايتها حتى اعترضتها جيوش مرين بجبل الزاب فاستلحموا هنالك وكانت الدبرة على حامية بجاية ؛ ولوفرة ما تساقط هنالك من القتلى والجرحى سميت هـــذه الملحمة بمعركة مرسى الرؤوس ؛ قال ابن خلدون : واستمر القتل فيهم وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين . وارتاح لها امراء المملكة الحفصية الشرقية ـ تونس ـ فاستنصروا بني مرين واستظهروا بهم على حصار بجاية ، وكان ذلك سبباً في تنكر سلطان بني زيان للاسرة المالكة الحفصية فرفض دعوتهم واسقط ذكرهم من المنابر . وفي ذلك الاثناء كان سقوط مدينة المدية بيد بني مرين فاحتلوها وبنوا فيها حصناً مكثوا في تشييده سنة كاملة (٧٠٤ ـ ٧٠٥ هـ) واستمر هذا الحصن قائماً الى عهد الاحتلال الفرنسي .

تنازل بني مرين عن ولاية تلمسان

كان اغتيال السلطان ابي يعقوب يوسف المريني سنة (٧٠٦هـ ـ١٣٠٦م) سبباً مباشراً في افراج مرين عن تلمسان وانفكاك الحصار عن اهلها ؛ فتفرقت يومئذ جنودهم واختلفت كلمتهم بموت ملكهم ابي يعقوب ، وتنازع على العرش المريني كل من ولده واخيه وحفيده ابي ثابت عامر بن عبدالله ؛ واستند الحفيد هذا الى بني زيان مستظهراً بهم على مزاحميه ، فحالفهم على تنازل مرين وتخليها عن المملكة التلمسانية ان هو انتصر على خصميه وجلس على العرش ، فكان الامر كذلك ، وبويع ابو ثابت هذا بتلمسان الجديدة ـ المنصورة ـ فتخلى يومئذ لبني زيان عن امارتهم وفوض الامر في الرحلة باهل المدينة الجديدة ـ المنصورة ـ للوزير ابراهيم بن عبد السلام ، وقد كانت كما يقول ابن خلدون : غاصة بالسكن مستبحرة في الاعتمار ممتلئة في الخرثي والآلة ... الى ان كان من امرها ما كان

فخربها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين الى المغرب وتحينوا بهم لذلك فترات فطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً [٢] . وذهب ابو ثابت عامر المريني مرتحلاً عن المنصورة يوم ١٥ شوال (٧٠٧ هـ ٩ افريل ١٣٠٧ م) غازياً شرقاً بلاد مغراوة وبني توجين فتغلب عليها وعلى عرب رياح المقيمين بقلعة ابي طويل والجزائر فقضى وطره منهم ثم عاد الى قاعدة فاس .

نقض الصلح

وفي سنة (٧١٤ هـ - ١٣١٤ م) تحركت عوامل الامس والاضغان السياسية الكامنة في صدور بني مرين ضد بني عبد الواد فنقض السلطان ابو سعيد عثمان المريني الصلح المنعقـد بين امارة تلمسان وحكومة فاس ، واغار على عاصمة الزيانيين فاكتسح اقطارها وبلغ الملعب ، فانتهكت حرمات اهل تلك النواحي واقتحمت بعض المعاقل ، ثم عاد السلطان الى فاس ، واستمر بعد ذلك الزحف المريني على تلمسان ست دفعات .

تحالف بني مرين والحفصيين ضد تلمسان

استغاث السلطان الحفصي بابي سعيد المريني على رد غارة بني زيان عن الجزائر الحفصية سنة (٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م) فتظاهرت الدولتان يومئذ وتحالفتا ضد بني عبد الواد واحكما هذا التظاهر بالتصاهر ، ومات ابو سعيد دون بلوغ امنيته فخلفه ولده السلطان ابو الحسن وبعث من حينه الى ابي تاشفين ملك تلمسان ينافح عن مملكة اصهاره الحفصيين ، ويأمره بالتخلي عن كل ما وصلت اليه يده من ملك الحفصيين . وينهاه كذلك عن الاستمرار في الزحف ، فرفض كل ذلك ابو تاشفين واستمر سائراً على خطته ، وحينئذ تضافر المرينيون وبنو ابي حفص ضده وتوحدت القوات العسكرية فاكتنفته احـدى الدولتين من الشرق والاخرى من الغرب وهجمت الاساطيل المرينية على سواحل الجزائر وحلت الجنود على تلمسان فتجاوزتها الى تاسالة ، قرب سيدي بلعباس - ونزلت هنالك في شعبان (٧٣٢ هـ - افريل ١٣٣٢ م) وجهز السلطان ابو الحسن

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٢١ و ٢٣٥ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

فرقاً من عسكره اركبهم الاساطيل من سواحل وهران وبعث بهم الى حليفه ببجاية السلطان أبي يحيى الحفصي فانضموا اليه ونهضوا معه الى غزو مدينة « تيكلات » ثغر بني عبد الواد المحتشد يومئذ بالاقوات والجنـد الكثير المعد لغزو بجاية ، وقبل ان يتصل الغزاة هؤلاء بتيكلات اجفل من كان بهـا من عسكر بني عبد الواد ، ويومئذ عمل فيهـا المرينيون فيمن معهم من الجند الحفصي يد التخريب والتدمير فنسفوها نسفاً وتركوها قاعاً صفصفاً وانتهبوا ما احتشده فيها السلطان أبو حمو الاول وولده ابو تاشفين من الاقوات والارزاق، وكان بهامنذلك كما يقول ابن خلدون: بحراً لا يدرك ساحله . وذلك لما ان السلطان ابا حمو كان قد اوعز الى العمال بسائر البلاد الشرقية منذ ان انشأ مدينة البطحاء بنقل اعشار الحبوب وسائر الاقوات اليها وسار على خطته في ذلك ولده من بعده ابو تاشفين الى ان حلت بهم هذه الفاقرة [٣] . وبذلك استعادت الدولة الحفصية ملكها المسلوب بالجزائر ما عدا مدينة تلمسان فانها بقيت محافظة على استقلالها .

الوثوب على عمالتي الجزائر ووهران

اجمع السلطان ابو الحسن المريني على اقتحام الاعمال الجزائرية فبرز اليهـا سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) وبعد ان حاصر وجدة واستولى عليها تقدم الى ندرومة وهنين ، فرضة تلمسان ، فبايعته هنالك البطون والقبائل خاضعة، ثم تقدم الى وهران فاحتلها سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) وخضعت لسلطانه تلك الاصقاع بأجمعها وتبعتها في ذلك عمالة الجزائر مدينة مدينة سوى عاصمة تلمسان .

القضاء على امارة بني زيان

وبعد ما انهى السلطان ابو الحسن عملية الفتح بالجزائر التفت الى مدينـة تلمسان حيث بقيت منحازةالى بني عبدالواد فتجهز اليهاسنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦م) عازما على فتحها ، فخندق حولها وضرب الحصار وسكن المنصورة بعدمـا

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

ادخل عليها بعض الاصلاحات الضرورية واحاطها يومئذ بسور محكم ثم اوقد نار الحرب على بني عبد الواد فتعددت المعارك بينهم وكانت الحرب فيهاسجالا فصبر لها ابو الحسن حتى انتصر في النهايــة واقتحم تلمسان يوم الاربعاء ٢٨ رمضان من سنته (٣٠ افريل ١٣٣٧م) وقضى بذلك على امارة بني زيان .

ويعلل ابن خلدون سقوط بني زيان في هـــذه المرة بقلة عددهم وضعف دولتهم فتراه يقول :

(لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم اكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلبة مرة بعد أخرى [١] .

فتح الاعمال الشرقية

اضطرب حبل الدولة الحفصية أثر موت ملكها ابي يحيى - المتوكل ٧٤٧هـ (١٣٤٦م) فنشأت عن ذلــك فتن ومشاكل وخاصة حول تولي منصة الملك ، فنشطلذلك امراء البيت الحفصي واخذ كل في جذب طرف حبل الرئاسة اليه يسعى اليه في تحصيلهــا بكل وسيلة ، وفيهـــم من ذهب مغريا دولة مرين بالانقضاض على دولة الحفصيين واظهر في ذلك رغبة شديدة والحاحا ، وكان السلطان ابو الحسن المريني يتحين لها الفرص من قبل لولا مــكان السلطان ابي يحيى من ولايته وصهره . فتجهز يومئذ ابو الحسن لهذا الفتح بجهازه وجاء محتشداً فاقتحم وهران في صفر ٧٤٨هـ(ماى ١٣٤٧م) وبنىفيهابرجه الاحمر ، وامر بانشاء برج المرسي ايضاً،واحتل مدينة الجزائر فعمل على تشريد الثعالبة من بسيط متيجة الى المغرب الاقصى ونزل ولاية قسنطينة وبجاية فعزل عنهما ولاة الحفصيين وولى عليهما قبيلة من بني مرين .

وحط عن اهل بجاية ربع المغرم ورفع عنهم الظلامات ونظر في أحوال ثغورها فثقفها وسد خروجها وعقد عليها لمحمد بن النوار من طبقة الوزراء

ثم تقدم الى تونس فاحتلها في موكب عظيم يوم الاربعاء ٨ جمادى الثانية

---

(١) المقدمة ص ٨٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

– سبتمبر – من سنته يقول ابن خلدون في وصف ذلك اليوم المشهود: وكان يوماً لم ير مثله فيما عاناه ! وفر عنها اذ ذاك سلطانها ابو حفص الثاني فيمن اجتمع اليه من اولاد مهلهل فلحقت بهم جنود ابي الحسن فأوقعت بهم وتردى ابو حفص قتيلاً ؛ وفي هذا اليوم تم لبني مرين – كما تم للموحدين قبلهم – الاستيلاء على المغرب الاسلامي بأقطاره الثلاثة : المغرب الاقصى والجزائر وتونس .

ثورة بني عبد الواد

اخفقت سياسة بني مرين مع العرب في المملكة التونسية واساء بعض العمال في سلوكهم ومعاملاتهم للرعية ، فثار الناس على السلطة المحلية واثاروا ضدها نقع الفتنة واصلتوا سيف المقاومة فانهزمت مرين سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) بنواحي القيروان وبالاثر اجتمع بنو عبد الواد بظاهر تونس وبايعوا ابا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ، وتحالفوا مع مغراوة وتوجين ، وارتحلوا نحو الجزائر في خمسمائة فارس ولحق بهم في الطريق من مغراوة ضعف ذلك ، وهم في سيرهم هذا آخذين في مقاتلة رؤساء بني مرين واستمروا على ذلك منتصرين حتى دخلوا تلمسان يوم ٢٢ جمادى الثانية ٧٤٩ هـ (١٧ سبتمبر ١٣٤٨ م) فالقوا القبض على عامل المرينيين المستبد بها ابي سعيد عثمان بن يحيى بن محمد من آل جرار العبد الوادي فأودعوه السجن الى ان مات به غريقاً وفي اثناء ذلك استولى على ابن راشد من آل ثابت بن منديل المغراوي على ما كان لسلفه من الملك بوطن شلف ، وغلب على مليانة وتنس ومازونة وتدلس وبرشك وشرشال وانتزى اعياص الملك بمواطنهم ولم يبق يومئذ بيد مرين في الجزائر سوى وهران وونشريس ، واتفق ان كان حاضراً بأحواز تلمسان يومئذ ابو عنان بن السلطان ابي الحسن المريني فأظهر استبداده بالحكم متوقعاً انتصار والده عليها فخاب ، ثم استولى بنو عبد الواد على وهران ، واخلف رويميا مظنته .

عودة الجزائر الى بني عبد الواد

عاد السلطان ابو الحسن المريني من تونس بعدالاستيلاءفي شوال سنة ٧٥٠ﻫ (ديسمبر ١٣٤٩م) في ستمائة سفينة يريد الجزائر ، وكانت يومئـــذ زوابع ورياح وعواصف بحرية فغرقت مراكب السلطان المريني ما بـين سواحل دلس وبجاية وكان فيمن هلك من حاشية السلطان ودائرته الخاصة نحو اربعمائة عالم !! ولم يكن لينجو من هذا الموت الزؤام سوى ابي الحسن في شرذمة قليلة من رجال بلاطه دفعت بهم الرياح فأوقعتهم ببعض الجزر حتى لحق به بعض المراكب فنجا فيه الى ميناء الجزائر فكان هذا الحادث اكبر كارثة اصيبت بها الدولة المرينية في اسطولها ؛ ويومئذ انتهز بنو عبد الواد هـــذه الفرصة السانحة واستعدوا في شهر ربيع الاول ٧٥١ ﻫ ـ ماي ١٣٥٠م لاسترجـــاع ملكتهم وامارتهم الجزائريـــة فتجهزوا تحت راية زعيمهم ابي ثابت الزياني فخضعت لطاعتهم يومئذ نواحي منداس والسرسو وتيطري وحمزة والمدية ، ثم قفلوا الى تلمسان فدخلوها في شهر رجب سبتمبر ، فنهض يومئذ ابو الحسن مع ولده الناصر مقاتلا بني عبد الواد وكان هؤلاء قـــد حالفوا قبيلة مغراوة العتيدة ، فانتصر ابو الحسن اولا على اهل المدية ومليانة ونواحيها ، ثم كانت عليه الدبرة فقهره ابو ثابت الزياني ، كما انهزم ولده الناصر ايضا امـام علي بن راشد رئيس مغراوة ، وكانت الوقعة الكبرى بينهم بسهول شلف يوم الاربعاء ١٠ شعبان (١٣ اكتوبر) فقتل الناصر المريـني وفر والده السلطان الى جبل العمور ثم اصحر من هنالك الى سجلماسة وانتصر بنو عبد الواد وخلصت لهم ارض الجزائر وجلس على عرشهـا يومئذ ٧٥٢ ﻫ (١٣٥١م) السلطان ابو ثابت الزياني .

استيلاء السلطان أبي عنان على أعمال تلمسان

توفي السلطان ابو الحسن المريني سنة ٧٥٢ﻫ (١٣٥١م) فخلفه ولده ابوعنان فارس ، وان اول ما تقدم اليه من الاعمال وباشره ان غزا يومئذ تلمسان ،

وكان ذلك في السنة الثانية من ولايته ، فبرز لمقاومته السلطان ابو سعيدعثمان الزياني وكان اللقاء بين الفريقين في سهل «انكاد » في شهر جمادى الاول(جوان) انهزم فيها بنو عبد الواد وسقطت تلمسان في ربيع السنة نفسهـا وأسر ملكهم ابو سعيد عثمان ثم قتل ، فنهض اخوه ابو ثابت بمغراوة في نواحـي شلف ، واشتد سعير الحرب بينه وبين الوزير فارس بن ميمون المريني فانكسر ابو ثابت وذهب منهزما نحو بجاية وهنالك القي القبض عليه واحتل المرينيون مدينة الجزائر في شهر رجب ـ اوط ـ ثم حل سلطانهم بالمدية فأطرد منها ولاة بني عبد الواد وعمالهم وقتل هنالك طائفة من وزرائهم ورؤسائهم وهناك وافتـه بيعة ابن مزني عامل الزاب. ثم عاد بالزعيم ابي ثابت الى تلمسان فقتله بها .

تملك بجاية

وفد ابو عبدالله الحفصي امير بجاية صحبـة وزيره الحاجب فارح على السلطان ابي عنان وهو يومئذ بالمدية في شعبان ٧٥٣ هـ (سبتمبر ١٣٥٢م)وكان موجب هذه الوفادة:الاستعانة ببني مرين على اهالي بجاية في تمردهم على السلطان وامتناعهم من دفع الجباية، فاستمع السلطان لشكواه هذه واوعز اليه بالواسطة من زين له التنازل عن ولاية بجاية على ان يعوضه السلطان عنها غيرها ما شاء من بلاد المغرب ؛ فكان الامر كذلك ونزل ابو عبدالله عن ولايته كرها فعقد له السلطان ابو عنان على مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى ثم انتزعها منه وحمله معه الى قاعدته وصارت بجاية لعمر بن علي الوطاسي .

انتقاض بجاية ، وفتح قسنطينة وبونة

اغتاظ اهل بجاية من استيلاء السلطان المريني عليهم وساءهم منـه على الخصوص سلوكه السياسي معهم ، فبيتوا على الثورة ، واتفق ان قدم عليهم الحاجب فارح في مأمورية له من طرف اميره الحفصي ، فاجتمع به اهل بجاية وائتمروا بحاكمها الوطاسي فغدوا عليه في داره من القصبة فقتلوه في ذي الحجة

(٧٥٣ هـ ـ جانفيي ١٣٥٣ م) وكانت هنالك غارة شعواء بين الفريقين، فقبض سلطان مرين على ابي عبدالله الحفصي بتهمة المداخلة مع وزيره فارح ، واعتقل معه طائفة من اشراف بجاية وسادتها ممن كان ملتزماً بابه ؛ ثم لحق اهل بجاية ندم على ما فرط منهم فخشوا بوادر ابي عنان وفتكه فانقلبوا على الحاجب فارح فاغتالوه في جماعته وبعثوا برأسه الى السلطان ابي عنان ؛ فعقد يومئذ لحاجبه ابي عبدالله محمد بن ابي عمرو على بجاية فجاءها في كتائبه مفتتح سنة (٨٥٤ هـ ـ فيفريي ١٣٥٣ م) فضبط شؤون الحكومة بها واصلح من امرها واخمد الفتن القائمة يومئذ بأحوازها وقبض على رؤوس الفتنة وموقديها من اهل بجاية فاعتقلهم وشردهم الى اقصى المغرب وكان عددهم يناهز المائتين .

وفي العشرين من رجب (٧٥٨ هـ ـ ١٠ جوليط ١٣٥٧) نازل الوزير فارس بن ميمون مدينة قسنطينة ثم لحق به السلطان ابو عنان في جم غفير من الجند فاحتلها يوم ثاني عشر شعبان ـ فاتح اوط ـ واطرد منها اميرها ابا العباس احمد بن محمد بن ابي بكر الحفصي ، وتولى عليها يومئذ المنصور بن الحاج خلوف اليابابي من رجال الشورى بدولة مرين فنزل بقصبتها في شعبان من هذه السنة ؛ وفي هذه الاثناء كان استيلاء مرين ايضاً على بونة ـ عنابة ـ

الجزائر بين بني عبد الواد وبني مرين

انتصر محمد الحاجب المريني فتغلب على امير قسنطينة سنة (٧٥٥ هـ ـ ١٣٥٤ م) وبقي يتقلب في وظائف مختلفة بأعمال هذه الولاية ، فدخل ميلة وبلغ الى المسيلة ؛ ثم امتلك سلطان مرين بعدها بجاية وبونة الخ ... وفي سنة (٧٦٠ هـ ـ ١٣٥٩ م) انتصر السلطان ابو حمو الزياني على بني مرين فانتزع منهم تلمسان ؛ وفي السنة بعدها حمل السلطان ابو سالم المريني على تلمسان انتقاماً من سلطانها الزياني لايوائه الزردالي عامل درعة وقاتل اخ السلطان ، فاحتشد لتلمسان في حملة شديدة في شهر رجب ـ ماي ـ واقتحمها يوم ٦ شعبان ـ ٢٣ جوان ـ فقاومه ملكها ابو حمو الثاني وابعده عنها يوم ٨ رمضان ـ ٢٣ جوليط ـ

وفي سنة (٧٧١ هـ - ١٣٦٩ م) وفد على السلطان عبد العزيز المريني طائفة من خواص اهل مدينة الجزائر ونواحيها لتقديم بيعتهم وهم الى ذلك يشكون اليه حيف دولة بني زيان وشططها في رسم المغرم ؛ فكانت هذه فرصة سانحة لزحف عبد العزيز الى تلمسان واحتلالها يوم عاشوراء (٧٧٢ هـ - اوط ١٣٧٠م) واستولى بذلك على ملك بني زيان ، وانتزع من العرب اقطاعاتهم وفرق يومئذ عماله في بلاد المغرب الاوسط بوهران ومليانة والجزائر والمدينة ووانشريس الخ ... واقام السلطان المريني بتلمسان الى ان ادركه حينه ووافاه حمامه بها سنة (٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م) فبويع آن ذاك ولده محمد الثاني بفاس ؛ ومكث ابو سعيد عثمان بن جرار والياً على تلمسان من قبل مرين الى ان اقتحم عليه المدينة السلطان ابو حمو الثاني في شهر جمادى الاولى سنة (٧٧٦ هـ - نفمبر ١٣٧٤ م) فخرج منها ابو سعيد وعادت الجزائر الى بني عبد الواد .

انقسام بني مرين وتملك بني عبد الواد

كان استبداد عبد الرحمن المريني بملك مدينة مراكش وجلوسه على عرشها سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وخروجه عن طاعة ابن عمه سلطان فاس ابي العباس احمد بن سالم سبباً في استقلال بني عبد الواد بملك تلمسان ، وذلك لانتصار سلطانهم ابي حمو لصاحب مراكش ، وفي منتصف السنة هذه غلب صاحب فاس على ابن عمه فدخل عليه مراكش ثم التحق بتلمسان منتقماً من صاحبها المنتقض العهـــد فانهزم ابو حمو سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) وهدمت يومئذ اسوار المدينة وقصور الملك بها انتقاماً من ابي حمو حيث انتصر للامير عبد الرحمن المريني وخرب من اجله قصر الملك ومسجده بتازي وهو المعروف بقصر تازروت ، وقد كانت تلمسان كما يقول ابن خلدون بحيث لا يعبر عن حسنها ! ... وبعث ابو العباس بولده فاحتل مدينة مليانة والجزائر ودلس ثم استرجع ابو حمو مدينة تلمسان في السنة التالية ، فعمد يومئذ ابو العباس الى الحيلة والدهاء فأوحى الى ابي تاشفين الزياني بغدر والده وقتله ليتملك ، فزين الشيطان لهذا الشقي تنفيذ هذه المؤامرة الشنيعة فمات والده شهيد الغدر

والخيانة واقام ابو تاشفين بتلمسان الى سنة ٧٩٥ ه (١٣٩٢ م) فامتلكها يومئذ ابو العباس سنة واحدة ثم مات فخلفه ولده عبد العزيز الثاني ، وهو الذي اطلق وثاق السلطان ابي زيان من السجن واعاد اليه امارة تلمسان ، فانفردت بملكها يومئذ هذه الاسرة الزيانية من بني عبد الواد واستمرت تحكم البلاد الى الفتح التركي العثماني .

المذاهب والمعتقدات

كان انتصار بني مرين الزيانيين على المصامدة الموحدين فرصة لفقهاء المالكية، فعملوا على اعادة ريعان المذهب المالكي ونصرته بالمغرب بعد ان قضى عليه الموحدون واستبدلوه بالمذهب الظاهري او ما سموه اجتهاداً ؛ فتأسست يومئذ المدارس الحكومية وانتشر التعلم مجاناً بها ، واقبل عليها الطلبة يغرفون من معينها ، ولقد نجحت الحكومة بعملها هذا يومئذ في القضاء على بعض الشخصيات والاسر النبيلة المتطلعة الى الرئاسة باسم التصوف وخدمة العلم فقضت على ما انشىء من طرف هؤلاء من الزوايا والربط ؛ ونشأ عن هذا التزاحم بين مدارس الحكومة وزوايا المتصوفة ما كان فيه خير للعلم والدين فكان لكل من هاتين الناحيتين فضل كبير على المجتمع المغربي من حيث خدمة الفقه المالكي بالخصوص ، فنبغ فيه فطاحل من رجال الشريعة والقانون وان لم يأخذوه بتنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب في المشرق ، ذلك كما يقول ابن خلدون لتغلب البداوة على اهل المغرب ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم . (١)

ومن نبغاء الفقه بالمغرب يومئذ : عيسى التادلي الفاسي ، فانه كتب المدونة من حفظه بعد ما استأصلها الموحدون واحرقوها كما املاها ابو الحسن علي ابن عشرين على طلبة العلم من حفظه ايضاً ، وقوبلت هذه النسخة على اصول

---

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤ م

المدونة فلم تختلف عنها الا بواو أو فاء ! ...

واطردت يومئذ حركة التأليف في الفقه وتوسع الفقهاء في الفروع استنباطاً وتخريجاً على مقتضى قواعد المذهب المالكي . اما العقائد فانها لم تحد يوماً قيد انملة عن ما تركها عليه ابن تومرت منذ جـاء من المشرق بمذهب الامام الاشعري .

فخامة بلاط بني مرين

يذكر المؤرخون انه كان للسلطان ابى الحسن المريني تعلق شديد بالحرمين الشريفين وانه اهدى للحرم الملكي في موسم الحج لسنة (٧٣٨ هـ - ١٣٣٨ م) مصحفاً سنيا خطه بيمينه متقن الوراقة مهذب الصنعة ، جمع له نبغاء الفنون الجميـلة فصنعوا له وعاء مزخرفاً من آبنوس مطعماً بالعاج والصندل مغشى بصفائح من ذهب مرصعة بالجواهر وانواع الدر والياقوت ، واتخذوا له اصونة الجلد المحكمة مرقومة بخطوط ذهبية يعلوها غلاف من الحرير والديباج الرفيع وبعث مع وفد الحاج عدداً وافراً من المـال لشراء ضياع وحقول بالمشرق وتحبيسها وقفاً على القراء هناك .

خرج هذا الوفد السلطاني من تلمسان وركب البحر من مرسى هنين مصحوباً بهدايا اخرى فخمة ضاخمة ارسل بها السلطان الى صاحب مصر الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحي . وكان من جملة محتويات هذه الهدية الملكية (٨٢٥) حجراً من ياقوت ، و(١٢٨) من زمرد ، ومثلهـا زبرجداً ، و(٣٦٤) قطعة من المجوهرات النفيسة ؛ وحلل كثيرة منهـا (١٣) مذهبة ، ومن الاثاث (٢٠) مذهبة ايضاً ، ومن الخلادى (٤٦)، ومن القنوع المذهبة (٢٦)، ومن المحررات المختمة (٨٠٠) ، ومن الرصان (٢٠) شقة ، من الاكيسة الحريرية (١٨) ، ومن المشقفات (١٥٠)، ومن احارم الصوف المحررة (٢٠)، ومن شقق الملف الرفيع (١٦) ، ومن الفضالى المتنوعة والفرش والمخاد المنبوقة والحلل (٨٠٠) ، ومن اوجه واحسن اللحف المذهبة (٢٠) ، وحائطان حلة وحنابل (١١٢) كلها

من حرير، وفرش جلد مطرزة بالذهب والفضة ، و(١٠) سيوف محلاة بالذهب ومنضدة بالجواهر، واغمدتها كذلك مرصعة ، و(١٠) سروج بركاب من ذهب، ومثلها عشرة مطروزة بالفضة ، ومهاميز من ذهب ، وثلاث ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ايضاً ، ومضمتان من ذهب وخوذة حديد بذهب مكلل بالجواهر و(١٠) من لزمات الفضة ، و(١٠) علامات مغشاة بالذهب ، ومثلها رايات مذهبة و(١٠) امثلة مرموقة ، و (٣٠) جلد اشرك ، و(٤٠٠٠) درقة لمطية منها مئتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة ؛ وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها اربعة ابواب ، وقبة اخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير ابيض ومرابطها من حرير ملون وعمودها من عــاج وآبنوس واكبارها من فضة مذهبة ، ومن البزات الاحرار المنتقــات (٣٤) بزة ، ومن عتاق الخيل العراب (٣٣٥) حصــاناً ، ومن البغال (١٢٠) ذكوراً واناثاً ، و(٧٠٠) جمل ، و(٣٢) بازاً . مما كان يقدر يومئذ جميعه بمائة الف دينار . وكان اتصال هذا الوفد بالديار المصرية في اليوم الثاني من رمضان ٧٣٨ ﻫ (٢٤ مارس ١٣٣٨ م) فتلقاه (مهندمار) السلطان الناصر بحفاوة واجلال مما جعل هــذا اليوم في التاريخ من ايام مصر المشهودة ، وحملت الهدايا على ثلاثين قطاراً من بغال النقل – عدا الجمال .

وكافأ الملك الناصر عن هذه الهدية الملكية الفخمـــة العظيمة بما يقاربها من التحف النفيسة والاشياء الثمينة، وفيها ما يستغرب جنسه وشكله فازدادت العلائق الودية بذلك بين ملوك المشرق والمغرب تأكيداً كما ازداد التضـــامن والارتباط الاسلامي بينهم ميثاقاً وعهداً [1] .

وذكر ابن خلدون وليمة السلطان ابى سعيد المريني يوم ان احتفل بزفاف

(١) انظر تفاصيل هذه الهدايا والعلائق الودية والسفارات السياسية التي كانت تقع بين ملوك المشرق والمغرب في تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٤٢٠ و ٤٤٠ و ٤٧٩ و ٥٠١ و ج ٧ ص ٣٣٦ و ٣٦٤ و ٣٦٦ وفي التعريف بابن خلدون ص ٣٤١ و ٣٤٥ ط القاهرة ١٣٧٠ ﻫ وكتاب الاستقصاء ج ١ ص ١٧٤ و ج ٢ ص ٤٠ – ٤١ وكتاب الروضتين لابي شامـــة ج ٢ ص ١٧٣ ط مصر ١٢٨٨ ﻫ .

فاطمة بنت السلطان ابي بكر الحفصي وشقيقة الامير ابن زكرياء ، لابنه الامير ابي الحسن فقال : « وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد اعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين ، ولم يزل مذكوراً على الايام »[1] وكفانا هذا حجة وبرهاناً يساق للاستشهاد به على فخامة بلاط الدولة المرينية وفخامة سلطانها .

ومما يعد كذلك من رفاهة هذه الدولة وتقدمها في الميدان الفني ما وجد بقصر السلطان ابي عنان من ذلك النموذج العجيب الفريد الذي يمثل شكل قلعة جبل الفتح ـ جبل طارق ـ بجميع ما احتوى عليه هذا الجبل من الابراج والحصون وغير ذلك من مظاهره العمرانية واسواره ومنها ذلك العقد الثمين المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر النادرة المسمى عندهم بالثعبان ، وهو يشتمل على مئين متعددة من حصباء هذا النوع وقد صار اليهم من خزائن ملوك تلمسان يوم ان سقطت هذه العاصمة بأيديهم الخ ... فلا غرو اذا كان يومئذ هذا البلاط يفوق غيره من قصور قرطبة وبغداد والقاهرة ، وهذا معنى قول ابن خلدون :ان الحضارة الاندلسية انتقلت بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة .

الثقافة والحضارة والعمران

انقضى القرن الثامن الهجري بالمغرب وكله عراك وفتن وحروب واضطرابات سياسية مختلفة اثارتها النزوات السياسية والعصبية القبلية بين بني مرين ومجاوريهم من بني عبد الواد والحفصيين ، ولذلك لم نكد نظفر بأثار عمرانية باقية تذكر لهذه الدولة بالجزائر سوى ما سجله التاريخ من التخريب والتدمير والنسف لما شيدته يد الحضارة الاسلامية بهذه الديار من قبل !...

واذا حاولنا تعليل هذه الظاهرة المتجلية يومئذ في سكان المغرب، فاننا لا نكاد نجد لها تعليلا معقولاً او حلاً مطابقاً للواقع سوى فقر بعض النواحي

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٤١ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

النائية عن الحضارة ومواطن الرفاهية بالمغرب . مما جعل اهلها يزحمون على الاماكن الخصبة ومواقع الخير .

ورغم ذلك كله فانها لا تزال بعض معالم المدنية من آثار هذه الدولة ماثلة للعيان قائمة بالمغرب الاقصى والجزائر ؛ ممتازة برشاقتهـا وشكلها الاندلسي البديع ؛ فمنها بفاس المدرسة العنانية ومدرسة العطارين ومدرسة الصفارين ومدرسة الصهريج والمدرسة المصباحية الخ ... ومنها بالجزائر وهي قليلة جداً كما ذكرنا لا تكاد تذكر بالنسبة الى عظمة هذه الدولة وفخامة سلطانها واتساع عمرانها - : المسجد الجامع المتصل بضريح الشيخ ابي مدين شعيب بن الحسين الاندلسي بضاحية العباد في تلمسان وكانت قبلته مذهبية زاهيـة الألوان فانكر الفقهاء ذلك فأزيل ما قرب من المصلى ، وكذلك المدرسة المجاورة له ، وكلاهـا من منشآت السلطان ابي الحسن المريني سنة ٧٤٨ﻫ (١٣٤٧م) وكلاهما آية في فن المعمار والزخرفة والنقش ؛ اما الضريح نفسه فهو من بقايا ما انشأه خليفة الموحدين محمد الناصر بن المنصور بالجزائر (٥٩٥ - ٦١١) ، ومنها البرج الاحمر وبرج المرسي بوهران اللذان انشأهما ابو الحسن ايضاً في تلك السنة ، وبقي البرج الأحمر قائماً الى الاحتلال الفرنسي وكان على طراز شكل العمارة الاندلسية الاسبانية مثلث الزوايا ، وكذلك المسجد والجامع بمستغانم ٧٤٢ ﻫ (١٣٤٠) ، ويذكر ان بالجامع الاعظم في الجزائر جناحا منه هو من زيادات ابي الحسن . وذلك الجامع الجميل مسجد سيدي الحلوى بتلمسان فانه مما اخرجته يد الفن المغربي على عهد السلطان ابي عنان ٧٥٤ﻫ (١٣٥٣م) وكذلك ما اتصل به من البناء هو مما انشيء في ذلك العصر ، كما يذكر ان الجامع الكبير بقسنطينة هو ايضاً من آثار ابي عنان . وتدلنا الابحاث التاريخية على ان الجامع الجديد مركزه ديوان الافتاء الحنفي اليـوم بالجزائر المؤسس سنة ١٠٧٠ﻫ (١٦٦٠م) انما بني عنان او جامع المدرسة العنانية ، وانه كان يعرف من قبل بجامع زاوية سيدي ابي عنان او جامـع المدرسة العنانية ؟... ولا ادري ما العلاقة في ذلك ؟... وكذلك قصبة بلدة المدية فانهـا انشئت سنة

٧٠٤هـ (١٣٠٤م) على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني ، ولا تزال الى اليوم بقايا من اطلال مدينة المنصورة التي أقامهاهذا السلطاننفسه غربي تلمسان سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) تشهد بمنتهى مـــا بلغه فن المعمار المغربي الجزائري من الابداع والاتقان في ميدان الزخرفة والنقش واحكام البناء قال ، ابن مرزوق الخطيب « منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها ، ولا وصف الواصفون مثل وصفها .. »[1] .

اما عن سير الحياة الاقتصادية والحركة التجارية ، فقد كادت المنتوجات المغربية ان تنحصر يومئذ في صناعة الجلد ونسج الصوف والحرير المزركش، ولقد اشتهرت معامل الصوف المغربية في العالم حتى اشتق لها في لغة اوروبا اسمMerinos – ميرينوس – وهو خاص بالنوع الجيد من الصوف ، وهي كما لا يخفىنسبة الى المرينيين، وكذلك صناعـة الجلد اشتهرت في اوروبا بنسبتها الى المغرب Maroquinerie ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى الآن .

واذا أردنا ان ننظر الى خصوصية الإقليم الجزائري في ذلك فانه يكفينا ان نعلم ما حكاه ابن خلدون عن الحياة العامة في مدينة المنصورة التي شيدها السلطان ابو يعقوب المريني قرب تلمسان فنجعله كنموذج مصغر نطلع به على سير الحركة الاقتصادية بالجزائر في ذلك العصر ، قال :

واختط بمكان فسطاط المعسكر قصراً لسكناه واتخذ به مسجداً للصلاة وادار عليها السور وامر الناس بالبناء فبنوا الدورالواسعة والمنـــازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين واجروا المياه ثم امر بادارة السور سياجاًعلى ذلك سنة اثنتين وسبعين وصيرها مصراً فكانت من اعظم الامصار والمدن احفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق اسواق واحتفال بناء وتشييدمنعة، وامر باتخاذ الحمامات والمارستان وابتنى مسجداً جامعاً وشيد له مأذنة رفيعة فكان من احفل مساجد الامصار واعظمها وسماها المنصورة واستبحر عمرانها

(١) انظر الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون صفحة ١٢٢و٣٣٥

ونفقت اسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت احدى مدائن الغرب كما يحدثنا ايضاً عن مبلغ جباية الزاب التي رفعها عامله يوسف بن منصور ابن مزني لبيت المال من سنة ٧٥٨ هـ – ١٣٥٧ م فذكر انها كانت قناطر من الذهب [١] .

ويصف لنا العبدري (٦٧١ – ٧٥٧ هـ – ١٢٧٣ – ١٣٥٦ م) في رحلته مدينة الجزائر فيقول : « ...... ثم وصلنا الى مدينة الجزائر وهي مدينة تستوقف لحسنها نظر الناظر ، ويقف على جمالها خاطر الخاطر ، فقد حوت قريتي البر والبحر ، وفضيلتي السهل والوعر ، لها منظر معجب انيق ، وسور معجز وثيق وابواب محكمة العمل ، يسرح الطرف فيها حتى يمل ... »

اما عن سير الحركة العلمية ونظام التعليم ، فأنه يكفي ان قد عرف هذا العصر عند المؤرخين بعصر انشاء المدارس والمعاهد وترسيم العلماء والمدرسين بها ، غير اننا نرى القوم يومئذ تتغلب عليهم علوم الشريعة والدين ، ولاحظ لهم في غيرها من الفنون العقلية الا قليلاً مما جاءهم عن علماء اندلسيين اومشارقة وذلك لان العلوم الفلسفية نشأت هنا على ايدي افراد متفرقين حركتهم الرغبة اليها فهم متفرقون لا تربطهم مجالس ، وهم فوق ذلك تحت رقابة من علماء الرسوم المتزمتين .

وتكاد تلمح سير الحياة العلمية بمراتبها وببرامجها وفي جميع مظاهرها بالمغرب يومئذ فيما سطره ابن خلدون عن نظام التعليم وطريقة المغاربة في ذلك حيث قال :

« وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم يطالبونه باحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١ ع د ج ٧ ص ٢٢١

وقبل ان يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ، ويكون المتعلم اول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا في الاقـــل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن ؛ واذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما اتى ذلك من سوء التعليم » . وهذا ما نراه اليوم – بوجه عام – مقرراً لدى علماء النفس المتخصصين في التربية والتعليم ؛ ويتمادى ابن خلدون في حديثه عن طرق التعليم واساليبه فيقول :

« وكادت ان تنقرض وتنقطع صناعة التعليم هذه بالمغرب لولا ان ارتحل الى المشرق من افريقيـــة – يعني تونس – القاضي ابو القاسم بن زيتون لعهد اواسط المائة السابعة ، فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب – الفخر الرازي – فاخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن ...

ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشدالي وادرك تلميذ ابي عمرو بن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في المعقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها ، وربمـــا انتقل الى تلمسان عمران المشدالى من تلميذه واوطنها وبث طريقته فيها، وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل ؛ وبقيت فاس وسائر اقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم » .

وفي بيان سوء سلوك الطلبة في تعلمهم وانحطاط خطتهم المتبعة المرسومة

يومئذ في تلقيهم للعلم يقول :

« انك تجد طالب العلم منهم – المغاربة – بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى نفسه منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض او ناظر او علم ، وما اتاهم القصور الا من قبل التعلم وانقطاع سنده ، والا فحفظهم ابلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك ؛ ومما يشهد بذلك في المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ، وهي بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال امدها في المغرب لهذه المدة لاجل عسرها من قلة الجودة في التعلم خاصة لا مما سوى ذلك . وان ايسر الطرق للحصول على هذه الملكة العلمية والحذق في العلوم هو فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها »

وهكذا نرى كذلك القاضي المقري (٧٩٥ هـ – ١٣٩٢ م) ينعى على طلبة عصره في اقتصارهم لاخذهم للعلم ودراسة كتبه على ارهاق انفسهم في حفظ المختصرات والانكباب على الشرح والتقاييد الهزيلة واعراضهم عن كتب الائمة في كل فن فيقول : (... ثم كل أهل هذه المائة – الثامنة – عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والاصول الكبار فاقتصروا على ما قل لفظه ونزر حفظه ، وافنوا اعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه .

ولم يصلوا الى رد ما فيه الى اصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح ، بل هو حل مقفل ، وفهم امر مجمل ، ومطالعة تقييدات زعموا انها تستنهض النفوس ، فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الائمة الى كتب الشيوخ اتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ ، فانا لله وانا

اليه راجعون » (١) وعلى هذا النمط نرى علماء المغرب مستمرين في دروسهم وتآليفهم منذ ذلك العصر الى عصر النهضة العلمية بعدالاستقلال السياسي الذي احرز عليه المغرب العربي باقطاره الثلاثة في هذا القرن .

ورغم هذا الالتواء والتعقيد في طرق التحصيل يومئذ فانه نبغ بالقطر الجزائري في هذا العصر علماء فطاحل اشتهروا بالزعامة في العلم والرئاسة في الدين كبيت العقباني والمشدالي وابن مرزوق والعبدري وابن قنفذ القسنطيني وشقرون الوهراني شيخ الحافظ الذهبي وغيرهم من اعيان علماء الجزائر

ونأسف لمدينة الجزائر نفسها فانها لم تكن يومئذ بدار علم ولا مرجعاً للتحصيل وقد حل بها الرحالة العبدري وذكر لنا من حالها وقتئذ (٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م) ما يلي : « وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة ، واديب يؤنس غربة ، فكاني اسأل عن الابلق العقوق ، او احاول تحصيل بيض الانوق ... »

ولقد اشتهر ملوك هذه الدولة المرينية بنصرة العلم والاخذ بيد العلماء فان مجالسهم كانت لا تخلو من طائفة كبيرة منهم وفيهم من كان لا يستغنى عنهم حضرا أو سفرا كالسلطان ابي الحسن وولده ابي عنان مثلا ؛ وخزائنهم مملوءة بمختلف المؤلفات النفيسة في شتى انواع الفنون ولم يكن ليشغلهم عن جلب الكتب الى المدارس والمساجد وتوزيعها على المعاهد العلمية شيء، بل وحتى في احرج المواقف واشدها فان عنايتهم دائماً وابداً مصروفة الى العلم ، فها انت ترى السلطان ابا يوسف يعقوب المريني كيف اشترط على ملك الاسبان « سانشو الرابع » في معاهدة الصلح التي عقدها معه : ان يعيد اليه جميع المخطوطات العربية التي حازها ايام استيلائه على قرطبة واشبيلية ، فبعث اليه سانشو المذكور بثلاثة عشر حملا من الكتب ، فرقها ابو يوسف ووزعها بين خزائن مساجد المغرب ؛ وكان رحمه الله يعد ذلك في نفسه انتصاراً عظيما يفتخر به وانه لا يقل عن انتصاراته العظيمة في الحروب والغزوات

---

(١) البستان لابن مريم ص ٢١٧ ط الجزائر ١٣٢٦ – ١٩٠٨ م

ويعود ابن خلدون فيحدثنا عن سير التعليم الابتدائي بالمغرب ايضاً فيقول بعد تقديم الكلام على اختلاف مناهجه وطرقـه وتنوع اساليبه عند الامم :

... فأما اهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، واخذهم اثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى ان يحذق فيه او ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب اهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قوى البربر امم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا رجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره ، فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم ....

« وأما اهل افريقية – تونس – فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها ، الا ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته اكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع ذلك ، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلـــك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عنـــد تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم اخذ ولدانهم بعد ذلك »ويذكر لنا ابن خلدون نتيجة ملاحظته الدقيقة في خصوصية نظام التعليم هذا بتونس والمغرب فيقول :

«فأما اهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عـــن ملكة اللسان جملة؛ وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما ان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ؛ فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على اساليبه والاحتذاء بهـا وليس لهم ملكة في غير اساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان اهل افريقية – تونس – في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينهـا كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغـة لما ان اكثر

محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة »

وعن السبب الباعث لهم على الاقتصار على استظهار القرآن الكريم وجعله عندهم اساساً للتعليم هو ما يذكره ابن خلدون ايضاً : « ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبي من الافات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه ما دام في الحجر منقاداً للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فالقته بساحل الطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن ليلا يذهب خلوا منه » .

ونرى مؤرخنا آسفاً جد الأسف على ان لا يسير اهل المغرب العربي على المنهاج الذي رسمه الامام ابو بكر بن العربي لتعليم الاطفال إنْ قَدَّمَ فيه دروس اللغة والادب والحساب على تعلم القرآن كما يفعل اهل الأندلس ، فقال : « ولو حصل اليقين باستمراره – المتعلم – في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي اولى ما أخذ به اهل المغرب والمشرق . واخيراً قال : « ويا غفلة اهل بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول امره يقرأ ما لا يفهم وينصب في امر غيره أهم عليه .

وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول »

ويشير ابن خلدون الى ما كان عليه حال المعلم في هيئة المجتمع الاسلامي من انحطاط رتبته وحقارة شأنه ومهانته بين الناس فيقول :

« ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم ... واختص انتحال التعليم

بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند اهل العصبية والملك »[1]

كما يفيدنا مؤرخنا العظيم بتاريخ تطور الخط العربي وعن صناعة نسخ الكتب بهذا المغرب الاسلامي فيقول : « واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية ... وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ، ويقرب من اوضاع الخط المشرقي وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد.. ثم لما ارتحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة، فلم تزل بها اسواقه نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف .

وأما أهل الأندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد ، وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفي عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعها، وصارت خطوط افريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس ، وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط اهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء ، وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها .

---

(١) المقدمة ص ٢٧٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

وحصل في دولة بني مرين من بعـــد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جـوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبـاً واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيها بعدعن سدة الملك وداره كانه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة ...

وكذلك نراه يتعرض لصناعة الوراقة ونسخ الكتب والتدوين نادباً حظها قائلاً : « ولقد ذهبت هذه الرسوم لهـــذا العهد جملة بالمغرب واهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة اهله ، وصارت الامهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخهـــا طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحهـا ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل النادر ...» .

وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصـــل لمتصفحها منها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول » .

كما نجده في بحثه لتعليم الخط حريصا على افادتنا بالطريقة والاسلوب الذي كان يجري عليها قانون التعليم عند معلمي الخط العربي بالمغرب والاندلس فيقول:

« وليس الشأن في تعليم الخط بالاندلس والمغرب كذلك، في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم ، وانما بمحاكاة الخط في كتابة الكلمات جملة ، ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له الى ان يحصل له الاجادة ، ويتمكن في بنانه الملكة ويسمى مجيداً .

اما عن صناعة الطب وفنون الحكمة فانها نقصت كذلك في هـــذا العصر لوقوف العمران وتناقصه ؛ واما الغناء وفن الموسيقى فقد بقيت منه صبابة كما يقول ابن خلدون تناقلت عن بلاد الاندلس بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على امصارها على تراجع عمرانها وتناقص دولها[١].

مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ - ٢٠٦ و ٢١٠ - ٢١١ و ٢٤٠ و ٢٧٥ - ٢٧٧ - ٢٧٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ و ج ٢ ص ٣٤٩ ط باريس ١٨٥٨ م

والمعروف عن اهل الاندلس انهم اخذوا فن الغناء وورثوه عن زرياب غلام الموصليين فاليه يرجع سند فن الالحان والغناء وموسيقى اهل العواصم من الحضر باقطار المغرب الثلاثة .

انهيار الجزائر المرينية

امضت دولة مرين كل ايامها بالجزائر في عراك ومقاتلة ضد مزاحميها من بني ابي حفص وبني عبد الواد ، بله ما كان يتجاذبها من حوادث الثوار بالمغرب الاقصى والاندلس ومحاربتها المتواصلة في رد هجوم القشتاليين والبرتغال والايطاليين عن بوغاز جبل طارق وسواحل المغرب الخ ... فظهر يومئذ عجزها عن القبض على ادارة المغرب الاسلامي كله، ولا سيما منه الجزائر حيث خرجت عن طاعة الدولة يوم وقعة « شدبونة » بنواحي شلف ومملكة الناصر ابن السلطان ابي الحسن يومئذ (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م)

ولما افضى امر الدولة الى السلطان ابي سالم ابراهيم بن ابي الحسن نفض يده من شرق مملكة الجزائر وكتب في ذلك الى المنصور بن خلوف ليسلمها الى ابي العباس الحفصي ؛ فتسلمها بنو ابي حفص في رمضان سنة ٧٦١ هـ (جوليط ١٣٦٠ م) وبقي غرب الجزائر متصلا بالمملكة المرينية الى ان انتصب السلطان ابو زيان بن ابي حمو الثاني على عرش تلمسان سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣م) فقطع دعوة المرينيين عنها كما المعنا الى ذلك فيما تقدم ، وكما سنوضحه فيما يلي ان شاء الله من تاريخ دولة بني زيان .

ويومئذ انحازت دولة مرين الى المغرب الاقصى الى ان صار ملكها الى ابي سعيد عثمان فأخذ البرتغاليون يومئذ في بسط نفوذهم ونشر سلطتهم على الشواطىء المغربية بدافع التنافس والتزاحم بينهم وبين الاسبان في سبيل الوصول الى الهند فسقطت بعض الموانىء المغربية بيد الاجانب واحتلت معظم المرافىء واهمها، وساءت يومئذ سياسة السلطان عبد الحق بن ابي سعيد فاقتسم الوزراء النفوذ بينهم والسلطة وتسلط اليهود على الادارة العليا فحازوا اسمى مناصب الدولة فكان هارون وزيراً وشاويل حاكما بفاس ، فسقطت بذلك

هيبة السلطان من نفوس الرعية ووهت العلائق بينها وتضعضعت دعائم الملك فانحل تماسكها وعم الاضطراب والفشل سائر اعضاء الدولة ورجالها المسؤولين فثارت الرعية ساخطة على السلطان عبد الحق فقتلته وقتلت معه ولاته اليهود ٨٦٩ هـ (١٤٦٥م) وبقتله انتهى دور امرة بني عبد الحق ، وانتصب مكانها بنوطاس ـ وهم من بني مرين ايضا فبقى الامر فيهم الى ان تغلب عليهم ابو عبد الله محمد الشيخ القائم بأمر الله السعدي فاحتل مدينة فاس سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٤ م) فانقرضت يومئذ دولة بني مرين بالمغرب الاقصى وحلت محلها الدولة السعدية، وذلك لثلاث وتسعين ومائتي سنة قضتها هذه الدولة في حكم المغرب الاسلامي، امضت منها بالجزائر ١٢٤ سنة،وباشرت الحكم فيها بنفسها نحو ربع قرن ثم تركتها لبني عبد الواد فحكوها طيلة بقية هذه المدة تحت امرها وطاعتها الى ان انفردوا بها .

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة الجزائر على عهد المرينيين يحيى بن سليمان العسكري عقدله السلطان ابو الحسن على فتح القطر الجزائري فسار اليه سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥م) وفتح امصاره حتى انتهى الى بلدة المدية ؛ وكما عقد هذا السلطان لولديه عبدالله على مدينة الجزائر وابي عنان على تلمسان وسائر المغرب الاوسط ، فتولى ذلك ابو عنان سنة ٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م) وكانت اليه جبايته ، كما تولى نفس هذه الولاية محمد المهدي على عهد والده ابي عنان ايضاً : ولما ظهر انتصار بني زيان على المرينيين وخرج ابو عنان من تلمسان سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ترك على ولايتها عثمان بن يحيى بن جرار فدعا لنفسه اشهراً الى ان دخل عليه بنو عبد الواد فاستأمن فأمنوه بعد ما عزلوه ثم سجن ومات غريقاً من سنته ، وكثيراً ما تولى مشيخة بني عبد الواد هذه الولاية تحت طاعة بني مرين . واشتهر من ولاة الثعالبة بمتيجة ابو الحملات بن عايد بن ثابت بن محمد بن سباع الثعالبي هلك في طاعون سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فخلفه ابراهيم بن نصر ابن حنيش بن ابي حميد ثابت ، ولما هلك ايام ابي عنان تولى مكانه ابنه سالم

وعقد السلطان ابو عنان للحاجب محمد بن ابي عمرو على ثغور بجايـــة وسائر اعمالها وعلى حروب الموحدين بقسنطينة . وقد جمع له من قبل ما بين الحجابة والقيادة والعلامة والسفارة وديوان الجنـــد والحساب والقهرمة ومنحه سائر القاب وظائف الدولة ، وحتى خصوصيات الدار ، فسار ابن ابي عمرو الى بجاية سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م)وتولى زمامها الى وفاته في المحرم ٧٥٦ هـ (جانفيى ١٣٥٥ م) فتولى بعده الوزير عبد الله بن علي بن سعيد اليابابي : ثم عزل واعتقل ، فتولى مكانه القائـــد يحيى بن ميمون بن امصمود فتغلب عليه الحفصيون واعتقلوه بتونس سنة ٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م كما تولى على بجاية ايضاً كل من محمد بن النوار وموسى بن ابراهيم اليرنياني وكلاهمـــا من طبقة الوزراء وعمر بن علي بن الوزير بن ابي وطاس؛ وابي عبدالله محمد بن الامير ابي زكرياء ولاه ابو عنان اقليم بجاية ليدفع عنه حملة ملوك تونس يومئذ ، واذن لاساطيله بوهران فركبها الامير عبدالله الى تدلس ومنهـــا الى بجاية . كما انه ولى على قسنطينة يوم ان فتحهـــا ٧٥٨هـ (١٣٥٧) المنصور بن الحاج خلوف الياباني المريني ، ثم امره بالنزول عنها سنة ٧٦١هـ - ١٣٥٩م وتركها للامير ابي العباس الحفصي ؛ ثم كانت للأمير أبي زيد بن الامير ابي عبدالله الحفصي وهي محـــل امارة ابيه وكان على ولاية بونة الفضل بن يحيى فثار ضـــد الحكومة المركزية سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) وغلب على قسنطينة وبجايـــة برهة من الزمن وكان على ولاية دلس يحياتن بن عمر شيخ بني ونكاسن المرينيين ، وعلى ولايـــة الجزائر ابن علان ، والقائد محمد بن يحيى بن العسكري وجعلت جبايتهـــا لمسعود بن ابراهيم اليرناني من طبقة الوزراء وكان على اعمال قسنطينة محمد بن العباس ، وعلى ولاية بسكرة يوسف بن مزني وهو صـــاحب زمـــام رياح ، ومن شيوخ طولقة ومقدميها يومئذ عبد الرحمن بن احمـــد بن يا شلدة بن مزني ورآسة مليانة كانت لعـــلي بن حسون بن ابي علي الهساطي - او اليناطي ! .. - وهو احد قادة السلطان ومواليه : اجتمع به ابن خلدون في دار حكمه بمليانة سنة ٧٧٤هـ (١٣٧٢ م) ؛ ومشيخة المدية لعلي بن يوسف بن عبد القوي .

ويذكر ابن خلدون قبيلة « بني راتن » فيقول ان رئاستها كانت لبني عبد

الصمد من بيوتاتهم وقد كان فيمن ترأس عليها زمن تغلب السلطان ابي الحسن المريني على المغرب الاوسط شيخة او زعيمة منهم تدعى « شمسى » كان لها عشرة اولاد كلهم من ابناء عبد الصمد فاستفحل شانها بهم وملكت عليهم امرهم .

وكانت رآسة قبائل احياء العطاف في اولاد يعقوب ، ورآسة بني عامر لصغير بن علي ، ورآسة كومية لابراهيم بن عبد الملك الولهاصي نسبة الى قبيلة ولهاصة بساحل التافنا فاستبد بهذه الولاية برهة واضرمها على بني مرين وبني عبد الواد ناراً تلظى الى ان قضى عليه بنو عبد الواد فكان حاله مثل ابي سعيد عثمان بن جرار حين ولاه ابو عنان تلمسان، وكانت امارة البدو وبضاحية مدينة بجاية وقسنطينة ليعقوب بن علي بن احمد سيد الدواودة.

وكانت رآسة سدويكش – البسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية – لبني علاوة بن سواق، واشهرهم مهنا بن تازير بن طلحة بن علي بن علاوة بن سواق؛ فقتله بنو عمه اولاد يوسف بن حمود بن سواق ، وحينئذ ترأس عليهم عدوان ابن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة ، ثم هلك فافترق بعده امرهم . وبقيت رآسة سدويكش لاولاد يوسف المذكور ؛ قال ابن خلدون « ويرادف اولاد سواق في الرآسة على بعض احياء سدويكش بنو سكين . ومواطنهم بجوار لواته بجبل بابوروما اليه من نواحي بجاية ، ورآستهم في بني موسى بن ثابر ادركنا ابنه صخر بن موسى »(١) وكان فيمن تولى هذه الولاية : الوزير موسى بن ابراهيم بن عيسى من بني يرنيان المغراويين ، تولاها على عهد السلطان ابي عنان ؛ وفي ايام السلطان عبد العزيز تولى ابو بكر بن سليمان مشيخة « وارجلان » – وارقلا –

وكان على رآسة بني يزيد بسهل حمزة موسى بن ابي الفضل ، وعلى رآسة وانشريس نصر بن عمر بن عثمان ، وكانت رآسة مسراته بالقلعة المطلة على البطحاء من نواحي سيق غربي نهر مينة ، لبني عبد العزيز ، ثم انتقلت الى

١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩ – ١٥٠

بني عمهم بني اسحاق؛ وكانت رآسة قبيلة ونيفن الهوارية مما يلي تبسة لاولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن بمرة ، وكانت قبلهم لسارية . وكان في جملة من عرف ممن عقد لهم السلطان على جميع بلاد مغراوة : علي بن محمد من عظماء بني ورتاجي ، وعمر بن ويغري بن منديل ومحمد بن عمر بن منديل .

وكان على ولاية وهران القائـــد عبوس بن سعيد من صنائع بني مرين ؛ واقطع ابو عنان وزيره ابا يعقوب ونزمار بن عريف سهل « السرسو » وقلعة ابن سلامة ومواطن من بلاد توجين – ما بين قلعة سعيدة غرباً الى المديـــة شرقاً –

واما عن امراء البحر فانــه لم يحضرني الآن من اسمائهم سوى اثنين منهم وهما القائد أبو عبد الله محمد الاحمر ومحمد بن علي بن العزفي .

★

ملوك الدولة المرينيّة

بنو عبد الحق :

	تاريخ التولية
ابو محمد عبد الحق بن ابي خالد محيو	٥٩٢ هـ — ١١٩٦ م
ابو سعيد عثمان بن عبد الحق (ادعال)	٦١٤ هـ — ١٢١٧ م
محمد (الاول) بن عبد الحق	٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م
ابو يحيى ابو بكر بن عبد الحق	٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م
ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م
ابو يعقوب يوسف بن يعقوب ، الناصر لدين الله	٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م
ابو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف	٧٠٦ هـ — ١٣٠٧ م
ابو الربيع سليمان بن ابي عامر	٧٠٨ هـ — ١٣٠٨ م
ابو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب	٧١٠ هـ — ١٣١٠ م
ابو الحسن علي بن عثمان	٧٣٢ هـ — ١٣٣١ م
ابو عنان فارس المتوكل بن علي	٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م
ابو زيان محمد بن فارس ابي عنان ـ ولي ثم عزل في الحال ـ	٧٥٩ هـ — ١٣٥٨ م
محمد السعيد بن ابي عنان	٧٥٩ هـ — ١٣٥٨ م
ابو سالم ابراهيم بن علي	٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م

	تاريخ التولية
ابو عامر تاشفين بن علي	٧٦٢ ﻫ – ١٣٦١ م
عبدالحليم بن ابي علي عمر – انفرد بسجلماسة منذ ربيع الاول –	٧٦٣ ﻫ – ١٣٦١ م
ابو زيان محمد (الثاني) المنتصر بن ابي عبد الرحمن	٧٦٣ ﻫ – ١٣٦٢ م
ابو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي	٧٦٨ ﻫ – ١٣٦٦ م
ابو زيان محمد (الثالث) السعيد بن عبد العزيز	٧٧٤ ﻫ – ١٣٧٢ م
ابو العباس احمد المستنصر بن ابراهيم	٧٧٦ﻫ – ١٣٧٤م
موسى بن ابي عنان	٧٨٦ﻫ – ١٣٨٤م
ابو زيان محمد (الرابع) المنتصر بالله بن احمد	٧٨٨ﻫ – ١٣٨٦م
ابو زيان محمد (الخامس) الواثق بالله بن ابي الفضل	٧٨٨ﻫ – ١٣٨٦م
المستنصر – للمرة الثانية –	٧٨٩ﻫ – ١٣٨٧م
ابو فارس احمد	٧٩٦ﻫ – ١٣٩٣م
عبد العزيز بن احمد	٧٩٩ﻫ – ١٣٩٦م
عبدالله بن احمد	٨٠٠ﻫ – ١٣٩٧م
ابو سعيد عثمان (الثاني) بن احمد	٨٠١ﻫ – ١٣٩٨م
ابو مالك عبد الواحد بن موسى	٨٣١ﻫ – ١٤٢٧م
ابو محمد عبدالحق بن ابي سعيد عثمان (الثاني)	٨٣١ﻫ – ١٤٢٨م

بنو وطاس :

ابو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي	٨٣١ﻫ – ١٤٢٨م
علي بن ابي الحجاج يوسف بن منصور	٨٥٢ﻫ – ١٤٤٨م
محمد (الاول) – ابو زكرياء يحيى بن يحيى	٨٦٣ﻫ – ١٤٥٨م
محمد (الثاني) الشيخ البرتقالي بن محمد (الاول)	٨٧٥ﻫ – ١٤٧٠م
احمد بن محمد (الثاني)	٩٣١ﻫ – ١٥٢٤م
محمد بن احمد	٩٥٧ﻫ – ١٥٥٠م

من مشاهير الجزائر

ابو الحسن علي الخزاعي التلمساني

٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ م

هو الكاتب الكبير والاديب الشاعر المؤرخ العلامة الشيخ ابو الحسن علي بن محمد بن احمد بن موسى بن مسعود الخزاعي التلمساني ، ينتمي الى اسرة هي من اعيان الاسر الاندلسية المنتقلة الى الجزائر ، المشهورة هنالك بالرئاسة في السياسة والعلم والقضاء ، وكان والده فقيها كاتباً بارعاً فحظي عند ملوك وامراء تلمسان وجمع بين خطتي السيف والقلم فاشتهر بلقب ذي الوزارتين ، انجب ولده عليا - صاحب الترجمة - بتلمسان سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م) فنشأ مقتفياً خطة آبائه واجداده النبلاء جاداً في تحصيل العلم والادب ، وكان من مشائخه ابن مرزوق الخطيب ، والقاضي البلفيقي ...

برز رحمه الله في الادب والفقه والحساب والتاريخ ؛ واشتهر بالايثار وكرم الاخلاق وحسن السيرة ، فتنافس في مصاحبته ملوك المغربين : الاوسط والاقصى ، فكتب اولاً العلامة للسلطان ابي سالم ابراهيم المريني ، ثم كتب في بلاط بني زيان بتلمسان واخيراً استقر في بلاط بني مرين كاتباً للاشغال فحاز لديهم رئاسة قلم الدولة ونال من الحظوة ما يستحقه امثاله النبغاء من العلماء عند الملوك .

وله من الشعر قوله لما كبى بموسى بن ابي عنان المريني فرسه بالشماعين اثر صلاة الجمعة :

مولاي لا ذنب للشقراء ان عثرت — ومن يلمهـا لعمري فهو ظالمها
ومالها ما اعتراها من مهابتكم — من اجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا — تكبو الجياد ولم تنبو عزائمها
وفي النبي رسول الله اسوتنا — اعلا النبيئين مقداراً وخاتمها
كبا به فرس ابقى بسقطتـه — في جنبه خدشة تبدو مراسمهـا
حتى لصلى صلاة جالساً ثبتت — لنا بها سنة لاحت معالمهـا
صلى عليه الاله دائماً ابـداً — ازكى صلاة تحييهـا نواسمها

ولم اقف على تأليف له رحمه الله سوى ذلك الكتاب العجيب الذي انفرد به بين علماء الاسلام بتدوين تاريخ الحضارة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واعني به كتاب « تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » وهو لعمري كتاب نفيس فريد في بابه مستوعب لموضوعه ، لم يترك فيه خطة او وظيفة او رتبة او صناعة او حرفة او اي عمل من اعمال المجتمع الاسلامي في ميدان المصالحة الادارية عسكرية كانت او مدنية ، او شرعية او علمية ، الخ... الا واثبت اصلها في الاسلام ودليلها من السنة وعمل الخلفاء الراشدين فيها مع التعرض الى ذكر اول من باشر تلك الاعمال بنفسه من الصحابة او كان ممن ولاه رسول الله عليها ؛ فكان الخزاعي بذلك من اسبق العلماء الى تدوين تاريخ المدنية الاسلامية وتفصيل الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصاديـة في صدر الاسلام فجاء عمله هذا مفخرة من مفاخر الجزائر التي يحق لها ان تباهي بهـا وتتطاول !...

وكان تاريخ وضعه لهذا الكتاب الجليل سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) اي قبل وفاته رحمه الله بثلاث سنوات ، الفه برسم السلطان المتوكل على الله ابي فارس المريني ، وكان من حسن الاتفاق ان ظفر الشيخ عبد الحي الكتاني بنسخـة

مخطوطة منه عثر عليها بخزانة جامع الزيتونة المعمور في تونس تحت عدد ٧٥٧٢ فادمجها في كتابه الجامع « التراتيب الادارية ... » المطبوع في جزئين برباط الفتح سنة ١٣٤٦ هـ وكانت وفاة الخزاعي بمدينة فاس بعد عصر يوم الاحد الخامس من ذي القعدة سنة ٧٨٩ هـ (١٧ نوفمبر ١٣٨٧ م) ودفن غداة يوم الاثنين تغمده الله برحمته .

وفي مكتبة شهيد علي باشا بإستانبول نسخة كاملة من كتابه هذا : تخريج الدلالات السمعية ... تحت رقم ١٨٥٣ مكتوبة سنة ٨٣٦ هـ .

محمد بن مرزوق الخطيب

٧٨١ هـ = ١٣٧٩ م

هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر محمد بن مرزوق التلمساني الشهير بلقب الخطيب والجد والرئيس .

كان رحمه الله آية في فنون العلم والأدب والسياسة والدين ومن ابرز الشخصيات الجزائرية التي عرفها العالم في القرن الثامن الهجري ولا سيما بالمغرب والاندلس ومصر والشام ؛ وكان موطن اسرته بعجيسة بزاب افريقية ، فانتقلت الى تلمسان صحبة الشيخ ابي مدين شعيب بن الحسين الاشبيلي في اواخر القرن السادس الهجري ، نزلت ضاحية العباد وسكنت هنالك ملتزمة خدمة الشيخ حال حياته ثم سدانة ضريحه وملازمة رباطه بعد وفاته الى ان علا شأنها بعد ذلك وارتفع كعبها بالعلم فنبه ذكر الكثير من ابنائها وكان من بينهم مترجمنا ابو عبدالله محمد بن مرزوق .

قال المقري : وبيتهم بيت علم وولاية وصلاح ، كعمه وجده وأبيه وجد ابيه ، وكولديه محمد واحمد وحفيده عالم الدنيا البحر ابي عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وولد حفيده المعروف بالكفيف وحفيده المعروف بالخطيب وهو

آخر المذكورين منهم فيا نعلم [1] .

ولد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠ هـ - ١٣١٠ م وبها نشأ وتربى وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادي العلوم حتى اذا بلغ الثامنة عشرة من عمره ارتحل مع والده الى الحجاز فحج وزار وجاور وهناك اجتمع بالمشيخـــة فأخذ عن كثيرين من اهل الحجاز وغيرهم من قصاد تلك البقاع المطهرة ، ثم سافرمنفرداً بنفسه عن والده فدخل بلاد الشام ومصر فسمع وروى عن عدد عظـــيم من علماء المشرق هنالك كما اخذ عن علماء بجاية وفاس وتونس فكان عدد شيوخه يفوق الالفين ، وقد اودعهم كلهم فهرسته المسماة « عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من اجاز ، من ائمة المغرب والشام والحجاز» ، فبرز قدس الله روحه في علوم متنوعة كثيرة وخاصة منها الحديث الشريف فانه اشتهر به اكثر من غيره ، والف فيه اكثر من سواه ،وقد كتب من محبسه في احدى نكباته التي نكب بها: انه لا يوجد اليوم من يسند احاديث الصحاح قراءة وسماعاً من باب الاسكندرية الى البرين والاندلس غيره ؛ كما ذكر انه في احدى رسائله التي كتبها من السجن ايضاً سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م انه خطب على ثمانية واربعين منبرا في بلاد الاسلام شرقاً وغربا واندلسا .

وبعد ان ملأ وطابه بالعلم امره والده بالعودة الى بلدة لتانيس عمه محمد بن مرزوق خطيب جامع السلطان ابي الحسن بالعباد ، فانكفأ راجعا الى وطنه ، وصادف ان كان يومئذ السلطان ابو الحسن المريني محاصراً لتلمسان سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢ م - فنزل الشاب العالم على عمه ولم يلبث عمه هذا ان توفي الى رحمة الله فاقامه السلطان مقام عمه المرحوم ، فابان الشاب الخطيب يومئذ عن علم واسع وادب جم ، وسياسة فائقة وحصافة نادرة وحكمة باهرة ، منقطع النظير في ذلك بين اقرانه من العلماء فاستخلصه السلطان لنفسه واصطفاه لحضرته فكان لا يفارقه حضراً وسفرا حربا وسلما . قال ابن خلدون : « ولما ابتنى السلطان ابو الحسن مسجد العباد - بتلمسان . ولاه الخطابة وسمعه يخطب على

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٣٨ ط القاهرة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٠ م

المنبر وقد احسن في ذكره والدعاء له فحلا بعينه وجعله خطيباً يحث يصلي في مساجد المغرب وذلك ما جعله يعرف بالخطيب ، وسافر عنه الى الملوك .

وغدا معه الى الحرب في وقعة طريف ٧٤٠ هـ — ١٣٤٠ م وبعث بهسفيراً الى صاحب قشتالة النصراني فغدا اليه سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م وعقـــد معه الصلح وافتك منه الاسرى .

ولما عاد ابن مرزوق من سفارته الى قشتاله طلب من السلطان ابي عنان المريني اعفاءه من الخدمة وتسريحه فاعفاه ، وعاد يومئذ الى بلده تلمسان، وقد تملكها يومئذ بنوزيان فاوفده الملك ابو سعيد الى دولة بني مرين في مهمة سياسية وما كاد يتصل بالبلاط المريني حتى لحق به خصوم ابي سعيد ومنافسوه في الملك فاسروه ونكبوه واودعوه السجن الى ان تداركه الله بلطفه فأجيز الى الاندلس ودخل غرناطه سنة ٧٥٢ ــ ١٣٥١م ــ فنزل على سلطانها ابي الحجاج بن الاحمر فقربه منه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء فبقي عليها مدة سنتين الى ان استدعاه ابو عنان بعد مهلك ابيه واستيلائه على تلمسان واعمالها فنظمه في اكابر اهل مجلسه ثم اوفده الى تونس عام ٧٥٨ هـ — ١٣٥٧م ليخطب له بنت السلطان ابي يحيى ابي بكر الحفصي فردت الخطبة: ويومئذ وشى بابن مرزوق فاودعه ابو عنان السجن فكانت هذه نكبته الثانية ثم اطلقه السلطان بين يدي موته.

ولما تولى السلطان ابو سالم ملك مرين اعاد للشيخ مكانته وحرمته العلمية وعلت منزلته عنده وعند كل رجال البلاط حتى صار زمام الدولة بيده.

قال ابن خلدون : (... فانصرفت اليه الوجوه وخضعت ووطىء عقبه الاشراف والوزراء وعطف على بابه القواد والامراء وصار زمام الدولة بيده، وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من سوء المغبة ويزجر من يتعرض له في الشكاية ويوهم الى اصحاب المراتب والخطط بباب السلطان ، وهم يعلمون انهم قد ضرب على ايديهم فنقموا ذلـــك وسخطوا الدولة من اجله ومرضت قلوب اهل الحل والعقد من تقدمه ونفس عليه الوزراء ما ثبت له عند السلطان

من الحظ فتربصوا بالدولة ...) [1] .

ثم كانت حوادث الانقـــلاب الحكومي سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م فذهب الشيخ ضحيتها فسجن للمرة الثالثة ، ثم اطلق عقاله فالتحق يومئذ بتونس سنة ٧٦٤ هـ - ١٣٦٢ م فاكرمه سلطانهـا ابو اسحاق وصاحب دولته ابو محمد بن تافراكين وولياه خطابة جامع الموحدين فأقـام الشيخ بتونس سنوات الى ان دفعته عنها السياسة وحملته على مفارقتهـا فركب البحر في شهر ربيع الاول ٧٧٣ هـ - سبتمبر ١٣٧١م ملتحقا بالبلاد المصرية فنزل الاسكندرية ومنهـا ذهب الى القاهرة فتلقاه هنالك العلماء واكابر اعيان الدولة والامراء فأوصلوه الى السلطان الاشرف شعبان بن حسين فأجرى عليه الملك من الخيرات والمبرات ما يليق بمقامه وولاه الوظائف العلمية فخطب ودرس في اكبر المدارس واشهرها كالشيخونية والصرغتشية والنجمية الخ ... ولم يزل موفور الكرامة محترمـاً مرشحاً للقضاء الى ان وافاه حمامه رحمه الله في شهر ربيع الاول سنة ٧٨١ هـ (جوان ١٣٧٩م) ودفن بمقبرة القرافة الصغرى بين الامامين ابي القاسم واشهب رحم الله الجميع .

ولقد ترك رحمه الله ثروة علمية عظيمة اودعها بطون مؤلفاته الجليلة التي نأسف كثيراً لذهاب اكثرها فلم يبق لنا اليوم منها سوى قائمة اسمائها ؛ منها كتابه النفيس - المسند الصحيح الحسن في محاســـن مولانا ابي الحسن وضعه في توريخ سيرة مخدومــــه السلطان ابي الحسن علي بن عثمان المريـــني ، توجد منه نسخة بمكتبة الاسكوريال قرب عاصمة مادريد تحت عدد (١٦١٦) . ومنها فهرسته المستوفرة ، المتقدمة الذكر ... وشرحه على كتاب الشفاء للقاضي عياض لم يكمل ، وشرح عمدة الاحكام في اسفار خمسة ، جمع فيه بين الفاكهاني وابن دقيق العيد مع زوائد كثيرة ، وشرح الاحـكام الصغرى لعبد الحـــق الاشبيلي ، وازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب ، وكتاب تحفـة الطرف ، الى الملك الاشرف ؛ والاربعــــين المسندة في الخلافة والخلفاء، وكتاب الامامة ، وديوان خطب وقصائد، وايضاح المراشد،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣١٢ ط بولاق ، ١٢٨٤ هـ

فيا تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد، وشرح لصحيح البخاري، وكتاب جمع فيه ما قيل في الصبر واربعون حديثاً خرجها من مرويات السلطان ابي الحسن: وكتاب في التنجيم وكتاب ضاهى به كتاب العفو والاعتذار، وجنى الجنتين في فضل الليلتين : ليلة القدر وليلة المولد ؛ توجد منه نسخة محفوظة بمكتبة خاصة في مدينة فاس ...

ومن شعره برد الله ضريحه قوله لما ركب مع السلطان ابي الحجاج بن الاحمر خارج الحمراء في ايام الربيع مرتجلا :

انظر الى النوار في اغصانه يحكي النجوم اذ تبدت في الحلك
حيى امير المؤمنين وقال قد عميت بصيرة من بغيرك مثلك
يا يوسفا حزت الجمال بأسره فمحاسن الايام تومي هيت لك
انت الذي صعدت به اوصافه فيقال فيه ذا مليك او ملك

وله في اغراض الشعر وفنون النثر كثير من القطع والفصول الجميلة التي تكفلت بها كتب التراجم والادب فلتراجع هنالك .

احمد المغراوي

٨٢٠ ﻫ - ١٤١٧ م

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عبدالله المغراوي (نسبة الى قبيلة مغراوة الجزائرية) ، كان رحمه الله عالماً فقيهاً اصولياً نحوياً ، برز على كثير من كبار علماء المشرق فكانوا يحترمونه كثيراً حتى قال التقي بن قاضي شهبة « ما تركت بمصر والشام في المالكية مثله » ، كان يناظر ابن خلدون ويفتي عليه وكان العز بن جماعة يعظمه كثيراً ، واما هو فيقول : متى كان العز ؟ انما اشتغل على كبر وكان جندياً ، وانا اشتغلت قبله بزمان ، وروى على الشرف عيسى المالكي القاضي قال : ان المغراوي بحث مع البساطي يوماً في مسألة فقال له اعرفها وانت في مغراوة خلف البقر !... فأجابه المغراوي بقوله:

يا جاهل ، يا ولد (كذا) مغراوة ما فيها بقر قط ، اولئك عرب اصحاب ابل ترحل وتنزل ، واما انا فوالله العظيم هو ذاك الذي اعرفهـــا وانت في بساط ترعى البقر ! ...

ومع فضله كما يقول السخاوي في ضوئه : كان خاملا جداً لامور ؛ منها انه كان ممن صحب السالمي وتمكن منه وعادى بسببه اكابر الدولة ، فلما ذهب السالمي آذوه سيا مع عدم تردده للاكابر وتحامقه عليهم ، وقـدم دمشق سنة ٨١٤ هـ ١٤١١م ونزل بالمدرسة الزنجية واخذ عنه الطلبة وعين مدة للقضاء فلم يتم ذلك ثم عاد الى بلده وترك الاشتغال بحيث قل استحضاره ، وتوفي رحمه الله في شوال سنة ٨٢٠ هـ - نوفمبر ١٤١٧ م

ابراهيم بن فائد الزواوي

٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م

هو العالم المتفنن ابو اسحاق ابراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبروني الزواوي ، ولد بجبل جرجرة سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م وانتقل الى بجاية وبها قرأ القرآن الكريم ، واشتغل بها في الفقه على ابي الحسن علي بن عثمان المنجلاتي فقيه بجاية ، ثم ارتحل الى تونس فأخذ الفقه والمنطق عن ابي عبدالله الابي ، والفقه ايضاً عن يعقوب الزغبي ، كما انه اخذ التفسير والفقه كذلك عن القاضي القلشاني ، والاصول عن عبد الواحد الغرياني ، ثم عاد الى جبال بجاية فأخذ علوم اللغة عن عبد العالي بن فراج ، ثم دخل قسنطينة فسكن بها ، وفيها اخذ الاصلين والمنطق عن حافظ المذهب ابي زيد عبـــد الرحمن الباز ، وعلم المعاني والبيان عن ابي عبدالله محمد القيسي الحكيم الاندلسي حين ورد عليهم حاجـــاً ؛ والاصلين والمنطق والبيان كذلك والفقه وغالب العلوم المتداولة يومئذ بين علماء الاسلام عن ابي عبدالله بن مرزوق عالم المغرب لما قدم عليهم قسنطينة فأقام بها نحو ثمانية اشهر ، وحج الشيخ مراراً وجاور

ولم ينفك رحمه الله عن مزاولة العلم تعلماً وتعليماً حتى برع في جميع هذه الفنون الموماً اليها ولا سيما الفقه . والف تفسيراً للقرآن الحكيم ، وشرحاً لمختصر خليل في ثمان او ثلاث مجلدات ؟... سماه : تسهيل السبيل ، لمقتطف ازهار روض خليل ، وشرحا آخر في جزئين ، سماه فيض النيل : قال في نيل الابتهاج (وقد وقفت له على السفر الثالث من شرحه على خليل المسمى تسهيل السبيل من القسمة الخ ... حسن من جهة النقول يستوفيها ، وفي آخره جامع كبير محتو على فوائد لخصها من البيان لابن رشد وغيره ، ورأيت في خزانة جامع الشرفاء بمراكش السفر الاول من شرح آخر له على خليل قدر الثلث الى الجهاد سماه تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن اسحاق مجلد ضخم) [1] . وله شرح على الفية ابن مالك في مجلد واحد ، وشرح على تلخيص المفتاح سماه تلخيص التلخيص في مجلد ؛ وحج رحمه الله مراراً وجاور، ولقيه البقاعي في سنة ٨٥٣ هـ حين حج ايضاً وقال انه رجل صالح من المشهورين بين المغاربة بالدين وعليه سمت الزهاد وسكونهم ؛ وتوفي رحمه الله فيما قال ابن عزم سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م .

سالم بن ابراهيم الصنهاجي

اواسط القرن التاسع الهجري ...

هو العالم النظار الامام القاضي سالم بن ابراهيم بن عيسى الصنهاجي المغربي، ولد كما ذكره السخاوي بمشدالة بعد السبعين وسبعمائة تقريباً ونشأ ببجاية واشتغل بتونس الى ان تضلع في العلم وفضل فارتحل عنها سنة ٨٣٤ هـ فوقع في اسر الكفار وناظر الاساقفة ببلادهم فافحمهم ودام عندهم مدة ثم اخرجوه وسمع بالحجاز ومصر ودمشق ، قال السخاوي : وقد رأيته فيمن عرض عليه ابن ابي اليمن بمكة ، وحدث ودرس وافتى وكان من محفوظاته كتاب الشفاء

(١) احمد بابا التنبكتي نيل الابتهاج ص ٥٣ ط القاهرة ١٣٢٩ هـ .

رواه بالسماع عن الجمالين المحمدين ابن علي النويري وابن ابي بكر المرشدي رحمها الله .

تولى رحمه الله قضاء المالكية بدمشق ثم قضاء القدس ثم عاد الى الشام ، ولقد شهد له التاريخ بحسن السيرة والصرامة والحرمة ونفوذ الكلمة في القضاء مع عفة ونزاهة ؛ ولم اقف على زمان ولا مكان وفاته بالضبط رحمه الله .

محمد بن عمر المليكشي
٧٤٠ هـ — ١٣٣٩م

الاديب الكبير والشاعر الناثر ابو عبدالله محمد بن عمر بن علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر المليكشي البجائي ثم التونسي الجزائري ، هكذا كتب نسبه بخطه رحمه الله .

اخذ علمه وادبه بالجزائر وله رحلة الى المشرق فحج وروى عن جماعة بالحجاز ومصر والاسكندرية كالرضى الطبري سمع عليه الكتب الخمسة ، والسراج محمد بن طراد قاضي المدينة وخطيبها، وابي محمد الدلاصي والنجم الطبري وغيرهم .

ذكره الحضرمي في مشيخته فقال : كان صدراً في الطلبة والكتاب فقيهاً كاتباً اديباً حاجاً راوية متصوفاً فاضلاً صاحب خطة الانشاء بتونس ذا تواضع وايثار وقبول حسن ، له شعر رائق ، ونثر فائق ، وكتابة بليغة ، وتآليف مستظرفة ، وعرفه المقري في نفحه نقلاً عن كتاب الاكليل الزاهر لابن الخطيب فقال بعدما ذكر اصله ونسبه حسب ما تقدم ... « كاتب الخلافة، ومشعشع الادب الذي يزري بالسلافة . كان بطل مجال ، ورب روايـة وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عطنه ؛ فتلوم به تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة ، ومبرة يانعة ، ثم آثر قطره ، فولاه وجهه وشطره ، واستقبله دهره بالانابة ، وقلد خطه

الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحطت رحـــاله ، وله شعر انيق ، وتصوف وتحقيق ، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخيروثيق، ونسبها في الصالحات عريق.

« حدث بعض من عني بأخباره ، ايام مقـــامه بمالقه واستقراره ، انه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس ، وقينة من قينات هــذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همت بالانقيـــاد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد ، فأبقى على نفسه وامسك ، وانف من خلع العذار بعدما تنسك وقال :

لم انس وقفتنا ببـاب الملعب بين الرجا واليـأس من متجنب
وعدت فكنت مراقباً لحديثها بأذل وقفـــة خائف مترقب
وتدللت فذللت بعـــد تعزز يأتي الغرام بكل امر معجب
بدوية ابدى الجمال بوجههـــا ماشئت من خد شريق مذهب
تدنو وتبعد نفرة وتجنبـــاً فتكاد تحسبها مهاة الربرب
ودنت بلحظ فاتن لك فاتر انضى وامضى من حسام المضرب
وارتك بابل سحرها بجفونها فسبت وحق لمثلها ان تستبي
وتضاحكت فحكت بنير ثغرها لمعان نور ضياء برق خلب
بمنظم في عقد سمطي جوهر عن شبه نور الاقحوان الاشنب
وتمايلت كالغصن اخضله الندى ريان من ماء الشبيبة مخصب
تثنيه ارواح الصبابة والصبا فـــتراه بين مشرق ومغرب
ابت الروادف ان تميل بميله فرست وجال كأنه في لولب
متتوجاً بهـلال وجه لاح في حلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محباً مغرماً لم ينقلب الا بقلب قلب
ما زال مذ ولى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى اوقدت في القلب نار تشوق وتلهب
فتلاقت الارواح قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبل مركب

وتوفي المليكشي رحمه الله بتونس غرة المحرم سنة ٧٤٠ هـ (٩ جوليط ١٣٣٩م)

جدول تاريخي

٦٦٨ ٩٦١ هـ — ١٢٦٩ — ١٥٥٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
٦٦٨ هـ — ١٢٦٩ م	تأسيس الدولة المرينية وتملكها المغرب
٦٧٠ هـ — ١٢٧٢ م	وقعة ايسلي الشهيرة
٦٧٨ هـ — ١٢٨٠ م	انتصار مرين بوقعة وادي النافنة
٦٨٠ هـ — ١٢٨١ م	انهزام بني عبد الواد في وقعة الملعب
٦٩٧ هـ — ١٢٩٨ م	فتح اعمال الجزائر
٦٩٨ هـ — ١٢٩٩ م	انشاء حاضرة المنصورة ومعركة مرسي الرؤوس
٧٠٦ هـ — ١٣٠٦ م	تنازل مرين عن مملكة تلمسان
٧١٤ هـ — ١٣١٤ م	ابتداء الزحف على مملكة تلمسان
٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ م	تحالف بني مرين وبني ابي حفص ضد امراء تلمسان
٧٣٦ هـ — ١٣٣٥ م	فتح عمالتي الجزائر ووهران
٧٣٧ هـ — ١٣٣٧ م	القضاء على امارة بني زيان
٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م	فتح اعمال قسنطينة وبجاية
٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م	ثورة بني عبد الواد
٧٥١ هـ — ١٣٥٠ م	عودة الجزائر لبني عبد الواد
٧٥٢ هـ — ١٣٥١ م	استيلاء السلطان ابي عنان على اعمال تلمسان
٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م	امتلاك بجاية وثورة اهلها
٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م	انقسام دولة مرين بين حكومتي فاس ومراكش
٧٩٦ هـ — ١٣٩٣ م	نهاية حكومة مرين بالجزائر
٩٦١ هـ — ١٥٥٤ م	سقوط الدولة المرينية في قبضة السعديين

الدولة العبدالوادية - الزيانية

٦٣٣ - ٩٦٢ ه - ١٢٣٥ - ١٥٥٤ م

منشأها ونشأتها

منتمى هذه الدولة الى قبيل بني عبد الواد [١] احد بطون القبيلة الجزائرية العتيدة - زناتة - [٢] كانت مواطنهم ما بين جبال سعيدة شرقا ووادي ملوية غربا ؛ ومنهم فصيلة متوطنة بجبل اوراس ، وهم من اهل الوبر يعيشون معيشة النجعة يرتادون صحراء المغرب الاوسط مـا بين مصاب - مزاب - الى ملوية وفيجيج ثم الى سجلماسة - تافيلالت - ومنها كذلك الى ارض الزاب ، وهم تلو بني مرين في الكثرة والقوة ، ولم يزالوا كذلك الى ان فتح الموحدون المغرب الاوسط فكانوا عونا لهم على ذلك فأقطعوهم علامة بلاد بني يلومي وبني وماتو بنواحي شلف واستقروا منذ ذلك العهد بأحواز تلمسان [٣] ووطدوا اقدامهم بها هنالك ببطولتهم الحربية وشجاعتهم الادبية وحنكتهم السياسية فأحرزوا يومئذ على ثقة الموحدين ، ومنهم ملوك هذه الدولة - بني زيان - ،

---

(١) أصله عابد الوادي صفة لجدهم المتبتل بواد هناك

(٢) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا ص ٥١ و ١٩٦

(٣) اسم بربري مركب من كلمتين اثنتين ، اولاهمـا : تلم ، بكسر التاء ومعناها تجمع ، والثانية سان ، ومعناها اثنين ، فهو كما ترى اسم وصفي للمدينة بالنظر الى موقعها الطبيعي حيث كانت جامعة بين الصحراء والتل ، ويقول ابن خلدون : يعنون الى البر والبحر

واولهم يغمراسن بن زيان بن ثابت ... ولا مستند لمن عزاهم الى آل البيت ؛ فان يغمراسن نفسه لما ذكر له ذلك ورفع نسبه الى ادريس بن عبدالله الكامل قال برطانتهم ما معناه : « ان كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله ، واما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا » [1] .

اشتهر هذا القبيل في اول امره بمقاومته لانتشار نفوذ الموحدين، ولما ظهر عجزه امام تيار قوات دولة بني عبد المؤمن ووجد نفسه كناطح صخرة اذعن في النهاية واخلص في طاعته للموحدين واستعمل في ذلك براعته السياسية فأذهب عنه السخائم ونال حظوة عظيمة لدى ملوك هذه الدولة فاقطعته بلاد بني « واماتو » وبني « يلومي » بنولص «وادي ميناس » واحواز غيليزان ، فتمكن بذلك يومئذ من تثبيت قدمه بتلك الجهات فمكث بها محافظاً على مكانه ووحدته الذاتية والسياسية ؛ وهكذا بقي يعمل لصالحه الى ان استأنس من الحكومة ضعفاً حيث اخذت ايامها في التدهور واشرفت الدولة على النهاية كما تقدم تفصيله في الجزء الاول . فتطلع بنو عبد الواد يومئذ الى التملك على المغرب الاوسط ، وعملوا على حمل الدولة الموحدية على التنازل لهم عن امارة تلمسان ، وقد نالوا ذلك بعقد الامارة لشيخ قبيلهم عهدئذ جابر بن يوسف ٦٢٧ هـ — ١٢٣٠م فانتصب للحكم وادارة شؤون البلاد بنفسه وبادر الى الاشتغال بجمع فصائل بني عبد الواد وفروعهم فادخلهم تحت رايته فبايعه جمعهم منضوياً تحت حكمه وسلطته ولم يفلت عنه يؤمئذ الا مدينة ندرومة فتوجه اليها سنة ٦٢٩ هـ — ١٢٣٢م مشدداً عليها الحصار فرماه من سورها يوسف الغفاري التلمساني بسهم فقتله ، فجلس ولده الحسن مكان ابيه محتمياً في الظاهر بدولة الموحدين ثم بعد ستة اشهر من ولايته تخلى عنها لعمه عثمان بن يوسف فمكث بها نحو سنة ونصف فظهر منه زيغ في سياسته فعزله قومه وولوا مكانه ابا عزة زيدان بن زيان ، فأطاعه قومه ولم يخرج عن مبايعته يومئذ سوى بني مطهر من بني عبد الواد فذهب لمقاتلتهم فقتلوه خارج تلمسان

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٢ وانظر المقدمة ص ٦٥ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

سنة ٦٣٣ ﻫ ١٢٣٥م فكانت ايامــه نحو ثلاث سنوات ، وبموتــه انقطع نفوذ الموحدين تماماً من تلمسان وبويع لاخيه يغمراسن .

تملك يغمراسن بعــد اخيه ابي عزة واظهر شارة الملك والسلطان واعلن استبداده واستقلاله بهذه الامارة ٦٣٣هـ – ١٢٣٥م ولم يبقَ للموحدين بهـا سوى الخطبة ؛ فاستاء لذلك خليفة الموحدين ابو الحسن السعيد الملقب بالمعتضم وكان اهل المغرب يومئذ في ثورة عامة ضد حكومة المعتصم هذا : بنوابى حفص شرقاً وبنو مرين غربا ، فخرج المعتصم من مراكش ٦٤٥هـ (١٢٤٧) حاشداً لجموعه الكثيرة فقصد اولا مكناسة الزيتون وبلغ الى تازا في المحرم ٦٤٦ ﻫ (افريل ١٢٤٨م)فأطاعته مرين،ثم تقدم الى تلمسان فخرج اليه يغمراسن في قومه واهله معتصما بقلعة تامذكت ـ تامرجديبةـ بجنوب وجدة وعلى مقربة منها ، ومن هناك بعث يغمراسن في طلب الصفح من الخليفة معتذراً اليــه عما فعل فرفض المعتصم اعتذاره مجمعا الانتقام منه واسرع الى القلعة فحاصرهـا ثلاثة ايام ، وفي الرابع : الثلاثاء ١٠ صفر ٦٤٦ ﻫ (٤ جوان ١٢٤٨) امتطى الخليفة بنفسه ظهر فرس له وخرج في وقت الظهيرة مستكشفا عورة يتوصل منها الى الاستيلاء على القلعة المذكورة ، فتسلق الجبل واخذ يبحث ويتجسس خلال الديار ، وبينما هو كذلك اذ رآه يوسف الشيطان احد فرسان بني عبد الواد المنيخين بساحة القلعة للحراسة، واتفق ان كان يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه فعرفوا الخليفة فانقضوا عليه امثال العقبان وطعنه يوسف فكبه عن فرسه ثم قضى من جراحـه فدفن هنالك بالعباد ، وقتل وزيره يحيى بن عطوش على يد يعقوب واستلحم القوم مواليه وبعض اولاده وابقوا على الحرم واضطرب يومئذ جيش الموحدين وانتشرت الفوضى بينهم وعمهم القلق فتفرقوا شذر مذر فاستولى بنو عبد الواد يومئذ على ما كان هناك من الاسلاب والغنائم والاثاث ، واختص يغمراسن بفسطاط الخليفة فكان له خاصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة الــتي كانت فيه ومنها

المصحف الشريف [1] الذي يقال انه احد المصاحف الاربعة التي نسخت في

---

(١) كان اول مـا ظهر هذا المصحف الشريف بالمغرب ان وجد بخزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ، ثم صار في خزائن دولة المرابطين فيما صار اليها من ذخائر ملوك الطوائف بالاندلس ، ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة ، فانتقل في حادثة قلمة « تامرزدكت » المذكورة اعلاه الى يغمراسن بن زيان وبني عبـد الواد من ملوك تلمسان ثم صار الى ملوك بني مرين فيما استولوا عليه من ذخائر آل زيان ، وذلك عندما تغلب السلطان ابو الحسن المريني على تلمسان سنة ٧٣٧ هـ - ١٣٣٦م فحصل المصحف الشريف عنده فكان يتبرك به ويحمله في اسفاره على العادة الى سنة ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م حيث ركب السلطـان ابو الحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب بعد استيلائه على افريقية وكان ذلك في ابان ثورة البحر وهيجانه فغرقت مراكبه وهلكت نفوس كثيرة وفقدت نفائس يعز وجود مثلها ، ومن ضمنها هذا المصحف الكريم فاستأثر البحر به وكان ذلك آخر عهد المغرب ببركته : واليك تفاصيل ملخصة مما ذكره المقري في النفح نقلا عن رحلة ابن رشيد فيما وصف به شكل هذا المصحف الجليل ومـا ابدعه في صنعته وخدمته اهل الفنون الجميلة وارباب الصناعات الميكانيكية والهندسية مما يدلك على مبلغ اوج الحضارة والمدنية الباهرة يومئذ بالمغرب ، قال :

« ثم انهم - اي بني عبد المؤمن الموحدين - لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فـيما يجب له من التوقير والتعزيز ، شرعوا في انتخاب كسوته ، واخذوا في اختيار حليته ، وتأنقوا في استعمال احفظته ، وبالغوا في استجادة أصونته ،فحشروا له الصناع المتقنين ، والمهرة المتفننين ، مما كان بحضرتهم العلية ، وسائر بلادهم القريبة والقصية ، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة ، من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين ، والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين ، وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعته ، او ينسب الى الحذق في صناعة ، الا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضمنوهـا من غرائب الحركات ، وخفي امداد الاسباب للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهد قوتهم ...

« فكسى المصحف كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضاً ، قـد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الاول مثال ، ولا مر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم ، قد أسلست للتحرك اعطافها ، واحكم اتثارهـا على البغية وانعاطفها ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ... فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تـلألؤه واتقاده ، واشبه الروض المزخرف غب سماء اقلعت عن امداده ، واتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستوليـاً بصورته الغريبة على جميع الصور ، يدهش العقول بهاء ويحير الالباب رواء، ويكاد يغشى الناظر

عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبعث بها الى الامصار ، ولم يثبت انها منسوخة بخط يده .

نظامها الحكومي

اشتهرت هذه الحكومة الجزائرية في أول نشأتها باسم «دولة بني عبدالواد» الى ان كان عصر الاستيلاء المريني على تلمسان سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٧م) فعرفت بعد ذلك في عصر الانبعاث على عهد السلطان ابي حمو الثاني باسم « الدولة الزيانية » نسبة الى زيان بن ثابت والد يغمراسن اول ملوك هذه الدولة

عاشت هذه الدولة مستقلة بالحكم بعيدة عن سيطرة الغير ، وعاصمتها دائماً «تلمسان» ، والنفوذ الاداري فيها يعود الى السلطان الملقب بأمير المسلمين وهو دائما من بيت آل زيان ، وولايته تكون غالباً بالعهد من الملك السابق وقد تكون بالغلبة والقهر والسطوة او العصبية القبلية ، ولم يثبت عن ملوك هذه

← تألقا وضياء ...

وتلطف القوم في وجه يكون به هذا الصوان المذكور طوراً متصلا وطوراً منفصلا ؛ ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم ان يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا اذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكل له مقام اليه ينتهي وعنده يقف فعمل فيه على مشاكلة هذا القصد وتلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد .

وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الاخضر ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ؛ ورتب ترتيباً يتأتى معه ان يكسي بالصوان الاكبر ؛ فيلتثم به التثاماً يغطي على العين من هذا الاثر ، وكمل ذلك كله على اجمل الصفات واحسنها ، وابدع المذاهب واتقنها .

وصنع له محمل غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك ، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مغشى كله بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع من الآبنوس والخشب الرقيع ، لم تعمل قط في زمان من الازمان ؛ ولا انتهت قط الى ايسره نوافذ الاذهان ، مدار بصنعة قد اجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشهب ، وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في اكثر الاحوال ، مرصع مثل ترصيعه الغريب ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب .

وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على انوارها ، والصدور على محفوظ افكارها ، مكعب الشكل سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم في ارصاله والتكميل جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ؛ وله في احد غواربه باب ركبت عليه ←

الدولة دعوى الخلافة الا في ايام قلائل دعت اليها الظروف وحملتهم عليها تقلبات السياسة

واشهر الموظفين في هذه الحكومة هم الوزراء والقادة والكتاب والحجاب واصحاب الاشغال والقضاة والعمال والمحتسبون وشيوخ المدن والمحافظون ورؤساء الحاميات والشرطة ؛ ولكل من هذه المناصب ديوان - او ادارة - خاصة بهذه المصلحة ، واعلاها عندهم وظيفة الحجابة ، فللحاجب الاتصال بشخص السلطان نفسه متى شاء وهو الذي ينوب عن الملك في غيبته حربا أو سلما ، ويسمى صاحب هذه الوظيفة « بالمزوار » والموظفون في هذه الحكومة هم اكثر عدداً من اعضاء دولة بني مرين .

واما الجيش فانه يتألف من اربعة اصناف: الاعيان وهم الرؤساء والقواد، والقبيل وهم من مطلق رعايا بني عبد الواد ورئيسهم يعرف بلقب « الشيخ » والانصار وهم نخبة الجيش وخلاصته ، ومكانهم في الزحف دائماً حول السلطان محدقين به ، والرابع المماليك وهم خليط من العرب والبربر والزنوج وغيرهم؛

ـــحفتان قد احكم ارتتاجهما ، ويسر بعد الابهام انفراجهما، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه وتركب المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية، وتلقيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفيســة ؛ وذلك ان بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد اعد له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فاذا ادخل ذلك المفتاح فيه وادير به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى اقصى غايته ، وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته ؛ يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفا الى مقدمه ، فاذا كمــل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقـــدم عليه انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعها من تلقائهما دون ان يمسهما احد ، وترتيب هذه الحركات الاربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فاذا ادير المفتاح الى خلاف الجهة التي ادير اليها اولا انفتح اولا الباب ،واخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره ، فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين ايضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذي كان في حال خروجه ، وصحت هذه الحركات اللطيفة على اسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ،وهي مما يدق وصفها ، ويصعب ذكرها ....

راجع نفح الطيب ج ٥ ص ١٥٢-١٨٤ نشر دار المأمون بمصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٨ م

ولقد بلغ عدد الجنود من قبيلة بني راشد فقط ما يفوق الخمسة والعشرين الف نسمة ، وكان للنصارى العلوج في اول نشأة الدولة مشاركة في الجندية وذلك ما يشبه الفرقة الاجنبية المختلطة في الجيش الفرنسي اليوم ، وقد بلغ عددهم يومئذ نحو الالفي فارس ، واستمرت هذه الفرقة تعمل في الجيش الزياني الى ان افتضح أمرها وظهرت خيانتها بقتل الامير محمد اخ السلطان يغمراسن يوم استعراضه للجيش بباب القرمدين – شمال غربي تلمسان – فحذفت اذ ذاك هذه الفئة من سلك الجيش الزياني تماما سنة ٦٥٢ ﻫ (١٢٥٤م)

وكان لجميع فرق الجيش هذه جراية يتسلمها الجند من خزينة الدولـــة كل بحسب مقامه ورتبته ، فان اقل ما كان يعطى الجندي الزياني : ثلاثمائة دينار شهريا ، وكان للفارس على عهد ابي حمو الثاني ثلاثة من الذهب ؟... وعشرون برشالة من القمح ، وثلاثون من الشعير ، ويعطى له فرس ومهماز وسيف ورمح وكان عدد هؤلاء الفرسان يومئذ يفوق الخمسة عشر الف فارس

ولجميع هذه الفرق والكتائب رايات خاصة تميزها عن سواها وتعرف بها في يوم العرض العام بين يدي الملك في ايام معلومة من السنة ؛ وفيها يمنح الجند درجاته وترقياته في مراتب الجندية وفيها يبدي السلطان ملاحظاته العسكرية على الجند فيأخذ بأحسنها

واما التعبئة الحربية فهي يومئذ على ما تعارفه الناس بينهم من التراتيب العسكرية المعهودة في الجيش العربي : المقدمة ، ومكانها في الحرب دائماً امام الملك او نائبه ، والميمنة عن يمينه ، والميسرة عن يساره، والقلب وفيه يكون القائد الاعلى ، ووراءهم الساقة ، وبهذا سمي الجيش خميسا

واما الخزينة المالية فانها متكونة من الجباية والمغانم والمكوس والاجلاب، وللدولة عملتها الخاصة المضروبة بتلمسان وعليها اسم ملوكها

وللحكومة علاقات ومعاهدات سياسية واقتصادية مع غيرهـــا من دول الشرق والغرب حسبما دلت على ذلك الوثائق الديبلوماسية . وان كانت بالنسبة

بالدعاء لهم على منابر الجمعة ؛ فرضي يغمراسن بذلك وقال : تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا ، واستمر على ولايته [1].

اخفاق الموحدين في حملتهم على تلمسان

اثار هذا التعاقد او الحلف الواقع بين دولة بني زيان الناشئة ودولة بني ابي حفص سخائم واحقاداً في صدور رؤساء الدولة الموحدية وساءهم انفرادهما دونها بذلك : فخشيت من اتحادهما ضدها واحفظ ذلك الخليفة ابا الحسن السعيد بمراكش ، فتحرك من هنالك بجيوشه سنة ٦٤٥هـ – ١٢٤٧م بقصد الايقاع بالدولتين المتعاقدتين فكانت يومئذ بينه وبين يغمراسن الواقعة المشهورة حول قلعة « تامزردكت » فانهزم فيها الموحدون كما ذكرناه قريباً .

منشأ الخلاف بين بني عبد الواد وبني مرين

لا يخفى وان المغرب الاوسط – الجزائر – كان في ايام نشأة امارة بني عبد الواد الزيانية ملحقاً بالدولة الحفصية ، وان هذه الامارة الجزائرية كانت تابعة للحفصيين ؛ وكان المرينيون يومئذ يحاولون التوسع شرق مملكتهم المغربية ، فوقف في وجه هؤلاء بنو عبد الواد الذين استشرفوا لحكم هذه الاوطان منذ ان نزل بها سلفهم صدر دولة الموحدين ؛ فكان لذلك ما تراه من استمرار الحروب والفتن بين هذين القبيلين طيلة مجاورتها حسبما توجبه السنة الطبيعية في تنازع البقاء ؛ وكثيراً ما انتصرت مرين على عدوتها المزاحمة غير انها لم تستطع القضاء عليها نهائياً بسبب احتمائها بقبائل من زناتة كمغراوة وبني توجين .

طموح يغمراسن نحو المغرب الاقصى وخيبته

استمر النزاع والخلاف بين دولة الموحدين المدبرة ودولة بني مرين المقبلة واشتد ذلك بينهما سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) فتوترت العلائق وحمي الوطيس

(١) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء

الى ان افضى الأمر بينهما الى ايقاد نار الحرب ، فاستجاش الموحدون جيوش بني زيان ، وكان ليغمراسن يومئــذ غرض في مناهضة دولة بني مرين والقضاء عليها فمد يده الى الموحدين ، وكانت الملحمة عظيمة بوادي اسلي – من بسيط وجدة – انهزم فيها يغمراسن وترك محلته للنهب والسلب وعاد الى تلمسان ؛ ثم كان استيــلاء محمد بن عبد القوي سنة ٦٤٧ هـ – ١٢٤٩ م على جبال ونشريس وبرشك وشرشال ؛ وفيهـــا تملك ايضاً محمد بن منديل المغراوي بمدينة مليانة وغيرها من الاعمال الشرقية الى سنة ٦٦٨ هـ–١٢٦٩ م فاستردها منه يغمراسن قهراً .

وفي سنة ٦٥٥ هـ – ١٢٥٧ م نهضت مرين منتقمة من بني زيان لانحيازهم الى خصمائهم الموحدين ، وكانت المعركـة بينهما بأبي سليط ، فانهزم يغمراسن بها وتكررت عليه الهزائم فيمم نحو سجلماسة ودرعة عله يعوض بفتحها مـا فاته من النصر هناك ؛ وما كاد يبلغ مقصده حتى كانت مرين قد سبقته الى تلك النواحي بيوم قبله ، فسقط في يـــده وحاول التغلب عليهم بسلاحه فلم يفلح .

ويوم ان توفي السلطان ابو بكر او هو ابو يحيى المريني ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨م حاول يغمراسن الاستيلاء على عرش المغرب الاقصى فقاتل بني مرين ، فرده السلطان يعقوب منهزماً على اعقابـــه ، ثم تكررت الوقائع والحروب بينهم واشهرها وقعة وادي تلاغ سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) ، ووقعـــة ايسلي قرب وجدة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) وفيها حطم المرينيون مدينـــة وجدة وحاصروا تلمسان ، ووادي التافنـــا ، وتامـونت ، وبني يهاول .... وكان النصر في جميعها لبني مرين .

المنافسة وحب الاستئثار

لقد اثار تتابـــع انتصارات السلطان ابي يوسف يعقوب المريني بالاندلس امتعاضاً شديداً وحسداً في قلوب ملوك غرناطـة من بني الاحمر حيث توهموا

بذلك القضاء على مملكتهم الاندلسية ، فسموا حينئذ في مشاغبته وعملوا على إقصائه بربط صلتهم بملك الاسبان واوعزوا الى يغمراسن باشغال مرين عنهم وترددت بذلك الرسل والسفراء بين تلمسان والاندلس، فارتاح لذلك يغمراسن لحاجة في نفس يعقوب ، ووجد فيها شفاء نفسه فسعى يومئذ بكل جهوده في اتزال العراقل والعوائق ببني مرين وشغلهم عن الجهاد بمشاغباته ومناوآته، فالح عليه يومئذ السلطان ابو يوسف المريني في الكف عن غيه فأبى، وحينئذ نهضت مرين فأوقعت ببني زيان في معركة خرزونة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ثم توالت بعدما هجمات وزحوف أخرى .

حزم يغمراسن ونشاطه

قضى موقع دولة بني زيان ووضعيتها الطبيعية بين مملكتي مرين غرباً والحفصيين شرقاً بأن تكون مسرحاً وميداناً فسيحاً للمباراة بين هاتين الدولتين في جمع أقطار المغرب الإسلامي والاستيلاء على طرفيه ؛ وكانت هذه الوقائع المتكررة بين دول المغرب والحوادث السياسية المتجددة هناك درساً عملياً ليغمراسن ، فأخذ حينئذ في تحصين بلاده واحاطتها بما يدرأ عنها العدو، فجاء بقبيلة بني عامر العربية من صحراء بني يزيد وأقطعها نواحي وهران وتلمسان ، وكانت له هناك خير وقاية احتمى بها عن مهاجمة خصومه المعاقيل المقيمين بسهول متيجة ؛ وجاء كذلك بقبيلة حيان الهلالية فأقامها بصحراء تلمسان فكانت له حصناً منيعاً من بني مرين ، وأسكن فريقاً من عكرمة بجبل « كركرة » قبلة « السرسو » وعمل كذلك على ربط صلته بالسلطان أبي اسحاق ابراهيم الحفصي ، واكد هذه الصلة بالمصاهرة فخطب كريمته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان ، وكثيراً ما كان يستعمل قرابته على الممالك ويوليهم رئاسة العمالات .

ثم تفرغ يغمراسن بعد ذلك لإخضاع القبائل المنشقة والمخالفة عنــه من مغراوة وتوجين (١) فناهضها عدة مرات حتى استقامت له وجنحت الى السلم فكف عنها بأسه ، ونزل له يومئذ عمر بن منديل المغراوي عن مدينة مليانة – عاصمة مغراوة – فاحتلها يغمراسن سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) .

وكانت مبايعة أهـــل سجلماسة ليغمراسن سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) ، فاستعمل عليهم ولده يحيى ، ثم خرجوا عن الطاعة منسلخ صفر سنة ٦٧٣ هـ (٥ سبتمبر ١٢٧٤ م) واحتلتها يومئذ مرين عنوة، وفي سنة ٦٧٢هـ(١٢٧٣م) نزل عائد بن منديل واخوه ثابت أميرا مغراوة عن مدينة تنس وأحوازهــا ليغمراسن فضمها الى ملكه .

غدر الفرقة الافرنجية بالسلطان والقضاء عليها

كان من بين الجيش الزياني فرقة من علوج النصارى تعمل مع الجند فحازت بطول مرانها ثقة السلطان وتقديره فكان يباهي بها بين جموعه في جميع مواقفه الحربية وفي السلم ايضاً ، وهي مع ذلك تعمل في الخفاء لقلب نظام الحكومة والقضاء على السلطان فتربصت به الدوائر حتى اذا كان يوم استعراض الجيوش على السلطان ضحى يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني٦٦٢هـ(٢٥فيفري١٢٦٤ م) ، وكان يغمراسن يومئذ قائماً بباب القرمادين بعاصمة تلمسان فاعتدى عليه رئيس هذه الفرقة الاجنبية وحمل عليه السلاح وبادرت الفرقة المذكورة الى محمد بن زيان أخ يغمراسن فقتلته غدراً ونجا السلطان ، وكان هنالك فزع واضطراب عظيم في الجيش فاندفع الناس حين ذاك الى القضاء على هذه الفرقة المشتملة على نحو ألفي فارس ، فكان ذلك آخر العهد بهذه الفرقة الافرنجية ولم يستخدم بعدها أحد من نصارى الافرنج بالجندية في دول المغرب .

---

(١) مواطن مغراوة هي بشمال وانشريس ووادي شلف الى البحر ، وتنتهي شرقاً الى وادي السبت قرب متيجة وغرباً الى البطحاء بناحية نهر مينة . أما مواطن توجين فشرقي بني عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة والمدية ؛ ولقد بقي هاتان القبيلتان على ثورتها طيـلة ملك بني زيان .

وفاة يغمراسن

تقدم أن ذكرنا اصهار يغمراسن الى السلطان الحفصي في ابنته لولي عهد المملكة الزيانية ابي سعيد عثمان ولد يغمراسن ، وكان موعد الزفاف في ذي القعدة سنة ٦٨١ هـ (مارس ١٢٨٣ م) فخرج موكب العروس من تونس برئاسة الأمير أبي عامر ابراهيم بن يغمراسن ، وما كاد ليقترب الموكب من الحدود حتى خرج السلطان نفسه لاقتباله وحمايته من غارات توجين وزوات مغراوة ، فاتصل بالقافلة في مليانة وفي منصرفه الى تلمسان أدركه حمامه فمات بوادي « رهيو » بشلف ، وذكر ابن خلدون مكاناً آخر هناك في بلاد مغراوة يسمى شدبونة او سدلونة ! وذلك يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة سنة ٦٨١ هـ (٢٨ مارس ١٢٨٣) فكتمت الخاصة وفاته حتى بلغت به تلمسان فاعلنت وفاته واشتغلت حينئذ بدفنه ، ويشاع ان قبره بالجامع الأعظم من تلمسان !.. فكان عمره يومئذ ٧٦ سنة ، ومدة حكمه ٤٤ سنة وخمسة اشهر واثنا عشر يوماً ، فبايع الناس يومئذ ولده أبا سعيد عثمان .

ولاية السلطان ابي سعيد عثمان

ولد السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١ م) وكانت مبايعته بالملك بعد وفاة والده في أوائل شهر ذي الحجة سنة ٦٨١ هـ (مارس ١٢٨٣ م): وكان ملكاً شهماً حسن السياسة والتدبير مقداماً صبوراً على حوادث الدهر وضرباته .

وقد كان اوصاه والده من قبل بمسالمة بني مرين ليتفرغ فيما بعد الى فتح ما ولاه شرقاً من بلاد الحفصيين ففعل، وبعث في ذلك بأخيه محمدالى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني وكان إذ ذاك بالاندلس (٦٨٤ هـ — ١٦٨٥ م) فهادنه وسالمه .

اشهر فتوحاته ووقائعه

وفق أبو سعيد في سلوكه السياسي الى جمع كلمة قومه واكتساب قلوب

الرعية وعطفها عليه وذلك بحسن التدبير ومعرفة للأساليب المنتجة والطرق المجدية، فانتشر بذلك سلطانه على نواح كثيرة كانت متمردة عليه بالقطر الجزائري، وكان من غزواته الموفقة حملته على مازونة وانتزاعها من مغراوة وفتحها في منتصف رمضان ٦٨٦ ه (اكتوبر ١٢٨٧ م) واستيلاؤه ايضاً على «تفرجينت أو تافركينت ؟..» التي كانت لتوجين؛ واناخ في هـــذه السنة بمساكره على بجاية ثم افرج عنها، واستولى على وانشريس واخرج منهـا ملكها موسى بن زرارة التوجيني، واحتل مدينة تنس والمــدية يوم ٢٦ ربيع الثاني ٦٨٨ ه (٢٠ ملي١٢٨٩م)، ثم تقدم في السنة بعدها الى تدويخ بلاد مغراوة فأخضعها كلها، وحاصر مدينة برشك ـ بين تنس وشرشال ـ مدة اربعين يوماً ففتحت عليه سنة ٦٩٣ ه (١٢٩٤ م) وفر عنها صاحبهـــا ثابت بن منديل المغراوي فأبحر الى حيث لا يعلم مكانه.

ونازل اولاد سلامة بقلعتهم ـ تاوغزوت ـ جنوبي غربي مدينة فرندة، فأطاعوه بعد امتناعهم عليه مراراً وهلك فيها رئيسهم يغمراسن بن سلامـــة منشيء هذه القلعة ومؤسسها.

ولهذا السلطان ايام ووقائع كثيرة ومواقف حازمة وقفهـــا ضد توجين لتحالفها وتآلفها مع خصومه بني مرين. وكان على يده القضاء على ملك القبيلين: مغراوة وتوجين ـ معاً ـ وانتظم له ملك المغرب الاوسط كله.

محاصرة تلمسان ووفاة ابي سعيد

لقد بلغ من أمر العداوة المستمرة بين بني عبد الواد وبني مرين انه ما سنحت فرصة لاحد الطرفين للايقاع بصاحبه الا وانتهزها أخذاً بثأره واخاداً لغلته، فتعـددت الوقائع والحروب بين القبيلين، وكان منها هـــذا الحصار الطويل الذي ضربه ابو يعقوب يوسف المريني على تلمسان بسبب ما قامت به هذه الدولة من ربط صلتها بخصومهم في الأندلس بملوك بني الأحمر ومشاغبتها الدائمة على بني مرين.

تحرك ابو يعقوب يوسف من مدينة فاس في ربيع الثاني ٦٨٧ هـ (ماي ١٢٩٠ م) فنزل بذراع الصابون من ظهر تلمسان يوم الثلاثاء ٢٥ جمادى الثانية – ٦ جوليت – ومكث محاصراً للمدينة نحو ثلاثة اشهر ، فكانت هناك حروب طاحنة اشتد فيها الامر على الفريقين فانكسر فيها أولاً ابويعقوب فأقلع عن الحصار مدبراً الى موركزه بالمغرب الأقصى ، ثم تكرر منه الهجوم على تلمسان ومحاصرتها اربع مرات، ثم كانت الخامسة بعد انتقاض زكرياء بن يخلف المطغري [1] قائد ندرومة وفي هذه المرة ضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من أسوار بناها محيطة بها وجعل لها ابواباً مداخل لحربها ثم شرع ابو يعقوب في بناء الحلة المنصورة ٦٩٨ هـ(١٢٩٩م) فاشتد يومئذ الكرب ببني عبدالواد الزيانين ونال منهم الجهد والعناء بما لا نظير له في تاريخ المغرب قبله ولا بعده ، بل ولا في تاريخ غيره من الامم فيما علمناه ، وناهيك انه قد طال بهم ذلك الحصار الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر !.. ، اضطروا فيها الى اكل الجيف والقططة والفيران حتى قيل انهم اكلوا اشلاء الموتى من الناس! وخربوا السقف للوقود وغلت اسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه ، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به مقداره اثنا عشر رطلا ونصفاً مثقالين ونصفا من الذهب العين، وثمن الرأس الواحد من البقر ستون مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف واثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم تكون عشر المثقال، والرطل من الجلد البقري ميتة او مذكي بثلاثين درهما ، والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله !!!. والدجاجة بثلاثين درهما وبعشرة دنانير

---

(١) كثيراً ما يشتبه على الكتاب كتابة هذه الكلمة ويخطئون في رسمها ؛ فيكتبها بعضهم كيفما اتفق ؛ تارة بالطاء وتارة بالدال بدون تثبت ولا تمييز بينهما ؛ والصحيح انهما اسمان مختلفان لفظاً وخطاً لاماكن ثلاثة مختلفة ، فأما بالدال فهو اسم مكان بأعمال سجلماسة يقال له «مدغرة» واما بالطاء فهو اسم يقع على موضعين مختلفين ؛ احدهما بعمل تلمسان والآخر بعمل تازا من بلاد المغرب الاقصى وكلاهما يقال له «مطغرة» .

والبيضة الواحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة ومن الحطب كذلك ، والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة اثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ، ومن اللفت بخمسة عشر درهما ؛ والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة اثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس اموالهـم وموجودهم وضاقت احوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة [1] ولقد هلك في هذا الحصار من بني عبد الواد نحو العشرين ومائة الف شخص

وفي اثناء الحصار الشديد هذا بعث سلطان مرين باخويه ابي سرحان وابي يحيى للتوغل بشرقي بلاد الجزائر فنهضا اليها معا سنة ٦٧١ هـ -١٢٧٢م واحتلا مواطن توجين فشردا اهلها وحطما حصون جبل وانشريس،وفتحت اذ ذاك مدينة (لمديه) صلحا واختط ابو يحيى قصبتها وأطاعه اهل تافركينت ثم عاد الى اخيه السلطان أبي يعقوب .

ورغم كل هذه الشدائد فقد ثبت بنو عبد الواد تجـاه بني مرين ثبوت الجبال الراسيات مدافعين عن حرمهم بالمهج الى ان جاءهم الفرج ، وفي اثناء ذلك هلك السلطان ابو سعيد عثمان الزياني وذلك لخمس سنين من الحصار قيل انه ذاق السم في شرابه تفاديا من معرة الهزيمة والانكسار ، وكانت وفاتـه بغتة يوم السبت غرة ذي القعدة سنة ٧٠٣ هـ (٥ جوان ١٣٠٤ م) فبويـع لولده ابي زيان الاول

ولاية السلطان ابي زيان الاول

هو ولد السلطان ابي سعيد عثمان ، واسمه محمد ، ولد بتلمسان سنة ٦٥٩هـ

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٥ — ٩٦

(١٢٦١م) وكانت مبايعته اثر وفاة والده يوم الاحد ثاني شهر ذي القعدة سنة ٧٠٣ هـ (٦ جوان (١٣٠٤م) وكان مشتهراً بالنشاط والحزم ورقة الحاشية ودماثة الطبع فاضلا حسن التدبير

تولى الملك في احرج الظروف واعسر الاوقات ؛ فلقد ولى عرش بني زيان وعاصمتهم مهددة بالانقراض ودولتهم بالانهيار وحياتهم بالاضمحلال وذلك لما نزل بهم من الحصار المريني وما نكبهم من الرزايا والفجائع والآلام ؛ فتحمل عبء كل ذلك ابو زيان وحده وتزعم قومه مجمعا رايه على الكفاح والمقاومة الى النهاية فاما ملك واما هلك !... وصرخ في قومه اثر مبايعته بكلمته الخالدة : تعالوا نخرج في قومنا فنستميت!... وبينما هو كذلك مزمعا على الحرب اذا بصوت الناعي ينعي سلطان بني مرين ابا يعقوب يوسف صاحب الحصار !...

قال ابن خلدون : « حدثني شيخنا محمد بن ابراهيم الآبلي قال جلس السلطان ابو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الاربعاء في خلوة من زوايا قصره واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة ؟... فقال له انما بقي عولة اليوم وغد !!.. فاستوصاه بكتمانها ، وبينما هم في ذلك دخل عليه اخوه ابو حمو فأخبروه فوجم لها وجلسوا سكوتا لا ينطقون !.. واذا بالخادم «دعد» قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان ابي اسحاق وحظية ابيهم خرجت من القصر اليهم وحيتهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء ؟!.. وقد احيط بكم واسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الا فواق بكية لمصارعكم ، فأريحونا من معرة السبي واريحوا فينا انفسكم وقربونا الى مهالكنا،فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم !... فالتفت ابو حمو الى اخيه وكان من الشفقة بمكان وقال قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن ؟...

فقال يا موسى ارجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ..ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن !.. وتعال إليّ نخرج مع

قومنا الى عدوّنا فنستميت ويقضي الله ما يشاء ؛ فغضب ابو حمو وانكر الارجاء في ذلك ، وقال : انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا ، وقام عنه مغضباً وأجهش السلطان ابو زيان بالبكاء !.. قال ابن حجاف – خازن الزرع – وأنا بمكاني بين يديه واجم لا أملك متأخراً ولا متقدماً الى ان غلب عليه النوم ؛ فما راعني إلا حرَسي الباب يشير الى ان اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسدة القصر ، فلم أطق رجع جوابه إلا باشارة، وانتبه السلطان من خفيف اشارتنا فزعاً فأذنته واستدعاه فلما وقف بين يديه قال له : ان يوسف بن يعقوب هلك الساعة !.. وأنا رسول حافده أبي ثابت اليكم ؛ فاستبشر السلطان واستدعى اخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم ، وكانت احدى المغربات في الايام [١] .

كان اغتيال السلطان ابي يعقوب المريني على يد خصي من العبيد اسمه سعادة اسخطته بعض النزغات الملوكية فاعتمده في كسر بيته وخدع نومه وطعنه بخنجر قطع أمعاءه ؛ وقد وقع ذلك يوم الاربعاء ٧ ذي القعدة ٧٠٦ ھ (١٠ ماي ١٣٠٧ م) ، فاختلفت بعده كلمة اصحابه وتشتت قومه حسب تشتت اغراض رؤسائهم فكان منهم من اعتصم بالفرار ، ومنهم غير ذلك ، فذهب يومئذ العناء عن آل زيان وقومهم وجميع سكان عاصمتهم فكأنما نشروا من أجداث ، وكتبوا على سكتهم « ما أقرب فرج الله » استبشاراً وتعجباً وشكراً لله !..

ثم كان الصلح بين الدولتين، وأعيدت لبني عبد الواد جميع البلاد والثغور التي احتلها المرينيون بالجزائر ؛ واوصى ابو ثابت المريني بعدم التعرض لمدينة المنصورة بسوء ؛ غير ان بني عبد الواد لم يكن ليستطيعوا تحمل رؤية شبحها المشؤوم فحطموها تحطيماً .

مقاومة القبائل المشاقة

نشط السلطان ابو زيان الاول بمرافقة اخيه ابي حمو الى بسط نفوذ الدولة

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٦ – ٩٧ ط بولاق ١٢٨٤ .

المبد الوادية على كامل الوطن الجزائري بدون استثناء ؛ وكان اندفاعها من تلمسان يوم الخميس ٢٠ ذي الحجة ٧٠٦ هـ – ٢٢ جوان ١٣٠٧ م فحلا بمواطن مغراوة من نواحي القطر الجزائري الغربي ؛ فأجفلت بطون مغراوة يومئـــذ الى الصحراء ؛ فاستولى ابو زيان على السرسو الذي كان قد احتله العرب ايام الحصار ، كما انه قد احتوى على جميع ارجاء « شلف » وذلـــل قبائل توجين فانضوت بأجمعها تحت طاعتــه ؛ واستمرت الحروب بين بني عبد الواد وبني راشد ، وما كانت لتنتهي الا لتتكرر وتسوء العلائق بينهما من جديد [1] ...

وعاد السلطان الى عاصمته في رمضان ٧٠٧ هـ – فيفري ١٣٠٧م وفي نفس هذه السنة كان القضاء على حاضرة المنصورة التي اشادها المرينيون قرب تلمسان فطمسها بنو زيان ومحوا آثارها تفاديا من بقاء معالم العدو بينهم قائمة مرئية

وفي شهر شوال – مارس – من هذه السنة توفي السلطان ابو زيان الاول اثر مرض لم يمهله اكثر من اسبوع فقط ، فدفن صبيحة يوم الاحد ٢١ شوال – ٢٦ افريل – وبويع لاخيه ابي حمو الاول

ولاية السلطان ابي حمو الاول

هو السلطان ابو حمو موسى « الاول » بن السلطان ابي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان ، ولد سنة ٦٦٥ هـ – ١٢٦٦ م وبويع بتلمسان يوم وفاة اخيه السلطان ابي زيان الاول : الاحد ٢١ شوال ٧٠٦ هـ – ٢٦ افريل ١٣٠٧ م – وكان شجاعاً شديداً في غير قساوة : ليناً في غير ضعف ؛ حازماً صارماً؛ وهو اول من احدث في هذه الدولة مراسيم الملك ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته Protocole وسك النقود باسمه .

وينعته لنا ابن خلدون فيقول : « ... وكان صارماً، يقظاً، حازماً داهية قوي الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق مفرط الذكاء والحدة ،

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث في تاريخ ابن خلدون ج ص ١٢٣ و ٣٣٠ – ٣٣١ ط بولاق ١٣٨٤ هـ

وهو أول ملوك زناتة رتب مراسم الملك وهذب قواعده وارهف في ذلـــك لاهـل ملكه حده وقلب لهم مجن باسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان . قال - سمعت عريف بن يحيى امير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه : موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة ، وانما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحد حدودهـــا وهذب مراسمها ، ونقل عنه ذلك امثاله وانظاره فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتمليمه[1].

غارات ابي حمو وفتوحاته

كان اول ما افتتح به ابو حمو اعماله الادارية ان سعى في مسالمة بني مرين ومهادنتهم؛ ثم لما اطمأن على ملكه من الناحية الغربية اشتغل بتطهير الحواشي والجوانب المحيطة به فأخذ في تذليل القبائل المنشقة عنه كمغراوة وتوجين ، فانتصر عليهم واحتل مليانه ولمدية وتنس ، ولكنه لم يظفر بالامير المغراوي راشد بن محمد لفراره ، ثم التفت نحو الشرق ، فبعث بجنوده اولا الى الزاب الجزائري فاستولى عليه سنة ٧١٠هـ - ١٣١٠ م واذعنت لطاعته بلاد الجزائر الشرقية ، فتقلص عنها ظل بني ابي حفص ثم بعد سنتين خرج السلطان ابو حمو بنفسه متوجهـــا نحو مدينة الجزائر ، فاحتل بلدة - تدلس - دلس - وخضع له اميرها ابن خلوف ؛ تمكن من مدينة الجزائر فاقصى عنها حاكمها المستقل بها ابن علان بعد ما استبد بها مدة اربع عشرة سنة : ودوخ جبل ابي ثابت واشاد قصراً «بأصفون» في مدة لا تتجاوز اربعين يوماً ، وهو نفس مكان المدينة المعروفة اليوم بالساحل الشرقي الجزائري باسم- ازفون- فشحنه بالأقوات واقام به الحامية ثم تركه منصرفاً الى غزواته ، وفي عودة السلطان ابي يحيى الحفصي من قسنطينة الى بجاية (٧١٤هـ - ١٣١٤م) بعث بعسكره الى هذا القصر براً وباسطوله بحراً فحطموا القصر وانتهبوا اقواته وعدده.

القضاء على امارة الثعالبة بمتيجة

يذكر المؤرخون انه كان بسهول متيجة الى وادي السد حيث تخوم مغراوة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

نحو الثلاثين مدينة وكلها كانت للثعالبة الذين هم من عرب المعقل ؛ وكان موقف هؤلاء السياسي دائماً في جانب المرينيين ضد بني عبد الواد ، ولا سيما ايام الحصار الشديد الذي ضربه السلطان ابو يوسف يعقوب على تلمسان ، وقد لاحظ ذلك منهم بنو عبد الواد فكاتموهم العداوة مصانعة الى ان حانت لهم الفرصة في هذه المرة وطعن سلطان مرين وارتفع الحصار واسترد الزيانيون ملكتهم الجزائرية الى تخومها فجهز يومئذ السلطان ابو حمو الاول عساكره بقيادة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن ووجههم الى سهل متيجة حيث انقضوا على الثعالبة فخربوا قصورهم وحطموا ديارهم وقضوا على اكثريتهم ، ولم ينج منهم يومئذ في هذه الوقعة سوى نفر قليل التجأ الى احلافه بني مرين بالمغرب الاقصى،ومنهم من ذهب الى الصحراء ومنهم من اقام بجبال وانشريس ثم حاصر الجيش العبد الوادي مدينة بجاية (٧١٥ هـ – ١٣١٥ م) وضيق على صاحبها يومئذ ابي زكرياء الاوسط حليف مرين

اغارة بني مرين وثورة الاعراب

اشتعل المغرب الاوسط في هذه الآونة نارا بسبب مهاجمة مرين على مراكز اعدائهم وخصومهم الملتجئين الى تلمسان المحتمين بملوكها ، فنازل السلطان ابو سعيدالمريني مدينة وجدة (٧١٤هـ – ١٣١٤م) واكتسح بسائط تلمسان فالتجأ بنوزيان يومئذ في صرفه عنهم الى استعمال الحيلة والدهاء فانصرف عنهم بسلام ثم كان اندلاع الثورة من البربر والاعراب فعمت الفتنة جميع اعمال وهران ، فانبرى لاطفائها يومئذ السلطان ابو حمو الاول ونزل بوادي « نهل » من شلف وهناك ابتنى قصره المعروف الى اليوم باسمه «حمو موسى» قبل ان تحرفه العامة الى ـ عمى موسى ـ وهو بالجنوب الشرقي من موقع «عين كرمان»،ويومئذ فر امامه راس الثوار راشد بن محمد المغراوي فذهب الى بلاد القبائل؛فأمرابو حمو بغزوها ايضاً، فاحتلتها جيوشه ودخلت بجاية فجاست هنالك خلال الديار ، واشيدت هنالك يومئذ مدينة « آقبو » الباقية الى اليوم واذعنت جميع تلك النواحي لبني زيان ، ثم وقعت بقبضتهم مدينة المدية ومليانة سنة ٧١٧هـ

(١٣١٧م) وتمكن ابو تاشفين بفضل جيوشه من بسط نفوذه وانتشار الأمن في البلاد ، واعتنى بصفة خاصة بجمع الضرائب والاموال لتحصين مدينة تلمسان واعداد جيش قوي .

وفي هذا العهد اخذ الضعف يسري في عروق القبيلة الجزائرية المتيدة: زناتة ، فابتدرها الهرم الذي هو سنة الكون في الكائنات افراداً وجماعات ، وحلت محلها الجاليات العربية المهاجره .

مصرع السلطان ابي حمو الاول

لقد عملت عوامل الغيرة والانفة اعمالها في الامير ابي تاشفين بسبب ما كان عليه والده ابو حمو من تقديم ابن عمه ابي السرحان مسعود بن برهوم ابي عامر عليه وتدنية مجلسه منه ، نظراً لصرامته ودهائه ونجابته بل وكثيراً ما كان يظهر ذلك امام ولده ابي تاشفين فيستشير ابا السرحان بن ابي عامر ويحادثه في شؤون الدولة واعمالها وابو تاشفين جالس بدون ان يلتفت اليه ؛

واتفق أن دفع السلطان أبو حمو يوماً بحضر ولده – لابي السرحان مالاً كان اودعه والده عنده ، فظنه أبو تاشفين انه من مالية الدولة .

فاستنكف أبو تاشفين لهذه الاهانة واغتاظ لذلك واستمر ساخطاً على والده الى ان ضاق منه ذرعاً ودبر له مكيدة ذهب السلطان ضحيتها فاغتاله بعض العلوج بقصره يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الاولى سنة ٧١٨ ه (٢٢ جوان ١٣١٨ م) وهلك معه الوزراء من بني الملاح وطائفة من اقربائه وخاصته وتملك بعده ولده ابو تاشفين .

ولاية السلطان ابي تاشفين عبد الرحمن الاول

هو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن بن السلطان ابي حمو موسى الاول ،ولد سنة ٦٩٢ ه (١٢٩٣ م) وبويع صبيحة الغد من يوم اغتيال والده : الخميس ٢٣ جمادى الاولى ٧١٨ ه (٢٣ جوان ١٣١٨ م) .

عرف ابو تاشفين بين ملوك هذه الدولة بميله الشديد وتعلقه بالفنون الجميلة ولا سيما فن المعمار فان له به شغفاً كبيراً فأشاد الدور والقصور وسك النقود، مع ما كان عليه من الامعان في اللهو والقصف ؛ ولم يكن هذا كله ليمنعه من التحمل لأعباء الدولة والقيام بمهامها احسن قيام .

ولما كان توليه الملك على الصفة المرعبة المتقدمة ، اشتد به الحذر وخشي من الفتك به فأسرع بابعاد جميع قرابته وذويه من ابناء يغمراسن عن حاضرة ملكه وبعث بهم الى الاندلس ، واعتقل عمه السعيد بن عثمان عنـــده لهذا الغرض نفسه فأبقاه بالسجن الى ان هلك فيه .

القضاء على سلطة مغراوة :

لم يتولَّ احد من ملوك بني زيان الا وجعل همه الوحيد القضاء على سلطة مغراوة ، تلك القبيلة الناهضة لسلطان بني عبد الواد ، وسار ابوتاشفين الاول على خطة اسلافه من ملوك بني زيان فكان اول ما قام به من الاعمال ان اغار على هذه القبيلة المنشقة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وحاصرها في ربوة « تاوكلال » من جبل وانشريس وشدد عليها الخناق فانقطعت عنهـــا جميع المواصلات ونفدت الميرة حتى لم يبق هنالك عندهم ما يسد به الرمق فانتشرت المجاعة بتلك الارجاء ثمانية ايام وفر زعماء مغراوة من الميدان فاقتحم ابوتاشفين البلاد واخذ رئيسهم محمد بن يوسف المغراوي من مكنه بحصن« توكال »بنواحي جبل وانشريس فقتله وبعث برأسه مرفوعاً على قناة الى تلمسان حيث نصب بشرفات البلد وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه ثم نازل بجاية ومنهـــا عاد الى مركزه

فتح اعمال قسنطينة وبجاية :

ما كان ليغفل بنو عبد الواد او يتناسوا تلك الحملة الشنعاء التي شنها عليهم الحفصيون على عهد ابي زكرياء الاول سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م) ، وما كانوا كذلك ليتجاوزوا عن انكسار مؤسس دولتهم السلطان يغمراسن وانهزامه

امام هذه الغارة الحفصية ، فمكثوا في انتظار الفرصة ليثأروا من خصمهم حتى ايام ابي تاشفين الاول هذا حيث حدث اضطراب بين سكان اعمال قسنطينة تقوضت منه اركان الدولة الحفصية ، فخف لذلك سلطان بني زيان وبعث بطائفة من الجند لاستطلاع احوال التخوم الشرقية وهو بذلك - في آن واحد - يختبر قوات الخصم الحربية المقيمة بالحدود ، فذهبت الطليعة الزيانية الى غرضها ثم عادت بالظفر والغنيمة .

ويومئذ نهض ابو تاشفين ٧٢٠ ه (١٣٢٠ م) فأوقع بأهل قسنطينة وحاصر بجاية مرتين ؛ ثم تعددت الوقائع بين بني ابي حفص والزيانيين الى ان كان النصر فيها لبني زيان سنة ٧٢٩ ه (١٣٢٨ م) ، فأقاموا بأعلى وادي بجاية وشيدوا هنالك : « قصر بكر » كذكرى لهذا الانتصار الباهر الذي عم القطر الجزائري ، ويليه الحصن والبلد المسميان بتامزيزدكت وخلص يومئذ ابو يحيى ابو بكر الثاني الحفصي الى مدينة بونة جريحاً ؛ ثم كان بعد ذلك بسنة استيلاء الدولة العبد الوادية على تونس .

ظهور الدعوة الموحدية بوهران :

نهض ابراهيم بن عبد الملك الكوفي الثائر بجبال « ترارة » من مركزه سنة ٧٤٥ ه (١٣٤٤ م) متظاهراً باعادة دعوة الموحدين واقامتها بالمغرب الاوسط ، فاستولى على الساحل الوهراني واحتل فرضة هنين وندرومة وحاصر مدينة وهران وكان بها يومئذ عبو بن سعيد بن اجانا والياً عليها من قبل الدولة الزيانية ، وجاءت الحامية من تلمسان لرد حملة الثائر إبراهيم فاخفقت وسقطت وهران بيده ، فأقام بها الدعوة الموحدية الى ان اغار عليها الزعيم ابو ثابت وفتحها عنوة في اليوم التاسع من جمادى الاول سنة ٧٥٠ ه (جوليبط ١٣٤٩ م) وقضى على دعوة الكوفي بها وعفا عن اهلها ثم عاد الى مركزه .

نهاية الدور الزياني الاول :

لقد كان لانهزام الدولة الحفصية امام قوات الزيانيين سنة ٧٢٩ ه

(١٣٢٨ م) اثر شديد ووقع كبــير في نفوس الحفصيين فاستظهروا يومئذ بالسلطان ابي سعيد المريني وتوسلوا به لاسترجاع مملكتهم من بني عبد الواد فاستشفع لهم هذا السلطان في ذلك لدى بلاط بني زيان فلم ينجح ؛ ثم لما تولى ولده من بعده ابو الحسن – صهر بني ابي حفص – اعاد عليه الحفصيون اقتراحهم في التوسط لدى ملوك بني زيان في التخلي لهم عن المملكة الشرقية ففعل ابو الحسن مثــل والده وقام بعرض القضية على ملوك تلمسان قصداً للتسوية فاخفق في وساطته هذه ايضاً؛ويومئذ نشأت – او قل تجددت – العداوة والبغضاء بين بني مرين وبني عبد الواد ، واخذ ابو الحسن في الاستعداد للغزو، وجاء الاسطول المريني غازياً سواحل تلمسان ومدافعاً عن احواض بجاية ؛ ونهض ابو الحسن اواسط سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) مغيراً على المغرب الاوسط فاحتل ندرومة وهنين – فرضة تلمسان – وحطم أسوار وجدة ونزل اتسالة – بالقرب من سيدي بلعباس – وفتح وهران ومليانة وتنس والجزائر ومثلها النواحي الشرقية ، حتى انتهى الى مدينة لمدية ثم نزل بالمنصورة يوم ١١ شوال – ٤ جوان – من هذه السنة ، وادار نطاق الحصار على تلمسان فاحتلها يوم الاربعاء ٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ (٢٩ افريل ١٣٣٧ م) وخرج منهـا يومئذ أبو تاشفين في حاشيته وابنائه الثلاثة مدافعاً بنفسه عن حرمه ؛ ولزم الجميع مكانهم في الدفاع عن النفس والأهل بازاء القصر الى ان استشهد جميعهم في الميدان فسقطوا بساحة القصر وبقي ابو تاشفين منفرداً فألقي عليه القبض ثم قتل يوم ٣٠ رمضان – ٢ ماي – بأمر الامير عبد الرحمن بن السلطان ابي الحسن المريني ؛ فكان ذلك آخر العهــد بالدور الاول من ملك بني زيان ، وعادت الجزائر الى سيادة بني مرين وطاعتهم .

قال ابن الخطيب : واستولى السلطان صاحب المغرب – الأقصى – على تلك الامارة المؤولة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي،وثمين الذخيرة ، وفاخر المتاع ، وخطير العدة ،وبديع الآنية ، وصامت المال ، وضروب الرقيق..[1]

(١) رقم الحلل ص ٧٣ – ٧٤ ط تونس ١٣١٦ هـ

ملوك الدولة الزيانية

الدور الاول

	تاريخ التولية
ابو يحيى يغمراسن بن زيان	٦٣٣ ﻫ – ١٢٣٦ م
ابو سعيد عثمان بن يغمراسن	٦٨١ ﻫ – ١٢٨٣ م
ابو زيان محمد (الاول) بن عثمان	٧٠٣ ﻫ – ١٣٠٤ م
ابو حمو موسى (الاول) بن عثمان	٧٠٧ ﻫ – ١٣٠٨ م
ابو تاشفين عبد الرحمن (الاول) بن موسى	٧١٨ ﻫ – ١٣١٨ م

من مشاهير الجزائر

الاخوان ابنا الامام

ابو زيد عبد الرحمن ٧٤١ ﻫ – ١٣٤٠ م
ابو موسى عيسى ٧٤٩ ﻫ – ١٣٤٩ م

للامام محمد بن عبدالله التلمساني ابنان، هما ابو زيد عبد الرحمن وابو موسى عيسى ، اجمع علماء التاريخ والسير والتراجم بالمغرب العربي بانه لم يكن في زمنها اعظم رتبة ولا اعلم منهما ، واكبرهما ابو زيد عبد الرحمن، كلاهما اشتهر بالامامة والرئاسة في العلم ورسوخ القدم فيه وكلاهما نشأ بمدينة برشك[1] بالساحل الغربي الجزائري ما بين مدينة شرشال وتنس ، حيث كان والدهما اماما باحد مساجد هذه المدينة فاشتهرا يومئذ بهذه النسبة وعرفا بها

ولما استولى زيري بن حماد المكلاتي المعروف بزيرم على مدينة برشك واستبد بها سنة ٦٨٣ ﻫ ١٢٨٤ م رمى امام المدينة وهو والد الاخوين العالمين بتهمة احتوائه على وديعة مالية لبعض اعداء زيرم وطالبه بها فانتفى الامام منها فقتله زيرم غيلة ، ويومئذ تكدر الجو واكفهرت الدنيا بعين الاخوين فحزنا لذلك وارتحلا في اواخر القرن السابع الهجري الى تونس حيث لقيا هنالك الاجلة من علمائها كابن القطان وابن جماعة والمرجاني الخ ... كما اجتمعا بفاس بالشيخ السطي والطنجي واليفرني وتلاميذ ابن زيتون واصحاب ابي عبدالله بن شعيب الدكالي وغيرهم

(١) ضبطها ابن خلدون بقلمه بفتح الباء الموحدة وكسر الراء وسكون الشين

وبعد ان انهى الاخوان رحلتهما العلمية بالمغرب العربي وانتهيا من الطواف بجامع العلم واندية الادباء توجها الى بلدهما ومسقط رأسهما برشك ، فلما بلغا اليها امتنعت عليهما لحلول زيرم المستبد بها ، فانصرفا عنها الى مدينـــة الجزائر فأقاما فيها يبثان العلم وينشران ما طوى بها من معالمه، وكان السلطان ابو يعقوب يوسف المريني يومئذ محاصراً لتلمسان ذلك الحصار الطويل الشهير ، وانتشرت جنوده مستحوذة على اكـــثر عواصم القطر الجزائري وامصاره ، فارتحل الاخوان من مدينة الجزائر الى مليانة عاصمة مغراوة وكان بها الكاتب منديل بن محمد الكناني ضابط جباية مرين وصاحب اشغالهم ، فعرف منزلتهما وعلو كعبهما في العلم فاصطفاهما وقربهما منه واتخذهما للتعليم ولده محمـــد ، ثم استعملهما على خطة القضاء بمليانة .

وبعد مهلك السلطان ابي يعقوب المريني وتأكد الصلح بين بني مرين وبني عبد الواد وارتفع الحصار عن تلمسان انتقل الاخوان صحبة الكناني المذكور وحلا بتلمسان فاتصلا بالسلطان ابي حمو موسى الاول فاغتبط بهما وابتنا لهما مدرسة بناحية المطهر كما يقول ابن خلدون – او داخـل باب كشوط كما عند ابن مريم – وجعل لهما فيها ايوانين معدين للتدريس ، وابتنى لهما بجانب المدرسة دارين للسكنى ، واختصهما بالفتوى والشورى وضمهما الى خاصته واعيان مجلسه ، فاقاما هنالك ملحوظين ممتازين بين اهل العلم والفضل .

ولما انتصر ابو حمو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته الآفاق توجس منه خيفة زيرم المكلاتي فخطب مودته وامـــل منه الامان لنفسه ونزل له عن ولايته ، وكان ابو زيد عبد الرحمن بن الامام هو سفير السلطان الى زيرم ببرشك ، وكانت بينهما طائلة كما ذكرنا فاستأذن السلطان في اخذ ثأره منه فأذن له ، واخذ ابو زيد يومئذ في التردد على زيرم ببرشك حتى تمكن منه فثأر منه بأبيه القتيل ، وكان ذلك سنة ٧٠٨ ه (١٣٠٨ م) وصار امر برشك يومئذ لبني زيان .

استمر الاخوان العالمان على صحبتهما لابي حمو الاول بتلمسان الى وفاته

يقربهما اليه يومئذ ولده السلطان ابو تاشفين الأول فلازما مجلسه مدة سنتين ثم غادراه الى المشرق ، سنة ٧٢٠ ﻫ (١٣٢٠ م) وهناك اجتمعا بأكابر العلماء كالشيخ علاء الدين القونوي الذي كان يقال عنه انه لا نظير له في العلم في عصره ، واخذا عن الجلال القزويني صاحب التلخيص في البلاغة ، وسمعا صحيح البخاري عن الشيخ الحجار ، واجتمعا هنالك بشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية فناظراه وظهرا عليه ، فكان ذلك مما زاد في محنة الشيخ .

عاد ابنا الامام من المشرق وقد طار صيتهما في الآفاق واشتهرا بالتبحر في العلم حتى صارا يعرفان بالامامة والاجتهاد المطلق والتفرد بالرئاسة ، فانهال يومئذ عليهما الطلبة من كل حدب وصوب ، وكثر المنتسبون اليهما واللائذون بهما والآخذون عنهما حتى غصت رحاب مجالسهما العلمية بالطلبة ، فتخرج عليهما اعلام منهم العلامة الشريف التلمساني والعلامة الخطيب ابن مرزوق - الجد - والامام المقري جد صاحب النفح ، وابو عثمان العقباني، وابو عبد الله اليحصبي في جماعة كثيرة ممن اخترقت شهرتهم الآفاق .

وذكر ابن خلدون من تلامذتهما القاضي ابا عبدالله محمدبن عبداللهبن عبدالنور الندرومي فقال : « كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن انس تفقه فيه على الاخوين ابي زيد وابي موسى ابني الإمام وكان من جملة اصحابهما ولما استولى السلطان ابو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما ، وكان يستكثر من اهل العلم في دولته ويجري لهم الارزاق ويعمر بهم مجلسه فطلب يومئذ من ابن الامام ان يختار له من اصحابه من ينظمه في فقهاء المجلس فاشار عليه بابن عبدالنور هذا - وهو من اعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة - فادناه السلطان وقرب مجلسه وولاه قضاء عسكره ولم يزل في جملته الى ان هلك بالطاعون بتونس سنة تسع واربعين وسبعمائة وكان قد خلف بتلمسان اخاه عليا رفيقه في دروس بن الامام إلا انه اقصر باعاً منه في الفقه فلما خلع السلطان ابو عنان طاعة ابيه السلطان ابي الحسن ونهض الى فاس استنفره في جملته وولاه قضاء مكناسة ... وهلك حاجاً في مكة عند

طواف القدوم سنة أربع وستين وسبعمائة [1] .

عاش ابنا الامام يومئذ في كنف السلطان ابي تاشفين الاول مبالغاً في اكرامهما وتقديرهما فلازماه في قصره الى آخر نفس حيث استشهد في وقعة سقوط تلمسان بيد المرينيين سنة ٧٣٧ ه – ١٣٣٧ م

وبعد ان استولى السلطان ابو الحسن المريني على تلمسان جاء بابني الامام الى قصره وازدادت حظوتهما عنده حتى كاد لا يفارقهما البتة ، واحضرهما معه وقعة طريف بالاندلس آخر سنة ٧٤٠ ه – ١٣٤٠ م .

ورغم كل هذا التفوق العلمي وبعد الصيت ، فانه لم يبلغنا عن مؤلفاتهما شيء سوى ما اشار اليه اصحاب التراجم من شرح ابي زيد عبد الرحمن على مختصر ابن الحاجب الفرعي ، ويقول ابن فرحون ان لهما التصانيف المفيدة ؛ ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التي مني بها المغرب العربي يومئذ ؟ ! . .

ويذكر اهل السير ان ابا زيد عبد الرحمن اورع من اخيه موسى وانه كان يمتاز عليه بالخشية ، فقد حكي عنه ابو الفضل بن ابي مدين الكاتب وقد رآه يوما بباب السلطان ينتظر خروجه فسأله عن حاله ؛ فأجابه بقوله : اما الآن فأنا مشرك !... فقال الكاتب : اعيذك من ذلك !... فقال الشيخ: لم ارد الشرك في التوحيد ، لكن في التمظيم والمراقبة ، والا فأي شيء جلوسي ها هنا ؟...

وكانت وفاة ابي زيد في العشر الاوسط من رمضان سنة ٧٤١ ه –اوائل مارس ١٣٤٠م ودفن ببلدته برشك ، وبفقده ازداد مقام اخيه رفعة عند السلطان ابي الحسن ، فعاش في اكنافه عزيز الجانب مكرما الى ان شغل السلطان بحوادث تونس والقيروان فسرحه الى بلده فذهب اليها واقام بها قليلا فوافاه اجله في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ ه – ١٣٤٩م رحمها الله ، ويذكر

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٩٤ط بولاق ١٢٨٤ ه

ابن خلدون ان للشيخين اعقابا بقوافي تلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ومتوقلين قللها طبقا عن طبق الى هذا العهد .

وجاء ذكر أعقابهما في كتاب البستان لابن مريم نقلا عن تقاييد الشيخ ابي العباس الونشريسي قال : اما بنو الامام فأعلام طبقة الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان : ابو زيد ، ثم العلامة النظار وجامع اشتات المعارف ابو موسى ابنا محمد بن الامام ، ثم الشيخ ابو سالم ابراهيم بن ابي زيد وابن عمه الشيخ الصالح ابو محمد عبد الحق بن ابي موسى ثم الشيخ العلامة القاضي الرحال ابو الفضل بن الشيخ ابي سالم . ولم يبق لهما الآن عقب بتلمسان الا صاحبنا وتلميذنا الطالب الخير الفاضل ابو العباس احمد بن ابي الفضل بن ابراهيم المذكور رحمهم الله تعالى .

وحكي السخاوي عن ابي الفضل هذا انه لما قدم دمشق وعلم الناس بفضله تزاحموا عليه وأجلوه . وذكره المقريزي فقال : انه صاحب فنون عقلية ونقلية قلّ علم إلا ويشارك فيه مشاركة جيدة . وقال ابو العباس الونشريسي : هو شيخ شيوخنا له قدم راسخ في البيان والتصوف والادبيات والشعر والطب وهو اول من ادخل الى المغرب شامل بهرام وشرح المختصر له وحواشي التفتزاني على العضد وأبا هلال على ابي الحاجب الفرعي وغيرها من الكتب العربية وتوفي عام (٨٤٥ ه ١٤٤١م) وذكره القلصادي في رحلته فقال: حضرت مجلسه وكان فقيها اماما صدراً عالماً بالمعقول [1]

محمد بن ابراهيم الآبلي

٧٥٧ ه - ١٣٥٦ م

هو ابو عبد الله محمد ابراهيم بن احمد الآبلي ، اصله من مدينة آبلة بالشمال

(١) البستان ص ٣٧-١٣٦ - ٣٣٠ ط الجزائر ١٩٠٨ م

الغربي لمقاطعة بجريط من بلاد الاندلس ، اجاز ابوه وعمه احمد الى تلمسان فاستخدمهما السلطان ابو يحيى يغمراسن بن زيان في الجندية فكان ابوه قائداً بهنين – مرفأ تلمسان –

اصهر والده ابراهيم الى ابي الحسن محمد بن غلبون المرسي قاضي تلمسان في بنته فأنجبت له مترجمنا محمداً .

ولد المترجم بتلمسان سنة ٦٨١ هـ – ١٢٨٢ م وبهـا نشأ في كفالة جده القاضي فحبب اليه العلم ورغب فيه معرضاً عن وظيفة الجندية التي كان عليها والده ، فبرع في فنون الحكمة والتعاليم واشتغل بالمعقولات فكان فيها اوحد زمانه وعالم عصره واوانه وعكف الناس عليه في تعلمها وهو لا يزال في سن المراهقة .

اخذ الاصلين والمنطق عن ابي موسى ابن الامام وعن جده القاضي وقرأ على ابي الحسن التنسي . ولما امتلك يوسف بن يعقوب تلمسان استخدمه فكره ذلك وسافر الى الحج آخر القرن السابع الهجري فدخل مصر والعراق ولم يتح له القدر الانتفاع بعلماء المشرق لمرض لازمه في سفره فعاد الى بلده تلمسان وكان السلطان ابو حمو الاول قد استفحل ملكه وقد بلغه عن الآبلي تقدمه في علم الحساب فدفعه الى ضبط امواله ومشارفة عماله ، فتفادى منها الشيخ ، فأكرهه السلطان على العمل في قيادة بني راشد من كور بلده فشمخ الآبلي بأنفه وربأ بنفسه من أن يسخر علمه في خدمة الحكومة والمشي في ركابها ، فأعمل الحيلة في الفرار ولحق بفاس في حدود سنة عشر وسبعمائة للهجرة مختفياً عند شيخ التعاليم بها خلوف المغيلي اليهودي فاستكمل عليه فنونه الحكمية ، ثم دخل مراكش فلازم العلامة الامام ابا العباس احمد بن البناء ، فكرع يومئذ من علومه على اختلاف انواعها ، واستدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تروميت – بضم التاء – للقراءة عليه فصمد اليه الشيخ واقام عنده مدة انتفع فيها ونفع وكثر حوله الطلبة واجمع الناس على محبته وتعظيمه وامتثال امره واطاعته .

ثم نزل الشيخ مدينة فاس وبها انتشر ذكره وذاع صيته وفضله وصـــار يعرف بعـالم الدنيا .. وينعت بأعلم خلق الله في فنون المعقول ... ويذكره اهل التراجم بقولهم : المجمع على امامته ... الخ ... ويومئذ انثال عليه طلبة العلم من كل جهة وصوب فكثر الانتفاع به وعم نفعه البلاد.

ولما فتح السلطان ابو الحسن المريني مدينة تلمسان ولقي بها العلامة موسى ابن الامام ذكر له الآبلي واثنى على علمه وفضله ووصفه بالتقدمعلى اقرانه في العلوم وذكره باطيب الذكر فضمه يومئذ ابو الحسن الى مجلسه ونظمه في سلك طبقة العلماء ، وعكف الشيخ حينئذ على التدريس ومصاحبة السلطان وحضر معه وقعتي طريف والقيروان ، وفي هذه المرة كان اتصـال اهل تونس بالشيخ وتيسر لهم الانتفاع به .

ثم طلبه السلطان ابو عنانمن صاحب تونس فجاء الشيخ الى بجاية مكث بها نحو شهر أخذ عليه طلبتها كتاب مختصر ابن الحاجب في الاصول ثم التحق بابي عنان في تلمسان فنظمه في طبقة العلماء وجعله من اشياخه .

ولكثرة تلامذته قـــال يحيى بن خلدون وهو احـدهم : اني لا اعرف بالمغرب وافريقية فقيهـــا كبيراً الا وله عليه مشيخة . ومن اشهر تلامذتـه السلطان ابو عنـان — والمؤرخ الكبير ابن خـلدون — واخوه يحيى — وابن الصباغ المكناسي — والشريف التلمساني — والشريف الرهوني — وابنمرزوق الجد — وابو عثمان العقباني — وابن عرفة — والولي بن عبـــاد في آخرين لا يعدون كثرة ، اما تآليفه فلم يرو لنا التاريخ عنها شيئاً ?.. الا انه كان يقول انما افسد العلم كثرة التآليف واذهبه بنيان المدارس .

ومن كلامه المأثور قوله رحمه الله : لولا انقطاع الوحي لنزل فينا اكثر مما نزل في بني اسرائيل ، لاننا اتينا اكثر مما أتوا .

وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس في ذي القعدة سنة ٧٥٧ هـ (اكتوبر ١٣٥٦م)

محمد بن خميس
٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م)

هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن خميس التلمساني ، منتماه الى حجر ذي رعين ابي قبيلة من اليمن ولد رحمه الله بتلمسان سنة (٦٥٠ هـ — ١٢٥٢ م) ولم يلبث ان نبغ واشتهر بين قومه بالعلم والادب والزهد وبعد الهمة ، فكان اوحد زمانه وعالم قطره واوانه ، عارفا بفنون الادب والفلسفة والحكمة والنجامة والسيمياء مؤرخا مطلعاً على اخبار الامم والفرق والطوائف على اختلاف مللها ونحلها ، كاتباً بليغا وشاعراً مفلقاً وكان لغزارة علمه يوصف بين اهل العلم بشيخ الادباء ولاه السلطان ابو سعيد بن يغمراسن رئاسة ديوان الانشاء وأمانة سره

قال عنه ابن خلدون« كان لا يجارى في البلاغة والشعر» وقال ابن الخطيب في «عائد الصلة» : كان رحمه الله نسيج وحده زهداً وانقباضا وادبا وهمة ، حسن الشيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء والهوى ، عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعاً بتفاريق النحل ، قائما على العربية والاصلين ، طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الاوان في المطول ، اقدر الناس على اجتلاب الغريب وقال ابن خاتمة : « كان رحمه الله من فحول الشعراء واعلام البلغاء يصرف العويص ويرتكب مستصعبات القوافي ويطير في القريض مطار ذوي القوادم الباسقة والخوافي. وقال في مدحه ابو بكر بن خطاب من ابيات :

لك في البلاغة والفصاحة بعض ما تحويه من اثر محل رسيس
نظم ونثر لا تجارى فيهما عززت ذاك وذا بعلم الطوسي

ويعني الشاعر بالطوسي هنا الامام ابا حامد الغزالي ، وذلك لمكانة ابن خميس وتضلعه من الفلسفة والتصوف

حدث عنه ابن خاتمة في كتابه «مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية»

فقال انه علاوة على علمـه وفضله : كان صنع اليدين حاذقا ماهراً فيا يصنعه بيده،فلقد صنع قدحاً من الشمع ابدع في شكله ولطافة جوهره واتقان صنعته وكتب بدائر شفته ما يلي حاكيا لسان حال القدح :

وما كنت الا زهرة في حديقة تبسم عني ضاحكات الكمائـم
تنقلت من طور لطور فها انا اقبل افـــواه الملوك الاعاظم

قال واهداه الى صديقه ابي عبدالله بن الحكيم وزير ملك غرناطة محمـد الثالث من ملوك بني نصر وذلك ايام اقامة ابن خميس عنده في آخر حياته

ولقد حل ابن خميس بغرناطة اواخر سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٤م) بعدما تجول وطاف اقطار المغرب وجلس فيها لاقراء العربية فارتفع بها صيته، ونبه ذكره، فضمه الوزير المذكور الى مجلسه وخصه بكرمه واحسانه

ومن شعره قوله رحمه الله مفتخراً بعروبته واسلاميته

انا بني قحطـــان لم تخلق لغيـ ـر غياث ملهوف ومنعة لاجي
نفري طلا الاعراب في الهيجا وفي اللاواء (نقريهم على منهاج)
بسيوفنا البيض اليمانية التي طبعت لحز غـــلاصم وو داج
تأبى لنا الاحجام من اعدائنا يوم اللقـــاء طهارة الامشاج
انصار دين الهاشمي وحزبـــه وحماته في الجحفل الرجراج
وحماتــــه بنفوسهم ونفيسهم من غدر مغتال وسورة هاج
هم صفوة الخلق التي اختيرت له وسواهم همج مـــن الاهماج
الا الاولى سبقوا بباهر فضلهم من سائر الاصحاب والازواج
وكفى بمكتنا اقامـــــة حجة وبركتنا من كعبة الحجاج
ولنا مفاخر في القديم شهيرة كالصبح في وضح وفي ابلاج
منا التبابعـــــة الذين ببابهم كانت تنيـخ جباة كل خراج
ولامرهم كانت تدين ممالك الـ ـدنيا بـــــلا جبر ولا احراج
من يقتدح زندا فان زنادهم في الجود وارية بلا اخراج

ابوابهم مفتوحـــة لضيوفهم ابداً بلا قفـــل ولا مزلاج

وكان السلطان ابو عنان المريني كثير العناية بحفظ شعره ورواية اخباره، وحدث عنه يوما فقال :

اخبرني شيخنا الامام العالم العلامة وحيد زمانه ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني فقال : لما توجه الشيخ الصالـــح الشريف ابو اسحاق التنسي التلمساني الى بلاد المشرق ، اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم ابي عبدالله بن خميس ؟.. وجعل يحليه بأحسن الاوصاف ويطنب في ذكر فضله،فبقي الشيخ ابو اسحاق متعجبا !... وقال : من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلى ولا اعرفـــه ببلده ؟... فقال له ابن دقيق العيد هو القائل :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها من ليس يأمل ان يمر ببالها

وتلا عليه القصيدة بطولها ، وهي تحتوي على ست واربعين بيتا ؛ قـــال فقلت له ان هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم ، انما هو عندناشاعر فقط ؛ فقال له : انـــكم لم تنصفوه ، وانه لحقيق بما وصفناه به . قـــال ابو عنان واخبرنا شيخنا الآبلي المذكور ان ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت تعلو موضع جلوسه للمطالعة وكان يخرجهـــا من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد تعرفت انه لما وصلت هذه القصيدة اليه لم يقرأها حتى قام اجلالا لها !...

قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم الحضرمي في جزء سمـــاه « الدر النفيس » في شعر ابن خميس » وعرف به صدر الجزء .

عاش ابن خميس فقيراً بئيساً ، وهو يعزو فقره وبؤسه الى مهنة الأدب فيقول : يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضدان علم ومال ؟ .

وكانت وفاته رحمه الله اغتيالاً بغرناطة ضحوة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ

(١٤ مارس ١٣٠٩ م)طعنه الرئيس علي بن نصر الشهير بالابكم فأصماه وذلك اثر الانقلاب الحكومي الذي اودي بصديق ابن خميس الوزير ابن الحكيم .

ومن غريب الاتفاق وعجائب الصدف ما يقال ان الوزير المذكور كان قد اقترح على ابن خميس نظم قصيدة هائية ، فنظم مطلعها .

لمن المنازل لا يجيب هواهـــا   محيت معالمها وصم صداها ! ...

وكان ذلك آخر شهر رمضان ، وما كادت شمس يوم العيد تذكو وتحسر قناعها الا وهما مقتولين معاً رحمهما الله ؛ فكان هذا البيت آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد اشار معناه الى منعاه !! .

ابو الروح عيسى المنكلاتي

٧٤٣ هـ — ١٣٤٢ م

هو ابو الروح عيسى بن مسعود بن المنصور بن يحيى المنكلاتي الحميري الزواوي كانت له اليد الطولى في علم الفقه والأصول والعربية متفنناً في العلوم ولد بزواوة سنة ٦٦٤ هـ — ١٣٦٥ م وتفقـه ببجاية على ابي يوسف يعقوب الزواوي يحكى انه حفظ مختصر ابن الحاجب الفرعي في مدة ثلاثـــة أشهر ونصف ثم عرضه وحفظ موطأ مالك . وقدم الاسكندرية فتفقه بها وارتحل الى قابس فأقام بها مدة وولي القضاء بها ثم انتقل الى ثغر الأسكندرية فمكث بها مدة يسيرة ثم ارتحل عنها الى القاهرة مشتغلا بتدريس العلوم بالأزهر وسمع كتب الحديث الستة وحدث عن شرف الدين الدمياطي وولى نيابـــة القضاء بدمشق نحو سنتين ثم انتقل الى الديار المصرية فولى نيابة القضاء بها عن قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف المالكي ثم من بعده عن قاضي القضاة تقي الدين الأفنائي المالكي ثم ولي تدريس بزاوية المالكية بمصر ، قال ابن فرحون : وكان اماماً في الفقه واليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية .

وترك الشيخ ولاية الحكم منصرفاً الى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلداً وسماه اكمال الاكمال ، وجمع فيه اقوال المازري والقاضي عياض والنووي واتى فيه بفوائد جليلة من كلام ابن عبدالبر والباجي وغيرهما . وشرح مختصر ابي عمرو بن الحاجب في الفقه فوصل فيه الى كتاب الصيد في سبعة مجلدات واختصر جامع ابن يونس شرح المدونة ، وصنف في الوثائق والمناسك وفي علم المساحة ومناقب مالك ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق ،وله في التاريخ كتاب حافل في نحو عشرة مجلدات بيض منه نصفه،ذكر فيه من أول بدء الدنيا وقصص الانبياء واخبار الامم من آدم الى زمانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٣ هـ - ١٣٤٢م .

ابو عثمان سعيد العقباني

٨١١ هـ - ١٤٠٨ م

ان من اشهر الاسر الماجدة والبيوتات النابهة في العلم والرئاسة بالجزائر بيت العقباني بتلمسان فهو صنو بيت آل ابن مرزوق وابناء الامام بتلمسان ، والهند الى بجاية والمانجلاتي – او المنكلاتي- بزواوة وابن باديس في قسنطينة فاهلها هم جلة الوقت واقطاب الزمان في ذلك العصر .

وكان فيمن يشار اليه من بيت العقباني هو مترجمنا امام المغرب العلامة ابو عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني – وعقبان قرية بالاندلس اصله منها : تجيبي النسب – ترجم له ابن فرحون فقال : هو أمام عالم فاضل فقيه في مذهب مالك متفنن في العلوم وصدارته في العلم مشهورة .

ولد العقباني بتلمسان سنة ٧٢٠ هـ - ١٣٢٠ م فاخذ علمه عن ولدي الامام الاخوين ابي زيد وابي موسي وتفقه بهما، واخذ الاصول عن ابي عبدالله الآبلي وغيره ، واخذ الفرائض عن الحافظ السطي ، وروى البخاري والمدونة عن السلطان ابي عنان المريني سنده عزالدين بن جماعة وغيره .

تولى التدريس بالمدرسة التاشفينية بتلمسان كما انه تولى قضاء الجماعة بعدة مدن منها بجاية وتلمسان وسلا ومراكش، وذكرها ابن فرحون فقال: ان له في ولاية القضاء مدة تزيد على اربعين سنة وكان معاصراً له، واثنى عليه ابن صاعد التلمساني فقال: كان فقيهاً علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان، ولغزارة علمه كان يقارن بأبي سعيد بن لب، والشاطبي والقبـاب وابن عرفة، والشريف التلمساني، وكان ينعت برئيس العلماء العقلاء.

وكتب في فنون شتى شروحاً وتفاسير منها تفسير لسورة الفاتحة وآخر لسورتي الانعام والفتح اتى فيه بفوائد جليلة، وشرح لكتاب ابن الحاجب في الاصول وشرح الجمـل للخونجي في المنطق، وشرح التخليص لابن البناء وشرح قصيدة ابن الياسمين في علم الجبر والمقابلة، وشرح العقيدة البرهانية في اصول الدين وشرح البردة، وشرح الحوفي في الفرائض، قال ابن فرحون: لم يؤلف عليه مثله.

وكان فيمن اخذ عنه وتخرج على يده جماعة من اعيـان العلماء منهم ولده العلامة الامـام المجتهد قاضي الجماعة بتلمسان ابو الفضل قاسم بن سعيد وابو الفضل بن الامـام وابراهيم المصمودي، وابو يحيى الشريف وابو العباس بن زاغو في آخرين... وتوفي ابو عثمان العقباني بتلمسان سنة ٨١١ هـ - ١٤٠٨م فخلفه على قضاء الجماعة بها ولده ابو الفضل قاسم المتوفي سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠م وكان له احفاد كلهم اشتهروا بالعلم والادب، منهم احمـد بن قاسم العقباني المتوفي سنة ٨٤٠ هـ - ١٣٣٧ م ومحمد بن احمد بن قاسم المتوفي سنة ٨٧١هـ - ١٤٦٦ م وابو سالم ابراهيم بن قاسم المتوفي سنة ٨٨٠ هـ ١٤٧٥ م وعبد الواحد ابن احمد بن قاسم المتوفي سنة ٨٩٦ هـ - ١٤٩١م تغمدهم الله برحمته.

جدول تاريخي

٦٣٣ – ٧٣٧ ﻫ – ١٢٣٦ – ١٣٣٧ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الأحداث
٦٣٣ ﻫ – ١٢٣٦ م	تأسيس دولة بني عبد الواد الزيانية .
٦٤٠ ﻫ – ١٢٤٢ م	اغارة الحفصيين على تلمسان ومصالحتهم لبني زيان .
٦٤٥ ﻫ – ١٢٤٧ م	انهزام الموحدين في زحفهم الى تلمسان .
٦٥٥ ﻫ – ١٢٥٧ م	انهزام يغمراسن بن زيان في وقعة ابي سليط .
٦٥٦ ﻫ – ١٢٥٨ م	خيبة يغمراسن في نهضته الى المغرب الاقصى .
٦٦٢ ﻫ – ١٢٦٤ م	حادثة غدر فرقة الجيش الافرنجي بالسلطان ومبايعة اهل سجلماسة .
٦٦٦ ﻫ – ١٢٦٧ م	انهزام بني عبد الواد في وقعة وادي تلاغ .
٦٦٨ ﻫ – ١٢٧٠ م	فتح مدينة مليانة عاصمة مغراوة .
٦٧٠ ﻫ – ١٢٧١ م	هزيمة وادي اسلي .
٦٨١ ﻫ – ١٢٨٣ م	وفاة السلطان يغمراسن وولاية ابنه ابي سعيد عثمان .
٦٨٦ ﻫ – ١٢٨٧ م	غزو بجاية وفتح مازونة وتفرجينت .
٦٨٧ ﻫ – ١٢٨٨ م	الاستيلاء على جبال وانشريس .
٦٨٨ ﻫ – ١٢٨٩ م	فتح مدينة تنس والمدية .
٦٨٩ ﻫ – ١٢٩٠ م	ابتداء حصار المرينيين لتلمسان .
٦٩٣ ﻫ – ١٢٩٤ م	حصار الزيانيين لمدينة برشك وفتحها .
٦٩٨ ﻫ – ١٢٩٩ م	محاصرة بني مرين لتلمسان واشادة « المنصورة » .
٧٠٣ ﻫ – ١٣٠٤ م	وفاة السلطان ابي سعيد عثمان وولاية ولده ابي زيان محمد الأول .

٧٠٦ هـ – ١٣٠٨ م	اغتيال السلطان ابي يعقوب المريني وارتفاع الحصار عن مدينة تلمسان؛ ومناهضة القبائل المنشقة؛ ووفاة السلطان ابي زيان محمد الاول وولاية اخيه ابي حمو الاول
٧٠٧هـ – ١٣٠٨ م	طمس معالم مدينة « المنصورة »
٧١٠ هـ ١٣١٠ م	فتح اعمال الزاب وتخطيط مدينة اصفون –ازفون– بالساحل الشرقي من مدينة دلس
٧١٢ هـ – ١٣١٢ م	امتلاك تدلس –دلس– ومدينة الجزائر وسهل شلف
٧١٤ هـ – ١٣١٤ م	رد هجمات بني مرين عن الجزائر وبناء قصر حمو موسى – عمي موسى –بالجنوب الشرقي من عين كرمان؛ وانشاء مدينة آقبو
٧١٧ هـ – ١٣١٧ م	امتلاك مدينتي المدية ومليانة
٧١٨ هـ - ١٣١٨ م	مصرع السلطان ابي حمو الاول وولاية ولده ابي تاشفين الاول
٧١٩ هـ – ١٣١٩ م	القضاء على قبيلة مغراوة
٧٢٠ هـ -- ١٣٢٠ م	طلائع بني زيان بأعمال قسنطينة
٧٢٩ هـ – ١٣٢٨ م	الاستيلاء على شرقي القطر الجزائري وتونس
٧٣٧ هـ – ١٣٣٧ م	انتهاء الدور الزياني الاول باستيلاء السلطان ابي الحسن المريني على تلمسان

سيادة بني مرين

٧٣٧ — ٧٦٠ هـ — ١٣٣٧ — ١٣٥٩ م

اعاد المرينيون في هذه المرة كرتهم على شرقي المغرب الاسلامي كله ، واستولوا عليه برهة من الزمن ولم تطل ايامهم بالمغرب الاوسط اكثر من ثلاث وعشرين سنة ؛ ولقد حقق المؤرخون ان استيلاءهم في هذه المرة كان في صالح الوطن الجزائري ماديا وادبياً وانهم لم يعملوا يومئذ على تقويض كيان الشخصية الجزائرية كما فعلوا اول مرة بل حافظوا على جميع مظاهرها ونظمها ومقوماتها وسائر مراسيم الدولة الناشئة بها مع مسايرة رؤساء القبائل والمشيخة غير ان ذلك كله لم يكن ليرضي دولة بني عبد الواد الجزائرية الحرة الابية، فسكنت مرغمة وكلما سنحت لها فرصة المقاومة نشطت لها.

نهضة بني عبد الواد

ولما استقر شأن المغربين الاوسط والاقصى لبني مرين حاولوا فتح القطر التونسي ليتم لهم الاستيلاء على المغرب العربي بتمامه ؛ فنهض لذلك سلطانهم ابو الحسن المريني في صفر سنة ٧٤٨ هـ (ماي ١٣٤٧م) واتخذ معه جنوداً من بني عبد الواد ومغراوة وتوجين ، فاحتل بهم قسنطينة واعمالها، وبينا هو سائر في طريقه الى تونس اذ انعزلت عنه جيوش المغرب الاوسط وتركته في قومه ذاهباً الى الحرب فانهزم في وقعة القيروان المشهورة في المحرم ٧٤٩ هـ (افريل

١٣٤٨م) فاستثمر بنو عبد الواد يومئـــذ انهزام اعدائهم بني مرين وبادروا بمبايعة ابي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، واهدروا كل ما كان بينهم وبين مغراوة وتوجين من دفائن الضغائن والاحقاد وارتحلوا باجمعهم نحو اوطانهم بالمغرب الاوسط ، وكانوا يومئـــذ في نحو الخمسمائة فارس ، ولقد انضم اليهم في مرهم على بجاية نحو هذا العدد نفسه من الناقمين على سياسة مرين ؛ ورغم كل ما بذله يومئذ المرينيون في رد هؤلاء المنشقين الى الطاعـــة فانهم لم ينجحوا في ذلك ، واستمرت الحملة الجزائرية سائرة في طريقها موفقة منتصرة الى ان بلغت سهول شلف فذهب المغراويون الى اوطانهم ، وانسلت عنهم توجين كذلك منحازة الى مراكزها ، وانفرد بنو عبد الواد بحمل راية المقاومة فشنوا غارتهم الشعواء على تلمسان المحتلة ففتحوها عشية يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الثانية - ١٨ سبتمبر - من نفس هذه السنة ، وقبضوا على عاملها المريني ابن الجرار المستبد فأودع السجن الى أن مات في رمضان من سنته ، وتوزع عندئذ الاخوان : ابو سعيد وابو ثابت السلطة بينهما واقتسما ادارة الحكومة العليا ، فاستقل ابو سعيد بالادارة المدنيـــة ، وجعل لاخيه النفوذ المطلق في ادارته العسكرية .

وسرعان ما نهض ابو ثابت مضطلعاً بمحاربة الثوار ومقاومة المنشقين عن الدولة من قصائل مغراوة وغيرها ، فاستعاد بذلك الى حكومته كلا من مدينة وهران وندرومة ومازونة ومواطن مغراوة وعاصمتهم مليانة ، والمدية وتنس وبرشك وشرشال والجزائر وتدلس ـ دلس ـ ؛ وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حصين فبعث ببيعتهـــا الى اخيه السلطان ابي سعيد وكانت هنالك حروب طاحنة بنواحي وادي شلف ووادي رهيو والمطاف وفحص حمزة ، وطالما حاولت حكومة مرين اعتراض بني عبد الواد ملحة في دفع صولتهم عن مغراوة فلم تنجح .

وما كاد يطمئن بنو عبد الواد الى هذا النصر الباهر حتى فاجأهم السلطان ابو عنان فارس المريني آخر شهر ربيع الثاني ٧٥٣ ﻫ (١٤ جوان ١٣٥٢م)

بحملة عنيفة كان النصر فيها لبني مرين بوقعة وادي القصب المشهورة وظفر القوم يومئذ بالامير ابي سعيد الزياني فاعتقلوه ثم بعد اسبوع قتلوه ، وحينئذ انتقل الميدان الحربي الى سهول متيجة واحواز الجزائر ، ثم عادت الحرب الى سهل شلف، وهنالك انكسرت جيوش الامير ابي ثابت الزياني فخرج متنكراً الى مدينة الجزائر ثم حل ببجاية ، وكان بصحبته يومئذ جماعة منهم ابو زيان ولد اخيه ابي سعيد ، وموسى بن يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ، فاعترضهم قوم من زواوة فانزلوهم عن خيلهم وانتهبوا اسلابهم وتركوهم حفاة عراة يسعون على الاقدام ، ويومئذ ظفر بهم اشياع بني مرين ، فاعتقلوهم وجاءوا بالامير ابي ثابت ووزيره يحيى فأسلموهما الى سلطان بني مرين وكان وقتئذ حالا بالمدية فنقلها الى تلمسان حيث قتلا معاً هنالك ، وبقي ابو زيان في السجن .

انبعاث الدولة الزيانية :

رغم كل ما تقدم ذكره من الحروب والوقائع والانهزامات التي توالت على هذه الدولة الجزائرية فانه لم يقع خور ولا فشل في صفوف ابنائها البررة الذين قد وطدوا عزمهم على استرجاع سيادتهم بهذه البلاد وفكها من ايدي مرين ؛ وكان استرجاع هذا المجد على يد احد افراد الاسرة الزيانية ، وهو البطل المغوار ابو حمو موسى بن يوسف « الثاني » .

كان ابو حمو هذا ملتجئاً في تونس منذ ايام حرب ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) مستجيراً بالوزير الحاجب محمد بن تافراكين ؛ ولقد بعث ابو عنان المريني الى هذا الوزير في طلب ابي حمو فيمن معه من بطانته فأبى الوزير تسليمهم اليه وجاهر باجارتهم ، ولما وقعت تونس بيد الدولة المرينية في اواخر شعبان سنة ٧٥٨ هـ (اوط ١٣٥٧ م) خرج منها ابو حمو في زمرة سلطانها ابي أسحاق ابراهيم الثاني الملقب بالمستنصر الى ناحية الجريد ، ثم حل بكورة تبسة ، ومنها تحرك في طائفة من الدواودة وبني عامر الى انقاذ قسنطينة من الاحتلال المريني ؛ فامتنعت عنه ، فاحتل مدينة ميلة في شوال - سبتمبر -

ثم قرية « بني ورا » من كور بجاية ، ومن هنالك دعى ابو حمو من طرف قومه لانقاذ تلمسان والجلوس على عرش آبائه الزيانيين ، فتجهز لذلك مستعينا بالحفصيين مؤيداً بكل ما تدعو اليه الحرب من عتاد واسلحة وجند ، فسار اذ ذاك ابو حمو بين جبلي عياض واوراس مصحراً فنزل الزاب ثم ريغ وارجلان ثم غرب الى جبل مصاب ثم الى وادي زرقون فنزل وادي يسر ثم سلك قنطرة وهران وهو في ذلك كلــــه يشن غاراته على بني مرين وانصارهم ، وكانت له يومئذ وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه فبايعه العرب واذعنوا له واستولى حينئذ على نواحي تلمسان واطرافها ، وبعد ما نازل العاصمة الزيانية مدة ثلاثة ايام اقتحمها في جموعه صبيحة اليوم الرابع : الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٧٦٠ هـ (٧ فيفري ١٣٥٩م) وكان دخوله الى المدينة من باب كشوط ، فتلقاه الولاة والرؤساء بالبيعة والتسليم عليه بالامارة ؛ وفي وصف هذه الحرب يقول السلطان ابو حمو في قصيدته التي طالعها :

جرت ادمعي بين الرسوم الطواسم ... لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بهـــا مستقها بخطابهـــا ... واي خطاب للصلاد الصلادم

ومنها :

قطعت الفيافي بالقــلاص وانمــا ... تجاب الفــلى بالخف او بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا ... تسابق في البيدا ظليم النعــائم
مكحلة الاحقاد فيها هشاشة ... مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوى بها الفلى ... يرون المنايا بعض تلك الغنائم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد ... لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى ... تراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهـــال اغر محجل ... مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر ... ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش الوطيس تزاحم ... اسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة ... وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لارض الزاب تذرف ادمعي ... لتذكار اطلال الربوع الطواسم

وشبكت عشري فوق راسي فلم اجد بها مخبرا غــير الربى والمعالم
وجاوزتها ما بين هوج هجائن رقاق الهوادي عاليات القوائم
وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها ببلقعة قفر قفتها عزائـــي

والقصيدة طويلة تحتوي على اثنين وتسعين بيتا [1] !

ثم انه ليس عندنا ما نسجله من حوادث هذه السنة مما يستحق الذكر سوى ذلك الزلزال الهائل الذي حطم مدينة الجزائر في اليوم الثالث من شهر ربيع الثاني ٧٦٠ هـ (٤ مارس ١٣٥٩ م)

ولاية السلطان ابي حمو موسى «الثاني»

لقد بلغ من حرص السلطان أبي تاشفين الاول على الرآسة والملك والضن بتولي مقاليد الحكم على أقاربه وبني عمه ان كان اول عمل قام به يوم توليه الملك (٧١٨ هـ – ١٣١٨م) هو ابعاد جميع ذوي القربى عن حاضرته وسجن الاخرين من اسرته وعشيرته، وكان فيمن ابعد عمومته وذوو رحمه «ابويعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان» **فنفي الى الاندلس** : وهناك ولده (ابو حمو موسى) سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣م) وكانت نشأته بتلمسان آخذا بحظ وافر من علم وادب وسياسة وحزم وسداد وفروسية، وكان شاعراً مفلقاً له القصائد الغراء الطويلة، فما كانت تمر ليلة من ليالي المولدالنبوي الشريف الا ونظم فيها قصيدا جيدا في الموضوع؛ وهو مؤلف كتاب «واسطة السلوك في سياسة الملوك» لخص فيه كتاب «سلوان المطاع» لابن ظفر وألحقه بفوائد كثيرة من عنده واورد فيه من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم من مشايخ العرب وزعماء المغرب الخ.. صنفه برسم ولده وولي عهده ابي تاشفين عبد الرحمن. والكتاب مطبوع بتونس سنة ١٢٧٩ هـ وترجمه الى الاسبانية المستشرق ماريانو كاسبا Mariano Gaspa (١٨٩٩م) واكثر شعره يوجد بكتاب «راح الأرواح فيما قاله ابو حمو وقيل

---

(١) راجع بغية الرواد، ج ٢ ص ٣٠ – ٣٦

فيه من الأمداح ، لمحمد بن عبدالله التنس التلمساني (٨٩٩ هـ — ١٤٩٤ م)

بويع ابو حمو موسى الثاني بيعة الخلافة بتلمسان يوم ٨ ربيع الاول (٧٦٠ هـ - ٧ فيفري ١٣٥٩ م) . وكان رحمه الله شهما غيورا وبطلا باسلاً ذا كرم ومروءة وسياسة ودهاء ، لين العريكة كريم الاخلاق، يتبرع في كل سنة على اهل الاندلس بالمال والخيل والزرع الكثير ، ويرى ذلك كله من الجهاد في سبيل الله تحريراً لارض الاندلس من ازمة الاسبان وكانت له مواقف شريفة في انقاذ اهل الاندلس من الهلاك ؛ قال يحيى بن خلدون: «وفي هذه السنة — يعني سنة ٧٦٣ هـ - (١٣٦١) - وصل الى الباب العلي الفقيه الكاتب ابراهيم ابن الحاج رسولاً من الأندلس يطلب من امير المسلمين ايده الله ارفاد المسلمين بالاندلس واعانتهم على محاربة عدو الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك ، فوجه اليهم خمسين الف قدح من الزرع ، وثلاثة آلاف من الذهب للكراء عليه في البحر ، وكان ممن وصل معه الفقيه ابو محمد عبدالعزيز بن علي بن يشت فرفع لمولانا امير المسلمين ايده الله قصيدتين غراوين ...»[1]

وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب :

وقالوا الجزيرة قد صوحت فقلت غمام الندى ننتظر
اذا وكفت كف «موسى» بها غماماً يعود الجناب الخضر

والسلطان ابو حمو « الثاني » هذا هو الذي امر باطلاق لقب « الدولة الزيانية » على الحكومة بعد انبعاثها بدل النسبة العبد الواديـة ، التي كانت اشتهرت بها قبل ذلك ، واظهر ابهة الملك وصولة السلطان ، فاستعادت الدولة يومئذ شبابها ومجدها المفقود .

فتح مدينة وهران :

كان من اوليات اعمال الفتح التي قام بها ابو حمو الثاني ، ان بعث بوزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث الى فتح مدينة وهران وافتكاكها من بني

(١) انظر بغية الرواد ج ٢ ص ١١٤

مرين ، فغزاها الوزير المذكور يوم ٢٨ ربيع الاول ٧٦٠ ﻫ (٢٧ فيفريي ١٣٥٩) فانهزم ووقع اسيراً في قبضة قائد حامية مرين عامر بن ابراهيم بن ماسا ، فبعث به بحراً الى المغرب الاقصى ؛ وفي يوم الاثنين ١٣ شوال ٧٦٣ ﻫ (٧ سبتمبر ١٣٦١ م) اغـــار ابو حمو بنفسه على وهران فهدم اسوارها واستولى عليها .

مقاطعات ومشاغبات بني مرين :

ولما استوثق الامر للسلطان ابي حمو الثاني انضم اليه عبد الله بن مسلم الزردالي وهو من أحلاف بني عبد الواد وكان عامل بني مرين على درعـــة وجاءه بقومه وثروته واحلافه العرب طائعـــاً . فسخطت لذلك دولة مرين وكتب في شأنه السلطان ابو سالم المريني الى ابن حمو فـــلم يعد اليه جواباً فاخذت حكومة المغرب الاقصى في شن غاراتها المتكررة على مملكـــة بني زيان الجزائرية واثارت العرب والبربر على سياسة ابي حمو وبالغت في مقاومته فأوعزت الى من نازعه الملك من اسرته فانتصر عليه ابو حمو اولاً ثم قهرته مرين وهزمته منتصف سنة ٧٦١ ﻫ (١٣٦٠ م) واحتلت تلمسان يوم ثالث رجب – ٢٠ ماي – وخرج منهـــا يومئذ ابو حمو منتقماً لدولته وشرفه فخرب مواطن كثيرة وحطم امصاراً من بلاد المغرب الاقصى ، فأحفظ ذلك السلطان ابا سالم المريني فأسرع بتولية ابني زيان محمد الفتى او القبي ؟. ابن ابي سعيد عثمان بن ابي تاشفين الاول على تلمسان بعد ما امـــده بالاموال والعساكر والعتاد وأنزله بالقصر القديم من تلمسان [1] واقامه هنالك حاجزاً لابي حمو عن دخول تلمسان واغذ ابو سالم السير الى المغرب فأجفل أمامه ابو حمو متفلتاً الى تلمسان فاحتلها ويومئذ جاءته بيعة اهل الآفاق ، كأهل ندرومة ووجدة وهنين ومستغانم وتزغران الخ ... وبعث من هنالك في فتح وهران وتنس والمدية ومليانـــة ومتيجة ؛ وحوصرت الجزائر مرتين ، وفي الثالثة تنازل عنها بنو مرين فاحتلها أبو حمو في اليوم الثامن من ذي القعدة

(١) كان يوجد هذا القصر بالجانب الغربي للجامع الاعظم حيث توجد الثكنة العسكرية اليوم

٧٦٢ هـ (٧ سبتمبر ١٣٦١ م) ثم تصالح الفريقان ، وفي السنة بعدها استولى ابو حمو على بلاد زواوة وقبض على ولاتها ورؤساها الحفصيين ، ثم قاطعته مرين في وقعة وادي سيق في ذي الحجة ٧٦٥ هـ (اوط ١٣٦٤ م) فهزمها .

التنافس على العرش

كان ابو زيان الفتى المعروف ايضاً بالقبي وشرح معناه ابن خلدون فقال وهو عظيم الرأس — بن السلطان ابي سعيد عثمان الزياني في قبضة بني مرين منذ انتصارهم على بني عبد الواد في وقعة وادي القصب سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) المتقدمة الذكر ، وفي هذه اللحظة ظهرت حاجتهم اليه ، فزينوا له منافسة ابي حمو ومزاحمته في الاستيلاء على العرش الزياني وامدوه بالجندية واسباب الحرب وأنزلوه قصر ابيه بتلمسان فاندفع ابو زيان من المغرب الاقصى سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) مغيراً على احواز ملوية ، ثم حل بنواحي تلمسان وانحاء البطحاء وتعددت المعارك والوقائع هنالك بين الطرفين كان الظفر فيها لابي حمو وخاب ابو زيان فانحاز الى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وخابت معه آمال بني مرين ثم عقب ابو حمو على خيبة خصومه هؤلاء بالاغارة على المغرب الاقصى فأثخن في اعدائه هنالك قتلا واسراً وعظمت نكايته في التخوم وثقلت وطأته على اهلها فصالحوه وانعقدت الهدنة بين الجانبين ؛ ثم كانت بعد ذلك حوادث وفتن اثارها ابو زيان على ابي حمو بدون طائل .

وفي ربيع الثاني سنة ٧٦٦ هـ (جانفيي ١٣٦٥ م) كان حادث الزلزال الهائل بمدينة الجزائر فسقط من وقعه كثير من دور المدينة وقصورها ووقع من جرائه خراب عظيم ورض وتحطيم مات تحته عدد وافر من الناس .

وقعة بجاية وتبعاتها

بينا السلطان أبو حمو الثاني في يوم من أيام مسرته لاه باستعراض الجيش الزياني إذ وافاه الخبر بموت صهره الامير أبي عبد الله محمد بن يحيى الحفصي

المقتول بيد ابن عمه أبي العباس أحمد المتغلب على بجايـة في تاسع عشر شعبان ٧٦٧ هـ (فاتح ماي ١٣٦٦ م)؛ فتظاهر ابو حمو بامتعاضه من ذلك مسراً حسواً في ارتغاء - وجمع حوله طوائف من زغبة العامريين والعطاف الخ ... فزحف بهم في ذي الحجة - اوط - الى بجاية فنازلها أيامـــاً مشدداً عليها الحصار ، وهنالك اتصلت به وفود بسكرة والزاب فبايعوه، ويومئذاستنهض أبو العباس الحفصي معتقله أبا زيان بن عثمان لمقاومة أبي حمو الثاني ، وجعـل معه قائد العسكر الحفصي بشيراً ، وسرعان ما احتدمت الحرب واشتبكت المعارك وانتشر الإرجـــاف في معسكر ابي حمو بموت السلطان فأجفلت جنوده وذعر لذلك أبو حمو الثاني ونجا بنفسه بعد غصة الريق ملتجئاً الى مدينة الجزائر وهو لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول ، ومنهـا لحق بتلمسان ، وخسر من الأثقال والاحمال والعيال والكراع والسلاح ما لا يحيط به الوصف ، وفي اثناء ذلك كان استيلاء أبي زيان على المدية ومليانةوالجزائر، ومنحه يومئذ سالم بن ابراهيم رئيس الثعالبـــة سهول متيجة ؛ وذلك لوحشة كانت بينه وبين ابي حمو الثاني ، وتألب يومئذ كل من أهالي هذه البلاد ضد أبي حمو واشترك في هذه الحرب يومئذ أغلب القبائل والبطون الجزائرية ، وكانوا في ذلك فريقان : فريق مع أبي زيان وفريق مع ابي حمو ، وكانت الحرب بينهـــما سجالا الى أن ظفر السلطان ابو حمو بالثائر سالم بن ابراهيم المستبد بمتيجة والجزائر فقتله ونصب شلوه وجاء بولده ابي تاشفينالذي كان والياً على لمدية وما والاها من بلاد حصين فأبعده عن العرب المجلين في الفق وولاه ولاية وهران وأعمالها وأنزل معه هنالك بعض وزرائه فجعلهم عينـاً عليه كما انه عقد لابنه المنتصر على ولاية مليانة واعمالها وانفذه إليها ثم كانت وهران والجزائر كلتاهما لولده ابي تاشفين وذلك نزولاً عند إرادته .

اعتداء قراصنة الافرنج

كانت القرصنة العالمية يومئذ منتشرة بكامل طول هذا البحر وعرضه كما هي كذلك في غيره من البحار كما هو معروف ، وكان من اشهر الامم يومئذ

في ذلك واسبقهم الى هذا الميدان هم الاسبان والبرتغال والانكليز والفرنسيون؛ فاتفق ان كان هنالك مركب أندلسي كان يحمل هدايا وتحفاً نفيسة بعث بها أحد ملوك بني الاحمر النصريين الى ابي حمو الثاني ، كما هي العادة جارية بين ملوك الجزائر والاندلس ؛ وبينما المركب سائراً في طريقه الى مرسى هنين إذ انقضّ عليـــه قراصنة الافرنج في الثامن من شهر ربيع الثاني ٧٦٨ هـ (١٦ سبتمبر ١٣٦٦ م) فأسروه ولم يسمحوا بمضيه الى هدفه حتى افتداه منهـم السلطان ابو حمو بأمواله الخاصة نقداً .

حصار مدينة الجزائر

نهض السلطان ابو حمو في احلافه من العرب والبربر الى متيجة لمباغتـة الثعالبة حلفاء مرين بالجزائر فدحرهم وأخذ بخنق مدينة الجزائر فامتنعت عليه، فعاد الى حاضرته ومعه الثعالبة آخذاً بهم طريق برشك وشرشال حتى بلغ بهم وادي شلف وهناك ألزمهم باستخلاص ما تخلفوا عنه في السنين الماضية من المغرم ، ثم اتصـل بحاضرة تلمسان وامر الجيش بالعودة الى غزو الجزائر وحصارها من جديد براً وبحراً ، وكانت رئاستهـا يومئذ لسالم بن ابراهيم ابن نصر شيخ الثعالبة الذي كان يراوغ في سياسته ، فتـارة نراه يبايع لبني مرين ، وتارة يظهر في جانب بني زياد ، وطوراً نراه مـع بني ابي حفص فحاصره ابو حمو بجبال متيجة اياماً قلائل واستنزله على عهده ثم أحضره وتقبض عليه كما يقول ابن خلدون فقاده الى تلمسان وقضى عليه (٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م) وبذلك انتهت رئاسة الثعالبة على متيجة [1] .

الزحف المريني على تلمسان

كنا ألمنا فيما تقـدم قريباً الى التجاء الزردالي مع عرب المعقل من سكان المغرب الاقصى الى حاضرة تلمسان ، محتمين بسلطانهـا ابي حمو ، فأعطاهم

«١» ابن خلدون ج ٨ ص ٦٠ - ٦٥ ط برلاق ع ١٣٨ م

عهده وذمته وذلك لما وجد فيهم من العون والاستظهـــار بهم على أعدائه وخصومه المرينيين ، فكان ذلك مما اسخط حكومة فاس ؛ وكان ممـــا زاد في اثارة غضبها على هذه الدولة هو ما قام به ابو حمو الثاني من اجـــلاء القبائل المخالفة عليه كسويد وبني يعقوب من تلمسان الى المغرب الاقصى ؛ فنهض حينئذ السلطان ابو فارس عبدالعزيز المريني مطالباً حكومة تلمسان بارجاع عرب المعقل وردهم اليه ، فامتنع ابو حمو الثاني ورفض طلبـــه ، فتحرك ابو فارس من فاس مستنهضـــاً معه جميع اهل المغرب الاقصى من سوس الى صحراء درعة والى سبتة ، وجاء في جحفل جرار فاحتل تلمسان يوم عاشوراء الاحد ٧٧٢هـ (اوط ١٣٧٠ م) ، وخرج منها ابو حمو في قومه مستجيشاً احلافه يتقرى المدن والقرى الجزائرية ؛ وعمت الفتنة يومئذ جميع بلاد المغرب الاوسط – الجزائر – وكان فيمن شارك في هذه الحرب مشاركة فعالة الامام ابن خلدون نفسه فانه كان يعمل الى جانب بني مرين ضد ابي حمو واستمرت الحرب متأججة اكثر من عامين وظل ابو حمو متنقلا متشرداً في في بلاد الصحراء والواحات الجزائرية الى وفاة ابي فارس المريني يوم ٢٢ ربيع الثاني ٧٧٤ هـ (اكتوبر ١٣٧٢ م) فاهتبل اهل تلمسان هذه الفرصة السانحة وانتقضوا على بني مرين وخفوا الى الانقضاض على السلطة المرينيـــة المحتلة ، وكان قائدهم في ذلك عطية بنموسى الركاب مولى ابي حمو ، فبادر السلطان يومئذ الى العودة الى عاصمته تلمسان فدخلها يوم ٢٤ جمادى الاولى – نوفمبر – من هذه السنة واقتعد أريكته وكانت احلى الغرائب ، كما قال ابن خلدون ، وشرع اذ ذاك في القضاء على رؤوس الفتنة والمشاغبين عليه من عصاة القبائل فقضى وطره منهم ؛ ويومئذ اشرك معه ولده ابا تاشفين في الحكم وجعل اليه النظر في كلتا ناحيتي الدولة السياسية والحربية وعقد له بولاية العهد بعده ، وانزله في مدينة الجزائر وذلك في منسلخ شهر شعبان ٧٧٦ هـ (فيفري ١٣٧٥ م) .

مبايعة تدلس : والمجاعة العامة

استمرت مدينة تدلس – دلس – طيلة هذه المدة المتقدمة خاضعة لحكم الحفصيين الى ان استتب الامر الى ابي حمو الثاني وقويت شوكته فتزل له عنها صاحبها الامير ابو عبدالله الحفصي يوم ٢٦ شعبان ٧٧٦ ﻫ (٣١ جانفيى ١٣٧٥ م) وبايعه اهلها بالبيعة العامة في تاسع رمضان (١١ فيفريى) فعفا عنهم يومئذ وصفح .

ويذكر المؤرخون ان هناك ريحا عاصفاً هوجاء عجت في هذه السنة على المغرب الاوسط فأهلكت الحرث والنسل واقتلعت كل شيء فانتشرت المجاعة بالجزائر حتى اكل الناس بعضهم بعضاً!..ويومئذ تصدق السلطان بنصف جباية خزينة الدولة على الرعية وفتح ابواب خزائنه الخاصة للمحاويج ؛ وأمر بجمع الفقراء والمساكين ومن لا مأوى لهم من الناس بالمارستانات والمحلات العمومية وقدر لهم فيها ارزاقهم حتى انفرج عنهم الكرب وارتفعت المسغبة .

وفى فاتح المحرم من سنة ٧٧٦ ﻫ (١٣٨٢ م) استصرخ الوزير ابي الخطيب بالسلطان ابي حمو حينما اشتدت مخافته من بني مرين وبعث له بقصيدة غراء ميمية الروي ، والسلطان إذ ذاك محاصر لمغراوة ، غير ان الامتحان عاجل ابن الخطيب قبل ان يتفرغ ابو حمو للشفاعة فيه لدى السلطان الغني بالله محمد ابن نصر .

وفي سنة ٧٨٤ ﻫ (١٣٨٢ م) بعث السلطان ابو حمو بولده ابي تاشفين لنصرة الامير عبد الرحمن بن يفلوسن وتجدته بالمغرب الاقصى ضد سلطان مرين ابي العباس احمد بن ابي سالم ، ثم لحق ولده بنفسه فخاب ، ولم يمكث إلا قليلا حتى فاجأه السلطان المريني بغزو تلسان فاحتلها وخرج منها ابوحمو لاجئاً الى معقل تاجحموت فلحق به ولده المنتصر وكان بمليانة ، ولم يعد ابو حمو الى دار ملكه حتى غادرها ابو العباس الى عاصمة فاس .

عصيان ابي تاشفين واستشهاد ابي حمو «الثاني»

لم تفتأ مرين عن العمل باجتهاد في تفريق كلمة آل زيان وتشتيت مملكتهم الجزائرية وذلك ببث بذور الشقاق والنزاع بين رؤساء الدولة وزعمائهـا ، وبالغت في التدخل في شؤون المملكة حتى كادت ان تحول بين المرء وقلبه ، وسعت في فصل ولي عهد المملكة ابي تاشفين عن والده السلطان ابي حمو الثاني وفعلاً انتقض على أبيه آخر سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) وحاربه وكان من قبل عمل على اغتيال كاتب سر أبيه وموضع ثقته يحيى بن خلدون فاضطر ابو حمو يومئذ الى مغادرة عاصمته تلمسان والانتقال بعرشه الى مدينة الجزائر فاعترضه ولده وولي عهده ابو تاشفين فرده الى تلمسان ثم خلعه واستخلص ما كان معه من الاموال والذخيرة . وألقى به في سجن وهران ؛ وخرج في طلب اخوته فر على مليانة وبها اخوه المنتصر فامتلكها فامتنع عنه بعضهـم متحصنين بجبل تيطري وبقي آخرون بتلمسان ؛ فبعث من مقره هناك الى من كفاه قتلهم ؛ واستمر على سيره مجداً في البحث عن اخوته ومحاربة من عاداه .

وبينما ابو تاشفين منهمكاً في استقصاء اثر خصومه وتقتيل اخوته وغيرهم بنواحي تيطري اذا بوالده السلطان ابي حمو ينجو من معتقله بحيلة ويتخلص من سجنه فيتدلى منه بعمامته ، فاجتمعت الامة عليه يومئذ واحاط به انصاره فبوأوه عرشه المغصوب ، وهناك ادركه حفيده ابو زيان بن ابي تاشفين ثم اجفل امامه ملتحقاً بأبيه ، وما كاد ابو حمو يتصل بعاصمة ملكه حتى كانت خراباً يباباً .

واسرع ابو تاشفين من مقامه بتيطري واغذ سيره الى تلمسان فاقتحمهـا والتجأ والده الى مأذنة المسجد معتصماً بهـا ، فاستنزله ولده المذكور عن العرش متجافياً عن قتله ، فأظهر السلطان ابو حمو يومئذ إطاعته لولده وذكر له رغبته في الحج فأسعفه ولده ابو تاشفين تفادياً منه واركبه السفين مع بعض تجار النصارى القبطانيين المسافرين من وهران الى الاسكندرية واوصاهم به ، فلما حاذى المركب مرسي بجاية لاطف ابو حمو اولئك النصارى في نزوله

بفرضة المدينة فاستأذنوا له امير بجاية في ذلك فأذن له فنزل بها ومنها سار الى الجزائر ثم الى متيجة آخــذاً في تعبئه الجيوش استمداداً لمنازلة تلمسان فاستعصت عليه فخرج الى الصحراء ثم غزاها من جهة المغرب فاحتلها فيرجب عام ٧٩٠ هـ – ١٣٨٨ م ويومئذ خرج ابو تاشفين من تلمسان ملتحقــاً بفاس مستجيشاً دولة بني مرين فانطلقت معه الجنود وكان اللقــاء بينه وبين والده ابو حمو في ناحية « الغيران » بجبل بني ورنيد – وراء جبل بني راشد – المطل على تلمسان وهناك ذهب ابو حمو ضحية كبوة فرسه فسقط صريعاً على يد بعض من عرفه من فرسان مرين وذلك غرة شهر ذي الحجة ٧٩١ هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩ م) ودفن بالقصر القديم وعمره يومئذ ٦٨ سنة وكانت ايام ملكه منها ٣١ سنة .

واستمرت الجيوش المرينية محاصرة لتلمسان محيطة بها الى ان استلمت من أبي تاشفين ما اشترط عليه من الاموال ثم عادت الى مراكزها بالمغرب الأقصى واقام ابو تاشفين بتلمسان مقيما الدعوة للسلطان ابي العباس المريني يخطب باسمه على منابر تلمسان واعمالها ويبعث اليه بالضريبة كل سنة حسب الاتفاق المبرم بين الحكومتين [1] .

ولاية السلطان ابي تاشفين عبد الرحمن « الثاني »

هو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن « الثاني » بن ابي حمو موسى« الثاني» ولد بندرومة في شهر ربيع الاول سنة ٧٥٢ هـ (افريل ١٣٥١ م) تولىولاية عهد المملكة آخر شعبان ٧٧٦ هـ (فيفريي ١٣٧٢ م) وامضى غالب ايامــه الاولى في خدمة دولة بني مرين الى ان قضى على والده غرة ذي الحجة٧٩١هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩) فتولى مكانه ، وضرب السكة باسمه تحت رعاية بني مرين وحمايتهم ؛ وكان يدعو اليهم ويخطب باسمهم ويدفع لهم الاتاوة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٦٢ ط بولاق ١٣٨٤ هـ

محاربة الاخوين ابي زيان وابي تاشفين

كان ابو زيان والياً من قبل والده ابي حمو الثاني على مدينة الجزائر فلما سقط والده في وقعة « الغيران » نهض مطالباً بثأر أبيه وملكه منتقماً من اخيه مستصرخاً بأحياء حصين من العرب فاجابه منهم طوائف تقدم بها الى حصار تلمسان في رجب ٧٩٢ هـ (جوان ١٣٩٠ م) وما كادت تبلغ جموع ابي زيان من العرب الى تلمسان حتى غمرها ابو تاشفين بأمواله فتفرقت يومئذ عن ابي زيان وتركته في فئة قليلة فخرج اليه حينئذ ابو تاشفين فهزمه في شعبان – جوليط – من سنته ، فالتجأ أبو زيان عندئذ الى الصحراء مستألفاً احياء المعقل من العرب ؛ ثم عاد الى حصار تلمسان في شوال – سبتمبر – فردته عنها جنود مرين فاجفل الى الصحراء للمرة الثانية ثم اجمع رأيه على استصراخ مرين ايضاً فوفد على ملك فاس فتلقاه بكل تقدير ووعده بالمؤازرة والانتصار له من اخيه ، فأقام ابو زيان هنالك ينتظر الوفاء من حكومة بني مرين الى مهلك اخيه ابي تاشفين (٧٩٥ هـ – ١٣٩٣ م) وذكر الباحث المستشرق الفرنسي بروسلارد Brosselard قبر هذا الملك وقال انه عثر عليه بأقبية قلعة تلمسان القديمة[١].

تنكر مرين لأبي تاشفين

استمر أبو زيان مقيماً بفاس منتظراً من حكومتها تنفيذ وعودها في نصره على أخيه أبي تاشفين ، وطال صبره بقدر ما طالت هنالك اقامته . ولم يلبث أن حدث ما غير نظرة حكومة فاس الى ابي تاشفين فانقلبت عليه وأظهرت سخطها بتجهيز حملة عنيفة وجهتها الى تلمسان وجعلت قيادتها لأبي زيان ، وما كادت تبلغ هذه الى تازا حتى توفي السلطان ابو تاشفين أثر مرض ملازم في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني وقيل في رمضان سنة ٧٩٥ هـ (آخر فيفري ١٣٩٣ م) فبادر يومئذ وزيره احمد بن العز بمبايعة صبي من أبناء

(١) M. C. Brosselard, mémoire epigraphique et historique sur les tombeaux des Emirs Beni Zeiyan 12 - 73 Paris 1876

السلطان الهالك وقدم نفسه كوصي على العرش واخذ في تدبير شؤون الدولة والتصرف في مهام السلطنة الزيانيـة مباشرة ، فغضب لذلك والي الجزائر يوسف بن ابي حمو المشهور بابن الزابية فنهض الى تلمسان فاقتحمها وقتـل الوزير المذكور والصبي المكفول ، وكان لهذا الحادث اضطراب وقلق عظيمين في الرعية .

تقوض عرش بني زيان

ويومئذ خرج المستنصر سلطان بني مرين الى ابي زيان فرده عن تازاواخذه معه معتقلاً الى فاس ، ومن هناك بعث بولده ابي فارس في جنوده الى تلمسان فامتلكها وأقام بها دعوة ابيه ، ثم اندفع الجند المريني متوجهاً نحو الشرق من بلاد المغرب الاوسط فاستولى على عواصمه مثـل مليانة والجزائر وتدلس الى حدود بجاية ، فأتى بذلك على دولة بني زيان من المغرب الاوسط ، وذهب يوسف بن الزابية معتصما بحصن تاجحمومت .

وفي هذه الاثناء نهض ابو ثابت بن ابي تاشفين الثاني محاولاً الاستيلاء على عرش أسلافه الزيانيين فلم يلبث على عرشه اكثر من اربعين يوماً إذ فاجأه عمه أبو الحجاج يوسف بن ابي حمو الثاني فخلعه عن ولايته وقتله في جمادى الاولى ٧٩٦ هـ (مارس ١٣٩٤ م) ودفن بالقصر القديم ، وتزعـم يوسف المملكة عشرة اشهر وهو اكبر الاخوة وكان كما ذكر ابن خلدون محباً للخير ملتزماً للصمت منتحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الارض ولا فساداً ثم زحزحـه المرينيون بتولية أخيه ابي زيان بن ابي حمو « الثاني » .

ولاية السلطان ابي زيان محمد « الثاني »

هو السلطان ابو زيان محمد « الثاني » بن السلطان ابي حمو موسى «الثاني» كان معتقلا بمدينة فاس الى ان توفي السلطان ابو العباس احمد المريني في المحرم سنة ٧٩٦ هـ (نوفمبر ١٣٩٣ م) وتولى مكانه ولده ابو فارس وانتقـل من تلمسان التي كان والياً عليها الى فاس فأطلق يومئذ وثاق ابي زيان ومكنه من

امارة تلمسان ليقوم فيها بدعوة مرين ، فسار اليها ابو زيان وجلس على عرشها منفرداً بحكمها غرة ربيع الثاني ٧٩٦ ﻫ (٣ فيفربي ١٣٩٤ م) وقاتل أخاه يوسف بن الزابية فخرج يوسف منهزماً الى قبيلة بني عامر [١] وبقي هنالك يعمل على تأليب الرعية وايقاد نار الثورة ضد ابي زيان الى ان اغتاله العرب في ربيع الاول سنة ٧٩٧ ﻫ (ديسمبر ١٣٩٤ م) وحملوا رأسه الى السلطان ابي زيان فسكن يومئذ روعه ، فلم ينعم يوسف بالملك سوى اربعين يوماً .

ويذكر لنا التاريخ من صفات هذا السلطان - ابي زيان - انه كان عالماً اديباً شاعرا ناثرا متأنقا في شعره بليغا في ترسله، ومن شعره قصيدته الرنانة التي نظمها مادحـــا سلطان مصر الملك الظاهر برقوق وارفقها بهديـــة ثمينة

---

(١) ويقال لهم العوامر أيضاً نسبة الى جدهم عامر بن ابراهيم بن يعقوب المنحدر نسبه من عامر بن زغبة الهلالي ؛ وهم اخوة بني سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كانت مواطنهم الاولى عند الطائف بجبل زغوان : ويقول الألوسي في تاريخ نجد - « أن في قرى الوادي بنجد بقعة تسمى الهلالية » فلعلها مما بقي من آثارهم هناك ؟. وبعد ان تنقلوا في أزمنة مختلفة بأطراف العراق والشام والبحرين وأرض الصعيد المصري وتغلبوا على ملوك صنهاجة بالمغرب في أواخر القرن الخامس الهجري كما قدمنا في الجزء الاول من تاريخنا هذا انتقل بنو عامر من طرابلس وقابس وشرقي افريقية - تونس الى جنوب المغرب الأوســط - الجزائر - فسكنوا مـــا بين أرض مصاب « أمزاب » وجبـــل راشد وهو جبل العمور وتجـــاوروا مع بني بادين وتعاقدوا على امر واحـــد فسكن بنو بادين بالتلول والضواحي وسكن زغبة بن معهم في القفار ، الى ان ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيهـــا ودخلت زناتة للتلول والارياف وظهر عبث المعقل المجاورين لهم وهم أهل « أنكاد » فنقلهم من صحراء بني يزيد وأنزلهم بينه وبين المعقل وقاية له ، فصاروا بصحراء تلمسان بعد أن كانوا ما بين المسيلة شرقاً الى جنوب تلمسان غرباً وبقوا مستمرين على إقامتهم هنالك الى أن كادت حروب ابي عنان المريني أن تفتك وتقضي على بني زيان ، فنقلهم السلطان أبوحمو موسى بن يوسف الزياني في حدود سنة نيف وستين من القرن الثامن الهجري من ضواحي تلمسان الجنوبية الى بلاد تاسالة واتصلت مجالاتهم بها الى حدود سنة ١١٦٠ ﻫ - ١٧٤٧ م - فانتقلوا الى سهول ملاته وجبالها وذلك أيام ولاية الحاج عثمان باي وهران فسكنوا بها الى الآن ؛ « انظر بهجة الناظر للشيخ عبد القـــادر المشرفي ، طبع في الجزائر ١٩٢٤ م »

اليه [1] فقال :

لمن الركائب سيرهن ذميل … والصبر - الابعدهن - جميل
يا ايها الحادي رويدك انها … ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقا بمن حملته فوق ظهورها … فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آية أنجم شفافة … تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها … ولها باستار الجدول افول
في الهودج المزرور منها غادة … تزع الدجى بجبينها فيحول
فكانها قمر على غصن على … متني كثيب والكثيب مهيل
ثارت مطاياها فثار بي الهوى … واعتاد قلبي زفرة وغليل
اومت لتوديعي فغالب عبرتي … نظر تخاله العيون كليل
دمع اغيض منه خوف رقيبها … طوراً ويغلبني الاسى فيسيل
ويح المحب وشت بـه عبراته … فكأنها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى … لصون جوهر دمعهن تذيل
وتهابه اسد الشرى في خيسها … ويروعه ظبي الحمى المكحول
تأبى النفوس الضيم الا في الهوى … فالحر عبد والعزيز ذليل
يا بانة الوادي ويا اهل الحمى … هل ساعة تصغين لي فأقول
مالي اذا هب النسيم من الحمى … ارتاح شوقا للحمى واميل
خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها … ان الصبا لصبابتي تعليل
مالي احلأ عن ورود محله … وأذاد عنه ووروده منهول
والباب ليس بمرتج عن مرتج … والظن من مولى الجميل جميل

ومنها بعد ما أبدى اشواقه ، وحنينه الى زيارة البقاع المقدسة في خمسة عشر بيتا يتخلص لذكر ممدوحه فيقول :

---

(١) تشتمل هذه الهدية على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة واحمال من الاقمشة الانيقة الخ ... انظر تفاصيل المهاداة رعقد الصلات بين ملوك المشرق والمغرب في كتاب العبر ج٧ص ١٣٨ — ٢٢٦ — ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٦ وارجع الى صفحة ٩٥ - ١٠٠ من هذا الجزء - تاريخ الجزائر العام — والتعريف بابن خلدون ص ٣٣٥ - ٣٤٦ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م)

وعن المليك ابى سعيد فلتنب ... فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته ... يا حبذاك المحمل المحمول
سعد المليك ابي سعيد انه ... سيف على اعدائه مسلول
ملك يحج المغرب الاقصى به ... فلهم به نحو الرسول وصول
ملك به نام الانام وامنت ... سبل المخاف فلا يخاف سبيل
فالملك ضخم والجناب مؤمل ... والفضل جم والعطاء جزيل
والصنع اجمل والفخار مؤثل ... والمجد اكمل والوفاء اصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى ... قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا ... فعليك من روح الاله قبول
يا متحفي ومفاتحي برسالة ... سلالة يزهي بها الترسيل
اهديتها حسناء بكرا ما لها ... غيري، وان كثر الرجال، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها ... حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملها بحضرتنا كما ... جمعت بثينة في الهوى وجميل
وتأكدت بهدية ودية ... هي للاخاء المرتضى تكميل
اطلعت فيها للقسي اهلة ... يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهيا بنضاره ... راق العيون فريده المصقول
ماضي الشبا لمصابه تعنو الظبا ... فبه تصول على العدا وتطول
وبدائع الحلل اليمانية التي ... روى معاطفها بمصر النيل
فأجلت فيها ناظري فرأيتها ... تحفاً يجول الحسن حيث تجول
جلت محاسنها فأهوى نحوها ... بفم القبول اللثم والتقبيل
يامسعدي وأخي العزيز ومنجدي ... ومن القلوب الى هواه تميل
ان كان رسم الود منك مذيلا ... بالبر وهو بذيله موصول
فنظيره عندي وليس يضيره ... بمعارض وهم ولا تخييل
ود «زيد» و «ثابت» شهدا به ... و «لخالد» بخلوده تذييل
واليكها تنبيك صدق مودتي ... صح الدليل ووافق المدلول
فاذا بذاك المجلس السامي سمت ... فلديك اقبال لها وقبول

دام الوداد على البعاد موصلا بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في نعم لديك مزيدها وعليك يضفو ظلها المسدول

وللسلطان الشاعر هذا عناية بالتأليف أيضاً ؛ فله كتاب في علم النفس سماه « الاشارة في الحكم بين النفس المطمئنة والنفس الامارة » ؛ ومن الأسف اننا لا نعلم عن هذا الكتاب اليوم شيئاً سوى اسمه !..وقد يكون له غيره ؟..

ويمتاز عصر ابي زيان بنشاط العلماء الى التأليف ورواج سوق العلم والأدب العربي فيه ووضع المصنفات الكثيرة التي نرى اسماءها مبثوثة في الفهارس وكتب التراجم والطبقات .

واستمر ابو زيان على ولايته الى ان تنكرت له مرين واغرت به اخاه ابا محمد عبد الله بن ابي حمو – كما هو شأنها مع ملوك بني زيان دائماً – فغزا تلمسان واحتلها – بمساعدة ملوك فاس طبعاً – وذلك غرة القرن التاسع الهجري (١٣٩٨ م) وخرج منها ابو زيان مشرداً في البلاد مهدماً مهزوم القوى فبقي متنقلاً بين احياء العرب الى ان قتل سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) .

ولاية السلطان ابي محمد عبدالله «الاول»

هو السلطان ابو محمد عبدالله بن السلطان ابي حمو موسى الثاني؛ انتصب للحكم سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) واظهر من النشاط والحزم وحسن التدبير والصرامة في الحق والعدل في الحكم بين الناس ما خشي عقباه اولئك المماذقون المخادعون من بطانة السوء ورجال البلاط الماكرين فأثاروا يومئذ كمين الضغائن بين حكومتي فاس وتلمسان وسعوا بكل جهودهم في عقد المؤامرات السرية لايقاد الفتنة بين الدولتين حتى ظفروا ببغيتهم فكانت يومئذ اغارة مرين على تلمسان سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) فاحتلتها واسرت السلطان ابا محمد ونصبت مكانه اخاه ابا عبدالله محمد المعروف بابن خولة .

وليس لدي فيما يتعلق بتاريخ عصر هذا السلطان ما يستحق التسجيل من

الحوادث الهامة سوى غزاة مرين المتقدمة او ما يذكر عن تقاعس الافرنج في تسعين سفينة حربية عن بونة بعد ان ردهم عنها اهلها المسلمون ؛ ثم توجهت الحملة الافرنجية يومئذ الى مرسى القل ودلس فانتهبتها او ما وقع من احتلال الاسبان لبلدة تدلس فجوة يوم الاثنين ١٢ ذي الحجة ٨٠٠هـ= او ط ١٣٩٨ م وكان فيمن شهد هذه الغزاة الاسبانية وخاطر بنفسه الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ولم يكن سنه يومئذ يتجاوز الخمسة عشر سنة .

ولاية السلطان ابي عبد الله محمد «الثالث»

هو السلطان ابو عبد الله محمد «الثالث» الملقب بالواثق الشهير بابن خولة ، احد ابناء السلطان ابي حمو موسى الثاني ، توج على عرش اسلافه سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) وكان عفيفاً عن الدماء شغوفاً بالعلم والفن عاملاً على تنشيط العلماء وبعثهم على البحث والانتاج الفكري ، فعاش الناس وقتئذ في رخـــاء وهناء رغم الحوادث الثورية والمشاغبات السياسية والمشاكل المستحدثـة المطردة بين الدولتين المتجاورتين ، وهكذا الى وفاته (رحمه الله يوم الثلاثاء ٧ ذي القعدة سنة ٨١٣ هـ (مارس١٤١١ م) فتولى مكانه ولده عبدالرحمن ودفن والده بتربة سيدي ابراهيم المصمودي .

ولاية السلطان عبد الرحمن «الثالث»

هو السلطان عبدالرحمن «الثالث»ابن السلطان ابي عبدالله محمد « الثاني » الشهير بابن خولة ، تولى الملك اثر وفاة والده يوم الثلاثاء ٧ ذي القعدة سنة ٨١٣ هـ (٣مارس ١٤١١ م) وما كاد يستقر على عرشه حتى كانت هنـالك فتنة هوجاء منشأها شيئان : التزاحم على الملك ودسائس مرين ، ففاجأه عمه السعيد في جيش عرمرم أحاط بقصره وألزمه بالتنازل عن الملك ، فاختلع عبدالرحمن عن عرشه اواخر المحرم ٨١٤ هـ (ماي ١٤١١ م) فـلم تزد ايام توليه الملك عن شهرين فقط وتولى مكانه عمه المذكور .

ولاية السلطان السعيد بن ابي حمو

هو السلطان السعيد ابن السلطان ابي حمو موسى«الثاني» توّج اثر اختلاع عبدالرحمن الثالث – ابن اخيه – في اواخر المحرم سنة ٨١٤ ﻫ (ماي١٤١١م) وكان ملكاً جواداً كريماً كثير الانفاق والعطاء ، ولقد اصيبت الخزينـــة في ايامه بأزمة مالية فعمد الى التخفيف عنها بالتثقيل على كاهل الرعية بالمطالب « الجرجية » فأحدث ذلك قلقـــا واضطرابا في الناس طالما انتظرته دولة بني مرين التي كانت ترقب راصدة مثل هذه الحوادث والفرص المواتية لها عن كثب ؛ فأظهرت يومئذ الاهتمام بشأن هذه التشنجات الشعبية وتدخلت في القضية الجزائرية بحمل امير فاس الامير ابي مالك عبدالواحد بن ابي حمو «الثاني» على محاربة اخيه السلطان الحالي كما هو شأنها في تغليب امير على امير وأمدته بالعدة والعدد فبادر ابو مالك الى اختطاف هـــذه الفرصة السانحة لتملكه وهاجم تلمسان فاحتلها في منتصف رجب ٨١٤ ﻫ (اكتوبر ١٤١١م) وأبعد أخاه السعيد الى منفاه فتركه هنالك الى ان هلك حتف أنفـــه من عامه هذا .

ولاية السلطان إبي مالك عبدالواحد

هو السلطان ابو مالك عبدالواحد ابن السلطان ابي حمو موسى« الثاني » تغلب على أخيه السعيد بمؤازرة مرين فانتصب على العرش الزياني في رجب سنة ٨١٤ ﻫ (اكتوبر ١٤١١ م) وقيل ان ذلك كان في السنة بعدها ؟...

اشتهر ابو مالك بالشجاعة والحزم والسجايا الكريمة والتدين ونشر الثقافة والسهر على مصالح الدولة واصلاح الرعية ؛ وقد بلغ بعزمه وشدة حزمه الى استرجاع كل ما كان بيد الحفصيين من بلاد الجزائر الشرقيـة ، وتوسع غرباً الى عاصمة مرين فخضد من شوكتها واستولى على فاس ونصب عليها واليا او اميراً من قبله فكان ذلك آخر العهد بتدخل دولة بني مرين في الجزائر .

ولأول مرة سقط المرسى الكبير – بوهران – بيد البرتغال ٨١٨–٨٤١ﻫ (١٤٣٧ م) .

اغارة الحفصيين على تلمسان

كان لاستيلاء السلطان ابي مالك على ما كان بيد الحفصيين من احواز الجزائر الشرقية وقع عظيم لدى دولة بني ابي حفص ، وكان مما زادها رعباً وذعراً من هذه الدولة الجزائرية هو توسعها غرباً واستيلاؤها على عاصمة المرينيين –فاس– فشرع لذلك السلطان ابوفارس عزوز الحفصي في اخذ الحذر منها والاستعداد لمواجهتها والتدبير في خطة الهجوم للقضاء على دولة المغرب الاوسط الآخـذة في النمو والانتشار باقطار المغرب الثلاثة ؛ وبرز ابو فارس في خمسين الف مقاتل مهاجماً مملكة الجزائر فرده السلطان ابو مالك عنها وكانت هنالك وقائع ومعارك متعددة صبر لها الحفصيون وصمدوا لها حتى انتصروا على تلمسان ففتحوها يوم السبت ١٣ جمادى الثانية ٨٢٧ هـ (١٣ ماي ١٤٢٤ م) وخرج منها يومئذ سلطانها ابو مالك منحازاً الى الجبال فاحتلها ابو فارس ونزل بقصبتها مستحوذاً على جميع ما فيها ، وبعد ان تمكن من ناصيتها نصب عليها الامير محمد «ابن الحمرة» ابن السلطان تاشفين وخرج متوجهاً نحو فاس حتى لم يبق بينه وبينها إلا مسيرة يومين فجاءته بيعة مرين فعاد يومئذ الى مركزه بتونس ثم جاءته بيعة صاحب الاندلس ، فكان المغرب الاسلامي عهدئذ بتمامه تحت رعاية السلطان ابي فارس الحفصي

ولاية السلطان محمد « الرابع »

هو السلطان ابو عبدالله محمد «الرابع» المعروف بابن الحمرة بن السلطان عبد الرحمن تاشفين «الثاني» كان صاحب حكمة وحنكة وتدبير توج على عرش تلمسان سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م) تحت رعاية الدولة الحفصية كما اسلفنا ؛ فعمل على اكتساب قلوب الرعية بحسن سلوكه وسداد سياسته فمـال اليه الناس وتوحدت كلمتهم حوله فثبت بذلك قدمه في الملك وتوطد سلطانـه ويومئذ رفض دعوة بني ابي حفص فألغى ذكرهم من الخطبة والمكاتبات واعلن بتحرير البلاد واستقلال الدولة الجزائرية الزيانية عن غيرها من دول المغرب

وكذلك فعل عامل قسنطينة ورئيسها الحاج ابو عبدالله محمد الدهان فانه رفض طاعة دولة الحفصيين واعلن معارضة الولاة والامراء في سياستهم الداخلية وتصرفاتهم بالبلاد غير انـــه لم ينجح فقبض عليه السلطان ابو فارس في ذي القعدة من سنة ٨٣٠ هـ (اوط ١٤٢٧ م) واعتقله بقصبة تونس

السلطان أبو مالك عبد الواحد « للمرة الثانية »

بعد ان ظهرت خيبة ابي مالك - السلطان المخلوع - واخفاقه في استعمال جميع الوسائل السياسية والمكائد الدبلوماسية لاسترجاع عرشه ، التجأ الى بني مرين فلم تغن ايضا عنه هذه المرة شيئا ، ويومئذ اذعن للحفصيين خصومـــه بالامس : فزودوه بالجيش والعدة وغزا تلمسان فأكدى ؛ ثم تحرك لها السلطان ابو فارس الحفصي ففتحها في رجب ٨٣١ هـ (افريل ١٤٢٨م)واعاد ابا مالك الى عرشه

ثورة (ابن الحمرة) ونهايته

خرج ابو عبدالله محمد الثالث « ابن الحمرة» من تلمسان منهزما واخذ في نشر الدعاية لنفسه بين العرب والبربر وثابر متنقلا بـــين أصقاع جبال وانشريس وبرشك وتنس واكثر من الحركة والتجوال بين الاحياء هنالك يستثير الهمم ويستأنف العواطف والقلوب الى ان احرز على الثقة بينهم فأخذ منهم البيعة لنفسه وسار بهم زاحفاً نحو تلمسان ففتحها يوم الخميس رابع ذي الحجة ٨٣٣ هـ (٢٤ اوط ١٤٤٠ م) وتمكن من قتل عمه ابي مالك ودفنه بالقصر القديم ،وما كاد ينعم بنشوة الملك حتى فاجأه السلطان الحفصي - لثمانية واربعين يوماً من تملكه - فأسره ونصب مكانه عمه ابا العباس احمد «العاقل» وذهب بابن الحمرة الى تونس فاعتقله بقصبتها هنالك الى وفاته سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦م)

ولاية السلطان ابي العباس احمد المعتصم

هو السلطان ابو العباس احمد المعتصم بالله المشهور بـ« العاقل» ابن السلطان

ابي حمو موسى « الثاني » تولى عرش تلمسان بفضل الحفصيين كما ذكرناه ، وذلك يوم الخميس غرة شهر رجب سنة ٨٣٤ ﻫ (١٥ مارس ١٤٣١ م)فسلك النقود واظهر من حسن السيرة والعناية بنشر العدل وخدمة العلم ما اكسبه عطف الرعية واجماع الناس على مودته ويومئذ اظهر باسمه للحفصيين واعلن برفض عهدهم سنة ٨٣٧ ﻫ (١٤٣٣ م) فتحرك لقتاله السلطان ابو فارس الحفصي فاحتل جبل وانشريس قهراً وانضم اهله تحت طاعته ثم ما كاد يتصل بتلمسان حتى وافاه اجله فتوفى بطريقه اليها وعاد اصحابه من حيث اتوا .

ثورة ابي يحيى واستيلاؤه على وهران

هو احد امراء البيت الزياني – اخ السلطان العاقل – حمله داعي الاثرة والتنافس وحب الرئاسة الى الخروج عن طاعة اخيه فشن غارته على تلمسان وشايعه على ثورته هذه احياء من العرب ،فردهم عنها السلطان منهزمين،ويومئذ ذهب ابو يحيى الى وهران فاستولى عليها سنة ٨٤٠ ﻫ (١٤٣٧ م) وكثيراً ما حاول السلطان مطاردته فلم يفلح .

ظهور المستعين بالله وقتله

ان من ينظر في تاريخ الجزائر السياسي على هذا العهد يجده كله انقضى بين تناحر المتزاحمين وتشاكس المتنافسين،وسواء ذلك بين الدولتين المتجاورتين المكتنفتين لهذا القطر شرقاً وغرباً ام بين اعضاء الاسرة المالكة نفسها ، فهذا ابو زيان محمد « المستعين بالله » الذي كان بتونس وهو من اعضاء الاسرة الزيانية قد عملت فيه عوامل النخوة والكبرياء ودبت في قلبه عقارب الحسد فذهب مستنجداً بحكومة تونس فانجدته وايدته بجند من العرب والبربر فجاء بهم مغيراً على المغرب الاوسط سنة ٨٤٢ ﻫ (١٤٣٨ م) فاحتل مدينة الجزائر ومتيجة وتنس ومليانة الخ .. واوغل في التقدم نحو الغرب الى ان تاخم حدود مملكة السلطان العاقل ثم عاد الى مدينة الجزائر فاستقر بها واتخذها

مركزاً لانشاء دولته بها ، وما كاد يتم له الامر حتى فاجأه صاحب وهران الامير ابو يحيى اخو السلطان العاقل فاثار الرعية ضده فقتلته في شهر جمادى الثانية - نوفمبر - من سنته .

انهزام ابي يحيى عن وهران

ما كان للسلطان العاقل ان يترك اخاه ابا يحيى مستبداً بوهران [1] منذ ان استولى عليها سنة ٨٤٠ ه (١٤٣٧ م)كما تقدم فعمل على اقصائه منهاواعادتها الى مملكته وناجزه الحرب حتى غلبه عليها في شعبان ٨٥١ه(اكتوبر١٤٤٧م) وجعلها الحاضرة الثانية للجزائر فخرج منها ابو يحيى الى تونس فبقي بها الى وفاته سنة ٨٦٧ ه (١٤٦٢ م) .

ثورة محمد « المتوكل » ونهاية « العاقل »

لقد كان مما جرته هذه القلاقـل السياسية والانقلابات الادارية ان انتشرت الفوضى بالبـلاد الجزائرية وعم الخلاف ، فنهض آنئذ الامير محمد بن محمد بن ابي ثابت « المتوكل » منتهزاً فرصة فشو هـذا الاضطراب ورفض طاعة السلطان معلناً عصيانه واخذ في سيره لفتح البلاد في شهر ربيع الاول سنة ٨٦٦ ه (ديسمبر ١٤٦١ م) واستولى على مستغانم ووهران وتنس واخيراً تلمسان فعزل عنها عم ابيه السلطان اباالعباس غرة جمادى٢ فاتح فيفري ١٤٦٢م) فانتقل ابو العبـاس يومئذ الى سكنى ضاحية العباد ثم ابعد عنها الى الاندلس ، وهنالك سعى في تكوين جيش عاد به الى الجزائر محاصراً تلمسان مدة اسبوعين عن غير طائل ثم كانت وفاتـه في ذي الحجة ٨٦٧ ه (او ط ١٤٦٣م) ودفن بالعباد .

---

(١) اختلف في بانيها على قولين قيل انهم جماعة من الاندلسيين المذكورين في الجزء الاول من كتابنا هذا وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري كما تقدم ، وقيل هو خزر بن حفص بن صولات المغراوي باذن مواليه امراء بني اميـة بالاندلس وصححـه المشرقي في تقييده « بهجة الناظر » المطبوع بالجزائر سنة ١٩٢٤ م

الزحف الحفصي .

كان الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الاقصى ينظرون دائماً الى نشوب الخلاف والشتات بين امراء البيت الزياني ليتوسعوا أو قل يتوصلوا الى نيل غرضهم من الاستيلاء على هذا القطر وضمه الى مملكتهم الشرقية او الغربية ؛ وكان الدور في هذه المرة للحفصيين؛ فخرج السلطان ابو عمرو عثمان الحفصي من تونس سابع شهر شوال ٨٦٦ هـ (٥ جوليط ١٤٦٣م) ميمماً عاصمة المغرب الاوسط – تلمسان – فأخضع في طريقه قلعة حليمة – احدى قلاع جبل اوراس ثم تقدم غرباً فنزل بأرض بني راشد ، وهنالك جاءته وفود العرب من سويد وبني يعقوب وبني عامر والدواودة واعيان بني عبد الواد وكلهم ناقم على السلطان الزياني راغب في طاعة الحفصيين ، فأحسن اليهم ابو عمرو وفرق ولاته على تلك الانحاء، ويومئذ اوفد المتوكل ملك تلمسان وفداً لينوب عنه لدى ابي عمرو في المبايعة وعقد الصلح ، وكان هذا الوفد مركباً من ثلاثة أعضاء : الشيخ ابي عبدالله محمد بن الشيخ ابي القاسم العقباني ، والشيخ احمد بن الحسن، ويرأسها خال السلطان ابو الحسن علي بن حمو بن ابي تاشفين.

ثم عاد الملك الحفصي الى مركزه معرجاً على قسنطينة فعقد لحفيده ابي عبد الله محمد المنتصر بن ابي عبدالله محمد المسعود عليها وجعل بين يديه القائد ابا علي منصور الصبان مزواراً . وعين بشيراً قائداً على البلد بدل ظافر المعزول عنها ، وصرف محمد بن سعيد بن صخر الى وطنه بجاية .

ابتداء الهجرة الاندلسية الى المغرب وسقوط بونة

كان لطغيان الاسبان بالاندلس واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين تأثير عظيم على جمعهم وجماعتهم هناك كما هو معروف من تاريخهم الحزين، فأخذوا يتسللون لواذاً ملتجئين الى هذا الشمال الافريقي ابتداء من سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢م) فحل اكثرهم يومئذ بالجزائر فلحقهم الاسبان بمراكبهم ، فكان ذلك ابتداء الحروب البحرية بين الجزائريين والافرنج ، وكان اتحاد الجالية الاندلسية مع

اهل الجزائر على مناوأة الممارة الافرنجية بهذا البحر الابيض المتوسط ، سبباً في سقوط بونة بيد الاسبان سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢م) ثم تبعها غيرها من السواحل الجزائرية .

ولاية السلطان ابي ثابت محمد الخامس

هو السلطان ابو ثابت ابو عبد الله محمد المتوكل علي بن ابي زيان محمد المستعين بالله بن يوسف ؛ تولى الملك غرة جمادى الاولى سنة ٨٦٦ هـ (فاتح فيفري ١٤٦٢م) بعد ان كان قد اقتطع لنفسه في ربيع الاول (ديسمبر ١٤٦١م) مدينة الجزائر ومليانة ووهران ومستغانم وتنس واستولى عليها كما تقدم وبسط عليها نفوذه وسلك نفوده . وكان ملكاً شهماً شجاعاً شغوفاً بالملك ، اخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين عليه ، وقام في مملكته بأعمال جليلة فوحد كلمة الرعية واصلح من شأن الوطن ما تصدع ، فأحبه الشعب والتف حوله ممتثلاً له منفذاً لأوامره ونواهيه ، وكثيراً ما غزت اساطيله مدن الاسبان والطليان انتقاماً لما احله هؤلاء بمسلمي صقلية والاندلس .

وللمرة الثانية وقع المرسى الكبير بوهران بيد البرتغال (٨٧٥ هـ = ١٤٧١م) ثم خرجوا منها سنة ٨٨١ هـ = ١٤٧٧ م .

رفض الدعوة الحفصية

مضى هذا السلطان على الخطة المرسومة المتبعة التي سار عليها من قبله من ملوك بني عبد الواد الزيانيين ، من المحافظة على استقلال هذه الدولة والذود عن حرمتها ورفض كل تدخل أجنبي في شؤون الجزائر مهما كان شأنه ، ففي سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) أعلن السلطان أبو ثابت رفض الدعوة الحفصية وطرد ولاتها من أعمالهم . فسعى به أعراب تلمسان من بني عامر وسويد وغيرهم لدى السلطان الحفصي فجاء بجنوده الى بعض قلاع جبل اوراس فاحتلها وأخضع للقبائل العربية هناك ، ثم كانت هدنة وصلح ؛ ثم أعاد ابو ثابت نهضته مماكساً دعوة ابي حفص معلناً استقلاله التام بمملكته ، فقاومه الحفصيون

وتكرر ذلك منهم مرتين ، وفي الثانيــة منهما بالغوا في تشديد الحصار عــلى تلمسان فأذعنت لسطوتهم يومئذ مدينة مليانة والمديــة وتنس واستسلم لهم ابو ثابث وكتب بيعته للسلطان الحفصي ؛ ومما جاء فيها بخطه قوله : « شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واعطى ابنته بكراً للمولى ابي زكريا يحيى بن المولى المسعود دون خطبة » ، وقفل حينئذ سلطــان تونس الى حضرته وبقي ابو ثابت على عرشه الى وفاته بتلمسان سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) فخلفه بعده ولده تاشفين .

ولاية السلطان تاشفين بن ابي ثابت

هو السلطان تاشفين بن ابي ثابت محمــد الرابع ، لم يكد يستقر على عرش أسلافه حتى فاجاه أجله بعد اربعة اشهر من سلطنتــه فتوفي من سنته بدون ان يترك أي أثر له يذكر به في تاريخ دولته فيما نعلم .

ولاية السلطان محمد (السادس)

هو ابو عبد الله محمد (السادس) بن ابي ثابت المتوكل تولى السلطنــة بعد أخيه تاشفين فــك النقود وتلقب بلقب أبيه : ابي ثابت ايضاً ، وكان ضعيف الارادة عاجزاً عن القيام بأعباء الملك وتدبير شؤون الدولة السياسية وتسيير الرعية فكثرت الفتن والاضطرابات على عهده وانتشرت الفوضى ثم مات سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦ م) ولم نظفر له كذلك بأثر يذكر به سوى اسمــه المرسوم على سكته .

ولاية السلطان محمد (السابع)

هو ابو عبد الله محمد (السابع) بن ابي ثابت الثاني ؛ اشتهر بالثابتي نسبة الى جده ، تملك بعد أبيه عــام ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) وكان من ذوي الفطانة والذكاء ورجاحة العقل وحسن التدبير منصرفاً الى توفير ماليــة خزينةالدولة والإكثار من الأوقاف الخيرية . وفي ايامه ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) كان ذلك

الحدث الجلل بالأندلس فسقطت غرناطة عاصمة بني الأحمر النصريين آخر معاقل الإسلام بذلك الفردوس المفقود !.. فالتجأ ملكها المنكوب ابو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل الى وهران فيمن ضوى إليه من الأعيان والكبراء الذين أيقنوا بنهاية الأندلس الإسلامية ، ثم انتقلوا الى تلمسان وبها ترك الزغل عقباً له عرف بعد ذلك ببني سلطان الاندلس فاقتبلهم الملك بأوفى ما يجب ان يكرم به الملوك والامراء والسادة وما توجبه الروابط الاسلامية، فكان ذلك مما زاد في اثارة حقد الاسبان فسخطوا على الجزائر واستشاط ملكهم غيظاً على بلاط تلمسان، فادرك ذلك السلطان الزياني وتحقق انه لا محالة هامة اليوم او غداً، فبادر الى السعي في ترضية (فرديناند الخامس) وتألفه بالسفر الى اسبانيا[1] مصحوباً بهدايا ثمينة، منها خيول عربية عتاق ، ولؤلؤة فخمة ملكية نادرة ، وطيور مصنوعة من الذهب الخالص ، فيها من الدواجن دجاجة متبوعة بست وثلاثين نقفا الخ ..، وقدم ذلك بنفسه الى ملك الاسبان فانكسرت حدة غضبه وذهبت عنه شرته ثم عاد بعدها السلطان الى وطنه آمناً، وكانت وفاته سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣م) فخلفه اخوه ابو زيان « الثالث » غير انه لم يمكث الا قليلا ففاجأه عمه ابو حمو الثالث

ولاية السلطان ابي حمو موسى (الثالث)

هو ابو حمو موسى « الثالث » الملقب بأبي قلمون بن محمد «الرابع» انتصب قهراً على عرش تلمسان سنه ٩٠٩ هـ (١٥٠٣م) فعزل ابن اخيه محمد «السابع»

(١) كانت المملكة الاسبانية أيام ولاية الرومان عليها « ١٣٤ - ٤٠٦ م » منقسمة الى ولايتين يفصلها نهر « ابرو » وسموها هسبانيا الخارجية وهسبانيا الداخلة ، ثم سموا البلاد كلها « هسبانيا » يريدون المملكة ذات الولايتين أو المقسمة الى قسمين ، وقيل ان اطلاق اسم « إسبانيا » عليها كان زمن الفنيقيين قبل الرومان ، وان كلمة « Span » فنيقية معناها المحتجب أو المستور ، وذلك لأن هذه البلاد كانت بعيدة عن الفينيقيين محجوبة عن أنظارهم في أقصى الأرض جهة الغرب ، وقيل أنما سموها بذلك لأنهم رأوا فيها أرانب كثيرة ، والأرنب بلغتهم « اسبان » . أنظر تعليقات أحمد يوسف نجاتي على نفح الطيب ج ٢

وباشر الحكم والبلاد يومئذ في اضطراب وحبل حكومتها في انحلال وضعف وتفرق وتشتيت

احتلال الاسبان لوهران والسواحل الجزائرية

لقد اخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ ان ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان الى التواكل والتخاذل وأخلد رؤساؤهم الى الدعة واستمهد حكامهم الراحه وتثاقلوا عن القيام بالمصالح العامـة بانهاكهم في التهالك على الرئاسة وقصر اشتغالهم على انفسهم شخصيا ، فانمحت يومئذ هيبتهم من نفوس الرعية وانتشرت الفوضى بين الناس في كل من ميادين السياسة والاجتماع واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش بما اتصل بايديهم من اسباب الولاية والحكم ، فتشتتت الوحدة الجزائرية وانحلت الرابطة الاجتماعية بين الراعي والرعية فاضطربت الاحوال وتعددت المشاكل ، وملوك الاسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الفرص خلسة،ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الاسلام بهذا الشمال الافريقي بعد ان شفوا منها صدورهم واطفأوا غلتهم في حوادث الاندلس الدامية،وقد كانوا تعاهدوا على ذلك وتواصوا به منذ انعقاد مؤتمر « طوردزيلاس «Tordesillas ٨٩٩ هـ (١٤٩٤م) للنظر في شؤون سير السياسة بالهند ، فهناك وقع التعاقد بين الصليبيين على استئصال المملكة الاسلامية بهذا الشمال الافريقي ، وقد تطلع الى ذلك دولة الاسبان والبرتغال فتواطآ على ان يتوزعا بينهما بلاد المغرب العربي غنيمة باردة على ان يكون خط الاسبان منها سواحل بلاد الجزائر وللبرتغال المغرب الاقصى .

ولما كانت الجزائر في هذه الفترة على مـا وصفنا من الانحلال السياسي والاضمحلال الاداري اخذ الاسبان في التمهيد والاستعداد لاحتلالهما ببعث البعوث الاستطلاعية اليها واذكاء العيون والجواسيس حولها للكشف عن حالة

(١) م Henri Garrot. histoire genéral de l'Algérie p : 344 Alger 1910

البلاد العامة والاطلاع على عوراتها ، ومنها كانت بعثة « لورينثودي باديبا » الى مملكة تلمسان على عهد السلطان ابي عبدالله محمد الثابتي

وما كاد القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - يأذن بالحلول حتى كان الاسبان على استعداد تام لمهاجمة الجزائر، لا ينتظرون في ذلك سوى اذن ملكهم ومباركة البابا . وقد حصل ذلك بالفعل، فابحرت الحملة الاسبانية من «مالقة» يوم الاربعاء ٣ ربيع الثاني ٩١١ هـ (٣ سبتمبر ١٥٠٥م) متوجهة نحو الضفة الجنوبية من هذا البحر الابيض المتوسط فارست تجاه وهران مهاجمة لمرساها الكبير غربي المدينة وعلى ثمانية كيلوميترات منها ؛ وبعد ان اشتبكت المعارك هنالك احتلته السلطة الاسبانية المهاجمة يوم الثلاثاء ٩ ربيع الثاني - ٩ سبتمبر - ثم كانت بعدئذ معركة قرية « مسرغين » الواقعة على خمسة عشر كيلومترا من وهران انهزم فيها الجيش الاسباني ومات منه ثلاثة آلاف جندي - باعترافهم - ، وفر الباقون الى المرسى الكبير معتصمين باسواره المنيعة ؛ ثم توالت الغزوات والهزائم على السواحل المغربية واشهرها بالجزائر تلك الحملة الشعواء التي ترأسها وأنفق عليها من امواله الخاصة : الكاردينال «كسيمنس» نفسه بمؤازرة الجنيرال «بيدرونافاروه» .

ابحرت هذه الحملة الاسبانية العتيدة من ثغر قرطاجنة صباح يوم الاربعاء ٢٦ المحرم ٩١٥ هـ (١٥ ماي ١٥٠٩ م) فصبحت الجزائر صبيحة الغد ونزل المشاة بساحل وهران ضحى يوم الجمعة ؛ وما هي الا سويعات قليلة حتى كان الجيش الاسباني مشرفاً على ربى المرسى الكبير وتلال وهران ، وتقدم الجند الى المدينة - بدون مقاومة من الجيش الزياني تذكر - يقتل ويأسر من غير شفقة ولا رحمة ، واستمر سائراً في طريقه حتى اتصل باسوار مدينة وهران محدقاً بها ، وفي جنح الليل من تلك الليلة نفسها فتح القائدان الخائنان القائمان بحراسة الثغر[1] باب المرسى للعدو فتدفقت جنوده بخيلها ورجالها وجاءت كالسيل الجارف ، وساعدهم على ذلك بعض الخونة ممن باع ذمته تلقاء دريهمات

(١) احدهما منافق يتظاهر بالاسلام والاخر يهودي اسمه اشطورا

معدودات مثل بني عامر ، وشافع ، وكرشتل ، وحميان ، وغمرة ، وفيزة، واولاد عبـدالله ، واولاد علي والونازرة [١] وما كاد يتنفس فجر يوم السبت حتى كان الاحتلال تاماً فاقتحم الجيش المهـــاجم المدينة معتدياً على حرمات الدين والانسانية مرتكباً كل فاحشة من غير استثناء ولا محاشاة فقتـل بيده ذبحـــاً نحو الثمانية آلاف من البرءاء العجزة الذين قعد بهم الاضطرار والهرم والقصور عن الفرار من المذبحة ؛ وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة بما ينـــدى لذكره الجبـين وتصفر لهوله الوجوه وتنخلـع له القلوب ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدّاً ! ..

ويومئذ انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الصريخ الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الغاشم والعود باللائمـة والخزي على مشايعي الاسبان من بني عامر وغيرهم ، وهذه قصيدة الشيخ ابي العباس احمد بن القاضي سيدي عبدالله بن ابي محلى السجلماسي شيخ العلامة ابي عثمان سيدي سعيد قدورة الجزائري تنبئك بذلك :

فمن مبلغ عني قبائل عامر	ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد	بتيجانهم مع راسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد	طويل القنا اهل الوفا والمفاخر
وطلحة والاحلاف في غرب هذه	وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب والكمى الفتى	بكل قبيـل مولـع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن	وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم	وغيرهم ، بالله ما صبر صابر ؟!..
ويا معشر الاتراك يا كل عالم	وكل ولي حـــافظ للاوامر
اناشدكم بالله ما عذر جمعكم	لدى الله في وهران امر الخنازر الخ..

والقصيدة مدرجة بتمامها في بهجة الناظر للشيخ عبد القادر المشرفي فانظرها

(١) راجع بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولايـــة الاسبان كبني عامر ، للمشرفي ط الجزائر ١٩٢٤ م)

هناك ، كما نظم غيره من الادباء في هذا الموضوع القصائد السائرة الطويلة [1]

وفي اواخر رمضــان سنة ٩١٥ هـ (٦ جانفبي ١٥١١ م) جاء « بيدرو نافارو » في ارمــادة تحتوي على اربعة عشر مركباً حربيــاً مشتملة على عشرة آلاف جندي ، فاقتحم بهم اسوار بجاية مدينة الحضارة الحادية الجزائرية ، واخذ في تحطيمها ونقل جميع ما بها من تحف ونفائس في ثلاثين مركباً غرق اكثرها في طريقه الى اسبانيا ، وهدم منـــار قصر اللؤلؤة البالغ طوله نحو سبعين ذراعاً ، والذي يعتبر من اعظم آيات فن المعار الجزائري الجميل ؛ كما حطم يومئذ قصر الكوكب وبنى مكانه حصن « برال » الحالي Fort Barral وحطم المسجد الجامع الاعظم وتغير شكل المدينة الى مـا لا يسر منظره ولا مخبره، ورغم كل ذلك مما وقع تسجيله من حوادث الاحتلال الاسباني العنيف فاننا لم نر من الحكومة الجزائرية المسلمة ما يقابل ذلك ويستحقه من الدفاع والمقاومة الشديدة المتوقعة ! .

ومن تأمل في ذلك وجد ان مرجعه الى مـا كانت عليه الدولة الجزائرية من الضعف والانحلال الشامل لنظام الحكم وتخبطها في مشاكلها السياسية والادارية

وواصل الاسبان فتوحاتهم بالجزائر فاستحوذوا على مدينة تدلس –دلس– وشرشال واحتلوا فرضة هنين سنة ٩٣٨ هـ (١٥٣١ م) ونزلوا بالأمكنـــة الاستراتيجية بالسواحل الجزائرية خاصة ، وتحاشوا المدن مقابل مغارم باهظة وكان غرضهم الوحيد يومئذ من هذه الغزوات هو مواصلة الحروب الصليبيـة بالمغرب ، فأحدث ذلك قلقاً واضطراباً عظيماً في الراعي والرعية وما وسعهم جميعاً إلا الرضوخ لهذه السلطة الاجنبية المفروضة الحتمية حتى يتجلى الامر .

وما خص الاسبان احتلالهم بسيف البحر دون التوغل في الوطن الجزائري إلا لحاجة في انفسهم ؟.. ولعل تشوفهم كان متجهاً نحو جهـــات اخرى

---

(١) انظر شرح الجامعي على قصيدة الحلفاوي – مخطوط – وكتاب التحفـــة المرضية في تاريخ الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون الجزائري – مخطوط –

كنواحي « البيريني » او بلاد ايطاليا او خوفاً من سوء المنقلب او غير ذلك لا ادري ؟..

ثورة الامير يحيى بن الثابتي

احتبل الامير يحيى هذا الهيجان والاضطراب العـــام في الجزائر واغتنم فرصة انحلال الحكومة وضعف السلطة المركزية فنهض مستصرخاً بالاسبان محتمياً بهم معلناً ثورته على ابي حمو الثالث ، فتغلب على مدينة تنس ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) فقهره السلطان ورده عنها ، ثم انتصر عليه فتحطم جيش ابي حمو وأحجم عن القتال، فاحتل الاسبان يومئذبسهولة مدينة بونة-عنابه- وفرضوا على السلطان ضريبة سنوية باهظة قدرها اثنا عشر الف دوقـــة[1] واثناعشر فرساً وست بزات ، واستمرت هذه الضريبة المزرية المهينة مفروضة على ملوك بني زيان الى سنة ٩٣٦ هـ (١٥٣٠ م) فاسقطتها ارادة الشعب وارادة الشعب من ارادة الله .

ثغور الجزائر تحت نير الاسبان

ولما اشتدت حملات الاسبان بالثغور الجزائرية وانكشفت عداوتهم جهاراً لأهل المغرب الاسلامي ، أخذ الجزائريون في انشاء الاجفان لدفع هجـــمات العدو ورد عاديته عن الوطن وشرعوا في شن غاراتهم البحرية على الســواحل الاسبانية واسر المعتدين وسبيهم ؛ وبما ان دولة الاسبان هذه كانت في جدة ايامها ودولة بني زيان بالجزائر كانت في اعقابها ، تغلب الاسبان عليهم واضطروهم الى طلب الصلح والهدنة ، وخضع لهم أهل مدينة الجزائر ايضاً .

ففي شوال سنة ٩١٦ هـ (جانفيي ١٥١١ م) خرج الوفـد الاسلامي من الجزائر برئاسة شيخها « سالم التومي الثمالي » متوجهاً نحو بجاية حيث مركز

(١) الدوقة نوع من نقود الذهب الاسبانية ، قيمة القطعة الواحدة منهـــا من العشرة الى اثني عشر فرنكاً أي قبل ارتفاع قيمة النقود .

قيادة « بيـــدرو النافاري » عامل الاسبان ومفوضهم العسكري بالجزائر وهنالك ابرم عقد الهدنة والصلح بين الطرفين ، والتزم الجزائريون بالخضوع لسلطة الغالب عليهم والافراج عن جميع الاسرى من نصارى الاسبان وغيرهم. ثم في السنة بعدها شكل الجزائريون وفداً آخر ذهب الى اسبانيا حيث اتصل بالملك « فرديناند الخامس » فأكد له حسن العلاقة بين القطرين وتقدم له رئيس الوفد سالم التومي بهدايا نفيسة فتقبلها منه الملك وافترض عليهم تسليم احدى « الصخرات » – او قل الجزر – الأربع الكبرى التي كانت بارزة تجـــاه مدينة الجزائر ، حيث شرع الاسبان في بناء حصن (بنيونش Penon » فوقها سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) [١] وهو مكان مركز القيادة البحرية العليا اليوم بالجزائر ، وألزمهم ايضاً بدفع مغرم باهظ سنوياً ، فاستسلموا لذلك ، وانزل الاسبان بهـــذا الحصن نحو المائتي جندي أبقوهم هنالك لرصد غزاة المسلمين وحماية الثغور الجزائرية المحتلة الى ان قضى عليهم الاتراك فيما بعد .

اصبحت الجزائر يومئذ تجاه هؤلاء الاسبان الذين اقبلوا يغزون البـــلاد ويأسرون العباد مرغمـــة على الاندفاع نحو فتح واجهـــة حربية بحرية لمحاربة القرصنة الاجنبية ، او الدخول في حلف احد كبار البحـــارة الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور بهذا البحر الابيض المتوسط ؛ ولم يكن لأهل الجزائر يومئذ بد من احد هذين الحلين مع طي حضارتهم القائمة على ما بنوه واشادوه من دولتهم الناشئة ، والالتفات الى هذه الحرب البحرية الشديدة؛ وتلك هي الظروف نفسها التي لابست الجزائر والقت بها في احضان الدولة التركية العثمانية ووصلت اسبابها بأسباب المجموعة الاسلامية الكبرى في شرق البحر الابيض المتوسط وما يليه وبذلك انتهى الدور الزياني الثاني .

---

(١) انظر الجزء الاول .

ملوك الدولة الزيانية

- الدور الثاني -

	تاريخ التولية
ابو سعيد عثمان «الثاني» بن عبد الرحمن	٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م
ابو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن	٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م
ابو حمو موسى « الثاني » بن يوسف	٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ م
ابو زيان محمد «الثاني» بن عثمان	٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ م
ابو تاشفين عبد الرحمن «الثاني »	٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م
ابو ثابت يوسف الاول بن عبد الرحمن	٧٩٥ هـ = ١٣٩٣ م
ابو الحجاج يوسف بن موسى	٧٩٦ هـ = ١٣٩٤ م
ابو زيان محمد «الثاني» بن موسى	٧٩٦ هـ = ١٣٩٤ م
ابو محمد عبدالله « الاول » بن موسى	٨٠١ هـ = ١٣٩٨ م
ابوعبدالله محمد «الثالث »الواثق بالله بن موسى	٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م
عبد الرحمن « الثالث » - بن خولة -	٨١٣ هـ = ١٤١١ م
السعيد بن ابي حمو موسى	٨١٤ هـ = ١٤١١ م
ابو مالك عبد الواحد بن موسى	٨١٤ هـ = ١٤١٢ م
ابو عبدالله محمد «الرابع» - بن الحرة -	٨٢٧ هـ = ١٤٢٤ م

	تاريخ التولية
ابو مالـــك عبد الواحـــد « ثانياً »	٨٣١ هـ = ١٤٢٨ م
ابوالعباس احمد المعتصم ـ العاقل ـ بن موسى	٨٣٤ هـ = ١٤٣١ م
ابو ثابت محمد «الخامس» - المتوكل على الله ـ	٨٦٦ هـ = ١٤٦٢ م
تاشفين بن ابي ثابت	٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م
ابو ثابت محمد «السادس»	٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م
ابو عبد الله محمد «السابع»	٩٠٢ هـ – ١٤٩٦ م
ابو حمو موسى الثالث – ابو قلمون	٩٠٩ هـ = ١٥٠٣ م

من مشاهير الجزائر

الشريف التلمساني

(٧١٠–٧٧١ هـ (١٣١٠–١٣٧٠ م)

هو العلامة امام المغرب ابو عبد الله محمد بن احمد بن علي الشهير بالشريف التلمساني المعروف بالعلوي نسبة الى «العلويين» بسكون اللام وكسر الواو ، قرية من اعمال تلمسان ، حسني راسخ النسب لا يدافع في شرفه، ولد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ونشأ بها عفيفاً صيناً مكباً على الطلب شغوفاً بالعلم .

حكى عنه خاله عبد الكريم وكان يحبه صغيراً لذكائه ويصطحبه معه دائماً الى مجالس العلم والعلماء ، قال: حضرنا مجلس ابي زيد بن الامام في تفسير القرآن فذكر الشيخ نعيم الجنة ، فقال له الشريف وهو صبي : هل يقرأ فيها العلم ؟ فقال له الشيخ نعم ، فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين ، فقال له لو قلت لا لقلت لك لا لذة فيها !... فعجب منه الشيخ ودعا له .

تجول الشريف في انحاء المغرب الاسلامي شرقيه وغربيه ، طالباً العلم ، فأخذ عن علماء فاس وتونس كما اخذ عن مشيخة الجزائر ، وكان من اشهر اساتذته ولدا الامام ، والجاصي ، والقاضي ابو عبدالله التميمي، وابو عبدالله البروني ، وابو موسى عمران المشدالي، والآبلي والسطي ، وابن عبد السلام التونسي في آخرين، وتتلمذ له هذا الاخير في علوم الهيئة والحكمة والفلسفة ، وشهد له شيوخه كلهم بوفور العقل وحضور الذهن وكثرة التحصيل .

ثم عاد الشيخ الى موطنه ومسقط رأسه تلمسان متصدياً للافادة والاستفادة وشرع في تدريس العلم وارشاد العامة فأقبل عليه الناس على اختلاف طبقاتهم والتف حوله الطلبة يأخذون عنه فنوناً من العلم فكثر تلامذته وملأ المغرب علوماً ومعارف وتلاميذ فأحيا السنة وأمات البدعة ؛ ويذكر انه ابتدأ الإقراء وهو ابن احدى عشرة سنة ؛ وكان في تعليمه يترك الطالب وما تميل إليه نفسه من أنواع العلم ، فلا يحمل أحداً على نوع دون نوع ويرى الكل من السعادة ويقول : من رزق في باب من العلم فليلازمه .

ولما تملك السلطان ابو عنان المريني تلمسان سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٢م) استخلص الشريف أبا عبد الله لمجلسه العلمي مع من اختاره من المشيخة ، ورحل به الى فاس كما ذكره ابن خلدون : فتبرم الشريف من الاغتراب وردد الشكوى ، فاحفظ السلطان بذلك ، وارتاب به ، ثم بلغه اثناء ذلك ان السلطان أباسعيد عثمان ملك تلمسان أوصاه على ولده ، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من اهل تلمسان ، وان الشريف مطلع على ذلك ، فانتزع الوديعة وسخط على الشريف بذلك ونكبه وأقام في اعتقاله اشهراً ، ثم أطلقه اول سنة ست وخمسين وأقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده الى مجلسه الى أن هلك السلطان آخر سنة تسع وخمسين .

ولما ملك السلطان ابو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني تلمسان من يد بني مرين استدعي الشريف من فاس ، فسرحه القائم بالأمر يومئذ : الوزير عمر بن عبد الله ، فانطلق الى تلمسان ، وتلقاه ابو حمو براحتيه وأصهر له في ابنته ، فزوجها إياه وبنى له المدرسة الشهيرة باسمه سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م) وجعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه ، وأقام الشريف يدرس العلم الى أن هلك سنة ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) [١] .

انقطع الشيخ في مدرسته بتلمسان للبحث والنظر والدرس والتعليم والإرشاد

---

(١) أنظر ابن خلدون ج ٧ ص ٤٠١ - ٤٠٢ ط بولاق ع١٣٨٤

فكان يمضي جل اوقاته في ذلك مع ما كان عليه من التعبد والتهجد والزهد وتلاوة القرآن ، حكى عنه ولده ابو محمد عبد الله قال انه بقي دهراً ـ ما يزيد على ستة اشهر ـ لم ير فيها أهله وولده اشتغالاً بالدرس والبحث ، وهو مقيم بينهم ! ذلك انه كان عندما يستيقظ بكرة يغدو في حينه الى المدرسة وهم نائمون ، ولا يعود اليهم إلا ليلاً وهم نائمون ، ثم انه كان لا ينـام من الليل إلا قليلا ، – كانوا قليلا من الليل ما يهجعون – واذا غلبه النوم نام نومة خفيفة ثم اذا استيقظ لا يعود ويقول : أخذت النفس حقهـا فيتوضأ والوضوء من أخف الأشياء عنده ثم يرجع للنظر ، وربما وضع له الطعام في رمضان فيشغله النظر ويؤتى بسحوره فيتركها معـاً كذلك حتى يصبح ويواصل الصوم !.. وكان من كثرة ازدحام الطلبة عليه يوزع بينهم ساعات الدرس بالرملية .

أجمع أهل التراجم والطبقات على امامة المترجم وكماله في علمـه وصلاحه وأخلاقه ، فذكروا انه كان من أحسن الناس وجهاً وقدراً : مهيباً ، ذا نفس كريمة وهمة نزيهة ولهجة صادقة ، حليماً لا يغضب ، واذا غضب قام فتوضأ، قويّ النفس ، رفيع الملبس بلا تصنع ولا تكبر ، جميـل العشرة بساماً ، منصفاً عادلاً ، متوسطاً في أموره ، طويل اليد كريماً ، يكرم ضيفه ويقرب له ما حضر ، يطعم الطلبة طيب الأطعمة ولذيذهـا ولا يؤثر عنهم غيرهم ؛ وكثيراً ما كانت ترد عليه الأسئلة من السلطان فما دونه فيوجههـا الى الطلبة ويسميهم بأسمائهم لرفع منزلتهم عند السلطان وغيره، فكانوا بذلك على عهده من أعز الناس واكثرهم عدداً وأوسعهم رزقاً.

كان فيمن أخذ عن الشيخ ممن اشتهر ذكره من علـماء المغرب وأعيانه : العلامـة ابن خلدون ، والامام الشاطبي ، وابن زمرك ، وابراهيم الثغري ، وابو عبد الله القيسي ، وابن عباد ، وابن السكاك ، وابن محمد بن علي المورقي، وابراهيم المصمودي الخ ..

وذكره ابن خلدون فقال : هو صاحبنا – يعني صاحب الترجمة – الامام العالِم الفذّ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والاصول . وذكره

الونشريسي فقال : انه كان اماماً في العلوم العقلية كلهـا ، منطقاً وحساباً ، وفرائض ، وتنجيماً ، وهندسة وموسيقى ، وتشريحاً ، وفلاحـــة وكثيراً غيرها من العلوم القديمة – يعني بها علوم الحكمة – ؛ وذكره السراج في فهرسته فقال انه بلغ رتبة الاجتهاد ؛ كما ذكره بذلك ايضاً الجد بن مرزوق . وقال ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شيوخنا أعلم اهل عصره باجماع؛ وتذاكر المترجم يوما مع الامام ابن عرفه ، فقال له الامام : غايتك في العلم لا تدرك ؛ وكان الامام بن عبد السلام يقول عنه : ما اظن في المغرب عالما مثل هذا . واما الرئيس ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب فانه كان قلما الف او كتب كتابا الا ويبعث به الى الشريف طالباً منه ان يكتب عليه بخطه . وكان العلامة ابو سعيد بن لب شيخ علماء الاندلس يستفتيه ويستشيره فيما اشكل عليه من مسائل العلم فقها او غيره

ولشدة عناية الاستاذ المترجم بالاقراء والدرس لم يسعه الزمن وضع الكتب والتصنيف والتأليف ، فأنه لم يبلغنا بالنسبة الى غزارة علمه وسعة اطلاعه من خبر تآليفه ، الا القليل منها كتابه الجليل «مفتاح الوصول الى بناء الفروع على على الاصول»طبع بتونس سنة ١٣٤٦ هـ كما طبع بالقاهرة ، ايضاً (١٩٦٣م) كتب عليه شيخنا الامام عبد الحميد بن باديس شرحا وجيزا وضعه للطلبة حال تدريسه للكتاب ولم يطبعه ، وله شرح على جمل الخونجي في المنطق انتفع به خلق كثير ، وكتاب في القضاء والقدر ، وكتاب في المعاوضات او المعاطاة؟... وله فتاوى ورسائل واجوبة في مسائل من العلم مختلفة ؛ منها ما اجاب به عالم توزر الشيخ يحيى الرهوني ومنها غير ذلك

وكانت وفاة الشيخ رحمه الله ليلة الاحد الرابع من ذي الحجة سنة ٧٧١هـ (٢٩ جوان ١٣٧٠م) ببلدة تلمسان وحضر لدفنه السلطان ابو حمو الثاني قائلا في تعزيته لولده : مامات من خلفك وانما مات ابوك لي؛لاني اباهي به الملوك. وولاه مدرسة والده ورتب له جميع مرتباته.وقال ابن عرفة حين بلغه وفاته : لقد ماتت بموته العلوم العقلية

احمـــد بن علي الملياني
٧١٥ هـ (١٣١٥م)

هو الاديب الكاتب والشاعر العظيم صاحب العلامة ببلاط ملوك المغرب ابو العباس احمد بن علي الملياني ترجم له لسان الدين بن الخطيب في الاكليـــل وعرف بـه في الاحاطة قائـلا : « الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، اي اضطراب في وقـار وتجهم تحته انس العقار ، اتخـذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من اشياخ مراكش بثأر عمه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، اذ سموا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا في امره حتى قتل ، فترصد كتابـا الى مراكش يتضمر امراً جزماً ، ويشمل من امور الملك عزماً ، جعل فيه الامر بضرب رقابهم ، وسبي اسبابهم ، ولما اكد على حامله في العجل ، وضايقه في تقدير الاجل ، تأنى حتى علم انه قد وصل ، وان غرضه قد حصل ، فر الى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بانصارها ، حالاً بين انوفها وابصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون في آثاره ، ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على اعلام تلك القبيلة فتركها شنيمة على الايام ، وعارا في الاقاليم على حملة الاقلام ، وأقام بتلمسان الى ان حل مخنق حصارها وازيل هميان الضيقة عـن خصرها ، فلحق بالاندلس ولم يعـدم براً ورعياً مستمراً حتى اتاه حمامه وانصرمت ايامه فتوفي بغرناطة يوم السبت ٩ ربيع الاخر عام ٧١٥ هـ (١٣ جوليبط ١٣١٥م) ودفن بجبانة باب البيرة ومن شعره قوله في الفخر

العز ما ضربت عليه قبابي　　　والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما اهداه غصن يراعتي　　　والمسك ما ابداه نقش كتابي
فالمجد يمنع ان يزاحم موردي　　　والعزم يأبى ان يسام جنابي
فاذا بلوت صنيعة جازيتهـــا　　　بجزيل شكري او جزيل ثوابي

واذا عقـــدت مودة اجريتها مجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والنهى ثارا فاوشك ان انال طلابي

محمد بن مرزوق الحفيد

(٧٦٦ – ٨٤٢ هـ (١٣٦٤ – ١٤٣٩ م)

كان ممن اشتهر بالعلم والرئاسة والفضل من بيوتات الجزائر واعيانها في هذا العصر بيت ابن مرزوق الذائع الصيت ، وقد تقدم لنا الكلام على هذا البيت الرفيع العماد فيما اسلفناه من ترجمة ابن مرزوق الجد الشهير بالخطيب .

لقد تألق في سماء بيت ابن مرزوق بدور واقمار كان كوكبها الدري ونجمها الثاقب مترجمنا هذا العلامة الامام شيخ الاسلام ومفتي الانام ابو عبدالله محمد ابن احمد بن مرزوق الحفيد العجيسي ، [1]

ولد رحمه الله بتلمسان ليلة الاثنين ١٤ ربيع الاول سنة ٧٦٦ هـ (١٠ ديسمبر ١٣٦٤ م) ونشأ على غرار نشأة آبائه مستمسكاً بالعلم والدين فأخذ عن والده وعمه ابني الخطيب بن مرزوق ، وعن سعيد العقباني ؛ وابي اسحق المصمودي ؛ وابي الحسن الاشهب الغماري وعن ابي محمد عبد الله بن الشريف التلمساني ؛ ثم ارتحل الى تونس فلقي بها الامام بن عرفة ؛ وابا العباس القصار ثم دخل فاسا فاخذ بها عن الشيخ ابي زيد المكودي وابن حياتي ، والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفيلالي ، ثم اتصل بعد ذلك بالمشرق فدخل مصر القاهرة ، آخذاً عمن لقي بهـا من جلة العلماء كابن خلدون والفيروزابادي صاحب القاموس ، والنويري صاحب النهاية ، ومحب الدين بن هشام ولد صاحب المغني ، والسراج البلقيني ، والحافظ العراقي ، والشمس الغماري ،

---

(١) نسبة الى القبيلة الجزائرية العظيمة « عجيسه » المقيمة بجبال المسيلة شرقي صنهاجه وجنوب زواوة ، اي في نفس المكان الذي انشئت به قلعة بني حماد .

والقاضي ناصر الدين التنسي ، وابن الملقن، في آخرين من ذوي الفضل والتبريز ثم عاد الى المغرب .

وحج سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) رفقة الامام ابن عرفة فلقي بمكة المكرمة البهاء الدماميني ، والنور العقيلي فاخذ عنهما ، وروى صحيح الامام البخاري عن ابن الصديق ثم رجع الى وطنه ، وحج ثانيا عـام ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) فكان ممن لقيه واخذ عنه في هذه المرة الامام ابن حجر ، واجـازه من علماء الاندلس جماعة منهم محمد بن جزي ، وابن الخشاب ، وابو عبدالله القيجاطي، والمحدث الحفار ، والحافظ ابن علاق وغيرهم .

اشتهر ابن مرزوق الحفيد بما اشتهر به جده الخطيب من الرسوخ في العـلم والاطلاع الواسع والتحقيق المدقق في الدرس والذكاء وحسن البيان والخطابة والتوسع في الرواية ، والاحاطة بمذاهب الفقه الاسلامي وحل مقفلات المسائل العلمية والمشكلات ، هـذا بالاضافة الى كرم الاخلاق مع شدته على اهـل الاهواء والبدع ، فاجمع الناس يومئذ على فضله من المغرب الى الديار المصرية ، واشتهر ذكره في البلاد فصار يدعى بشيخ الاسلام وعالم الدنيا .

اثنى عليه تلميذه الشيخ عبدالرحمن الثعالبي فقال : « هو سيدي الشيـخ الامام الحبر الهمام حجة اهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحلة النقاد وخلاصتهم ورئيس المحققين وقادتهم ، السيد الكبير والذهب الابريز ، والعلم الذي نصبه التمييز ، ابن البيت الكبير ، والفلك الاثير ، ومعدن الفضل الكثير..» وقال ايضاً في موضع آخر : « شيخي الامام العلم الصدر الكبير المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين ، وامام الحفظة الاقدمين والمحدثين ، سيد وقته وفاروق اوانه ، ذو الاخلاق المرضية ، والاحوال الصالحة السنية ، والاعمال الفاضلة الزكية. » وقال تلميذه ابو الفرج بن ابي يحيى الشريف التلمساني : « شيخنا الامـام العالم العلم جامع اشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظاً وفهماً وتحقيقاً ، راسخ القدم رافع لواء الامامة بين الامم ناصر الدين بلسانه وبنانه وبالعلم، محيي السنة بفعله ومقاله وبالشيم ، حجة الله على العلم والعالم ... »

وقال تلميذه الشيخ يحيى بن ادريس المازوني في نوازله : « شيخنا الامام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ، ذو التآليف العجيبة ، والفوائد الغريبة . مستوفي المطالب والحقوق .. » وقال الحافظ التنسي وهو من تلامذته ايضاً: « شيخنا الامام العلامة رئيس علماء المغرب على الاطلاق ... » وذكره ابو الحسن القلصادي في رحلته فاثنى عليه وقال : « ادركت بتلمسان كثيراً من العلماء والزهاد والعباد والصلحاء واولادهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الامام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا ابو عبد الله بن مرزوق العجيسي رضي الله عنه ...» ويكفيه فخراً ان كان من بين تلامذته رحمه الله مثل هؤلاء الجلة : الثعالبي والمازوني والتنسي والقلصادي وابو الفرج بن يحيى الشريف التلمساني ؛ والعلامة ابو الفضل المشدالي ، ونصر الزواوي ، والحسن ابركان وقاضي الجماعة بتونس عمر القلشاني ، وابراهيم بن فائد الزواوي ، واحمد بن زكري ، والسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة ، واحمد بن يونس القسنطيني وابو العباس احمد بن عبد الرحمن الندرومي وعيسى بن سلامة البسكري ، والشهاب بن كحيل الخ ...

ومما يعد من فرط ذكائه وتوقد ذهنه وسعة علمه ما حكاه المقري عن سفر الشيخ الى تونس في بعض المأموريات السلطانية قال :

وحدثني عمي الامام سيدي سعيد المقري – رحمه الله – ان العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية ، طلب منه أهل تونس ان يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان ، فاجابهم الى ذلك ، وعينوا له محل البدء فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القاري غير ذلك ، وهو قوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث .. الآية ...) وارادوا بذلك افحام الشيخ والتعريض به فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم – وقد فطن للمسألة ! – الى ان اجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة وساقها احسن مساق وانشد عليها الشواهد وجلب الحكايات ، حتى عد من ذلك جملة ، ثم قال في آخرها: فهذا ما حضرني من محمود افعال الكلب

وخصاله ، غير ان فيه خصلة ذميمة : وهي انكاره للضيف ، ثم افترق المجلس - قال المقري - واخبرني انه اطال في ذلـــك المجلس من الصبح الى قرب الظهر . [1]

واما تآليفه فقد ذكر له اهل التراجم والسير منها عدداً جما ، ولم يصلنا منها الا القليل ؛ فمن ذلك وهو ما وقفت عليه بنفسي : جزآن من شرح البخاري كلاهما كان موجوداً بالجامع الجديد بالجزائر وهما بخط المؤلف . ثم فقد الاول منها وبقي الثاني ! .. وبعد مدة وقفت على نسخة من الجزء الاول وهي بخط مغاير لخط الجزء الثاني واجمعنا على انها بخط الثعالبي؟ ... ولايزال الجزآن بخزانة الجامع الجديد تحت عـــدد ١٤٣ و ٤٤٣ وهو شرحه المسمى بالمتجر الربيح ، والمسعى الرجيح ، والمرحب الفسيح ، والوجه الصبيح ، والخلق السميح ، في شرح الجامع الصحيح ، وهو لعمري من اوسع الشروح واغزرها مادة واجزلها مباحث، وربما هو كما قال مؤلفه : اغنى عن الشروح الكاملة ..

وكتاب اظهار صدق المودة ، شرح به بردة المديح ، تكلم على كل بيت منها وشرحه بسبعة فنون ، رأيت منه نسخة مخطوطة في حجم ضخم عنـد صديقنا الاستاذ احمد بن حمودة في منزله بالابيار بضواحي مدينـــة الجزائر ؛ والمفاتيح المرزوقية لحل الاقفال واستخراج خبايا الخزرجية في عـلم العروض والقوافي ، وهو بمكتبتنا الخاصة ، وكتاب اسماع الصم في اثبات الشرف من جهة الام منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم (٢٠٦٧) هذا ما وقفت عليه وعاينته من تآليفه رحمه الله واما غيرها مما لم اره فكثير منهـــا ما تم تأليفه وكمل ومنها ما لم يتم واليك قائمة اسمائهـا : شرحان آخران للبردة ، اوسط واصغر ، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطسية ، ورجزان في علم

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٥٢ ط القاهرة ١٩٤٩ م - ١٣٦٩ هـ وسعود المطالع للابياري ج ١ ص ٣٤٨ ط بولاق ١٢٨٣ هـ

الحديث : الكبير المسمى بالروضة جمع فيه بين الفيتي ابن ليون والعراقي ، ومختصر الحديقة اختصر فيه الفية العراقي ، وارجوزة في الميقات اسماها بالمقنع الشافي في الف وسبعمائة بيت، وارجوزة الفية في محاذاة الشاطبية، وارجوزة نظم بها تلخيص المفتاح ، وارجوزة اخرى في تلخيص ابن البناء وارجوزة نظم بها جمل الخونجي في المنطق ، ذكر الصبان في حاشيته على شرح الملوي على سلم الاخضري ان المترجم نظم الخونجي في عهد صباه بحيث لم يتجاوز سنه ست سنين ؟ .. وقال ان ذلك اشار اليه ابن مرزوق نفسه في نظمه ، ولا أدري كيف امكن له ذلك وهو في هذا السن من العمر ، اللهم الا اذا كان ذلك من قبل معجزة عيسى عليه السلام : ويكلم الناس في المهد .... وله ارجوزة في اختصار الفية ابن مالك ، ونهاية الامل في شرح جمل الخونجي واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة يعني ابا يحيى بن عقيبة ــ والمعراج الى استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج « اجاب به قاضي الجماعة بغرناطة العلامة ابن سراج عن مسائل نحوية ومنطقية » ونور اليقين في شرح اولياء الله المتقين والدليل الموفى في ترجيح طهارة الكاغد الرومي ، والنصح الخالص في الرد على المدعي رتبة الكمال للناقص ، كتبه في سبعة كراريس رد به على فتوى عصريه وبلديه الامام قاسم العقباني الذي افتى باصابة بعض اعمال واقوال صدرت عن بعض المتصوفة . فخالفه فيها ابن مرزوق . ومختصر الحاوى في الفتاوى لابن عبــد البر التونسي . والروض البهيج في مسألة الخليج وانوار الدراري في مكررات البخاري . ورسالة في ترجمة شيخه ابراهيم المصمودي وتفسير سورة الاخلاص على طريق الحكمــاء . وله فتاوى واجوبة متنوعة اورد بعضها المازوني والونشريسي في كتابيها ، وله شرح على ابن الحاجب وشرح على التسهيل .

وميز بعضهم مؤلفات الشيخ التي لم تكمل فذكر منها المتجر الربيح وروضة الاريب في شرح التهذيب ، والمنزع النبيل في شرح مختصر خليل ، شرح منه الطهارة في مجلدين ضخمــين ، ومن باب الاقضية الى آخر الكتاب في سفرين

لخصه العلامة الراعي ، وايضاح المسالك في شرح الفية ابن مالك انتهى فيه الى باب اسم الاشارة او الموصول ، وهو مجلد واحد ، ومجلد في شرح شواهد شراحها الى باب كان واخواتها ، وعقيدة اهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد وعلى منحاه بنى السنوسي عقيدته الصغرى ، والآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات ، والدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم، واسماع الصم .

كانت وفاته رحمه الله يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٨٤٢ هـ (٣٠ جانفي ١٤٣٩ م) وصلي عليه بجامع تلمسان الاعظم ، وذكر صاحب البستان انه دفن به كما هو الضريح المعروف به اليوم وحضر جنازته السلطان والاعيان .

محمد بن يوسف الثغري

اواخر القرن الثامن الهجري

هو العالم الاديب الكاتب البارع والشاعر المفلق ابو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري من اشهر شعراء تلمسان وبلغائها المبرزين المقدمين لدى سلاطينها وملوكها، وصفه المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الامام العالم العلامة الاديب الاريب الكاتب ، وترجم له ابن ابي مريم فقال : اخذ عن الشريف التلمساني وغيره وحلاه المقري في ازهار الرياض بقوله : الفقيه العلامة الناظم الناثر .

كان رحمه الله ملازماً لبلاط السلطان ابي حمو موسى « الثاني » وله القصائد الغراء الطوال التي كان ينظمها بمناسبة احتفال السلطان بليلة المولد الشريف ، ويلقيها بنفسه في ذلك الحفل الجليل ، منها ما نظمه في مطلع قصيدته التي انشدها ليلة مولد سنة ٧١٧ هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٩ م) :

اقصر فان نذير الشيب وافاني   وانكرتني الغواني بعد عرفان

وقد تماديت في غي بلا رشد | والنفس تأمرني والشيب ينهاني
فقلت للنفس اذ طالت بطالتها | مهلا الم يان ان تخشى الم يان
كم من خطا في الخطايا قد خطوت ولم | تراقب الله في سر واعلان
فلا تغرنك الدنيـا بزخرفها | فيا ندامـة من يغتر بالفاني

وله قصيدة رفعها الى السلطان ابي حمو يصف بها تلمسان فيقول :

ايهـا الحافظون على عهد الوداد | جددوا انسنا ببـاب الجياد
وصلوهـا اصائلا بليـال | كلآل نظمن في الاجيـاد
في رياض منضـدات المجاني | بـين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيـدات المبـاني | باديات السنى كشهب بوادي
رق فيها النسيم مثـل نسيبي | وصفا النهر مثـل صفو ودادي
وزهـا الزهر والغصون تثنت | وتغنت عليـه ورق سوادي
وانبرى كل جـدول كحسام | عاري الغمد سندسي النجـاد
وظلال الغصون تكتب فيه | احرفاً سطرت بغـير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود | قضب فوقه ذوات امتـداد
وكؤوس المنى تدار علينـا | بجنى عفة ونقـل اعتقـاد
واصفرار الاصيل فيهـا مدام | وصفير الطيـور نغمة شادي
كم غدونا بهـا لانس ورحنا | جادها رائح من المزن غادي
ولكم روحة على الدوح كادت | ان تريح الصبا لنا وهو غادي
رقت الشمس في عشاياه حتى | احدثت منه رقـة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب | هاجه الشوق بعد طول البعاد ..الخ.

وتحتوي القصيدة على تسع واربعين بيتاً ، وله غـير ذلك من غرر الشعر ولطائفه اورد له علامة الجزائر واديبها المتفنن ابو العباس احمـد بن عمار نبذة طيبة في رحلته « نحلة اللبيب » والمقري في « الازهار » فراجعها .

جدول تاريخي

٧٣٧ - ٩١٦ هـ

١٣٣٧ - ١٥١١ م

اهم الحوادث وابرز الاحداث	تاريخ الحوادث
بسط سيادة بني مرين على المغرب الاوسط - الجزائر -	٧٣٧ هـ - ١٣٣٧ م
نهضة بني عبد الواد لاسترجاع سلطتهم على الجزائر	٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م
انبعاث الدولة الزيانية على يد السلطان ابي حمو « الثاني »	٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م
احتلال بني مرين لتلمسان ومحارباتهم لبني زيان	٧٦١ هـ - ١٣٦٠ م
ثورة ابي زيان الفتى على ابي حمو	٧٦٥ هـ - ١٣٦٤ م
خراب مدينة الجزائر بالزلزال الهائل	٧٦٦ هـ - ١٣٦٥ م
انكسار ابي حمو في وقعة بجاية ضد الحفصيين	٧٦٧ هـ - ١٣٦٦ م
انحصار الثعالبة بمتيجة والجزائر	٧٧١ هـ - ١٣٧٠ م
سقوط تلمسان في قبضة بني مرين وخروج ابي حمو الى البراري	٧٧٢ هـ - ١٣٧٠ م
عودة ابي حمو الى ملكه	٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م
مبايعة اهل مدينة تدلس - دلس - لبني زيان وانتشار الجماعة الكبرى بالجزائر	٧٧٦ هـ - ١٣٧٥ م
ثورة ابي تاشفين ولد ابي حمو واستشهاد والده	٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م
ثورة ابي زيان بن ابي حمو	٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م
تنكر مرين لبني زيان وسقوط تلمسان في ايديهم	٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م
تناحر امراء الاسرة الزيانية على الملك - بايعاز المرينيين -	٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م
هجوم الافرنج على مدينة بونة ومرسى القل	٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م
اغارة مرين وقبضها على السلطان ابي محمد عبدالله « الاول »	٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٨١٤ هـ – ١٤١١ م	انتصار الامير ابي مالك عبد الواحد على اخيه السلطان السعيد باعانة مرين
٨٢٧ هـ – ١٤٢٤ م	زحف الحفصيين الى مملكة تلمسان وتدخلهم في سياستها
٨٣٣ هـ – ١٤٣٠ م	ثورة الامير ابن الحمرة ونهايته
٨٤٠ هـ – ١٤٣٧ م	ثورة الامير ابي يحيى على اخيه السلطان العاقـــل واستيلاؤه على نواحيها
٨٤٢ هـ – ١٤٣٨ م	ظهور المستعين بالله بالجزائر واستيلاؤه على نواحيها .
٨٥١ هـ – ١٤٤٧ م	استرجاع السلطان العاقل لوهران
٨٥٦ هـ – ١٤٥٢ م	ابتداء الهجرة الاندلسية الى السواحل الجزائرية
٨٦٦ هـ – ١٤٦٣ م	ثورة الامير المتوكل واستيلاؤه على اطراف المملكة الجزائرية
٨٦٧ هـ – ١٤٦٣ م	استيلاء الاسبان على بونة – عنابة –
٨٦٨ هـ – ١٤٦٣ م	استقلال الجزائر عن الحكومة الحفصية ورفض دعوتها ثم الاستسلام لها
٨٩٧ هـ – ١٤٩١ م	التجاء السلطان ابي عبدالله بن سعد المعروف بالزغل–من بني الاحمر النصريين ملوك غرناطة – الى وهران ثم الى تلمسان؛ وبها اعقب من عرف هناك من بقيه ببني سلطان الاندلس
٩١١ هـ – ١٥٠٥ م	احتلال الاسبان للمرسى الكبير بوهران
٩١٥ هـ – ١٥٠٩ م	احتلال مدينة وهران ثم دلس؛ ثم بجاية وتنس وشرشال وسقوط السواحل الجزائرية بيد الاسبان
٩١٦ هـ – ١٥١١ م	الجزائر تحت الخطر الاسباني

الجزائر المكافحة

الحملة الاسبانية والأتراك

كانت الجزائر في اوائل القرن العاشر الهجري مرتعاً للحروب الاهلية الممزقة وغرضاً ملحوظاً للاجانب المتوثبين ، تعاني الامرين من الملوك المتنافسين والرؤساء الجائرين المتنازعين والنصارى المغيرين تتميماً لبرامجهم وخططهم الصليبية المرسومة فكثر يومئذ ازدحامهم واشتد تحاككهم على هذا الشمال الافريقي وخاصة منه الجزائر ، وذلك بعدما قضوا على دولة الاسلام والمسلمين بالاندلس وصقلية ، وقد من الله على اهل الجزائر واولاهم بمن يدافع عنهم ويرد صولة هذه الاعتداءات الافرنجية ويفل سلاحها ، وذلك بالهامهم الى الالتجاء الى الامير البحري أروج بن يعقوب المدلي التركي واخيه خير الدين المتجولين بمراكبها القرصنية بهذا البحر الابيض المتوسط ، وقد اظهرا من البطولة الخارقة والغيرة الاسلامية على اهل الجزائر والاندلس ما يسجله التاريخ لها بافخر الذكر وجزيل الشكر ، فكان انقاذ الموقف بمقاومتها العنيفة لهؤلاء المغيرين من الاسبان وغيرهم من دول النصرانية ، ودفعها عن الجزائر كل ما كانت مهددة به من الاخطار كما سنذكره في محله من تاريخ الاتراك بالجزائر في هذا الكتاب .

ومنذ يومئذ والجزائر في كفاح واحتجاج مستمر ضد الاجنبي الذي تكررت اعتداءاته المتنوعة عليها في احيان وظروف مختلفة الى اليوم ، وستقف بنفسك فيما نعرضه عليك من مراحل تاريخ الجزائر على تفاصيل مدققة

مضبوطة تنبئك بما كان ولا يزال عليه الجزائريون المغاوير الامجاد من الكفاح وتطلعك على مبلغ ايمانهم وثباتهم على المبدأ واستماتتهم في سبيل تحرير البلاد من ربقة الاستعباد .

وقاوم الاتراك الاسبان واحتلوا تلمسان سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) كما سنقصه عليك مفصلاً ، ونقلوا سلطانها ابا حمو الى وهران ونصبوا مكانه ابا زيان احمد الثاني .

ولاية السلطان ابي زيان احمد « الثاني »

هو السلطان ابو زيان احمد « الثاني » بن عبد الله « الثاني » انتصب على عرش تلمسان سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وكان اول ما قام به من الاعمال ان اخذ في دفع الاتراك عن ولايته باعتبارهم اجانب مزاحمين فاجتهد في اجلائهم عن مملكته وقاتلهم حتى استشهد في طائفة عظيمة من ذويه واقربائه وبني عمه ومات يومئذ من جنده نحو الف نسمة ونزل أروج بتلمسان .

زحف ابي حمو واستشهاد أروج

كان اثر ما احتل أروج تلمسان ان اسرع ابو حمو الى استنجاد الاسبان والاحتماء بهم ضد الاتراك فاعانوه وحاصروا معه تلمسان وضربوا اوتادهم بها في جمادى الاولى سنة ٩٢٤ هـ (ماي ١٥١٨ م) ، وكان من حسن حظه ان تأخر المدد عن أروج فاضطر الى الانسحاب من العاصمة الزيانية وغادرها منصرفاً الى ناحية الوادي الملح ، وفي منصرفه هناك بقرب مقطع الوادي اخذه فرسان الاسبان من مكمن لهم غيلة فقاتلهم حتى استشهد رحمه الله بالميدان فحزوا رأسه واخذوه معهم الى اسبانيا يطوفون به الشوارع تسكيناً للرعية التي كانت ترتعد فرائصها فرقاً لذكره . ويروى على السن بعض القالة ان جثته نقلت الى الجزائر فدفنت بجوار ضريح « سيدي رمضان » بجانب

المسجد الجامع المعروف الى اليوم ، وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان ابي حمو « الثالث » .

ولاية السلطان ابي محمد عبدالله « الثاني »

هو السلطان ابو محمد عبدالله « الثاني » بن السلطان ابي ثابت « الثاني » المعروف باسم محمد المتوكل على الله ، تولى عرش تلمسان سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨م) والجزائر يومئذ تتدافع وتتقاذف بين جاذبيتين عظيمتين، ما بين اتراك واسبان كل منهما يحاول الاستيلاء عليها وضمها اليه ؛ فاحدث ذلك قلقاً واضطراباً ، فاجتهد السلطان ابو محمد في اخماد نار الفتنة واطفائها والسعي في اكتساب مسالمة الطرفين او المتاركة على الاقل فلم ينجح .

ثورة الامير ابي سرحان وتملكه

كان الامير ابو سرحان المسعودالزياني مبعداً بفاس من طرف اخيهالسلطان المذكور ، واتفق ان فاز يوماً بعفوه فخرج من منفاه معتزماً على اخذ ثأره من اخيه بعزله عن العرش ، فتنكب في طريقه الى تلمسان وذهب مستنجداً بخير الدين التركي ، فامده امير البحر هذا بكل ما لديه من القوة من جيش ومال ، على ان ينضوي تحت سلطة الدولة التركية ويبايع السلطان سليم العثماني مع دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة ، فتم عقد ذلك بينهما واقتحم ابو سرحان مدينة تلمسان فامتلكها سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) وطرد عنها اخاه ابا محمد .

عودة ابي محمد الى الملك

ولما تمكن ابو سرحان من الملك واستقر على عرشه لم يلبث ان نزت في رأسه سورة الانفة ، وملكته عزة النفس فرفض العهد الذي ابرمه مع خير

الدين واعلن استقلال دولته عن كل سلطة اجنبية ، فاظلم الجو بينه وبين الاتراك ، وكان اخوه ابو محمد في انتظار مثل هذه الفرص السانحة ليثب الى غرضه ، وبمجرد ما ظهرت هذه البادرة من ابي السرحان اسرع ابو محمد الى استثمار الموقف وبادر الى خير الدين فضمن له الوفاء بما عاهده عليه اخوه من قبل ، فآزره خيرالدين وايده على خطته فانتصر ابو محمد على اخيه واسترجع حقه الشرعي في العرش وعاد الى ملكه كما كان . وفر ابو سرحان متنقلاً في انحاء القطر مصلتاً سيف الفتنة الى ان وقع في قبضة السلطان فاسره. ويومئذ انقطع الملك الى مقاومة الاسبان ومطاردتهم من الجزائر .

نقض معاهدة الاتراك

بما ان الدولة التركية حديثة العهد بالجزائر يومئذ وانها لم تزل في بداية امرها فلم تستكمل عدتها ولم تتمكن من بسط يدها على اطراف الوطن ، نظر اليها السلطان ابو محمد نظرة استصغار واستخفاف وبادر باعلان نقض المعاهدة والميثاق الذي ابرمه مع خير الدين ، فتنمر له الاتراك يومئذ واروه شدة بأسهم ، فخضع صاغراً لتنفيذ مواد الوثيقة بحذافيرها ، ثم كانت وفاته سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) فخلفه ولده محمد .

ولاية السلطان محمد « السابع »

هو السلطان ابو عبد الله محمد « السابع » بن السلطان ابي محمد عبد الله « الثاني » تولى الملك عن ابيه سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) وشأن الحكومة الزيانية يومئذ في ادبار وانهيار ، فانحاز الى الاسبان محتميا بهم ضد الاتراك ، واليك رسالته الحربية التي كتبها الى امبراطورة الاسبانية « دنيا ايزابيل » تمثل لك مبلغ امله في الاسبان وتعلقه بهم في سياسته ضد خصومه الاتراك ، كما تستشف منها ايضاً نموذجاً من اسلوب الانشاء العربي الديبلوماسي ببلاط ملوك الجزائر يومئذ ، جاء اولا في عنوان الوثيقة – او الرسالة – ما يلي :

« الحمد لله تعالى ، حمداً كثيراً يتجدد ويتوالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

« الحضرة التي جل في الاقدار قدرهـــا ، واشتهر في الفضائل والمفـاخر فضلها وفخرها ، حضرة السلطانة الجليلة المرفعة الاصيلة الفاضلة الكاملةالشهيرة الخطيرة ، الانبراطريس ، دونيا ازابيل اسعدها الله بتقواه ووفقها لمـا يحبه ويرضاه كتبناه اليكم من حضرتنا تلمسان حرسها الله ، ونحـــن نحمد الله الذي لا شيء كمثله ، ونشكره على جميل احسانه وفضله ، ونسأله اليمن والتوفق في شأننا كله ، وعندنا لجنابكم المرفع كرامة نستوفيها ، ومبرة لا شك فيهـــا ، وعلمنا بمجدكم الشهير ، وقدركم الخطير ، يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها ، والى هذا فموجب كتبنا اليكم ، هو اعلامنا واياكم بما نحن عليه من الوفاء القديم والتمادي من الاسباب المرعية على المنهج القويم ، وقـد وصلنا كتابكم المعظم ، وخطابكم المكرم ، صحبة خديمكم الفارس المحترم لويش هرندس ، وعرفنا منه جميع ما ذكرتم : واستوفينا ما شرحتم ، فقابلنا تعريفكم بالشكر الجزيل ، واثنينا على مقامكم الثناء الجميل ؛ عملا على ما ثبت لدينا من ودكم ، وتقرر ، وتردد وتكرر ، واننا الآن وجهنا اليكم من يجدد العهد بهذا الغرض ، ويقوم منه بالواجب المفترض ، ويقرر لديكم معتقدنا من صدق الوداد وخالص الاعتقاد وهو اعز قوادنا ببابنا الكريم ، والمعتمد منا بمزيد التفضيل والتقديم ، الاصيل المجد في ذوي الحسب الصميم ، القائد المرفع المحترم ، الثقة الامين على اسرارنا في البدء والمختتم ، الفارس ابن عبد الله ابن وزير دولتنا وبلادنا ورئيس حماتنا وانجادنا الشيخ الوزير محمد بن ابي غانم حفظ الله رتبته ، وحرس وجهته ، ومعه خديمكم لويش هرندس اكرمه الله فوجهناه اليكم ليطالعكم بعيون الاخبـــار وجميع المتزايدات بهذه الاقطـــار ؛ ولتلقوا اليه ما ينفذ به امركم من جلب المصالح ؛ وما يعود علينا وعليكم نفعه من النظر السديد والرأي الناجح فان نيتنا في ودكم ما زالت ، واغراضنا جارية على ما يليق بنا وبكم ما تبدلت ولا حالت ، ولا تلتفتوا لما كنا موهنا به في العام السالف من تقديم من قدمناه

بوطن اغيال ، وما خيلنا من تلك الاحوال ؛ فمقامكم اوسع فضلا ، وارجح عقلاً ؛ من ان يظن ان ذلك كان منا عن حقيقة ؛ او انا ارتضينا سلوك تلك الطريقة ؛ بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر وما هو يرومه من تشغيبنا في الباطن والظاهر ، ففعلنا ذلك طمعاً منا في مهادنته وحيلة لجلب محاسنته ، ولما اعيانا أمره واشتد تنكيره وضره ، اظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته وقابلناه بما يليق بفساد نيته وخبث سريرته وقد توفر الآن عزمنا في اعمال الحركة عليه والتوجه بكل وجه يمكن اليه ، فجميع العرب والقبائل على حربه متفقون والى تضييقه وحصاره شارعون ، وغرضنا منكم ان تبادروا بتوجيه العمارة في الحين والوقت بالجد والعزم وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد والاخذ بالحزم وتكونوا عليه براً وبحراً يداً واحدة وفئة مساعدة وتجاوبونا مع الرسولين المذكورين بما يظهر لكم وما يقتضيه في ذلك نظركم وفعلكم ، هذا ما عندنا عرفناكم به شافياً ، ولتكميل المقاصد كافياً ان شاء الله ، وكتب عن امر عبد الله المتوكل على الله امير المسلمين عبد الله بن مولانا امير المسلمين ابي عبد الله ايده الله ونصره في ثامن عشر جمادى الأخرى عام تسعة وثلاثين وتسعمائة . »

ولا يزال اصل هذه الوثيقة محفوظاً ضمن مجموعة المخطوطات والوثائق السياسية الدبلوماسية المختلفة بدار المحفوظات في قلعة « سيمانقا » قرب بلد الوليد « Walla dolid » باسبانيا . ويوافق تاريخ هذه الوثيقة من التاريخ الشمسي ١٥ جانفي ١٥٣٣ م .

والسبب في ان سلطان تلمسان يوجه رسالته هذه باسم – الأنبراطريس دونيا – دون زوجها شارلكان ؛ هو ان زوجها الامبراطور كان يومئذ بعيداً عن اسبانيا مشتغلاً بمحاربة جيوش السلطان سليمان العثماني على ضفاف نهر الدنوب .

ونجحت سفارة امير تلمسان ورأى الاسبان ان لا تفوتهم هذه الفرصة يومئذ فارسلوا اليه من اسطولهم اربع عشرة سفينة رست كلها بمرسى هنين القريبة

من تلمسان ، وكان قد سبق ان عقد السلطان مع الاسبان حلفـــاً على قتال خير الدين وتعهدوا له بمقتضاه ان ينزلوا له عن مدينة الجزائر اذا استولوا هم عليها .

وقد سوغت هذه المعاهدة (لشارل الخامس) حق تشييد ثكنة لجنوده بمدينة ارشقول - رشقون - الواقعة عند مصب نهر مينة وطالما كانت هـذه أمنية ملك الاسبان منذ امـــد بعيد وذلك للحيلولة بين مستعمرته وبين الاتراك حتى لا يجدوا منفذاً يسلكونه او يقربهم الى نهر مينة .

وجمع امير المسلمين قواته العسكرية المجتمعة من العرب والبربر وزحف بهم الىمدينة الجزائر،وقد تشجع بمؤازرة الاسبان لهفتحدىخيرالدين،فبادر يومئذ خير الدين الى اعلان الحرب والتقى الفريقان على مقربة من الجزائر ، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها سلطان تلمسان ومزقت قواته ففر في فلول جيشه ورجـــع القهقرى الى عاصمته ، واستمر خير الدين مكراً في اثره . وعندئذ اضطر السلطان الى طلب الهـــدنة والصفح عنه من خصمه الظافر فعفا عنه خيرالدين . امـا سفن الاسبان فبقيت في مرساها ترقب الفرص ، ولم تشترك يومئذ في القتال فلم يغن وجودها عن السلطان شيئاً [1] بل كانت عليه فيما بعد حيث غزا الاسبان بعد ذلك تلمسان في ثلاث دفعات مستعينين باحلافهم بني راشد فنجحوا فيها كلها ، واحتلوا تلمسان واهانوا بها المساجد والمعابد وعبثوا بكتب العلم والدين ؛ ثم انقلب عنهم أحلافهم فانكسروا واسر عـدد منهم فصاروا في قبضة بني زيان ومن بينهم قائدهم « مارطان دي آكيلو » ويومئذ جنحوا الى السلم فكانت هذه المعاهدة في مصلحتهم فاضطرب لذلك اهـــل المملكة الجزائرية قاطبة واشتد هيجانهم لهذه المعاهدة المشؤومة عليهم فنهض لها ابو زيان فخلع اخاه وتولى مكانه .

---

(١) محمد عبدالله عنان : مجلة الكتاب ، جمادى الاولى ١٣٧٢ هـ

ولاية السلطان ابي زيان «احمد الثاني»

هو السلطان ابو زيان احمد (الثاني) بن السلطان ابي محمد عبدالله (الثاني) استوقد غضبه وساءه ما رأى عليه حالة مملكته الجزائرية من الانحلال والاضمحلال وتساقطها شيئاً فشيئاً بيد الاسبان ؛ فاشتد لذلك غيظه ونهض نشطاً الى انقاذها وتخليصها من هؤلاء الغزاة الغاصبين فاجتهد اولاً في مقاومة اخيه محمد (السابع) حتى ظفر به فخلعه عن العرش وتولى مكانه سنة ٩٤٩ هـ (١٥٤٢م) فذهب آنئذ محمد الى وهران مستجيراً بالاسبان وحينئذ عمل ابو زيان على الارتباط بدولة الاتراك في الجزائر لمحاربة الاسبان ، وغزا المرسى الكبير بوهران في ربيع الثاني ـ جوليط ـ من هذه السنة وكانت هنالك الخيانة فخابت الحملة الاسلامية .

زحف السلطان المخلوع الى تلمسان

عاد السلطان المخلوع مع حماته الاسبان الى مقاومة اخيه ابي زيان وكان اللقاء بينهما في شوال ٩٥٠ هـ جانفيي ١٥٤٣ م ، بشعبة اللحم بنواحي عين تموشنت فانهزم ورد بخيبته ، ثم كرر حملته مستجيشاً بعاهل النصرانية « شارلكان » فجاء العاهل ومعه في هذه المرة عشرة آلاف مقاتل فاحتل تلمسان في ذي الحجة ٩٥٠ هـ (١٥٤٤م) وعاث الجند الاسباني فيها بما لا تفعله سباع الغارة فانخذل ابو زيان واستعاد ابو عبدالله عرشه .

خيبة ابي عبدالله وعودة ابي زيان

ولما كان انتصار ابي محمد على اخيه وتسلطه على العرش بطريق غير شريف حيث استنهض على اخيه الصليبيين وجاء باعداء الاسلام الى هذه البلاد المسلمة ، احتدم غيظ الرعية هذه فقاومته وانتقمت منه فخرج منهزماً الى قبيلة (انكاد) على نحو ثلاثين كيلو متراً من وجدة مستعيناً باحلافه الاسبان ؛ فاخفق في سيره وانكسر شر انكسار ثم قتل ؛ وعاد ابو زيان الى العرش .

استشراف الدولة السعدية

مـا برحت دولة الاشراف السعديين بالمغرب الاقصى تنظر الى حوادث الجزائر وتتبع وقائع المملكة الزيانية بغايـة الدقة والعناية ، ولم تزل ترقب جميع حركاتها وسكناتها حتى سنحت لها في هذه المرة ـ وسط هذه القلاقل والاضطرابات ـ فرصة الوثوب لضمها الى مملكتها ، فانتهزتها وزحف سلطانها المولى محمد المهدي السعدي بنفسه الى المغرب الاوسط فاحتـل تلمسان بدون معارضة من اهلهـا ، وذلك يوم الاثنين ٢٣ جمـادي الاولى ٩٥٧هـ (٩ جوان ١٥٥٠ م)؛ واشيع يومئذ انه قادم على غزو مدينـة الجزائر وطرد الاتراك منها ، فاسخط ذلك باي لارباي الجزائر واسرع ببعث الحاميـة الى تلمسان فالتقي الجمعـان قرب مستغانم على ضفاف الوادي المالح فانهزم السعديون الى داخل المغرب الاقصى، وتقدم حاكم الجزائر حسن باشا الى تلمسان فعزل عنها ابا زيان وولى مكانـه مولاي الحسن بن عبد الله الزياني تحت اشراف وتصرف الضابطالتركي سفطة .

ولاية السلطان مولاي الحسن

هو السلطان مولاي الحسن بن عبد الله « الثاني » آخر ملوك دولة بني عبد الواد الزيانيـــة بالجزائر : تولى عرش تلمسان سنة ٩٥٧ هـ (١٥٥٠ م) تحت اشراف دولة الاتراك بالجزائر ، فكان وهو في ملكه جالساً على عرش اجداده كعامل موظف على هذه الولاية لا غير ؛ اذ ليس له من النفوذ شيء ويصفه التاريخ بالعجز والقصور في تدبير سياسته وتسيير مملكته، وان عهده كان عهد ظلم وعسف ، واظهر ميله للاسبان فنقم عليه الناس وابتعدوا عنه فحرم مودة شعبه : واجمع مجلس العلماء يومئذ على عزله، فبادر حينئذ باي لارباي الجزائر صالح رئيس الى خلعه ، فخرج آنئذ ٩٦٢ هـ (١٥٥٤م) الى وهران فتوفي بها موبوءا سنة ٩٦٣ هـ (١٥٥٥ - ٥٦م) ؛ وقيل انـــه توفي بالاندلس وهنالك تنصر ولده ؟... فتسمى باسم كارلو . وضمت اعمال تلمسان نهائياً الىحكومة

الجزائر التركية وانقرضت بذلك دولة بني زيان وذوى غصنها الغض الى عالم الفناء ولله عاقبة الامور .

خلاصة حوادث الاسبان على عهد بني زيان

كان ابتداء اتصال الاسبان بالجزائر واحتكاكهم بها منذ سنة ٩١١هـ(١٥٠٥م) حيث نزلوا بالمرسى الكبير ثم بوهران نفسها كما لمحنا الى ذلك فيما تقدم قريباً ، ثم امتد بهم الجشع والطمع الاستعماري الى السواحل الجزائرية فامتلكوا منها بجاية ودلس ومستغانم الخ ... وقد استفحل امرهم على عهد الحاكم الاسباني « الكونت الكوديت » حين ولايته على وهران ٩٥٠ – ٩٦٥ هـ (١٥٣٤ – ١٥٥٨م) فاستحوذوا على ما بين جبال كريشتل شرقا الى « راس فالكون » غربا والى نواحي اغلال قرب السبخة الكبيرة جنوبا ، وكان من أهم الوقائع واهوال الحروب يومئذ هي وقائع انكاد ومستغانم ووهران ومسرغين ؛ ولقد مات بجميعها نحو ثلاثة آلاف جندي اسباني، ثم تلتها حوادث تلمسان وقنطرة الصفصاف وارزيو ووادي يسر وتنس ؛ وتكررت الزحوف والتهجمات من طرف الاسبان على مدينتي تلمسان ووهران بالخصوص وكانت شديـــدة على الجزائريين ، وكثرت الاشتباكات والملاحم الحربية ما بين الاتراك والاسبان تارة ومع بني زيان تارة اخرى وتعددت المعارك بين هؤلاء وهؤلاء وكان النصر فيها سجالا ، وانضوى كثير من سكان البوادي كبني عامر وبني راشد ومليتة وتليلات و « المغطسين » وغيرهم تحت حماية الاسبان ، وامتد حينئذ طغيانهم الى مس نفوذ الاتراك بالجزائر ويومئذ تنمر لهم الاتراك فوضعوا ايديهم على سير الحوادث الوهرانية وشاركوا اهلها في مقاومة النفوذ الاسباني ورد عاديته عن الوطن الجزائري برا وبحرا وكانت لهم في ذلك مواقف حاسمة

كان لتوالي كثرة هذه الاهوال الحربية والاضرابات السياسية ، وعـــدم تركز احتلال الاسبان على قواعد الاجتماع ووسائل الدفاع الاساسية اثر ظاهر في تدهور وهران وتقهقرها اجتماعياً واقتصادياً وسياسيا ، فكانت لذلك طيلة احتلال الاسبان لها ووجودهم بها بمثابة ثكنة حربية تحيط بها الاسوار والحيطان

وتتخللها المسارب والانفاق وتعلوها الكآبة والبؤس والشقاء لاغير !.. وكان موقف هؤلاء الغاصبين هو دائماً موقف الخصم العنيد والعسكري الحقود الذي لا يشفق ولا يرحم ، يقودونهم الساسة العسكريون المستبدون المستقلون عن بعضهم ، ومن ورائهم القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة المتعصبة ؛وذلك ما حملنا على القول جازمين باستمرار الحروب الصليبية وانتقالها الى المغرب بعدما كانت نيرانها مستعرة بالمشرق ؛ وهكذا الى اوائل القرن التاسع عشر الميلادي حيث كتب لها الانتصار على الشرق الاسلامي فسقطت الجزائر تحت نير الاستعمار ...

ولقد لحق الاماكن الجزائرية المحتلة ايام الاسبان من الاهانة ما الله به عليم فكانت مدة اقامتهم بها كلها محنة وبلاء في بحر لجي من الفتن متلاطم الامواج لا يقر له قرار ؛ وستأتيك بقية حوادث الاسبان مفصلة معلقة حسب التاريخ خلال ما نسطره من تاريخ الدولة التركية بالجزائر .

المجتمع الجزائري

يتأكد على كل من يود الاطلاع او يريد الاحاطة بالحياة الاجتماعية لأي شعب كان ان يتحقق اولا ويدرس دراسة وافية لعادات ذلك الشعب الذي يريد الاطلاع على حالته وان يحيط علما بتقاليده واخلاقه وعاداته ما شذ منها وما شاع غير متحاش من ذلك شيئا مع التمكن من معرفة ما امكن من مشخصات ذلك الشعب ومقوماته في جميع اطوار حياته ما حضر منها وما غبر ، متتبعاً ومستقصياً لانتظام علاقاته بغيره من الشعوب ممن اتصل بهم او اتصلوا به من قريب او بعيد

ونحن اذا نظرنا الى اهل الجزائر بهذا الاعتبار وجدناهم في الطليعة معدودين من اهل الطبقة الراقية يومئذ بشهادة التاريخ نفسه وهو اصدق الشاهدين واعدل الحاكمين . قال يحيى بن خلدون «انهم كانوا ذوي اخلاق سرية ، وطباع كريمة ، من صفاتهم الحياء والوقار والوفاء بالعهد والعفاف والتدين والاقتصاد

في المعاش واللباس والسكنى [1]... فان قلت ان هذه الصفات جاءت في وصف اخلاق بني عبد الواد خاصة، قلنا نعم واجل، هم سادة الوطن ورؤساؤه والناس كما قيل على دين ملوكهم وقادتهم وانما صلاح الرعية بصلاح سادتها ورؤسائها والعكس بالعكس .

ثم ان طبقات الامة الجزائرية يومئذ منحصرة في اربعة اصناف من الناس، فانك لا تجد الجزائري الا تاجراً او محترفاً او هو طالب للعلم معلما او او متعلما ، او جنديا مع الجيش يدافع عن بيضة الاسلام وشرف وطنه ، لاخامس هنالك وقد ازدهرت الجزائر يومئذ بالوافدين عليها من مهاجري الاندلس ومعظمهم من مهرة الصناع والزارعين واهل العلم واليسار الذين درجوا في مهد الحضارة بالفردوس المفقود ، فاخذوا هنا بمهجرهم يمارسون مهنهم الراقية في وطنهم الجديد ، وكان يبلغ عدد سكان المدينة الواحدة من المدن الجزائرية الشهيرة كتلمسان مثلا المائة والخمسين الف نسمة ، وكان بوهران يومئذ نحو الستين الف نسمة .

الاقتصاد والانتاج العام بالجزائر :

الاقتصاد كلمة عامة يراد بها – كما هو معلوم – كل ما يشمله معنى تدبير المعاش وانماء الثروة بكل أنواع الكسب والاحتراف مهما تعددت الالوان واختلفت المظاهر من جميع انواع الحرف والصناعات وما تقتضيه المعاملات التجارية بين الناس في مختلف انواع البضائع والسلع مهما تباينت المتاجر والاسواق وتعددت الاساليب والمسالك وتنوعت المرافق والاسباب. كل ذلك دفعاً للاعسار وتمتعاً بالايسار وجلباً للرفاهية العامة التي تنبني عليها سعادة الشعب وترقيته ماديا ومعنويا .

ونحن اذا بحثنا في تاريخ الجزائر الاقتصادي واحتجنا في ذلك الى الادلة الصريحة ظفرنا بقواطع الحجج والشواهد الكثيرة على ذلك مما جعل الجزائر في المكان

(١) بغية الرواد ج ١ ص ٢٢

الأول بين صفوف الأمم الراقية التي سابقت غيرها في هذا المضمار ، وذلك ما صير هذا الوطن المغربي الكبير ملحوظاً ومرموقاًلدى الدول القديمةوالجديدةكماهو كذلك عند علماءالجغرافية والتاريخ منذ القدم الى اليوم فتراهم مهماذكروا الجزائر أو اقتصروا على أي ناحية منها الا واثنوا عليها خيراً وعددوا في ذلك زروعها الغزيرة ومنتوجاتها المتنوعة الكثيرة واسواقهـــا العامرة وصناعاتها النافقة ومياهها الدافقة ؛ ومناجمها الكثيرة.الم يشهد التاريخ الروماني القديم لهـــذا الصقع المبارك بالخصب المرع ورفاهية العيش ؟ الم يسميه في اصطلاحه بخزينة او مزرعة رومة « Romœ graniarum » اذ كان يمدها ويغذيها بمقدار وافر من المحصولات كالحبوب والفواكه والخمور والصوف والخشب والمرمر والزياتين « L'afrique a été le grenier de Rome » بلى وربي انه لحق !..وتعال معي الآن ايها القارىء الكريم الى جولة استطلاعية ونظرة جغرافية تاريخية عامة نلقيها على هذا الوطن الجزائري الخصب الثري صحبة الرحـــالة المغربي العظيم الشريف الادريسي وهو يحدثنا من كتابه الجغرافي الحافل : « نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق » حول بعض امهـــات المدن والقرى الجزائرية فانصت اليه اذ يقول :

« ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبارها ، وهي عامرة آهلة وتجارتها رابحة واسواقها قائمة وصناعاتهانافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعيرواكثر اموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيراً فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والاقطار المجاورةلهم والمتباعدة عنهم ، واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة .

يستصحبنا الادريسي معه الى عاصمة بني عبد الواد – تلمسان – مندفعاً في حديثه الجغرافي قائلاً عنها : « ان لها نهراً يأتيها من جبلهـــا المسمى بالصخرتين ، وان هذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه ارحاء كثيرة وما جاورها من المزارع كلهـــا سقي ، وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة ،

وخيراتها شاملة ، ولحومها شحمية سمينة ، وبالجملة انها حسنة لرخص اسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجارتها ؛ ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة اغمات وفاس اكثر من اهلها اموالاً ولا ارفه منهم حالاً » وذكرها البكري قبله في مسالكه قائلاً « وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الاوسط ولها اسواق ومساجد ومسجد جامع واشجار وانهار عليها الطواحين وهو نهر سطفسيف ، وهي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق » . ويمضي الادريسي في حديثه عن ضواحي تلمسان فيذكر منها قرية العلويين — وهي على مرحلة من تلمسان — فيقول : انها قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر يأتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة . ولقد بلغت مداخل هذه المدينة على عهد يغمراسن بن زيان الى مائة ألف دينار سنوياً.

ويفيدنا الملك ابو الفداء (٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م) بفائدة جليلة عن الملاحة النهرية بالجزائر وتنقل القوارب وجولان المراكب البحرية في نهر تلمسان فيقول : « ويستدير النهر بقبليها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر »(١)

ونعود الى الادريسي لنستمع اليه فيما يذكر لنا عن حركة هنين — فرضة تلمسان — فنجده يقول : وهنين مدينـــة حسنة صغيرة في نحر البحر وهي عامرة عليها سور متقن واسواق بيع وشراء وخارجهـــا زراعات كثيرة وعمارات متصلة .

وفي وهران يقول : ووهران على مقربة من ضفة البحر ، وعليهـــا سور تراب متقن ، وبها اسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الاندلس وسعة البحر بينهما مجريان ، ومنها اكثر ميرة ساحل الاندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئاً ، ولها على ميلين منها المرسى الكبير ، وبه ترسي المراكب الكبـــار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثـــال في مراسي حائط البحر من بلاد

(١) تقويم البلدان لابي الفداء ص ٧٠ ط الجزائر ١٨٣٩ م

البربر ، وشرب اهلها من واد يجري اليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة واهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر ، والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الاندلس اليها مختلفة وفي اهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة .

ويتحدث عن مدينة « يلل » فيقول : بهـا عيون ومياه كثير وفواكه وزروع وبلادها جيدة للفلاحة وزروعها نامية .وعن ارزاو – ارزيو – فيقول انها قرية كبيرة تجلب اليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونهـا الى كثير من البلاد . ويذكر لنا قسنطينة فيقول : انها من احصن بلاد الله وهي مطلة على فحوص متصلة بها ، وانها عامرة وبها اسواق وتجار واهلها مياسير ذووأموال واحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار ، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها ، ولهـا في داخل المدينة ومع سورها مسقى يستقون منه ويتصرفون منه عند اوقات الحصار لها من طرقهـا ؛ والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد والعسل بها كثير وكذلك السمن يتجهز به منها الى سائر البلاد .

ويحدثنا البكري عن مدينة مستغانم بانها مدينة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويبذر في ارضها القطن فيجود .

ثم ينتقل بنا الادريسي الى الكلام عن مدينة تاهرت فيقول : ومدينـة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين احداهما قديمة والاخرى محدثة والقديمة من هاتـين المدينتين ذات سور وهي على قنة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البربر ولهم تجارات وبضائع واسواق عامرة وبارضهـا مزارع وضياع جمة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن ؛ واما البقر والغنم فكثيرة بهـا جداً ، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة ، وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل اكثر ديارهم ويتصرفون بها ، ولهم على هذه المياه بساتين واشجار تحمل ضروباً من الفواكه الحسنة وبالجمله انها بقعة حسنة . وقد تحدث عنها قبـله ابن حوقل فقال : والتجار

والتجارة بتيهرت الحدثة اكثر ولهم مياه تدخل اكثر دورهم واشجارهم وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيد ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات .

ويصف لنا الشريف القلعة الحمادية وما آلت اليه من بعد يقول : والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع اموالهم مختزنة ، ودار اسلحتهم والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير ، وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الانسان بالثمن اليسير ، ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف اليها تصلح فيها السوائم والدواب لانها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم اذا كثرت اغنت واذا قلت كفت ، فاهلها ابد الدهر شباع واحوالهم صالحة وذكرها ياقوت الحموي فقال :

ويتخذ بها لبابيد الطيلقان جيدة غاية وبها الاكسية القلعية الصفيقة النسج الحسنة المطرزة بالذهب ، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم [١] ويبلغ سعر الكساء ثلاثين ديناراً . [٢]

كما يحدثنا الادريسي ايضاً عن اشير زيرى فيقول : انه حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب اليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة. واما عن مدينة تنس فانه يقول : لها في جهتها الشرقية واد كثير الماء وشرب اهلها منه في ايام الشتاء والربيع ، وبها فواكه وخصب واقلاع وحط ولها اقاليم واعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جداً وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها الى كل الآفاق في المراكب ، وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه .

ويذكر لنا مدينة مليانة عاصمة مغراوة فيقول : « هي مدينة قديمة البناء

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٧ ص ١٦٤ ط ليبزيج ١٨٦٦ - ١٨٦٩ م

(٢) الاستبصار ص ٩٥ ط فينا ١٨٥٢ م

حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها ارحاء على نهرها المذكور ولأقليمها حظ من سقي نهر شلف .

ويصف لنا مدينة برشك فيقول : انها صغيرة على تل وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون وماؤها عذب وافتتحها الملك المعظم رجار – ملك النرمان – سنة ٥ وبها فواكه وجل مزارع وحنطة كثيرة وشعير .

ويقص علينا خبر مدينة شرشال انها : صغيرة القدر لكنها متحضرة وبها مياه جارية وآبار معينة عذبة وبها فواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو اعناق كاعناق القرع الصغار وهو من الطرائف غريب في ذاته وبها كروم وبعض شجر تين ، وما دار بها بادية لأهلها مواش واغنام كثيرة ، والنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن واكثر اموالهم الماشية . ولهم من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة ... وتذكر لنا مدينة مرسى الدجاج وهي على بعد ٨٠ كيلومتراً شرقي العاصمة ، فيقول انها كبيرة القطر لها حصن دائر بها وبشر قليل ، وربما فرّ عنها اكثر أهلها في زمن الصيف ومدة السفر خوفاً من قصد الاساطيل اليها ، ولها مرسى مأمون ولهـا ارض ممتدة وزراعات متصلة واصابة اهلها في زرعهم واسعة وحنطتهم مباركة وسائر الفواكه واللحوم بها كثيرة وتباع بالثمن اليسير ، والتين خاصة يحمل منها شرائح طوباً ومنثوراً الى سائر الاقطار وأقاصي المدائن والامصار ، وهي بذلك مشهورة، وتسمى اليوم « Courbet marine ».

« ومن مدينة مرسى الدجاج الى مدينة تدلس ٢٤ ميلا وهي على شرف متحصنة لها سور حصين وديار ومنتزهات وبها من رخص الفواكه والاسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثـله ، وبها الغنم والبقر موجود كثيراً وتباع جملتها بالاثمان اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير من الآفاق .

« ومن تدلس الى مدينة بجاية في البر ٧٠ ميلا وفي البحر ٩٠ ميـلا ؛ ومدينة بجاية على البحر لكنها على جرف حجر ولهـا من جهة الشمال جبل

يسمى مسيون وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى وفي اكنافه جل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافسنتين وغير ذلك من الحشائش ويتحدث عنها البكري ايضاً فيقول : ان بشرقيها نهر تدخله السفن محملة .

« ومن القلعة – الحادية – في جهة المشرق مدينة محدثة تسمى (برج) الغدير وبينها وبين القلعة ٨ اميال والغدير مدينـــة حسنة واهلها بدو ولهم مزارع وارضون مباركة والحرث قائم الذات والاصابة في زروعها موجودة والبركات في معاملاتهم كثيرة وبين المسيلة والغدير ١٨ ميلا . وناهيك برخص اسعارها فالقنطار من العنب يساوي عندهم درهماً واحداً كما ذكره البكري .

ويذكر ميلة فيقول عنها : مدينـــة حسنة كثيرة الاشجار ممكنة الثمار وفواكهها كثيرة ومحاسنها ظاهرة ومياهها غدقة .

وكما تحدث عن ميلة صاحب الاستبصار فقـال : « وهي الآن – ٥٨٧ هـ ١١٩١ م » عامرة آهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسـع وقرى عامرة، وميلة كثيرة الاسواق والمتاجر وبالقرب من مدينة ميلة جبل العنصل[1] يسمى اليوم جبـــل بني زلدوي ، وهم قبائل كثيرة من البربر سكنوا بذلك الجبل ولهم خلاف كثير على الولاة بسبب منعـــة جبلهم وفيه مدن وعمائر وقرى كثيرة وهو أخصب جبال افريقية في جميع الفواكه من التفـاح الجليل والسفرجل الذي لا يوجد مثله في أي بلد والاعناب الكثيرة [2] .

ويحدثنا عن مدينة جيجل فيقول انها : مدينة حسنة بها الالبان والسمن والعسل والزروع الكثيرة : وبها الحوت الكثير العدد المتناهي الطيب والقدر، ومنها تحمل الفواكه والعنب والرب الى بجاية[3] وهو القائل ايضاً عن سطيف

---

(١) اسم نبات يداوى به .

(٢) الاستبصار ص ٥٣ – ٥٤ – ٦١ ط فينا ١٨٥٢م

(٣) الاستبصار ص ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ م

انه حصن كبير القطر كثير الخلق كالمدينة وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرته بها الى سائر الاقطـــار وهو بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصاً .

ويتعرض رحالتنا الى بلدة مازونة فيقول : ان لها انهاراً ومزارع وبساتين واسواقاً عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه اصناف من البربر بضروب من الفواكه والالبان والسمن والعسل كثير بها وهي من احسن البلاد صفة واكثرهـــا فواكه وخصبا ؛ وينتقل بنا الى الحديث عن مدينة مرسى الخرز فيقول : انها مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة اهلها لها على صيد المرجان ؛ والمرجان يوجد بهـــا كثيراً وهو اجمل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ... ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ومعدن هذا الجوهر في هذه المدينة مخدوم في كل سنة ويعمل به في كل الاوقات الخمسون قاربـــا والزائد والناقص وفي كل قارب العشرون رجلا وما زاد ونقص ، والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين ويصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب،تدار هذه الآلة في اعلى المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيجذبه الرجال الى انفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالاموال الطائلة وعمدة اهلها على ذلك وبها كانت تنشأ المراكب الحربية لغزو بلاد الروم ، وربحها التجاري عشرة آلاف دينار سنوياً [1]

ويذكر لنا الادريسي غابر مدينة بونة وحاضرها على عهده فيقول: انه كان بها اسواق حسنة وتجارة مقصودة وارباح موجودة ، وكانت فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ، ولها بساتين قليلة وشجر وبها من انواع الفواكه ما يعم اهلها واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في اوقات الاصابات كما وصفنا كثير جداً ، وبها معادن حديد جيد ويزرع بارضها الكتان،والعسل

---

(١) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م

بها موجود ممكن وكذلك السمن واكثر سوائمهم البقر ولهـا اقاليم وارض واسعة تغلبت العرب عليها . ويذكرها البكري بمثل هذا ايضاً مع افادته لنا بان اكثر تجارها اندلسيون وان مستخلصها غير جباية بيت المال عشرون الف دينار .

ويتحدث الادريسي عن قرية مسكيانة فيقول : انها قرية عامرة قديمة ازلية وبها زروع ومكاسب وعيون ، ولها سوق ممتدة كالسماط ، وهي اكبر من مرماجنة – مدينة تقع بالشمال الغربي من تبسه – كما انه يذكر لنا مدينة ندرومة فيقول : انها مدينة كبيرة عامرة آهلة ، سور وسوق موضعهافي‌سند، ولهـا مزارع كثيرة ولها واد يجري في شرقيهـا وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير . ويذكرها البكري ايضاً فيقول : لهـا نهر وبساتين فيها من جميع الثمار .

ويستمر الشريف الادريسي في حديثه عن اقطار البلاد الجزائرية متجولا بنا هنا وهناك مخترقا الآفاق كاشفاً لنا عن مخبآت كنوز ارضنا الخصبة وبلادنا الغنية الثرية فتراه يقف بنا هنا على اشهر بلاد الزاب واصفاً لنا منها مدينة المسيلة وطبنة ومقرة ونقاوس وبسكرة وباغاية ؛ فاستمع اليه اذ يتحدث عن الاولى منها فيقول : « هي عامرة في بسيط من الارض ولها مزارع ممتدةاكثر مما يحتاج اليها ، ولهـا سوائم خيل واغنام وابقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع وقطن وقمح وشعير ويسكنهـا من البربر بنو برزال وزنداج وهوارة وصدراته ومزاتة ؛ وهذه المدينة ايضاً عامرةبالناس والتجار وهي على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الارض وليس بالعميـق وهو عذب وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الارض المعمورة سمك على صفته ، واهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل الى قلعة بني‌حماد وبينها ١٢ ميلا ، وتخرج من المسيلة الى مقرة مرحلة، وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب واهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير .

ويتحدث عن طبنة وتسمى اليوم بريكة فيقول ، انها مدينة الزاب وهي مدينه حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير، وعليها سور من تراب واهلها اخلاط وبها صنائع وتجارات واموال لاهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه ... ومدينة نقاوس صغيرة كثيرة الشجر والبساتين واكثر فواكهها الجوز ومنها يتجهز به الى ما جاورها من الاقطار وبها سوق قائمة ومعايش كثيرة... ومن مدينة نقاوس ايضاً الى حصن بسكرة مرحلتان وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة وفيه ايضاً من التمر كل غريبة وطريفة .

قال في الاستبصار : وبسكرة ايضاً جنس من التمر يعرف بالليارى وهو أبيض أملس ، وكان صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع من بيعه وبعث ما هنالك منه اليه ليطيبه ويحسنه ، وبسكرة دار فقه وعلم فيها العلماء [1].

ويخبرنا اهل وارجلان – وارقلة – بانهم قوم مياسير وتجار اغنياء يتجولون في السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة يشترون التبر على اهلها ويخرجونه الى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير باسم بلادهم ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة [2]

كما يحدثنا البكري عن المحصولات في باغاية وطولقة وقزرونة فيقول عن الاولى : انها مدينة جليلة اولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح . وعن الثانية يقول : انها ثلاث مدن كلها عليها اسوار طوب وخندق وحولها انهار وهي كثيرة البساتين بالزيتون والاعناب والنخيل والشجر . ويتحدث عن الثالثة بانها على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين، ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي اكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل . وفيها عيون سائحة وطواحين ماء [3]

---

(١) الاستبصار ص ٥٣ – ٥٤

(٢) نزهة المشتاق للادريسي ط ليدن ١٨٦٤ م .

(٣) المسالك والممالك للبكري ط الجزائر ١٨٥٨ م .

ولقد سبق ان سقنا ما حكاه الادريسي عن حركة بجاية الاقتصادية والصناعية والبحرية ايضاً بالجزء الاول من كتابنا هـذا – صفحة ٣٣٣ – فليراجع هناك .

ورغم كل ما حدث اثر عصر الادريسي والبكري من الاضطرابات السياسية والانقلابات الاجتماعية التي عمت اقطار المغرب العربي على عهد كل من الدول او الحكومات الثلاث : بني ابي حفص ، وبني مرين ، وبني زيان ، فان ارض الجزائر لم يحدث في اقتصادها كثير تبديل او تغيير واستمر اهلها على استثمار بلادهم يعملون نشطين مثابرين في رخاء وخفض من العيش طيلة قرون ؛ وهكذا نجد علماء التاريخ والجغرافية من اهل القرن السادس والسابع بل والثامن ايضاً يصفون لنا الرقي الاقتصادي والتقدم الزراعي في بلاد الجزائر بمثل ما حدثنا به الاولون .

فهذا كتاب الاستبصار الذي تم تأليفه سنة ٥٨٧ ه (١١٩١ م) يتحدث عن مدينة مليانة فيقول : ولمدينة مليانة مياه سائحة وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من اخصب بلاد افريقية وارخصها اسعاراً وقال عن قلعة هوارة –غربي مستغانم - هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار واشجار ومزارع واعناب ، وتحتها فحص طوله نحو اربعين ميلا يشق به نهر سيرات ويسقي اكثر ارضه ويسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر وهو نهر كبير مشهور ويذكر مدينة بونة فيقول : هي من انزه البلاد واكثرها لبناً ولحماً وعسلا وحوتاً ... وبغربيها ماء سائح يسقي بساتينها وارضها وموضع جناتها منتزه حسن مشرف على البحر ، وهكذا يستمر في وصفها الى ان يقول : وبغربي مدينة بونة بركة في دورها نحو عشرة اميال وفيها سمك كثير جليل ... واخيراً يقول : وللمغرب الاوسط مدن كثيرة قد ذكرنا اكثرها في البلاد الساحلية وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم [1] .

وذكر القزويني (٦٨٣ ه ـ ١٢٨٣ م) مدينة مجانة فقال : هي بلدة

---

(١) الاستبصار في عجائب الامصار ص ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ والبكري ص ٥٤ - ٦٦

بافريقية تسمى قلعة بسر ، لان بسر بن ارطاة فتحها عنوة – بعثه اليهـا موسى بن نصير وبعث خمس غنيمتها اليه أرضها طيبة ينبت بها زعفران كثير ، بها معادن الفضة والحديد ، والمرتك . والرصاص ، والكحل ، وفي جنوبها جبل تقطع منه احجار الطواحين وتحمل الى سائر بلاد العرب. وكانت تعرف بـ (مجانة المعادن) لذلك . ويحدثنا البكري عن خصب مدينة التبسة فيقول : انها مدينة كبيرة كثيرة الفواكه أولية مبنية بالصخر الجليل، أخرب بعض سورها ابو زيد مخلد بن كيداد وهي على نهر كبير كثير الفواكه والاشجار لاسيا الجوز فان المثل يضرب بجلالته هناك وبكبره وطيبه [1] وفيها يقول ياقوت الحموي : انـه يعمل بها بسط جليلة محكمة النسج يقيم البساط منهـا مدة طويلة .

وهذا ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) يتحـدث عن مدينة تنس فيقول : ان بها مسجداً جامعـاً واسواقاً كثيرة ؛ ثم يذكر موازين ومكاييل اهلهـا فيقول : ولهم كيل يسمونه الصفحة وهي ثمانيـة واربعون قادوساً ، والقادوس ثلاثة امـداد بمد النبي ﷺ ، ورطل اللحم بهـا سبع وستون اوقية ، ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون اوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عـدل بوزن قرطبة كما انه يذكر مدينة الخضراء فيقول : هي بلدة بينها وبين مليانة يوم واحد ، وهي مدينـة جليلة كثيرة البسـاتين على شاطىء نهر من اخصب مدن افريقية ، ويحدثنـا عن مدينة بونة فيمضي في وصفها حسب ما ذكرناه فيا سلف ثم يقول عنهـا : انهـا كثيرة الرخص والفواكه والبسـاتين القريبة واكثر فاكهتها من باديتها ... [2] .

وهذا الملك ابو الفـداء يذكر كذلك بونة في كتابه تقويم البلدان الذي فرغ من تبييضه سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١م) فيقول عنهـا انها مدينة جليلة عامرة على البحر خصبة الزرع كثيرة الفواكه رخية، وبظاهرها معادن حديد ويزرع

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٦٠ ط بيروت ١٩٦٠ والبكري ص ١٤٥ .
(٢) معجم البلدان ط ليبسيك ١٨٦٦ – ١٨٦٩ م

بها كتان كثير ، وحدث بهـا عن قريب مغاص على المرجان ليس كمرجان مرسى الخرز . كما انه يذكر بسكرةفيقول:ومدينة بسكرة قاعة بلاد الزاب ، ولبسكرة بلاد ذات نخيـــل وزروع كثيرة ومن بسكرة يجلب التمر الطيب الى تونس وبجاية . ويتحدث عن المسيلة بقوله : ومدينـة مسيلة حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياهها عذبة [1]

وذكر مقديش الصفاقسي مدينة التين – بين سوق ابراهيم وتنس تبعـــد عن كلتيهما بمرحلة – فقال انها كثيرة شجر التين جـداً ويعمل بهـا من التين شرائح اعظم من الطوب وبذلك تسمى ويحمل منها الى كثير من الاقطار[2] وكما يشهد بذلك من كتاب الافرنج المتـأخرين : مارمول وآلفـــاريز قوميز - Marmol et Alvarés Gomés -

ويتحدث الرحالة عبد الباسط بن خليل في رحلته ـ الروض الباسم ـ عن قسنطينة فيقول بانه نزل بها يوم سابع عشر شوال سنة ٨٦٨ هـ (٢٤ جوان ١٤٦٤ م) فرأى « منها مدينة عجيبة الموضوع ، حسنة المجموع ، على جبل عال وتحتها واد عظيم كثير الخصب والاجنة والرخاء الغالب ، قال: واعجبتني الى الغاية ورأيت ابنيتها جيدة فائقة ....

وقل مثل ذلك عن سير التجارة فأنها رائجة في كثير من انواع السلع التي كانت الجزائر تستوردها من الخارج على سبيل المبادلةمثل الزجاج وأجهزة وعتاد وعدد وغير ذلك من ادوات الحديد ، او تصدرها من بضائعها المحلية المختلفة كالتبر المسبوك والذهب النضار والعاج والجوخ والصوف والحرير والكتب والسلاح الابيض والجلد والسمك المجفف والمرجان والرقيق ، فكل ذلك كان منتشراً باسواق البلاد الجزائرية تتوصل اليه بطريق القوافل التي تتردد بـــين الصحراء والتل مخترقة لحدود تونس وطرابلس والمغرب الاقصى والسودان .

ويذكر ابن خلدون وطن توات بصحراء الجزائر فيقول : ان به قصوراً

(١) تقويم البلدان ط لجزائر ١٧٣٩ م ص ٨٠ و ٩٠ و ٩٤

(٢) الازهار الرياضية ص ٥٨ ـ ٥٩

متعددة تناهز المئتين اخذت من المشرق الى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمى (تمنطيت) وهو بلد مستبحر في العمران وهو محط ركاب التجار المترددين للمغرب الى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، ومن بلد مالي اليه . وذكر ان به جنات من نخيل واعناب ومن كل الثمرات [1] وقل مثل ذلك . في البحر فان السفن والمراكب الاهلية والاجنبية لاتفتر عن التنقل بين سواحل الجزائر والاندلس وصقلية وجنوة والبندقية وكثيراً ما كانت اسواق تلمسان ترى ملآنة بالتجار من اهل بيزا والبيروفانصوا والقطلان وغيرهم من الافرنج بله حركة القوارب والزوارق التي كانت في نشاطها الدائم بانهـــار قسنطينة وتلمسان وارشقول .

ولقد شاهد هذا المعنى عبد الباسط بنفسه فسجله في رحلته الى الجزائر قائلاً : « وفيه ـ اي في يوم تاسع عشر صفر ٨٧١ هـ ـ ١٠ اكتوبر ١٤٦٦ ـ ورد الى ساحل مدينة وهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين وردت من بلاد افلندة ونحوها من بلاد الافرنج بالمحيط برسم الاتجار في الجوخ وتجهز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها الى جهة بلاد الاندلس وتجهزت أنا ايضاً لذلك وعزمت على العود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرهـــا من البلاد » [2] واما عن متاجر وهران ومساكنها فانهـــا بلغت يومئذ الى الف وخمسمائة متجر ونحو ستة آلاف دار .

واما المهن والحرف اليدوية فان اهمها يومئذ بالجزائر يرجع الى صنـــاعة الدباغة وخصف النعال والاحذية والصياغة والعدانة والخزافة والنجارة والحدادة وفن البناء والتعمير ، وكان مما امتازت به تلمسان واختصت به ما بين البلاد : الاتقان في النسج والقزازة ، فان لملابسها ومنسوجاتها الصفيقة من حرير اوصوف اعتبار وتقدير يفوقان منسوجات غيرها من البلاد ، لا من حيث الاحكام في الصناعة والنسج فحسب ، بل وحتى في جودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٦
(٢) الروض الباسم ص ٤٠ و ٦٧ ط باريس ١٩٣٦ م

والحقة، فانك تجد البرنس او الكساء الجيد من الحرير لا يتجاوزونه عندهم الثاني اواق، والاحرام لا يتعدى خمس اواق . وذكروا انهم كانوا يختبرون الاكسية والملابس الرقيقة الجيدة بادخالها واخراجها من حلقة خاتم ! .... واليك وصف كاتب الدولة يومئذ يحيى بن خلدون لدار الصنعة بتلمسان قال :

« ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم واديانهم؛ فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك، فتستك لأصواتهم وآلاتهم الاسماع وتحار في احكام صناعتهم الاذهان وتقف دون بجرهم الهائل الابصار؛ ثم تعرض قومتهم اصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة ايده الله ويخزن كل بحجار صنعه المعد له وينصف العاملون من ارزاقهم عدلاً هكذا ابدا »[1]. وان لنا في حركة اسواق القيسرية بتلمسان لغنى وذكرى .

واشتهرت اسواق الجزائر يومئذ بانتظامها حسب انواع السلع والبضائع فانك لا تجد اختلاطاً بين البزازين والصاغة مثلا ولا بين الحدادين والنجارين فلكل نوع منها سوق قائمة بنفسها ، وبذلك نعلم أنه كان للجزائر شأن عظيم في عالم الاقتصاد منذ القديم كما انها لا تزال كذلك الى اليوم .

ويكفي في الاستدلال على التقدم والرقي الصناعي بالجزائر يومئذ أن نتأمل قليلاً في اختراع العبقري المفن الجزائري علي بن الفحام التلمساني لآلة المنجانة العجيبة ذات الوضع المدهش والصنع الميكانيكي العجيب والشكل الهندسي الغريب ، أنشأها صاحبها في اوائل سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) لرصد الوقت فسبق ببديع صنعه واضع ساعة « ستراسبوق » بقرنين إثنين فكانت هذه من عجائب المخترعات ، واليك وصفها من شاهد عيان شارك بنفسه في صنعها بوضع أبيات شعرية لنظم ساعاتها ، وذلك هو يحيى بن خلدون ، قال في سياق حديثه عن المهرجان الذي كان يقيمه السلطان ابو حمو الثاني في

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ص ١٦١ ط الجزائر ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

قصره ويحضره في كل سنة بمناسبة ذكرى يوم المولد النبوي الشريف :

« .... وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه – يعني السلطان – بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيها أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعداً ، وبصدرها ابواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان مجوفان اطول من الاول واعرض فوق جميعها ، ودون رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت اول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن ، ويريد الارقم ان ينهش احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطور ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين ، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافة اعلى الله مقامه شماسها ....

... وأمرني أيده الله بنظم أبيات على لسان الجواري المعرفات ساعات المنقانة الغريبة الشكل المتقدمة الوصف فقلت في ذلك :

الساعة الاولى من الليل :

أمولى الملوك وأعلى الأمم ... ومن جوده العالم الكل عم
مضت ساعة ليت لو تنثني ... فإن الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لما بدا ... وقد خلته البدر في الأفق تم
عليه لاجل التقى هيبة ... وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى ... سروراً لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه ... ففعلك هذا على ذاك نم
فنلت السعادة دنيا وأخرى ... وحزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا ملكا ... يطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية :

أخليفة الرحمن والملك الذي	تمنو لعز علاه املاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علا	بك ما لكي افق السماء لمن نظر
أوما تري فيه النجوم زواهرا	وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت	تثنى عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم	وبلغت ما ترتجى أسنى الوطر

الساعة الثالثة :

أمولاي يا ابن الملوك الألى	لهم في المعالي أسنى الرتب
توالت ثلاث من الليل أبقـ	ـت لك الفخر في عجمها والعرب
فدم حجة الله في أرضه	تنال الذي شئته من أرب

الساعة الرابعة :

يا واحداً في المعالي	ومالك الفضل اجمع
مولاي دمت علياً	مضت لليلك أربع
لا زلت تفني الأعادي	وللمفاخر تجمع

الساعة الخامسة :

يا امير المسلمينا	وجمال العالمينا
والذي حاز المعالي	كلها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس	حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآه	هكذا تمضي السنونا
دمت في عز وسعد	خالد الملك مكينا

الساعة السادسة :

يا ماجداً وهو فرد	تخاله في عساكر

ست من الليل ولّت ... ما ان لها من نظائر
دامت لياليك حتى ... الى المعاد نواضر

الساعة السابعة :

يا من له الفخر طبع ... والفضل فيه سجية
مرت من الليل سبع ... ما ان لها مثنوية
لا زلت والشمل جمع ... يعليك رب البرية

الساعة الثامنة :

يا اكرم الخلق ذاتاً ... وأشرف الناس أسره
مرّت ثمان وأبقت ... في القلب مني حسره
فيهنّ كان شبابي ... أخا نعيم ونضره
ولى بها الدهر عني ... ترى لها بعد كرّه
فالله يبقيك مولى ... يطيل في السعد عمره

الساعة التاسعة :

يا أوحد الناس في مجد وفي شرف ... وأفضل الخلق في بأس وفي كرم
مولاي تاسعة الساعات قد ذهبت ... والليل من بعدها قد عاد ذا هرم
كذا يمر ولا ندري الزمان بنا ... وينقضي العمر في اللذات واندمي
من كان ذا عمل في البرّ مثلكمُ ... يا فوزه يوم تخشى زلة القدم
لا زلت ذا عزة والملك ذا شرف ... بكم وأنتم مدى الايام في نعم

الساعة العاشرة :

يا مالك الخير والخيل التي حكمت ... له بعزّ على الأيام مقتبل
هذا الصباح وقد لاحت بشائره ... والليل ودعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة ... مضين لا عن قلى منا ولا ملل

كذا تمرّ ليالي العمر راحـلة   عنا ونحن مع الآمال في شغل
عـي ونصبـح في لهو نسرّ به   جهلا وذلك يدنينا من الأجل
والعمر يمضي فلا ندري فوا أسفاً   عليه إذ مرّ في الآثام والزلل
يا ليت شعري غداً كيف الخلاص به   ولم تقـدم له شيئاً من العمل
يا رب عفوك عما قد جنته يدي   فليس لي بجزاء الذنب من قبل
يا رب وانصر امـير المسلمين أبا   حمو الرضا والله غاية الأمل

ومن هذا القبيل ما سجله التاريخ عن ساعة الخليفـة هرون الرشيد التي أهداها للملك شارلمان وساعة الجامع الأموي وباب جبرون بدمشق، وساعة المستنصر العباسي بمستشفى بغداد [1] .

ويظهر مما تقدم من نظم ساعة ابي حمو ان القوم كانوا يستعملون في ضبط الزمن الساعات الغروبية . أي تقدير مبـدإ الزمن بساعة الغروب لا بالزوال وهي طريقة المشارقة المتعارفة بالا لا تركة ، ومبدأها من غروب الشمس ، فالزمن عند الغروب يعتبر صفراً ثم يأخذ في التزايد الى هلم جرا .

ولا ينبغي ان يفوتنا هنا ونحن نؤرخ للساعات والفنون بالجزائر – ان نترك الاشارة الى ما كان بقصر السلطان ابي تاشفين الاول من تلك الشجرة العجيبة المصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانهـا تماثيل طيور مختلفة الاشكال والالوان تحاكي اشباهها من الطيور الطبيعيـة ، وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيقة يعلوها صقر ، فاذا نفخ في اصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها باصوات على غرر نظرائها من الطيور حتى اذا تموج الهواء وبلغ الى الصقر صوت فتنقطع لصوته جميع الاصوات كما نقل ذلك الامام القرافي عمن شاهد هـذه الشجرة

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١ ص ١٧٧ ط دمشق ١٣٦٧هـ–١٩٤٨م ورحلة ابن جبير ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ط مصر ١٣٢٦هـ وكتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور ص ٧٧ ط القاهرة ١٩٤٢ م وبغية الرواد ج ٢ ص ٤٠ و ٢١٨ وحضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣١٥ ط القاهرة ١٩٤٨ م ودائرة المعارف للبستاني مادة : ساعة .

بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان [1] فتراها شبيهة بما احضره الخليفة المقتدر العباسي بدار الشجرة ببغداد يوم اقتباله سفير قيصر الروم (٣٠٥ هـ — ٩١٧ م) ثم ألا نعلم بعد هذا ما كان يوجد عند غير ملوك هذه الدولة من التحف والنفائس العجيبة التي تستطيع أن تقارن هذه الاشياء بها ، اللهم الا ما يذكر عن قصور الخلفاء الفاطميين بمصر وما احتوت عليه من الطرائف الغريبة الصنع والتحف البديعة الجمال وهي قريبة الشبه بما ذكرنا من حيوانات وطيور ونبات .

وكان من هذا القبيل أيضاً ما تقدم ذكره من الهدايا النفيسة التي أهداها السلطان الثابتي الى ملك الاسبان ؛ومنها ما وصفناه من تلك الدجاجة العجيبة الصنعة المتبوعة بست وثلاثين نقفاً من نوعها ؛ فذلكم ايضاً هو مما لا يستهان به في الاستدلال على تقدم العلوم والفنون ونهضة الصناعات عهدئذ بالجزائر .

المذاهب والمعتقدات

حسبنا ما اطلنا به فيما قدمناه من التفاصيل الضافية والشروح الوافية حول تاريخ العقيدة الدينية والمذاهب الفقهية فيما سلف من أبواب هذا الكتاب وفصوله التي تناولنا فيها هذا الموضوع في مختلف ادوار التاريخ الجزائري وتطوراته بحسب توالي الدهور والعصور ، وقد ارست سفينة الناس يومئذ حسبما ذكرناه هناك الى التدين بعقيدة الاشعري والتمذهب بمذهب مالك تغمدهما الله برحمته قال البكري: ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك ابن انس رحمه الله [2] ولم يخالف في ذلك إلا بعض البطون والقبائل المنتشرة بشرقي الجزائر وجنوبها كاهل مدينة تهودة فانهم لم يزالوا يومئذ على رأي أهل

---

(١) انظر كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور ص ٧٩ ط القاهرة ١٩٤٢ ونظم الدر والعقيان التنسي ـ مخطوط ـ

(٢) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا : تاريخ الجزائر العام ص ٣٢٧ و ٣٥٠ و ٤٨١ و ج ٢ ص ٣٣ والمسالك والممالك ص ٧٧ ط الجزائر ١٨٥٧ م

العراق وقبيلة كتامة الساكنة بجبال بجاية على رأي الشيعة الاسماعيلية [1] ، يكرمون من مال إلى مذاهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم ، وان أهل جبل أوراس وسكان باغاية وفحصها وقوماً من سكان نواحي بنطيوس وبادس وبسكرة كانوا يومئذ على رأي الخوارج أباضية المذهب وأصلية العقيدة [2].

وهكذا ظلت الجزائر كما قدمنا متشعبة العقائد والمذاهب إلى أن انحدت على عهد المرابطين ومن خلفهم على هذا الوطن من الموحدين فانتشر بينهم يومئذ مذهب أهل الحديث من أهل السنة وتقرر رأي المالكية في ذلك ودان الناس بعقيدة الاشعرية وعمّ ذلك بلاد الجزائر وبقية بلاد المغرب العربي كله غير ناحية بلاد مصاب – مزاب – من التراب الجزائري وجزيرة جربة بتونس وجبل نفوسة بطرابلس فإنها بقيت متمسكة بعقيدة الخوارج الاعتزالية متمذهبة بمذهب الاباضية [3] .

وأما غير المسلمين فكانوا على ما هو عليه الحال الى الآن : نصارى ويهود وفي عهد سقوط وهران بيد الاسبان (٩١٥ هـ ـ ١٥٠٩ م) اتخذ الكاردينال كسيمينيس بها ديرين للرهبان أحدهما للدومينيك والآخر لأهل المذهب الفرانسيسكي .

الثقافة والحضارة والعمران

تحتفظ لنا المجموعة التاريخية الكبرى التي شارك في وضعها نخبة من أفاضل العلماء في القديم والحديث كالأخوين يحيى وعبد الرحمن ابني خلدون، والتنسي والغبريني ، وابن مريم ، وابن فرحون ، وأحمد بابا التنبكتي ، والسخاوي والمسيق البوني ، ومحمد بن حواء المستغانمي ، وشيخنا الحفناوي ، ومحمد بن

(١) راجع تاريخ قيام دولتهم بالمغرب في الجزء الاول من كتابنا هذا : تاريخ الجزائر العام ص ٢٤٥ - ٢٤٦ و ٢٦٤ - ٢٦٥

(٢) المسالك والممالك للبكري ص ٧٢ - ٧٣ و ٨٢ و ١٤٤ - ١٤٥ ط الجزائر ١٨٥٧م راجع قل ج ١ ص ٩٥ ط ليدن ١٩٣٨ م .

(٣) راجع الجزء الاول من كتابنا هذا وما قدمناه في هذا الجزء.

مخلوف التونسي ، وهلمّ جرا ... بتاريخ سير الحركة العلمية بالجزائر ، ضمن تراجم طائفة عظيمة وعدد وافر من نوابغ العلمـــاء وأرباب القرائح الذين أنجبتهم الجزائر فكرسوا حياتهم لخدمة العلم ونشر الثقافة بين هذه الارجـاء المغربية وخاصة منها هذه البلاد فان حظهـا من هؤلاء العلماء كان موفوراً وسعيهم بها مشكوراً ، وليس هنالك أدلّ على ما ذكرناه وأعظم من الرجوع الى مطالعة هذه المصادر المذكورة وهي بحمد الله مطبوعة متداولة بين الناس، فلا سبيل الى إنكار الجاحدين المغرضين أو معارضة المكابرين ؛ فلقد سايرت الجزائر موكب العلم والمدنية جادة في ذلك حسبما سمحت لها الظروف وتيسرت لها الأسباب ؛ وكانت ـ كما لا تزال ـ كلمـا وجدت الى ذلك فرصة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وفيها كان استقرار العلوم النظرية كما قال ابن خلدون في حديثه عن الأدب والعلم بتلمسان .

قال : ولمن ذكرنا من أهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم ، وملكة التلقي . وهو يعني بذلك الشريف التلمساني وسعيد بن محمد العقباني رحمهما الله، قال لكونهما ألفا التصانيف البعيدة وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع.

وقال المقري في تعليقه على كلام ابن خلدون هذا : وكذلك بلـــغ رتبة التبريز في تحصيل العلم كل واحد من ولديهما : الفقيه السيد ابو الفضل قاسم بن سعيد، والفقيه الاوحد السيد أبو يحيى الشريف، إذ بلغا رتبة الإمامة والفتيا[1].

وبذلك اضحت الجزائر يومئذ تفاخر البشرية بابنائهـا البررة البارزين في الحقل العلمي وتعتز بهم كثيراً .

ومن معاهد العلم الشهيرة بتلمسان مدارس كثيرة منها مدرسة منشار الجلد، ومدرسة ولدي الامام ، والمدرسة التاشفينية ــ حطمها الاستعمار سنة١٢٧٥ هـ ١٨٥٩ م ــ والمدرسة اليعقوبية المنسوبة الى ابي يعقوب والد السلطان ابي حمو الثاني ، ومدرسة ابي حمو الثاني ، ومدرسة ابي الحسن المريني بالعباد ، والتعليم

(١) ازهار الرياض للمقري ج ٣ ص ٢٥ ط مصر ١٣٦١ هـ.

في جميعها بمرحلة الثلاثة مجاناً وذلك علاوة على ما كان يقوم به علمـــاء الدين بالمساجد من دراسة علوم الشريعة واللغة ، وللطلبة نظم وتراتيب خاصة تجمعهم على حسب اختلاف اتجاهاتهم العلمية وتنوع مقاصدهم في الطلب ، والى تلمسان هذه كانت تشد الرحال في طلب علوم الحكمة والفلسفيات من نوع العلم الطبيعي والرياضيات والطب والموسيقى .

فهذا عبد الباسط بن خليل المصري من علمــاء القرن التاسع الهجري هجر بلاده وارتحل الى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب فنزل تلمسان واخذ بها عن الشيخ محمد بن علي بن فشوش احد اطبائها في المزاولة والدرس ، كما انه لازم بها دروس طبيبها الاكبر وحكيمها العالم الاسرائيلي موشى بن الاشقر ؛ قال : « لا رأيت مثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة ... وقصده كثير من الفضلاء للاخذ عنه ... قال : لازمته مدة واخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره واجازني ، وبلغني عنه في هذه الايام انه انتهت اليه الرئاسة في الطب بتلمسان » [1] وكان فيما بلغنا عنه من الجزائريين انه كتب يومئذ في الطب الامام محمد بن يوسف السنوسي (٨٩٥ هـ — ١٤٩٠ م) فله شرح على رجز ابن سينا لم يكمل ؛ بينما الأمر في بلاد الجزائر على ذلك اذا ببلاد الاندلس — وما ادراك ! — كانت على خلاف ذلك ، فان لكل العلوم هنالك حظاً واعتنـــاء خاصاً الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظـــاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانه كلما قيـــل أن فلاناً يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم الا واطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيــدت عليه انفاسه [2] وان كان مزاج الامــة الجزائرية مع ذلك عمومـــاً ذا صبغة دينية محضة حسبما دلتنا على ذلك اكثر آثارها الادبية وانتاجها في عالم التأليف.

واشتهر يومئذ من اطباء تلمسان الادباء الذين سمح لهــم القدر بجمعهم بين جبر وهن الاجسام ومواساة جراحات القلوب والارواح ؛ الطبيب الاديب

(١) الروض الباسم لعبد الباسط بن خليل ص ٤٤ ط باريس ١٩٣٦ م

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٧ ط مصر ١٩٣٦ م

الحاج ابو عبدالله محمد بن ابي جمعة التلاليسي ، طبيب ابي حمو « الثاني » فانه علاوة على براعته في الطب ومهارته في العلاج كان اديباً متفنناً ينظم الشعر الجيد ويحسن قرضه ؛ وله في كل المناسبات والاحداث التي تقع بقصر السلطان قصائد رشيقة وموشحات رائعة ، منها قوله في مطلع موشح رفعه الى السلطان ابي حمو يوم الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥ م) .

لي مدمع هتـــان ينهل مثـل الدرر
قد صير الاجفـان مـا ان لها من اثر

* * *

حـــق له يجـري دماعلى طول الدوام
مذجـد في اليسر ناس الى خير الأنام
وعــــاقني وزري يا صاح عن ذاك المقام

* * *

وسارت الاظعان يحدى بها في السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر

ولقد مرت بك بعض قطع من شعر ملوك هذه الدولة وادبائها الدالة على تضلعهم وتمكنهم من صولجان دولتي السيف والقلم فراجعها [1] وذكر بعض المؤرخين عناية السلطان ابي حمو الثاني بالعلم واهله فقال : هذا امـــر يقصر اللسان عن الاحاطة به [2] .

واما العمران فحجتنا فيه ما كانت عليه يومئذ عاصمة المملكة الجزائرية

---

(١) ذكر روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكان : ان « د جلسين » رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال عصره في القرن الرابع عشر الميلادي ــ الثامن الهجري ــ كان امياً ، وان « هريون » اعظم قضاة الدولة كان كذلك امياً ؛ قال وانهم عثروا على عدة قوانين ووثائق صادرة عن اهل الطبقة الاولى من الاعيان يستدل منها انهم كانوا أميين .

(٢) انظر تحلة اللبيب ص ١٦٦ ط الجزائر ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م

– تلمسان – من كثرة المنشآت وتعدد انواعها على اختلاف اصنافها واشكالها، فهذه قصور شامخة ، وهذه مدارس مؤنقة ، ومساجد فسيحة مزخرفة، وتلك منتزهات جميلة، وهناك دور رفيعة وحصون منيعة، ومصانع عجيبة وحدائق غناء... وكل ذلك مضبوط لدينا فيما حررته مصادر التاريخ الموثوق بها ونطقت به الارقام والاحصاءات الصحيحة الثابتة[1] وزد على ذلــك ما ذكروه عن محتويات قصر المشور وما كان عليه من الابداع، وما عثر عليه هنالك من الزلايج والنقوش المزخرفة على الجبس منها ما بقي موجود الى الآن ومنها ما اندثر.

ويذكر اهل الرحلة والسياحة ان عدد مساجـد مدينة تلمسان في عهدها الزاهر اناف على الستين مسجداً [2] ، كان من بقاياها ما نشاهده اليوم من هذه العترة الباقية الى اليوم كدلالة على تقدم الحضارة والعمران بالجزائر في ذلـك العهد السحيق ، منها هذا الجامع الاعظم الذي انشأه المرابطون في جمـــادي الثانية سنة ٥٣٠ هـ «مارس ١١٣٦ م » كما هو منقوش بباطن قبة المسجد، على ان مناره متأخر عنه بنحو سبعين سنة ، ثم كان تجديد المنار المذكور على عهد يغمراسن بن زيان مؤســس دولة بني عبد الواد الزيانيـــة ، ويبدو على زخارف ونقوش هذا الجامع انها من صنع نحاتين اندلسيين كما يلاحظ ان محرابه قريب الشبه في شكله وهندسته بمحراب جامع قرطبة. والمسجد الذي أقامه السلطان ابو حمو الثاني على ضريح سيدي ابراهيم (٧٦٤ هـ – ١٣٦٣ م) وهو معروف به الى الآن ، وذلك المسجد البديع الشكل الجميل المنظر الذي انشأه السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن الزياني سنة «٦٩٦ هـ – ١٢٩٦ م » وهو المعروف بجامع سيدي ابي الحسن بن يخلف التنسي، اقامه السلطان المذكور كذكرى للامير ابي عامر ابراهيم ، وكان لفرط بهجة هذا المسجد وتفوقه بزخرفته ونقوشـه الانيقة حوّله الفرنسيون المحتلون عن وضعيته الدينية والغايـــة التي انشأ من

(١) راجع Marçais W et G les monuments arabes de Tlemcen Paris 1903
Marçais G. manuel d'art Musulman «l'architecture» Paris 1926-27
Tlemcen paris 1950

(٢) Liabbé S.S. L. Bargés. Tlemcen P. 421 Paris 1859

اجلها وصيروه متحفاً للآثار ، ومنها مسجد سيدي الحلوى[1] الجميـــل الذي انشأه السلطان ابو عنــان فارس المريني سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣م) ؛ وما انشأه والده السلطان ابو الحسن علي المريني بضاحية العبـــاد سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) من تلك المجموعة الاثرية الفنية الثمينة المحيطة بضريح الشيخ ابي مدين شعيب ابن الحسين الاندلسي (٥٩٠ هـ — ١١٩٣م) المحتوية على ذلك الجامع المزخرف الزاهر ، وتلك المدرسة الانيقة والقصر المنيف ؛ ويذكر لنا الشيخ ابو راس المعسكري في كتابه أو قل في شرحه على نظمه الحلل السندسية ان الجامع الاعظم بالجزائر هو ايضاً من مؤسسات بني زيان وان مؤسســه هو ابو تاشفين الاول اقامه بمكانه هذا يوم انتصاره على اعــدائه وخصومه الثعالبة بتيجة . وهذا خطأ محض لا يقوم عليه دليل ولا حجة فيه ، فلقد سبق ان ذكرنا في تاريخ دولة بني مرين بالجزائر ان هناك جناحاً انشأه السلطان ابو الحسن المريني زيادة في الجامع المذكور[2] وعليه فان الجامع كان موجوداً قائماً قبل قيام دولة بني زيان ؟... واين هذا مما ذكره ابو راس؟... على ان المستفيض الشائع على ألسنة علماء الآثار والتاريخ من الباحثين الافرنج وكما هو مكتوب مدون في مؤلفاتهم ان تاريخ الجامع هذا يعود الى عصر المرابطين (٤٩٠ هـ — ١٠٩٦م) وانه ملحق في شكله وهندسته المعمارية بجـــامع تلمسان المنسوب الى علي بن يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وذلك هو ما جزم به الدكتور «م، س، ديماند» امين مجموعة الشرق الادنى بمتحف «الميترو بوليتان» في عاصمة نيويورك الامريكية ، حيث قال في معرض كلامه عن تاريـخ فن الحفر والنقش على الخشب بشمال افريقية :

انه لا تزال بشمال افريقية عدة منابر هامة ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر واقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة ١٠٨٢ (٤٧٤ هـ) وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخيلية وتزاويق في اسلوب مغربي اسباني ، حمله الى

(١) انظر ترجمته في البستان ص ٦٨ ط الجزائر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م.
(٢) راجع المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب «مخطوطة»

شمال افريقية الفنانون الاندلسيون ، (١) ولا يزال هـذا المنبر موجوداً الى اليوم بمكانه من الجامع المذكور تقام عليه الخطب الجمعية وفي الاعيـاد ، ولا يزال نص تاريخه مكتوباً على بابه بالخط الكوفي المشتبك البـارز هكذا . « بسم الله الرحمن الرحيم تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة سبع واربعمائة عمل محمد » وهو ما يوافق من التاريخ الشمسي (٤ دسمبر ١٠١٦ م) أي في عهد دولة صنهاجة ، وهناك من يزعم ان تاريخ المسجد هو ما ذكرناه من تاريخ المنبر ؟.. وجزم الدكتور غوستاف لوبون بأن المسجد الجامع بالجزائر هذا قد اقيم في القرن العاشر للميلاد ، وقد اصابته يد التغيير في مختلف الازمنة (٢) . وأياً ما كان فلا ارى صحة ما ذكره ابو راس من نسبة بناء المسجد الى ابي تاشفين الزياني ؟..

أجل هناك بالجامع المذكور لوحة رخامية ثابتة عند باب منارة منحوت فيها بالخط المغربي البارز ذكر اسم السلطان ابي تاشفين الاول ولكن ذلك هو تاريخ المنـار منه فقط لا المسجد ، ودونك نص النقش الموجود فيهـا حرفياً : « لما تم امير المسلمين ابو تاشفين أيده الله ونصره منـار الجزائر في مدة اولها يوم الاحد السابع عشر من ذي قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة ؛ وكان تمـامها وكمالها في غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة نادا المنار المذكور بلسان حاله الحالي أيُّ منار حاله كحالي ؟..

أقام امير المسلمين تفافحا	كـاني بها حسناً وتمم بنياني
وقابلني بدر السماء وقال لي	عليك سلامي ايهـا القمر الثاني
فلا منظر يسبي النفوس كمنظري	ألا فانظروا حسني وبهجة تيجاني
فزاد إلهي رفعـة لمتممي	كما زاد في شأني ورفـع اركاني
ولا زال نصر الله حول لوائه	رفيقـاً له تال وحسناً له ثاني

---

(١) الفنون الاسلامية ص ١٢٩ ط مصر ١٩٥٤ م .

(٢) حضارة العرب ص ٣٢١ ط القاهرة ١٩٤٨ م .

ولعل الشيخ أبا راس اطلع على هذه الكتابة المنحوتة بهذه الرخامة فظن انها تاريخ المسجد ؟..

على ان جدار القبلة منه والقبة القائمة فوق محرابه هما من منشآت العهد التركي في القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي كما يدل على ذلك فن المعمار التركي ولا سيما المحراب وساريتاه والقبة . وانفق على بنائهما المفتي المالكي في التاريخ على حسابه الخاص طيب الله ثراه ، وذلك اثر حادثة حربية وهجوم بحري ضد مدينة الجزائر فسقطت القنابل على جدار القبلة من المسجد فتهدم الصف الامامي منه فجدده المفتي من ماله الخاص بعد بيع أملاكه .

ويذكر عن السلطان ابي تاشفين الاول انه كان من أشد ملوك هذه الدولة عناية وولوعـاً بفن المعمار فانه قام بتأسيس كثير من المعالم والمعاهد ، وأغلبها اليوم أطلال دارسة ، منهـا مدينة « تامزيزدكت » بشمال الوادي الكبير – سومام – قرب محطة السكة الحديدية من مدينة القصر ، وسماها كذلك حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة حيث امتنع به جدهم يغمراسن في حربه ضد السعيد المريني ونازله من هناك وهلك عليه قال ابن خلدون : ان مكانها بسوق الخميس على وادي بجاية .. وجمع – ابو تاشفين – الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر ، فتمت الأربعين يوماً ، وسموها (تامزيزدكت) باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجـدة ، وأنزل بها عسكراً يناهز ثلاثة آلاف ، وأوعز السلطان الى جميع عماله ببلاد المغرب الاوسط بنقل الحبوب اليها حيث كانت والأدم وسائر المرافق حتى الملح [1] .. انشأها ابو تاشفين سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) وجعلها قلعة حصينة ومركزاً حربياً لمقاومة الحفصيين ببجاية ، اسكن بها نحو ثلاثة آلاف ومائتي فارس وشحنها بالميرة ؛ ثم كان تقويضها سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) على يد خصومه الحفصيين بمؤازرة مرين ، ومثلها بتلمسان بناية دار الملك ودار السرور وأبي فهر ، والمدرسة التاشفينية التي يقول المقري في شأنها : « وهي

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٠٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

من بدائع الدنيا » .. وانظر الى هذه الابيات الرائقة التي رآها المقري مكتوبة حول دائرة عين جارية بهذه الدراسة تعبر على لسان حال هذه العين فنقلها لنا اداء لامانة العلم .

انظر بعينـــك بهجتي وسنائي وبديـع اتقـــاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتـبر فيما ترى من نشأتي بل من تـــدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانـــه صاف كذوب الفضة البيضــــاء
قد حف بي ازهار وشي نمقت فغدت كمثل الروض غب سماء[1]

وكلها تلاشت وانعدمت الا الحوض او الصهريج الذي ترى بقية منه غربي تلمسان البالغ طوله مائتي وعشرين متراً وعرضه مـــائة وخمسين متراً في عمق ثلاثة امتار فانه حـــافظ على وجوده الى الآن وكان انشاؤه حوالى سنة ٧١٦ و ٧٢٨ هـ (١٣١٣ – ١٣٣٦ م) وقد كان يستعمل هــذا الحوض للسباق بين الزوارق والقوارب في ايام الاعياد والمواسم والاحتفـــالات الملكية كما هو مستعمل للسقي والري ، ويقال ان انشاءه كان لاجل تمثيل وقعة قتال بحرية للسلطان ؟...

وعندما حطم محمد بن عبد القوي مدينة البطحاء جدد بناءها السلطان عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠١ هـ – ١٣٠١ م بايعاز سلطـــان مرين يوسف بن يعقوب .

كما يذكر عن ابي حمو الأول انه اصلح من مدينة تلمسان مـــا كان تهـدم منها ايام الحصار المريني الطويل وانه أحدث بها سنة ٧١٧ هـ ١٣١٨ م قصبة خصها بسكنى من عنده من رهائن ابناء زعماء القبـائل الذين هم تحت طاعته وامره وهم كثيرون ؛ فأنشأ لهم هـــذه القصبة على شكل مدينة محتوية على جميع المرافق الضرورية والصناعات وجميع المهن التي تنبني عليها حياة المدن من أسواق ومساجد ومتاجر الخ ... وأذن لساكنيها بالزواج فكانت تعج

(١) نفح الطيب ج ٨ ص ١٥٦ ط القاهرة ١٣٦٩ هـ – ١٩٤٩ م

بأصحابها وتضج ضجيج العواصم الكبرى وصارت بذلك كما يقول ابن خلدون تماثل بعض الأمصار العظيمة فكانت من اغرب ما يحكى في العصور عن سجن.

وعلى هذا المنوال كان ابتناء زاوية الشيخ ابراهيم التازي بوهران ٨٦٦ هـ (١٤٦٢ م) فانها كانت علاوة على ما هو معهود في الربط والزوايا من كثرة البيوت والمقاصر وتعديد مساكن اللاجئين والفقراء الخ ... فإن فيهـا أيضاً مدارس ومساجد وحمامـات وصهاريج وبساتين ومخازن وخزائن كتب وسلاح الخ... فاذا كانت هكذا بنايات الشعب والرعية فكيف تكون أبنية الملوك ؟.. وذلك ما نجد الجواب عنه عند ابن خلدون إذ قال أنها (كانت لا يعبر عن حسنها ، اختطها السلطان أبو حمو الاول وابنه ابو تاشفين واستدعى لها الصناع والفعلة من الاندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان فبعث اليها السلطان أبو الوليد - اسماعيل الثـاني بن يوسف - صاحب الاندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالاندلس فاستأجروا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ، فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس - المريني ٧٧٦ - ٧٨٦ هـ (١٣٧٤ - ١٣٨٤ م) - بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي وتخريب قصره هو ببرادة فأتى عليهـا الخراب أسرع من لمح البصر ... وطـار الخبر الى السلطان ابي حمو وهو بمكانه من تاجحمومت فأغذ السير الى تلمسان ودخلها وعاد الى ملكه بهـا وتفجع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها وراجع دولته بني عبـد الواد وسلطانهم بتلمسان [1] . وان هذه المباني والآثار كما يقول الدكتور غوستاف لوبون : تظهر بين أضمن مصادر التاريخ ، فهي كتب لا تكذب ابداً ، وهي تشتمل على لغة بالغة الوضوح ، بيد انه لم يبدأ في إدراكها في غير أيامنا .

ولقد ضبط أهل الاحصاء ما كان من منازل السكنى بوهران قبل الاحتلال الاسباني بعشر سنوات فبلغ الى ستة آلاف دار ؛ أما عدد المتاجر والحوانيت

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

فإنها أناقت على ألف وخمسمائة متجر ، ويضاف الى ذلك طبعاً عدد مناسب من الفنادق والحمامات والافران والرحاب والقاعـــات والمصانع والمطاحن والأسواق والمساجد والمدارس وهلم جراً مما تقتضيه مرافق الحياة وضبط ما كان من منازل السكن ببجاية فبلغ الـ ٨٠٠٠ منزل ومن الأنفس فـكانت ٣٠٠٠٠ نسمة . وقد يكشف لنا فن المعمار أحياناً عن عناصر التاريخ التي لا تحدث عنها الكتب .

قال يحيى بن خلدون وهو ممن عاش بهذا العصر الذي نؤرخـــه ولابس ملوكه ، يصف تلسان : « وبهـا للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقـة ، والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة ممـا زخرفت عروشه ونمقت غروسه ، وتناسبت أطواله وعروضه فأزرى بالخورنق والسدير ، وبالجملة فان تلمسان أصبحت كما يصفهـــا المؤرخ الكبير اخوه عبد الرحمن : أعظم أمصار المغرب ورحـل اليها الناس من القاصية ونفقت بهــا أصناف العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية [1] .

وذكروا مثل ذلك عن مدينة وهران بما فيها من المؤسسات العامة ومراكزها التجارية المتنوعة ومساجدها ومنتزهاتهـــا الجميلة ومدارسها الشبيهة بمدارس غرناطة واشبيلية كما وصفها الكاتب الاسباني « الفاريز قوميز Alvarés Gomés »

انهيار دولة بني عبد الواد الزيانية

حياة الدول أو الامم هي كحياة الافراد كل يعاني منها ما يعانيه الآخر من تقلبات الزمان وضرباته وتنقلاته من حال الى حال وتطوراته المستمرة الى غير ذلك من النواميس والعوامل الطبيعية فتولد وتنمو وتدور ايامها مـا بين سعادة وشقاء وراحة وعناء ، وبؤس ورخاء وقوة وضعف وارتفاع وانحطاط وحياة وموت ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

واذا علمت كيف كانت وضعية الجزائر السياسية والاجتماعية في اواخر عهد الدولة الزيانية من التشتت والاضطراب وما أحاط بهـا يومئذ من الفتن والمشاكل المتنوعة المهددة ، بسبب تضافر الدول المجاورة على محقها وتسابقها الى محوها والقضاء عليهـا ، مع اعتداءات القبائل العربية والعشائر البربرية المتكررة ، وتزاحم المشيخة والقادة على الرئاسة وتتبع مصالحهم ومنافعهم الخاصة بدون مبالات ولا التفات الى مصالح الشعب والوطن ، فاذا علمت كل ذلك تيقنت وان الدولة الجزائرية يومئذ أشرفت على الهرم لا محالة بل انها ولا ريب ذاهبة الى التدهور والزوال .

وزد على ذلك مضايقات الاتراك والاسبان وحملاتهم وحروبهم المتوالية بالجزائر مع تطلع دولة الاشراف السعديين الى امتلاكها وضمها الى مملكتها المغربية مع انهاك الدولة الزيانية يومئذ واستغراقها في حروبها الداخلية لرد هجمات المنشقين وقمع طوائف الثائرين ودفع غاراتهم المتكررة ...

فاذا استحضرت ذلك كله ودرسته على ضوء ما قدمناه لك من الحوادث والاحداث المنسقة الآخذة برقاب بعضها بعض، ادركت النتيجة المحتمة والعاقبة المنتظرة لهذه الدولة او غيرها ممن كان على شاكلتها ووضعيتها هذه ... وذلك لا محالة غاية كل من احاطت به مثل هذه العوامل الهدامة وتدافعته الاقدار الى هاتيك الاطوار، وطرحته بين مخالب تلك الزوابع والزعازع الفتاكة .

واذا اضفت الى ذلك ما كان يومئذ بين ملوك هـذه الدولة نفسها من التنافس والتزاحم على العرش والاستنصار بالاجنبي من بعضهم بعض مع انقسامهم وانشغالهم بانفسهم عن العدو ، هان عليك حينئذ الحكم بالمصير ...

وكان لزاماً ان تتساقط اوصال هذه الدولة وتتفكك وحدتها وتنحط عن قمة مجدها الى الحضيض صريعة منكسرة الجناح ... وفعلا وقعت من علياء مجدها بيد الاتراك العثمانيين سنة ٩٦٢ ﻫ (١٥٥٤ م) كما سيرد عليك تفصيله فيما نقصه عليك في محله من تاريخ الاتراك بالجزائر .

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة هذه الدولة وزعمائها ورؤساء العشائر وقادتها وشيوخ القبايل وسادتها : الرئيس القاضي ابو محمد عبدون الحباك حاجب يغمراسن بن زيان ، ومن اعيان الوزراء والحجاب يحيى بن مجن او – مقن – ؟ وأخوه عمروش وبعده ولداه : يحيى وعمر ، ويعقوب بن جابر ورحو بن محمد الخراسانيان ، ولقد كان تدويخ مدينة تدلس واطاعتها لبني زيان على يد جابر الخراساني هذا سنة ٧٥٣ ﻫ (١٣٥٢ م) ، ومنهم الوزير غانم بن محمد الراشدي ، ومعروف ابن الفتوح التجاني، ويحى بن موسى الجمي ومحمد بن ميمون بن الملاح وولده من بعده الاشقر فولد ولده ابراهيم ثم عمه علي بن عبد الله .

كان آل الملاح هؤلاء من بيت مجد وحسب من أهل قرطبة الاثرياء، اكتسبوا ثروتهم بطريق الزراعة والفلاحة ، واشتهروا بالصدق والعفاف وحفظ الامانة والتدين فاختارهم ملوك هذه الدولة للعمـل بدار الضرب في تلمسان ، وعرف من بينهم اثنان : عبد الرحمن بن محمد الملاح متولي الاشغال على عهد يغمراسن ابن زيان، ومحمد بن ميمون الوزير ، ثم كان انقراض هـذه الاسرة يوم اغتيال السلطان ابي حمو الاول سنة ٧١٨ ﻫ (١٣١٨ م) .

ومن الوزراء العلج القطلاني المعروف بالشدة وشراسة الاخلاق ، ولما حج سنة ٧٢٥ ﻫ (١٣٢٥ م) اناب عنه الحاج ابا عبد الله محمد بن حوتية ثم اعتقل ومات في السجن ، ومنهم الحاج ابو عمران بن موسى بن برغوث اللؤلؤي وابو عبدالله محمد بن عامر الوطاصي حاجب السلطان ابي سعيد عثمان ، وابو عبدالله محمد بن سعود حاجب ابي زيان الاول وابو محمـــد عبدالله بن مسلم الزردالي وزير ابي حمو الثاني، ويحيى بنداود بن علي من آل ابن مقن وعبدالله الزردالي المشهور بالبسالة والاقدام، ومنهم منصور بن ابي غانم آخر وزراء الدولة الزيانية واخوه عبدالله سفير الدولة الى اسبانيا .

ومن اصحاب الاشغال : ابو زكريا يحيى بن محمد، وابو المكارم منديل بن

المعلم وابو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي، وعبد الرحمن بن النجار صاحب الاشغال ومدبر مملكة السلطان محمد بن ابي ثابت .

ومن الكتاب العسكريين والمدنيين أيضاً : محمد بن غالب قتل يوم ثورة النصارى على السلطان يغمراسن بن زيان . فتولى بعده ابو عبدالله محمد بن جدار، ثم ابو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي المتوفي يوم عاشوراء ٦٨١ هـ (٢٠ افريل ١٢٨٢ م) . وابو عبد الله محمد بن المعلم، وابن خميس شاعر الجزائر واديبها الكبير في القرن السابع ، وابو عبد الله محمد بن المرقوم الهكوري ، وابو عبد الله بن مدورة ، وعبد الواحد بن محمد الزواق ، نكب في دولة الاخوين السلطان ابي سعيد وابي ثابت ، فخلفه علي بن محمد بن سعود ، وابو عبد الله محمد بن علي العصامي ، واحمد بن الحسين المديوني ، وابو عبد الله محمد القيسي المشهور بالمشوش ، ثم نقل هذا الى أمانة المال على عهد ابي حمو الثاني.

وفي سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م ، استدعى السلطان ابو حمو الثاني لحجابته الفيلسوف العالم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون وكتب اليه السلطان بخطه بتاريخ ١٧ رجب ٧٦٩ هـ — (٥ مارس ١٣٦٨ م) : (الحمد لله على ما انعم والشكر لله على ما وهب ليعلم الفقيه المكرم ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون حفظه الله ، انك تصل الى مقامنا الكريم ، لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة ، والمنزلة الرفيعة ، وهو قلم خلافتنا والانتظام في سلك اوليائنا، وقد اعلمناكم بذلك،وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله موسى بن يوسف لطف الله به وخار له) [١] وكان ابن خلدون يومئذ مقيماً عند امير بسكرة : احمد ابن يوسف بن مزني فاعتذر للسلطان. فحالت بينهما العوائق وعاقت المؤرخ الموانع فاناب عنه اخاه يحيى فشغلها الى ان قتله ابو تاشفين الثاني غيلة في رمضان — ديسمبر — سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وذلك اثر انصرافه من صلاة التراويح بالقصر متوجهاً الى منزله وقد كان ذلك بسعاية الشرطي موسى بن يخلف لدى

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٢٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

السلطان نفاسة على يحيى وحسداً له عن المكانة التي احرزها في الحكومة [1]

وتجددت دعوة ابي حمو لابن خلدون سنة ٧٧٦ ﻫ (١٣٧٥ م) ليقوم له في هذه المرة بالسفارة لدى عرب الدواودة؛فيستألفهم ويستميلهم اليه، فامتنع وآثر يومئذ التخلي عن السياسة والانقطاع للدرس والبحث والتأليف فنزل بأهله وولده قلعة ابن سلامة ، او اولاد سلامه [2] فأقام بها اربعة أعوام اكمل فيها تأليف مقدمة تاريخه الحافلة ، ثم استجاب بعد ذلك لطموحه السياسي البعيد وغريزته الوثابة الجامحة فلبى دعوة ابي حمو واخذ في بث دعوته في البلاد ونشر مناقبه بين اهل بجاية وما حولها من القبائل عاملاً على تحويلهم من جانب ابي العباس الحفصي الى ناحية السلطان ابي حمو .

خرج ابن خلدون صحبة امير بسكرة ومن استمالهم اليه من الزعماءومشائخ العرب في جموعهم الكثيرة متوجهين الى نصرة السلطان ابي حمو ، وكان اللقاء بينهم وبين السلطان في مدينة البطحاء – البسيط الواقع بين مدينة غليزان ووادي شلف – فلازمهم ابن خلدون مدة الى ان اظلهم عيد الفطر هناك

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٤٠ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ .

(٢) المعروفة الى الآن بقلعة تاوغزوت ، تقع على نحو ستة كيلومترات بالجنوب الغربي منمدينة فرندة الواقعة على وادي التحت بقاطعة وهران من بلاد الجزائر ، كما تبعد ايضاً عن مدينة تيارت الحالية بالجنوب الغربي بتسع مراحل ، وخطأ ما ذكره الاستاذ محمد عبد الله عنان في تعيين موقع هذا المكان حيث قال : (تقع هذه المنطقة جنوب اقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت – التي هي في الحقيقة تقرت لاتاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية – (ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ص ٥٩ ط القاهرة ١٩٥٣ م) والصواب هو ما ذكرناه ، ولعل ذلك وقع للاستاذ من تشابه او تقارب الاسمين في النطق ؟ وكان مسكن ابن خلدون منها بقصر ابي بكر بن عريف كبير بني سويد ، وهو من احفل القصور واوفقها ، اقام به مؤرخنا الجليل اربع سنوات استغرق منها مدة خمسة اشهر فقط اكمل فيها تأليف مقدمة تاريخه العجيبة النفيسة ، فأتمها في منتصف سنة ٧٧٩ ﻫ – ١٣٧٧ م ثم شرع في تدوين تاريخ البربر وعمره آنذاك اثنان واربعون سنة . واما سلامة الذي تنسب اليه القلعة المذكورة فهو سلامة بن علي بن نصر سلطان رئيس بني يدللتن من بطون توجين ، سكن تاوغزوت واختط بها القلعة فيما بين اواخر القرن السادس واوائل السابع الهجري . فنسبت اليه وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المنقطعين من بني سويد ، انظر ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٣ ط بولاق ١٣٨٤ م .

فخطب ابن خلدون وصلى بالسلطان صلاة العيد ثم انشده عند انصرافه من المصلى قصيدة في التهنئة بالعيد وفيها حث وتحريض للسلطان ، طالعها :

هذي الديار فحيهن صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الاطلال ان لم تروها	عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد اخذن على جفونك موثقا	ان لا يرين من البعاد شحاحا
ايه على الحي الجميع وربما	طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

ثم بعد حين تغير نظر ابن خلدون الى ابي حمو فانقلب على صاحبه وتحول الى السلطان عبد العزيز بن السلطان ابي الحسن المريني ملك المغرب الاقصى وانتظم في سلك الحملة التي بعث بها الملك لغزو تلمسان ومحاربة ابي حمو صديق ابن خلدون بالامس .. فكانت هذه المرة الثانية التي احرز فيها ابن خلدون على رتبة سياسية سامية لدى الحكومة الجزائرية فكانت الاولى ببجاية وهذه بتلمسان وكان على قيادة الجيش الزياني ورئاسة الجند يحيى بن موسى السنوسي الذي طالما تولى القيادة فاحتوى عليها غلاباً ، وهو الذي فتح تونس سنة ٧٢٩ ﻫ (١٣٢٩ م) وكان من قبل عاملا للزيانيين على ولاية شلف الممتدة من حدود مدينة دلس الى المدية ، وكبير القادة موسى بن علي الغزي ؛ والقائد عيسى بن مزروع الياتكشي ، والامير ابو سرحان مسعود الزياني ، واجتمع لموسى الكردي كل من منصبي القيادة والحجابة معاً ، وكان يعيش بن راشد الجني قائداً بالجزائر ودلس . وابن احشمى بتنس ، وعطية بن موسى الركاب قائداًبشلف،وواتفل بن عبو بن حماد قائداً بلمدية، كما تولى القيادة بها ايضاًيوسف ابن حسين التجاني، وقائد بني راشد : زيان بن ابي يحيى بن ونزمان ، وقائد منداس وونشريس : ابراهيم المصوجي ، وقائد وجدة : موسى بن خالد بن محمد ، وقائد ندرومة : زكرياء بن يخلفتن المطغري ، وقائد سجلماسة : عبد الملك العبد الوادي المقتول يوم فتح المرينيون سجلماسة ٦٧٣ ﻫ (١٢٧٤ م) والزعيم يحيى عامل ثغر مستغانم ، وابن اخيه داود كبير اهل الشورى ؛ وكلاهما من ابناء عمومة السلطان يغمراسن بن زيان ومات الزعيم مغترباً بالاندلس

اثر انتقاضه على يغمراسن وكان المنتصر بن أبي حمو الثاني والياً على مليانة والجزائر ، كما تولى منصب مليانة ايضاً الامير محمد بن يغمراسن ، وكان على بجاية ابو هلال عياد المتوفي سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) وعبد الرحمن بن رضوان وصي العرش الزياني ايام المولى محمد ، والقائد احمد بن سليمان ، والقائد ابراهيم. والقائد ابو الاخراص اسير الاسبان .

واشتهر من شيوخ العرب ورؤسائهم يومئذ سليمان بن موسى اليزيدي رئيس بني يزيد ، واستعمل السلطان ابو حمو الاول على توجين الحشم بوانشريس : يوسف بن حيون الهواري واعطاه الطبل والبند ، كما استعمل حاجبه مسامحاً بشلف وبلاد مغراوة وكان راشد بن محمد المغراوي على ناحية وادي شلف .

وكان على رئاسة القبائل العربية كل من عبدالله بن شيقر ،وسعد بن العباس، وزيان بن يعقوب ، ووزيري بن رحـو ، ومنديـل بن ابي يحيى الصغير وكانت رئاسة منطقة مـا بين مدينة قسنطينة والقـل والزاب والحضنة للدواودة ، وواحات تقرت وواد ريغ لبني جـلاب ، ورئاسة بلاد القبائل — زواوة — لسلطان كوكو المقيم بقرية آيت يحيى على بعد ثمانية كيلوميترات شرقي بلدة ميشلي — او عين الحمام على الاصح —

وكانت رئاسة مشيخة الجزائر لبني عـلان ، ثم انتقلت منهم الى بني سالم ابن ابراهيم كبير الثعالبة المتغلب على بسيط متيجة ومدينة الجزائر، ومنهم سالم التومي آخر ولاة مدينـة الجزائر على عهـد بني زيان . وكانت ولاية سهول شلف لبني ثابت بن منديل المغراوي . وقد كان ثابت هـذا على ولاية برشك فأوقع به السلطان ابو سعيد لغـدر صدر منه سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣)، ومنهم اخوة ثابت بن منديل : محمـد وعمر وعابد ، وكلهم تولى رئاسة مغراوة ؛ وكان من مشمول هذه الولاية مدينة مليانة وتنس ومازونة وبرشك وشرشال، وآخر من تولاها منهم علي بن هارون ٧٧٤ ـ ٧٧٦ هـ (١٣٧٢ ـ ١٣٧٤م) حاصره ابو تاشفين بن ابي حمـو واخرجه من ارض مغراوة في ربيع الاول ـ اوط ـ من التاريخ المسطور فلحق ببجاية ثم ارتحـل عنها الى الاندلس

وبذهابه انقرضت امارة بني منديل من مغراوة وكان على ولاية وهران كعامل ومدبر لشؤونها على عهد السلطان احمد المعتصم بن ابي حمو المسمى محمد الزكاجي

وكانت رئاسة واركلان – بني ورجلان – في آل بني ابي عبدل. ويعرف عندهم الرئيس بلقب السلطان ، ورئاسة توجين في آل عبد القوي بن العباس من بني منكوش وفي بني تيغري كذلك واولاد عزيز أيضاً .

وكانت رئاسة قلعة تاوغزوت قرب فرندة في بني سلامة بن علي بن نصر الى ان خربها ابو حمو الثاني سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ومن رؤساء برشك زيرم ابن حماد المكلاتي المستبد بها سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) فقتله بنو عبد الواد سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) وكان قتله على يد عبد الرحمن بن الامام ، وصار امر برشك الى السلطان ابن حمو الاول .

واشتهر من السفراء العلامة ابو عبدالله محمد الشريف التلمساني ؛ وداود بن عجن، وعبدالله بن محمد بن ابي غانم ، في آخرين لم تحضرني الآن اسماؤهم ...

وكان فيما اشتهر من الولاة على عهد السلطان ابي حمو الاول : امير سعيدة معروف الكبير بن أبي الفتوح ، وعطية بن موسى عامل ولاية شلف ، واشتهر من الأسر الرئيسية على قبائل بني يرناش ـ وهم من اوفر قبائل توجين واعزهم جانباً وأبعدهم صيتاً ـ آل مهيب بن نصر وابناؤه من بعده ومنهم نصر بن علي طال أمد أمارته في قومه وتغلب على ما بأيدي بني عبد الواد وبعد صيته وصيت ابنائه واشتهروا بالبطولة والحرب حتى قيل : فما منهم الا صاحب حرب او مقنب .

ملوك الدولة الزيانية

الدور الثالث والأخير

	تاريخ التولية
ابو زيان احمد « الثاني »	٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م
ابو محمد عبدالله « الثاني »	٩٢٤ هـ = ١٥١٨ م
ابو السرحان المسعود	٩٢٥ هـ = ١٥١٩ م
ابو محمد عبد الله « للمرة الثانية »	؟ . . . = ؟ . . . .
ابو عبد الله محمد « السابع »	٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ م
ابو زيان احمد « الثالث »	٩٤٩ هـ = ١٥٤٢ م
ابو عبد الله محمد « السابع » – للمرة الثانية –	٩٥٠ هـ = ١٥٤٤ م
ابو زيان احمد « الثالث » – للمرة الثانية – عامل عثماني –	٩٥٠ هـ = ١٥٤٤ م
الحسن بن عبد الله « الثاني »	٩٥٧ هـ = ١٥٥٠ م

استيلاء صالح رئيس باشا على تلمسان نهائيا ٩٦٢ هـ – ١٥٥٤ م

من مشاهير الجزائر

ابو الفضل محمد المشدالي

٨٦٤ ﻫ (١٤٦٠ م)

هو عبقري زمانه وعلامة عصره وآوانه الشيخ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابي القاسم المشدالي – بفتـــح الميم والشين المعجمة وتشديد الدال ، نسبة الى مشدالة احدى قرى بجاية – او هي بطن من بطون زواوة .

ولد المترجم ببجاية ليلة النصف من رجب سنة عشرين وقيل احدى أواثنتي وعشرين وثمانمائة للهجرة [١٤١٧ م] في بيت علم وصلاح ، مشهور من قبل بانقطاع اهله الى التدين والتقوى وخدمة العلم ، فكان ممن ذاع صيته من العلماء من آل المشدالي بهذا البيت : ابو علي ناصر الدين المشدالي ، وابو موسى عمران المشدالي ووالد المترجم عالم بجاية وخطيبهـــا ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم المشدالي ، وشقيقه محمد بن محمد المشدالي ...

نشأ ابو الفضل على غرار اسلافه شغوفاً بالادب والعـــلم والحكمة ، متوقد الذهن ملتهب الذكاء ، واعياً قوي الحافظة ، أخذ القرآن الكريم برواياته السبع عن والده وحفظه في سن مبكرة من صباه تدعو الى الدهشة والاعجاب فلقد روى انه ابتدأ حفظ القرآن ببجاية في السنة الخامسة من عمره واكمل حفظه في سنتين ونصف ، بل ذكر الرواة انه حفظ سبح قبل ان يتهجى بغير

اقراء له وانما هو بسماعه ممن يدرسه [١]

وكان ممن أخذ عنهم القراءات الشيخ الامام ابو عبدالله محمد بن ابي رقاع ، وقرأ لنافع عن الشيخين هرون الجاهد وابي عثمان سعيد العيسوي وغيرهما ، واكب كذلك على حفظ المتون ودواوين الادب صغيراً فاستظهر منها الشاطبيتين ورجز الخراز في الرسم والكافية والشافية ، والخلاصة ، ولامية الافعال ، والجل من كتاب التسهيل كلاهما لابن مالك ، ومتن ابن الحاجب الفرعي ، والرسالة ، وارجوزة التلمساني في الفرائض ونحو الربع من مدونة سحنون ، وطوالع الانوار في اصول الدين للبيضاوي ، ومتن ابن الحاجب الاصلي وجمل الخونجي والخزرجية في العروض وتلخيص ابن البنا في الحساب وتلخيص المفتاح وديوان كل من الشعراء الخمس : امرىء القيس والنابغة الذبياني وزهير ابن ابي سلمى وعلقمة الفحل وطرفة بن العبد .

ثم اخذ في البحث والدرس والتفهم لما حفظ من كتب العلم والادب فاختلف الى المشائخ ولازم منهم الشيخ ابا يعقوب يوسف الزيغي فأخذ عنه علم الصرف والعروض ، ثم اخذ عن ابي بكر التلساني فنون اللغة والمنطق والاصول والميقات وعن ابي بكر بن عيسى الوانشريسي اخذ الميقات ايضاً ثم على يعقوب التيروني النحو ؛ ثم على ابي اسحاق ابراهيم بن احمد بن ابي بكر في النحو والمنطق ، ثم على موسى بن ابراهيم الحسناوي في الحساب ثم الحساب ايضاً مع الصرف والنحو والاصلين والمعاني والبيان وعلوم الشريعة من تفسير

---

(١) يرى دارس تاريخ الحضارة والثقافة الاسلامية في مختلف بلاد العالم الاسلامي ان مثل هذا النوع من النبوغ والذكاء وسرعة الحفظ في مقتبل العمر كان معروفاً به كثير من العلماء المتقدمين كابن سينـاء فانه اتقن علم القرآن والادب وحفظ اشياء من اصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة وعمره عشر سنين ، وحفظ قتادة القرآن في سبعة اشهر ، وأتم سهل بن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات ، واكمل تاج الدين الكندي القراءات العشر وله عشرة اعوام ، وذهب عمر بن احمد بن العديم الى المكتب وعمره سبع سنين وختم القرآن وله تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشرة سنين ، وحفظ الامام الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وله احدى عشرة سنة . . . انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٩١ والعقد الفريد ج ١ ص ٢٦٧ والاحياء ج ٣ ص ٥٩ والدارس ج ١ ص ٤٨٣ – ٤٨٤ ومعجم الادباء ج ٦ ص ٣٦

وحديث وفقه على والده ابي عبد الله ثم الاصلين على ابي الحسن علي بن ابراهيم الحسناوي – لعله اخو موسى المتقدم الذكر ؟

ويذكر عن ابيه انه امره بمطالعة غزوة بدر ليحاضر بها في الميعاد فحفظها المترجم برمتها من سيرة ابن اسحق بما فيها من الاشعار وحاضر بها من العشاء الى نصف الليل واصبح فساقها حتى بهر الحاضرين .

ولما كان عليه الشيخ من الطموح الى ارتقاء المعالي والرغبة الجامحة في نيل مقام اكابر العلماء تاقت نفسه الى التبحر والتعمق في العلم فتعلقت همته بالرحلة والتغرب للقاء المشيخة كما هي سنة السلف في ذلك ؛ فارتحل من بـــلده الى تلمسان سنة ٨٤٠ ﻫ (١٤٣٦ م) وهناك اجتمع باهل النظر والفضل من حضنة العلم واولي العرفان ، وكان من اشهر من اخذ عنهم يومئــذ من علمائها عشرة : ابن مرزوق الحفيد فاخذ عنه التفسير والحديث والفقـــه والاصلين والادب بفنونه والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة ، واخذ عن ابي القاسم ابن سعيد العقباني الفقــه واصول الدين ، وعن ابي الفضل بن الامام التفسير والحديث والطب والعلوم القديمة – الحكمية – والتصوف ، وعن ابي العبـــاس احمد بن زاغو التفسير والفقه والمعـــاني والبيان والحساب والفرائض والهندسة والتصوف ، واخذ الاصول عن ابي عبدالله محمد بن النجار المعروف بساطـــور القياس ؛ وذلك لشدة معرفته بهذا الفن ،وكان مما قرأه عليه من كتب هذا الفن مختصر ابن الحاجب الاصلي ، وكان مرجع الناس اليه في امر المختصر هـــذا ، ولقد تمكن المشدالي من فن الاصول حتى فاق شيخه ؛ فكان اذا عرض لشيخه هذا اشكال في الفن امر تلامذته ان يذكروه بحضر المشدالي رجاء حـــله على يده ، كما انه اخذ عنه علوم البيان ايضاً ، وتلقى الفقه عن ابي الربيع سليمان البوزيدي وكان هذا من اعلم الناس يومئذ به ، وعن ابي يعقوب يوسف اسماعيل الحساب والفرائض ، واتقن فـــن الحساب وعلم الجبر والمقابلة وغيرهـــا من الرياضيات وعلم الهيئة وجر الاثقال على ابي الحسن علي بن قاسم ، وتخرج في علم التقاويم والميقات بانواعه من فنون الاسطرلابات والصفائح والجيوب والهيئة

والارتماطيقى والموسيقى والطلسمات والاوفاق وما شاكلها وعلم المرايا والمناظر الخ ... على ابي عبدالله محمد البوري واتقن الطب على محمد بن علي بن اقشوس التلمساني .

وبعد ان امتلأت اوطاب الشيخ بالعلم واحاط باصوله وفروعه وجمع اشتاته عاد الى بلده بجاية سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) مبرزاً على اقرانه مشاراً اليه ، فتصدر بها للاقراء وتدريس العلم .

ذكر السخاوي فيما رواه عن البقاعي قال وحدثني الصالح احمد الزواوي عن بعض فضلاء المغاربة ان ابن مرزوق قال ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الشاب ، فقيل له كيف ؟.. قال لاني كنت اقول فيسلم كلامي ، فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت اتحرز وانفتحت لي ابواب من المعارف ، او نحو هذا ، ونقل البساطي عنه ايضاً انه قال :ان عاش هذا كان عالم المسلمين، ونقل عنه ايضاً ان ابن مرزوق كتب لابيه فيما قيل : انه قدم علينا وكنا نظن به حاجة الينا فاحتجنا اليه اكثر . وكان ابن مرزوق وابو الفضل بن الامام يأمران تلامذتها بالقراءة عليه فاسرع اليه غالبهم فانتفعوا به كان منهم احمد بن زكري المشار اليه بالتقدم في العلم والرئاسة بتلمسان .

وفيما بين اواخر السنة الاولى واوائل الثانية التي عاد فيها المشدالي الى بجاية ارتحل الى بلد العناب – بونة – وقسنطينة فحضر بها مجالس العلماء ساكتاً من غير ان يتعرف لاحد ، وفعل مثل ذلك في دخوله لتونس سنة خمس واربعين ثم توجه الى الديار المصرية على ظهر سفينة لنصارى جنوة فأرست به في قبرص فنزل هناك وتجول مستطلعاً في ارضها فرأى بها عجائب وحصل له مع بعض اساقفتها مناظرة ثم ارتحل من قبرص في ذي القعدة (مارس ١٤٤٢ م) فأرسى به مركبه في بيروت ، فطاف بلاد الشام : دمشق وطرابلس وحماه ، ثم قطن بالقدس مدة وشاع ذكره فملأ الاسماع ووقع على تفضيله الاجماع ، ثم حج سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) وجاور ثم دخل القاهرة مع الكمال بن البازري وهناك ارتفع شأن الشيخ عند السلطان وارباب المملكة واركان الدولة سيما

منهم الكمال وصهره الجمال ، واخذ بينهم الشيخ في نشر علومه واملاء دروسه في عدة فنون من معقول ومنقول فأدهش الالباب وبهر العقول فزادت بذلك حظوته وعلت منزلته عند الخاصة والعامة .

وكان ممن تعرف اليهم في مصر وتشرفوا بصحبته الامام السخاوي فترجم له في ضوئه ترجمة ضافية منوهاً بشأنه فقال : « وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم وسعة الحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الرأي واستقامة النظر ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ما لم اره من احد. وحكى عن درسه فقال :

« .. ثم حضرت درسه في فقه المالكية بالجامع الازهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين – من القرن التاسع الهجري –فظهر لي انني ما رأيت مثله؛ ولا رأى هو مثل نفسه وان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس بل ولا خرج الى الوجود ؛ قال ومن سمع كلامه في العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ومعاينة وان غيره يخبر عن غيبة وليس الخبر عن المشاهدة كغيره ؛ ولهذا نجد كلامه في القلب اثبت من كلام غيره ؛ ولم ار اعظم تحريكاً للهمم من حاله ولا اشد فعلاً للقلوب من مقاله ؛ سماع درس واحد من تقريره اكثر نفعاً من سماع مائة من غيره . هيئة لعمري لا يحاط بكنهها،وهو آية ابرزه الله في هذا العصر للعباد !. فمن قبلها يرجى له بركتها ومن اباها خشي عليه معاجلة العقوبة ، لا يشبه كلامه في جزالته الا كلام العرب العرباء ولا يضاهيه في طلاقته ورصانته سوى الالباء على انه محشو من دقيق المعاني بما يمنع لعمري من التصنع ويشغل عن التكلف ، بل تلك منه سجية غير محتاجة الى روية ، وهمة عالية ما جنحت قط في التحصيل لدنية.

صفات يغار البدر منها وينثني   لها خضماناً رؤوس المنابر

قال : فكان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تضمنته من

تصوير المسائل ويستوفي كلام اهل المذهب ان كان فقهاً وكلام الشارحين ان كان غير ذلك ثم يتبع ذلك بابحاث تتعلق بتلك المسائل ، كل ذلك في اسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل ، وتحرز بديع بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره ان يفهم ما يلقيه ويدرك بعض ادراك ما يحليه ، ولقد حدثني غير واحد من ثقات الافاضل ان الطلبة قالوا له تنزل لنا في العبارة فانا لا نفهم جميع ما تقول فقال شيئاً يكاد يكون كشفاً ، لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم الي ، فبعد كذا وكذا لمدة حدها تصيرون الى فهم كلامي ، فكان الامر كما قال !..

قال السخاوي : وسمعت البقاعي يقول غير مرة انه – اي المشدالي – لم يكن ينظر في دروسه التفسيرية في غير القرآن،وانه يستلقي على قفاه ويتأمل فيأتي بصواعق لا ينهض غيره لها وانه كان يفعل ذلك في كل علم يقرؤه او يقريه لا يزيد على نظر المتن وحكى عن علي البساطي ذلك فقال : كان ابو الفضل اذا قرأ علماً لا يقرأه غيره ولا يزيد على تكرير مطالعة المتن ولا يطالع شرحاً ولا غيره ..

وفيه يقول ابن ابي عذيبة : « الامام العلامة اوحد اهل زمانه قدم علينا القدس سنة سبع واربعين فاقرأ العضد وكتب المنطق والمعقولات وشهد له الائمة ببلدنا وبدمشق ومصر وطرابلس انه اوحد اهل الارض وانه عديم النظير في جنس بني آدم ، وانني عاجز الآن عن عبارة اصفه بها فان كل عبارة هو فوقها . قال ثم دخل مصر فولي تدريس القبة المنصورية فدرسها العجب العجاب وتعين لقضاء الشام ثم لمصر فأبى ، ولا يحضرني الآن من يضاهيه في كثرة علومه ، ثم نقل عن العز القدسي انه قال : ولو سكتوا اثنت عنه الاحقاب ، وعن ابن الهمام انه قال سألته عن مسألة في اواخر الاصول ، فاجابني عنها بأجوبة من لو طالع عليها ثلاثة اشهر لم يجب فيها بمثله !.. وعن الزين قاسم الحنفي قال ما سمعت العلم من مثله .

قال السخاوي: « واراد الله ان مرض الامام ابن حجر بامراض منها ضيق

النفس في نحو نصف ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وطال مرضه ؛ فذكر له الكمال والشرف بن العطار بانه يتعين ان ينظره – المشدالي – ليشخص مرضه وينظر علاجه فانه في الطب واحد عصره وفريد دهره وكان قد تكرر على سمعه من معارفه وعظمته عند الاكابر وعقله وسياسته وثباته ورزانته ما قرر عنده امره وملأ صدره حتى اشتهى ان يراه ولو نظرة فطلبه منهما والحّ عليهما فكلماه في ذلك فامتنع لكراهته ان يشتهر بالطب .. فلم يزالا يتلطفان بـه ويترلفان اليه الى ان اجاب ، فعاده في يوم الاحد منتصف ذي الحجة وهو في اشد المرض فابتهج به ابتهاجاً كثيراً وعظمه تعظيماً كبيراً ثم نقل عـــن ابن الهمام انه قال : هذا الرجـــل لا ينتفع بكلامه ولا ينبغي ان يحضر دروسه الاحذاق العلماء وسئل عن النسبة بينه وبين ابي القاسم النويري فقـال : جهد ابي القاسم ان يفهم عنه .

وكتب الشهاب الابدي لوالد صاحب الترجمة فقال :

« ...ان الله خول سيدنا ومولانا وملاذ انسنا ابا الفضل ولدكم الاسعد من الفتوح الالهية والمنن الربانية مالمتحنه صالح دعائكم وحسن طويتكم واعتقادكم ان جعله الله بحراً لعلوم زاخرة ، وعنصراً لفضائل فاخرة ، ومحاسن متوالية متضافرة . فكم ابدى من دقائق خضعت لها الرقاب ، ونفائس هامت بهـــا ذوو الالباب ، ومباحث شريفة كشفت دونهـــا الحجاب ، فأبكت ذوي العقول وحج اصحاب المعقول والمنقول ، فدانت له المملكة المصرية والاقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية فحاز الرئاستين وقـــام بالوظيفتين فالرؤساء حول دياره مخيمون وعظماء المذهب بفناء منزله محومون ، فالوصف يقصر عما هو فيه ابقى الله وجوده وزاده في معاليه وعن سعد بن الديري قال : كنت اذا كلمته بكلام يفهم آخره قبل ان اتمه .. وهو احد الائمة في الدنيا في علوم عديدة سيما المعقولات .

ولم يبلغنا عنه فيما وقفنا عليه من كتب السير والتراجم وعرفناه من ترجمته الواسعة ان له من التأليف سوى كتاب واحد ، وهو شرحه على جمل الخونجي

فقط وان صنيعه فيه حسبما ذكره السخاوي نقلاً عن البقاعي قائلاً : « انه شرحه على طريقة حسنة ، وهي ان ينظر في شروحها لابن واصل الحموي والشريف التلمساني وسعيد العقباني وابن الخطيب القشنبليني وابن مرزوق فيما اجمعوا عليه ساق معناه وكذا ما زاده احدهم وما اختلفوا فيه ذكر ما رأى انه الحق ، كل ذلك بعبارة يبتكرها ثم تمم ذلك بما وقع للمتقدمين من علماء المسلمين فمن قبلهم في تلك المسألة مما يرى انه محتاج اليه من التحقيقات » .

ومعلوم ان كل ذي نعمة محسود وانه لا اعظم ولا اجل من نعمة العلم والمعرفة وعلى الاخص ما حازه المترجم من شرف المنزلة عند رؤساء الدولة وسادة علماء المشرق والمغرب وما شهد له به الاعلام من التفوق المطلق على كل من عاصره او جمع بينهما مكان ، فكان ذلك سبباً في بعث داء الحسد والمنافسة في صدور بعضهم فبالغ في الطعن في علمه واخلاقه ووصمه بالجهل والدناءة ويروي لنا السخاوي في ذلك عن الشيخ عبد القادر المحيوي المالكي روايات قال : والله انه لا عهدله بالفقه بل سمعت قراءته الفاتحة في الصلاة فما اجادها !.. وروي عن ابي القاسم النويري انه قال لما دخل المشدالي مصر وارتجت عليه والتف الناس حوله واقبل عليه الخاصة والعامة : اي شيء هذا الطبل الذي طبل بمصر ؟.. فبلغ ذلك المشدالي فقال : قوله ذلك عني يريد اني مزوق الظاهر فارغ الباطن فليحضر ليرى .

حسدوا الفتى اذا لم ينالوا سعيه   فالكل اعداء له وخصوم

وطعنوا في غرائزه الطبيعية وملكاته الخلقية وبالغوا في تنقيصه فقالوا انه كان مخل المروءة كثير الترفع على اصحابه سيما في الملأ ، عظيم التهاون بهم عديم النفع لهم ، لين الجانب لمخالفيه غير بعيد من نفعهم وهو يستر هذه النقائص ببعد غوره غاية الستر فلا يذوقها منه الا النحرير في اوقات الغفلات فاذا ظهر له منها شيء انهتك الباقي ، فهو لعمري اعجوبة الزمان حفظاً وفهماً وتوقداً وذكاء وعلماً وخبثاً ومكراً ودهاء وتواضعاً وكبراً ، قال السخاوي : ومن عجائب حفظه انه تحبب لشيخنا ابن حجر بانواع التحبب

فأتاه لبيته فلم ير منه انصافاً وظن ان الاشاعات بفضائله مغالاة او غلط مما لا نباهة له فترفع حينئذ عن التردد اليه مع توقع ان يراه في بيوت بعض الاكابر فيريه من انظاره ودقة فكره ما يكيع فكره ويعلي عنده قدره بحيث كنت اظن ان ذلك يفضي الى ضد المراد من غيظ وتماد واجتهدت من الجانبين في الاجتماع على وجه جميل فلم استطع الى ان اراد الله مرض ابن حجر وقد تقدمت حكاية حاله معه ..

وبعد ما اطنب وتوسع السخاوي في ذكر بعض المتناقضات من اخلاق المشدالي قال : « وبالجملة فكان غاية في جودة الذهن وسرعة الادراك وقوة الحافظة الا انه كان سريع النسيان قليل الاستحضار ولاجل هذا لم يكن يتكلم في المجالس الا نادراً خوفاً من الاستظهار عليه بالمنقول ، واذا طالع محلاً اتى فيه بما يبهر السامع وقد تكرر اجتماعي معه .. وما كنت احمد انحرافه عن شيخنا – ابن حجر – وارغب في لقاء ابي عبد الله التريكي لمزيد حبه شيخنا وتقدمه على صاحب الترجمة في الشرعيات ومحبته في المباحثة والمناظرة والمذاكرة .. قلت لا غرابة في ذلك فلقد وقع له والله مثل ما وقع للعلامة ابن خلدون وغيره من العلماء في المشرق والمغرب فالمعاصرة حرمان!.

واستاذ عالم متبحر كهذا لا شك وان يكثر تلامذته واتباعه ومريدوه ذكر بعضهم السخاوي فقال منهم بالحجاز البرهان بن ظهيرة ، وبالشام ابن قاضي عجلون ، وبالقدس الكمال بن ابي شريف ، وبالقاهرة الشهاب البيجوري والديسطي وابن الفرز الخ ...

ومن شعره رحمه الله قوله وكان بتلمسان سنة اربعين وثمانمائة للهجرة وهو في عهد الشباب مخاطباً بعض اصدقائه ببجاية من ابيات :

برق الفراق بدا بأفق بعادنا فتضعضعت اركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا والبين شق قلوبنا بعموده
لله أيام مضت بسبيلها والدهر ينظم شملنا بعقوده

وتوفي رحمة الله عليه غريباً فريداً بمعين تاب من بلاد الشام في شهر شوال او ذي القعدة سنة ٨٦٤ هـ (جوليبط – اوط ١٤٦٠ م) اي قبل وفاة والده بسنتين سقى الله جدثهما وابل رحمته ورضوانه .

ابو زيد عبد الرحمن الثعالبي

٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م)

هو فخر ائمة علماء الجزائر وصلحائها الاتقياء الورعين الابرار الامام المجتهد الحجة ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري ، نسبة الى عبدالله بن جعفر بن ابي طالب عم رسول الله ﷺ ولقد تزوج عبدالله هذا بنتي عمه علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : زينب ثم فاطمة اختي الحسنين رضي الله عنهما ، وذكر ابن حزم في جمهرة النسب ان هناك بتيجة وسوق حمزة بالجزائر جماقرة من ابناء جعفر بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب وكلهم من أبناء زرذلة السوداء[1] ؟ ...

ولد الثعالبي سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٥ م) بناحية وادي يسر على نحو ست وثمانين كيلو متراً بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر وهو موطن آبائه واجداده الثعالبة ابناء ثعلب بن علي من عرب المعقل فنشأ نشأة علم وصلاح وتقوى اخذ علمه اولاً عمن وجده من علماء ناحيتهم تلك ، ثم ارتحل الى بجاية فنزل بها سنة ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) ولازم حضور مجالس علمائها فأخذ عنهم علماً جماً وكان عمدته فيهم الامام ابا الحسن علي بن عثمان المانجلاتي وأبا الربيع سليمان ابن الحسن ، وأبا الحسن علي البلياني ، وعلي بن موسى والامام ابا العباس احمد النقاوسي ، وأبا القاسم المشدالي ثم انتقل الى تونس سنة ٨٠٩ هـ (١٤٦٠ م) فلقي بها جلة من أكابر العلماء فانتفع بهم منهم الامامان الابي والبرزلي تلميذا ابن عرفة وابو مهدي عيسى الغبريني ثم انتقل الى مصر (٨١٧ هـ - ١٤١٤ م)

(١) جمهرة ابن حزم ص ٣٩ ط مصر ١٩٤٨م وانظر ابن خلدون ج ٦ ص ٥٩ – ٦٤ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

فلقي بها البلالي وأبا عبد الله البساطي وولي الدين العراقي فأخذ عنهم وارتحل الى بورصة من بلاد الترك وهنالك اقيمت له زاوية هي موقوفة ومحبسة عليه الى الآن ويم الحجاز فحج واخذ هنالك عن علمائه ثم عاد الى مصر ثم تونس سنة ٨١٩ ﻫ (١٤١٦ م) فوافى بها العلامة ابن مرزوق الحفيد التلمساني فلازمه واخذ عنه فنوناً من العلم جمة ، واجازه باجازات ثلاث ، اثنى عليه فيها كلها وحلاه بقوله : (سيدي وبركتي ، الشيخ الامام الفقيه المصنف الحاج العالم المشارك الخير الدين الاكمل ابي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ..) (وهي بتاريخ ٨٢٠ ﻫ – ١٤١٧ م) وفي اخرى : (سيدي الشيخ الفقيه الصالح المبارك الحاج المحدث الراوية الأكمل ...) وفي اخرى : (سيدي الشيخ الاجل، الفقيه الانبل المشارك الاحفل المحدث الراوية، الرحلة الافضل، الحاج الصالح المبارك الأكمل ...) وجاء في اجازته الشيخ ابن زرعة العراقي له قوله : (الشيخ الصالح الافضل الكامل المحرر المحصل الرحال ابو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ...) قال ولم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث اذا تكلمت انصتوا وقبلوا ما أرويه تواضعاً منهم وانصافاً واعترافاً بالحق . كما أخذ عن ابي عبد الله القلشاني وعن غيره أيضاً من جهابذة العلم المحققين بتونس فحصل على اجازاتهم واذنهم له في التدريس والتأليف ثم عاد الى وطنه فذاً عظيماً في علمه وصلاحه وقدوة حسنة للمسلمين في اجتهاده وكده معتكفاً على نشر العلم وهداية الخلق والانقطاع للعبادة والتأليف ، فتخرج على يده اعلام وصدور منهم حجة علماء الكلام الامام محمد بن يوسف السنوسي ، وأخوه الأمام ابو الحسن علي التالوتي والشيخ احمد رزوق ومحمد المغيلي التلمساني وسيدي احمد بن عبدالله الزواوي الجزائري وابن مرزوق الكفيف . . .

كان رحمه الله رأساً في العبادة وغرة لامة في الزهد والعلم فولي القضاء عن غير رضى منه ثم خلع نفسه وهو دائماً المدره في عشيرته والزعيم في قومه وملاذهم الذي يلوذون به ومعقلهم الذي يلجؤون اليه في المدلهمات .

يروى انه ولي خطابة الجامع الاعظم بالجزائر وان من بقايا آثاره المتبرك بها الى اليوم مقبض عصا الخطيب بالجامع المذكور ?...

اعتكف الشيخ على التدوين والتأليف واغلب همه من ذلك خدمة علوم الشريعة المطهرة وله في ذلك الباع الطويل فلقد ترك ما يزيد على التسعين مؤلفاً بين متون وشروح وحواشي وتعاليق وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق والتفسير والفقه الحديث والتاريخ الخ . . . ، منها كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن طبع بالجزائر في اربعة اجزاء مذيلا بمعجم لغوي لشرح غريبه وروضة الانوار ونزهة الاخيار في الفقه قال التنبكتي « وهو قدر المدونة فيه لباب نحو ستين من امهات الدواوين المعتمدة وهو خزانة كتب لمن حصله » وكتاب جامع الهمم في اخبار الامم في سفرين ضخمين وجامع الامهات في احكام العبادات وهو كتاب جليل طالعته في سفر ضخم والارشاد في مصالح العباد ورياض الصالحين ، وارشاد السالك وهو كتاب صغير الحجم وكتاب الارشاد ، وجامع الخيرات ، والتقاط الدرر وهو مما ازدانت به مكتبتنا وكتاب الاربعين حديثاً في الوعظ والرقائق ، وكتاب نور الانوار ومصباح الظلام ، وهو كذلك مما من الله علينا به فله الحمد وله الشكر ، وكتاب الانوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة وهو كتاب نفيس طالعته في جزء ضخم وكتاب النصائح وجامع الفوائد وتحفة الاخوان في اعراب بعض آي من القرآن والذهب الابريز في غرائب القرآن العزيز وله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي وقفت عليه عند قيم الضريح بزاويته بالجزائر وهو في سفرين ضخمين وله شرح على مختصر خليل بن اسحاق وكتاب الدرر اللوامع في قراءة نافع طبع بالجزائر ، ونشر له نبذة من الجامع الكبير الذي وضعه ملحقاً بشرحه على مختصر ابن الحاجب الفرعي طبعت بالجزائر ، وكتاب العلوم الفاخرة في احوال الآخرة طبع بمصر ، الى غير ذلك مما ينيف على التسعين مؤلفاً كما ذكرنا ويقال ان اغلبها موجود بارض السودان ? ...

ومن نظم الشيخ الثعالبي قوله :

وان امرؤ ادنى بسبعين حجة جدير بأن يسعى معداً جهازه
وان لا تهز القلب منه حوادث ولكن يرى الباقيات اهتزازه
وان يسمع المصغى اليه لصدره أزيز كصوت القدر يبدي ابتزازه
فما بعد هذا العمر ينتظر الذي يعمره في الدهر الا اغترازه
وليس بدار الذل يرضى اخو حجى ولكن يرى ان بالعزيز اعتزازه

ولم يزل رحمه الله ورضي عنه عاكفاً على الطاعات متجرداً عن الدنياويات الى ان وافاه اجله ضحوة يوم الجمعة ٢٣ رمضان المعظم سنة ٨٧٥ ه (منتصف شهر مارس ١٤٧١ م) ودفن قدس الله روحه بـ « جبانة الطلبة » حيث ضريحه الشهير به الى اليوم من عاصمة الجزائر ، وكان لفقده اثر عميق في القلوب وحزن عظيم في النفوس ، وكان فيمن رثاه من العلماء تلميذه الشيخ سيدي احمد بن عبد الله الجزائري الزواوي صاحب النظم المشهور (كفاية المريد في علم التوحيد) فقال في مطلع مرثيته :

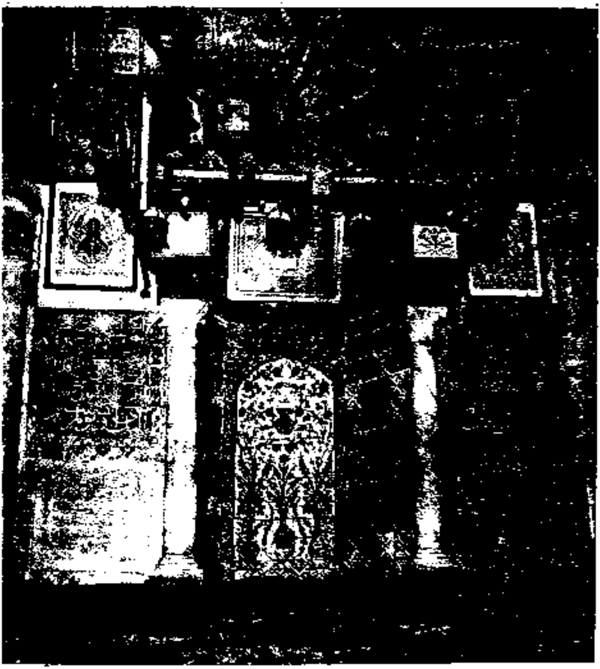
لقد جزعت نفسي لفقد احبتي وحق لها من مثل ذلك تجزع
ألمّ بنا ما لا نطيق دفاعه وليس لأمر قدر الله مرجع

وفيها يقول :

لقد بان اهل العلم عنا واقفرت منازلهم انا الى الله نرجع
كما بان عنا شيخنا العالم الذي سناه بأنوار الحقيقة يسطع
ابو زيد المشهور بالعلم والتقى له العلم فينا والمقام المرفع
هوالعالم الموصوف بالنفع والورى به عنهم خطب الحوادث يرفع

وفيها يقول معزياً ابا عبد الله محمد الكبير نجل الثعالبي :

اعزي ابا عبد الاله محمداً ومن يحمل الصبر نرجو سيجمع
ونحن وان كنا جميعاً نحبه فقلبك اشجى للفراق واوجع
اصبنا به فالله يعظم اجرنا ويلهمنا الصبر الجميل ويوسع



محراب مسجد « سيدي عبد الرحمن الثعالبي » بالعاصمة وهو يمثل نموذجاً من ارقى انواع القاشاني والزليج الملون المزخرف والمكتوب بالخط العربي بنوعيه - النسخي والفارسي ، خط الرقعة - وهو الى ذلك مثال رائع جميل الشكل فن المعمار التركي بالجزائر في اوائل القرن الثاني عشر الهجري - اواخر ١٧ م - .

وكان له من صلبه رحمه الله اربعة ذكور وهم : محمد الكبير ومحمد الصغير ومحمد الملقب بأبي الصالحية ويحيى ، واربع بنـات : فاطمة ورقية ومحجوبة وعائشة ولا يعلم لهم عقب الا محمد الكبير فان له بنتاً تسمى كلة — بفتـح الكاف واللام المشددة — ولا يعلم لها عقب ايضـاً ، وقد توفي كل من محمد الصغير ومحمد ابي الصالحية في قيد حياة والدهما ، اما الاول فتـوفي شهيداً بالطاعون سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٣ م) واما الثاني فتوفي سنة ٨٥١ هـ (١٤٤٧م) وكذلك البنات الثلاث : فاطمة ورقية ومحجوبةفانهن توفين صغاراً الا عائشة فانها كانت موجودة سنة وفاة اخيها ابي الصالحية ٨٥١ هـ وقبورهم جميعاحيث مدفن ابيهم باوسط المحل المعروف قديماً باسم « جبانة الطلبة » أفـاض الله عليهم شآبيب الرحمة والرضوان .

احمد بن يونس القسنطيني

٨٧٨ هـ (١٤٧٤ م)

هو العـالم المتفنن الشيخ احمد بن يونس بن سعيـد بن عيسى الحميري القسنطيني ، ولد بقسنطينة الهواء سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة وتفقه بمحمد بن محمد بن عيسى الزيلدوي وابي القاسم البرزالي وابن غلام الله القسنطيني وقاسم بن عبد الله الهزميري ، اخـذ عن الاول الحديث والعربية والاصلين والبيان والمنطق والطب وغيرها من العلوم العقلية والنقلية وبه انتفع ، واخذ الموطأ عن ثانيهم ، واخذ شرح البردة وغيره عن مؤلفه ابي عبد الله بن مرزوق الحفيد حين قدومه عليهم بقسنطينة وارتحل الى الحج سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) فأخذ عن البساطي شيئاً من العقليات وغيرها واخذ كذلك عن الامام ابن حجر والعز عبد السلام القدسي والعيني وابن الديري وآخرين .

ثم عاد الشيخ الى بلده فاقام على عادته في الاشتغال بالعلم الى ان حج ايضاً بعد سنة اربعين وجاور في هذه المرة بمكة المكرمة وسمع على الاخوين الجلال والجمال ابني المرشدي في فنون من العلم والحديث وعلي الزين بن عيـاش وابي

الفتح المراغي وطائفة كثيرة، من ذوي الفضل والعلم وتكررت منه الرحلة بعد ذلك الى ارض الحجاز مع المجاورة في بعض المرات الى ان استقر وسكن بمكة سنة ٨٦٤هـ (١٤٥٩م) وتزوج بها وتصدى فيها لاقراء العربية والحساب والمنطق وغيرها فاخذ عنه غير واحد من اهلها والطارئين والمجاورين بها .

وكذلك جاور بالمدينة المنورة غير مرة ثم استوطنها وأقرأ بها ايضاً وارتحل في غضون ذلك الى القاهرة فأقام بها يسيراً . وكان ممن اجازه واستجازه بها شمس الدين السخاوي ثم سافر منها الى القدس والشام ، وكف بصره وقدح له فما افاده ثم احسن الله اليه بردّ ضوء احدى عينيه ،قال السخاوي : « ولقد لقيته بمكة ثم بالقاهرة واغتبط بي والتمس مني اسماعه القول البديع فما وافقته فقرأه او غالبه عند احد طلبته النور الفاكهاني بعد ان استجازني هو به وسمع مني بعض الدروس الحديثية وسمعت أنا كثيراً من فوائده ونظمه منه قوله في طالع قصيدة امتدح بها النبي ﷺ :

يا أعظم الخلق عند الله منزلة ومن عليه الثنا في سائر الكتب

قال واطلعني على رسالة عملها في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة عن النبي ﷺ وغيرها بعد ان استمد مني فيها وكذا رأيت له اجوبة عن اسئلة وردت من صنعاء سماها رد المغالطات الصنعانية . وكان اماماً في العربية والحساب والمنطق مشاركاً في الفقه والاصلين والمعاني والبيان والهيئة مع إلمام بشيء من علوم الاوائل عظيم الرغبة في العلم والاقبال على اهله قائماً بالتكسب خبيراً بالمعاملة ممتهناً لنفسه بمخالطة الباعة والسوقة من اجلها ولم يزل مقيماً بالمدينة النبوية حتى مات في شوال سنة ثمان وسبعين (فيفري ١٤٧٤ م) ودفن بالبقيع رحمه الله » .

يحيى بن ابي عمران المازوني

٨٨٣هـ (١٤٧٨ م)

هو العلامه المتشرع الفقيه الضليع والمحقق البارع الامام ابو زكرياء يحيى

ابن العالم الجليل المؤلف ابي عمران موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني اخذ علمه عن والده وعن ائمة وقته كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو ومحمد بن العباس وغيرهم فنجب وتولى قضاء بلدة مازونة فكان امام المحققين ومرجع أهل الشورى في الاحكام الشرعية وغيرها معتمداً في مذهب مالك حاملاً لواءه بالمغرب في عصره مطلعاً على دقائق المسائل وفتاوى العلماء فيها له من التآليف كتابه المشهور باسم الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، وهو كتاب جليل حافل بفتاوى المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب الاقصى في شتى المسائل جامع لابواب الفقه ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية في جزئين ضخمين تحت عدد ١٣٣٥ ومن هذا المؤلف الضخم استمد الونشريسي في المعيار .

توفي المازوني بتلمسان سنة ٨٨٣ هـ (١٤٨٧م) تغمده الله برحمته ورضوانه .

جدول تاريخي

٩٢٣ – ٩٦٢ هـ

١٥١٧ – ١٥٥٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
٩٢٣هـ – ١٥١٧م	الاحتلال التركي – الاول – لتلمسان وانتصاب السلطان ابي زيان احمد « الثاني » على العرش
٩٢٤هـ – ١٥١٨م	زحف ابي حمو «الثالث» على تلمسان واستشهاد الرئيس أروج التركي
٩٢٥هـ – ١٥١٩م	ثورة الامير ابي سرحان المسعود الزياني وامتلاكه تلمسان
٩٣٠هـ – ١٥٢٤م	عودة ابي محمد عبد الله « الثـاني » الى الملك ونقضه لمعاهدة الاتراك
٩٤٩هـ – ١٥٤٢م	تحالف ابي زيان احمد « الثاني » مع الاتراك ومقاومة الاسبان
٩٥٠هـ – ١٥٤٤م	انتصار الامبراطور شالكان للسلطان محمد « السابع » واحتلالهما تلمسان ثم اخفاقهما معاً بعد ذلك وعودة احمد « الثاني » الى العرش
٩٥٧هـ – ١٥٥٠م	استيلاء الدولة السعدية على تلمسان ثم انسحابها عنهـا فوراً وولاية مولاي الحسن بن عبد الله عليها تحت رعاية اتراك الجزائر
٩٦٢هـ – ١٥٥٤م	خلع مولاي الحسن آخر ملوك بني زيان واحتـلال الاتراك لتلمسان نهائياً

الدولة الموحدية

٥٢٩ – ٦٦٨ هـ

١١٤٥ – ١٣٦٩ م

نشأتهـــا :

تأسست هذه الدولة على كاهل رجل السياسة والعلم ذلك الداهية المغربي العظيم محمد بن عبد الله الشهير باسم تومرت[1] الهرغي السوسي الملقب بالمهدي، وكان منشأها بـ « تينملل » في المغرب الاقصى بين احضان قبـائل مصمودة التي كانت ترى نفسها احق بزعامة المغرب الاسلامي من غيرهـــا، وخاصة أهل لمتونة المرابطين فانها كانت تنظر اليهم كاجانب عن الوطن .

ذهب ابن تومرت في اول نشأته الى المشرق لطلب العلم وهنالك اطلع على حال الخلافة العباسية التي كانت خاضعة لزعماء الجيوش التركية ، وقد رأى معها احتضار الخلافة الفاطمية ايضا بمصر وانها ذاهبة الى السقوط والانهيار ، كما لاحظ يومئذ امم اوروبا ودولهــا تعمل على جمع شتاتهــا وتوحيد كلمتهـــا استعداداً لاعلان حروبها الصليبية على المسلمين وغزو بلادهم ؛ فارتأى محمد بن تومرت وجوب القيام بانشاء دولة اسلامية تحافظ على عظمة الخلافة الاسلامية وكيانهـــا الطبيعي وتنتصر على الصليبيين ؛ فأخـــذ بعد عودته الى المغرب (٥١٣هـ – ١١١٨م) في تأسيس حكومته على طريقـة شيخ القبيلة المتزعـم

---

(١) ذكر تلميذه ومؤرخه ابن البيدق ان معنى كلمة « تومرت » بلســـان البربر الفرح ؛ وذلك ان امه فرحت كثيراً بولده ، وكانت كلما سئلت عنه اجابت بلسانهـا البربري « ديـــك تومرت » ومعناه صار فرحاً فغلب عليه ذلك اللقب .

واافاض عليها صبغة المهدوية ؛ تلك العقيدة التي نجح بها الفاطميون قبله في تأسيس دولتهم بالمغرب .

ولقد كان لهذه العقيدة اقبال ورواج في بلاد المغرب اكثر منها في بلاد المشرق؛ وذلك لاسباب كثيرة منها ان المغاربة معروفون من قديم – من ايام الكاهنة بالميل الى المغيبات والتأثر بها ؛ ومنها ما اذاعه بعض دهاة السياسة من الاحاديث التي تومىء الى ظهور المهدي المنتظر وانه من اهل المغرب[1] الخ . وكثيراً ما رأينا استعمال فكرة المهدي هذه واستخدامها في انحاء العالم الاسلامي على مدى الازمان في القضايا السياسية المصطبغة بالدين .

انشأ ابن تومرت دعوته في تأسيس دولته على الدين آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر داعياً الى تخليص العقيدة من شوائب الشرك والزيغ عن التوحيد الخالص متهما لخصومه بالجمود الديني والتجسيم ، ولكي يكفل لنفسه اعظم قسط على مجهودات انصاره وأتباعه فانه القى في روعهم انه المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً كما ملئت جورا ، ودعا اصحابه بالموحدين تعريضاً بخصومه المرابطين وطعنا في عقائدهم ، وكان ممن آزره على بث فكرته هذه بالمغرب ذانك الرجلان العظيمان ، مثال الشهامة والعلم والبطولة في التاريخ : أولهما أبو عبد الله عبد الواحد الوانشريسي – نسبة الى جبل وانشريس بجنوب بلدة الاصنام – وكان عالماً فصيحاً باللغتين العربية والبربرية توفي في حصار مراكش عام وقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ – ١١٢٩م أي في نفس السنة التي مات فيها ابن تومرت ، والثاني هو عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي .

اجتهد ابن تومرت في القضاء على دولة المرابطين بالمغرب الاقصى واشهر عليهم سيفه وقلمه ولسانه وقاومهم في جميع الميادين فتغلب عليهم وقهرهم ، فبايعته الامة المغربية بالامارة يوم السبت غرة المحرم سنة ٥١٦هـ – ١١مارس

(١) لقد احصى ابن حجر هذه الاحاديث المروية في المهدي فبلغت نحو الخمسين ، وذكر انها لم تثبت صحتها عنده ، ولم يكن منها شيء في الصحيحين .

١١٢٢م ومازال شأنه يعلو الى ان توفي ليلة الاربعاء ١٣ رمضان ٥٢٤هـ – ١١اوط ١١٣٠م عن غير عقب اذ لم يتزوج قط ، وكان قد عهد بالامارة بعده الى عشرة من خـاصة اتباعه كان فيهـم عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي فاجمع النـــاس على مبايعته بالامارة وتقديمه عليهم لما امتاز به من الخصائص الحميدة التي قلما تجتمع في غيره ، فتقلدها عبد المؤمن عن جـــدارة واستحقاق .

نظامها الحكومي

كانت قاعدة هـــذه الدولة طيلة تملكها على افريقية الشمالية هي مدينـة مراكش ، ورئيسها الاعلى دائماً هو الخليفة الملقب بأمير المؤمنين ، ودستورها الكتاب والسنة من غير انتماء الى اي مذهب من المذاهب الاسلامية، حرة غير خاضعة لاي سلطان ، ولم تكن لتنتحل الالقـــاب ولا الأسماء السلطانية الا أخيراً ؛ واعمالهـا الادارية موزعة بين مختلف الوزارات على حسب الترتيب العصري اليوم تقريباً ، فلقد كان للاشغال العامة ومصالح الناس وزير،وللمالية وزير ، وللكتابة والترسيل وزير ، وللعدلية والنظر في توازل المتظلمين وزير ، وللنظر في اهل الثغور وزير ، وللبحرية رئيس عام يدعونه « الملند » بفتـح اللام المفخمة [1] وهو المسؤول امـــام وزير الحربية المسمى عندهم بصاحب السـيف ؛ وجميع الاعمال الادارية كان يجري تحريرها بالقلم العربي المبين .

ومن غير هؤلاء الاعضاء رجال موظفون تختلف مراتبهم بحسب اختلاف الاشغال والاعمال والمصالـح ولهم اعوان ومساعدون ، وكان للشرطة رئيس يدعونــه بالحاكم وسلطته لا تتعدى طبقة العامة من غير المتوظفين ، وكانـ لا يتولى عندهم هذه الوظيفة الا من كان من الطبقة الممتازة من رجال الموحدين، وذلك ان الناس في هذه الدولة ثلاث طبقـات : السابقون الاولون وهم الذين

(١) قال ابن خلدون : الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمهـــا في اصطلاح لغتهم ، وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب (المقدمة ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ)

بايعوا المهدي ابن تومرت ؛ ثم يليهم الاتباع ؛ ثم تأتي الطبقة الثالثة من العامة، ولم يكن يطلق لقب « السيد » عندهم الا على اعضاء الاسرة المالكة من ابناء عبد المؤمن فقط ، وقد فعلوا ذلك كي لا يتولى الرئاسة منهم الا من كان سيداً حقاً ، فكان بذلك نظام الحكم في هذه الدولة ارستقراطيا محضا .

وجميع ما كان هنالك من الوظائف واشغال الحكومة الادارية يرأسها « المزوار » الذي يدين بالطاعة للحاجب المسؤول امام الخليفة عن جميعها ، والخليفة مع ذلك مجالس يعقدها في اوقات مختلفة للمشاورة والنظر في الشؤون العامة يحضرها الاعيان من نواب القبائل وعرفاء النواحي النائية بمشاركة اهل العلم والفضل .

ومما امتازت به دولة الموحدين وفاقت فيه غيرها من دول المغرب ، اسبقيتها لاستعمال النار اليونانية في حربها ضد الاسبان وتفوقها في نظامها العسكري وتراتيب الجند في القتال ، فلقد اجتمع لديها من الجند عدد يفوق المعهود عند غيرها من الدول الاسلامية بالمغرب ، ففي ايام الحرب كان يبلغ العدد الى ٤٨٠٠٠٠ جندي ، ويتزايد احياناً الى المليون ، وهو مختلط ممزوج من العرب والبربر والافرنج والمماليك ، وكان عدد الافرنج منه ايام ابي العلاء المأمون عشرة آلاف جندي ، وكان من النظم المتبعة عندهم في الحرب ان يتقدم قائد الجيوش ومعه سرية تشتمل على نحو المائة فارس تخفق على رؤوسهم الرايات البيض المزخرفة بخطوط زرقاء والمزركشة بأهلة ذهبية ، — ثم تغير اللواء لديهم فكان احمر [1] ويأتي بعد هؤلاء الفرسان فوج من رجال الدولة

(١) يوجد في التحف الحربي اليوم بمدينة (مدريد) راية لرابع خلفاء الموحدين — محمد الناصر — وهي من حرير احمر وقعت في يد الفونسو الثامن فيما وقع في يده من غنائم جيش الموحدين بعد انهزامهم في موقعة العقاب سنة 609 ه (1212 م) . ولقد نشرت صورة هذه الراية في شكلها المزخرف وبألوانها الطبيعية في اكثر من مرجع ومصدر وخاصة عند (ر. بليستروس) (Historia de Espana 11 p : 272 (في كتابه تاريخ اسبانيا (R . Ballesteros) ونشرها الدكتور غوستاف لوبون في كتابه المدنية العربية وسماها (راية الموحدين) ونجدها كذلك منشورة في ج 1 ص 190 من تاريخ التمدن الاسلامي ط القاهرة 1958

والرؤساء والحكام ، ثم يتلوهم الجيش بكتائبه متبوعاً بارباب الصناعات والحرف واصحاب الحاجيات ... واذا خرج معهم الخليفة كان لخروجه موكب حافل يجتمع فيه من اصحاب الطبول والالوية والبنود شيء كثير وكلها تسير خلفه ، ويسمى ذلك عندهم « بالساقية » ؛ ثم اقتصر بعد ذلك على سبع طبول تتبع الامير ومثلها من الرايات كذلك ؛ قال الوزير ابو جعفر بن عطيه : شاهدت عبد المؤمن وقد جلس يوماً لعرض العسكر عليه ، فجعلت العساكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة اثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها احسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة [1] .

اما الاسطول فانه كان فيه من انواع المراكب البحرية : المسطحات والطرائد والشواني الخ ... وقد بلغ عدد وحداته ايام عبد المؤمن الى ٤٠٠ قطعة حربية .

ولخزينة الدولة موظف خاص من الموحدين يلقب بصاحب الاشغال مشتغل بضبط الحسابات ومراقبة الدخل والخرج ، ويتعقب النظر فيما يفعله الولاة والعمال في الاموال ، وله هو وحده الاذن في استخراج المال من الخزينة ، ولما استفحل أمر الحاجب ونفذ امره في كل شأن من شؤون الدولة تعطلت وظيفة صاحب الأشغال وصار صاحبها مرؤوساً للحاجب كمطلق رجل من جملة الرجال المكلفين بالجبايات وذهبت له تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة . ومالية الدولة متكونة من الزكاة والخراج وأخماس المغنم والجبايات . والعملة يومئذ مضروبة باسم الخلفاء الموحدين وهي من الذهب والفضة ، وفيها من انواع المسكوكات الدرهم والدينار والانصاف والارباع والخراريب ، والدرهم عندهم من فضة مربع الشكل وفيه المستدير ، وهو لا يزيد وزنه عن « غرام » واحد ونصف ؛ ونظام الاسواق عندهم موكول الى « المحتسب » فاليه يرجع تقدير الاسعار ومراقبة ما يجري فيها من مظالم بواسطة أعوانه من الامناء .

---

(١) المعجب ص ١٤٥ .

ومنصب القضاء عندهم لا يتولاه الا من كان مبرزاً في العلم كاملاً في اخلاقه، ولا تتجاوز ولاية القاضي مدة عامين فقط ، اتباعاً في ذلك سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في توليته القضاة ، وفي ذلك من الحكمة ترغيب الناس وبعث الامل فيهم والنشاط في تحصيل العلم حتى ينالوا هذا المنصب الجليل ويحرزوا على شرفه ، علاوة على ما في ذلك ايضاً من دفع التهم التي قد يلصقها اعداء القاضي وخصومه به حسداً أو مللاً من طول اقامته بينهم ودوام مزاولته للحكم ، ثم ان القاضي في نفسه اذا تولى منصبه هذا علم من يومه قرب نهاية ولايته ، فهو مظنة للعزل فلا يحيف ولا يجور .

الحدود الجزائرية :

لقد عم سلطان الموحدين جميع تراب الشمال الافريقي كله من البحر المحيط غربا الى شرقي طرابلس وبرقة ، ومن جبال الشارات «البرانس» باقصى شرق بلاد الاندلس الى تخوم صحراء افريقية الكبرى فهو اكبر سلطان واعظم مملكة شاهدها الاسلام في المغرب وكانت الجزائر لهذا العهد منقسمة الى ولايتين اثنتين شرقية وغربية ، اولاهما ولاية بجاية وهي تقريباً عين حدود العمالة القسنطينية المعروفة اليوم ، والثانية ولاية تلمسان ، وهي تمتد من وادي ملوية غربا الى نهر مينة شرقاً ؛ والجنوب الشرقي من الجزائر ملحق بولاية تونس .

الخليفة عبد المؤمن بن علي

عاهل افريقية واميرها الاوحد عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي الجزائري ، ولد بضيعة من اعمال تلمسان تعرف «بتاجرا» بنواحي ندرومة على نحو ثلاثة اميال من مرسى « دنين » وذلك سنة تسعين واربعمائة وقيل سنة خمسمائة للهجرة (١٠٩٦ – ١١٠٦ ؟ ...)

نشأ عبد المؤمن في اسرة فقيرة حيث كان ابوه يرتزق من صنع اواني الطين وامه كومية من بني يجبر ، طلب العلم اولاً ببلده ثم نزح عنها باحثاً عن العلماء في كل صقع وناحية ، وهو مع ذلك يحترف تعليم الصبيان حتى دخل «ملالة »

على فرسخ من بجاية ، وفيها ساقه القدر الى الاجتماع بمحمد بن تومرت عند مقدمه من المشرق فاخذ عنه العلم واقتصر عليه في الطلب فاصطفاه ابن تومرت وانتخبه من بين الطلبة لما لمح فيه من النبوغ والعبقرية ، واصطحبه معه الى المغرب الاقصى ، وهنالك تظافرا معاً على تقويض دعائم دولة المرابطين واقامة دولة الموحدين ، الى ان توفي ابن تومرت فبويع عبد المؤمن بالخلافة في منتصف رمضان ٥٢٤هـ - اوط ١١٣٠م .

اشاد عبد المؤمن صرح هذه الدولة الناشئة فنشر اعلامها بكامل اقطار المغرب العربي والاندلس ايضاً وكان له طموح الى فتح بلاد مصر وما وراءها من العالم الاسلامي كله ، ويومئذ اصبحت هذه الدولة تعرف ايضاً باسم « المؤمنية » نسبة اليه ، وكان رحمه الله داهية في السياسة ، وعالماً حازماً. قال من رآه: رأيته شيخاً أبيض ، معتدل القامة ، ذا جسم عمم ، تعلوه حمرة ، وضيء الوجه ، عظيم الهامة ، اشهل العينين ، كث اللحية ، خشن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الاسنان ، بخده الايمن خال ، فصيح الالفاظ جزل المنطق[1] .

تثبيت قدمه في الملك

كان من الخطط التي رسمها عبد المؤمن لتوطيد دعائم ملكه ان بادر الى انتزاع الامر من يد اهل السوس قوم ابن تومرت وجعله في قومه الجزائريين ، فاستقدمهم اليه واجتهد في تهذيبهم وتنشئتهم نشأة رياضية صناعية حربية ، وجعل بينهم نحو ثلاثة آلاف شاب من اذكياء المصامدة وغيرهم ممن اختارهم من فطناء المغرب حتى حذقوا الفنون والآداب وبان شاوهم على غيرهم ، فعرضهم يوماً على اشياخ الموحدين وقال لهم كلمته الصريحة الصارخة : العلماء اولى منكم ايها الاشياخ ! .. مشيراً الى تقديم هذا الشباب المثقف الناهض ، فتخلى حينئذ هؤلاء الشيوخ عن وظائفهم ومناصبهم الحكومية ونزلوا عن

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ والمعجب ص ١٤٢.

ولاياتهم لاولى العرفان من هـــذه الناشئة الصالحة ، وعزل عبد المؤمن يومئذ خليفته ابا حفص عمر الهنتاني عن ولاية العهد وجعلها في ابنه محمد ، ثم قدم عليه اخاه ابا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ثم لحق بعبد المؤمن نحو الاربعين الف فارس من قومه فنزلوا عليه سنة ٥٥٧ هـ — ١١٦١م وهكذا بقي يعمـل على تقديم ذويه واقربائه في الحكم حتى تم لهم الامر الى النهاية .

الاستيلاء على ولاية تلمسان

بعـد ان تمكن قـــدم عبد المؤمن في الملك واشتدت عرى دولته ورست قواعدها بالـسوس ؛ شرع في بسط نفوذه على انحـاء المغرب الاوسط فتحرك بجنوده سنة ٥٣٤ هـ — ١١٣٩ م متوجهاً الى اعمـال تلمسان ، فمر في طريقه على الريف فاستولى عليه ، ثم عرج مشرقاً على احواز تلمسان ، وهناك اصطدم بجيش المرابطين ، وبينما الحرب قائمة بين الفريقين اذ لمح عبد المؤمن ثلمـــة في جيش العدو فاسرع الى محاصرة تلمسان واحاط بها من جهاتها الاربع ؛ وكان جيشه مركباً من اربع فرق : فرقة تجـاه العدو وسلاحهـــا المزارق الطوال المرتكزة بالارض مائلة ؛ وهـــذه الفرقة عندهم هي اشجع فرق الفرسان ؛ وفرقة متترسة مدرعة ، وفرقتان تحمـل القسي والمقالع : وهناك في الوسط فرقة الفرسان التي تنفرج تارة عنها الجيوش فتغدو على العـــدو منكلة به ثم تروح فتعود الى وسط ذلك الشكل المربع من الجند فتختفي من بينه وهكذا دواليك ... وتفرق آخرون من الموحدين يقاتلون في جهات متفرقة ونواحي متعددة بقصد التشويش على العدو فاعترضتهم سيول بعض الاودية من بـــلاد صنهاجة فامر عبد المؤمن بضرب سد على ذلك النهر حتى اذا طغى الماء امرهم حينئذ برهن ذلك السـد وتحطيمه فاندفعت الميـاه متدفقة نحو العدو فتحطمت حصونه وتغلب الموحدون على صنهاجة .

جرت هذه الوقائع وامـير المسلمين يومئذ علي بن يوسف بن تاشفين مقيم بـ « كهف الضحاك » بين الصخرتين من جبل تيطري المطل على تلمسان ، ولما

شعر بالهزيمة دعا باسطوله المقيم في الاندلس واستنجد ايضاً بيحيى بن العزيز الحمادي فجاءته النجدة من بجاية براً وبحراً ، وكان على الجيش الحمادي طاهر ابن كباب، وعلى الاسطول ميمون بن حمدون قائد البحر الاعلى ، وما كادت هذه الحامية تتصل بميناء وهران حتى فاجأها الموحدون وضربوا عليها الحصار وأضرموا النار حولها ، وخرج منهـا تاشفين ليلاً في جماعة يسيرة فصمد الى الرباط العظيم المنشأ في ربوة «صلب الكلب» المطل على وهران؛ ويقال ان صعود الامير هكذا كان ليلة السابع والعشرين من رمضان ليحضر الختم من سنة ٥٣٧ هـ – ١١٤٢ م وكان عبد المؤمن يومئذ في جمعه بتاجرة وهي موطنه من بلاد ندرومة ، وقد ارسل الجند الى وهران بقيادة الشيخ ابي حفص عمر ابن يحيى الهنتاتي صاحب المهدي ، فكنوا هنالك عشية واعلموا بانفراد تاشفين عن الحامية في ذلك الرباط فقصدوه واحاطوا به واحرقوا بابه فايقن القوم الذين فيه بالهلاك، فخرج تاشفين راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس عن النار وينجو ، فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك الى جهة البحر على الصخر في وعر فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت نفسه وقتل الخواص الذين كانوا معه ونقل رأسه الى تينملل ؛ وكان عسكره في ناحية اخرى بعيداً عنه بحيث لم يدر بما جرى للملك في تلك الليلة ، وجاء الخبر بعد ذلك الى عبد المؤمن فوصل الى وهران ، وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط «صلب الفتح» بدلاً عن صلب الكلب [١] .

ويومئذ نزلت جيوش الموحدين سهل منداس وسط بلاد زناتة ، فأثخنت فيهم قتلا وأسراً حتى اذا ذعنوا لطاعة عبد المؤمن . وفر ميمون بن حمدون الى متيجة ومنها كتب الى عبد المؤمن بالطاعة والولاء ، ثم توجه الخليفة الى وهران فاحتلها بعد تخريبها صبيحة عيد الفطر ٥٣٩ هـ (مارس ١١٤٥ م) ثم توجه بعدها الى تلمسان فاقام بها سبعة اشهر اشتغل فيها بتنظيم شؤون الدولة والادارة واصلاح ما جرته الحرب من الفساد وولى عليهما سليمان بن محمد بن

(١) انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٩ والحلل الموشية ص ١٠٦ – ١١٠

واقودين الهنتاتي وترك معه ولده يوسف معاضدا له وناصراً ، ويقال أنه ترك ابراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان ثم عاد الى مركزه من المغرب الاقصى مشتغلا بفتوحاته هناك وفي الاندلس ايضاً . ثم في سنة ٥٤٤ هـ – ١١٤٩ م تم للموحدين فتح مدينة مليانة واحوازها ، وبذلك انتهى حكم المرابطين بالمغرب الاوسط تماماً .

الاستيلاء على ولاية بجاية

كان من الطبيعي ان يتابع عبد المؤمن فتوحاته بالجزائر بعد ما امتلك منها جميع اعمالها الغربية فتقدم اذا نحو الشرق في عشرين ألف فارس ولم يظهر اتجاهه الى الجزائر حتى فاجأها يغزو نواحي وانشريس فاحتلها سنة ٥٤٧ هـ ١١٥٢ م وجال في نواحي « سيوسرات » – فحص سيق – ودخل مليانة ، والملك الحمادي يحيى بن عبد العزيز يومئذ في غفلة عن كل هذا منغمساً في لهوه وقصفه ، فما راعه إلا وعبد المؤمن مخيم بمدينة المدية واحتل معها الجزائر صلحاً ، فخرج منها صاحبها القائد منهزماً الى أخيه ملك بجاية ، فلحقه عبد المؤمن في جنوده تاركاً على الجزائر الحسن بن علي آخر ملوك المهدية ، وكان ملتجئاً بها ، وهناك وجد الوزير الحمادي أبا محمد ميمون بن علي بن حمدون مستعداً لفتح أبواب المدينة للموحدين بناء على ما سبق بينهما من الاتفاق السري في ذلك . فاقتحم عبد المؤمن عاصمة بني حماد في ذي القعدة سنة ٥٤٧ هـ – فيفري ١١٥٢ م وانهزم عنها صاحبها يحيى بن العزيز راكباً متن البحر الى بونة حيث كان أخوه الحارث والياً بها ، ومنها انتقل الى قسنطينة ، ومكث عبد المؤمن ببجاية مدة شهرين استكمل فيهما توطيد ملكه بها ثم غادرها الى مركزه بمراكش .

ولقد شاهد هذا الفتح مع عبد المؤمن الشاعر ابو عبد الله محمد بن حبوس الفاسي فقال :

من القوم بالقرب تصغي إلي حديثهم اذن المشرق

جروا والمنايا الى غاية فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة فهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك اروع تفرد بالسؤدد المطلق
تخيره الله من آدم فما زال منحدراً يرتقي
الى «الناصرية» مرنا معاً ولما تفتنا ولم تلحق
الى برزة في ذرى أرعن تجل عن السور والخندق
يعوذون منا بمولاهم ومولاهم عاد بالزورق
واكسبه خوفه خفة فلو خاض في البحر لم يغرق

ولما رأى القوم تقاعس ملكهم الحادي واحجامه عن مقاتلة الموحدين اجتمعوا على ترئيس أبي قصبة وتقديمه عليهم فحاربوا تحت لوائه وقاتلوا جيوش عبد المؤمن مقاتلة عنيفة بعرض الجبل شرقي بجاية ، فتضاعفت خيبتهم بقتل عدد كبير منهم ؛ وضل الموحدون يتابعون زحفهم الى القلعة الحمادية وهي يومئذ أحصن القلاع ففتحوها وعملوا فيها معاول الهدم والتخريب ومات من أهلها يومئذ ثمانية عشر الفاً كان فيهم عاملها جوشن بن العزيز .

وقعة سطيف واستسلام قسنطينة

اشتد العصاة من رؤساء النواحي الجزائرية في مقاومتهم ضد حكومة الموحدين ضناً منهم بمناصبهم في الرئاسة وحباً في الحرية الشخصية فصبحهم عبد المؤمن في ثلاثين ألف فارس ومعه حلفاؤه من العرب ؛ وخرج الجميع لقتال المنشقين تحت قيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي، وكان اللقاء بينهم في سهول سطيف ؛ فانتشر الموحدون أولاً بالجبال وأظهروا انهزامهم أمام العدو حتى اذا ما تقدم إليهم فانهالوا عليه كسيل العرم واوقدوا عليه الحرب ثلاثة أيام (اوائل صفر ٥٤٨ هـ – اواخر افريل ١١٥٣ م) وفي اليوم الرابع انكشف فيه الحال عن انهزام الثائرين وانحيازهم عن الميدان . فتفرق جند الموحدين يومئذ الى فرقتين ؛ فرقة اندفعت خلف المنهزمين فأدركتهم بتبسة فأسرتهم وسبت أموالهم ، والثانية يممت مدينة قسنطينة فحاصرتها وضيقت عليها

الخناق فاستسلم بها يومئذ يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد ونزل عن عرشه مبايعاً للخليفة عبد المؤمن .

فتح بونة

لقد تحقق الحارث بن العزيز والي بونة – عنابة – بالخطر الدائم وأدرك لا محالة بأنه هامة اليوم أو غـــد ، فبادر من حينه الى الاستغاثة بالنورمان والاحتماء بقواتهم العسكرية ، فأجابه هؤلاء الى رغبته التي هي أمنيتهم من قبل ، وجهزوا له اسطولاً ضخماً تحت قيادة فيليب المهدوي ، وحلت سفن النورمان هذه بمياه بونة في رجب ٥٤٨ هـ (سبتمبر ١١٥٣ م) حامية لها من حملة الموحدين بحراً ، يؤازرها عرب الناحية من جهة البر ، ومكث القوم على ذلك عشرة أيام ثم ارتحل عنهم النورمان وبقي الحارث بها على ولايته تحت طاعة النورمان الى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حيث أعاد الموحدون كرتهم عليها ففتحوها عنوة وقتلوا صاحبها صبرا وبذلك تم للموحدين الاستيلاء على القطر الجزائري كله من جهاته الأربع وانقطعت عنــه آمال النورمان الذين طالما تحلبت أفواههم وشفاههم عليه .

أمارة الثعالبة بمتيجة

ان اول ما نزل أعراب المعقل بن ربيعة من بني الحارث بأرض الجزائر في أواسط القرن الخامس الهجري أن نزلوا بمساكن بني ملكان بن كرت الصنهاجيين مما يلي ملوية ،– آخر مواطن بني هلال – ؛ وكان من بين اعراب المعقل هؤلاء الثعالبة من ولد ثعلب بن علي ، فتنقلوا بمواطن عديدة ؛ منها المدية وجبل تيطري حيث كانت توجد المدينة الكبيرة أشير ؛ ثم أزيحوا عن هذا المكان أيام استيلاء بني توجين عليه فانحدروا الى بسيط متيجة فسكنوا بسهوله محتمين بصنهاجة حتى اذا غلب المرابطون على المغرب الاوسط وقضوا على ملك صنهاجة استبد الثعالبة بهذا البسيط الفسيح من ارض متيجة ورسخ قدمهم فيه الى ان كان قفول محمد بن عبد الله تومرت من المشرق فمر بطريقه

على متيجة فتعرف اليه الثعالبة واكرموا نزله وأخذوا عنه مروياته وأصبحوا من أشياعه محافظين على ولائه الى أن ظهر أمره بالمغرب وفتح الموحدون الجزائر ، فأسندت يومئذ امارة متيجة والمدية ومقاطعة تيطري الى هؤلاء الثعالبة ٥٤٨ هـ – ١١٥٣ م ، وكانت أمارتهم في بني سباع بن ثعلب .

فتمكن الثعالبة يومئـــذ من بسط نفوذهم ونشر سلطانهم على متيجة الى وادي سيق ، وبنوا بتلك النواحي نحو الثلاثين حصناً ؛ ولقـد بالغ امراء الموحـدين في اكرامهم وتقديرهم نظراً الى موقفهم المشكور تجاه المهدي بن تومرت .

وفاة عبد المؤمن

لم يلبث عبد المؤمن بعد فتح الجزائر إلا قليلا حتى امتلك تونس بأعمالها ودخلت تحت طاعته فأعاد بذلك الى شمـال افريقية وحدته السياسية ، ثم تقدم الى فتح بلاد الأندلس فأخضعها ، وفي عودته منها أدركه الحمام في مدينة سلا فتوفي يوم الاحد ٢٧ جمادى الثانية ٥٥٨ هـ (فاتح جوان ١١٦٣) وقد بلغ من العمر نيفاً وسبعين سنة ونقل جثمانه الى « تينملل » فدفن بازاء ضريح المهدي محمـــد بن عبد الله تومرت ، فكانت مدة ولايته ٣٣ سنة و ٧ اشهر و ١٥ يوماً .

اعقاب عبد المؤمن :

مات عبد المؤمن عن ستة عشر ذكراً وبنتين والذي خلفه في الملك من ابنائه هو ابو يعقوب يوسف فكانت مبايعته في شعبان سنة ٥٥٨هـ (جوليط ١١٦٣ م) وتلقب بامير المؤمنين وسار بسيرة والده مجتهداً في اعلاء شـــأن الدولة والرعية ، وكان عالماً متضلعاً جماعاً للكتب راجح العقل كريماً . غزا الاندلس فطعن تحت سرته في معركة حربية هنـاك فمات شهيداً يوم السبت ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ (١٤ اكتوبر ١١٨٤م) وجيء به الى المغرب فدفن بجوار والده رحمهما الله ، فخلفه ولده يعقوب المنصور ، وكان كأبيه وجده علماً ودينـــاً

وسياسة وهو الذي عمل على اظهار ابهة ملك الموحدين وعظمة سلطانهم،وكان من اهم حوادث الجزائر على عهده حملة بني غانية التي سنحدثك عنها :

بنو ابن غانية

كان علي بن يحي المسوفي ـ نسبة الى قبيلة مسوفة بصحراء لمتونة – مقربا لدى أمير المسلمين علي بن تاشفين ملك المرابطين ، فتزوج امرأة من حظـــايا القصر تدعى « غانية » ، فولدت له محمداً ويحيى،وكلاهما نشأ في بلاط المرابطين تحت رعاية أمير المسلمين ؛ وقد كان لهذه الدولة يومئذ ملك المغرب والاندلس.

عقد المرابطون لمحمد بن غانية على الجزائر الشرقية (جزائر الباليار) : ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة ، فنزل بالاولى سنة ٥٣٠هـ (١١٢٦م)واشتهر بالميورقي،وبقي هنالك حتى هلك فخلفه عليها ابنه اسحاق؛وفي ايامه كان سقوط دولة المرابطين وانهيار ملكهم ، فوجه اليه الموحدون من يأخذ لهم البيعة عنه فأبى ورفض الدخول تحت طاعتهم ، وأوصى بذلك بنيه منهم علي ويحيى ، ولما استشهد اسحاق سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) قام بالامر بعده ولده علي ، وهو صاحب الثورة الكبرى والوقائع الدامية الآتية الذكر :

حملة بني ابن غانية

كانت امارة بني غانية بجزائر الباليار مهددة بالسقوط في يد الموحدين، فلما توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن نشط بنو غانية الميورقيون لأخذ ثأر أخوالهم المرابطين انتقامـاً من الموحدين فعملوا على تقويض دعائم ملكهم بالاندلس ونقض بيعتهم ومقاومة نفوذهم هنالك ، وظنوا ان فرصة الانتصار قد حانت بموت ابي يعقوب وان حبل الموحدين سيضطرب لا محالة وتختلف الكلمة بينهم وبين البربر المحافظين ، وزادهم نشاطاً في حركتهم هذه طول غيبة الامير يعقوب بن يوسف عن دار الامارة بالمغرب وانقطاعه للجهاد بالاندلس منذ ثلاث سنوات ، فتحقق لديهم خلو الجو للتظاهر ضد الموحدين والعمل على تحطيم سلطانهم بافريقية ، ويضاف الى ذلك ما قام بـــه جماعة

الناقين من اعيان بجايـــة ، فان هؤلاء راسلوا ابن غانية يحثونه على غزو الجزائر واقامة دعوة المرابطين بها ، وانهم لا يزالون على وفائهم لاسرة بيت الملك من بني تاشفين الملثمين ، وحينئذ نادى امير جزائر الباليـار علي الميورقي باقامة صرح عرش دولة المرابطين بالجزائر الشرقية واعلن مجاهراً بخروجه عن طاعة الموحدين .

مهاجمة بجاية

بينما الناس قائمون في صلاة الجمعة من يوم ٦ شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٢ نفمبر ١١٨٤ م)اذ فاجأهم اسطول المرابطين تحت امارةالميورقي علي بنغانية، وكان الاسطول يشتمل على ٣٢سفينة حربيةتحمل معها٣٠٠فارس و٤٠٠٠راجل نزلوا كلهم بساحل بجاية بناحية« المذبح »في مكان بيعالسبي من جهة الربضفاحتلوا اولأجبـــل الخليفة ودخلوا المدينة من باب اللوز ولم يكن إذ ذاك مسوّراً وصادف يومئذ خلو المدينة من الحامية وغياب عاملهـــا ابي الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن في جيشه خـارج البلاد . فانتهز الميورقي كل ذلك لفتح قصبة المدينة وركز علمه الاسود فيهـــا ، ثم يمم المسجد فاحاطت جنوده به احاطة السوار بالمعصم ، فما راع اهـل بجاية الا والحصار مضروب عليهم من كل ناحية فارغموا على مبايعة ابن غانية باسم الخلافة العباسيةوشذ عنه آخرون. ثم كانت هـــذه المباغتة الحربية بعد ذلك سبباً في غلق النـاس ابواب المدينة وقت تأدية الصلاة من يوم الجمعة فاتخذها غيرهم سنة .

التحام الحرب

بادر ابو الربيع بالعودة الى مركز ولايته فسار سيراً حثيثاً الى بجاية وكان في قـــل من الفرسان اذ لم يكن معه يومئذ سوى ثلاثمائة فارس ، فانضم اليه عامل القلعة وكان سائراً في طريقه الى مراكش والتحق بهما ايضاً نحو الف فـارس من القبائل المجاورة وكان هنالك منالأعراب الهلاليين من نقم على حكومة الموحدين فانضم منهم نحو الف فارس الى عصابة ابن غانية وانتشب

القتال بين الطائفتين فتقاعس جند الموحدين عن المقاومة وصار اكثره الى اشياع ابن غانية فانهزم ابو الربيع فيمن بقي معه الى تلمسان وثمل ابن غانية بنشوة الانتصار فتحمس لاتمام خطته في الفتح .

انتصار علي بن غانية على الجزائر

مكث علي بن غانية اسبوعاً واحداً ببجاية ريثما اقام بها تنظيمات حكومته الجديدة فاستخلف عليها اخاه يحيى وقدم للخطبة بها العلامة ابا محمد عبدالحق الاشبيلي ثم خرج لشأنه فدحر الموحدين بسهول متيجة واستولى على مدينة الجزائر وموزاية والمدية واشير ومليانة ومازونة وتلمسان ووهران وامتلك قلعة بني حماد ، وولى على جميعها اقاربه وبني عمه ثم توجه الى قسنطينة فاطال حصارها ولم يقو على فتحها .

حملة يعقوب المنصور

ما كادت تنتهي اخبار حوادث ابن غانية وهجوماته على الجزائر الى آذان الخليفة يعقوب المنصور وهو منصرف عن الاندلس حتى بادر بالاجهاز على العدو والقضاء على الثوار من اتباعه ، فنظم حملة عنيفة ضد الخصم وجعل قيادة الجيوش فيها لابن عمه السيد ابي زيد بن عمر بن عبد المؤمن ، واسند قيادة الاسطول لابي محمد بن جامع ؛ فنزلت الكتائب اولاً مدينة الجزائر فامتلكتها وفيها علمت من طرف مشيختها بعزم الميورقي على نقل سكان بجاية من الموحدين وحملهم معه الى ميورقة ! ...

فبادر الموحدون على جناح السرعة الى بجاية فدخلوها في صفر ٥٨١ ه (ماي ١١٨٥ م) فاستولوا على اسطول ابن غانية الموجود بمرفأها ، وادرك يحيى بن غانية انه لا قبل له بمقاومة الموحدين فخرج مع اخيه عبدالله ومن كان معه من اشياع المرابطين فالتحقوا بعلي بن غانية وهو يومئذ محاصر لمدينة قسنطينة ، فادركهم الموحدون هنالك فطاردوهم بها واجلوهم عن الوطن الجزائري كله وساروا خلفهم الى مقرة ونقاوس وخرج علي حينئذ الى

الصحراء ، ثم كان ظهور بني بن غانية بعد ذلك في ولاية تونس فاحدثوا بها قلاقل واستولوا على بعض الجهات منها . وتوفي علي بارض نفزاوة من ناحية الجريد سنة ٥٨٤ ﻫ (١١٨٨م) فقام بعده اخوه يحيى

قيام يحيى بن غانية

لقد كانت نهضة يحيى هذه سنة ٥٩٧ (١٢٠٠ م) أي بعد ان مضى على وفاة أخيه علي ثلاث عشرة سنة . فظهر يحيى بمظهر القوة والبأس وأعانه في ذلك بنو هلال وسُليم فزحف على القطر الجزائري ، فقاومه والي بجاية ابو الحسن بنواحي قسنطينة فارتحل يحيى الى أرجاء الصحراء فاحتل بسكرة ونكل بأهلها وسجن عاملها ، واستولى على تبسة وبونة – عنابة – ثم عاد الى حصار قسنطينة فأجلاه عنها الموحدون ، فارتحل يومئذ الى بجاية .

ودخلت السنة الثانية من يوم اعلان هذه الحرب ؛ فخرج الخليفة محمد الناصر ابن يعقوب بنفسه وجاء من حاضرته مراكش فنزل بمدينة الجزائر آخذاً في اعداد الجيش والاسطول لشن الغارة على مواطن ابن غانية بالجزائر الشرقية – الباليار – انتقاماً منه وإشغالاً له عن المغرب ، وفي تلك الاثناء احتل يحيى مدينة بجاية سنة ٥٩٩ ﻫ (١٢٠٢ م) وبسط عليها نفوذه مدة سنتين .

ويومئذ عمل الخليفة الناصر على استرجاع مدينة بجاية وانتزاعها من يد يحيى فاحتلها الموحدون سنة ٦٠١ ﻫ (١٢٠٤م) ثم ألحقها الخليفة بولاية تونس يوم ١٠ شوال ٦٠٣ ﻫ (١٠ ماي ١٢٠٧م) وجعل على رأس هذه الولاية أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص جد الأسرة الحفصية المتملكة بعد ذلك بتونس .

وحينما كان الخليفة منصرفاً الى المغرب الاقصى منسلخ شهر ربيع الاول سنة ٦٠٤ ﻫ (اكتوبر ١٢٠٧) اعترضه يحيى بن غانية في جيش عظيم فيه من العرب والبربر ؛ فكانت بينهما مقتلة عظيمة بسهل شلف انهزم فيها يحيى شر هزيمة ، وعادت البلاد الى طاعة الموحدين ، وفتر ذكر ابن غانية حيناً من

الدهر ، فبقي يعمل مختفياً على استرجاع قواه حتى اشتد ساعده فأظهر شوكته بنواحي تيهرت وحمل على قوات الموحدين الموزعة هناك ، فقضى على الحامية واحتل تيهرت ودمرها سنة ٦٠٦ ﻫ (١٢٠٩م) وقتل عاملها يومئذ أبا عمران موسى بن محمد حفيد عبدالمؤمن ، فكان ذلك آخر العهد بعمران تيهرت القديمة.

ثم نهض ابن أبي حفص عامل أفريقية سنة ٦١٨ ﻫ (١٢٢١م) فقضى على حركة ابن غانية هذه وكسر من شوكته ففت في عضد يحيى وخمل ذكره فالتحق يومئذ بارض الزاب وبقي هناك مشرداً يتنقل في القرى والمداشر ، ثم اجلى عن تلك البلاد سنة ٦٢٢ ﻫ (١٢٢٥ م) فخرج في جماعته قاصداً مدينة الجزائر فلقيه بمتيجة منديل بن عبدالرحمن المغراوي قافلا بجنوده من وانشريس والمدية بعدما اخضعهما ؛ فانتشبت بينهما الحرب فقتل منديل صبرا وجاء به يحيى الى مدينة الجزائر فنصب جثته على باب المدينة مصلوبة ومكث يحيى بالجزائر مثيراً لنقع الفتن في اعمالها الى سنة ٦٢٥ ﻫ (١٢٢٨ م) حيث تجرد لقتاله ابو زكريا الحفصي فاصلت عليه السيف وطارده حيثما كان فبقي يحيى مشرداً في البلاد مهزوم القوى مضعضع الدعائم الى أن أدركه حمامه بوادي شلف وقيل بالزاب سنة ٦٣١ ﻫ (١٢٣٣ م) وقيل بعد ذلك بسنتين ؟ وبموته انقرض ملك لمتونة وانتهت الاضطرابات السياسية بالجزائر ، وكان ممن شارك في مقاومة حملات بني غانية من القبائل الجزائرية قبيلة زناتة الشهيرة الذكر ، وما اعقبت حركة بني غانية هذه إلا وبالاً وخسراناً في النفوس والاموال ، وما كانت على مثيرهـا إلا حسرات إذ لم يجن منها أحد شيئاً إلا الخراب والتدمير ففيها كان خراب تيهرت ومتيجة وشلف والقلعة وحمزة ومرسي الدجاج وأرشقول بسيف البحر وغيرها من المدن والقرى الجزائرية ولم ينج من ذلك إلا مدينة قسنطينة لما منحتها الطبيعة من حصانة ومناعة ، وقد كاد النصر ان يكون في جانب بني غانية لولا ان الموحدين احكموا سياستهم القبلية فعرفوا كيف يتمكنون من ناصية العرب والبربر جميعاً فكانت لهم بذلك الغلبة على بني بن غانية .

تأسيس مدينة مازونة

كان اختطاط هذه المدينة بعمالة وهران سنة ٥٦٥ ه (١١٧٠ م) على يد بني منديل بن عبد الرحمن المغراوي أشهر زعماء قبيلة مغراوة التي هي احدى فصائل القبيلة الجزائرية الكبرى زناتة ؛ ولقـــد اشتهرت هذه المدينة بحسن الموقع وجماله وعذوبة الماء وطيب التربة وخصوبة المكان وانتشار العمران . وسميت كذلك باسم احدى فصائل مغراوة والزناتية : مازونة .

قال الادريسي : ومدينة مازونة على ستة أميال من البحر ، وهي مدينة بين أجبل في أسفل خندق ، ولها انهـــار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ، ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والأبل والسمن والعسل كثير بهـا ، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصباً (١) .

انشقاق بني عبد الواد واستبدادهم بملك تلمسان :

كان قبيل بني عبدالواد المقيم يومئذ في مواطنه باحواز تلمسان من اخلص القبائل الموالية لدولة الموحدين وأوفاها ذمة ، فمنحهم الموحدون واثابوهم على موقفهم هذا باقطاعهم بلاد بني وامانو وبني يلومي بتلك النواحي التلمسانية ثم عقد الخليفة ابو العلاء ادريس بن المأمون لابي محمد جابر بن يوسف شيخ بني الواد على تلمسان سنة ٦٢٧ه (١٢٣٠ م) وقد كان أمر هذه الولاية من قبل الى صنهاجة ، فاستبد يومئذ ابو محمد بهذه الولاية ونازع بني عبد المؤمن في الملك عليها وأورثها بنيه من بعده واستمر الحكم في اعقابه الى سنة ٦٣٣ه(١٢٣٥م) حيث تسلط بنو عبد الواد على هذه الامارة بالقوة وقطعوا عنها دعوة الموحدين واسسوا بها ملكهم وديارهم ، وتعددت الوقائع والحروب بينهم وبين الموحدين وكان النصر فيها سجالاً .. وهكذا الى ان تغلب يغمراسن بن زيان على الخليفة ابـــن الحسن الملقب بالمعتصم فقتله سنـة ٦٤٦ه (١٣٤٨م) وخلص المغرب

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٠ ط ليدن ١٨٦٤ م .

الاوسط – الجزائر يومئذ لبني زيان من بني عبد الواد .

استبداد الحفصيين بولاية بجاية :

كنا ألمعنا فيما سبق الى الحاق الدولة لمقاطعة بجاية باعمال تونس واسنادها الى ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٧م) ، فلما توفي خلفه ابنه عبدالله ثم ابو زكريا يحيى بن عبد الواحد الى سنة ٦٢٧هـ(١٢٢٩م) فاظهر هذا نقض بيعة الموحدين واعلن استقلاله بهذه الامارة ، وحينئذ اقتطع عنه الخليفة اعمال بجاية فعزله عنها وجعل عليها ابا عمران موسى بن محمد بن يعقوب المنصور فحقد ابو زكريا لذلك واعلن الحرب في وجه الموحدين وجاء الى الجزائر غازياً سنة ٦١٧هـ (١٢٣٠م) ففتح بجاية وقسنطينة واقام بتونس والجزائر يومئذ دعوة الحفصيين .

وتحقق بنو مرين يومئذ من ضعف دولة الموحدين باضطراب حبل المملكة وخروج اعمال تلمسان وبجاية وقسنطينة وتونس عنهم . فاهتبلوها فرصة واستبدوا هم كذلك بمواطنهم في بوادي المغرب الاقصى ، ويومئذ خشي الموحدون من تدهور دولتهم وسقوطها بيد هؤلاء المنافسين والمزاحمين فاستنجد الخليفة أبو دبوس بأمير تلمسان يغمراسن لينصره على بني مرين ، فشن يغمراسن غاراته على بلاد المغرب الأقصى ونواحي ملوية ، وبعث ببيعته وميثاقه لابي دبوس في ذي القعدة سنة ٥٦٦ هـ (ماي ١٢٦٧ م) ثم كانت هنالك ملحمة وادي تلاغ المشهورة – قرب وادي ملوية – فانهزم فيها يغمراسن يوم ١٢ جمادى الثانية ٦٦٦ هـ (٢٨ فيفري ١٢٦٨ م) ورجع الى حضرته مدحوراً .

حركات الاسطول

لقد امتازت دولة الموحدين عن سواها من دول المغرب والمشرق يومئذ بقوتها البحرية وكثرة أساطيلها المتنوعة الاشكال ، ففيها من الطرائد والمسطحات والشواني والحراريق والزوارق والمراكب شيء كثير ، بلغت ايام عبد المؤمن الى أربعمائة قطعة حربية ، ومنها مائة قطعة كانت مرابطة بمرسى

وهران وهنين ولقد كانت السفينة الواحدة منها تحمل بضعة آلاف من الرجال، ولم يكن في السفن يومئذ ذات الطبقتين غير سفن هذا البحر ، فهي اكبر من سفن المحيط ، وكلها كانت تصنع بدور الصناعة المنتشرة بكامل عواصم المغرب البحرية ؛ فكان منها بالجزائر ثلاث : في وهران وهنين وبونة – عنابة – وبهذه الاساطيل افتتح الموحدون كثيراً من السواحل وتغلبوا على براعة النورمان ، وحاربوا في وقائع بحرية شهيرة بالأندلس وغيرها ، فهددوا كثيراً من سواحل أوروبا واستولوا عليها ، فكانت بذلك دولة الموحدين من أقوى دول العالم البحرية وأفخمها ، وقد حازت بذلك شهرة عظيمة ، قال ابن خلدون : ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي أصله من « صدغيار » المواطنين بجزيرة جربة من سدويكش ... أجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة واجزل الصلة وقلده امر أساطيله فجلى في جهاد امم النصرانية ، وكانت له آثار واخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه [1] .

وكان لشهرة اسطول الموحدين وسيادته على البحار ان استنجد به بطل الاسلام السلطان صلاح الدين الايوبي في حروبه الصليبية كما تنص عليه رسالته التي جاوبها رسوله ابن منقذ الى الامير يعقوب المنصور المؤرخة بيوم ٢٨شعبان سنة ٥٨٦ ه (فاتح اكتوبر ١١٩٠ م) [2] قال ابن خلدون : وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وائن تخلف المنصور عن نجدة صلاح الدين واعتذر عن نصرته يومئذ فانما كان ذلك اقتصاصاً من الأمير الايوبي حيث ترك خليفته « قاره قوش الغزي » يقف ضد الموحدين ايام ثورة بني ابن غانية

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٤ ط بولاق ١٢٧٤ ه .

(٢) راجع كتاب الروضتين لابن شامة ج ٣ ص ١٧٠ و ١٧٦ ط القاهرة ١٢٨٨ ه .

فكان صلاح الدين لذلك يعتبر في نظر سياسة الموحدين عدواً تجب مقاطعته ، على ان اسطول الموحدين يومئذ لم يكن عاطلاً بطالاً ، بل كان يعمل هوبدوره كذلك على محاربة الصليبيين بالمشرق ، كما ان له فضلاً كبيراً في منع الصليبيين والعمل على عرقلتهم هنا عن اتصالهم ببلاد الشام . مع اشتغاله برد هجمات ابن غانية عن المغرب ، ويقول م . بوني موري في كتابه « الاسلام والنصرانية في افريقية » ان تخلف المغاربة عن النجدة كان بسبب علاقاتهم التجارية مع اوروبا ، ولم يكونوا يطالبونهم بممالك وبلدان كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم ان يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ورغم ذلك فانه يرى ان خليفة الموحدين بعث بثمانين ومائة قطعة حربية الى صلاح الدين ؟ ... ومنع النصارى من سواحل الشام [1] .

معاملة اهل الكتاب

لقد بلغ من شدة تعصب دولة الموحدين للاسلام والدفاع عن حوزته ان اصدرت الحكومة امرها لجميع من يوجد بالمغرب الاسلامي من اهل الكتاب ان يختار اي الحلين شاء : الاسلام او الجلاء ؛ فكان ذلك سبباً في اسلام كثير من اليهود والنصارى او استسلامهم بالمغرب ومنهم من هاجر من البلاد وخرج عنها الى اوروبا .

وللموحدين في ذلك اسوة حسنة بسنة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في اجلاء اهل الكتاب عن الجزيرة العربية وتعويضهم عن قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وابلاً وعروضاً ؛ عملا بقوله صلى الله عليه وسلم عند موته : اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ؛ والى هذا ذهبت طائفة من كبار علماء الاسلام كمحمد بن جرير الطبري وغيره حيث قالوا : ان الكفار لا يقرون في بلاد المسلمين بالجزية الا اذا كان المسلمون محتاجين اليهم . فاذا استغنوا عنهم اجلوهم كاهل خيبر حيث قال لهم الرسول في اول الامر : نقركم فيها ما شئنا

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

واعملهم على المساقاة [1] ثم اجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وفي علماء الاجتماع اليوم من الاوروبين من يؤيد هـــذه النظرية السياسية ويرى رأي الاسلام فيها ، آتيا بحجج ودلائل اجتماعية صائبة ، فيقول الدكتور كوستاف لوبون في كتابه « سر تطور الامم » : لقد كان للامم الغابرة الهام صادق في نفورهم من الأجنبي لأنهم كانوا يعلمون ان قيمة الامة بالوطنيين من اهلها لا بعدد سكانها . وقال ايضاً : ان وجود الأجانب وان قلوا كاف لتغيير روح الامة لانه يفقدها القدرة على الدفاع عن خلقها النوعي وعن آثار تاريخها وما صنع آباؤها الأولون .

واخيراً اي في سنة ٦٢٤هـ-١٢٢٦م أذن للنصارى باقامة شعائرهم وطقوسهم الدينية واتخاذ الكنائس والمعابـد لهم ، وكان اشهر المذاهب المسيحية يومئذ بهذه البلاد المذهب الدومينيكي والمذهب الفرانسيسكي .

المذاهب والعقائد :

كان الناس على عهد المرابطين لا يعرفون في عقائدهم سوى عقيدة السلف بما فيها من تفويض وتسليم ، وفي عباداتهم ومعاملاتهم مقلدون لمذهب مـالك لا يبغون عنه بديلا ، ولما عاد ابن تومرت من المشرق جاء معه بافكار وعقـائد جديدة في اصول الدين والتشريع ، كما جاءهم ايضـاً بفكرة المهدي الشيعية ، فحملهم في العقائد على مذهب الأشاعرة المرتكز على التأويـل والتوسط بـين مذهب المعتزلة – اهـل النفي – ومذهب المثبتين – كاهل التجسيم – ونشر بينهم مباحث علم الكلام التي كانت محرمة عليهم من قبل ، فقربهم منها بـل اوجبها عليهم فرسخت يومئذ عقيدة الاشاعرة بالمغرب بعد ان لم يكن ليجرؤ على الخوض فيها احد .

وكان في طليعـة من جــاء بعقيدة الاشعري الى المغرب : علي بن خلف

(١) المساقاة هي استعمال رجل لآخر في نخل وكروم ليقوم باصلاحها على ان يكون له سهم معلوم مما تغله (مختار الصحاح للرازي) .

العافري المعروف بأبي الحسن القابسي المتوفي سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م فهواول من نشر افكار الأشعرية بهذه الديار وألّف في ذلك رسالة انتصر فيها لهذا المذهب ، ويقال انه اول من جاء بصحيح البخاري الى بلاد المغرب ايضاً .

ودان الناس كذلك بمذهب الشيعة في قولهم بعصمة الإمام وانتشرت بينهم فكرة القول بالإمام المهدي فاتخذوا ذلك عقيدة متبعة بقيت آثارها عند العامة الى اليوم ، فاسمع الى قول احد شعراء مدينة الجزائر من قصيدة أنشدها بنفسه على قبر ابن تومرت حين وفادته على أبي يعقوب المنصور ، فقال :

سلام على قبر الامـــام المجد ... سلالة خـــير العـالمين محمد
ومشبه في خلقه ثم في اسمـــه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتهـــا ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنـا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الأنام مخـلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عرباً من مغير ومنجد
فمن وصفـه أقنى وأجلى وانه ... علاماته خمس تبـين لمهتدي
زمان واسم والمكان ونسبـــة ... وفعل له في عصمـــة وتأيد
ويلبث سبعا أو فتسعا يعيشهـا ... كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا ... فذالـــكم المهدي بالله يهتدي

الخ ... وهي قصيدة طويلة ، يقال أن صاحبها نظمها أيام عبد المؤمن وكان شيخاً مسناً فتعذر عليه السفر من الجزائر إلى مراكش - أو تينملل - حيث مدفن ابن تومرت - فبعث بها إلى من انشدهـا بالنيابة على قبر ابن تومرت[1] .

وأخذهم في الفقه بطريقة السلف من غير انتساب الى مذهب أو إمـام ، ولمزيد التحري خرج بهم من تعاليم المالكية المنتشرة يومئذ في عموم المغـرب حتى لا يتأثر انصاره بالعهد البائد فكانت الحكومة تنزع إلى الاجتهاد المطلق

(١) أنظر المعجب ص ١٣٥ .

واخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة رأساً معرضة عن النظر في كتب الفقه الفرعية بل أعلنت برفضها خلافاً لما كان عليه المرابطون من التقليد والتوسع في الفروع ، وانتظمت لذلك لجنة من أعيان علماء الموحدين همها تجريد آيات الاحكام والأحاديث الصحيحة في ذلك ، فاخرجت للناس مجموعة من الأحكام مستدلاً عليها بالقرءان والحديث ونشرتها الحكومة في أنحاء المملكة ملزمة الناس العمل بها وإحراق ما دونها من كتب الفروع ، وشددت العقاب على من يخالفها ؛ وكان ابو يوسف يعقوب المنصور يبالغ في اكرام حفاظ هذا المجموع فيقربهم منه ويجزل لهم العطاء والمنح ووضع لهم المهدي نفسه موطأ كموطأ مالك وكتب لهم في ذلك مجاميع طبع بعضها في الجزائر ، ولقد صبر ابن تومرت على ما لقي من المعارضة والأذى في ذلك حتى نجح في النهاية وانتصر على فريق المعارضة بما اوتيه من سعة العارضة وقوة الحجة والبيان وكان مما استعمله مع العامة من الأساليب في ذلك ان سهل عليهم ادراك مقاصد الشريعة بما كتبه لهم من التآليف بلسانهم الشعبي ، وكثيراً ما كانت الخطب الجمعية تلقى من أعلى منابر الجوامع بلغة القوم الشلحية في الحث على الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة حتى كاد القوم أن يكونوا « ظاهرية » أو حزمية كما كانوا يسمونهم نسبة لابن حزم ، وقد درج الناس على هذا وتناسوا ما كان يدور بينهم سوى ذلك من كتب الفروع الاخرى .

ومما يروى في ذلك ان الحافظ أبا بكر بن الجد دخل لاول مرة على الامير أبي يوسف فوجد بين يديه كتاب ابن يونس ، قال : فقال لي الامير يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله !..أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة اقوال او اكثر من هذا في أي هذه الاقوال هو الحق ؟!.. وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟!.. قال فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك ، فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار الى المصحف ، أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف . وكان كذلك من مآثر هذه الدولة التي رسمتها

في المحافظة على القرآن ، قراءة الحزب في المساجد كما هي العادة المتبعة الى اليوم ، ومنها تناول خطيب الجمعة العصا من يد رئيس المؤذنين اشعاراً له بدخول الوقت الشرعي لاقامة الخطبة والصلاة ، وزيادة مؤذن الفجر في النداء قوله أصبح ولله الحمد .

ولعمري انه قد استفاد الفقه الاسلامي كثيراً بهذه الحركة الاجتهادية والنزعة الاستقلالية ، فقد ظهر بذلك الحفّاظ والمؤلفون في السنّة وانتصر المذهب الظاهري على غيره يومئذ بالمغرب بعد ان خفت صوته . قال ابن خلكان : ولقد ادركنا جماعة من مشائخ المغرب وصلوا الينا بالبلاد وهم على ذلك الطريق مثل ابي الخطاب بن دحية واخيه أبي عمرو ومحيي الدين بن العربي نزيل دمشق وغيرهم .

وقد استمر الأمر على هذا المهيع الى عهد الخليفة ادريس المأمون بن المنصور فانه سعى الى توطيد دعائم ملكه وسلطانه من طريق القضاء على نزعة أسلافه الموحدين في العقائد والتشريع وعمل على رفض تعاليم المهدي ولعنها والرجوع بالناس الى مذهب الامام مالك استعطافاً للرعية الناقمة عليه؛ ولم يلبث أن فاجأه ابو زكريا الحفصي بتونس بخلع طاعته واستبداده بالأمر .

ومع ذلك فانه كان لحرية القول عندهم مجال واسع ؛ فلم يكن هناك أحد من الناس يؤاخذ السلطان على رأي له يبديه طعناً في الدولة أو خلفائها ما عدا العقيدة والتفقه في الدين .

الثقافة والحضارة والعمران

كان المرابطون فضلاً عن نزعتهم الدينية الخاصة يتسمون بالبداوة والخشونة ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة فركدت في ظلهم دولة التفكير والادب التي كانت مزدهرة في عهد الطوائف بالاندلس .

وكان حكم الموحدين - وهم الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والاندلس - يتسم كذلك بطابع ديني عميق ، بيد أنهم كانوا بالرغم من ذلك أوسع آفاقاً

وأكثر تسامحاً ، وكانت دولتهم الى جانب صبغتها الدينية تتسم كذلك بصبغة علمية اذ كان مؤسسها المهدي من أيمـة التفكير الديني ، وكان أول خلفائها الزمنيين عبد المؤمن بن علي عالماً متمكناً واسع الافق ، وأبدى عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون وانطلقت في عهدهم حرية التفكير والبحث وكانت قد قيدت في عهد المرابطين ، وافرج عن كتب الغزالي وغـيره من مفكري الشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم في المغرب والاندلس .

ولا نريد ان نطيل وصف الناحية العلمية والثقافية بهذا العصر فان ذلك من أبرز ما اشتهر به عصر الموحدين بالمغرب والاندلس.

ولقد سأل معاوية بن ابي سفيان يوماً الاحنف بن قيس ؛ فقـال له يا أبا يحيى كيف الزمان ؟.. قال : الزمان أنت يا امير المؤمنين ، ان صلحت صلح ،وان فسدت فسد،وكذلك نحن نقول هنا في تاريخ هذه الدولة الثقافي،ذلك اننا اذا نظرنا الى نشاط ملوك هذه الدولة وما كانوا عليه من التضلع والتعمق في فنون العلم والادب والحكمة والفلسفة أدركنا حياة الشعب العلمية وما بلغه المغرب العربي يومئذ من العرفان والتقدم ، إذ كل من ابن تومرت وعبدالمؤمن وابي يعقوب المنصور وابنائها ممن تملك او ترأس هذه الحكومة ، كان كوكباً لامعاً ونبراساً ساطعاً في العلم ، ولو أخذت في محادثتك ايها القارىء الكريم عن سيرة كل واحد من هؤلاء لامتلكك العجب ، ويكفي ان نقص عليك خبر لقـاء أو اجتماع دعي اليه الحكيم الفيلسوف ابو الوليد بن رشد بحضر الخليفة ابي يعقوب المنصور قبل ما حدث له من التطور الفكري الذي حبب له فيما بعد التصوف والزهد ، فبه تعلم وجه ما نقول .

قال ابن رشد : فلما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن الطفيل ، فأخذ ابو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك اشياء لم يبلغها قدري ، فكان اول مـا فاتحني به امير المؤمنين بعد ان سألني عن اسمي واسم ابي ونسبي ان قال لي : مـا رأيهم – يعني الفلاسفة – في السماء ؟ أقديمة أم حادثة ؟.. فأدركني الحياء والخوف فأخذت

أتعلل وانكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم اكن أدري ما قرر معه ابن الطفيل ، ففهم امير المؤمنين مني الروع والحياء ، فالتفت الى ابن الطفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في احد من المشتغلين في هذا الشأن المتفرغين له ... ويؤثر عن هذا الخليفة انه كان أعلم الناس بآداب العرب ولغتهم مستظهراً لجملة من الفقه حافظاً لأحد الصحيحين .

والى هذا الخليفة الموحد يرجع الفضل في نشر فلسفة ارسطو على الناس وشرحها شرحاً وافياً بعد ان كانت غامضة مندثرة ، اذ هو الذي وجه اليها الحكيم ابن رشد وبعث فيه روح النشاط للعمل بواسطة ابن الطفيل فاخرجها للناس تحفة فنية لامعة واضحة وكذلك شرحه لألفية ابن سينا في الطب كان باشارة واقتراح من أمير بجاية وتلمسان السيد ابي الربيع سليمان عبد الله بن عبد المؤمن وفي هذا العصر وضع عالم بجاية ابو محمد عبد الحق الاشبيلي كتابه الجليل في اللغة : الحاوي أو الواعي وهو يشتمل على خمة وعشرين سفراً كما ذكره صاحب الديباج ، وذلك ما يدلنا على انتشار روح الثقافة ونفاق سوق العلم والعلماء بالمغرب .

ولا غرو فان المؤرخين اجمعوا على عناية هذه الدولة بشأن التعليم وانه كان بانواعه : الابتدائي والثانوي والعالي منتشراً في انحاء المملكة وكان اجبارياً في حين ان اوروبا لم تكن لتفكر في التعليم الاجباري الا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي،والتعليم عندهم كان يشمل الذكران والاناث وفيه من التعاليم الرياضية والحربية ما يشبه النظم العصرية بالمدارس الحكومية الرسمية اليوم .

قال صاحب الحلل الموشية . « وكان الخليفة عبد المؤمن باراً بمن انطوى اليه عارفاً بأقدار الناس مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم عالماً بمقادير العلماء ، ينزل الناس على قدر منازلهم وربي الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ –وهو

أعز ما يطلب لابن تومرت — وغير ذلك من تآليف المهدي/وكان يدخلهم كل يوم الجمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه/وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمي بالقوس ، ويوماً بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوماً يأخذهم بأن يجذفوا على قارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء وتارة بالأدب وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده وخيلهم وعددهم كذلك [1] .

(واصناف الصناعات والفنون والاعمال الهندسية والميكانيكية كانت معروفة لذلك العهد منتشرة رائجة ؛ فلقد كان بالمدينة الواحدة من انواع الحرف والصناعات ما يفوق الحصر ، ولنأخذ في ذلك مثالاً مدينة فاس، فانه كان بها (٣٠٦٤) معمــلاً للنسج و (٤٠٠) حجرة للكاغد في حين انه لم يكن مستعملاً بل ولا معروفاً يومئذ في العالم اجمع — ما عدا الصين — و(١٨٨)داراً لعمل الفخار و(١١٦) داراً للصباغة و (٨٦) للدبغ و (٤٧) لصناعة الصابون؛ و(داران) للسكة ، واحدة في كل عدوة و (١٢) معملاً لسبك الحديــد والنحاس و (١١) مصنعاً للزجاج و (١٣٥) فرناً للجير الخ.وكل هذه المعامل كانت خارج المدينة ، ولما اراد عبد المؤمن تفخيم مصحف عثمان (ض)جمع له الصناع والمتفننين ممن كان بحضرته وسائر بلاده القريبة والقصية من بلادالمغرب والاندلس،فاجتمع لديه حــذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والبنائين ، ولم يبق ممن يوصف ببراعة او ينسب الى الحذق في صناعة الاحضر [2] ويكفيك في الاستدلال على نهضة الصناعات في المغرب بهذا العصر، تلك المقصورة الميكانيكية العجيبة التي كانت بجامع المنصور في عاصمة المملكة مراكش ، فقد وضعت على حركات

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢٥ ط رباط الفتح ١٩٣٦ م .

(٢) راجع المعجب وكتاب المنوني طبع تيطوان ١٩٥٠ م .

هندسية محكمة غريبة ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله [1].

؛ واذا نظرنا الى مخلفات هذه الدولة وآثارها المعمارية وجدناها شاملة لكل انواع العمارة فهي ما بين منشآت عمومية؛ كالمساجد والمعاهد العلمية والمدارس والقناطر والمارستانات والثغور،وخصوصية كالقصور والحصون والمنازل واغلبها كان باقصى المغرب والاندلس،اما في الجزائر فانا لا نعلم عنها الا قصر«المشور» المنشأ بتلمسان سنة ٥٤٠ ﻫ - ١١٤٥ م وضريح الشيخ ابي مدين بالعباد العلوي من تلمسان بناه محمد الناصر بن المنصور (٥٩٥ - ٦١١ ﻫ) وتجديد بلدة « تاجرة » - مسقط رأس عبد المؤمن - وبناء المسجد الجامع بندرومة وتأسيس مدينة البطحاء المعروفة أيضاً باسم « السدرة » في نواحي شلف بالشمال الشرقي من غليزان سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م) وهي منعدمة اليوم ، ويقول بعضهم أنها هي مدينة ندرومة نفسها ؟.. وسور تلمسان الذي كان الشروع في انشائه سنة ٥٦٦ ﻫ = ١١٧٠ م على يد السيد موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وانهاؤه كان حدود سنة ٥٨١ ﻫ = ١١٨٥ م على يد ابي الحسن بن السيد ابي حفص بن عبد المؤمن ، وتجديد الرياض الرفيع والرياض البديع بمدينة بجاية على عهد واليها ابن الرفيع سليمان حفيد عبد المؤمن ، ونرى ابن خلدون ينوّه بأعمال الموحدين التي قاموا بها في تلمسان فيقول :« وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم الى تحصينها وتشييد أسوارها وحشد الناس الى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور وكان من اعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد ابو عمران موسى بن امير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين وخمسمائة على عهد ابيه يوسف بن عبد المؤمن واتصلت ايام ولايته فيها فشيد بناءها وأوسع خطتها وادار سياج الاسوار عليها ... ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع والصروح بها بالآجر

(١) انظر شرح مقصورة حازم ج ١ ص ٧١ طبع مصر ١٣٤٤ ﻫ والحلل الموشية ص ١١٩ ط رباط الفتح ١٩٣٦ م .

والقرميد تتعالى وتشاد الى ان نزلها آل زيان واتخذوهـا داراً لملكهم وكرسياً لسلطانهم [1] » .

فاسمع الى شاعر الجزائر في هـذا العصر ابي علي الحسن بن الفكون القسنطيني كيف يصف لنا مدينة الناصرية – بجاية – فيقول :

دع العراق وبغداد وشامها ... « فالناصرية » مـا ان مثلها بلد
بر وبحـر وموج للعيـون بـه ... مسارح بان عنهـا الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع ... حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصل والجنات مشرقة ... والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا ... حي الدار للفكر والابصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعـة ... او تنظر البحر فالامواج تطَّرد
يا طالباً وصفها انكنت ذا نصف ... قل جنة الخلد فيها الاهل والولد

« ويمتاز فن العمارة الاسلامي على عهد الموحدين بالضخامة والاناقة والاتزان الهندسي مع البساطة » وأغلب المهندسين والبنائين كان يؤتى بهم من الأندلس فقد نقل الدكتور غوستاف لوبون عن ابن السعيد ان اميري الموحدين يوسف ويعقوب المنصور أحضرا من الاندلس مهندسين لإنشاء جميع المباني التي أقاموها في مراكش والرباط والمنصورة [2] .

« ومن مبتكرات هذه الدولة بالمغرب ضبط مساحة المملكة وتكسيرها على الفراسخ والاميال وإجراء عملية الاحصاء العـام لسكان المملكة . وتحديد المناطق الصالحة للفلاحة ونقل المزارعين إليها ، وعلى وفق هذا النظام كان وضع الخراج وتقديره حسب مساحة البلاد ؛ كما ان افتتاح الرسائل والمناشير والرسوم بالحمدلة بدل البسملة هو أيضاً من آثارها . »

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٧ – ٧٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ
(٢) حضارة العرب ص ٦٤٧

واما النشاط الاقتصادي فانه عدا مـــا كانت تنتجه بلاد المغرب يومئذ وتصدره للخارج من الحبوب والصوف والحرير والشمع والورق – الكاغد – والخشب .

[1] فإننا نجد لدولة الموحدين علاقات اقتصادية مع الاجانب من دول اوروبا كفرنسا وايطاليا حيث عقدت معهم معاهدات تجارية في سنة ٥٢٨ ﻫ ١١٣٣م و ٥٤٨ ﻫ – ١١٥٣ م و ٥٥٥ ﻫ – ١١٦٠ م وأطلقت لهم الحرية في التجارة ببلادها وهذا من غير زراعة انواع الفواكه والازهــار المفتحة اليانعة التي لا يتعدى نفعها البلاد . /

ثراء بلاط الموحدين

لقد بلغت هذه الدولة من الثراء مبلغاً قلمـا بلغته دولة من دول المغرب الاسلامي في التاريخ ، فكانت الاموال تتدفق على الخزينة تدفقاً عجيباً حتى كانت الاموال تقدر عندهم بالاحمال والاثقال لا بالعد والاحصاء !.. فان خراج افريقية – أي أعمال تونس فقط – بلغ وقر مائة وخمسين بغلاً لكل سنة . عدا ولاية الجزائر واعمال تلمسان وبجاية والمغرب الاقصى والاندلس، إذ لم يكن ليمتنع عليهم منها درهم . وكان لهم من الذخائر والتحف النفيسة ما لم يكن مثله عند غيرهم من ملوك الارض ، ومن ذلك ما اشتهر لديهم من حجر الياقوت المسمى عندهم بالحافر – وذلك لبلوغـــه مقدار حجم حافر الفرس – وقد جعلوه فيما كللوا به مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، يقول عبد الواحد المراكشي في تقدير قيمة هذا الحجر : انه لا قيمة له !... وبلغ ثمن مبيع غلال بستان عبد المؤمن الخاص خارج مراكش لسنة ٥٤٣ ﻫ (١١٤٨ م) ثلاثين ألف دينار على رخص الثمار والفواكه يومئذ ؛ وان زيتون بحيرة مكناس فقط كان يباع بما يقدر بخمسة وثلاثين الف دينار في كل سنة الخ .. كما اشتهر ملوك هذه الدولة ايضاً بكثرة العطاء والمنح والصدقات، فلقد اعطى عبد المؤمن الشاعر أبي عبدالله التيفاشي على بيت واحد أنشده إياه

من قصيدة ألف دينار ، وذلك البيت هو قوله :

مـا هز عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

وان ولده يعقوب المنصور أجاز ابن منقذ بكل بيت من قصيدة مدحه بها ألف دينار، والقصيدة تحتوي على اربعين بيتاً ، ووصل القاضي الصقلي بتسعة عشر ألف دينار علاوة على ما منحه إياه من الخلع والمراكب والإقطاعات ، وأنفق في غزوة افريقية مائـــة وعشرين حملا ذهبـا ، وتكرم ابو يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن على هلال بن سعد في احدى المرات باثني عشر ألف دينار ، وأنفق ولده يعقوب يوم مبايعته بامارة المؤمنين مائة ألف دينار ذهباً أخرجها من بيت المال وفرقها على الضعفاء من بيوتات المغرب ، وتصدق قبل خروجه لغزوة الاراك الشهيرة بالاندلس بأربعين ألف دينار فجعل نصفها في الاقربين والبـــاقي للعامـة ، وذبح في يوم عيد الاضحى من سنة ٥٩٤ ﻫ (١١٩٨ م) سبعة آلاف وثلاثمائة شاة وزعت كلهـــا على الفقراء والجند والامراء ، فكل ذلك يدلنا على رفاهية بلاط دولة الموحدين وسعة ذات اليـــد . قال ابن خلدون : في ذكره المغرب على ذلك العهد « وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة »[١] .

انهيار الجزائر الموحدية

كان مبدأ تدهور الدولة الموحدية وأفول نجمها يوم وقعة العقاب بالاندلس سنة ٦٠٩ ﻫ (١٢١٢ م) حيث كانت الهزيمة الكبرى على المسلمين ومات فيها من أهل المغرب عدد لا يحصى ، ففنيت القبائل والجيوش بخيلهـــا ورجلها وحماتها وأقفرت البلاد ... ثم كانت بعد ذلك بينهم وبين بني مرين وقعة عام المشغلة سنة ٦١٣ ﻫ (١٢١٦ م) فخلت البلاد وقل الخراج وفقدت الأنصار فاضطربت الاحوال وتناقضت الاعمال واختلفت الكلمة ، فساءت سمعة الدولة وأذنت أيامها بالانصراف وأخذ يتقلص ظلها من البوادي والاطراف وانحصر الحكم في المدن والعواصم خاصة .

---

(١) المقدمة ص ط ١٧٩ بولاق ع ١٣٢ ﻫ .

فمن ذلك بلاد « بني وامانو » و « بني يلومي » بأحواز تلمسان فانها كانت تحت استبداد بني عبد الواد وطاعتهم حيث أقطعهم إياها أول مرة الموحدون جزاء مؤازرتهم لهم ضد خصمهم الداخلي من القبائل المنشقة ؛ ففي سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م) عقد الخليفة ابو العلاء ادريس المأمون على ولاية تلمسان لابي محمد جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد – مرت الاشارة الى ذلك – فاستبد بهما هذا ونازع بني عبد المؤمن فيها وأورثها بنيــه من بعده الى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ؛ فاستخلصها بنو عبد الواد لانفسهم واستقلوا بها وقطعوا عنها دعوة الموحدين ...

كما أن ولاية بجاية كانت مضافة الى أعمال تونس منذ سنة ٦٠٣هـ(١٢٠٧م) حيث ضمها الخليفة ادريس المأمون الى ولاية أبي محمد عبد الواد بن ابي حفص فلما توفي خلفه ابنه عبد الله ثم ابو زكرياء يحيى فاستمر هذا يعمل تحت طاعة الموحدين الى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) أي يوم ان اعلن ادريس المأمون رفض تعاليم المهدي ابن تومرت فانتقض عليه ابو زكرياء الحفصي واستبد بهذه الولاية مدعياً التمسك بمذهب الامام المهدي ؛ ويومئذ انتزع خليفة الموحدين أعمــال بجاية عن أبي زكرياء وجعلها لابي عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ؛ فأعلن ابو زكرياء حينئذ عداوته للموحدين وأوقد في وجوههم نار الحرب سنة٦٢٨هـ (١٢٣٠ م) وأغار على القطر الجزائري واستولى على اعمال قسنطينة وبجاية، ودعا فيهما لنفسه وأقام يومئذ دعوة الحفصيين بالجزائر وتونس واعتقــل أبا عمران والي بجاية فأوثقه بتونس ؛ وانتهز المنافسون من بني مرين – خصماء الموحدين بأقصى المغرب – هذه الفرصة فاستبدوا هم كذلــك ببواديهم منذ سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) فبذلك انقسم المغرب يومئذ الى أربع حكومات : حكومة بني عبد الواد بتلمسان وحكومة الحفصيين بقسنطينة وبجاية وتونس وحكومة بني مرين بأقصى المغرب وحكومــة الموحدين المحتضرة بمراكش .

ونجد في حديث لابن خلدون عن الايام الاخيرة التي بدأ فيها تصدع ملك الموحدين وانتثار عقد دولتهم ذكراً لآخر خلفائهم ابي الحسن عــلي السعيد ،

فتراه يحكي عنه انه « فاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأمرهم كيف اقتطع الامر عنهم شيئاً فشيئاً ، فابن أبي حفص اقتطع افريقيـة ، ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الاوسط فأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص واطمعوه في الحركة الى مراكش بظاهرتهم ، وابن هود اقتطع عدوة الاندلس وأقام فيها دعوة بني العباس ، وابن الاحمر بالجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص ، وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا الى تملك أمصاره »[1] ..

واخيراً كان سقوط عرش هذه الدولة بيد المرينيين حيث احتـل هؤلاء مراكش في شهر المحرم سنة ٦٦٨ هـ (اوط ١٢٦٩ م) واستقل الآخران بالجزائر وتونس ، وهكذا تغلب بنو مرين على عاصمة الموحدين بعد مطاولتهم ومحاربتهم ستين سنة فانقضى يومئذ عهد الموحدين وتقلص ظلهم عن هـــذا الشمال الافريقي والاندلس بعدما حكموا مدة قرن ونصف ، أمضوا منها نحو أربـــع وتسعين سنة بالجزائر . ومن أمعن النظر في أسباب سقوط دولة الموحدين هذه وجدها ترجع الى نقط جوهرية أربع : أولها الضعف الحاصل في القيادة العليا بسبب تواكل متأخري الامراء واهمالهم لشؤون الادارة مـع تفويض الامر الى من لا يستحقه كالوزير أبي سعيد بن جامع الذي كان عاجزاً عن الاضطلاع بشؤون الحكم فلم يحسن تدبيره؛ ثانياً اضطراب البلاد وتضعضع الموحدين حكومة وشعباً بسبب ما جرته عليهم ثورة بني غانية الميورقيين من الخسائر الفادحة ؛ ثالثاً تنافس الولاة والرؤساء وتزاحمهم على الرئاسة والتسامي على بعضهم بعضاً تكبراً وتعنتاً ، رابعاً هذا الانقسام الخطير الذي انحلت به عرى وحدة المغرب الاسلامي فتعددت به الحكومات والدول ، فكل ذلك كان عاملاً قوياً معواناً على تحطيم ملك الموحدين وانكسار شوكتهم فتقلص ظلهم وانقرضت دولتهم .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٢ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

كان من أشهر الشخصيات الجزائرية عبدالسلام بن محمد الكوميالندرومي الذي تولى الوزارة سنة ٥٥٣ ﻫ (١١٥٨ م) وكان لشدة قربـــه واتصاله بالخليفة عبد المؤمن يدعى « المقرب » مات قتيلاً سنة ٥٥٧ ﻫ (١١٦٢ م) ومن كتاب الدولة الجزائريين يومئذ ابو القاسم عبد الرحمن القالمي البجائي ، استكتبه عبد المؤمن بعد فتح بجايـة ، وابو الفضل جعفر بن احمد المعروف بابن محشرة البجائي كان كاتباً لابي يعقوب المنصور، ومن القضاة علي بنعيسى قاضي بجاية ثم بتلمسان وتولى اخوه طلحة كذلك على قضاء تلمسان، ومنولاة مدينة الجزائر ابو محمد عبد الله بن عبد المؤمن .

كانت بلاد الجزائر يومئذ منقسمة إلى ولايتين كبيرتين ، ولاية بجايـة إلى حدود عمالة قسنطينة ، وولاية تلمسان الممتدة من وادي ملويـة غرباً إلى نهر مينة شرقاً ، وأما أرض الزاب أو الجنوب الجزائري فانه كان ملحقاًفيالغالب بولاية تونس ، ولما فتح عبد المؤمن اعمال بجاية ولى عليهـا طلبة الموحدين الى سنة ٥٤٩ ﻫ (١١٥٤م) فاخذ في تولية ابنائه عليها ، ومنهم أبو محمد عبدالله الذي استوزر ابا سعيد يخلف بن الحسين ، واستكتب ابا العباس بن مضاءوفي سنة ٥٦١ ﻫ (١١٦٥م) عين الخليفة ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أخاه ابا زكرياء على ولاية بجايةوجعل له تفقد امر افريقية والنظر في مظالمها أيضاً فقمع به المناوئين والمحاربين ، ثم تولى بعده اخوه ابو موسى عيسى سنة٥٧٦ﻫ (١١٨٠م) ، ثم أبو الربيع بن عبد الله بـن عبد المؤمن إلى استيلاء بني ابن غانية الميورقيين عليها سنة ٥٨٠ ﻫ (١١٨٤م) فانتقل منها الى ولاية تلمسان

ولابي الربيع هذا ديوان شعر جمعه له كاتبه محمد بن عبد ربه ، وسمـــاه (نظم العقود) . ومن شعره قوله من قصيدة غزلية :

أقول لركب أدلجوا بسحـــيرة قفوا ساعة حتى ازور ركابهـــا
وأملأ عيني من محاسن وجههـــا وأشكو إليها إن أطالت غيابهـــا

فان هي جادت بالوصال وأنعمت   وإلا فحسبي ان رأيت قبابهـا

ثم نزل ابو زيد بن عمر بن عبد المؤمن على بجاية فاطرد منها بني ابن غانية واعادها الى الموحدين ، ثم استقدمه عمه المنصور إلى حضرته وولى مكانه اخاه السيد ابا عبد الله بن عمر ، وفي سنة ٥٨٤ ﻫ (١١٨٨م) عقد المنصور لاخيه ابي الحسن على بجاية فاقام بها الى ولاية الناصر فعزله عنها وولى مكانه ابن يغمور ، ثم عزل هذا بيحيي بن الأطاس التينملي ، وكان ممن تولى عمل بجاية ايضاً عبد الواحد بن منصور ومحمد بن أبي سعيد الجنفسي – بكسر الجيم والسين بينهما نون ساكنة – وآخر من تولى أعمال بجاية للموحدين السيد ابو عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ، ولاه عليها الخليفة ادريس المأمون سنة ٦٢٧ ﻫ (١٢٢٩م) فمكث بها سنة واحدة ثم وقعت بيد الحفصيين فذهبوا به الى تونس أسيراً .

وكان آخر أصحاب الأشغال بها ابو عبد الله اللحياني ابن الشيخ ابن ابي محمد عبد الواحد ابن ابي حفص فلما افتتحها أخوه أبو زكريا سنة ٦٢٨ ﻫ (١٢٣٠م صار في جملته .

وأول من تولى ولاية تلمسان سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي ،وقيل عمه يوسف ! وتولاها أيضاً ابو حفص عمر بن عبد المؤمن فاتخذ لوزارته محمد بن عبد الحق بن وانودين ؛ واستكتب ابا الحسن عبد المالك بن عياش ، وبقي ابو حفص على ولايته بتلمسان الى سنة الاخماس سنة ٥٥٥ ﻫ -(١١٦٠ م) فاستقدمه والده الى حضرته وولى مكانه ابا عمران موسى بن عبد المؤمن المتوفي بالطاعون الجارف بمراكش سنة ٥٧١ ﻫ (١١٧٥م) ، وتولاها ايضاً السيد ابو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ،ثم جعلت بعد انتقاله منها الى بجاية الى حفيد عبد المؤمن السيد ابي الربيع بن عبد الله ، وكانت وفاته هو وابو الحسن المتقدم الذكر في سنة واحدة اي ٦٠٤ ﻫ (١٢٠٧ م) فولى الناصر يومئذ ابا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فقتل في حرب بني ابن غانية على حصار تيهرت ٦٠٥ ﻫ (١٢٠٨م) ، فخلفه يومئذ محمد بن ابي زيد بن برجان ثم عزله المنتصر بابي سعيد بن المنصور .

ولما تولى ادريس المأمون الخلافة جعل ولاية تلمسان لاخيه ابي سعيد فأغراه عامله الحسن بن حبوس الكومي بقبيل بني عبد الواد ، فقبض على مشيختهم سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦م) فجاء ابن علان زعيم الجيش اللمتوني المقيم بتلمسان شفيعاً لدى ابي سعيد في اطلاق وثائق هؤلاء فرفض شفاعته ، فانقلب ابن علان يومئذ على الموحدين ونهض مع بني ابن غانية فقتل الحسن بن حبوس الكومي واعتقل ابا سعيد وفك اسر مشيخة بني عبد الواد ، ثم تناكر ابناء ابن غانية وبنو عبد الواد فتنافروا وقتل ابن علان ودخل بنو عبد الواد تلمسان بدعوة المأمون ، فكان على رأس مشيختها — في اواخر القرن السادس الهجري — ابو محمد عبدالحق بن معاد العبد الوادي ، وكانت له وقائع مشهورة في نصرة الموحدين ضد بني مرين ، ويومئذ خلصت ولاية تلمسان لهذا القبيل من بني عبد الواد ، فتولاها منهم جابر بن يوسف سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) وخلفه عليها ولده الحسن ، ثم تخلى عنها لعمه عثمان بن يوسف ثم تولاها ابو عزة زيدان بن زيان مدة ثلاث سنوات الى ان قتل سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م وبموته انقطع ذكر الموحدين من هذه الولاية .

وكان من ولاة الزاب وريغ وورارجلة وما وراءها من القفار ابو سعيد عثمان المعروف بابن عتو وقاعدته « مقرة » ثم كانت رئاسة هذه النواحي الى مشيخة العرب من رياح والدواودة فاقطعتهم الدولة بلاد الحضنة واختصت منهم ابناء الزعماء والبيوتات بالعواصم الجزائرية وحواضرها الشهيرة مثل المسيلة ونقاوس وطولقة وبسكرة الخ ... واشتهر من رؤساء مطغرة الشيخ خليفة ، واستمرت الرئاسة في عقبه الى ان بايع حفيده هارون بني مرين .

وكانت رئاسة « سدويكش » وهم بطن من كتامة وموطنهم بالسهول التي ما بين قسنطينة وبجاية لأولاد سواق الذين كانوا يسكنون اولاً بقلاع بني بوخصرة بنواحي قسنطينة — ومنها تنقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات وكان لهم بها جمع وقوة وعدد وعدة .

ويذكر ابن خلدون ان اولا سواق هؤلاء بطنان : اولاد علاوة بن سواق واولاد يوسف بن حمو بن سواق ، وكانت رئاسة قبائل سدويكش على عهد

الموحدين لأولاد عـلاوة ومنهم علي بن عـلاوة وبعده ولده طلحة بن علي ثم أخو طلحة يحيى بن علي ثم اخوهما منديل بن علي ، وعزل تازرين ابن اخيه طلحة .

وكانت رئاسة الجبل المطل على بلدة القل وجميع مـا بينه وبين قسنطينة لأولاد ثابت بن حسن بن ابي بكر من بني تليلان . ويقـال ان ابا بكر هذا هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل تقربا منه لخلفاء الموحدين ولم يكن قبل ذلك عليهم مغرم .

ولما استجد الملك للسلطان ابي العباس الحفصي بافريقية استولى على اولاد ثابت ومحا اثر مشيختهم ورئاستهم وصيرهم من عباد جنده وحاشيته واستعمل على الجبل عماله .

ومن مشاهير الاقطاعيين يومئذ المسمى ابو ناس بن عبـد الصمد فانه كان لصلاحه وتقواه رجلا محترماً لدى الحكومة فاقطعه الموحـدون ناحية بوادي شلف وخلفه عليها ابنه عبد الرحمن وهو والد الزعيم المغراوي المشهور منديل ابن عبد الرحمان المقتول صبراً في حروب ابن غانيـة سنة ٦٢٢هـ — ١٢٢٥ م فخلفه ولده العباس .

ولما تغلب بنو توجين على جبـــل وانشريس وضواحي المدينة اقتصر بنو منديل على مراكزهم الاولى بشلف وبسطوا نفوذهم على مدينـة مليانـة وتنس وبريشك وشرشال مقيمين فيها الدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة .

-

الخلفاء الموحدون

	تاريخ التولية
محمد المهدي بن عبد الله تومرت	٥١٥ هـ = ١١٢١ م
عبد المؤمن بن علي	٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م
ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن	٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م
يعقوب المنصور بن يوسف	٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م
محمدالناصر بن يعقوب	٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م
يوسف المنتصر بن محمد	٦١٠ هـ = ١٢١٣ م
عبد الواحد بن يعقوب المنصور	٦٢٠ هـ = ١٢٢٤ م
عبد الله العادل بن يعقوب المنصور	٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م
يحيى المعتصم بن الناصر	٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م
ادريس المأمون بن المنصور	٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م
عبد الواحد الرشيد بن ادريس	٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م

من مشاهير الجزائر

القاضي ابو الوليد

٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م

الفقيه المتضلع أبو الوليد يزيد بن أبي عبد الرحمن قاضي مدينة بسكرة ، هو من آل بقي بن مخلد بن يزيد الامويين القرطبيين ، تفقه المترجم على أبيه وجده أبي القاسم أحمد وأخذ عن ابن العربي وشريح بن محمد وابي القاسم بن رضا وجماعة ، وحدث عنه أبو القاسم أحمد قاضي قضاة المغرب وابو سليمان بن حوط الله وأبو يزيد الفزاري وغيرهم ، توفي رحمه الله وهو على قضاء عاصمة الزاب الجزائري — بسكرة — سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) .

أبو عمران الاشيري

٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م

الراوية الامام الحافظ موسى بن الحجاج بن أبي بكر الاشيري — نسبة الى مدينة آشير حاضرة صنهاجـــة بالجزائر ؛ سكن المترجم مدينة تدلس — دلس — من أعمال الجزائر ومنها خرج في طلب العلم الى الاندلس فدخل اشبيلية سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) فلقي بهـــا الامام ابن العربي وأبا الحسن شريح بن محمد وأبا بكر بن أبي طاهر ؛ ودخل قرطبة فأخذ بهـا عن ابي عبد الله بن أصبغ وأبي مروان بن ميسرة وغيرهما... وسمع مشكل بن قتيبة عن ابي عبد الله بن وضاح بالمرية سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) ، وأخذ عن أبي

محمد عبد الحق بن عطية ولازم ابن ابي الخصال وابا محمد النفزي المرسي وأبا الحجاج بن رشد القيسي وابا الوليد بن الدباغ وابا الحجاج بن يسعون ، وبعد ان استكمل معلوماته هنالك عاد الى وطنــه فنزل مدينة الجزائر وأم بها في صلاة الفريضة ونشر بها علمه ثم انتقل منها الى بلده دلس فأقام بها الى وفاته رحمه الله في صفر سنة ٥٨٩ ﻫ (فيفري ١١٩٣ م) .

محمد بن ابراهيم الاصولي

٦١٢ ﻫ - ١٢١٦ م

هو القاضي الفيلسوف الحكيم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهري البجائي المشتهر بالاصولي ، واشتهر بذلك لغلبة علم الاصلين عليه ، كان أوحد زمانه علماً وتفنناً في المعقول والمنقول وخاصة في علوم الحكمة والفلسفة ، أصله من بني مرزقان الاشبيليين ، سكن اسلافه مدينة بجاية فنشأ بهـا محمد لوذعياً عالماً ومتعلماً وتولى قضاءها مرتين ثم صرف عن القضاء للمرة الثالثة سنة٦٠٨ﻫ (١٢١١ م) فتولى مكانه ابو محمد بن الحجاج ، فخرج الشيخ يومئذ من بجاية متوجهاً الى المشرق ودخل مصر فطاف بمعالمها واتصل بأكابر علمائها ومحدثيها ودخل الاندلس مراراً وتولى قضاء مرسية وكان بينه وبين القاضي ابن رشد اخـــاء وصفاء ، واستخلف على قضاء مراكش ، وكان قوي الجأش شديد الشكيمة لا تأخذه فينصرة الحق لومة لائم فكان اذا حضر مجلس الخليفـة ابن عبد المؤمن وتقع المذاكرة بين يديه يسامحه الحاضرون من أهل العلم وكان المترجم لا يسامحه في شيء ، وكان أمير المؤمنين يجد منه في مجلسه ويعرف له مع ذلك فضلاً فلا ينقصه شيئاً من حقه . وكان عمدة علمـاء عصره في علوم الفلسفة وأوذي في سبيلها من طرف المنصور فكان ضمن من اضطهد في جماعة ابن رشد الذين اشتغلوا بالفلسفة من فضلاء الاندلس سنة ٥٩٣ ﻫ (١١٩٦ م) وكان رحمه الله المثـــل الاعلى بين اخوانه في الشجاعة الادبية والصبر على ما أوذي به في سبيل حريته الفكرية حتى المؤرخـين أجمعوا على انهم لم يروا

أصبر منه على خطب ولا اقوى جلداً على محنة !.. وكانت فيه دعابة وفكاهة لا تخل برتبته ولا تحط من منصبه ، وليس له من التآليف : سوى اصلاح كتاب المستصفى للغزالي : أزال مـا به من التحريف والتصحيف مع تقييد مفيد عليه ايضاً ؛ وقد سئل في التصنيف فامتنع وقال: قد سبق الناس بذلك وما عسى ان يأتي به ؟!.. قال الغريني : ورأيت بخطه رحمه الله تأليفاً في الموسيقى وقال لي بعض الطلبة انه من تصنيفه ، وما وثقت بذلك ويظهر لي انه كلام ابي علي ابن سينا . توفي رحمه الله ببجاية مـا بين العيدين سنة ٦١٣ هـ = ١٣١٦ م .

أبو عبد الله محمد الوهراني

٦٠١ هـ – ١٢٠٥ م

هو قاضي الجماعة ومثال الاناة والعدالة الاسلامية العلامة أبو عبد الله محمد ابن علي بن مروان بن جبـل الهمداني الوهراني ، نشأ بتلمسان واشتهر بها فضله وعلمه فولي قضاءها ، ثم نقل منها الى قضاء الجماعة بعاصمـة المملكة (مراكش) في مكان ابي جعفر بن مضاء ، فتولاها سنة ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م) ثم تولى قضاء اشبيلية الى سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥) فانصرف يومئذ عن القضاء ثم أعيد إليه بعد انصراف أبي القاسم بن بقي ، وكان رحمه الله عالمـاً مهاباً حميد السـيرة ضابطاً للاحكام متضلعـاً فيهـا سريع الفصل في النوازل الا في الحدود فانه كان متربصاً يتلوم كثيراً ، فلم يؤثر عنه أنه أقام حـد الجلد على أحد ، كانت وفاته ليلة الاحد ٩ جمادى الاولى ٦٠١هـ (٢ جانفيي١٢٠٥م).

محمد بن حسون الجزائري

٦٠٦ هـ – ١٢٠٩ م

هو ابو عبد الله محمد بن يخلف بن يوسف بن حسون ، من اهـل مدينة الجزائر ، أخذ علمه أولاً عن مشيخة بلده ثم ارتحـل الى الاندلس مستزيداً

فنزل اشبيلية منسلكاً في سلك طلبـــة معهد مسجد بني جران ، وكان من مشائخه فيها الامام أبو عبد الله محمد بن عبد الحق الاشبيلي - دفين بجاية - وأبو زكرياء يحيى بن ياسين المعروف بابن اللولو وابو اسحاق بن ملكون وابو بكر محمد بن عيسى البطليوسي وابو محمد بن موجوال ثم انتقل الى مدينة مالقة فلقي بها ابا زيد السهيلي وغيره من فطاحل علماء الأندلس ، ثم عادابن حسون الى بلده - الجزائر - فتوفي بها في العشر الاواخر من شهر صفر٦٠٦هـ - سبتمبر ١٢٠٩ م - .

محمد بن حماد الصنهاجي

٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م

العلامة المؤرخ والأديب المفلق ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى ابن ابي بكر الصنهاجي ، نشأ ببرج حمزة قرب البويرة - دائرة البيبان - من عمالة الجزائر ، اخذ العلم اولاً بقلعة بني حماد ثم على شيوخ بجاية امثال الشيخ أبي علي المسيلي والقاضي ابن جبـارة وابي مدين الاندلسي الاشبيلي - دفين تلمسان - وغيرهم ثم دخل مدينة الجزائر وتلمسان وغيرهمـا وضل يتنقل في عواصم المغرب الاسلامي طالباً للعلم فبلغ عدد مقروءاته ٢٢٢ مؤلفاً أخذها كلها بالسند الصحيح والتلقي مباشرة عن المشيخة ، فبرز رحمه الله في علوم اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ، وله مشاركة حسنة في فنون اخرى، ولاّه الموحدون قضاء المغرب والاندلس في عدة أماكن ، فانه كان على قضاء الجزائر الخضراء الى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ثم صرف عنها الى قضاء سلا الى وفاته سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وقد نيف على الثمانين سنة في عمره ، وله من التآليف كتاب في أخبـار ملوك بني عبيد - الفاطميين - طبع بالجزائر ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) ، وكتاب النبذ المحتاجة - أو الديباجة - في أخبار صنهاجة اعتمده كثيراً ابن خلدون في تدوين تاريخ هذا القبيل وانتفع بـــه كثير من المستشرقين فنشر منه نبذة المستشرق ليفي بروفانصال في كتابه « نبذ تاريخية في أخبار البربر » المطبوع برباط الفتح ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) ؛

وعماري في المكتبة الصقلية ، وشربونوا في المجلة الاسيوية (١٨٥٢ ـ ١٨٥٥م) وكتاب عجالة المودع وعلالة المشيع في الأدب والشعر ، وكتاب لخص بـه تاريخ ابن جرير الطبري ، وشرح لمقصورة ابن دريـــد ، وكتاب الأعلام بفوائد الاحكام لعبد الحق الاشبيلي ، وشرح لاربعين حديثاً الخ ؛ ومن شعره قوله في رثاء قلعة بني حماد بعدما قضى الموحدون عليها سنة٥٤٧ هـ(١١٥٢م).

ان« العروسين »[1] لا رسم ولا طلل　　فانظر تر ليس إلا السهل والجبـل
وقصر« بلارة »[2] أودى الزمان به　　فأين ما شاد منهـــا السادة الأول
قصر الخلافة أين القصر من خرب　　غير اللجين وفي أرحابها زحل
وليس يبهجني شيء أسر بـــه　　من بعد ان نهجت بالمنهج السبل
وما روى الكوكب العلوي معتلم　　وقد عرى الكوكب التغيير والبدل
وقد عفى « قصر حماد » فليس له　　رسم ولا أثر باق ولا طلـــل
ومجلس القوم مذهب الزمان به　　فحادث قل فيه الحادث الجلل
وان في القصر ـ قصر الملك ـ معتبراً　　لمن تغرره الأيــام والدول
وما رسوم « المنار » الآن ماثلة　　لكنها خبر يجري بها المثـــل
حتى المصلى بلت آياتهـا وعفت　　إلا جداراً وما طلت به الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة　　فما تراه كذاك العمر والاجـل

ومن قوله في قصر المنار بعد أبيات :

وانظر طيقان « المنار » مطلة　　على الوجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقات بأفقـــه　　نجوم تبدت في سعود المنـازل

ويقول فيه ايضاً من أبيات يصف بها روضة :

وقد قـام « المنار » على ذراها　　كما قـــام العروس أو الامير
بنـاء يزدري ايوان كسرى　　لديـه والخورنق والســدير

(١) مما أنشأه الناصر بن علناس من قصور القلعة
(٢) هي بلارة بنت تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي تزوجهـا الناصر بن علناس سنة٤٧٠ هجرية ١٠٧٧ ميلادية

جدول تاريخي

٥٢٤ – ٦٣٣ هـ (١١٣٠ – ١٢٣٥ م)

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٥٢٤ هـ = ١١٣٠م	مبايعة عبد المؤمن بالخلافة .
٥٣٩ هـ = ١١٤٥م	الاستيلاء على ولاية تلمسان وخروج المرابطين منها
٥٤٤ هـ = ١١٤٩م	سقوط مدينة مليانة بيد الموحدين .
٥٤٧ هـ = ١١٥٣م	القضاء على الدولة الحمادية وفيها كان الاستيلاء على ولاية الجزائر وبجاية .
٥٤٨ هـ = ١١٥٣م	انهزام الاعراب بوقعة سطيف واقطاع متيجة للثعالبة .
٥٥١ هـ = ١١٥٦م	الاستيلاء على بونة ـ عنابة ـ وطرد النورمان منها
٥٥٥ هـ = ١١٦٠م	ضبط مساحة الشمال الافريقي وتكسيرها على الفراسخ والاميال .
٥٥٨ هـ = ١١٦٣م	وفاة عبد المؤمن وولاية ولده أبي يعقوب يوسف .
٥٨٠ هـ = ١١٨٤م	ظهور بني ابن غانية الميورقيين ببجاية واستيلاؤهم عليها .
٥٨٦ هـ = ١١٩٠م	استنجاد الدولة الايوبية باسطول الموحدين .
٥٩٩ هـ = ١٢٠٢م	استيلاء يحيى بن غانية على بجاية ثانياً .
٦٠١ هـ = ١٢٠٤م	انتزاع ولاية بجاية من يد يحيى بن غانية .
٦٠٣ هـ = ١٢٠٧م	تولية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص على ولايتي بجاية وتونس .
٦٠٦ هـ = ١٢٠٩م	خيبة يحيى الميورقي في ثورته الثانية بنواحي تيهرت .
٦١٨ هـ = ١٢٢١م	محاربة والي افريقية الحفصي لابن غانية وفراره الى

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الاحداث
	الزاب ثم الجزائر .
٦٢٥ هـ = ١٢٢٨م	قيام أبي زكريا يحيى بمحاربة ابن غانية وطرده من القطر الجزائري .
٦٢٧ هـ = ١٢٢٩م	استبداد الحفصيين بولاية تونس وبجاية .
٦٣٣ هـ = ١٢٣٥م	استبداد بني عبد الواد بولاية تلمسان .

محتويات الكتاب

مطابع بيبلوس الحديثة

فرن الشباك – شارع مار نهرا

تلفون : ٢٨٤٥٢٩